

النورسي والموقف من الحضارة الغربية

د / محمد زرمان

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

جامعة باتنة-الجزائر

مقدمة

إن أبرز ما ميز المرحلة التاريخية التي عاشها النورسي تعاضم النفوذ الأوروبي، وإحكامه السيطرة التامة على العالم الإسلامي، وبروزه كقوة هائلة تمتلك العلم والمال والسلاح والتقدم والحرية، وتقدم للعالم أجمع نموذجا حضاريا راقيا، يحترم الإنسان، ويسعى إلى سعادته ورفاهيته، ويمجد العقل، ويقدم العمل، ويحفظ الحقوق، ويمحي البشرية بمستقبل زاهر في ظل مبادئه وقيمه. وقد عاش هذه المرحلة بكل ملاساتها، وشاهد اندفاع الفئات الإسلامية المتغربة نحو أنوار الحضارة الأوروبية البراقة، ورأى عن كثب كيف غزت هذه الحضارة بلاده، وقدمت نفسها بديلا عن النموذج الإسلامي السائد، وأدرك بثاقب بصره أنها شكلت أكبر تحد واجه العالم الإسلامي في العصر الحديث، لأنها هدته في عمر داره، وفرضت عليه منظومتها القيمية.

فكان طبيعيا أن يهتم النورسي بهذا التحدي، وأن يفرد له حيزا في رسائل النور التي كانت مشروعا حضاريا ضخما لإعادة صياغة الإنسان المسلم الحديث، وتأهيله لممارسة دوره في الحياة انطلاقا من القاعدة القرآنية الصلبة التي تضمن له الركائز القوية التي يستند إليها .

ولا نعدو الحقيقة إذا قلنا أن بديع الزمان سعيد النورسي كان واحدا من المحددين المسلمين القلائل الذين لم ينبهوا بريق الحضارة الغربية، ولم يجرفهم تيار التوفيق بينها وبين مبادئ الإسلام، بل درسها دراسة واعية عميقة، ونظر إليها نظرة نقدية محصنة، ووقف منها موقفا أصيلا انطلاقا من تصورات قرآنية بحتة، حيث اتخذ من آيات الكتاب الحكيم ميزانا عادلا وزن فيه هذه الحضارة، فتكشفت له حقيقتها، وظهرت له مزاياها وعيوبها جلية واضحة .

وتطمح هذه المساهمة المتواضعة إلى محاولة استجلاء موقف النورسي النقدي من الحضارة الغربية من خلال تحديد السياق التاريخي والحضاري الذي عولجت فيه هذه القضية، وبيان الأسس والمنطلقات المادية والإلحادية التي تأسست عليها الحضارة الغربية، وتحليل ظاهرة الانقسام بين الدين والعلم وما ترتب عن ذلك من مضاعفات وأزمات، ورصد مظاهر الأزمة التي تعصف بالحضارة الغربية وتنذر بتدهورها وهيارها، والبحث في الحلول التي طرحها النورسي، والتي دعا من خلالها إلى إيجاد تعاون وثيق بين المسيحية والإسلام كمرحلة أولى، مما يشجع حركة الحوار الديني والحضاري، ويفتح الباب على مصراعيه - في مرحلة تالية - أمام الإنسانية لتلج عالم السعادة من باب القرآن الذي هو أساس الحضارة الحقّة الصحيحة.

أولا : النورسي وصدمة الحضارة

كانت الفترة التاريخية التي عاشها النورسي - والتي تمتد من نهاية القرن التاسع عشر وطيلة النصف الأول من القرن العشرين الميلادي - مرحلة حاسمة من مراحل تاريخ الأمة الإسلامية، استفحلت خلالها أمراض العالم الإسلامي، واهارت قواه تحت ثقل قرون الانحطاط والتخلف، ثم كان اختراق القوى الأوروبية المتعاضمة له هي القطرة التي أفاضت الكأس، حيث بدا - بعد احتكاك الطرفين ببعضهما - الفرق الحضاري الشاسع الذي يفصل بين العالمين، وظهر الاختلال واضحا في موازين القوى، فخضعت البلدان الإسلامية قهرا للقوة الغربية، وتدفقت تيارات حضارتها معها، تغزو المجتمعات الإسلامية، وتسيطر على مجالات الحياة المختلفة، وتزاحم أسلوب الحياة الإسلامية وتحصره، وتصمه بالعجز والقصور، وتستقطب العقول والقلوب ببهرجها وبريقها، وتسعى جاهدة لتكون البديل الذي يخلف الإسلام ويستوعب شعوبه، ويمحو آثار حضارته، ويوطد بدلها دعائم الحضارة الغربية في أرجاء العالم الإسلامي المترامي الأطراف .

لقد كان اصطدام العالم الإسلامي بالحضارة الأوروبية بكل عنفوانها وقوتها وأطماعها لحظة احتكاك تاريخية انتشت فيها أوروبا، وشعرت فيها بعظمتها وجبروتها، واهتز لها المسلمون هزة عنيفة زلزلت كيانهم، وخلخلت ثقتهم بأنفسهم، وصدمتهم صدمة صاعقة جعلتهم يدورون حول أنفسهم ولا يعرفون فوق أي أرض يقفون : " فإنسان أوروبا قام - دونما قصد - بدور (الديناميت) الذي نسف معسكر الصمت، والتأمل، والأحلام.

وبذلك شعر إنسان ما بعد الموحدين ... بجزة انتفض بعدها مستيقظا، ليجد نفسه في إطار حديد لم تصنعه يده "1، وبذلك دخل الغرب كبعد أساسي في الحياة الإسلامية والفكر الإسلامي .

وقد عايش النورسي السنوات الأخيرة للإمبراطورية العثمانية التي كانت تترنح تحت ضربات القوى الاستعمارية، وتعرض للمؤامرات المتتالية لتمزيق أوصالها وتقسيم أطرافها، وتشهد غزوا حضاريا منظما. ورأى عن كثب منجزات الحضارة الغربية تغد على بلاده، ونال حظا لا بأس به من العلوم الحديثة، وأتاحت له رحلاته واحتكاكه بشخصيات المجتمع السياسية والثقافية أن يقف على مدى تأثير هذه الحضارة في المسلمين، ثم تعمقت تجربته واغتنت بما تمخضت عنه الأحداث التي شهدتها العالم الإسلامي أثناء الحرب العالمية الأولى، وبعد سقوط الخلافة، وما نجم عن ذلك كله من أهوال وتغيرات عصفت بالأمة، واستباححت حرمانها، وأوردتها المهالك.

واختم كل ذلك في ذهن النورسي، وانقدح بزناد فكره، وعرضه على ميزان إيمانه، ورصيده من العلم، فتكون من حصيلته موقفه من الحضارة الغربية الذي أوضحه بجلاء في رسائل النور، وعبر عنه تعبيرا واضحا لا لبس فيه، ودعمه بالبراهين العقلية، والأدلة الواقعية، والحوادث التاريخية، واستشرف من خلاله المستقبل استشراف مؤمن موقن، وحدد العلل والأمراض، ووصف الدواء والعلاج، منطلقا في ذلك كله من القرآن الكريم وحي الله الصادق، وكلمته الأخيرة إلى البشرية، وهذا ما يفسر عدم انبهاره بمظاهر هذه الحضارة، وقدرته على الاحتفاظ بتوازنه الروحي والعقلي تجاه منجزاتها التي جرفت أعدادا كبيرة من المسلمين، وأعمتهم عن النظر السديد والرؤية الواضحة، وأوقعتهم في مأزق فكرية وحرفتهم نحو أساليب عقيمة في الاقتباس والتقليد لا يزالون إلى يومنا هذا يعيشون آثارها الوخيمة ونتائجها المرة .

وأول ما يلفت أنظارنا - ونحن نستجلي موقف النورسي من الحضارة الغربية - أنه استطاع أن يستوعب نشأتها وتطورها، وأن يتبين أصولها وأهدافها، الأمر الذي أتاح له متسعا من الحرية الفكرية التي مكنته من تحجيم هذه الحضارة، ووضعها في حيزها الحقيقي، وتسليط نظرات النقد البناء عليها دون تحيز أو افتراء، ونجح بذلك في احتواء الصدمة وتجاوزها . وقد بدا ذلك واضحا في الحقيقة المهمة التي انطلق منها، والتي تنبه

إليها في وقت مبكر وهي أنه ليس من العدل رفض هذه الحضارة رفضاً مطلقاً ولا قبولها قبولاً تاماً، لأن التطرف في كلتا الحالتين مضر، وقد اختار ببصيرته النافذة وعقله المحصن موقفاً وسطاً أكد من خلاله أن المدنية الحاضرة - كما يصفها في رسائل النور - ليست خيراً محضاً ولا شراً محضاً، وهو ما عبر عنه بقوله: " إن أوروبا اثنتان: إحداهما هي أوروبا النافعة للبشرية بما استفاضت من النصرانية الحقة، وأدت خدمات حياة الإنسان الاجتماعية بما توصلت إليه من صناعات وعلوم تخدم العدل والإنصاف... وأوروبا الثانية تلك التي تعفنت بظلمات الفلسفة الطبيعية، وفسدت بالمادية الجاسية، وحسبت سيئات الحضارة حسناً لها، وتوهمت مساوئها فضائل، فسأقت البشرية إلى السفاهة وأردتها الضلالة والتعاسة"².

وأبرز ما يشد انتباهنا في هذا النص الربط الوثيق الذي يعقده النورسي بين الحضارة والدين، فالجانب المضيء من الحضارة الغربية إنما استفاض من النصرانية الحقة، أي من ذلك البصيص الخافت من الوحي الرباني الذي بقي عالقاً بالمسيحية، والذي زرع في الإنسان حب المعرفة، وحب البشر، والسعي نحو التقدم، والبحث عن الأفضل، وأيقظ فيه فطرة السعي في مناكب الأرض، وتسخير المخلوقات والكائنات لفائدة بني البشر. وعليه، فإن حسنة الحضارة - في رأي النورسي - هي ثمرة من ثمرات النصرانية الحقة التي حافظت على كلمة الله، والتزمت أصول الأديان فانبتت عنها الحضارة الغربية الحديثة، وهو بذلك يستبعد المسيحية المحرفة التي استغلت الإنسان، وحاربت العلم، وكانت سبباً في ثورة الأوروبيين على الدين وإقصائه من الحياة في عصر النهضة.

وقد أيدت الدراسات اللاحقة هذا الرأي الصائب وأكدته، حينما أثبت الباحثون في تاريخ الفكر الأوروبي أن الحضارة الغربية لم تكن من ثمرات اللائكية كما يتصور ذلك من يجهل تاريخ الفكر الغربي، بل هي حركة هامشية ومتأخرة، وإنما أصلها الأول هو التفكير اللاهوتي المسيحي: " فكبار الفلاسفة من أمثال ديكارت ولايبنتس وباسكال ونيوتن لم يكونوا من دعاة اللائكية لا في الممارسة النظرية ولا في الممارسة العملية. بل إن البعض منهم كانوا من ذوي المشروعات الإصلاحية في مجالي المسائل الدينية كـ (لايبنتس) أو التعليم الفلسفي الديني كـ (نيوتن) هذا فضلاً عن كون جيل الفلاسفة

الألمان وكل كبارهم في القرنين التاليين كانوا في الأصل من رجال الدين تكويننا إن لم يكن حرفة وسلوكا".

وتوصل كثير منهم إلى أن الفكرة الدينية كانت دائما هي المحرك الأساسي الذي حفز الإنسان إلى الإعمار³، وذهب أرنولد توينبي إلى أن الحضارة الغربية - على الرغم من الطابع المادي العقلاني الذي يطغى عليها - تعود في أصولها الأولى التي انطلقت منها وبنيت عليها أركانها إلى المسيحية، ويربطها ربطا محكما بالكنيسة الكاثوليكية، ويقرر أنها الحضارة الوحيدة القادرة على المحافظة على الشرارة الإلهية الخالقة⁴.

وهو المذهب الذي يتبناه المفكر مالك بن نبي - الذي يلتقي مع النورسي في كثير من الآراء حول الحضارة الغربية في جانبها السلبي والإيجابي - حيث اعتبر أن الفكرة الدينية متمثلة في ذلك التصور الذي يحمله الإنسان عن حقيقة الوجود والكون هي أساس كل الجهود الحضارية التي يبذلها لإعمار الأرض، وأساس كل التغيرات الإنسانية الكبرى لكونها القاعدة الحقيقية للبناء الفكري للحضارة، والدافع القوي الذي يضفي على الإنجازات الفاعلية والتقدم، وهو ما عبر عنه بقوله: "فالحضارة لا تظهر في أمة من الأمم إلا في صورة وحي يهبط من السماء ويكون للناس شرعة ومنهاجا ... فكأنما قدر للإنسان ألا تشرق عليه شمس الحضارة إلا حيث يمتد نظره إلى ما وراء حياته الأرضية"⁵.

ويصر النورسي في مواضع كثيرة على ربط الدين بالحضارة واعتباره أساسا مهما من أسسها، وهذه قاعدة مهمة من قواعد فكر النورسي، ومرتكزا قويا من مرتكزاته. وحين يتحدث عن محاسن الحضارة الغربية يشير إلى أن هذه الحضارة قد تدرجت في سلم التقدم العلمي، وترقت في مجالات المعرفة حتى بلغت درجة لم تخطر ببال الإنسانية في القرون الغابرة بما أخرجت للوجود من صناعات متطورة، وسلع وفيرة، ومواصلات سريعة، وعلوم نافعة، واختراعات مدهشة، وهي كلها نعم ربانية تستحق الشكر لأنها جاءت نتيجة لكرد الإنسان وسعيه الذي باركه الله، وجعله جزء من وظيفته الاستخلافية في الأرض: "إن ما أنجزته هذه المدينة الحاضرة من حوارق في ساحة العلم نعم ربانية تستدعي شكرا خالصا من الإنسان على ما أنعم عليه، وتقتضي منه كذلك استخداما ملائما لها لفائدة البشرية ومنفعتهم"⁶.

وهذه المنجزات المفيدة في جملتها هي - في نظر النورسي - صورة بديعة للجهد الإنساني المبارك، ومرآة عاكسة لفضيلة الإنسان السليمة التي تتفاعل مع الكون، وتتجاوز مع قوانينه، وتساير منهج الله الذي يدعو للتفكير، ويثمن العمل، ويسعى دائما نحو الأفضل. لذلك اعتبر محاسن المدنية الغربية لا تعدو أن تكون وجهاً آخر لوحي الله الذي صاحب الإنسانية عبر مواكب الأنبياء، مؤكداً مرة أخرى على العلاقة الوثيقة بين الحضارة والدين: " إن الأمور التي تسمى بمحاسن المدنية ما هي إلا مسائل شرعية حولت إلى شكل آخر"⁷

وبالإضافة إلى الأثر النصراني الإيجابي الذي كان الموجه الأساسي للحضارة الغربية باتجاه قطاعات الحياة الأساسية، هناك الأثر الإسلامي الذي تسرب إلى أوروبا خلال قرون طويلة عبر الأندلس وصقلية وسواحل الشام، والذي أسهم بقسط وافر في التمهيد للنهضة الأوروبية ومدّها بالزاد العلمي الضروري الذي انطلقت منه لتبني عليه معارف جديدة، وتستخلص منه آفاقاً علمية أرحب، وهذا ما يجعل الحضارة الغربية في جانبها العلمي والتقني تراثاً إنسانياً مشاعاً، وثمرتاً من ثمرات التراكم المعرفي للخبرة الإنسانية عبر العصور، ونتيجة لتضافر جهود البشرية: " مما ينبغي ألا ننكر أن في المدنية محاسن كثيرة إلا أنها ليست من صنع هذا العصر بل هي نتاج العالم وملك الجميع، إذ نشأت بتلاحق الأفكار وتلاقحها، وحث الشرائع السماوية ولا سيما الشريعة المحمدية، وحاجة الفطرة البشرية، فهي بضاعة نشأت من الانقلاب الذي أحدثه الإسلام لذا لا يملكها أحد من الناس"⁸.

ويرد دعوى أوروبا التي تتبجح بنسبة كل الفضائل إليها ويشبهها بقارون الذي أعماه الغرور فنسي ربه، وحسب أنه قد حاز الدنيا وما فيها بعلمه وجهده: " إن الحضارة الأوروبية المؤسسة على أسس فاسدة، والتي تدعي أن كل ما أتاها هو من عندها كادعاء قارون (إنما أوتيته على علم عندي) (القصص، 78) لا تشكر ربها الذي أحسن إليها بفضله وكرمه تعالى"⁹.

لذلك لم يعاد النورسي منجزات الحضارة الغربية العلمية والمادية كما فعل بعض المسلمين، واعتبرها مرحلة طبيعية من مراحل تطور الإنسانية، وأكد أن القرآن الكريم قد ضمت آياته إشارة خفية إلى التقدم العلمي الهائل الذي سوف تبلغه البشرية في قرون

لاحقة، وأن ما نعيشه اليوم هو جزء مما أوماً إليه القرآن، وسنرى في عصور قادمة ما هو أعجب : " إن القرآن العظيم حكيم، يعطي لكل شيء قدره من المقام. ويرى القرآن من ثمرات الغيب التقدم الحضاري البشري قبل ألف وثلاثمائة سنة المستترة في ظلمات المستقبل أفضل وأوضح مما نراها نحن وسراها" ¹⁰ .

بل انه يذهب إلى أبعد من ذلك ويقرر في إشارة لطيفة ومثيرة للإعجاب أن معجزات الأنبياء التي ذكرها القرآن الكريم تعبر في وجه من وجوها عما يمكن أن يصل إليه الإنسان من تقدم علمي إن هو جند طاقاته العقلية في سبيل سعادة البشر وخير الإنسانية: " إن القرآن بذكره معجزات الأنبياء إنما يدل البشرية على أن نظائر تلك المعجزات سوف تتحقق في المستقبل بالترقي، ويحث الإنسان على ذلك وكأنه يقول له : هيا اعمل واسع لتنجز أمثال هذه المعجزات، فاقطع مثلاً مسافة شهرين في يوم واحد كما قطعها سليمان عليه السلام، واعملى مداواة أشد الأمراض المستعصية كما داواها عيسى عليه السلام، واستخرج الماء الباعث على الحياة من الصخر وأنقذ البشرية من العطش كما فعله موسى عليه السلام بعصاه، واجتث عن المواد التي تقيك شر الحرق بالنار والبسها كما لبسها إبراهيم عليه السلام، والتقط أبعد الأصوات وسمعها وشاهد الصور من أقصى المشرق والمغرب" ¹¹ .

وقد أبدى كثيراً من الاستغراب والتعجب حينما أهدى المحاكم التي مثل أمامها بمعارضة الرقي البشري والتقدم الحضاري مستندة إلى ما صدر عنه في بعض رسائله من انتقاد لسيئات الحضارة الغربية، وقد رد هذه الفكرة الخاطئة بشدة، ووضح وجه الحق فيها بقوله : " وفي رسالة أخرى انتقدت سيئات المدنية الحاضرة وبينت نواقصها فأسند إلي في أوراق التحقيق شيء لم يخطر ببالي قط، وهو إظهارى بمظهر من يرفض استعمال الراديو وركوب القطار والطائرة، وأكون مسؤولاً عن كوني معارضا للرقي الحضاري الحاضر" ¹² .

وأكد في غير ما موضع أنه يشجع ويدعم اتجاه المسلمين نحو اقتباس علوم الحضارة الغربية التي تكتسب بالجد والاجتهاد، وتوجه لخدمة المجتمعات الإسلامية وتخليصها من رواسب قرون الجهل والتخلف، وترفع عن شعوبها قيد التبعية والاستلاب، مع الحرص الشديد على المحافظة على الكيان الديني والثقافي للأمة سليماً معافى بناء على قاعدة " خذ

ما صفا، دع ما كدر " : " وفي ضوئها سنأخذ من الأجانب - مشكورين - كل ما يعين الرقي المدني من علوم وصناعات ... فنحن لو أخذنا منهم المدنية - بسوء حظنا وسوء اختيارنا - بما يوافق الهوى كالأطفال تاركين محاسنها التي تحتاج إلى بذل الجهد للحصول عليها، نكون موضع سخرية ...¹³.

وبذلك يفرق النورسي بين نوعين من الاقتباس : اقتباس العلوم الطبيعية التي تنهض بمقدرات المجتمع الاقتصادية، وتمكنه من استغلال ثرواته البشرية والمادية وفق أحدث الأساليب بما يعود عليه بالرخاء والازدهار، ويحقق لأفراده مستوى جيدا من المعيشة يجنبه استجداء الآخرين والخضوع لهم وهو السبيل الذي يشجعه ويدعو إليه في حرارة وقوة ليعود به للمسلمين عزهم ومجدهم، واقتباس الجوانب الثقافية والعقائدية التي تعد من أخص خصائص الأمة بحيث يكون التحلي عنها واستبدالها بغيرها ضربة قاصمة لها، تهدم بنائها وتقطع صلتها بماضيها، وتجعل منها أمة ضائعة هجينة لا خيار لها سوى التبعية العمياء، والاستلاب الكامل الذي يضعها في ذيل قافلة البشرية مهينة ذليلة، وهو الأسلوب الذي يرفضه رفضا باتا ويحذر من مغبة الانقياد له، والسير فيه. وهو بذلك يؤسس للنقد الموضوعي للحضارة الغربية، ويدعو للتعامل الحذر مع كل ما يرد إلينا منها، حتى لا نخرم أنفسنا من حسناتها، ولا يدفعنا الانبهار بها إلى الذوبان فيها كما كان الحال مع دعاة التغريب والحداثة والعصرنة .

ثانيا : الحضارة الغربية وطغيان النزعة المادية :

وفي إطار هذا الموقف النقدي الذي يتسم بكثير من الوسطية والاعتزان والتبصر في تعداد حسنات الحضارة الغربية يُشَرِّحُ النورسي الجانب المظلم من الحضارة الغربية، ويكشف عن مساوئه، ويرصد آثاره الوخيمة على الأخلاق والأسرة والمجتمع والسياسة والاقتصاد والعلاقات الدولية، والذي تمثله أوروبا الثانية التي أدارت ظهرها للأديان، وتكررت للفطرة، وتبنت الفلسفة الإلحادية المادية، ومنها انبثقت جميع مصائب العالم، وعنهما صدرت الانحرافات الفظيعة التي جعلت من الحضارة الغربية نموذجا لكل الشرور : " لسلوكها طريقا مناقضا لأسس دساتير السماء، وقيامها بمناهضتها فقد طفح كيل سيئاتها على حسناتها، وثقلت كفة أضرارها على فوائدها "¹⁴.

ويعتبر النورسي أن الأساس المادي الفلسفي الذي استندت إليه الحضارة الغربية هو أخطر ما فيها، لأنها صادمت به سنن الله في الكون، وعاكست توجه الطبيعة الإنسانية. فبعد أن نبتت في أحضان المسيحية انخرقت انحرافا كبيرا عن الدين بسبب قصور هذا الدين عن مدها بأسباب النمو والتقدم. وتفسير ذلك أن الفكرة الدينية التي نشأت الحضارة في أحضانها إذا كانت فاسدة غير مبنية على أساس متين من اتصالها بالوحي السماوي الذي يحمل في ذاته عوامل البقاء والقدرة على شحن النفس الإنسانية بأسباب التقدم المادي والترقي الروحي معا، تفقد هذه الفكرة القدرة على التأثير، وتتوقف عن إمداد الإنسان بالزاد النفسي لمواصلة المسيرة في توازن، وتنسحب - من ثم - من الحياة، وتنكمش في زاوية ضيقة من زوايا اهتمام الإنسان، مما يؤدي إلى تضخم الجانب المادي على حسابها، وهذا ما حصل للحضارة الغربية.

فعندما اصطدمت بوادر النهضة بالكنيسة التي حاربت العلم، وأعدمت العلماء، وشلت العقل، وهاجمت الاختراعات، لفظها الإنسان الأوروبي بعنف وأقصاها من حياته، وانطلق يبني حضارته الفتية بعيدا عن الدين الذي رأى فيه قيودا متحجرة تحكم على الإنسان بالجمود والتبلد، واستبدل الوحي الإلهي بالعقل الإنساني، واستوحى من الفلسفة اليونانية والحضارة الرومانية البائدة أسسا لنهضته فكان طبيعيا أن تصطبغ الحضارة الغربية بالمادية الجاسية، والتقدس المبالغ فيه للفرد وعقله وحرته، وكأن الإنسان حل محل الإله وأصبح محور الحركة الحضارية والمركز الذي تصدر عنه. وقد أشار النورسي إلى أن جميع مظاهر الانحراف في الحضارة الغربية إنما مصدرها دهاء اليونان وروما اللذان استلهم منهما الإنسان الأوروبي فلسفته في الحياة بعد أن قطع صلته بالدين .

فالحضارة اليونانية تتميز بالرفع من شأن العقل، وطغيان النزعة العلمية والمادية على فلسفتها، وغلبة النزعات الإلحادية في تفسير الوجود عليها، واعتمادها على الإنسان كمركز للوجود، ومنبع للمعرفة سواء في أبعاده الجسمية أو العقلية وحتى الدينية¹⁵ ، وقد كان لذلك كله أثره في الحضارة الغربية المعاصرة، أما الحضارة الرومانية فقد تميزت بالكفاءة العالية في الجوانب التطبيقية العملية كالفكر القانوني الذي لا يزال إلى يومنا هذا مرجعا للأمم الحديثة في تنظيم شؤونها، والجانب العمراني وغيره بالإضافة إلى الروح

الاستعمارية، والصبغة الوثنية في الجانب الديني¹⁶، والتلذذ بمشاهد الصراع ومناظر القتل والفتك، والإغراق في المتع الحسية، وهو ما تجلّى بوضوح في السلوك الجنسي في الغرب وما طبعه من انحراف وإباحية، وفي السلوك الإنساني من حروب ونزعة استعمارية .

وقد تمخض هذا الدهاء الممزوج بكل شهوات الإنسان وغرائزه وأهوائه عن آثار مدمرة، جنت على البشرية وأذاقتها الويلات في جميع ميادين الحياة لأنه : " يتوجه مقدما إلى النفس والجسم ويخوض في الطبيعة ... بينما يجعل الروح خادمة، حتى تتييس بذورها وحباتها، فيضع في سيماء الإنسان صورة شيطان " وهو : " يفهم الحياة أنها دار واحدة فقط، لذا يدفع الإنسان ليكون عبد المادة، متهاككا على الدنيا حتى يجعله وحشا مفترسا " وهو يعبد الطبيعة الصماء ويطيع القوة العمياء، ويسدل على الأرض ستار الكفران¹⁷ .
ولأنه يقوم على تصور أن جميع النعم المبتوثة في الأرض لفائدة الإنسان قد جاءت بالصدفة العمياء، لذلك فهو يستغلها استغلالا بشعا وكأنه يغتصبها خوف أن يأخذها من هو أقوى منه، فإذا ملكها أحس بأنه اكتسبها بقوته وجهده فلا يشكر عليها ربه بل يتصرف فيها بأهوائه وشهواته الحيوانية : " إذ في نظر الدهاء : لا مالك للنعم المبتوثة على الأرض ولا مولى يرعاها، فيغتصبها دون شكران، إذ الاقتناص من الطبيعة يولد شعورا حيوانيا¹⁸ .

وفي هذه الكلمات يكشف النورسي عن أعماق الفلسفة المادية، ويحلل تأثيرها في الإنسان الغربي، ويسجل الفجوة التي تركها غياب الدين في وجدانه، وي طرح أمامنا التفسير العقلي لممارسات الغرب العدوانية، وتوجهاته الاستعمارية المبنية على الاعتقاد بأن البقاء للأقوى، وأن الطبيعة عالم جامد وُجدَ من فراغ وهو حقل مباح لمن يملك القدرة على الاستغلال الأقصى لخيراتة دون وازع أو رادع. وفي هذه الإشارة الأخيرة إلى علاقة الإنسان الغربي بالطبيعة نلمح دقة فكر النورسي وعمقه وهو يرسم أبعاد الفلسفة المادية، ذلك أن طبيعة هذه العلاقة التي أبدع النورسي في تصويرها حينما عبر عنها بالاعتصاب والاقتناص الذي يولد شعورا حيوانيا، قد طفت إلى السطح خلال العقود الأخيرة وأصبحت محور اهتمام كثير من الفلاسفة والمفكرين الذين اقتنعوا أن أزمة التلوث الرهيبة التي أصابت البيئة وجعلت البشرية تواجه محنة عسيرة جراء تزايد معدلات التلوث وانعكاس ذلك على الإنسان والحيوان والنبات والمناخ هي وليدة هذا الاعتقاد

المادي الذي استلهمه الغرب من الفلسفة اليونانية التي ترى في الذات الإنسانية المتميزة بالعقل والروح طرفاً منفصلاً انفصالاً تاماً عن الوجود الطبيعي الذي يتسم عندها بالوضاعة والحقارة، والذي وصفه ديكارت بأنه عالم مادي آلي، ضئيل وتافه في أصل وجوده¹⁹، مما أدى إلى نشوء شعور بالاستعلاء على البيئة استعلاءً يستصغر شأنها ويلغي قيمتها ويجعلها موضعاً للاستنفاع المادي المطلق دون حدود أو قيود.

وقد أجمل النورسي الأسس التي تقوم عليها الحضارة الغربية في خمسة نقاط، بين من خلالها المحاور الكبرى التي تدور حولها، والأهداف التي ترمي إليها، والتصورات التي تبني عليها أعمالها وتفتق عنها سلوكيات أفرادها تجاه أنفسهم ومجتمعهم ثم باقي الإنسانية وذلك في قوله: " إن أسس المدنية الحاضرة سلبية وهي أسس خمسة تدور عليها رحاها. 1 (فنقطة استنادها: القوة بدل الحق، وشأن القوة الاعتداء والتجاوز والتعرض، ومن هذا تنشأ الخيانة. 2) هدفها وقصدتها: منفعة خسيصة بدل الفضيلة، وشأن المنفعة: التزاحم والتخاصم، ومن هذا تنشأ الجناية. 3) دستورها في الحياة: الجدل والخصام بدل التعاون، وشأن الخصام: التنازع والتدافع، ومن هذا تنشأ السفالة. 4) رابطتها الأساس بين الناس: العنصرية التي تنمو على حساب غيرها، وتتقوى بابتلاع الآخرين. وشأن القومية السلبية والعنصرية: التصادم المريع وهو المشاهد، ومن هذا ينشأ الدمار والهلاك. 5) وخامستها هي أن خدمتها الجذابة تشجيع الأهواء والنوازع، وتذليل العقبات أمامهما، وإشباع الشهوات والرغبات. وشأن الأهواء والنوازع دائماً مسخ الإنسان وتغيير سيرته، وفتتغير بدورها الإنسانية وتمسخ مسخاً معنوياً²⁰ .

وهكذا يرسم لنا النورسي لوحة متكاملة الجوانب للحضارة الغربية التي تنكبت صراط الله وألهمت العقل وعبدت المادة فتاهت وانحرفت وطغت وبغت وساقها الشيطان بأهوائها إلى الترددي والانتكاس. وقد قدم لنا من خلال هذه الكلمات القليلة التفسير الصحيح لكل ما نراه من آثارها في الواقع، ودلنا على جذوره ومبتدئه، ووضع الخطوط العريضة والمعالم الكبرى التي تضافرت لتخرج هذه الحضارة إلى الوجود على الشكل الذي نراه من تقديس القوة، واعتبار المنفعة والمصلحة الشخصية هي القيمة الأسمى، وتجاوز حدود الأخلاق والأعراف، وإطلاق القيود للغرائز والشهوات، والعنصرية المقيتة التي تبيح الاعتداء على الآخرين واستغلالهم واستعبادهم وإبادتهم .

وبذلك طغت على جميع مظاهر الحضارة الغربية الصبغة المادية الجافة والعقلانية المتطرفة اللتين ورثتهما عن الحضارتين اليونانية والرومانية، وزادت عليها ما تمخض عنه الصراع بين رواد النهضة الحديثة ورجال الكنيسة من عدااء شديد للدين، وتنصل من كل قيوده، وتحرر تام من جميع التزاماته، وعزله عن ميدان الحياة، والإعلان عن انتصار العقل وسيادته على كل شيء.

إن النورسي الذي يؤكد مرارا وتكرارا أن من أخطر ما في الفلسفة المادية الغربية إنكارها للدين وإقصاؤها له من الحياة، يرى أن اعتمادها على العقل الإنساني القاصر سيقودها إلى مسخ الإنسانية وتغيير خلق الله واستجلاب غضبه بالتكبر للفطرة ومعاكستها، وقد ظهرت بوادر هذا المسخ جلية في حياة الفرد الغربي بما تشهده المجتمعات الغربية من تحلل تام من القيود الأخلاقية والاعتبارات الدينية، وانطلاق عارم للشهوات من معاقلها، وتمزيق لشبكة العلاقات الاجتماعية، وتفكك عرى الأسرة، وجفاف العواطف الإنسانية، وميل الناس الجارف إلى اكتساب المال، والعب من اللذات الحسية يحدوهم شعور قوي بضرورة اغتنام كل فرص الحياة والاستمتاع بها قدر المستطاع لإحساسهم بمحدودية أعمارهم، وارتباط وجودها بالحياة الدنيا فقط .

ثالثا : الحضارة المتأزمة

لقد توجهت سهام الفلسفة المادية الأوروبية أول ما توجهت في بدايتها إلى الدين، فحطمت قداسته في النفوس، ومحت عالم الغيب من الأذهان، وحصرت اهتمام الإنسان في عالم الأشياء، وميعت القيم والفضائل، ولم يعد لمفهوم الآخرة وجود في النفوس، ولم يعد الأجر الأخروي حافزا لعمل الخير، والإحسان إلى الناس، لأنه شيء ميتافيزيقي لم تثبت وجوده المعامل والتجارب العلمية، ولأنه لا يجلب للإنسان نفعا ولا رجحا، ولا يزيد رصيده في البنك، ولا يزيد مكانته الاجتماعية أو سمعته، ولا يحسن من صورته التجارية، لذلك فمن الأحسن له أن يلقيه في سلة المهملات مع باقي الأشياء عديمة النفع²¹، وصارت الحضارة الغربية من فرط ماديتها تقيس التقدم الاجتماعي وسعادة البشر بمقدار ما يملكون من أشياء، وتعتبر النجاح الصناعي هو الفضيلة الخلقية الوحيدة، وبسبب غياب عدد كبير من المفاهيم الأخلاقية التي تجردت من معانيها النبيلة المرتبطة

بالدين والفطرة، تضاعفت شهية الإنسان إلى المادة، وأصبح الرقم سلطانا في المجتمع الغربي²².

وباختفاء الدين من حياة الإنسان الغربي مات ضميره، وانفصل كليا عن حياته التي تقودها المنفعة والمصلحة الضيقة، وتوجهها الأرباح والمكتسبات المادية، ووجد العلم نفسه سيدا في الميدان لا ضوابط أخلاقية تحكمه، ولا أهداف إنسانية ترشد مسيرته، فساد الاعتقاد بأنه وحده القادر على تسيير العالم، وكشف غوامضه، والإجابة عن جميع الأسئلة التي تحير الإنسان، وسار الإنسان شوطا واسعا في هذا الدرب ثم وجد نفسه في طريق مسدود، ومن هنا بدأت أزمة الحضارة الغربية.

لقد أدرك النورسي وأكد مرارا أن بعد المدنية الأوروبية عن الدين، وتنصلها من قيمه وأخلاقه، واعتمادها على الفلسفة المادية في تسيير شؤونها سيوقعها بلا شك في هاوية التيه والضياح، وأن تحديها لله عز وجل ومحاربتها للفضائل والأخلاق سيجعل وجودها نقمة على نفسها وعلى البشرية التي تتحكم فيها بقوة المال والسلاح. وأوضح في رسائل النور المظاهر المختلفة التي تنبئ عن عمق المعاناة التي تعصف بهذه الحضارة في ظل الفلسفة المادية الإلحادية. ومنها قوله: " يا أوروبا الثانية. أعلمي جيدا أنك قد أخذت يمينك الفلسفة المضلة السقيمة، وبشمالك المدنية المضرة السفهية، ثم تدعين أن سعادة الإنسان بهما. ألا شلت يداك، وبمست الهدية هديتك، ولتكن وبالا عليك وستكون. أيتها الروح الخبيثة التي تنشر الكفر وتبث الجحود. ترى هل يمكن أن يسعد إنسان بمجرد تملكه ثروة طائلة، وترفله في زينة ظاهرة خادعة وهو المصاب في روحه وفي وجدانه وفي عقله وفي قلبه بمصائب هائلة؟ وهل يمكن أن نطلق عليه أنه سعيد؟ "²³.

فعلى الرغم من كل ما أحاط به الإنسان الغربي نفسه من وسائل الرفاهية والترف، وما جمع من ثروة، وما نال من متع، إلا أن النتيجة لم تكن سعادة ولا اطمئنانا وراحة بال، وإنما كانت - على العكس من ذلك - خواء روحيا رهيبا ولد أمراضا عصبية ونفسية وإقبالا جماعيا على الانتحار، وإصابات كثيرة بالجنون، وانتشارا واسعا لعيادات الطب النفسي وغيرها من المظاهر الغريبة التي تشير إلى الجوع الروحي، وتوحي بما يمكن أن يؤول إليه مصير الإنسان عندما يتمرد على خالقه ويعاكس فطرته، وهذا ما أشار إليه النورسي حينما وجه خطابه إلى أوروبا الضالة، وأكد لها أن جميع ما وفرت له لشعوبها من

الترف والبذخ لا يعوضهم عن فقدانهم للسند الروحي والاطمئنان القلبي : " فأني سعادة يمكنك أن تضميني لمثل هذا المسكين الشقي ؟ وهل يمكن أن يطلّق لمن روحه وقلبه يعذبان في جهنم، وجسمه فقط في جنة كاذبة زائلة .. أنه سعيد ؟ "24.

ويرجع النورسي السبب الرئيسي لهذا الانحراف إلى جهل الحضارة الغربية بالطبيعة الإنسانية، ومعادتها الشديدة للدين الذي يكفل للبشر الإجابة الواضحة عن الأسئلة المصيرية التي تؤرقهم، واعتمادها الكلي على التفسير المادي للكون والتاريخ مما جعلها تخاطب في الإنسان جانبه المادي، ظنا منها أنها بإشباع حاجاته المادية ستحقق له السعادة التامة. وعلى هذا الأساس أطلقت العنان لغرائز الإنسان وشهواته دون قيد، وشجعت فيه الإقبال الكبير على الاستهلاك حتى أصبح عبدا لرغباته، وأسيراً لأصحاب الشركات التجارية التي تستغل فيه لهفته على اقتناء كل شيء وأي شيء، وضاعت الأخلاق والقيم في خضم بحر الشهوات الهائج. فالمدنية الحاضرة كما يقول النورسي : " قد أطلقت الأهواء والنوازع من عقالها، فالهوى حر طليق طلاقة البهائم، بل أصبح يستبد، والشهوة تتحكم، حتى جعلتنا الحاجات غير الضرورية في حكم الضرورية، وهكذا مُحيّت راحة البشرية. إذ كان الإنسان في البداوة محتاجا إلى أشياء أربعة، بينما أفقرته المدنية الحاضرة الآن وجعلته في حاجة إلى مائة حاجة وحاجة، حتى لم يعد السعي الحلال كافيا لسد النفقات، فدفعت المدنية البشرية إلى ممارسة الخداع والانغماس في الحرام، ومن هنا فسدت أسس الأخلاق "25.

لقد جرب الإنسان أن يكفر بالله ويستبعد كل القيم الدينية، ويتخذ من العقل والحواس إلها اغترارا بقدرتهما، واستهانة بالسما، فجعل من العلم سبيلا وحيدا لاكتساب المعرفة الإنسانية، لكنه اكتشف بعد مدة أن ذلك جعله أسير عقله الذي لم يمكنه من الإلمام بأطراف المعرفة كلها، وأن هذا العقل لم يقدم له سوى علم محدود لا يرضي طموحه، ولا يسد الفراغ الذي يحسه تجاه أسرار الحياة والوجود. وبقيت روحه - التي هي جزء أصيل من ذاته - بحاجة إلى إشباع، وهو لا يستطيع أن يوفر لها الاستقرار والطمأنينة إلا إذا وصلها بمعبود تركز إليه، وتستمد منه تفسيراً غيبياً لما عجز العقل والحواس عن إدراكه. لذلك وصف الله سبحانه وتعالى هؤلاء الماديين الذين يحصرن اهتماماتهم في عالم المادة ويغفلون الروح، بأنهم لا يحصلون م-ن كدهم

وسعيهم إلا على علم ظاهر (يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون)²⁶.

يقول سيد قطب في تفسير هذه الآية، مؤكدا ما ذهب إليه النورسي من أن الحضارة الغربية الضالة لم تحصد من جهودها العلمية واختراعاتها العجيبة سوى التعاسة والألم والدمار والشقاء واستعباد الضعفاء وقهر المظلومين، ولم تروهم الإنسان إلى نبع الحقيقة الأزلبي بعد أن سجنته في حدود الحياة الضيقة : " وظاهر الحياة محدود صغير، مهما بدا للناس واسعا شاملا يستغرق جهودهم بعضه ولا يستقصونه في حياتهم المحدودة. والحياة كلها طرف صغير من هذا الوجود الهائل تحكمه نواميس وسنن مستكنة في كيان هذا الوجود وتركيبه، والذي لا يتصل قلبه بضمير ذلك الوجود، ولا يتصل حسه بالنواميس والسنن التي تصرفه يظل ينظر وكأنه لا يرى، ويبصر الشكل الظاهر، والحركة الدائرة ولكنه لا يدرك حكمته ولا يعيش بها ومعها. وأكثر الناس كذلك، لأن الإيمان الحق هو وحده الذي يصل ظاهر الحياة بأسرار الوجود، وهو الذي يمنح العلم روحه المدرك لأسرار الوجود "²⁷.

ولم تتوقف آثار النزعة المادية على خراب الإنسان من الداخل فقط، بل إنها امتدت لتنتفث سمها في العالم أجمع، حينما اتخذ الأوروبيون من مبدأ البقاء للأقوى قاعدة للتعامل مع الشعوب الضعيفة التي أوقعوها تحت سيطرتهم، واستغلوها استغلالا بشعا، وسخروها لخدمة أغراضهم في تقوية الاقتصاد وازدياد الثروات، واتساع النفوذ، وأذاقوها لباس الجوع والخوف، ومنعوها من أن تتصرف في مقدراتها، وسلطوا عليها مختلف أنواع البغي والعدوان لتبقى ضعيفة مهينة، ومصدرا غنيا لبنوكهم ومصانعهم، وبذلك تركزت الثروة في أيدي قلة قليلة من البشر، وبقيت الأكثرية ترزح تحت أثقال الجهل والمرض والفقر، وهذا ما ينفي عن الحضارة الغربية صفة الإنسانية والتمدن، لأنها وفرت السعادة والنفوذ لعشرين بالمائة من البشرية وألقت بثمانين بالمائة منها في جحيم الحاجة والعوز : " الآن ندرك لمَ أعرض العالم الإسلامي عن المدنية الحاضرة ولم يقبلها، ولم يدخل المسلمون فيها بإرادتهم. إنها لا تنفعهم بل تضرهم، لأنها كبلتهم بالأغلال، بل صارت سما زعافا للإنسانية بدلا من أن تكون لها ترياقا شافيا، إذ ألقت ثمانين بالمائة من البشرية في شقاء لتعيش عشرة بالمائة منها في سعادة مزيفة، أما العشرة الباقية فهم حيارى بين هؤلاء

وهؤلاء. وتتجمع الأرباح التجارية بأيدي أقلية ظالمة، بينما السعادة الحققة هي في إسعاد الجميع أو في الأقل أن تصبح مبعث نجاة الأكثرية²⁸.

ويتطرق النورسي إلى جانب آخر من جوانب الحضارة الغربية المظلمة المتمثل في استخدام ثمرات العلم لتحقيق أهداف دنيئة، والوصول إلى غايات وضيعة انسياقا دائما مع الفلسفة المادية الإلحادية التي تبيح للإنسان أن يتوسل بكل الأساليب مهما كانت وحشية ولا إنسانية لتحقيق أهدافه. إن تحجر الضمير الأوروبي الذي قطع صلته بالله جعله يستغل العلم الذي فتح الله له أبوابه لنفع البشرية في تدمير المجتمعات وسحق الضعفاء وإفناء الذين يقفون حجر عثرة في طريقه بوحشية لا ترحم، ومنه شهدت البشرية تلك الحروب الفظيعة التي سُخِّرَتْ فيها الاكتشافات العلمية والاختراعات الجديدة لارتكاب المجازر، وتصفية الشعوب، وترويع الأمنين، واستباحة دماء وأعراض الأبرياء والمظلومين: " لقد قاست البشرية من ولايات هذه الحرب العالمية الأخيرة أي مقاساة، إذ رأت أشد أنواع الظلم وأقسى أنواع الاستبداد والتحكم، مع الدمار الظالم المرعب في الأرض كافة. فقد نكبت مئات الأبرياء بجريرة شخص واحد، ووقع المغلوبون على أمرهم في بؤس وشقاء مريرين ... وظهر للناس بجلاء تام ... أن زخارف المدنية حادعة ومخدرة لا تجدي شيئا، وتلطخت البشرية بدماء الطعنات القوية التي نزلت بالذات الإنسانية وبالاستعدادات الرفيعة في فطرتها²⁹،

وهذه المظاهر وغيرها هي التي شكلت على مر السنين وتوالي التجارب أزمة الحضارة الغربية، وكشفت عن نقاط ضعفها، وأفرزت واقعا كئيبا فقد فيه الإنسان ذاته، وضاعت منه هويته ولم تعد بهارج الحضارة الحديثة قادرة على ملء ذلك الخواء الرهيب الذي يعاني منه جانبه الروحي، وأصبحت كل لذة يأتيها تعقبها حسرة وألم ينغصان عليه عيشه ويكدران صفو حياته، وتفشى الظلم والطغيان، وكثرت الجرائم الإنسانية والأخلاقية، وقد أبدع النورسي في وصف هذه الحالة التي يتخبط فيها الإنسان المعاصر الذي قطع صلته بالسماء فتاه وضاعت منه الحقيقة، في قوله: " الهوى يبطل الحس ويخدر الشعور، والشهوات الساحرة تطلب اللهو كي تخدع الوجدان وتستغفله وتنيم الروح وتسكنها لئلا تشعر بالألم، لأن ذلك الشعور يحرق الوجدان حتى لا يكاد يطاق صراخه من شدة الألم ... إذ كلما ابتعد الوجدان عن الصراط المستقيم اشتدت عليه تلك الحالة، حتى إن

كل لذة تترك أثرا من الألم، ولا تجدي بهرجة المدنية الممزوجة بالشهوات والهوى واللهو، إنها مرهم فاسد وسم منوم للضيق الذي يولده الضلال" ³⁰.

وأوجز أمهات المسائل التي انحرفت فيها الحضارة الغربية عن الفطرة السوية فأشقت الإنسان وأورثته الضياع والفقر والسفاهة وتردي الأخلاق، في قوله: "إن المدنية الغربية الحاضرة لا تلقي السمع كليا إلى الأديان السماوية، لذا أوقعت البشرية في فقر مدقع، وضاعفت من حاجاتها ومتطلباتها، وهي تتماهى في تهميج نار الإسراف والحرص والطمع عندها بعد أن قوضت أساس الاقتصاد والقناعة، وفتحت أمامها سبيل الظلم وارتكاب المحرمات. زد على ذلك فقد ألفت - بذلك - الإنسان المحتاج المسكين في أحضان الكسل والتعطيل المدمر بعد أن شجعت على وسائل السفاهة... فأضاع الإنسان عمره الثمين سدى باتباعه هوى المدنية الحاضرة وبسيره وراء سفاهتها وهوها" ³¹.

رابعا : الدين ملاذ الإنسان المعاصر والقرآن أساس الحضارة الحقنة

ولا يجد النورسي لهذه الإنسانية المعذبة التي تصطلي بنار الحضارة الغربية سوى دواء واحد هو الرجوع إلى الفطرة، والالتجاء إلى الدين حيث يجد الإنسان ظلال الرحمة الإلهية الوارفة تمد أفياءها ليستظل بها كل الحيارى والضالين، وتداوي جروح التائهين عن ربهم، وتمسح مصائبهم وتبعث فيهم الحياة الهادئة المطمئنة. وهو يقرر هذه الحقيقة بعد أن يستعرض آثار المدنية الأوروبية في الإنسان الذي مسخته بعد أن أحدثت شرخا عميقا في ذاته بتضخيم الجانب المادي فيه وقتل الجانب الروحي: "إن ضلال البشرية وعنادها النمرودي وغرورها الفرعوني، تضخم وانتفش حتى بلغ السماء ومس حكمة الخلق، وأنزل من السموات العلاء ما يشبه الطوفان والطاعون والمصائب والبلايا" ³².

فبعد أن سارت هذه المدنية شوطا بعيدا في تطبيق المنهج العلمي التجريبي على الحياة الإنسانية، اتضح في نهاية المطاف أن منهجها كان قاصرا لأنها أغفلت تماما الخصائص الإنسانية الأصيلة التي تفرق الإنسان عن الحيوان، وأسقطت من حسابها أنها تتعامل مع كائن حي ذي شقين متكاملين هما الجسد والروح، ولا يمكنه أن يحس بالتوازن والانسجام إلا إذا كان تقدمه المادي مساو ومواز لترقيه الروحي. يقول النورسي: "إن المدنية الحاضرة استولت على الأفكار بقولها أن السعادة هي في الحياة نفسها. إلا أن

الزمان أظهر الآن أن نظام المدنية فاسد ومضر. والتجارب القاطعة أظهرت لنا أن الدين حياة للحياة ونورها وأساسها³³.

وهذه المأساة الروحية التي يعيشها الإنسان الغربي المعاصر دفعت كثيرا من المفكرين الغربيين الذين تنبهوا إلى خطورة هذه الفجوة في حياتهم، إلى الاهتمام بالإنسان وأشواقه الروحية، وميوله الدينية وتغذية هذا الجانب فيه، معترفين أن الحضارة الغربية - على الرغم من تقدمها المادي الهائل في جميع المجالات - إلا أنها عجزت عجزا فاضحا عن تحقيق إنسانية الإنسان باعتباره مركز الوجود وغاية الحضارة.

ومن أشهر هؤلاء " ألكسيس كاريل " في كتابه " الإنسان ذلك المجهول " الذي يقول فيه : "إن الحضارة العصرية تجد نفسها في موقف صعب لأنها لا تلائمنا، لقد أنشئت دون أية معرفة بطبيعتنا الحقيقية، إذ أنها تولدت من خيالات الاستكشافات العلمية، وشهوات الناس وأهوائهم ونظرياتهم ورغباتهم. وعلى الرغم من أنها أنشئت بمجهوداتنا إلا أنها غير صالحة لحجمنا وشكلنا"³⁴.

ثم يضيف في موضع آخر - مشخصا بوضوح تام أزمة الحضارة الغربية المعاصرة قائلا: " يجب أن يكون الإنسان مقياسا لكل شيء ولكن الواقع هو عكس ذلك. فهو غريب في العالم الذي ابتدعه، إنه لم يستطع أن ينظم دنياه بنفسه، لأنه لا يملك معرفة عملية بطبيعته ... ومن ثم فإن التقدم الهائل الذي أحرزته علوم الجماد على علوم الحياة هو إحدى الكوارث التي عانت منها الإنسانية ... فالبيئة التي ولدتها عقولنا واختراعاتنا غير صالحة لنا لأننا ننحط أخلاقيا وعقليا ... إن الجماعات والأمم التي بلغت فيها الحضارة الصناعية أعظم نمو وتقدم هي على وجه الدقة الجماعات والأمم الآخذة في الضعف، ذلك لأن مدينتنا من شأنها أن تجعل الحياة نفسها مستحيلة"³⁵

والمتتبع لتطور الأحداث العالمية في العقود الأخيرة تتأكد لديه هذه الحقيقة التي قررها النورسي من خلال ما تطرحه المطابع من الدراسات الكثيرة والمتنوعة التي تنذر بمستقبل مظلم للبشرية التي جنحت أكثر فأكثر نحو الصدمات الدموية، وتصاعدت فيها نسب الحروب، وارتفعت معدلات الجريمة، وتطور استغلال الأقوياء للضعفاء، والأغنياء للفقراء تطورا فظيعا، وتؤكد أن الإنسان المعاصر يعيش أزمة حضارية خانقة على جميع المستويات، وهو يبحث عن نفسه وسط العالم الذي بناه بمجوده العلمية وقوته العقلية فلا

يجد نفسه فيه، بل إن هذه الدراسات تؤكد أن الإنسان كلما أوغل في تحقيق انتصارات علمية باهرة، وسار أشواطاً أبعد في التقدم العلمي والتكنولوجي، كلما ازداد شقاؤه، وعظمت مصيبته، وفقد ثقته بعقله، وازداد إحساسه القوي بحاجته الماسة إلى لمسة الروح الندية، ودفء الحرارة الإيمانية .

يقول النورسي : " إن البشرية التي أخذت تصحو وتتيقظ بنتائج العلوم والفنون الحديثة، أدركت كنه الإنسانية وماهيتها، وتيقنت أنه لا يمكنها أن تعيش هملاً بغير دين، بل حتى أشد الناس إلحاداً وتنكراً للدين مضطر إلى أن يلجأ إلى الدين في آخر المطاف، لأن : " نقطة استناد " البشر عند مهاجمة المصائب والأعداء من الخارج والداخل، مع عجزه وقلة حيلته، وكذا " نقطة استمداده " لآماله غير المحدودة الممتدة إلى الأبد مع فقره وفاقته ليس إلا " معرفة الصانع " والإيمان به والتصديق بالآخرة. فلا سبيل للبشرية المتيقظة إلى الخلاص من غفوتها سوى الإقرار بكل ذلك. وما لم يوجد في صدفة القلب جوهر الدين الحق، فسوف تقوم قيامات مادية ومعنوية على رأس البشر، وسيكون أشقى الحيوانات وأذلها³⁶

وقد بات واضحاً أن الفلسفة الإلحادية المادية التي قامت عليها الحضارة الغربية قد أفلست، وأسلمت الإنسان في آخر المطاف للتحلل الأخلاقي، والإباحية، والإدمان، والتفكك الأسري، ولنزعات العنف والتدمير والاستغلال التي أفقدته مشاعر الاطمئنان والسعادة والأمن والاستقرار، وحرضت فيه نوازع العداة والعنصرية، فاكتوت البشرية بناره، وغرقت بسبب نزواته الطائشة في بحار الدماء، ومآسي المجاعات والأوبئة والحرمان.

وعبرت هذه الأزمة عن نفسها تعبيراً جلياً في هروب الإنسان المعاصر من ضواء الحياة المادية، وعزوفه عن مظاهر الرفاهية وأساليب الترف والبدخ، وإقباله بشغف على بساطة الروح ونظافة الأخلاق. ولم تغب عن الدارسين والملاحظين هذه الظاهرة، فسجلوا نزوع أعداد كبيرة من الناس - وبخاصة في العالم الغربي - إلى الأديان بحثاً عن الأمان والسعادة النفسية، بعد أن انتهى المطاف بكثير من المفكرين والعلماء والفلاسفة إلى التأكيد على أن الدين هو الوحيد القادر على حل معضلة الإنسان المعاصر وفك خيوط أزمته. وقد عبر النورسي عن هذه الظاهرة تعبيراً رائعاً فقال : " لقد تيقظ الإنسان

في عصرنا هذا بفضل العلوم والفنون ونذر الحروب والأحداث المذهلة، وشعر بقيمة جوهر الإنسانية واستعدادها الجامع، وأدرك أن الإنسان باستعداده الاجتماعي العجيب لم يخلق لقضاء هذه الحياة المتقلبة القصيرة، بل خلق للأبد والخلود، بدليل آماله الممتدة إلى الأبد. وإن كل إنسان بدأ يشعر - حسب استعداده - أن هذه الدنيا الفانية لا تسع لتلك الآمال والرغبات غير المحدودة... وهذا هو السر في ظهور ميل شديد إلى التحري عن الدين الحق في أعماق كل إنسان، فهو يبحث قبل كل شيء عن حقيقة الدين الحق لتنتقذه من الموت الأبدي، ووضع العالم الحاضر خير شاهد على هذه الحقيقة³⁷

وبناء عليه، فقد ذهب النورسي - في وقت مبكر من هذا العصر - إلى التأكيد على أن هذه الحضارة العرجاء التي افتقدت نور الوحي فأصبحت تتخبط في ظلمات الهوى لن يطول بها الزمان حتى تهوي وتذهب ريجها، والسبب الوحيد والأساسي الذي سيوردها حتفها هو عجزها عن إسعاد الإنسان وتحقيق الأمن والطمأنينة له. بما سببت له من الآلام المادية والمعنوية التي أوصلت الأرض إلى حافة الفناء، وستخلفها حضارة القرآن التي تحمل بذور الرحمة الإلهية، وسحائب الرأفة الربانية، والدواء الشافي الذي يعالج جروح البشرية ويذهب بآلامها: " إنه بطغيان ذنوب المدينة على محاسنها، ورجحان كفة سيئاتها على حسناتها، تلقت البشرية صفتين قويتين بحرين عالميتين، فأتتا على تلك المدينة الآثمة، وقاءت دماء لطخت وجه الأرض برمتها، وسوف تتغلب بإذن الله محاسن المدينة بفضل قوة الإسلام التي ستسود في المستقبل، وتطهر وجه الأرض من الأدناس، وتحقق أيضا سلاما عاما للبشرية قاطبة. نعم، لما كانت مدينة أوروبا لم تتأسس على الفضيلة والهدى بل على الهوس والهوى، وعلى الحسد والتحكيم، تغلبت سيئات هذه المدينة على حسناتها إلى الآن، وأصبحت كشجرة منحورة بديدان المنظمات الثورية الإرهابية، وهذا دليل قوي ومؤشر على قرب انهيارها"³⁸، وفي موضع آخر يذهب إلى أن نهاية هذه الحضارة ستكون على يد الإنسان الذي بناها وأقامها لأن فطرته ترفضها، ومصالحته تتناقض مع توجهاتها: " فهذه المدينة الخبيثة التي لم نر منها غير الضرر، وهي المرفوضة في نظر الشريعة، وقد طغت سيئاتها على حسناتها، تحكم عليها مصلحة الإنسان بالنسخ، وتقضي عليها يقظة الإنسان وصحوته بالانقراض"³⁹.

ومن خلال عقد مقارنة سريعة بين الأسس التي تقوم عليها الحضارة الغربية وتلك التي تقوم عليها مدنية القرآن وحكمته في تسيير شؤون الحياة يؤكد النورسي ما ذهب إليه من ضرورة زوال الحضارة الحديثة قريبا وانتصار كلمة الله التي تمحو آثامها وتكنس أرجاسها وتعيد للإنسانية بهجة الحياة في ظلال الأخوة والتعاون. فبينما تؤمن المدنية الغربية أن ركيزة الحياة الاجتماعية هي القوة التي تستهدف المنفعة، وتتخذ من الصراع دستورا للحياة، وتلتزم بالعنصرية والقومية رابطة للجماعات، وتهدف إلى إشباع الرغبات والأهواء وميول النفس باللهو العابث، فإن حكمة القرآن: " تقبل " الحق " نقطة استناد في الحياة الاجتماعية بدلا من القوة، وتجعل " رضى الله ونيل الفضائل " هو الغاية والهدف بدلا من " المنفعة " وتتخذ دستور " التعاون " أساسا في الحياة بدلا من دستور الصراع، وتلتزم رابطة " الدين " والصنف والوطن لربط فئات الجماعات بدلا من العنصرية القومية السلبية، وتجعل غاياتها " الحد من تجاوز النفس الأمانة ودفع الروح إلى معالي الأمور " ... إن شأن الحق هو " الاتفاق "، وشأن " الفضيلة " هو التساند، وشأن " التعاون " هو إغاثة كل للآخر " وشأن " الدين " هو الأخوة والتكاتف، وشأن " إجماع النفس وكبح جماحها وإطلاق الروح وحثها نحو الكمال " هو سعادة الدارين

40

خامسا : ضرورة التعاون بين أهل الإيمان

إن هذه الأزمة الحضارية الخانقة التي تعيشها الحضارة الغربية والتي نبه النورسي إلى مظاهرها في مواضع كثيرة من رسائل النور، وبسط آثارها المدمرة على الفرد والمجتمع والعلاقات الدولية ومصير الإنسانية جمعاء، جعلته يؤكد أن الإنسان لا يمكنه أن يمارس حياته بشكل طبيعي ويبني الحضارة الإنسانية النافعة إذا أقصى الدين واعتمد على العلم وحده. وقد دلت التجارب المريرة التي شهدتها البشرية في ظل الفلسفة المادية أن الإنسان مطالب - في سعيه في الأرض - أن يوجد دائما توازنا بين الإنجازات المادية والأشواق الروحية، وكل انفصال يحدث بينهما سيؤدي - لا محالة - إلى اختلال في حركة الإنسان، وانحراف في مسيرته الحضارية: " ليس بالإمكان القيام بعمل إيجابي بناء مع التهاون في الدين " 41

وفي سبيل إنقاذ البشرية من مصير مجهول، دعا النورسي جميع المؤمنين إلى تحمل مسؤولياتهم أمام الله وأمام الإنسانية المعذبة، وحثهم على العمل المخلص والمستمر للتصدي لتيار الإلحاد المدمر الذي يسري بين الناس سريان النار في الهشيم، بالتزام جادة الحق والدعوة إلى الله على بصيرة بالحكمة والموعظة الحسنة: " إن طلاب النور الحقيقيين أثناء أدائهم لواجب نشر الوعي الديني، وأثناء قيامهم بعبادتهم اتباعا للسنن النبوية، وأثناء التزامهم بالتقوى التي هي اجتناب الكبائر إنما يعدون مكلفين مأمورين في سبيل خدمة القرآن⁴²، وهو يرى أن البشرية مقبلة على مرحلة عصبية يعلو فيها صوت الإلحاد ويقوى تياره ويتسلح بالعلم ويستخدمه استخداما مأكرا لتحقيق أهدافه في محاربة الدين وقتل المقدسات وتغييب القيم والأخلاق، وهذا يستوجب من المؤمنين مرابطة دائمة على ثغور الإيمان لحمايته وإبقاء شعلته مضيئة في القلوب: " إن الذي تنتظره الأمة وسأيتي في آخر الزمان له مهام ثلاثة، وإن أهم وظيفة من هذه الوظائف الثلاث وأعظمها وأجلها هي نشر الإيمان الحقيقي وإنقاذ الإيمان من الضلالة⁴³ .

وفي سبيل أن تثمر جهود المؤمنين في هذا الميدان ينصحهم النورسي بإلقاء ثقلهم كله في ميدان الدعوة إلى الله، والاجتهاد في تيسير سبل الهداية لمن ضل الطريق، ولمن جهل الدين، ولمن سكنت الوسوس والشكوك قلبه لإعادته إلى حظيرة الرحمة الإلهية، وتثبيت الإيمان في قلبه، ويتوجب عليهم خلال أداء هذا الواجب المقدس أن يتناسوا خلافاتهم الجانبية، ويتنازلوا عن مشاعر الأنانية والغرور، ويتعاونوا لإنجاح مهمتهم المصيرية بدل التناوش حول الصغائر وترك الإلحاد يستشري وتقوى شوكته، ويأسف لانقياد بعض الدعاة لأهوائهم وتوجيه جهودهم لهدم إخوانهم في الدين بسبب خلافات بسيطة، بدل أن يرتفعوا بهممهم ليكونوا في مستوى الظرف الخطير الذي يهدد كيان الدين كله بالانهيار: " فأسفا وألف أسف لأهل العلم ولأهل التقوى الضعفاء الذين يتعرضون - في الوقت الحاضر - إلى هجوم ثعابين مرعبة، ثم يتحججون بهفوات جزئية شبيهة بلسع البعوض، فيعاونون - بانتقاد بعضهم البعض - تلك الثعابين الماردة، ويمدون المنافقين الزنادقة بأسباب لتدميرهم وتحطيمهم، بل يساعدونهم في هلاك أنفسهم بأيدي أولئك الخبثاء⁴⁴، مؤكدا لهم أن العمل الفردي - مهما كان صاحبه مخلصا ومثابرا - لن يؤتي

ثمارة تجاه تيار الضلالة الكاسح، وأن العمل الجماعي المبني على التعاون والتضامن وحده هو الذي يحقق الآمال، ويوصل إلى الأهداف.

وهو يوجه ندائه لكل فرد عامل في حقل الدعوة أن : " يتحرى روابط الوحدة الكثيرة التي تربط المشارب المعروضة في ساحة الإسلام - مهما كان نوعها - والتي ستكون منابع محبة ووسائل أخوة واتفاق فيما بينها فيتفق معها. واتخاذ دستور الإنصاف دليلاً ومرشداً، وهو أن صاحب كل مسلك حق يستطيع القول " إن مسلكي حق وهو أفضل وأجمل " من دون أن يتدخل في أمر مسالك الآخرين، ولكن لا يجوز له أن يقول " الحق هو مسلكي فحسب " أو " إن الحسن والجمال في مسلكي وحده الذي يقضي ببطان المسالك الأخرى وفسادها. والعلم بأن الاتفاق مع أهل الحق هو أحد وسائل التوفيق الإلهي وأحد منابع العزة الإسلامية ... والإدراك بأن أية مقاومة فردية - مهما كانت قوية - مغلوبة على أمرها تجاه ذلك الشخص المعنوي للضلالة" ⁴⁵ .

ورسائل النور مدرسة تربوية رائدة من المدارس الإسلامية التجديدية الكبرى التي اقتفت آثار القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة في الاهتمام بالإنسان كقيمة عليا في الوجود، واستلهمت منهما أساليب وطرائق تربيته وتقويمه في سبيل الارتقاء بملكاته النفسية والعقلية، واجتهد صاحبها في إحياء الحقائق الإيمانية والأخلاق القرآنية في النفوس التي غلبت عليها الغفلة، وران عليها الجهل وعصفت بها موجات الإلحاد وغارات المسخ والتشويه، ونذر عمره كله لهذا العمل التربوي الجبار هادفاً من وراء نشر رسائل النور وتعهد النفس البشرية بالتوجيه والتهديب إلى إيجاد الإنسان الرباني الصالح الذي يقيم المجتمع الصالح : "في هذا الوقت الذي يبدو في الظاهر انحسار وتقهقر تلك المشارب والمسالك الحقوة جدا - والتي ينضوي تحت لوائها الملايين من المؤمنين المستعدين لكل تضحية أمام الهجوم العنيف لهذه الضلالة - تحملت رسالة النور جميع تلك الهجمات، وحملت على عاتقها الأعباء كافة، وشقت طريقها سابقة الجميع في طريق الإيمان" ⁴⁶ .

ومنهجها في الدعوة منهج فعال يمنح الإنسان المعرفة التامة، ويسكب الاطمئنان في قلبه من خلال العرض الشامل البسيط لمسائل وجود الله والوحدانية والنبوة والآخرة والقضاء والقدر بأسلوب واضح يخاطب قلب الإنسان وفكره وعقله وخياله وجميع

لطائفه معاً⁴⁷، ويسهم بفعالية في صد جيوش الإلحاد ومدافعة غاراتها: "إن الكلمات التي كتبت لبيان أسرار القرآن هي أنجع دواء لأمراض هذا العصر وأفضل مرهم يمرر على جروحه، وأنفع نور يبدد هجمات خيول الظلام الحالك على المجتمع الإسلامي... نسأل الله العلي القدير أن يجعل كل جزء من أجزاء رسائل النور بمثابة مصباح يضيء السبيل القويم النوراني للقرآن الكريم"⁴⁸.

سادساً : مستقبل الحضارة العالمية وحتمية اللقاء والحوار بين الإسلام والمسيحية

ونظراً لضراوة الهجمة التي تتعرض لها الأديان والمقدسات والقيم السامية، فإن النورسي لم يحصر الدعوة إلى مقاومة الإلحاد بين المسلمين فقط، بل سعى إلى توسيع نطاقها ما أمكنه ذلك لتشمل كل من في قلبه ذرة إيمان في مشارق الأرض ومغاربها، وهو يرى أنه قد بات من الضروري جداً أن يتكاتف أصحاب الأديان السماوية ويتعاونوا ليكونوا حلفاً قويا يصد هذا التيار العنيف ويوقف زحفه، ويخفف من وطأته على النفوس، ويداوي سمومه التي انتشرت في أرجاء الأرض. ويخص في هذا المقام أصحاب الديانتين المسيحية والإسلامية ويوجه إليهما دعوة حارة للوعي بالمهمة العظيمة التي تنتظرهما لانتشال البشرية من دوامة الضياع، وافتكاكها من بين أنياب غول الحضارة المتوحش.

وهو يبيّن دعوته هذه على اعتقاد جازم لا يداخله شك في أن الإنسانية لن تتحمل طويلاً الإفلاس القيمي والانهيار الأخلاقي، ولا حالة الاضطراب والتهيه التي تعيشها، ولن تستطيع مقاومة موجة الضياع والشقاء، ولا الظلم الاقتصادي والعسكري الذي يسحقها باستمرار، ولا مضاعفات انتشار الآفات الاجتماعية والجريمة المنظمة التي زرعت الرعب في أوساط الناس وأحالت حياتهم جحيماً من القلق والتوتر ومزقت شبكة العلاقات الاجتماعية وحطمت الروابط الأسرية، وأسلمت البشرية كلها لقانون الغاب، وهو لا يفتأ يؤكد أن كل حضارة تستبعد الدين وتُقصي الفضائل وتتنكر للخالق هي لعنة على الأمم والشعوب، وأن الدواء الشافي لهذه المعضلة هي الالتجاء إلى الله، والاحتماء بظلال الوحي، والاعتراف من معين الرحمة الإلهية التي بعث بها أنبياءه ورسله لإخراج الناس من الظلمات إلى النور، ففيها يجد الإنسان راحته ويحس بلذة العيش، وتمتد آماله إلى ما وراء الدنيا الفانية مستشرفاً العالم الأبدى الذي يجد في أعماقه حينه إليه.

ويؤمن أيضا أن الفلسفة المادية التي نشرت الإلحاد وشجعت الإباحية والتحلل من القيم والأخلاق قد أفلست وظهرت بوادر إفلاسها جلية في العالم الذي يدفع سكانه ضريبة هذا التوجه المنحرف غالبا، وأن الوقت قد حان لينهض أصحاب الديانات السماوية بالواجب المنوط بهم لإنقاذ البشرية وتخليصها من أضرار الإلحاد الذي مزق روحها.

والنورسي في دعوته إلى التحالف بين المسلمين والمسيحيين لمحاربة الإلحاد وإعادة الاعتبار للدين، إنما يستشرف المستقبل استشراف مؤمن موقن، ويؤكد أن هذا التوجه قد بشر به الرسول ρ وأنه قد أشار في بعض أحاديثه إلى أن المسيحيين المخلصين الذين يحملون في قلوبهم بقايا النصرانية الحقبة التي جاء بها المسيح عليه السلام سيجدون أنفسهم في آخر الزمان، وتحت وطأة طغيان الباطل واستكباره مدفوعين للتحالف مع المسلمين ضده لإنقاذ الإيمان، والدفاع عن الحق والخير: " لقد ثبت في الحديث الصحيح أن المتدينين الحقيقيين من النصارى سيتفقون في آخر الزمان مستندين إلى أهل القرآن للوقوف معا تجاه عدوهم المشترك الزندقة"⁴⁹ لأن الكفر المطلق يشن هجوما عنيفا⁵⁰.

وهو لا يرى مانعا من أن يشمر المسلمون عن ساعد الجدل لتحقيق هذا الهدف السامي منذ الآن، بل يشجع فتح حوار جاد وصريح بين الطرفين، ينصح فيه بتجاوز نقاط الاختلاف التي تفضي إلى التصادم والافتراق، والتركيز على نقاط الالتقاء التي تتمثل في أصول الأديان. فبالرجوع إلى جذور الدين الإسلامي والمسيحي يتبين لنا أنهما يصدران عن نبع واحد، ويدعوان إلى إله واحد، ويتفقان في القيم السامية والأخلاق الفاضلة، ويربطان مصير الإنسان بيوم الجزاء الأكبر لتنمو في نفسه بذور الخير ويعيش حياته لإعمار الأرض وليس لتصيد مواطن اللذات والعب من متع الدنيا دون رادع أو ضمير خوفا من ذهاب العمر وحلول الموت. وفي هذا القدر وغيره من المبادئ العامة والعديدة التي يلتقي فيها الدينان ما يكفي لأن يضعها أيديهما في أيدي بعض ليكون هدفهما الأكبر هو سعادة الإنسان ورفاهيته بغض النظر عن عقيدته التي لا يملك أحد حق فرضها على أحد إلا إذا نعت الإرادة في ذلك من أعماقه.

والسبيل إلى ذلك - في نظر النورسي - واضح لا لبس فيه، لأنه يعتمد على الأسلوب القرآني المؤسس على الإقناع والحوار والجدال والتي هي أحسن، والمستوحى من

قوله تعالى : (قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم)⁵¹، مستعبدا كل أشكال العنف والضغط والإكراه، مفضلا مخاطبة الروح والعقل لتخليص أبناء الغرب الحيارى التائهين من لوثات المدنية المادية الملحدة، وافتكاكهم من أوضاعها التي أثقلت كواهلهم : " إن الظهور على المدنيين من منظور الدين إنما هو بالإقناع وليس بالإكراه، ويظهر الإسلام محبوبا وساميا لديهم، وذلك بالامتثال الجميل لأوامره وإظهار الأخلاق الفاضلة. أما الإكراه والعداء فهما تجاه وحشية الهمجيين "⁵²، وبذلك يكون الحوار هو طريق الإسلام إلى الغرب .

ويبي النورسي ضرورة التحالف مع المسيحيين على أساس أن الظروف العصبية التي تمر بها الإنسانية في ظل الإلحاد الذي يقربها يوما بعد يوم من حتفها لا تحتل أي تأخير بدعوى الاختلاف والتباين : " لذا فأهل الإيمان والحقيقة في زماننا هذا ليسوا بحاجة إلى الاتفاق الخالص فيما بينهم وحده، بل مدعوون أيضا إلى الاتفاق حتى مع الروحانيين المتدينين الحقيقيين من النصارى، فبتروكا مؤقتا كل ما يثير الخلافات والمناقشات دفعا لعدوهم المشترك الملحد المعتدي "⁵³، ويحذر في موضع آخر من إثارة النعرات، وإيقاظ الفتن بطرح المواضيع المختلف عليها، مشددا على ضرورة التفرغ للمهمة الكبرى وهي القضاء على الإلحاد أولا لتخليص البشرية من شره ثم تأتي بعد ذلك باقي المهام حسب أولوياتها : " ... بل حتى المؤمنين المنسويين إلى فرق ضالة لا ينبغي أن نثير معهم نزاعا وخصاما في هذا العصر العجيب، بل لا نجعل نقاط اختلاف ونزاع موضع نقاش مع المؤمنين بالله واليوم الآخر حتى لو كانوا من النصارى "⁵⁴ .

ويعلق النورسي آمالا كبيرة على التقارب المسيحي الإسلامي، ولديه ثقة أكيدة في أن العلوم الحديثة التي حررت العقل الإنساني من الخرافات والأساطير، وفتحت له أبواب التفكير المنطقي المنهجي، إذا ما امتزجت في النفس الغربية مع تعاليم المسيح الحقيقية فسوف تنتج تدينا نظيفا، ونزوعا نحو الحق الصريح الذي يخلص المسيحية من كل الزيادات والتحريفات التي طالتها عبر القرون، وسيمهد ذلك حتما الطريق نحو التقاء وشيك بين الديانتين، الأمر الذي سيجبر قوى الشر والإلحاد على التراجع، ويتيح للإنسانية فرصة العيش بسلام في ظلال الوحي الإلهي : " إن الذي سيقود البشرية إلى

السعادتين الدنيوية والأخروية ليس إلا الإسلام والنصرانية الحقبة المنقلبة إلى الإسلام والمتفقة معه والتابعة للقرآن بعد تحررها من التحريفات والخرافات⁵⁵.

ولا يفتأ النورسي يعرف من نبع الوحي الصادق ليؤكد هذه الحقيقة، ويدفع المسلمين والمسيحيين إلى بذل الجهود تلو الجهود في سبيل تقريب المسافات بينهما، والاعتماد أكثر على النقاط المشتركة بين الدينين للخروج بمشروع مشترك يتم فيه تجنيد الطاقات المؤمنة للاضطلاع بالمهمات الحضارية المنوطة بها لإنقاذ البشرية من الإلحاد. وفي هذا الإطار يشير إلى أن الحديث الشريف الذي يخبر فيه الرسول ρ بأن نهاية الدجال ستكون على يد سيدنا عيسى عليه السلام يدل دلالة تامة على أن للنصارى الحقيقيين الذين يحملون روح النصرانية الأولى دور مهم وأساسي في دفع موجات الإلحاد قبل نزول عيسى عليه السلام، وأن إخلاصهم في طلب الحق سيجعلهم يتقربون حتما من المسلمين ليضعوا أيديهم في أيدي بعض: "إن الذي سيقتل الشخصية المعنوية لشخص الدجال - المقتول بسيف شخص عيسى عليه السلام - ويبيد كيان الإلحاد الهائل والمادية الرهيبة التي كَوَّنَهَا، ويُفني ما يدعو إليه الكفر بإنكار الألوهية هم الروحانيون النصارى. فهؤلاء الروحانيين يهلكونه و يقتلونهم معنى بقوة نابعة من مزجهم حقيقة النصرانية مع حقائق الإسلام⁵⁶".

وبهذه التوجيهات الجريئة، والفقہ العميق للعلاقات الإنسانية، يكون النورسي من أوائل العلماء المسلمين المحددين الذين أسسوا للحوار بين الأديان والحضارات، ومن السابقين إلى طرح هذه الفكرة التي أصبحت اليوم متداولة بكثرة في مفردات النخب المثقفة والمرجعيات الدينية الإسلامية والمسيحية على السواء في ظل التأزم الظاهر الذي يعصف بالبشرية ويهدد بفنائها. وهي سابقة تُحسب لهذه العبقريّة، ومبادرة تدل على سعة أفق النورسي وعمق تفكيره، وقدرته الفذة على النظر الواضح من خلال الأحداث، ومعرفته الدقيقة بالنفس الإنسانية ومكوناتها، ونزعاتها، وطموحاتها، وهي المعرفة التي استقاها من طول مدارسته للقرآن الكريم، ومداومة النظر في آياته، واستيعابه لخطابه، وما الاستعانة في معرفة حكمة الله من أوامره ونواهيهِ بصفاء العقل، وطهارة الروح، وما وهبه الخالق من الذكاء النادر، والعقل الجبار المتفتح.

خاتمة :

وبعد أن طرحنا على بساط البحث أهم المحاور التي أوضح النورسي من خلالها موقفه من الحضارة الغربية، ننتهي إلى أن النورسي قد صاغ هذا الموقف منذ البداية انطلاقاً من القرآن الكريم الذي تشرب معانيه ومقاصده وأحاط بروحه العامة وفقه أحكامه فقهاً صحيحاً، فجاء موقفه معتدلاً متوازناً، وتحليلاته صائبة موفقة، واستطاع من خلاله أن يرسم للواقع صورة حية وحقيقية بعيداً عن كل بهارج المدنية وزخارفها التي كانت تموه هذا الواقع وتغطي على خلفياته وأعماقه، كما استطاع أيضاً أن يستشرف المستقبل استناداً إلى العلم الصحيح الذي استلهمه من الرؤية القرآنية، وأن يتنبأ بمصير الحضارة الغربية بناء على مقدمات منطقية، موضحاً أن هذا الموقف لا يعني معاداة الكسب البشري، أو معارضة الترقى والتمدن وإنما محاربة النزعات المنحرفة التي تفصل بين شقي الإنسان المتلاحمين : المادي والروحي .

وقد أثبتت الدراسات المتخصصة التي جاءت بعده أن جميع آرائه قد أصابت كبد الحقيقة، ووضعت اليد على موطن الداء الحقيقي . وكلما سارت البشرية شوطاً في ظلال المدنية الغربية كلما اكتشفت أن كلمات النورسي الذي كان ينظر من خلال نور القرآن ويغترف من حكمته السامية حقائق لا تقبل الجدل، ولا يعترىها الخطأ والخلل.

والبدليل الذي يراه مناسباً لهذه الحضارة العاتية هو الحضارة الحقة التي جاء بها الإسلام : " أما المدنية التي تأمرنا بها الشريعة الغراء، وتتضمنها، فهي التي ستتكشف بانقشاع هذه المدنية الحاضرة، وتضع أسساً إيجابية بناءة مكان تلك الأسس النخرة الفاسدة السلبية"⁵⁷، ومن أهم مميزاتهما أنها تفسح المجال أمام الإنسان للترقى الروحي والنفسي في مقابل حيوانيته وغرائزه، وتفسح المجال لنمو العقل وتفتحه مما يؤدي إلى تسخير الإنسان للطبيعة واستثمار خيراتها لمنفعته، وتزيد من تماسك الأفراد وارتباطاتهم وتضامهم وتكافلهم بتحقيق المساواة والعدل في توزيع الثروات، والرحمة في نيل الضعفاء من حق الحياة ما لا ينالونه بقوتهم وجهدهم من أجل تحقيق إنسانية الإنسان.

وهذه الشروط جميعاً توفرها حضارة القرآن التي تقوم على العدل الإلهي، والتي يعتقد أن شفاء البشرية المعذبة في اللجوء إليها والاحتماء بظلالها : " لقد ثبت عندي بيقين وصدقت أن القرآن الكريم فيه جميع ما يلزم السعادة الدنيوية والأخروية"⁵⁸، لأن "

دساتير القرآن الكريم وقوانينه آتية من الأزل، فهي باقية وماضية إلى الأبد، لا تهرم أبداً ولا يصيبها الموت كما تهرم القوانين المدنية وتموت، بل هي شابة وقوية دائماً في كل زمان "59، ولأن الحضارة التي بينها القرآن تختلف في أصولها وأهدافها ووسائلها عن الحضارة الغربية: " إن القرآن الكريم الذي هو رحمة للبشرية كافة، إنما يقبل المدنية التي تكفل سعادة العموم أو في الأقل سعادة الأكثرية المطلقة "60، كما أن: " كفة حسنات الحضارة النابعة منه ستتغلب حتماً على سيئات المدنية الحاضرة، بل يجعل المدنية سائرة في ركاب تلك القوانين السماوية، تخدمها وتعينها بدلاً مما يحدث الآن من تنازل قسم من الدين لقسم من المدنية، ومن دفع أحكام الدين رشوة في سبيل المدنية "61.

وينبع موقف النورسي هذا بكل أبعاده وتجلياته من نزعته الإنسانية العميقة التي ملكت عليه أقطار نفسه، وبدت واضحة في جميع أقواله التي تقطر أسى على البشر الذين ضلوا سبيل الهداية فغرقوا في حمأة الرذيلة، وابتلعتهم سفاهة المدنية الحديثة وعبثها، وأولئك الذين ذاقوا ويلات الاستعمار والاستعباد والإذلال على يد الأقوياء الجبابرة، وأولئك الذين راحوا ضحية حروب الكبار دون ذنب اقترفوه أو جريمة ارتكبوها، تستوي في ذلك جميع الأجناس والقوميات، لأنه ينظر إليهم بعين الرحمة القرآنية، ويأمل أن يعالجهم بوحى الله المبارك. وقد استلهم هذه النزعة من القرآن الكريم الذي جاء رحمة للعالمين، وشفاء للبشرية كلها من أسقامها وعللها .

قائمة المصادر والمراجع

١ - المصادر

- النورسي، بديع الزمان سعيد - كليات رسائل النور :
1 - الكلمات. ترجمة : إحسان قاسم الصالحي. دار سوزلر للنشر. استانبول. ط 3. 1419 هـ - 1998 م .
2 - المكتوبات. ترجمة : إحسان قاسم الصالحي. دار سوزلر للنشر. استانبول. ط 1. 1413 هـ. 1992 م .
3 - اللغات. ترجمة : إحسان قاسم الصالحي. دار سوزلر للنشر. استانبول. ط 1. 1413 هـ. 1993 م .
4 - الشعاعات. ترجمة : إحسان قاسم الصالحي. دار سوزلر للنشر. استانبول. ط 1. 1414 هـ. 1993 م .

- 5 - المتنوي العربي النوري. ترجمة : إحسان قاسم الصالحي. دار سوزلر للنشر. استانبول. ط 4. 1420 هـ. 1999
- 6 - الملاحق. ترجمة : إحسان قاسم الصالحي. دار سوزلر للنشر. استانبول. ط 1. 1415 هـ. 1995 م
- 7 - صيقل الإسلام. ترجمة : إحسان قاسم الصالحي. دار سوزلر للنشر. استانبول. ط 1. 1416 هـ. 1995 م
- ب - المراجع**
- الخطيب، د. سليمان
- 8- أسس مفهوم الحضارة في الإسلام. ديوان المطبوعات الجامعية. الجزائر
- 9 - فلسفة الحضارة عند مالك بن نبي. المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع. بيروت. ط 1. 1413 هـ. 1993 م
- الصالحي، إحسان قاسم
- 10 - بيدع الزمان سعيد النورسي، نظرة عامة عن حياته وآثاره. مطبعة النجاح الجديدة. الدار البيضاء. المغرب. 1419 هـ. 1999 م
- ضناوي، محمد علي
- 11 - مقدمات في فهم الحضارة الإسلامية. مؤسسة الرسالة. بيروت. ط 1. 1400 هـ. 1980 م
- عبود، عبد الغني
- 12 - الحضارة الإسلامية والحضارة المعاصرة. (سلسلة الإسلام وتحديات العصر، رقم 11). دار الفكر العربي. القاهرة. ط 1. فبراير 1981 م .
- قطب، سيد
- 13 - في ظلال القرآن. دار الشروق. بيروت. ط 7. 1398 هـ. 1978 م
- كاريل، ألكسيس
- 14 - الإنسان ذلك المجهول. ترجمة : شفيق أسعد فريد. مؤسسة المعارف. بيروت. ط 2. 1977 م
- المبارك، محمد
- 15 - الفكر الإسلامي الحديث في مواجهة الأفكار الغربية. دار الفكر. بيروت. ط 2. 1389 هـ. 1970 م
- بن نبي، مالك
- 16 - شروط النهضة. ترجمة : عمر مسقاوي ، وعبد الصبور شاهين. دار الفكر. دمشق. ط 3. 1967 م.
- 17 - مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي. مكتبة عمار. القاهرة. ط 1. 1971 م
- 18 - وجهة العالم الإسلامي. ترجمة : عبد الصبور شاهين. دار الفكر. دمشق. 1981 م
- م
- النجار، د. عبد المجيد
- 19 - قضايا البيئة من منظور إسلامي. وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بدولة قطر. مركز البحوث والدراسات. الدوحة. ط 1. 1999 م .

الهوامش

- 1 بن نبي ، مالك. وجهة العالم الإسلامي. ترجمة : عبد الصبور شاهين. دار الفكر. دمشق. 1981 م. ص 42
- 2 النورسي. اللغات ، كليات رسائل النور. ترجمة : إحسان قاسم الصالحي. دار سوزلر للنشر. استانبول. ط 1. 1413 هـ — 1993 م. ص 176
- 3 راجع : بن نبي ، مالك. شروط النهضة. ترجمة : عمر مسقاوي ، و عبد الصبور شاهين. دار الفكر. دمشق. ط 3. 1967 م. ص 70 و ما بعدها. و : الخطيب ، سليمان. أسس مفهوم الحضارة في الإسلام. ديوان المطبوعات الجامعية. الجزائر. ص 67 و ما بعدها .
- 4 ضناوي ، محمد علي. مقدمات في فهم الحضارة الإسلامية. مؤسسة الرسالة. بيروت. ط 1. 1400 هـ. 1980 م. ص 12
- 5 بن نبي ، مالك. شروط النهضة. ص 51
- 6 النورسي. الملاحق. ملحق أميرداغ. كليات رسائل النور. ترجمة : إحسان قاسم الصالحي. دار سوزلر للنشر. استانبول. ط 1. 1415 هـ . 1995 م. ص 379
- 7 النورسي. صيقل الإسلام. كليات رسائل النور. ترجمة : إحسان قاسم الصالحي. دار سوزلر للنشر. استانبول. ط 1. 1416 هـ — 1995 م. ص 57
- 8 النورسي. الكلمات. كليات رسائل النور. ترجمة : إحسان قاسم الصالحي. دار سوزلر للنشر. استانبول. ط 3. 1419 هـ — 1998 م. ص 858 — 859
- 9 الملاحق ، ص 109
- 10 الكلمات ، ص 296
- 11 صيقل الإسلام ، ص 499 (الهامش)
- 12 التنويري. الشعاعات. كليات رسائل النور. ترجمة : إحسان قاسم الصالحي. دار سوزلر للنشر. استانبول. ط 1. 1414 هـ — 1993 م. ص 431
- 13 صيقل الإسلام ، ص 468
- 14 الملاحق. ملحق أميرداغ. ص 377
- 15 عبود ، عبد الغني. الحضارة الإسلامية و الحضارة المعاصرة. سلسلة " الإسلام و تحديات العصر ، رقم 11 " . دار الفكر العربي. القاهرة. ط 1. فبراير 1981 م. ص 76
- 16 المبارك ، محمد. الفكر الإسلامي الحديث في مواجهة الأفكار الغربية. دار الفكر. بيروت. ط 2. 1389 هـ — 1970 م. ص 40
- 17 الكلمات ، ص 857 — 858
- 18 المصدر نفسه ، ص 858
- 19 النجار ، د. عبد المجيد. قضايا البيئة من منظور إسلامي. وزارة الأوقاف و الشؤون الإسلامية بدولة قطر. مركز البحوث و الدراسات. الدوحة. ط 1. 1999 م. ص 172
- 20 الكلمات ، ص 855
- 21 بن نبي ، مالك. مشكلة الأفكار. ص 85

- 22 الخطيب ، د. سليمان. فلسفة الحضارة عند مالك بن نبي. المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر و التوزيع. بيروت. ط 1. 1413 هـ. 1993 م. ص 199 – 200
- 23 اللغات ، ص 177
- 24 المصدر نفسه ، ص 177
- 25 الكلمات. ص 856
- 26 الروم ، 7
- 27 قطب ، سيد. في ظلال القرآن. دار الشروق. بيروت. ط 7. 1398 هـ — 1978 م. ج 5. ص 2758 – 2759
- 28 الكلمات ، ص 856
- 29 المصدر نفسه ، ص 172
- 30 المصدر نفسه ، ص 894
- 31 الملاحق ، ص 380
- 32 الكلمات ، ص 859
- 33 المصدر نفسه ، ص 861
- 34 كاريل ، ألكسيس. الإنسان ذلك المجهول. ترجمة : شفيق أسعد فريد. مؤسسة المعارف. بيروت. ط 2. 1977 م. ص 38
- 35 المرجع نفسه ، ص 43 – 44
- 36 صيقل الإسلام. ص 494
- 37 المصدر نفسه ، ص 494
- 38 صيقل الإسلام ، ص 501
- 39 المصدر نفسه ، ص 357
- 40 الكلمات ، ص 472 – 473
- 41 التتورسي. المثنوي العربي النوري ، كليات رسائل النور. ترجمة : إحسان قاسم الصالحي. دار سوزلر للنشر. استانبول. ط 4. 1420 هـ — 1999 م. ص 202
- 42 الملاحق ، ملحق قسطنوني ، ص 195
- 43 المصدر نفسه ، ص 195
- 44 المصدر نفسه. ص 214
- 45 اللغات ، ص 229
- 46 النورسي ، بيدع الزمان سعيد. الملاحق. ملحق قسطنوني. ترجمة : إحسان قاسم الصالحي. دار سوزلر للنشر. استانبول. ط 1. 1415 هـ — 1995 م. ص 181
- 47 الصالحي ، إحسان قاسم. بيدع الزمان سعيد النورسي ، نظرة عامة عن حياته و آثاره. مطبعة النجاح الجديدة. الدار البيضاء. المغرب. 1419 هـ — 1999 م. ص 207
- 48 المکتوبات. ص 27 – 424
- 49 اللغات ، ص 229

- 50 الملاحق. ملحق أميرداغ ، ص 299
51 آل عمران ، 64
52 صيقل الإسلام. ص 535
53 اللغات ، ص 229
54 الملاحق. ملحق قسطنوني. ص 215
55 صيقل الإسلام ، ص 499
56 النورسي. الشعاعات. كليات رسائل النور. ترجمة : إحسان قاسم الصالحي. دار سوزلر للنشر.
استانبول. ط 1. 1413 هـ - 1993 م. ص 115
57 صيقل الإسلام ، ص 359
58 الكلمات ، ص 295
59 المصدر نفسه ، ص 473
60 المكتوبات ، ص 606
61 الملاحق ، ملحق أميرداغ. ص 380

دور رسائل النور في بناء الحوار بين الحضارات ونشر المحبة والسلام بين الشعوب

أ.د. إبراهيم القادري بوتشيش
رئيس وحدة البحث في تاريخ الغرب الإسلامي
جامعة مولاي إسماعيل بمكناس، المغرب

محاور البحث :

- أولاً : مفهوم الحوار الحضاري في رسائل النور
- ثانياً : المنطلقات الروحية لحوار الحضارات وتعايش الهويات الثقافية في رسائل النور
- 1 - المنطلق الإيماني في الحوار الحضاري كما تثبته رسائل النور
- 2 - القيم الأخلاقية والروحية كمنطلق للحوار الحضاري في رسائل النور
- ثالثاً : أسس الحوار بين الحضارات والتعايش السلمي بين الشعوب في رسائل النور
- 1 - رفض نزعة الاستعلاء الحضاري واحترام مبدأ تعدد الثقافات
- 2 - التسامح ونبذ العنف في رسائل النور
- 3 - رؤية رسائل النور للعلم كعامل موحد لثقافات الشعوب

ما فتئ الاهتمام يتزايد في أوساط المثقفين والمفكرين، وعلى مستوى النخب السياسية والإعلامية بضرورة الحوار بين الحضارات، وإيجاد السبل لتعايش الهويات الثقافية المختلفة المشارب، من أجل خلق مناخ عالمي يتميز بالتقارب والتفاهم بين الشعوب، وإنقاذ البشرية من متاهة الضياع والانزلاق في مهاوي الأزمات الاجتماعية، والغرق في دوامة القلق النفسي، وانعدام الأمن وتفشي الجرائم والتفسخ الأخلاقي، وإذكاء الصراعات

العرقية والدينية، الأمر الذي يجعل الحوار الحضاري موضوعاً حيويًا وهدفًا يدفع البشرية إلى إقامة علاقات حوارية لتجاوز الصدام الذي يسببه مبدأ التنازع من أجل البقاء¹.

ولا يخامرنا الشك في أن الحوار الحضاري والتعايش بين الثقافات المتنوعة، يعتبر مبدأً إسلامياً متأصلاً في نصوص القرآن الكريم والأحاديث النبوية، ويعبر عن حاجة إنسانية ملحة تفرضها حالة الصراع والتدافع بين الأمم والثقافات².

وإذا كان التراث الإسلامي يزخر بنماذج من الأفكار والدعوات لبناء حوار الحضارات، فإننا سنقف في هذا البحث على إحدى النماذج الرائدة في التاريخ الحديث، تُمن تميزت بقصب السبق في إثارة فكرة تعايش الشعوب واحترام تنوع الهويات الثقافية، وخلق مناخ من السلام والتفاهم بين مختلف الحضارات الإنسانية، ويتعلق الأمر برسائل النور التي أفرزتها عبقرية المفكر المسلم بيدع الزمان سعيد النورسي رحمه الله، والتي تعدّ أداة يمكن استثمارها - بامتياز - في الوقت الراهن لحلّ الأزمات النفسية التي تعصف بعالمنا، والعنف الذي يخرق مجتمعاتنا، خاصة أنها صالحة لكل زمان ومكان كما يجمع على ذلك كل من اهتموا بدراساتها وفحصها³، مما يجعلها تساهم فيما ينشده العالم من حوار وتفاهم بين الحضارات، فهل يسمح تفكيك وتحليل نصوص هذه الرسائل من البرهنة على ضرورة الرجوع إليها لإقامة حوار بين مختلف الحضارات، وبناء مجتمع عالمي متماسك يسوده السلم والوثام؟ ذلك ما نسعى إلى الإجابة عنه في هذا البحث.

وقبل أن نضع رسائل النور على محكّ الدرس والتحليل لاستخراج عناصر المحبة والسلام والتفاهم بين الثقافات من ثنائها، بهدف إقامة الدلائل والقرائن على دورها في بعث روح الحوار بين الحضارات المختلفة، خاصة بين الإسلام والغرب، نتساءل عن مفهوم الحوار الحضاري في فكر النورسي، وذلك حتى يتأتى إدراك جوهر هذه الرسائل، وما تحمله من حلول قادرة على إنقاذ العالم ممّا ألمّ به من فراغ روحي وانحطاط في القيم، وسعي لإقامة صرح المحبة والسلام بين الشعوب.

أولاً : مفهوم الحوار الحضاري في رسائل النور :

لا مرأى في أن مفهوم الحوار الحضاري عند سعيد النورسي تولّد من معاصرته لتجربة تاريخية مرّة تسبب فيها الاستعمار، من خلال ما خلفه من كوارث ومآسي حلّت

بالإنسانية، وقسمت الشعوب وفرقتهم إلى عرقيات وطوائف متنافرة، وداست على القيم الأخلاقية، واعتدت على الخصوصيات الثقافية للشعوب المستعمرة، فجاءت أفكاره ومبادئه الداعية للحوار الحضاري سبيلا لتجاوز تلك المآسي، ومحاولة لجمع الشتات وتجنب التردّي الخلفي الذي واكبها.

لذلك فإن مفهوم الحوار الحضاري في رسائل النور يقدم بديلا موضوعيا لفكرة صدام الحضارات من خلال طرحه مبدأ " التكامل " بدل " الصراع "، و" التعايش " بدل " الإقصاء "، شريطة أن يقوم الحوار بين الحضارات على قدم المساواة، وعلى احترام تعدّد الثقافات، وهو ما نستشفه من قول سعيد النورسي :

(اعلم أن شرط انتظام الهيئة الاجتماعية أن لا تتجاف طبقات الإنسان، وأن لا تتباعد طبقة الخواص عن طبقة العوام، والأغنياء عن الفقراء بدرجة ينقطع خيط الصلة بينهم)⁴، (فانتظام الهيئة الاجتماعية) الوارد في هذه المقولة يعكس رؤية النورسي في الدعوة لتكامل الحضارات عبر نظام ربّاني تنشده الإنسانية، كما أن نداءه لثمتين خيط الصلة بين الناس كما جاء في تلك المقولة أيضا، يؤكد حرصه على ضرورة التواصل بين البشرية، لأن التواصل هو وحده الذي يفرز حوار الحضارات، في حين أن الانفصال والانقطاع يؤديان إلى هدمها .

وتأسيسا على ذلك فإن الحوار بين الحضارات في رسائل النور لا ينحصر في مجرد حوارات كلامية بين الناس، أو خطب رسمية متبادلة في المحافل والمنتديات والمؤتمرات، بل هو فلسفة نابغة من جوهر الإيمان، إيمان الإنسان بأن الله خلق البشرية لحكمة وغاية محددة، تتمثل في التآلف والتساكن لتحقيق أمر ربّاني، وهو تعميم الخير ودفع الشر عن الإنسان⁵، (لأن الخير - كما يقول النورسي - هو أصل العالم، والشرّ تبعي، ولأن الخير كلي والشرّ جزئي، لذلك لا بد من انتصار قوة الخير على قوة الشر)⁶. وهذا يعني أن الحوار منهج ربّاني منظم، ومن ثمّ فهو إلزامي لكلّ تعامل مع الغير، وشرط ضروري لنجاح مشروع عالم تتعدد فيه الهويات الثقافية كما تؤكد ذلك رسائل النور.

ويستدعي هذا الأمر إقامة التعاون والشراكات بين مختلف الشعوب والحضارات، لذلك تفيض رسائل النور بالدعوة للتعاون والتآزر، لأن الكون بجزئياته وكلّياته يحكمه

قانون إلهي واحد، هو قانون التعاون والتساند⁷، علما بأن الهدف الأسمى من حوار الحضارات هو الوصول الى هذا التعاون، مما ينهض قريئة على أهمية رسائل النور في الدفع نحو هذا الاتجاه .

كما أن الحوار الحضاري في رسائل النور ليس مجرد وسيلة لحلّ النزاعات الدولية فحسب، بل هو أسلوب للتعارف والتعايش والتكافل بين الشعوب من أجل تحسين ظروف البشرية، إنه الطريق الذي يسلك بالإنسانية مسلکا يؤدي إلى بناء علاقات أخوية متكاملة، وهو ما يسميه سعيد النورسي (بمسلك الخلة والأخوة)⁸، والأخوة هي غاية الحوار .

ويقوم الحوار الحضاري في رسائل النور أيضا على ربط أهدافه بمصلحة الأمة الإسلامية، وتحقيق إرادة المسلمين، بحيث لا يحدث أي تعارض بين الغايات المحددة لأي حوار يكون فيها الجانب الإسلامي طرفا متساويا مع الطرف الآخر المحاور .

ويلاحظ كذلك أن رسائل النور تستند في فلسفتها لحوار الحضارات وتعايش الثقافات المختلفة على المرجعية التاريخية التي تثبت أنه رغم بلوغ الحضارة الإسلامية في العصر العباسي ذروتها وقيادتها للعالم في العصر الوسيط آنذاك، فقد تعايشت مع الحضارات الأخرى في وئام وانسجام دون عقدة الاستعلاء . كما أن هذه الحضارة عاشت في قلب أوروبا حوالي ثمانية قرون متساكنة ومنسجمة مع الحضارات الأوروبية المسيحية في تناغم وتعاون كان وراء النهضة التي حققتها أوروبا فيما بعد، فما المانع من أن تتكرر هذه التجربة التاريخية في المرحلة المعاصرة؟؟

ومن ناحية أخرى فإن الحوار الحضاري في رسائل النور لا يعدّ استجابة لظرفية زمنية خاصة، أو مشروعا تجزييا يهتم منطقة من العالم دون أخرى، بل هو مشروع يتميز بالشمولية والاستمرارية لأن الرسائل النورية صالحة لكل زمان⁹، خاصة أنها تنهل من القرآن الكريم، وتعتمد على فهم نفسية الإنسان، وإدراك حاجياته الروحية والمادية، وفق منهج يقوم على النقد الداخلي والخارجي للحضارة الغربية، وإبراز عيوبها ومحاسنها، وإيجاد القاعدة المشتركة التي يقوم عليها حوار الحضارات، وهي سعادة الإنسان الروحية، وتحقيق حاجياته وبلورة النفع العام الذي يعود عليه بالخير .

إن الحوار الحضاري في رسائل النور لا ينطلق من مجرد انطباعات عامة، بقدر ما ينطلق من تشریح للحضارات، خاصة الحضارة الإسلامية ونظيرتها الغربية التي فكك النورسي مكوّناتها، وأبرز نقاط قوتها ومواضع قصورها، ليضع يده على القواسم المشتركة التي تكوّن خيطا رابطا يشكل قاعدة لحوار الحضارات .

وأخيرا فإن الحوار الحضاري وتعايش الثقافات والهويات المختلفة في مفهوم الرسائل النورية ينبع من مبدأ جعل سعادة الإنسان غاية ذلك الحوار، ما دام وجود الإنسان يشكل منطقة المركز في فكر سعيد النورسي وقطب الرحي في رسائله¹⁰ . وبعبارة أخرى فإن الحوار الحضاري من وجهة نظر رسائل النور يقوم أيضا على مبدأ تحقيق إنسانية الإنسان، فالإنسان في رسائل النور ليس هيكلا ماديا أو محض عقل منطقي، بل هو أيضا كائن حساس، فريد ومتميز، واسع الدوائر الوجودية، ذو خصائص عقلية وروحية وأخلاقية شاملة، فضلا عن أنه خليفة الله في الأرض¹¹ .

يفهم من هذا الطرح أن نظرية بديع الزمان النورسي في الحوار الحضاري تهدف إلى جعل الإنسان وسيلة لهذا الحوار وغايته في نفس الوقت، فبقدر ما يكون الإنسان طرفا في الحوار، بقدر ما يستفيد من نتائجه المتمثلة في رقيه وسعادته، وتحقيق المحبة والوئام بينه وبين الآخر في جميع الحضارات .

بناء على ذلك، فإن مفهوم الحوار الحضاري في رسائل النور يقوم على ثلاثة مبادئ تحدد مصير البشرية والعلاقة بين أطراف الحوار، وهي :

1- الإنسان غاية الحوار، والسعي لسعادته يكون عن طريق الإيمان

2- الاعتراف بالآخر واحترام التعددية الثقافية .

3- التسامح ونبذ التعصب والكراهية .

تلك بعض الخطوط العريضة التي تبرز مفهوم حوار الحضارات في رسائل النور، فما هي المنطلقات التي تشكل مصدرها ؟

ثانيا : المنطلقات الروحية لحوار الحضارات وتعايش الهويات الثقافية في رسائل النور :

إن الفاحص لرسائل النور عموما، يلحظ بكل وضوح المرجعية الإيمانية لكل ما طرحته من أفكار ونظريات، ولم تخرج رؤيتها لحوار الحضارات وتعايش الثقافات عن هذه القاعدة، ولا غرو فقد جعلت الإيمان وسيلة وغاية لحلّ مشاكل العالم، وما يعتره من اضطرابات مادية وروحية . ولعلّ قراءة متأنية فيما تتضمنه من أفكار لبناء مجتمع عالمي مثالي يسوده التفاهم والحوار المثمر، تثبت انطلاقتها من مجموعة من المنطلقات الروحية التي يمكن حصرها فيما يلي :

1- المنطلق الإيماني في الحوار الحضاري كما تثبته رسائل النور :

لقد كان بيدع الزمان سعيد النورسي متشبعا بفكرة بناء المجتمع الإنساني القائم على تعارف الشعوب وتعايشها، رغم اختلاف ألسنتها وألوانها وتعدد ثقافتها، انطلاقا من مبدأ العالمية الذي نادى به القرآن الكريم، والمتجسد في قوله تعالى : (وكذلك جعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا)¹²، وقوله جلّ وعلا (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين)¹³، وغيرها من الآيات التي تنبثق من مفهوم المجتمع الإنساني الشامل، ولا تخص فئة أو عنصرا اجتماعيا دون غيره، وهو ما تعكسه المصطلحات القرآنية الواردة في تلك الآيات مثل "العالمين" و"إليكم جميعا" و"كافة للناس"¹⁴، وهي مصطلحات تعبّر عن المجتمع الإنساني ككتلة مجتمعة لا متفرقة، موصولة لا منفصلة ؛ وبما أن رسائل النور مقبسة من القرآن الكريم كما يؤكد ذلك سعيد النورسي¹⁵، فقد كان هذا الأخير مدركا تمام الإدراك أن مبدأ العالمية الذي نادى به القرآن هو سلوك حضاري متفتح، يدعو إلى حوار الثقافات وتكامل الحضارات، لذلك وظّف الخطاب القرآني في الحضّ على إقامة علائق ودية بين المجتمعات الإنسانية، بل سعى في رسائل "المكتوبات" إلى استثمار المخزون الإيماني لتحسيس العالم بضرورة التكامل ونبذ التناكر والتخاصم¹⁶.

وإلى جانب مبدأ العالمية الذي وظفه النورسي في الدعوة لتأسيس مجتمع إنساني عالمي منفتح، وظف أيضا أداة من أدوات التقارب بين شعوب العالم، ويتعلق الأمر بأداب الحوار مع الآخر، انطلاقا من قوله تعالى : (ادفع بالتي هي أحسن، فإذا الذي بينك وبينه

عداوة كأنه ولي حميم¹⁷، وقوله عز وجلّ: (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين)¹⁸، مفهوماً الدعوة باللين والموعظة الحسنة والرحمة بالشعوب منهج سليم، ومفتاح مهمّ استخدمه النورسي في رسائله للدفع بالعالم نحو الاستقرار والتعايش في مناخ سليم وآمن، دون إكراهات سياسية أو عسكرية أو جنوح نحو الاستعلاء .

فضلاً عن القرآن الكريم، تمتحّ فكرة الحوار الحضاري في رسائل النور جذورها الإيمانية أيضاً من الأحاديث النبوية التي تصب في اتجاه العالمية، دون تمييز بين الشعوب كقوله صلى الله عليه وسلّم: (لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى)¹⁹، كما تنجّه نحو تأسيس مفاهيم الأخوة والمحبة والسلام بين الحضارات انطلاقاً من قوله (ص): (الحب في الله والبغض في الله)²⁰ .

لقد كانت الخلفية الروحية تشكل في فكر سعيد النورسي المحرك الرئيسي في نظريته للحضارات، فهو يرى أن سعادة البشرية لا تتأتى من ثرواتها أو ما تملك من خيارات على وجه الأرض، بل تأتي من روحها ووجدانها، لأن أزمة العالم هي أزمة روحية في المقام الأول، ولا يمكن أن يخرج هذا العالم من أزمتها دون مراعاة الجوانب الروحية، وإلا فإن مصير البشرية يبقى مجهول العواقب، وفي هذا السياق ورد في إحدى رسائل النورسي :

(ترى هل يمكن أن يسعد إنسان بمجرد تملكه ثروة طائلة... وهو المصاب في روحه ووجدانه، أيتها النفس الأمارة للبشرية، تأملي في هذا المثال، وافهمي منه إلى أين تسوقين البشرية)²¹ .

والحاصل أن رسائل النور تؤكد أن تفرق شعوب العالم وانقسامها إلى تجمعات عرقية متصارعة، إنما يعزى إلى عدم تحصيل نفسها بقلعة الإيمان، ولذلك فإن معالجة هذا الشرخ، وإزالة ما يعاني منه المجتمع الإنساني من حقد وكراهية، يكمن في الرجوع إلى الإيمان، لأن الإيمان حسب كلمات سعيد النورسي (يؤسس الأخوة بين كل شيء)²²، ويساهم في بناء المجتمع بناء سليماً²³ .

تطرح المقولة النورية الواردة أعلاه ثلاث معاني أساسية :

الأول تشخيصي : يعمل على تشریح أزمة المجتمع الإنساني وسبب انعدام الحوار بين الثقافات، ليصل إلى القول بعلّة افتقاره للشحنة الإيمانية .

أما الثاني فهو معنى غائي، يتمثل في تحديد الهدف من الإيمان، وهو بناء مجتمع التعايش والتجانس، أو بتعبير سعيد النورسي (مجتمع الأخوة) .

في حين أن المعنى الثالث كفي، يتجلى في كيفية صياغة مجتمع إنساني بطريقة سليمة لا اعوجاج فيها، لأن البناء السليم يعكس الاستمرارية والبقاء ما دام الإيمان يشكل أهم مكونات شخصية الإنسان الذي يبني مجتمعه²⁴ .

وبناء على ذلك فإن للإيمان دور جوهري في إشاعة التفاهم بين شعوب العالم، لما يمتلكه من سلطة روحية قوية، تؤدي كما ورد في إحدى الرسائل النورية إلى تشكيل نظام إنساني بديع يتكسر فيه الحقد والكراهية بين شعوب العالم²⁵ . وبدون الارتكاز على قاعدة الإيمان التي هي أم القواعد، تتناسل آلام وأحزان البشرية، وتسودها التفرقة ويعتريها القلق في حاضرها ومستقبلها²⁶ ، وبالتالي تنعدم فيها مؤشرات الحوار الحضاري بين الشعوب .

يستنتج من ذلك أن الخروج عن دائرة الإيمان - كما يرى النورسي- يعصف بالمجتمع الإنساني ويؤدي به إلى الاحتراب وإلى تشجيع النزعة الصدامية والأحقاد العنصرية. وفي تشخيصه لعوامل انهيار هذا المجتمع، نجده يحصره أيضا في الانفلات من سياج الإيمان والخضوع لسلطة الشهوات المادية والولع بالمتع على حساب المجال الإيماني²⁷ ، حتى أن الشعوب أصيبت بمرض خطير يطلق عليه سعيد النورسي اسم مرض (الغفلة عن الله)²⁸ ، ويرى أن أهم مشروع عملي يجدر بالإنسان القيام به اليوم هو إنقاذ الإنسان لإيمانه والسعي لإمداد إيمان الآخرين بالقوة²⁹ .

والخلاصة أن الإيمان بالله يجسّد في رسائل النور المرتكز الأساسي في علاقات الحضارات الإنسانية، فكلما كان الإيمان متجذرا في تلك الحضارات، كلما تضافرت المعطيات لتحقيق مشروع حوار الحضارات، فالإيمان هو الخيط الموجه لتعايش الشعوب والتفاهم والسلام بين الأمم والدول، وبدون الإيمان تنطفئ شعلة الحوار ليتحول إلى صدام حضاري .

2- القيم الأخلاقية والروحية كمنطلق للحوار الحضاري في رسائل النور :

إلى جانب الإيمان، تقوم فكرة الحوار الحضاري في رسائل النور على القيم الروحية والأخلاقية. فمن خلال قراءة في المفاهيم الواردة فيها، يتبين أن بناء المجتمع الإنساني الذي تتعايش في أحضانه الشعوب والحضارات في وئام وسلام، يقوم على رؤية متكونة من أمرين أساسيين :

أ - قبول التعامل مع الآخر ورفض الاتجاهات المادية المفسدة للحضارات :

ينطلق الحوار الحضاري في فلسفة رسائل النور من عدم رفض الحضارات القائمة، لكن مع انتقاد ما علق بجوهرها من شوائب، فالعلامة سعيد النورسي لم ينتقد في رسائله الحضارة الغربية في حد ذاتها، بل انتقد الأسس المادية التي قامت عليها، وانسلاخها عن القيم الروحية والأخلاقية، ولذلك سماها (بالمدنية السفهية) التي هي (نظارة إلى الدنيا يتعذر سدّها)³⁰. ونظرا لعرفها في القيم المادية، فقد أضرت بالجوانب الأخلاقية وأدت إلى ميوعتها، حتى أصبح الفرد في الحضارة الأوروبية يحتزل غايته الوجودية في إشباع بطنه وفرجه والاهتمام بلذته كما ورد في إحدى رسائل النور³¹. والأدهى من ذلك أن تأثير ميوعة الجانب الخلقي امتدّ ليشمل الأمة الإسلامية برمّتها ؛ وفي هذه الصدد يقول سعيد النورسي في إحدى رسائله : (وهنا أنه ببالغ الأسى والأسف أن قسما من الأجانب كما سلبوا أموالنا الثمينة وأوطاننا بثمن بخس ودراهم معدودة مزورة، كذلك فقد سلبوا منا قيما من أخلاقنا الرفيعة وسجاياتنا الحميدة والتي بها يترابط مجتمعنا)³². وللعبارة الأخيرة مغزى عميق في الربط بين الأخلاق وترابط المجتمع، إذ لا يمكن حسب النورسي بناء أي مجتمع بما في ذلك المجتمع العالمي، دون أخلاق رفيعة تعمل على تماسكه وتعاضده، لذلك حاول في سياق نظريته لبناء مجتمع إنساني متكامل أن يبحث عن العلاج الناجع للقيم الأخلاقية المنحطة التي باتت تكبل الحضارة الغربية المادية³³.

والجدير بالتنويه أن سعيد النورسي لم يكن رافضا للحضارة الغربية كليا، بل كان يسعى إلى تنقية تلك الحضارة مما أصابها من ميوعة حتى تتلاءم مع أخلاق المجتمع الإسلامي³⁴، معبرا بذلك عن نموذج رائع للحوار الذي لا يرفض من أجل الرفض، ولا يقصى الآخر، بل يسعى إلى التعامل معه عن طريق إيجاد قاعدة مشتركة .

ويبرز منهجه القائم على نقد الحضارة الغربية من الداخل دون رفضها رفضاً مطلقاً، بغية تلاؤمها مع القيم الإنسانية التي يدعو لها من خلال إحدى الرسائل التي يقول فيها :

(أيتها النفس لا تقلدي أهل الدنيا، ولا سيما أهل السفاهة وأهل الكفر خاصة)³⁵ .

فالمعنى الذي يقصده هذا القول يشير صراحة إلى أن سعيد النورسي لا يرفض الحضارة الأوروبية في جانبها المعنوي، بل يرفض ثقافة (أهل الكفر والضلالة)، أي تلك الثقافة المبنية على أسس مادية وإلحادية . وفي موضوع آخر من رسائله، وبالذات في " اللغات " يميز النورسي بوضوح بين حضارة أوروبا التي يسميها ب (أوروبا النافعة للبشرية)، وهي التي نهلّت من النصرانية الحقّة وأسدت خدمات جليلة للإنسانية، و (أوروبا الثانية) التي أخذت بالفلسفة المضرة والحضارة الفاسدة التي أفسدت الطبائع والأخلاق، وهي التي كان يقصدها في تحذيراته للمسلمين بعدم تقليدها³⁶ .

ب - بناء حضارة تقوم على القيم الأخلاقية :

يتمثل الشق الثاني في منهجية دعوة النورسي لحوار الحضارات في خلق إطار مشترك يوحد بين مختلف الحضارات الإنسانية، وهو الإطار الأخلاقي الذي ينبع من فطرة الإنسان، باعتبار أن الأخلاق هي التي تعمل على تحريك عجلة الحضارة البشرية وتؤدي إلى تفوق الإنسان وسيطرته على كافة الكائنات . وفي هذا المنحى، ورد في إحدى رسائله : (إن مقام الإنسان الراقي وتفوقه على سائر الأحياء وامتيازها عليها إنما هو لسجاياه السامية)³⁷ ، ومعنى ذلك أن النورسي يذهب في اتجاه أن بناء حضارة إنسانية فاعلة تتقاسم فيها الشعوب المحبة والسلام والتفاهم، لا تتأتى إلا بإحكام سياج أخلاقي يحصّن المجتمع الإنساني، ويمنع "فيروسات" الأخلاق المادية الفاسدة من التسرب إليه، فمناعة الأسرة الإنسانية لا تكون إلا بالأخلاق النابعة من الإيمان، ومن ثم تصبح المسألة الأخلاقية تمثل حجر الزاوية في أي حوار حضاري .

يتضح مما تقدم أن رؤية رسائل النور لحوار الحضارات تنبثق من اعتبار الإيمان قاعدة ثابتة لهذا الحوار، والارتكاز على القيم الروحية والخلقية التي تستلزم نقد حضارة الغرب وتنقيتها مما شابها من قيم فاسدة، والتعامل معها ومع غيرها من الحضارات في هذا السياج الروحي الذي يعد صمام الأمن من كل انزلاق نحو صدام الحضارات .

ثالثا : أسس الحوار بين الحضارات والتعايش السلمي بين الشعوب في رسائل النور

بقراءة متمعنة في رسائل النور، يمكن للباحث أن يستخرج مجموعة من الأسس التي تصلح لبناء عالم تتعايش فيه مختلف الحضارات الإنسانية في سلام ووثام، إذا ما استندت على المنطلقات الروحية التي حددناها سابقا، ويمكن إجمال هذه الأسس في ثلاثة :

1- رفض نزععة الاستعلاء الحضاري واحترام مبدأ تعدد الثقافات :

إذا كانت الحضارة الغربية قد قدمت نفسها إبان حياة بديع الزمان سعيد النورسي كحضارة مركزية متعالية حتى شَبَّهها بقارون³⁸، فقد جاءت العولمة في مطلع هذا القرن، لترفع من وتيرة هذا الاستعلاء الحضاري الذي وصل إلى حدّ الغطرسة المتمثلة في القطبية الأمريكية الواحدة، وهي القطبية التي سعت للتفرد بقيادة العالم، وإقصاء الأنساق الحضارية الأخرى، وفرض نزععة ثقافية تسلطية ترى في الثقافات الأخرى مجرد هامش تابع لها³⁹، بل حاولت فرض نمطها الحضاري على الحضارات الأخرى مكرّسة بذلك موقفا استعلائيا يمجّه العقل وينفر منه المنطق⁴⁰، لدرجة أن العلامة النورسي اعتبر الاستعلاء والغرور (مرض العصر)⁴¹.

في سياق هذه النظرة الحضارية الاستعلائية إذن، فطن سعيد النورسي إلى أن الحضارة الغربية الأوروبية تنحو نحو الاستعلاء والطغيان، وهو ما يتجلى في قوله مخاطبا إياها : (إن الذي يتلقى الدرس منك ويسترشد بهديك يصبح فرعونا طاغية)⁴²، والطغيان ينتج عنه حتما الأنانية وحب الذات، والأنانية لا تستقيم إطلاقا مع المنهج الحوارى السليم .

ففي تشخيصه لأزمات العالم، يستنتج هذا المفكر المسلم، المؤمن بقضايا الإنسانية أن أعظم المآسى التي تولّد الكوارث البشرية إنما تعزى إلى الإفراط في الأنانية وحب النفس وإقصاء الآخر⁴³، ويعبر عن شجبه لروح الأنانية وإقصاء الحضارات الأخرى في هذه الفقرة الهامة التي أوردتها في "إشارات الإعجاز" بقوله :

(لو أمعنت النظر في صحيفة العالم وتأمّلت في مساوئ جمعية البشر، لرأيت أساس جميع اختلالاتها وفسادها ومنبع كل الأخلاق الرذيلة في الهيئة الاجتماعية كلمتين فقط : إحداهما (إن شبعت فلا عليّ أن يموت غيري من الجوع)، والثانية (اكتسب أنت

لأكل أنا، واتعب أنت لأستريح أنا، فالكلمة الأولى هي التي زلزلت العالم الإنساني فأشرف على الخراب (⁴⁴).

فمن خلال تأمل هذه المقولة يفهم مدى وعي سعيد النورسي بخطور نزعتين تقوضان صرح الحضارة الغربية وهما : النزعة الاستعلائية والنزعة الأنانية اللتان تقصيان الآخر من دائرة المنفعة العامة، وتجعلانه مجرد وسيلة تركبان عليها .

ولا مرأء أنه انطلق في محاربه لنزعة الاستعلاء الحضاري من مرجعية قرآنية واضحة تقوم على أساس المساواة بين المسلمين وغيرهم من أتباع الديانات الأخرى في الحوار، وهو ما يتجلى في قوله تعالى : (قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم، ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً) ⁴⁵ . كما أن نظرتة مستمدة كذلك من إيمانه بمبدأ التكريم الإلهي للبشر جميعاً دون استثناء، مصداقاً لوله تعالى (ولقد كرّمنا بني آدم) ⁴⁶ . فالتكريم الإلهي يشمل كل الناس دون تمييز بين أي انتماء عرقي، وهو ما استندت عليه رسائل النور في رؤيتها لتساوي الحضارات البشرية .

من جهة ثانية فقد فطن سعيد النورسي في إطار نظرتة الواعية للحضارة الغربية إلى هذا البعد الإقصائي للهوية الإسلامية حين صوّر المجتمع الإسلامي كمرکز تحيط به مجموعة من دوائر الأعداء ضمن خطة مدروسة تسعى إلى اجتثاث هويته الإسلامية ⁴⁷ ، لذلك نجد في رسائله يشدد على ضرورة مراعاة خصوصية الشخصية الإسلامية التي تمتلك مقوماتها الخاصة، ويحذر من التقليد للنمط الغربي تقليداً أعمى لا يراعي القيم وتنوع الثقافات في المجتمعات الإنسانية ؛ وقد عبّر عن هذه الخصوصية في تشبيهه ببلغ ومفيد يقول فيه :

(والحال أن كل قوم يلائمه لباس على قدّه وقامته، حتى لو كان نوع القماش واحداً، فإنه يلزمه الاختلاف في الطراز) ⁴⁸ .

لعلّ هذه الشهادة تمثل قمة الوعي بضرورة تحطيم صنم النظرة الحضارية النمطية الاستعلائية واحترام تعدد الثقافات والهويات واختلافها، خاصة أن ناموس هذا الاختلاف يجد مرجعيته في القرآن الكريم، إذ يقول تعالى : (ولكل منكم جعلنا شرعة ومنهاجاً) ⁴⁹ .

فالأساس الصحيح لقيام حوار الحضارات ينبغي أن يمتح من فكر بديع الزمان النورسي الذي يدعو إلى عدم إقصاء الأنماط الثقافية المحلية حتى يكون هذا الحوار ناجحا، ويؤدي الغايات الإنسانية التي يصبو إليها، وهي تعايش جميع الهويات الثقافية مع احتفاظها بخصوصياتها .

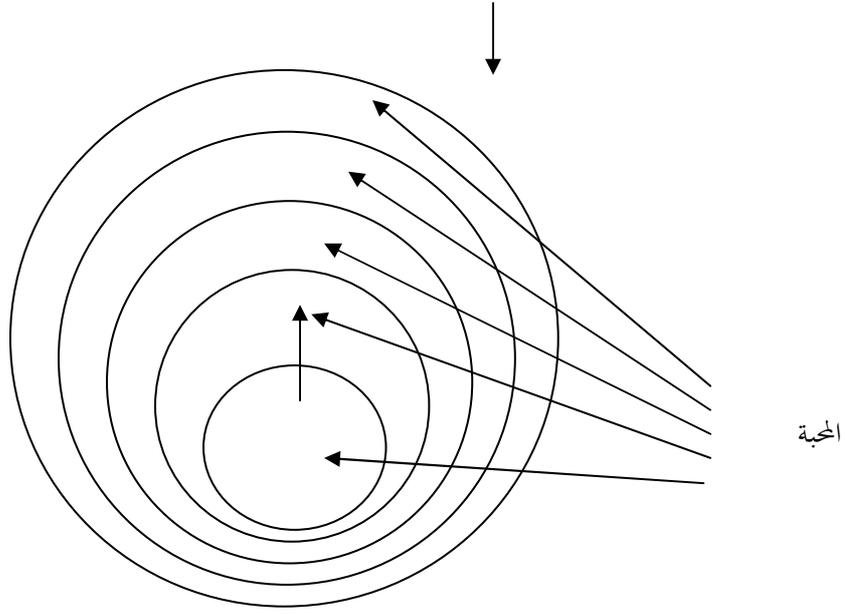
2) التسامح ونبد العنف والكرهية في رسائل النور :

يجمع الدارسون الذين اهتموا بالنظرية التربوية النورية أن سعيد النورسي اتبع منهجا متميزا يقوم على اللين والسلم، وتجنّب كل أشكال العنف من أجل الإصلاح والتغيير⁵⁰. وبما أن رسائله ترتشف معينها من القرآن الكريم، فمن البديهي أن تشكل فكرة التسامح والدعوة للمحبة ونبد العنف نصيبا هاما في طروحاتها، ولا غرو فقد ارتكزت في الدعوة للتسامح بين الأديان والشعوب على المرجعية القرآنية المتجلية في قوله تعالى : (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن)⁵¹، وهي آية تعكس التنظيم الإلهي لأسلوب الحوار، إذ تحصره في مسألتين هامتين:

1- الحكمة التي تعكس حمولة دلالية تتضافر على ما يفيد معاني التعقل والاعتدال وإحكام الأمور.

2- الدعوة والموعظة الحسنة التي هي المنهج الناجح لكسب القلوب والتمام الشمل، مصداقا لقوله تعالى : (وإن كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك)⁵²، علما أن الواعظ أو صاحب الدعوة ليس له منفعة يستأثر بها، بل تكمن غايته في إسعاد البشر⁵³، وتلك آية تؤكد أهمية المحبة بين الشعوب، باعتبارها سرّ وجود البشرية ووسيلتها وغايتها، ومركز الروابط التي تربط الحضارات الإنسانية، وبدون المحبة تنعدم الحياة في الكون، وتغدو خيرا بعد عين .

وفي ذات الوقت توضح رسائل النور فائدة ما تجنيه الحضارات البشرية من فائدة إذا ما استطلت بظل المحبة . فالحبة هي نور الأكوان وحياتها، وهي في فكر سعيد النورسي تتمدّد بين شعوب العالم عبر دوائر متعددة تبدأ بالنفس، فالأقارب ثم الأمة فالعالم، لتصل إلى كل الكائنات الحية⁵⁴، ويمكن رصد ذلك عبر البيان الآتي :



رسم بياني يوضح دوائر المحبة بين البشرية كما حددتها رسائل النور .

ومن هذا الرسم البياني تتضح أن رؤية المفكر العالم سعيد النورسي إلى العالم كانت تتم عبر سجية المحبة، من خلال دوائر متصلة متسلسلة تعكس هذا الانجذاب السحري الذي تحدثه المحبة بين شعوب العالم، والتي تتمركز في النفس البشرية أولاً لتنتقل بها نحو العالم فتغمره بقيمها البناءة التي تبني ولا تهدم، لأن البناء هو خير الإنسانية . والنتيجة هي أن غرس المحبة بين الشعوب تعد وسيلة ناجحة لدرء أخطار الحروب والصدام الحضاري والقضاء على شبح الكراهية والعنصرية بين شعوب العالم ؛ وبذلك تنحو الإنسانية نحو مبتغاهما الأصلي الذي هو الأخوة بين أفرادها، وهو الطريق الذي عبّر عنه النورسي بأنه المسلك النوري الذي هو مسلك الخلة والأخوة⁵⁵ ، ولو سار العالم على هدي هذا

المسلك النوري لما تجرع مرارة المآسي والأحزان والعنف، وويلات الحروب التي يعيشها حاليا .

وبالمثل، تتعدد في رسائل النور الإشارات والتعبيرات الواضحة الداعية إلى نبذ الخلافات والنزاعات التي تنشب نتيجة العناد والحسد والنفاق والحقد، وتدعو إلى التضامن والتعاقد⁵⁶. ورغم أن الدعوة للتضامن موجهة أصلا إلى المسلمين، فلا يساورنا شك في أن رسائل النور كانت تعني أيضا كل شعوب العالم المؤمنة المحبة للسلام ما دام مصدرها هو القرآن الذي هو خطاب إلهي موجه للعالمين. ففي الرسائل الواردة في " اللمعات" يعطي سعيد النورسي تشبيها له دلالة في الدعوة للاتحاد والتضامن، إذ يقول بهذا الخصوص أن الأرقام كلما اقتربت كبر العدد وصارت له قوة ودلالة، وكلما بعدت عن بعضها البعض نقص العدد ولم يصبح له وزن يذكر⁵⁷.

والواقع أن دعوة رسائل النور لإشاعة السلم مقتبسة من القرآن الكريم الذي يعتبر دون منازع أول نداء عالمي للسلام، وهو ما يتجلى في قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً)⁵⁸، وينهض مصطلح "كافة" دليلا على السلام العالمي الذي تتبناه رسائل النور .

وبهذه المقولات المعبرة، يتضح مدى مساهمة هذه الرسائل في الدعوة لغرس المحبة والسلام بين الشعوب، فتكون بذلك مساهمة بنصيب وافر في الدعوة لبناء حوار الحضارات، مما يجعلها صالحة لإنجاز هذا المشروع .

(3) رؤية رسائل النور للعلم كعامل موحد لثقافات الشعوب :

تطرح رسائل النور علاقة العلم بحوار الحضارات وإشاعة السلام من خلال فكرتين :
- الفكرة الأولى هي أن العلم يشكل بديلا للقوة التي تقوم عليها فكرة صدام الحضارات. فمن يتأمل تلك الرسائل، يدرك أن صاحبها كان مؤمنا بإيماننا مطلقا بفكرة أن العلم ينتصر حتما على القوة التي هي أساس الصراعات إذ يقول في هذا الصدد :
(كذلك نرى أنه بفضل انتشار العلوم في الوقت الحاضر وهيمنته بصورة عامة وفي المستقبل هيمنة تامة إن شاء الله، سيكون المهيمن، هو الحق بدلا من القوة)⁵⁹.

والحق المقصود في هذا السياق، هو العدل والمساواة بين الشعوب وإلغاء النظرة الاستعلائية لبعض الحضارات التي تتشدد بتفوقها الحضاري، فالعلم يوحد بين الحضارات، بدل أن يفرقها، ويجمعها بدل أن يشتها .

- أما الفكرة الثانية حول ما تراه رسائل النور من دور للعلم في تعايش الثقافات، فتقوم على أن غاية العلم هو سعادة الإنسانية، علما أن السعادة هي القاسم المشترك بين جميع شعوب الأرض، ومن ثم يصبح الهدف الذي يسعى إليه العلم هو التوافق والتلاؤم بين الشعوب لتحقيق سعادة البشرية . بيد أن سعيد النورسي يربط تحقق سعادة العالم التي تحصل عن طريق العلم بالإيمان، لأن العلم الذي يؤدي إلى سعادة الإنسانية يوصل حتما إلى معرفة الخالق⁶⁰، ومع معرفة الخالق، يخضع الإنسان لنظامه العادل، هذا النظام الذي يجب أن يكون أساس السلام العالمي و حوار بين الحضارات .

وتأسيسا على ذلك، فإن العلم الذي تنشده رسائل النور هو العلم النافع، المقترن بالإيمان، وبالتالي لا ينبغي أن يستغل استغلالا مشوها لتدمير الإنسانية عن طريق توظيفه لصناعة الأسلحة الفتاكة ونشر الرعب والإرهاب في العالم .

والحاصل أن رسائل النور بقدر ما تطرح مجال العلم كحاجة إنسانية ضرورية وملحة، بقدر ما تعتبرها ركيزة من ركائز الحوار الحضاري وتعايش الهويات الثقافية المختلفة في سلام ووثام، لأنها تؤدي إلى غاية مشتركة بين الشعوب وهي سعادة الإنسانية من جهة، وإلى معرفة النظام الرباني الذي تتبنى عليه فكرة تعايش الحضارات من جهة أخرى، وبذلك تصبح دعوة سعيد النورسي للأخذ بناصية العلم وسيلة لتوحيد الشعوب وتعايشها في إطار حوار حضاري .

من حصيلة هذا البحث، نستنتج أن رسائل النور طرحت أفكارا ناضجة وواضحة حول أسس التعايش السلمي بين الهويات الثقافية المتعددة، والحوار بين الحضارات المختلفة، وذلك من خلال استنادها على مرتكزات روحية تنطلق من البعد الإيماني والقيم الأخلاقية . كما أنها تشكل مصدرا هاما للباحثين والمفكرين لإيجاد المنهج المناسب لحوار الحضارات والتفاهم بين الشعوب، من خلال مدهم بمجموعة من الأفكار والتصورات العملية التي تصلح لحوار الحضارات، وتتجلى على الخصوص في احترام تعدد الهويات

الثقافية، ومراعاة خصوصياتها، ونبذ العنف والكرهية، والدعوة للمحبة والسلام، والأخذ بناصية العلم، باعتبار أنه عامل موحد لثقافات العالم، ما دام يسعى لسعادة البشرية التي هي قاسم مشترك بين جميع هذه الشعوب .

وبكلمة جامعة مانعة، فإن رسائل النور تشكل مرجعا هاما لتحقيق فكرة الحوار بين الحضارات والشعوب، وتعايش الهويات الثقافية المتعددة، إذا كان هذا الحوار مستندا على القاعدة الإيمانية، والقيم الروحية التي دعا إليها المفكر المسلم بديع الزمان سعيد النورسي في رسائله، خاصة قيم التسامح والمحبة والسلام التي تنشدها الإنسانية .

انتهى بحمد الله

مكتبة البحث

المصادر الأصلية :

- 1- القرآن الكريم، سديروم، الإصدار الأول 6.0، شركة صخر.
- 2- صحيح البخاري، طبعة صيدا- بيروت 1421 هـ \ 2000 م، (ط6)، المكتبة العصرية للطباعة والنشر.
- * كليات رسائل النور لبديع الزمان سعيد النورسي، وتشمل :
 - 3-المجلد 1 : الكلمات، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، دار سوزلر للنشر، (ط2)، القاهرة 1412 هـ \ 1992 م .
 - 4-المجلد 2 : المكتوبات، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، دار سوزلر للنشر، (ط2) القاهرة 1413 هـ \ 1992 م .
 - 5-المجلد 3 : اللمعات، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، دار سوزلر للنشر، (ط2)، القاهرة 1413 هـ \ 1993 م
 - 6-المجلد 4 : الشعاعات، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، دار سوزلر للنشر، (ط2) القاهرة 1414-1993 هـ .
 - 7-المجلد 5 : : إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز، تحقيق إحسان قاسم الصالحي، دار سوزلر للنشر، (ط2)، القاهرة 1414 هـ \ 1994 م .
 - 8-المجلد 6 : المثوي العربي النوري، تحقيق إحسان قاسم الصالحي، دار سوزلر للنشر، (ط1)، القاهرة 1415 هـ \ 1995 م .
 - 9-المجلد 7 : الملاحق في فقه دعوة النور، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، دار سوزلر للنشر، (ط2)، القاهرة 1416 هـ \ 1995 م.
 - 10-المجلد 8 : صيقل الاسلام، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، دار سوزلر للنشر، (ط2) القاهرة 1415 هـ \ 1995 م.
 - 11-المجلد 9 : سيرة ذاتية، إعداد وترجمة إحسان قاسم الصالحي، دار سوزلر للنشر، (ط2)، القاهرة 1419 هـ \ 1998 م.
 - 12-الإيمان وتكامل الإنسان، (الكلمة الثالثة والعشرون من كتاب الكلمات)، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، بغداد 1984 (ط1)، منشورات مكتبة القدس .

المراجع والدراسات الحديثة :

- 13- أديب إبراهيم الدباغ، **مطارحات في المعرفة الإيمانية عند النورسي**، طبعة القاهرة 1997 هـ-1417هـ (ط1) مركز الكتاب للنشر .
- 14- إسلام أون لاين، موقع في الإنترنت، (**صفحة خدمات طلبة النور**).
- 16 - آدم طاطلي، (**نظام التربية لدى بديع الزمان**)، بحث منشور ضمن كتاب : **بديع الزمان سعيد النورسي وإعادة بناء العالم الإسلامي**، أعمال مؤتمر عالمي حول تجديد الفكر الإسلامي، إستنبول (27-29 سبتمبر 1992)، سوزلر للنشر، القاهرة 1997، البحوث غير العربية .
- 17- **بديع الزمان النورسي، فكره ودعوته**، وقائع الحلقة الدراسية المتعددة في قاعة المركز الثقافي الإسلامي بعمّان، بتاريخ 7 صفر 1418 \ 12 حزيران 1997، نشر المعهد العالي للفكر الإسلامي - مكتب الأردن - مركز بحوث رسائل النور - تركيا، عمّان 1997 .
- 18- **ذكريات عن سعيد النورسي**، ترجمة أسيد إحسان قاسم، مركز الكتاب للنشر، طبعة القاهرة 1997 .
- 22- **عبد الله محمود الطنطاوي، منهج الإصلاح والتغيير عند بديع الزمان النورسي**، دار القلم بدمشق - الدار الشامية - بيروت 1997 -1418هـ (ط1) .
- 25- **محسن عبد الحميد، النورسي متكلم العصر الحديث**، سوزلر للنشر، القاهرة 1995 .
- 26- **محمد رشدي عبيد، (ملامح تربوية في رسائل النور)**، بحث منشور ضمن كتاب : **بديع الزمان سعيد النورسي وإعادة بناء العالم الإسلامي**، أعمال مؤتمر عالمي حول تجديد الفكر الإسلامي، إستنبول (27-29 سبتمبر 1992)، سوزلر للنشر، القاهرة 1993، البحوث العربية .
- 28- **المهدي المنجرة، عوامة العوامة**، منشورات الزمن، كتاب الجيب 18، مطبعة النجاح، الدار البيضاء 2000 .

الهوامش

- 1 جواد فريد زاده، ((الأفق المعنوي وضرورة حوار الحضارات))، مجلة المنطلق الجديد، عدد 3، صيف - خريف 2001، ص 20 .
- 2 الشيخ محمد علي التسخيري، ((الأمة وخيار السلام العالمي في إطار العلاقات المتوازنة بين الحضارات))، مجلة الاجتهاد، عدد 53، خريف - شتاء 2002-1422هـ، ص 65 .
- 3 بديع الزمان سعيد النورسي، سيرة ذاتية، إعداد وترجمة إحسان قاسم الصالحي، دار سوزلر للنشر، (ط2)، القاهرة، ص 366 .
- 4 بديع الزمان سعيد النورسي، إشارات الإعجاز، تحقيق إحسان قاسم الصالحي، دار سوزلر للنشر، (ط2)، القاهرة 1414 هـ \ 1994 م، ص 54 .
- 5 مصداقا لقوله تعالى : ((وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان)) سورة المائدة، آية 2
- 6 بديع الزمان النورسي، صيقل الإسلام - محاكمات عقلية، ترجمة إحسان قاسم، دار سوزلر للنشر، (ط2)، القاهرة 1415 هـ \ 1995 م، ص 53 .
- 7 محسن عبد الحميد، النورسي متكلم العصر الحديث، سوزلر للنشر، القاهرة 1995، ص 191 .
- 8 بديع الزمان النورسي، سيرة ذاتية، ص 351 .
- 9 يقول سعيد النورسي عن رسائل النور بأنها ((تنور هذا العصر والعصر المقبل))، انظر : الملاحق في فقه دعوة النور - ملحق قسطنطيني، دار سوزلر للنشر (ط2)، القاهرة 1416 هـ \ 1995 م، ص 100 .
- 10 أديب إبراهيم الدباغ، مطارحات في المعرفة الإيمانية عند النورسي، القاهرة 1997 م - 1417 هـ (ط1)، مركز الكتاب للنشر، ص 10 .
- 11 محمد رشدي عبيد، ((ملامح تربوية في رسائل النور))، بحث قدم ضمن أعمال المؤتمر العالمي حول تجديد الفكر الإسلامي المنعقد بإستمبول من 27 إلى 29 شتبر، 1992، سوزلر للنشر 1993، ص 84 .
- 12 سورة الحجرات، آية 13 .
- 13 سورة الأنبياء، آية 107 .
- 14 أنظر على التوالي : سورة سبأ، آية 28 - سورة الأعراف، آية 158،
- 15 بديع الزمان سعيد النورسي، سيرة ذاتية، ص 367 .
- 16 بديع الزمان النورسي، المكتوبات، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، دار سوزلر للنشر، (ط2)، القاهرة 1413 هـ \ 1992 م، ص 413-414 .
- 17 سورة فصلت، آية 3 - ينظر أيضا : بديع الزمان النورسي، المكتوبات، ص 339 .
- 18 سورة الأنبياء، آية 107 .
- 19 مسند الإمام أحمد، سيدروم - بديع الزمان النورسي، المكتوبات، ص 318
- 20 أخرجه الإمام أحمد، ينظر : صحيح البخاري، كتاب الإيمان، طبعة صيدا- بيروت 1421 هـ \ 2000 م، (ط6)، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، ج1، ص 27.

-
- 43 بيدع الزمان سعيد النورسي، **الملاحق في فقه دعوة النور** - ملحق أمير داع، ص 260 .
- 44 بيدع الزمان سعيد النورسي، **إشارات الإعجاز**، ص 54 .
- 45 **سورة آل عمران**، آية 64 .
- 46 **سورة الإسراء**، آية 70 .
- 47 بيدع الزمان سعيد النورسي، **المكتوبات**، ص 343-349 .
- 48 نفس المصدر، ص 147 .
- 49 **سورة المائدة**، آية 51 .
- 50 عبد الله محمود طنطاوي، مرجع سابق، ص 539 .
- 51 **سورة النحل**، آية 125 .
- 52 **سورة آل عمران**، آية 159 .
- 53 عبد الهادي بوطالب، ((عالمية الإسلام ونداؤه للسلام ودعوته للتعايش والاعتراف بالآخر))، مجلة الاجتهاد، عدد 53، خريف-شتاء 2002-1422هـ، ص 53 .
- 54 بيدع الزمان سعيد النورسي، **الكلمات**، ص 412 .
- 55 بيدع الزمان سعيد النورسي، **سيرة ذاتية**، ص 351 .
- 56 بيدع الزمان سعيد النورسي، **المكتوبات**، ص 439-449 .
- 57 بيدع الزمان سعيد النورسي، **اللمعات**، اللمعة 21، ص 243 .
- 58 **سورة البقرة**، آية 208 .
- 59 بيدع الزمان سعيد النورسي، **صيقل الإسلام** - محاكمات عقلية، ص 51 .
- 60 بيدع الزمان سعيد النورسي، **الشعاعات**، الشعاع 11، ص 257 . وانظر أيضا نفس المفكر : **اللمعات**، اللمعة 30، ص 532 .

المسلمون والعلاقات الإنسانية في ضوء كليات رسائل النور

أ.د. أحمد عبد الرحيم السايح

القاهرة

إن الباحث في معالم كليات رسائل النور للإمام بديع الزمان سعيد النورسى يعلم: أن الإنسان في التصور الإسلامي قمة الكائنات الحية التي تعيش على وجه البسيطة، وأفضلها وأكرمها. لما أودعه الله فيه من مزايا، وميزه من صفات.

وبداية لا بد أن ندرك: أن الثقافات العالمية بدأت تتلاقى. نتيجة ثورة وسائل الاتصال والانتقال.

فالجهد المتبادل بالآخر على مستوى العالم لم يعد قائما..

كما أن الحواجز بين الشعوب والثقافات سقطت.

وصار الناس في أجزاء مختلفة من العالم يتعرفون على بعضهم فيكتشفون أوجه الاختلاف والاتفاق.

كذلك هناك الإحساس المتبادل بين المجتمعات الإنسانية بوجود أخطار مشتركة على العالم كله. تتجاوز حدود الثقافات، والعقائد الدينية، والقوميات. مثل العنف في العالم، ونفاد الموارد خصوصا المياه، وتدمير البيئة نتيجة الإسراف في التصنيع⁽¹⁾.

وقد لا يخفى: أن الحياة الإنسانية المعاصرة. تشكل في الواقع إحدى السمات للعصر الحاضر.

فالنمو المتصاعد للثقل النوعي للبلدان النامية في الاقتصاد العالمي، وفي السياسة الدولية، وهضمتها الثقافية التجديدية. سواء المرتبطة بتعرفها خصائص الثقافة العالمية وقيمها. أو بتنشيط التراث الثقافي لهذه البلدان وإحيائه مجددا، والتأثيرات المتسارعة لمنجزات الثورة العلمية التقنية.

وعمليات الهجرة إلى قارات ومجتمعات أخرى، وتطور وسائل المعلومات، والاتصال الجماهيري. والسياحة العامة على نطاق جماهيري. كل هذه المعطيات غيرت وجه العالم، وغيرت رؤية الناس، وإدراكهم لهذا العالم الجديد أيضا.

وبالإضافة إلى ذلك: فإن تطور العلم الذي أسهمت فيه العلوم الإنسانية إسهاما كبيرا. خاصة في ميادين: التاريخ، والأنثوغرافيا، والأنثروبولوجيا، وعلم النفس. أغنى كثيرا الرصد العقلي للإنسانية جمعاء. بحيث ساعد بدوره على تكون نمط جديد من التفكير، وظهور أساليب وطرق متجددة مبدعة في دراسة الكون ومشكلاته العامة من زاوية إنسانية شمولية⁽²⁾.

وقد لا يخفى على باحث أن: ابتعث رسول الله — صلى الله عليه وسلم — كان منعطفًا تاريخيًا في حياة الناس جميعًا، وتحولًا حضاريًا متميزًا في نهج حياتهم وتعاملهم.

تحول الخطاب فيه من قومية الأديان، ومحدودية مقاصدها، إلى عالمية الإسلام وشمولية دعوته، وتكامل مقاصده، ومن عزلة المجتمعات البشرية، وتضادها، وتصارعها إلى وحدة الأسرة البشرية، وتعاون مجتمعاتها.

حيث سمع الناس لأول مرة في تاريخهم الإنساني. فكرة المجتمعات الإنساني الواحد. كما سمعوا أيضا لأول مرة فكرة. التعايش السلمي بينهم. من غير تمايز بينهم على اختلاف أقوامهم، وأجناسهم، وأعراقهم، وأديانهم، وأوطانهم⁽³⁾.

وكان النبي — صلى الله عليه وسلم — يعمل على نشر الإخاء الإنساني. الذي يتجاوز المسلمين إلى غير المسلمين. لذا نجد الرسول — صلى الله عليه وسلم — يعقد مع اليهود حلفا أساسه التعاون على الخير، وحماية الفضيلة، ودفع الأذى، وحماية المدينة. من كل اعتداء، ومنع الظلم، وردع المجرمين العابثين بالأمن. وأكد النبي صلى الله عليه وسلم ذلك بالمواثيق.

وهذه الآية الكريمة جاءت لتقرر مبادئ إسلامية في علاقات المسلمين بالغرب والشرق، وكل الناس.

— مبدأ الاعتراف بالآخرين.

— مبدأ الحوار وأهميته.

— مبدأ احترام المشيئة الذاتية لدى الآخر.

— مبدأ استشراق المستقبل في ظل علاقات إنسانية سامية.

ولهذا نرى الإمام بيدع الزمان سعيد النورسي يقول: "أوروبا النافعة بما استفاضت بين النصرانية الحققة، وأدت خدمات الحياة الإنسانية الاجتماعية. بما توصلت إليه من صناعات وعلوم تخدم العدل والإنصاف"⁽⁶⁾.

وفي تاريخ التفاعل المتبادل بين الشرق الإسلامي والغرب. لعبت العلاقات الإسلامية المسيحية دورا خاصا.

فالمسيحيون والمسلمون على حد سواء. كانوا يتصفون دائما بإدراكهم الرابطة الروحية المشتركة — وإن كانت محدودة الأبعاد — وفي الوقت نفسه كانوا يدركون الاختلاف الجوهرى بالنسبة لخبراتهم في المجال الثقافي الأيدلوجي.

وبدءاً من انتشار الإسلام، ونشوء الخلافة الإسلامية. ظهر التضاد الديني: "الأيدولوجية بين الغرب والشرق العربي". ولكن عملية التواصل الثقافي بين الإسلام والغرب لم تنقطع كلياً⁽⁷⁾.

وإذا كان الإسلام يدعو إلى الحوار مع غير المسلمين، واللقاء بالغربيين. فقد كان هناك لقاء عملي تم بين الشرق الإسلامي والغرب المسيحي. من خلال المؤسسات العلمية التي قامت في الأندلس.

حيث جاء أبناء الغرب من الجزر البريطانية، ومن فرنسا، وألمانيا، والأراضي المنخفضة وغيرها. يأخذون عن المسلمين علومهم، وعادوا بها إلى بلادهم. حيث استطاع الغرب بذلك أن يؤسس نهضة صناعة وزراعية.

الأسباب الظاهرية في خلق الكائنات ونتائجها، ويعرف العلاقات بين العلل والأسباب المتسلسلة. كل ذلك يثبت أن الإنسان أشرف مخلوق وأكرمه⁽¹²⁾.

وليست هذه أو تلك دعاوى كما يريدون أن يصوروا. إنما هو الإسلام الذي عرف للإنسان كرامته، وأدميته وبشريته بالصورة المثلى التي يجب أن تكون.

وقد يكون واضحاً. أن آيات القرآن الكريم. حفلت بذكر الإنسان والناس والبشر في كثير من المواضع والمواقع.

وأنت إذا تأملت تلك المواضع والمواقع. وجدت أن القرآن الكريم. يخص من هذا الكون مخلوقاً هو الإنسان. فيتحدث عنه مرات كثيرة. بل يخصه بالمخاطبة. لأنه هو المقصود. ولكنه في الوقت نفسه يشير إلى موقعه من هذا الكون.

فالإنسان أولاً: نوع من أنواع أخرى في هذا الكون. يشترك معها في أمور، ثم يتميز عنها. فهو مخلوق من تراب في الأصل.

قال تعالى: [إن مثل عيسى عن الله كمثل آدم خلقه من تراب] [سورة آلا عمران. الآية 59].

والإنسان ثانياً: نوع من أنواع الحيوانات. يدخل في تصنيفها، ويشترك معها في أمور.

قال تعالى: [والله خلق كل دابة من ماء. فمنهم من يمشى على بطنه ومنهم من يمشى على رجلين ومنهم من يمشى على أربع] [سورة النور: الآية 45].

والإنسان ثالثاً: نوع متميز عن الحيوان. كما يبدو في قوله تعالى في: [ثم أنشأناه خلقاً آخر] [سورة المؤمنون: الآية 114]. وذلك من جهة خلقه وتكوينه الجسمي.

والإنسان رابعاً: يتميز بجانب روح: أشارت إليه آيات كثيرة. كقوله تعالى: [فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين] [سورة الحجر. الآية: 29].

فالإيمان بالرسول السابقين جزء من العقيدة الإسلامية. فالإسلام إذا هو الدين الجامع. وهو آخر أدوار الرسالة الإلهية، وهو الجامع بينها.

والإسلام كذلك دين الوحدة الإنسانية الجامعة. فالناس جميعا سواء. بالنسبة للأحكام الإسلامية. وهو يقرر الوحدة بأصل التكوين. فيقول سبحانه وتعالى: **[وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلّفوا]** [سورة يونس: الآية 19].

ويقول سبحانه وتعالى: **[كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين]** [سورة البقرة: 213].

فكان الاتحاد في أصل التكوين من حيث اتحاد الغرائز، والاتجاهات الإنسانية سببا في الاختلاف. لأن آحاد الناس يتنازعون استجابة لغرائز كل واحد منهم. إذ إنه حيث استجاب كل واحد لغرائزه تصطدم إرادته مع إرادة الآخر. الذي استجاب هو أيضا لغرائزه. فيكون التناحر. حيث تصطدم الشهوات، وتتنازع الإرادات.

وكل يجب لنفسه الاستيلاء على أكبر قدر من المطالب، والوصول إلى أقصى ما يجب من الغايات. ولذلك كان لابد من فاصل يرسم الحدود، ويقيد الغايات لتتلاقى في خط مستقيم. من غير انحراف، ولا تقاطع. بل يكون لكل خط مواز لخط أخيه. وكل الخطوط تنتهي إلى خدمة الجماعة الإنسانية. وبذلك تتحدد الغايات والأهداف⁽¹⁵⁾.

لقد جعل الإسلام اختلاف الناس شعوبا وقبائل للتعارف والتعاون. لا للتباغض والتنازع. ولذلك قال سبحانه: **[يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير]** [سورة الحجرات: الآية 13].

فاختلاف الشعوب له غاية جليلة أرادها الله سبحانه وتعالى. وهو التعارف. وهذا التعارف له ظواهر:

- الظاهرة الأولى: اللقاء على مودة وتراحم في أمن وسلام.
- والظاهرة الثانية: التعاون على أن ينتفع الإنسان بكل خيرات الأرض.
- والظاهرة الثالثة: تكريم الإنسان في هذه الأرض⁽¹⁶⁾.

وقد لا يخفى على أهل العلم: أن التعارف يقود إلى التعاون المستمر البناء الذي يفيد الإنسانية كلها.

إن منهج القرآن يعلم المسلمين، ويؤكد عليهم: إن البشرية مدعوة بأمر ربها — جل شأنه — للتعارف، والتعايش. وفق القيم، والمعايير الإسلامية على اختلاف أجناسهم، وأعراقهم وأديانهم، وألوانهم.

وإن إتيان الحق، ومجانبة الباطل. هو أساس التنافس بينهم. وهو أساس معيار القرب والبعد من تقوى الله ومرضاته. قال تعالى: [يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير] [سورة الحجرات. الآية 3].

— إن الإسلام الحنيف يؤكد أن أساس دين الله يقوم على إقامة العدل بين الناس والعدل حق للناس أجمعين⁽¹⁷⁾.

وأساس الأحكام الإسلامية المنظمة لعلاقات الناس جميعا بعضهم مع بعض أحادا وجماعات هو العدل. قال تعالى: [إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون] [سورة النحل: الآية 90].

— إن الإسلام يقر بمشروعية التدافع الإنساني. ومنهجية التدافع بين الناس قائمة على أساس التنافس في جلب المصالح، ودرء المفاسد، مما يوفر للمجتمعات الإنسانية الأمن والاستقرار.

وهذا مؤكد في قوله تعالى: [ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين] [سورة البقرة: الآية 143].

ومن جهة أخرى. فإن التدافع بين الناس يؤدي إلى حماية حريات الناس في معتقداتهم، وأنماط حياتهم، وصيانة معابدهم على اختلاف مللهم، وهذا في قوله تعالى: [ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا] [سورة الحج: الآية 40].

الحبة: ان اجدر شئ بالحبة هو الحبة نفسها. واجدر صفة بالخصومة هي الخصومة نفسها. أي ان صفة المحبة التي هي ضمان الحياة الاجتماعية البشرية والتي تدفع الى تحقق السعادة هي أليق للمحبة، وان صفة العدو والبغضاء التي هي عامل تدمير الحياة الاجتماعية وهدمها هي اقبح صفة واضرها واجدر أن تُتجنب وتُنْفَر منها⁽²³⁾.

فان كنت حقاً تحب نفسك فلا تفسح له مجالاً ليدخل قلبك، وان كان قد دخل فعلاً واستقر فلا تصغ اليه، بل استمع الى حافظ الشيرازي ذي البصيرة النافذة الى الحقيقة حيث يقول: "نيل الراحة والسلامة في كلا العالمين توضحه كلمتان: معاشرة الاصدقاء بالبروءة والانصاف. ومعاملة الاعداء بالصفح والصفاء"⁽²⁴⁾.

خلاصة البحث :

إخوتي الكرام : إن القيم الدينية لنحن في أمس الحاجة إلى إبرازها واستغلالها في سبيل تحقيق الوفاق والصدقة والأمن بيننا نحن البشر. إن العدالة كقيمة دينية شاملة والعنف كظاهرة اجتماعية دولية أمران متلازمان في الوجود بمعنى أن تحقيق العدالة الاجتماعية يلزم منه زوال العنف، والعنف كما قلنا له اتجاهان أحدهما خطير والآخر أكثر خطورة ؛ العنف الأفقي الذي يحصل بين الأفراد وبين الشعوب. والعنف الرأسي (السلطوي) الذي يضطلع به السلطة والذي يتمثل في اتخاذ القرارات والسياسيات الدولية غير العادلة من قبل السلطة، وهذا أكثر خطورة من العنف الأفقي لأنه لم يظهر بقدر ما ظهر العنف الأفقي. فتحقيق العدالة كما يقتضى زوال العنف الأفقي يقتضى كذلك العنف السلطوى. وإن الزهد في المادة كقيمة دينية أصبح قضية مهمة من قبل زعماء العالم حيث جعلوا المادة هدفا فأصبحوا في هذه الحياة غير مستقرين نفسياً فعاشوا في كبرياء بأعلى درجاتها لأنهم يفعلون ما يشاءون دون أخذ مصالح غيرهم بعين الاعتبار، هذا ما صرح به سعيد النورسي في إحدى لمعاته : لا تعطي لغير الله قدراً من الأهتمام أكثر من اللازم إلى درجة أنك تعبه، ولا تعطي لنفسك قدراً من الإهتمام أكثر من اللازم إلى درجة إنه يؤدي بك إلى التكبر والغطرسة. وعلينا أن نتكاتف في تحقيق مبادئ الأخوة والمحبة التي تقتضي منا ممارسة المصالحة والانفتاح الحضاري وليس الصراع الذي يعود على محبتنا وأخوتنا بالهدم .

يُحيي الأرض بعد موتها، إنّ ذلك لمحيي الموتى، وهو على كل شيء قدير" ⁵³ ،
ويسترسل الإمام الصالح في إثبات توحيد الله وثماره، في رسائل كثيرة، منها :

الشعاعات - نافذة على التوحيد / 782-832 - الكلمة الثانية والعشرون - 12
برهانا، مشاهدات سائح يسأل الكون عن خالقه / 141-190 ، براهين التوحيد /
192-223، كلمة لا شريك له / 35-38 والكلمات - الكلمة الثانية والعشرون
- 12 برهانا - حول حقيقة التوحيد / 310 - 324، الكلمة الثانية والثلاثون /
706-780 .

وختاماً، "فإن إنكار الله تعالى يعني إنكار الوجود بالكامل، وإنكار نفسك، وما
دامت أجزاء الكون منتشرة، فلا بد من أن مالكتها واحد، ولها قوانينها الواحدة، وتدل
على أن المهيمن عليها واحد، والوحدة تدلّ على الواحد" ⁵⁴ .

ثم يعقب فضيلة الإمام (ع) على هذا التحليل الإيماني الذكي بقوله : " أيها الإنسان
إن قضاء ألف سنة من الحياة الدنيا لا يساوي ساعة واحدة من حياة الجنة ! وإن قضاء
حياة ألف سنة بسرور كامل في نعيم الجنة لا يساوي ساعة من فرحة رؤية جمال الحميل
سبحانه ، ثم يختم قوله : لا تحزنوا ولا تبكوا منذ دخولكم القبر، بل استبشروا خيراً،
واستقبلوه بابتسامه وفرح ! " ⁵⁵ .

2- نبوة محمد (ص) - حبيب الله :-

حين الحوار حول نبوة محمد (ص)، لا بد من براهين قاطعه تظهر في الحوار لإقناع
الطرف الآخر، وتمثل هذه البراهين، بما ذكره الإمام الصالح (ع):

براهين نبوته (ص) :- أهمها ما يلي بإيجاز دقيق :-

1- إخبار الله محمداً (ص) بنبوته، ومن أصدق من الله قيلاً: (هو الذي أرسل رسوله
بالمهدي ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً، محمد رسول الله..) ⁵⁶ .

" وهل يمكن ألاّ يجعله رسولا، وألا يريد أن يسري خلقه الحسن إلى الخلق أجمعين " ⁵⁷ !

2- (الإجماع على صدق نبوته)⁵⁸ إجماع آل البيت المتمثل بقول الإمام على(ع):
(لو رفع الحجاب ما ازددت بقينا بمحمد (ﷺ)، وإجماع الصحابة، وإجماع الجماعات
العظيمة من العلماء الأجلاء، " وإن دلالة لغز العالم صدق نبوته " ⁵⁹.

3- " وإن المعجزات الأحمديّة أكثر من 300 معجزة " بل الألف " ⁶⁰، وأمثلة
الغيب تزيد على الألف ⁶¹، بدلائلها القاطعة وأسانيدها الموثقة، وإن الشريعة التي تجلّت
من أميِّ (ﷺ) ودان لها خمس البشرية دليل على صدقها " ⁶²، [بل ربعتها].

وما أجمل قول الإمام (ع) بمدح محمد (ﷺ) حين قال : " ما مدحت محمدا بمقالتي،
ولكن مدحت مقالتي بمحمد (ﷺ) " ⁶³.

4- القرآن الكريم، معجزته الكبرى، وفيه (40) وجها في اللوامع في بلاغته
الفائقة ⁶⁴ وسيأتي الحديث عنها بإيجاز.

5- الإرهاصات (الحوادث الخارقة قبل نبوته ووقت ولادته) ⁶⁵ :-

- ما رأته أمه حين ولادته ..نورا أضاء لنا ما بين المشرق والمغرب " ⁶⁶ وارتجاج إيوان
كسرى وسقوط شرفاته الأربعة عشرة، وغيض بحيرة ساوة، وكان عمرها 2000 عام .

- إظلال الله له بالغمامة في سفره، رأها حليلة السعدية، وبعدها بجيرا الراهب (عم
خديجة)، وملكان يظلاله كالغمام ، وغلماها ميسره " ⁶⁷.

- إن الذباب كان لا يقع على جسده ولا ثيابه .

- كثرة رجم الشهب بعد مولده، لا سيما ليلة مولده .

6- إخباره (ﷺ) بأنباء الغيب بالأزمنة السابقة والأنبياء السابقين، وهي كثيرة ⁶⁸، " بل
هي تزيد على الألف " ⁶⁹.

7- معجزاته عن المستقبل، لا يصلح أن تكون جميعها خارقة للعادة، حينئذ لا تتحقق فيه القدوة والأسوة، فكانت تظهر أحيانا أمام الكافرين والمعاندين وتثبيتا للمؤمنين، وأهمها ما يأتي بإيجاز⁷⁰:-

أ- أخباره الغيبية بما سيصيب الآل والأصحاب من بعده :-

- (إن ابني هذا سيد، ولعلَّ الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين)، وهو الإمام الحسن (ع)، وبعد 40 سنة تحققت المعجزة مع معاوية وجيشهما .

- الزبير (لتقاتلته وأنت ظالم له)، عندما رآه (ρ) وعليًا يتحابان، وذلك في موقعة الجمل .

- قال (ρ) لأزواجه الطاهرات : (كيف بإحداكن تنبح عليها كلاب الحوآب يقتل عن يمينها وعن يسارها خلق كثير)⁷¹ ! ، وبعد (30) سنة تحققت في موقعة الجمل .

- أخبر عليا بمقتله : (الذي يضربك يا عليّ على هذه، حتى تبلّ منها هذه) -أي تبلّ لحيته من دم رأسه، وكان علي يعرفه، وهو عبد الرحمن بن ملجم الخارجي .

- (إن الحسين (ع) يقتل بالطّفّ - أي كربلاء - وبعده 50 سنة تحققت الفاجعة .

- وأخبر (ρ) أن (أهل بيتي سيلقون بعدي مني قتلا وتشريداً)⁷² ، وان (أول الناس هلاكا قريش، وأول قريش هلاكا أهل بيتي)⁷³ .

- (افترقت (73) فرقه، الناجية واحدة وهي الجماعة، و72 في النار)⁷⁴ .

ب- أخباره الغيبية عن أصحابه وأمته من بعده :-⁷⁵

- أعلم أصحابه بالظهور على أعدائه - فتح مكة وبيت المقدس واليمن والشام والعراق و [القسطنطينة] ، وخير، وعن قسمتهم كنوز كسرى وقيصر⁷⁶ .

- إخباره بالخليفتين من بعده وأمهما سيؤديان حقها : (اقتدوا باللذين من بعدي أبي بكر وعمر)⁷⁷ .

- (إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها ، وإن أمي سيبلغ ملكها ما زوي لي فيها)⁷⁸ .

- حدث أصحابه عن غزوة مؤتة، على مسيرة شهر، كمن يشاهد أحداثها⁷⁹ .

- أخبر أن الخلافة بعده (30) عاما ، ثم تصير ملكا عضوضاً، ثم عتواً وجروتا⁸⁰ ، وتكتمل الثلاثون بخلافة الإمام الحسن ستة أشهر .

- أخبر أن سيدنا عثمان سيقتل وهو يقرأ المصحف، وكانت أول فطرة من دمه على

الآية (فسيفكفكم الله، وهو السميع العليم)⁸¹ ، فما مات رجل منهم سوا

- احتجم (ρ) وشرب عبد الله بن الزبير دمه الطاهر تبركا، ولم يسكبه، فقال له (ρ) :
(ويل للناس منك ، وويل لك من الناس)⁸² ، وكانت خلافته عشر سنين .

- أخبر (ρ) بظهور الدولة الاموية وولاية معاوية، (إذا ملكت فاسجع أو فانفج)⁸³ .

- خروج ولد العباس بالرايات السود وملكهم أضعاف ما ملكوا، ويحكمون مدة أطول⁸⁴ .

- أخبر عن فتن جنكيز خان وهولاكو وتدميرهم الدولة العباسية (ويل للعرب من شرّ
قد اقترب)⁸⁵ .

- أخبر عن زوال الدولة الفارسية: (إن هلك كسرى فلا كسرى بعده)⁸⁶ .

- أخبر عن البصرة وبغداد قبل أن تعمرا، وجي الأرض إلى بغداد، في أحاديث كثيرة
صحيحة .

- أخبر عن وفاته قبل شهرين (بأن عبداً خيراً فاختار ما عند الله)⁸⁷

ج- معجزاته من خلال الجمادات : منها :-⁸⁸

- كلام الضبّ والذئب والظبي والحمل والحجر والشجر وانخلاعها من أماكنها ومجيئها إليه - متواترة، والجدع.... إلى ألف من المعجزات!

- أما الحجر فقد قال الإمام علي (ع): إني رأيت حجراً يسلم على رسول الله (ص) قبل بعثته، وإني لأعرفه وأعلم مكانه .

- أما الجذع فكان حنينه إليه (ص) بعد أن هجره إلى المنبر كصوت العشار، حتى جاءه النبي (ص) فوضع يده عليها فسكت، حتى ارتج المسجد لحواره، حتى تصدّع وانشق لشدة بكائه فبكى الناس لبكائه، وقال (ص): (والذي نفسي بيده لو لم ألتزمه لم يزل هكذا إلى يوم القيامة، وفي رواية البخاري أن الرسول (ص) دعا الجذع إلى نفسه، فجاءه يحرق الأرض، فالتزمه، ثم أمره فعاد إلى مكانه . وكان عثمان (ع) يقول: يا عباد الله، الخشبة تحنّ إلى رسول الله شوقاً إليه وبكاء، فأنتم أحق أن تشتاقوا إلى لقاءه⁸⁹ .

- تفل (ص) في عين علي (ع) في خيبر فبرئت .

د- معجزاته (ص) باستجابة دعائه: ⁹⁰

- كان (ص) يستسقي بنزول المطر قبل نبوته وبعدها، فينزل المطر .

- دعاؤه (ص): (اللهم أعزّ الإسلام بأبي جهل بن هشام أو بعمر بن الخطاب، فاصبح فغدا عمر على محمد (ص) فأسلم)⁹¹ .

- شعرات من شعره (ص) وضعها خالد في قلنسوته، ودعاء الرسول له، فلم يشهد قتالا إلاّ رزق النصر .

8- معجزاته والبشائر بنبوته من خلال التوراة والإنجيل والزيور وصحف الأنبياء⁹²:

- القرآن يتحداهم بتكذيبهم بنبوته: (قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين)⁹³ ، " وينسخ الأديان الأخرى، ويغير ملامح الكون "⁹⁴ .

- ليس في الكتب السابقة آية واحدة تكذب محمدا (p)، واستخرج العالم حسين الجسر- رحمه الله 110 دليلا على نبوته من الكتاب المقدس.

- ومن أدلة البشائر بنبوته (p) في التوراة ما يلي، وأهمها :

○ (وقال : يا موسى إني مقيم لهم نبيا من بني إخوانهم مثلك وأجري قولي في فمه، والرجل الذي لا يقبل قول النبي الذي يتكلم باسمي فأنا أنتقم منه)⁹⁵.

○ وفي الزبور، وهو من أسفار التوراة (يا داود يأتي بعدك نبي يسمى أحمد ومحمداً صادقاً سيّداً، أمته مرحومة)⁹⁶.

○ إن الله قال لإبراهيم : (إن هاجر تلد ويكون من ولدها من يده فوق الجميع، ويد الجميع مبسوطة إليه بالخشوع)⁹⁷، وهو إسماعيل (U) أبو العرب .

○ (وقال : جاء الرب من سيناء وأشرق لنا من ساعير، ستعلن من جبل فاران، ومعه ألوف الأطهار في يمينه)⁹⁸ ، سيناء إشارة إلى نبوة موسى، وفاران من جبال الحجاز بالاتفاق.

وفي الإنجيل أدلة كثيرة، أهمها : -

● (وإني أطلب من ربي فيعطيك فارقليطا يكون معكم إلى الأبد)⁹⁹ ، والفارقليط هو الفارق بين الحق والباطل، وهو اسم النبي (E) في تلك الكتب، وهو أحمد والمعزى والمحمنا¹⁰⁰ ، وقد ورد في نصوص أخرى في التوراة بهذه المسميات¹⁰¹.

● (الحمد لله في الأعالي، وعلى الأرض إسلام، وللناس أحمد)¹⁰² ، غير أن المترجمين ترجموه هكذا : (الحمد لله في الأعالي، وعلى الأرض السلام، وبالناس المسرة).

أما بشارات إنجيل برنابا الصريحة بمحمد ففي سبعة مواضع أهمها قوله:..ولو لقيته - الكلام لعيسى(U)، لما كنت أهلا أن أحلّ شسع نعله)¹⁰³ ، وفيه نصوص خالدة لا يسمح البحث بذكرها .

9- معجزته الكبرى القرآن الكريم .

10- النبي الكريم هو ذاته معجزة، كامل في الخلق والخلق، ويكفيه امتداح الله له : (وإنك لعلی خلق عظیم) . فیا حسرة علی الغافلین ویا حسارة علی الضالین، ویا عجباً من بلاهة اكثر الناس، كيف تعاملوا عن هذا الحق الصادر ممن تفدى له الأرواح، ويُسرّع إليه بترك الدنيا وما فيها¹⁰⁴، إنه برهان قاطع على السعادة الأبدية، بدعوته وهداياته، تضرّعه يهيج بكاء الكائنات، فيشركها في دعائه، والكون جميعه يقول : آمين . انه يدعو إلى البقاء واللقاء والجنة والرضا .

3- صدق القرآن الكريم :-

تعريفه :- هو الذي يعرف ربنا لنا، ولسان الغيب، وهو الترجمة الأزلية لكتاب الكائنات الكبير، ومفسر كتاب عالم الغيب والشهادة، وخزينة للمخاطبات الإلهية، وخريطة مقدسة للعوالم الأخروية، والقول المفسر الساطع لذات الله وصفاته، والحكمة الحقيقية لنوع البشر، وكتاب شريعة للإنسان ودعاء وعبودية وكتاب فكر وكتاب ذكر، وهو الكتاب الوحيد الجامع لكل الكتب السابقة .

وهو كتاب دعاء ودعوة، يكون تكراره أحسن وأبلغ بل ألزم، إذ الذكر يكرر، والدعاء يردد، والدعوة تؤكد، إذ في تكرير الذكر تنوير، وفي ترديد الدعاء تقرير، وفي تكرار الدعوة تأكيد . وهو غذاء القلوب والعقول.¹⁰⁵ ..

إعجازه -بلاغته معجزه :-

إن أبرز صفة لكتاب الله إعجازه، لذا تحدى الله عزّ وجلّ البشرية، في ثلاث آيات، آخرها قوله تعالى

(وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله ، وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين، فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار)¹⁰⁶ .

من أجل هذا أكد سماحة الإمام (ع) على إعجازه في عشرات المواضع من رسائله الكريمة، واعتبر "المعجزات القرآنية هي شمس رسائل النور" ¹⁰⁷.

غير انه أوجزها في صورتين :-

الصورة الاولى :- نزوله على العرب الأميين، وهم في قمة الفصاحة " اذ كانوا يحفظون محاسن تأريخهم في شعرهم وبلغ كلامهم شفاها، كتبوا سبع قصائد بماء الذهب (المعلقات السبعة) على جدار الكعبة، لقد أنزلت ابنة لبيد قصيدة أبيها من على جدار الكعبة، قائلة: (أما وقد جاءت الآيات فليس لمثلك هنا مقام!" ¹⁰⁸.

وعندما سمع أعرابي الآية الكريمة : (فاصدع بما تؤمر) ¹⁰⁹ حرّ ساجداً، فقبل له: أسلمت؟ قال: لا، بل سجدت لبلاغة هذه الآية" ¹¹⁰، ويورد أمثلة رائعة كثيرة...

الصورة الثانية - من خمسة اوجه:-

- 1- نظم القرآن جزالة خارقة، وضرب له أمثلة كثيرة .
- 2- بلاغته في معناه، وضرب أمثلة رائعة .
- 3- البداعة في أسلوبه، مع ضرب أمثلة رائعة .
- 4- الفصاحة الخارقة في لفظه بدلالة عدم إيرائه السأم والملل، ولو كرر ألف المرات لم يزد إلا حلاوة ولذة .
- 5- براعة البيان - أي التفوق والمتانة والهيبة، كما في الترغيب والترهيب والمدح والذم والإثبات والإرشاد والإفهام والإقحام . ، وهو " يحدّث الجنس الإنساني كلاً على قدر قدرته" ¹¹¹.

ولقد أكدّ الإمام الراحل (ع) في إعجاز القرآن على انشقاق القمر، وفي عدة مواضع من رسائله، وأهم ما ذكر هو إثبات لإعجاز كتاب الله، كما هو دليل على إثبات نبوة

الكافرون، هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق، ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون) ¹²¹، لذا فإن الإمام τ يقول "إن مستقبل الإسلام في آسيا باهر" ¹²².

وهو يؤمن (أن أوروبا وأمريكا حبالى بالإسلام، وستلدان يوماً ما دولة إسلامية كما حبلت الدولة العثمانية بأوروبا، وولدت دولة أوروبا) ¹²³ ويعقب على هذا بقوله: (إن الإسلام وحده سيكون حاكماً على قارات المستقبل حكماً حقيقياً ومعنوياً، وهو الذي سيقود البشرية إلى السعادتين الدنيوية والآخرية وهو يؤمن

(أن أوروبا وأمريكا حبالى بالإسلام، وستلدان يوماً ما دوله إسلامية كما حبلت الدولة العثمانية بأوروبا، وولدت دولة أوروبا) ¹²⁴ ويعقب على هذا بقوله: (إن الإسلام وحده سيكون حاكماً على قارات المستقبل حكماً حقيقياً ومعنوياً) ¹²⁵

ويؤكد هذا المعنى الإمام بقوله (كل إنسان راع في ملكه وعالمه، مكلف بالجهاد الأكبر في عالمه الأصغر ومأمور بالتحلي بأخلاق النبي (P) وإحياء سنته الشريفة، وإن أزهير مزرعة آسيا وأفريقيا وبساتين نصف أوروبا ستفتح وتزدهر بنور الإسلام) ¹²⁶.

الخاتمة

إن الهدف الرئيس من الحوار إقناع الغرب بشبانية الإسلام وصلاحه للبشرية أبد الدهر، إذ هو دين الله الخالد، وعجز حضارته عن تحقيق سعادة الإنسان، والبون بينهما شاسع: (فضل كلام الله على سائر الكلام، كفضل الله على خلقه) ¹²⁷. وحين يتحقق الهدف من حوار الأديان والحضارات، يتبين الخداع القائم والجمالات الزائفة، وتُشاد العلاقات على صدق الحقائق، لا الأوهام والمصالح ولا منطق القوة والبطش.

غير أن هذا الحوار بحاجة إلى سلاح العلم، وهو مادة الحوار في (التوحيد وصدق نبوة محمد، وصدق القرآن، وعالمية الإسلام في تشريعه، كما يحتاج الحوار إلى شجاعة في القول: (فاصدع بما تؤمر) ¹²⁸، كما يحتاج الحوار إلى حكمة وأدب وخلق وجو هادئ حلیم (ادعُ إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة، وجادلهم بالتي هي أحسن) ¹²⁹.

- 9 سورة آل عمران/17
 10 سورة العنكبوت /46
 11 الكلمات / 473
 12 سورة الكهف / 29
 13 سورة البقرة / 256
 14 الكلمات / 473
 15 سورة القصص/50
 16 الكلمات / 472، 473
 17 سورة البقرة / 43
 18 سورة البقرة / 275
 19 الكلمات 473،474
 20 أما اليهود ، فيندر أن يستجيب منهم للإسلام في عمر التأريخ واليوم ، بما في قلوبهم من حقد على الإسلام والمسلمين : (لتجدنَّ أشدَّ الناسَ عداوةً للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا) أما النصارى فاستجابتهم أسرع في الماضي والحاضر : (ولتجدنَّ أقربهم مودةً للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى) - (سورة المائدة / 82) ، والامام لا يدعو الى الحوار معهم.
 21 سورة البقرة /136
 22 المكتوبات / 288-297 باختصار شديد
 23 ولا يمكن اجتماع الضدين ، لا عقيدة ولا عقلا ولا عاطفة . يقول القرآن الكريم في كفر النصارى : لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم - المائدة/ 17 لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة - المائدة / 73 اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم- التوبة/ 31
 24 الكلمات / 325
 25 سورة آل عمران /64، وفي الكلمات /472
 26 سورة الأعراف / 54
 27 الشعاعات / 143
 28 سورة الأعراف /172-175
 29 الشعاعات / 8-47
 30 سورة السجدة /7
 31 سورة الفرقان /2
 32 سورة الزمر /62، 63 ، وفي الكلمات من الكلمة 22/324
 33 سورة الطور/35
 34 الكلمات/338
 35 سورة القمر /50
 36 سورة النمل/88
 37 سورة تبارك-3
 38 سورة الأنبياء /22 ، الكلمات /338
 39 سورة يونس / 61
 40 سورة يس /40 .

مساهمة القيم الدينية في التفاهم ودورها في إصلاح العالم الممزق

أ.د. عبد الحليم عويس
أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية
القاهرة

تمهيد

الحضارة المعاصرة بين القانون والأخلاق

من البديهي أن كل الدول لها قوانين وتشريعات، وإلا لما سميت دولاً، ولديها قضاء وشرطة وجيش وأجهزة أخرى مساعدة.

ومع ذلك تنشر الجرائم وترتفع نسب تعاطي المخدرات وينتشر الكذب وتنهار الحياة الاجتماعية.. وكل ذلك يقع مع وجود تطور في الأجهزة والمعدات وقوى الرصد والأموال التي تُغذق على هذه الأجهزة.

وهذا يدل على أنه ليس بالقانون وحده يستقيم أمر الإنسانية، وأنه لا بد من الدين والأخلاق والضمير.

ومن الجدير بالذكر أن هناك جرائم كثيرة يرفضها الدين والأخلاق ويقرها القانون، وذلك مثل جريمة الزنا عند التراضي، وجريمة شرب الخمر، وأخيراً وليس آخراً جريمة تقنين الشذوذ الجنسي وإباحة زواج الرجل بالرجل والمرأة بالمرأة.

مع أنها عوامل هدم للمجتمع الإنساني، تمتد تحت رعاية القانون.

وإلى جانب هذا فإن الأخلاق المنبعثة عن عقيدة صحيحة تتجاوز الأفكار الجامدة، والمفاهيم المجردة التي لا حياة فيها، وتقود صاحبها إلى التعرف على الضمير الأخلاقي الذي يعيش فيه، وتدفعه إلى الترجمة العملية عن هذا الضمير، ولهذا فهو يتعرف — أيضاً — على صوت الحق المطلق.. ويترجم في قلبه الرسالة السماوية لخالقه، ولهذا نجد يلمح الفكرة الحقيقية الحية والمؤثرة، ويشعر أنه مرتبط بها ارتباطاً عضوياً، ويستمد منها على الدوام القوة والنور، ويشعر نحوها بأعمق مشاعر الاحترام؛ ممزوجة بأرق مشاعر الحب، هذه الشعلة العاطفية التي تحرك إيمانه العقلي، تغذي في الوقت نفسه "طاقاته الخلاقة"، وهو حين يتوقف أو يسقط لا ييأس.. إنه يعاود الوقوف على قدميه، ومتابعة المسيرة؛ معتمداً على تلك القوة الهائلة التي يستمد منها العون.. وبذلك يمكن القول إن الأخلاق لا تجتهد مكاناً أكثر خصوبة تزدهر فيه من ضمير المؤمن.

إن القيم الأخلاقية حين تمتزج امتزاجاً كاملاً مع الأوامر والنواهي الشرعية سيعملان معاً على الوصول بالإنسان إلى أعلى درجات الإنسانية، وذلك عن إيمان داخلي، لا عن إرغام (قانوني) خارجي؛ فالالتزام الخلقي المنبعث عن عقيدة يستبعد الخضوع المطلق مثلما يستبعد الحرية الفوضوية، ويضع الإنسان موضعه الحقيقي؛ بين المادة الصرف، والروح الصرف⁽³⁾.

ومن منطلق تحديد المصطلحات والتصورات فقط؛ نذكر أننا نقصد بالأخلاق ذلك الالتزام الأخلاقي الذي ينبعث في أعماق الفرد نتيجة التربية الإسلامية التي تجعل الإنسان يلتزم بالشرعية وبالقيم الأخلاقية؛ ليس خضوعاً للعقوبات والحدود الشرعية، ولكن مراقبة لله، وحباً له، وخوفاً من عقابه الأخروي، ورغبة في الثواب وفي الحياة الآخرة، وإذ كان علم الأخلاق يتعلق بموضوعه بالسلوك البشري فإن الإسلام لا يرضى بالسلوك المجرد، بل يعطى أهمية خاصة للباعث (النية) والهدف، ولهذا فنحن نميل إلى ذلك التحديد الذي يحاول تعريف علم الأخلاق ملتزماً بالرؤية الإسلامية، فيرى أنه "علم يهتم بدراسة قواعد السلوك البشري وتطبيقاته في ظل أصول عقديّة وغايات حددها الشريعة، كما حددت ضوابط هذا السلوك، بما

— وفي الحث على التوكل يقول الله تعالى في القرآن: "فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ" (12).

— وفي الحث على الصبر: "وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ" (13).

— وفي النهي عن الفخر والكبر: "إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا" (14).

— وفي النهي عن الخيانة: "إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا" (15).

— "إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ" (16).

— وفي النهي عن الفساد يقول الله تعالى: "وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ" (17).

— "وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ" (18).

— وفي الأمر بالتوبة يأتي التعبير القرآني: "إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ" (19).

— "فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَّطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ" (20).

— وفي النهي عن الاعتداء: "وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ" (21).

— "ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ" (22).

وهذا الأسلوب في الأوامر والنواهي الأخلاقية القائمة على الحب وعلى النية الحسنة والهدف النبيل خصيصة أخرى تسمو بالأخلاق إلى أرفع المراتب، وتجعلها فوق العلائق القانونية والمنفعية والشخصية... إنها (علاقة حب) في الله...

ومن هذه العلاقة السامية ترشح الأخلاق بأزكى آيات السمو، وتصل إلى أعلى مستوى أخلاقي يستطيع الإنسان أن يصل إليه.

لقد كان الشيخ سعيد النورسي مستوعباً لهذه الرؤية الإسلامية لمصطلح القيم الأخلاقية، كما كان مستوعباً للتأصيل القرآني لها، وهو التأصيل المستقى من الآيات القرآنية السابقة وغيرها، مما هو مبثوث في سور القرآن الكريم كلها، وفي الأحاديث النبوية أيضاً.

ونحن بدورنا نعالج - انطلاقاً من هذه الرؤية الإسلامية لمصطلح القيم الأخلاقية - موقف بيدع الزمان سعيد النورسي من (مساهمة القيم الدينية في التفاهم، ودورها في إصلاح عالمنا الممزق)!!.

الحلول العقلية للأخلاقية : مصايح كاذبة مؤقنة :

منذ قرنين من الزمان، والحضارة الأوروبية (وأمریکا جزء منها) تطرح نفسها حلاً قاهراً ضرورياً للإنسانية، على أساس أنها تملك (القوة) وتملك (العقل) وأنها التي سبقت في مضمار التقدم الحضاري بمعناه المادي والشيء!!

ولا أحد يجادل في أسقية الحضارة الأوروبية خلال القرنين الأخيرين في مجال القوة والعقل وما يتولد عنهما من سبق في الاختراع والتقنية والنظم!!

لكننا كنا نأمل أن تملك أوروبا قدرة نقدية تناقش من خلالها مسيرتها الحضارية، لتعرف - في المقابل - تلك السلبيات التي تراكمت على الطريق، وكادت تقتل في الإنسان معانيه الإنسانية والأخلاقية.. لقد طار الإنسان في الأجواء لكن قلبه وضميره وروحه قد انغرست في الوحل.... وأصبحت تربية أرضية لا تستطيع أن ترنو إلى ما فوق المادة والمصلحة الذاتية، فضلاً عن أن تنظر إلى السماء، وتجمع بين البصر والبصيرة، والعقل والجسد والروح...!!

وفي المقابل لم يرتفع المسلمون - إلا في حالات خاصة - إلى المستوى الذي يستطيعون منه أن يجاوروا أوروبا محاورة نديّة - على قدم المساواة - ليصّروها بعيونها.. التي توشك أن تقضي بها على الإنسانية، ولاسيما وهي القائدة - بل والمسيطرة - على الإنسانية منذ قرنين، مع أن لدى المسلمين أدلة دامغة من داخل البناء الحضاري الأوربي نفسه، ذلك البناء الذي أفرز حربين عالميتين قضتا على عدد من البشر يفوق كل ضحايا الحروب السابقة في التاريخ الإنساني كله، وأما الأموال التي أنفقت فيهما - ثم في الحرب الباردة خلال نصف القرن الأخير من القرن العشرين - فقد كانت كفيلاً بإسعاد كل بيت في الأرض من الناحية المعاشية!!

يضاف إلى ذلك انتشار النظريات العنصرية، والصراعات القومية، والمذاهب الفوضوية والعدمية، والمخدرات والشذوذ الجنسي والزنا والاعتصاب بمعدلات نموّ ثابتة تهدد الحضارة الأوروبية - أولاً - والإنسانية كلها ثانياً....

لقد كان أكثر المسلمين يشعرون بدونية وانهمجية أمام التفوق الطاغوي للحضارة الأوربية في عالم التسليح والتقنية والاختراعات.. ولا يستطيع بعضهم — (إلا على استحياء أو بنوع من الرفض الكامل أو الحماس الانفعالي غير المقبولين) — مناقشة الحضارة الأوربية في جوانبها السلبية بنديّة وعلمية ورؤية إنسانية ثاقبة.

لكن بديع الزمان سعيد النورسي قد ارتفع إلى هذا المستوى النادر، وناقش الحضارة الأوربية مناقشة العالم والطبيب الصريح المحايد قائلاً :

يا أوروبا التي نأت عن النصرانية وابتعدت عنها، وانغمست في السفاهة والضلالة!

لقد أهديت بدهائك الأعور كالدجال لروح البشر حالة جهنمية، ثم أدركت أن هذه الحالة داء عضال لا دواء له؛ إذ يهوي بالإنسان من ذروة أعلى عليين إلى درك أسفل سافلين، وإلى أدنى درجات الحيوان وحضيضها، ولا علاج عندك أمام هذا الداء الويل إلا ملاحيك الجذابة التي تدفع إلى إبطال الحسّ وتخدير الشعور مؤقتاً، وكمالياتك المزخرفة وأهواؤك المنومة.. فتعسا لك ولدوائك الذي يكون هو القاضي عليك.. نعم.. إن ما فتحت أمام البشرية من طريق، يشبه هذا المثال المذكور.

يا أوروبا الثانية الفاسدة (أي أوروبا التي تركت المسيحية والقيم) إنك تستندين إلى أسس واهية نخرة، فتزعمين أن كل كائن حي مالك لنفسه، ابتداءً من أعظم ملك وانتهاءً إلى أصغر سمك.. كل يعمل لذاته فقط، ولأجل نفسه فحسب، ولا يسعى أحد إلا لذته الخاصة، ولأجل هذا له حق الحياة، فغاية همته وهدف قصده هو ضمان بقائه واستمرار حياته⁽²³⁾.

ثم أنك ترين (قانون التعاون) جارياً فيما بين المخلوقات امتثالاً لأمر الخالق الكريم الذي هو واضح جلي في أرجاء الكون كله كإمداد النباتات للحيوانات، والحيوانات للإنسان، ثم تحسبين هذا القانون والسنة الإلهية وتلك التجليات الكريمة

الرحيمة المنبثقة من ذلك التعاون العام جدالاً وخصاماً وصراعاً، حتى حكمت
ببلاهة أن الحياة جدال وصراع !

فيا سبحان الله !! كيف يكون إمداد ذرات الطعام إمداداً بكمال الشوق لتغذية
خلايا الجسم جدالاً وخصاماً؟ بل ما هو إلا سنة التعاون، ولا يتم إلا بأمر رب
حكيم كريم (24).

وإن ما تستندين إليه من "أن كل شيء مالك لنفسه" واضح البطلان، وأوضح
دليل عليه هو أن أشرف الأسباب وأوسعها إرادة واختياراً هو الإنسان، والحال أنه
ليس في يد اختياره ولا في دائرة اقتداره من أظهر أفعاله الاختيارية كالأكل والكلام
والتفكير، إلا جزء واحد مبهم من بين المائة، فالذي لا يملك واحداً من المائة من
مثل هذا الفعل الظاهر كيف يكون مالكاً لنفسه.

فيا أوربا؛ ما ورطك في هذا الخطأ المشين إلا دهاؤك الأعور؛ أي ذكاؤك
المنحوس الخارق؛ فلقد نسيت بذكائك هذا رب كل شيء وخالقه، إذ أسندت
آثاره البديعة إلى الأسباب والطبيعة الموهومة !! وقسمت ملك ذلك الخالق الكريم
على الطواغيت التي تعبد من دون الله، فانطلاقاً من هذه الزاوية التي ينظر منها
دهاؤك الأعور؛ يضطر كل ذي حياة، وكل إنسان أن يصارع وحده مالا يعد من
الأعداء، ويحصل بنفسه على مالا يجد من الحاجات، بما يملك من اقتدار كذرة،
واختيار كشعرة، وشعور كلمعة تنطفئ، وعمر كدقيقة تقضي م مع أنه لا يكفي
كل ما في يده لواحد من مطالبه (25).

إن دهاءك المظلم قد قلب نهار البشرية ليلاً؛ ذلك الليل البهيم؛ بالجور والمظالم؛
ثم تريدين أن تنوري ذلك الظلام المخيف بمصاييح كاذبة مؤقتة !! هذه المصاييح لا
تبتسم لوجه الإنسان، بل تستهزئ به، وتستخف بضحكاته التي يطلقها ببلاهة؛
وهو متمرغ في أحوال أوضاع مؤلمة مبكية !! فكل ذي حياة في نظر تلاميذك
مسكين، مبتلى بمصائب ناجمة من هجوم الظلمة، والدنيا مآثم عمومي، والأصوات
التي تنطلق منها نعيات الموت، وأنات الآلام، ونياحات اليتامى.

إن الذي يتلقى الدرس منك، ويسترشد بهديك يصبح "فرعوناً" طاغية.. ولكنه فرعون ذليل، إذ يعبد أحس الأشياء، ويتخذ كل شيء ينتفع منه رباً له.

وتلميذك هذا "متمرد" أيضاً.. ولكنه متمرد مسكين، إذ لأجل لذة تافهة يقبل قدم الشيطان، ولأجل منفعة خسيسة يرضى بمتتهى الذل والهوان.

وهو "جبار" وكلنه جبار عاجز في ذاته لأنه لا يجد مرتكزاً في قلبه يأوى إليه (26).

إننا لا نجد في الحقيقة وصفاً دقيقاً للحالة الحضارية الأوربية يرقى إلى هذا المستوى العميق الذي وصل إليه الأستاذ النورسي!!

الحل الإسلامي الأخلاقي مصباح حقيقي دائم للإنسانية :

وفي مقابل تلميذ أوربا المقهور داخلياً على هذا النحو؛ وإن بدا ظاهره غير ذلك؛ يبين النورسي خصائص تلميذ القرآن.. الإنسان المسلم الذي من المفروض فيه أن يجمع بين العقل والقلب، والمادة والروح، والضمير والأخلاق .

إن النورسي يصف هذا الإنسان (تلميذ القرآن) قائلاً : أنا التلميذ المخلص الخالص للقرآن الكريم فهو "عبد" ولكنه لا يتنزل لعبادة أعظم مخلوق؛ فهو "عبد عزيز" لا يرضى حتى بالجنة؛ تلك النعمة العظمى غاية لعبوديته لله (27)، (والمقصود أنه يسعى إلى رؤية الله بعد دخوله الجنة، وأنه لا يؤثر مصالحه على الآخرين).

وهو "لين هين"، ولكنه لا يتذلل لغير فاطره الجليل، ولغير أمره وإذنه؛ فهو صاحب همّة عليا، وعزيمة صادقة.

وهو "فقير"، ولكنه مستغن عن كل شيء بما ادخر له مالكة الكريم من الثواب الجزيل.

هو "ضعيف" ولكنه يستند إلى قوة سيده المطلقة (28).

ويقدم النورسي توضيحاً أكثر لهذه المقارنة بين تلميذ الفلسفة والحضارة الأوربية، وبين إنسان وعبد (الفلسفة القرآنية) فيقول:

إن تلميذ الفلسفة يفر من أخيه أثره لنفسه، و يقيم عليه الدعوى، أما تلميذ القرآن فإنه يرى جميع عباد الله الصالحين في الأرض والسموات إخوانا له، ويشعر من أعماق روحه بأواصر شوق تشده نحوهم؛ فيدعو لهم دعاء خالصاً نابعاً من صميم قلبه : (اللهم اغفر للمؤمنين والمؤمنات)؛ فهو يسعد بسعادتهم.

إن القرآن الكريم يمنح تلاميذه ثناء سامياً للروح، وانبساطاً واسعاً لها.

وهكذا؛ فالحقائق التي تراها الفلسفة السقيمة الأوربية بدعائها الأعور مشوهة زائفة؛ يراها الهدى القرآني، واضحة جلية؛ ذلك النور الذي ينظر إلى كلام العالمين معاً بعينين براققتين نافذتين إلى الغيب، ويشير بكلتا يديه إلى السعادتين ... (29) سعادة الدنيا والآخرة معاً، وسعادة العقل والروح معاً، وسعادة الفرد والجماعة معاً. بتكاملية لا صراعية، وبحب لا بمصلحة، وبإيمان قلبي؛ لا بمجرد سلوك ظاهري.

جوهر الأخلاق وأزمة الإنسانية المعاصرة

كانت لفظة رائعة من بيدع الزمان سعيد النورسي إشارته إلى أن الصدق هو (أسّ الإسلام) فهذا يعني أن (الصدق) هو (جوهر الأخلاق)، شريطة أن يكون صدقاً مع الله، ومع النفس، ومع الناس، أي صدقاً كاملاً منسجماً مع الفطرة والعقل الصحيح والدين الحق.

ولعله لهذه المكانة (للصدق) كان الشرط الأول من الشروط التي يجب أن تتحقق في كل الأنبياء والمرسلين — عليهم السلام — ولهذا — أيضاً كان الرسول محمد — عليه السلام — يعرف (بالصادق الأمين)، وكانت هذه الصفة الأخلاقية الرفيعة أول ركن اعتمد عليه وهو يخبر أهل مكة بأن الله أرسله إليهم.. وقد شهدوا له قائلين : " ما جربنا عليك كذباً قط " !!

ومن خلال هذا الرصد الديني والتاريخي، ومن خلال الرصد المضادّ له، والذي تمثله حضارة العصر القائمة على (فن الكذب) سياسياً وإعلامياً واجتماعياً — ذهب النورسي يحدد مكانة الصدق قائلًا :

لقد علمتني زبدة تتبعاتي وتحقيقتاني في الحياة الاجتماعية أن :

"الصدق" هو أسّ أساس الإسلام، وواسطة العقد في سجاياه الرفيعة ومزاج مشاعره العلوية، فعلينا إذاً أن نحبي الصدق — الذي هو حجر الزاوية في حياتنا الاجتماعية — في نفوسنا، ونداوي به أمراضنا المعنوية.

أجل ! إن الصدق هو عقدة الحياة في حياة الإسلام الاجتماعية، أما الرياء؛ فهو نوع من الكذب الفعلي، وأما المداهنة والتصنع؛ فهو كذب دنيء مردول، وأما النفاق؛ فهو كذب ضار جداً، والكذب نفسه؛ هو افتراء على قدرة الصانع الجليل.

إن الكفر بجميع أنواعه كذب، والإيمان إنما هو صدق وحقيقة.

وعلى هذا؛ فالبون شاسع بين الصدق والكذب بُعد ما بين المشرق والمغرب، وينبغي ألا يختلط الصدق والكذب اختلاط النور والنار، ولكن السياسة الغادرة والدعاية الظالمية قد خلطتا أحدهما بالآخر، فاختلطت كمالات البشرية ومثلها بسفاسفها ونقائصها (30)!!

وهذا الدرس الذي يمليه علينا النورسي مستخلصاً إياه من زُبدة تتبعاته في الحياة ليؤكد به أهمية الصدق، وكيف أنه يمثل مفتاح الفضائل، بينما يمثل الكذب — أيضاً — مفتاح الرذائل، يتفق تماماً، بل لعله ينطلق من فقه النورسي العميق لحديث الرسول p الذي يقول فيه : "عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً، وإياكم والكذب فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً" (31).

ولعل هذا الحديث الشريف كان مصباحاً من مصابيح حياة النورسي يقيس به - وعلى ضوءه - المواقف والرجال .. ولعله من خلاله، ومن خلال تجاربه التي سماها (تبعات وتحقيقات) لفظ السياسة وكرهها، وابتعد عن السياسيين، لأنه رأى بعينه كيف أن السياسة لا تنفصل عن الكذب والنفاق والتصنع والمداورة، وأن الصدق في مجالها عسير ولا سيما بعد أن سيطرت عليها نظريات المصلحية (البرجماتية) و (المكياقلية) التي ترى أن الغاية تبرر الوسيلة، حتى لو كانت هذه الوسيلة قائمة على تلال من الكذب والخداع والتضليل.

وبعد أن أصبح الكذب والخداع خصيصتين مبشورتين في كل جوانب السياسة،
يجريان فيها كما يجري الدم في الجسم !!!

وقد أصبح العالم المعاصر منسوجاً من الأكاذيب في علاقة الحكام وأولي الأمر
بمحكوميهم، وفي علاقة المعلمين والمرين بتلامذتهم، وبعلاقة بعض علماء الدين
المنافقين بالأمة الإسلامية.

وفي مواجهة هذا الوضع الرهيب في كذبه وريائه ونفاقه يصرخ (بديع الزمان
النورسي) قائلاً :

- حبة واحدة من صدق تبيد بيدراً من الأكاذيب !!
- إن حقيقة واحدة تدم صرحاً من خيال .
- فالصدق أساس عظيم وجوهر ساطع .
- وربما يتخلى عن مكانه للسكوت، وإن كان فيه ضرر، ولكن لا موضع
للكذب قطعاً، مهما يكن فيه من فائدة ونفع !!
- ليكن كلامك كله صدقاً، ولتكن أحكامك كلها حقاً .. ولكن عليك أن
تدرك هذا : إنه لاحق لك أن تبوح بالصدق كله ⁽³²⁾ . !!

إنني أتخيل النورسي، وهو يدبج هذه الكلمات، وكأنه يضع دستوراً للسلطة،
والاقتصاديين، وعلماء التربية والاجتماع، والدعاة إلى الدين والأخلاق (وبخاصة
الذين لا يمثلون قدوة ولا يعملون بما يقولون) ... إنه يتجه إليهم - بهذا الدستور
المجلى لقيمة الصدق ... كي يقفوا ضد هذه الحضارة التي أصبح الكذب والنفاق
والتصنع جزءاً من كيائها الداخلي ... بحيث أصبح من الصعب علاجها، ولا طريق
إلا بإقامة كيان إسلامي حضاري يقود الحضارة المعاصرة ... بعيداً عن الرياء
والكذب والتصنع !!.

ولكي يعمق النورسي في وعي المسلمين؛ الذين تقوم حضارتهم على (الصدق) ضرورة الالتزام بالصدق، وعدم اتباع (الكفار) في اصطناع (الكذب) السياسي أو الاقتصادي أو التربوي.. مهما كانت تسميته الخادعة (دهاء) أو (سياسة)، أو (دبلوماسية)، فإنه يقدم لهم (النموذج الأعلى) الذي يجب ألا يتعدوا عن الالتزام به.. لأنه رسول الله محمد (المثل الأعلى الكامل للبشرية في صدقه)..

لقد وقف النورسي وقفة تحليلية متأنية من (صدق الرسول)، ليس لأنه (الأسوة الحسنة) للمسلمين فسحب؛ بل لأنه (المثل الأعلى للإنسانية كلها... فهو أول العظماء في التاريخ كما ذكر الأمريكي (مايكل هارت) (33)...

لقد كان (صدق) الرسول محمد — عليه الصلاة والسلام —، أزكى (صدق) عرفته البشرية... ولئن صح — في الإنسانية كلها — أن ينعت إنسان (بالصدق)، ويعرف به على أنه لا يقل لصوقاً به عن اسمه؛ فإن هذا الإنسان لن يكون غير النبي محمد؛ قبل بعثته وبعدها، وفي كل ما أخبر به عن الناس.. فكيف بما أخبر به عن ربّ الناس، وخالق الناس!!.

ومن هنا كان تركيز النورسي على الصدق استلهاماً رائعاً من تاريخ النبوة ومن سيرة خاتم المرسلين.

ونحن نرى (النورسي) يُجلى أهمية (الصدق) كأساس وجوهر للأخلاق؛ حين يستعرض (الصدق) الزكي العجيب الذي تفرد به محمد — عليه السلام —.. فصدق الرسول — كما يوضع النورسي — صدق في كل ما بلغ به عن الله.. ماضياً كان هذا البلاغ أو حاضراً أو مستقبلاً.. فحديثه عن الأنبياء، وعن الأمم السابقة، لم يثبت قط — على كثرة بحث الأعداد والأصدقاء، من الباحثين الأكاديميين المتخصصين، الموضوعيين — أنه معرض للتخطئة أو التجريح، ولعل ما كتبه الجراح العالمي الفرنسي؛ موريس بوكاي، عن هذا الموضوع من الأدلة على ذلك (34).

وتشير هنا إلى حادثة واحدة فقط للدلالة على عظمة صدقه في الحاضر — إلى جانب صدقه في الماضي — وهي موقفه يوم أن مات ابنه إبراهيم، وخسفت الشمس فقال المسلمون

: إن الشمس قد خسفت لموت إبراهيم؛ فأخبرهم الصادق الأمين بحقيقة الأمر، وهو أن الشمس والقمر آيتان من آيات الله؛ لا يخسفن لموت أحد.. ولو كان يسمح بأي كذب لا ستغل هذا التوافق العجيب، أو لسكت !!

وأما حديثه عن الحاضر فصحابته رضوان الله عليهم شهود على صدقه العجيب؛ فقد قال لهم، وهو في مكة معهم؛ وليس لديه أية وسائل مواصلات، أو أجهزة إعلامية:

"إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده"؛ فكان الأمر كما أخبر.

وأخبر ρ رسول كسرى: "إن الله سلط على كسرى ابنه شيرويه فقتله في وقت كذا..". فلما حقق ذلك الرسول (فيروز) وقت مقتل كسرى؛ أيقن أن قتله كان في نفس الوقت الذي أخبر عنه ρ؛ فأسلم بسبب ذلك.

وأخبر عن كتاب حاطب بن أبي بلتعة الذي أرسله سراً إلى كفار قريش، فأرسل ρ علياً والمقداد - رضي الله عنهما - بأن في الموضوع الفلاني جارية معها رسالة، فأتوني بها؛ فذهبا وأتيا بالرسالة في المكان الذي وصفه الرسول ρ.

وثبت أيضاً أنه ρ قال في عتبة بن أبي لهب: " يأكله كلب الله "؛ فأخبر عن عاقبته المفجعة، وبعد مدة من الزمن ذهب عتبة متوجهاً نحو اليمن؛ فجاءه سبع وأكله؛ فصدق دعاءه عليه.

وبعد أن يورد (النورسي) عدداً من الأمثلة الأخرى؛ يعلق قائلاً: "وقد وقع كثير من أمثال هذه الأنباء الغيبية الصادقة، وذكرتها كتب السنة المعتمدة مع أسانيدها، وهي قطعية الثبوت و يقينية، وقد نقلها البخاري ومسلم في صحيحهما، اللذين هما أصح الكتب بعد القرآن الكريم (35).

وهكذا - كما ذكر سعيد النورسي - كان صدق الرسول ρ صدقاً كاملاً في الجاهلية والإسلام... في إطاره البشري-إنسان- وفي إطاره النبوي-كرسول معصوم- وفي حديثه عن الماضي والحاضر والمستقبل؛ جملة وتفصيلاً..

التي لم يكن للبشرية عهدٌ بها، وقضت على نسبة كبيرة من القيم الدينية والأخلاقية!!

— من الطريف — مع كل ذلك — أن هناك لجنة علمية عالمية للبيئة والتنمية — على مستوى رقيق — تأسست من عدد كبير من أقطاب السياسة العالمية والاقتصاد، على مستوى دولي، وقد وضعت هذه اللجنة لنفسها خطةً حكيمةً جداً (!!) لإصلاح العالم — تلقت بموجبها توجيهات من أناس من مختلف مسالك الحياة.

وقد ذكرت اللجنة الدولية — أنها تتقدم بتقريرها لجميع الناس في العالم، كما ذكرت أنها عندما كانت تعمل لم تكن تحكمها القوميات والتقسيمات المصطنعة، ما بين بلدان (متقدمة صناعياً) و (بلدان نامية)، وما بين شرق وغرب، بل كان همها الانشغال المشترك بكوننا، وبالمخاطر البيئية والاقتصادية المتشابكة التي يعانيها هذا العالم بكافة مؤسساته وحكوماته (37).

وقد اختارت اللجنة في اجتماعها الافتتاحي ثمانين قضية أساسية للتحليل في مجرى عملها وهي :

— آفاق الساكن والبيئة والتنمية المستدامة.

— الطاقة : البيئة والتنمية.

— الصناعة : البيئة والتنمية.

— الأمن الغذائي والزراعة والغابات والبيئة والتنمية.

— المستوطنات البشرية : البيئة والتنمية.

— العلاقات الاقتصادية الدولية والبيئة والتنمية.

— أنظمة دعم القرارات لإدارة البيئة.

— التعاون الدولي (38).

ومن المؤسف أن هذا التقرير الكبير الذي بُذل فيه جهد ضخم، وقام على أمره رجال تولوا مهاماً جسمية مثل رئيس - أسبق - لوزراء ألمانيا، وصدرت طبعات منه بعدد كبير من اللغات، ومع ذلك لم يكن له تأثير عملي يذكر، وظهر كأنه

جهد ثقافي فكري، وليس عملاً تطبيقياً يسعى أصحابه إلى تغيير العالم، وإنقاذه من التردّي الخطير الذي ينحدر إليه !!

— والسؤال الذي يجب أن يُطرح هنا :

— لماذا أصبحت البشرية في كل مستوياتها عاجزةً عن عمل شيء إيجابي لإنقاذ كوكبها الأرضي الذي أصبح غير صالح للحياة مادياً ومعنوياً بتأثير حركات الهدم اللادينية والأخلاقية ؟

— إن غياب المنظور الروحي والمعنوي والقيمي — وحده — والتركيز على المنظور المادي — هو الذي يعطي آلة الهدم الجهنمية التي تتركب القوى العظمى، وتبدو كأنها حكومة الشيطان الخفية — تلك القوة التي تجعلها — أكثر من غيرها — ذات تأثير إيجابي فعال وبارز، وهو تأثير يسلب الحياة الإنسانية مقومات وجودها الإنساني الحقيقية في كل يوم !!

— ومن خلال رؤية تحليلية يمكننا أن نقرر أن وراء هذه المحنة الإنسانية المعاصرة ظاهرتين أساسيتين سائدتين :

الظاهرة الأولى : هي شيوع المفهوم المادي والغرائزي والاستهلاكي والدينيوي للأخلاقي في الحياة، بحيث أصبحت الدنيا هي المحور الوحيد الذي يقوم عليه التخطيط للتنمية المحلية والعالمية، وغاب بالتالي المفهوم الأخروي والديني للحياة، وسيطرت أمام هذا الفهم فلسفات المنفعة واللذة وتحصيل السعادة الشخصية على حساب المجموع بكل الطرق، وكذلك الرقي الوطني والقومي على حساب الإنسانية، وتأجج الصراع بين سكان الأرض بعيداً عن تعاليم السماء وخوف الله والقيم الدينية التي تأمر بالرحمة والعدل والإحسان والصدق والإخلاص ...!!

وأما الظاهرة الثانية فتتمثل في غياب أصحاب الدين الصحيح والحضارة القيمة الأخلاقية المتوازنة التي لا ينسى أصحابها نصيبهم من الدنيا، لكنهم يتغنون الدار الآخرة ويراقبون الله.

وهاتان الظاهرتان قد غابتا عن وعي هؤلاء العلماء المخلصين الذي كتبوا الدراسة العلمية الرائعة عن (مستقبلنا المشترك) فقد فاتهم النظر إلى طبيعة الإنسان ومفهوم الحضارة الصحيحة الالائقة بالإنسان، ومن ثم قام تحليلهم على النتائج والثمرات، ولم يقيم على البحث في الأسباب والجذور والأعماق (!!)) ونظروا بعين واحدة فتضخمت المادة ومفرداتها، وانكشفت، بل ذبلت الروح والأحلاق والمعاني ومفرداتها !!.

— ولو ملك هؤلاء الرؤية الموضوعية الشاملة الصحيحة لأدركوا أنه لا سبيل لمستقبل مشترك للإنسانية يجعلها تتجاوز مرحلة الغرق التي تعيشها إلا بقيم أخلاقية صحيحة، وبدين صحيح ومفهوم صحيح للإنسان !!

— ولو أن هؤلاء المفكرين الكبار الذين كتبوا هذه الدراسة قد أعطوا الجوانب القيمة والأخلاقية حقها، و مزجوا بين ما هو مادي ومعنوي، وذيوي وأخروي، وغاصوا في أعماق النفس الإنسانية — لوصلوا إلى نتائج علمية مختلفة مشبعة بروح جديدة تؤدي إلى الطريق الصحيح لإنقاذ المستقبل المشترك للبشرية!!.

إن فهمهم الحدود للبيئة والتنمية على أهمها مجرد طاقة وزراعة وصناعة واقتصاد، هو الذي جرّد كلامهم من تأثيره وفاعليته في المجتمع الإنساني الذي يقوم على المعاني والقيم الأخلاقية والروحية بدرجة لا تقل عن الجوانب المادية من زراعة وصناعة وطاقة.. وغيرها !!

ومن هذا القصور في الرؤية والعجز عن إدراك حقيقة الحياة الإنسانية فشل مشروعاتهم الكبير، وسوف تفشل كل مشروعات إصلاح الكوكب الأرضي الإنساني إذا ظلت الرؤية مادية محدودة على هذا النحو.

ومن العجيب.. بل إنه من التوفيق الرباني.. ومن الفقه النوراني بالقرآن وإشارات الحضارة المعجزة — أن يستطيع رجلٌ يعيش حياةً بسيطةً؛ شبه محاصر بعيداً عن الوسائل العلمية العصرية التي تمتلكها الهيئات العلمية، وذلك منذ أكثر من نصف قرن..

من العجيب أن يصل هذا المفكر وهو بديع الزمان سعيد النورسي — إلى تشخيص موضوعي كبير (للداء) الذي يسيطر على الكوكب الأرضي، ويصف في الوقت نفسه (الدواء) بطريقة علمية شمولية تنتظم ما هو مادي وما هو معنوي، وما هو جذرٌ وسبب وما هو ثمرةٌ ونتيجة.

ويقدم — بالتالي — مقارنةً رائعةً بين أسس الحضارة (الأورو أمريكية) المادية التي تكاد تقضي بتركيزها (المادي) على مستقبلنا الإنساني المشترك، بعد أن (حفرت القبور فعلاً للإنسانية حسب تعبير رجاء جارودي)⁽³⁹⁾، وبين أسس الحضارة الإسلامية التي تملك العلاج الشامل (مادياً ومعنوياً) وتملك القدرة على الإقلاع الصحيح بمستقبلنا الإنساني المشترك.. بما فيه من مسلمين وغير مسلمين.. وصولاً إلى عالم جديد يصبح فيه كوكب الأرض صالحاً للبقاء مادياً وأخلاقياً.

إن بديع الزمان النورسي يكتب مشخصاً (الداء) ومحددًا إياه في تلك الأسس التي تقوم عليها حضارة أوربا المادية ذات الرؤية العاجزة.. والتي لا يسعى أصحابها — للأسف — لتغييرها... أو علاجها لتتفاعل وتستفيد من تجارب الآخرين الحضارية...

— كما يكتب (النورسي) — كذلك — (روشته الدواء) والتي تتمثل في ضرورة اعتماد الأسس التي تقوم عليها حضارة الإسلام الإنسانية الجامعة... ذات الرؤية الشاملة... سيلاً لنهضة المسلمين وإنقاذ العالم عن طريق تفعيل هذه الأسس ونشر قيمها ورؤيتها في العالم كله بين المسلمين وغير المسلمين؛ لأنها الطريق الوحيد لبقاء هذا الكوكب الأرضي في مستواه الإنساني!!

يقول النورسي: إن أسس المدنية الحاضرة (الأوربية) سلبية وهي أسس خمسة، تدور عليها رحاها، فنقطة استنادها: القوة بدل الحق، وشأن القوة الاعتماد والتجاوز والتعرض ومن هذا تنشأ الخيانة.

وهدفها وقصدتها: منفعة خسيصة بدل الفضيلة، وشأن المنفعة: التزاحم والتخاصم، ومن هذا تنشأ الجناية.

ودستورها في الحياة : الجدال والخصام بدل التعاون، وشأن الخصام : التنازع والتدافع، ومن هذا تنشأ السفالة.

ورابطتها الأساس بين الناس : العنصرية التي تنمو على حساب غيرها، وتقوى بابتلاع الآخرين وشأن القومية السلبية والعنصرية : التصادم المريع، وهو المشاهد، ومن هذا ينشأ الدمار والهلاك.

وخامستها : هي أن خدمتها الجذابة، تشجيع الأهواء والنوازع، وتذليل العقبات أمامهما، وإشباع الشهوات والرغبات. وشأن الأهواء والنوازع دائماً : مسخ الإنسان، وتغيير سيرته، فتتغير بدورها الإنسانية وتمسخ مسخاً معنوياً.

إن معظم هؤلاء المدنيين، لو قلبت باطنهم على ظاهرهم، لرأيت في صورتهم سيرة القرد والتعلب والتعبان والدب والخنزير⁽⁴⁰⁾.

— هذا هو الداء الأساس، وما نراه غير ذلك فهو من ثمرات هذا الداء وأعراضه.

— أما (روشة العلاج) فتتمثل في الالتزام بأسس مدينة القرآن الكريم، فهي إيجابية تدور سعادتها على خمسة أسس إيجابية.

— فنقطة استنادها : الحق بدل القوة، ومن شأن الحق دائماً: العدالة والتوازن، ومن هذا ينشأ السلام ويزول الشقاء، وهدفها : الفضيلة بدل المنفعة، وشأن الفضيلة: المحبة والتقارب، ومن هذا تنشأ السعادة وتزول العداوة.

— ودستورها في الحياة : التعاون بدل الخصام والقتال، وشأن هذا الدستور : الاتحاد والتساند اللذان تحيا بهما الجماعات.

— وخدمتها للمجتمع : بالهدى بدل الأهواء والنوازع، وشأن الهدى : الارتقاء بالإنسان ورفاهيته إلى ما يليق به مع تنوير الروح ومدها بما يلزم.

— وربطتها بين المجموعات البشرية : رابطة الدين والانتساب الوطني وعلاقة الصنف والمهنة وأخوة الإيمان، وشأن هذه الرابطة : أخوة خالصة، وطرد العنصرية والقومية السلبية.

— وبهذه المدينة يعم السلام الشامل، إذ هو في موقف الدفاع ضد أي عدوان خارجي (41).

— ويقدم النورسيّ — في رويشة العلاج — بُعداً آخر يقود البشرية في ظل العولمة اللادينية والأخلاقية إلى الهاوية؛ فبينما لا يقبل القرآن الكريم النازل رحمة للعالمين إلا طرازاً من المدينة التي تمنح السعادة للجميع أو الأكثرية، نرى المدينة الحاضرة قد أطلقت الأهواء والنوازع والشهوات من عقابها، حتى أصبحت الحاجات غير الضرورية في حكم الضرورية، وهكذا محيت راحة البشرية؛ إذ كان الإنسان في البداوة محتاجاً إلى أشياء أربعة، بينما أفقرته المدينة الحاضرة الآن وجعلته في حاجة إلى مائة حاجة وحاجة، حتى لم يعد السعي الحلال كافياً لسد النفقات، فدفعت المدينة البشرية إلى ممارسة الخداع والانغماس في الحرام، ومن هنا فسدت أسس الأخلاق؛ إذ أحاطت المجتمع والبشرية بهالة من الهيبة ووضعت في يدها ثروة الناس فأصبح الفرد فقيراً وفاقداً للأخلاق (42).

— ولا حلّ إلا بالقناعة الإسلامية والزهد وشيء من التقشف ومقاومة التكاثر المادي المدمر والأخلاق الإسلامية المتوازنة التي تجمع بين الدنيا والآخرة.

إلى غير ذلك من القيم الإسلامية الحيّة المبتوثة في كل التراث الدينيّ السابق، والمنسجمة مع فطرة الإنسان ومكانته.

وبهذه القيم الدينية والأخلاقية يتحقق التفاهم بين البشر، ورأب الصدع في ذلك العالم الممزق !!.

الهوامش

- (1) الإسلام يتحدى : ص 225 ، نشر المختار الإسلامي ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، 1977 م .
- (2) وحيد الدين خان : الإسلام يتحدى ، ص 223 .
- (3) محمد عبد الله دراز : دستور الأخلاق في القرآن ، ط 6م 1405 ، دار البحوث العلمية ، الكويت ص ي — هـ .
- (4) أبو اليزيد العجمي : الأخلاق بين العقل والنقل ، ص 21 ، دار الثقافة العربية ، القاهرة 1982 م .
- (5) سليمان الخطيب : الأخلاق ، ص 21 ، القاهرة ، 1409 هـ .

- (6) البقرة : آية 190 .
 (7) آل عمران : آية 134 .
 (8) آل عمران : آية 57 .
 (9) الشورى : آية 40 .
 (10) آل عمران : آية 76 .
 (11) التوبة : 4 .
 (12) آل عمران : 159 .
 (13) آل عمران : 146 .
 (14) النساء : 36 .
 (15) النساء : 107 .
 (16) الحج : 38 .
 (17) البقرة : آية 205 .
 (18) المائدة : آية 64 .
 (19) البقرة : آية 222 .
 (20) التوبة : آية 108 .
 (21) البقرة : آية 109 .
 (22) الأعراف : آية 55 .
 (23) النورسي : اللغات ، 178 ، ط2 ، مصر ، 1413هـ / 1993م ، دار سوزلر .
 (24) اللغات : المرجع السابق : 179 ، 180 .
 (25) اللغات : مرجع سابق ، 180 .
 (26) اللغات : مرجع سابق ، ص 180 - 181 .
 (27) اللغات : مرجع سابق : ص 181 .
 (28) نفس المرجع السابق ونفس الصفحة .
 (29) اللغات : مرجع سابق ، ص 183 .
 (30) بيدع الزمان سعيد النورسي - صيقل الإسلام ، ص 506 .
 (31) رواه مسلم (انظر صحيح مسلم بشرح المجلد الثامن من الجزء السادس عشر)
 (32) النورسي : الكلمات ، ط2 ، سوزلر للنشر ، 1412هـ / 1998م ، القاهرة ، ص 854
 (33) انظر كتابه : الخالدون مائة : أعظمهم محمد - نشر دار المعارف ، مصر .
 (34) انظر كتابه : الكتب المقدسة في ضوء العلم الحديث (التوراة والأنجيل والقرآن ، نشر دار المعارف ، مصر) .
 (35) النورسي : المكتوبات ، ص140 .
 (36) النورسي : سيرة ذاتية ، ص 172 ، ط3 ، شركة سوزلر للنشر ، 2000م ، القاهرة .
 (37) انظر كتاب: مستقبلنا المشترك إعداد اللجنة العالمية للبيئة والتنمية ص21، 20 — سلسلة عالم المعرفة - الكويت 1410 هـ

- (38) مستقبلنا المشترك ص 496.
- (39) انظر كتاب رجاء جارودي : حفارو القبور نشر دار الشروق - مصر
- (40) النورسي : الكلمات ص 855 طبع سوزلر - القاهرة .
- (41) النورسي ، الكلمات ، ص 856 .
- (42) المكان السابق نفسه.

حول الإنسان في المنظور النورسي

أ.د. عماد الدين خليل
كلية الآداب - جامعة الموصل
العراق

[1]

يصعد بنا النورسي في " كلماته " باتجاه " الإنسان " .. تأخذنا جمالياته إلى ابن آدم، سيدّ المخلوقات وأكرمها، والمقصود من إبداعية الخلق، فتفرش له المساحات العريضة، وتجول الكاميرا - مرة أخرى - لكي تضيء اللمسة الجميلة، وتأخذ اللقطة المبدعة، وتتناوب في خطوطها ومساحاتها وظلالها جماليات الحسّ والروح والوجدان.

ابتداءً، فإن الوظيفة الجمالية لمي إحدى مهمات الإنسان في العالم " فما دام ابن آدم يحكم في شتى جهات هذه الأرض .. ويتصرف في أغلب مخلوقاتها، مسحراً أكثر الأحياء له، جاعلاً أكثر المصنوعات تحوم حوله وفق مقاييسه وهواه، وحسب حاجاته الفطرية، وينظمها ويعرضها ويزيئها، وينسق الأنواع العجيبة منها في كل مكان، بحيث لا يلفت نظر الإنس والجن وحدهم، بل يلفت أيضاً نظر أهل السماوات والكون قاطبة، بل حتى نظر مالك الكون، فنال الإعجاب والتقدير والاستحسان، وأصبحت له - في هذه الجهة - أهمية عظيمة وقيمة عالية، فأظهر بما أوتي من علم ومهارة أنه هو المقصود من حكمة خلق الكائنات وأنه هو نتيجتها العظمى وثمرتها النفيسة، ولا غرو فهو خليفة الأرض وحيث إنه يعرض صنائع الخالق البديعة، وينظمها بشكل جميل جذاب في هذه الدنيا، فقد أُجِّلَ عذاب عصيانه وكفره، وسُمِحَ له العيش في الدنيا وأمهل ليقوم بهذه المهمة بنجاح" (1).

إننا هنا بازاء غنى ملحوظ في المفردات ذات الدلالة الجمالية .. مثلاً : العرض،

التزين، التنسيق، الأنواع العجيبة، الإعجاب، التقدير، الاستحسان، الصنائع البديعة، التنظيم، الشكل الجميل الجذاب.

وهو - بالتأكيد - ليس جمالاً مقصوداً لذاته، إنما هي الأدوات التي يصعد بها الإنسان إلى أعلى .. دائماً إلى أعلى .. المكانة التي تليق بمقامه المتميز .. وبدون المحاولة، أو بعيداً عنها، فإن الإنسان سيتعرض للسقوط .. وهو سقوط على كل المستويات، بما فيه المعطى الجمالي نفسه.

صحيح أن الإنسان، في المنظور النورسي، والإيماني عموماً، يمارس وظيفة جمالي-ة، لكن هذه الوظيفة ليست نهاية المطاف، وإنما هي فرصة للتحقق أكثر فأكثر بالسيوية المرجحة للإنسان، والتي بها يصير الكائن المتفرد الذي يسود الخلائق، ويتميز على العالمين، ويمسك بزمام المصير .. إنها المهمة الجمالية التي تنطوي في نهاية الأمر على بطانتها الروحية والتي تتجاوز الحسّ القريب إلى ما وراءه .. والشكل إلى المعنى والمغزى، والتعدّد إلى الوحدة، والموقوت الفاني إلى عالم الدوام والخلود .. يقول النورسي: " الإنسان ثمرة شجرة الحلقة، فهو كالثمرة أبعد شيء عن البذرة، وأجمع لخصائص الكل، وله نظر عام إلى الجميع، ويضم جهة وحدة الكل، فهو مخلوق يحمل نواة القلب، ووجهه متوجّه إلى الكثرة من المخلوقات، وإلى الفناء، وإلى الدنيا، ولكن العبادة التي هي جبل الوصال، أو نقطة اتصال بين المبدأ والمنتهى، تصرف وجه الإنسان من الفناء إلى البقاء، ومن الخلق إلى الحق، ومن الكثرة إلى الوحدةانية، ومن المنتهى إلى المبدأ ". ويتساءل النورسي: " لو أن ثمرة قيمة ذات إدراك أو شكت على أن تكوّن البذور، تباغت بجمالها ونظرت إلى أسفل منها من ذوي الأرواح، وألقت نفسها في أيديهم أو غفلت فسقطت " .. ثم ما يلبث أن يجيب:

" لاشكّ أنها تنفتّت وتتلاشى في أيديهم، وتضيع كأية ثمرة اعتيادية، ولكن تلك الثمرة المدركة إن وجدت نقطة استنادها وتمكنت من التفكير في أنها ستكون وساطة لبقاء الشجرة وإظهار حقيقتها ودوامها عما تخبئ في نفسها من جهة الوحدة للشجرة، فإن البذرة الواحدة لتلك الثمرة الواحدة، تنال حقيقة كلية دائمة ضمن عمر باق دائم " ويخلص إلى القول بأن " الإنسان الذي تاه في كثرة المخلوقات، وغرق في الكائنات

إن الإنسان " محبوس في المادة " فإذا أراد الاقتراب فإن عليه أن " يتجرد عن كثير جداً من القيود " وأن يمضي " عبر مراتب كلية كثيرة جداً " (33). ولا بد أنه سيصل ما دام قد أحلص النية وثمر عن مساعد الحد.

المفتاح دائماً في المجاهدة التي تخلص نيتها لله، وحينذاك يمكن أن " تولّد قراءة آية واحدة، أو ذكر معين، شفافية في الروح - كالزجاج - تستطيع أن تستوعب ثواباً نورانياً كالسماوات الواسعة " (34).

وطالما شبّه النورسي الحياة الدنيا بمهرجان مترع بالذائد الحسية والروحية، ودعا الإنسان إلى المشاركة في الاحتفال الكبير والتواصل مع بحته ولذائذه ووعوده : " الآلاء المختلفة والنعم المتنوعة التي لا تعد ولا تحصى، والمبتوثة في ذلك العيد البهيج، والمعروضة في ذلك المهرجان العظيم " (35). ومع ذلك فهذا ليس سوى أحد وجهي الحقيقة. والنورسي دائماً يمضي للبحث عن الوجه الآخر، وتأكيداً، وجعله حاضراً في الحسّ والعقل والروح والوجدان. وهكذا فإن " الدنيا مع جميع مباهجها في حكم سجن ضيق بالنسبة لسعة الآخرة وجمالها " ومن ثم يصير " الخروج من سجن الدنيا والنجاة من ضيقها إلى بستان الجنان الآخروية، والانتقال من منعصات الحياة المادية إلى عالم الراحة والطمأنينة، وطيّان الأرواح، والانسلاخ من ضجيج المخلوقات وصخبها إلى الحضرة الربانية الهادئة المطمئنة " يصير هذا كله " سياحة بل سعادة مطلوبة بألف فداء وفداء " (36).

والنورسي، من أجل تحرير الإنسان من التعلّق بالأسباب، هذه التي تجرح دائماً " قلب الإنسان المسكين " بسبب تأكلها ودمارها .. يطلب منه أن يردّ عشقه للجمال إلى بارئته الحقيقي، وأن يحبّ الأشياء الجميلة باسمه، دون خوف أو قلق من التآكل والضياع .. إنه سبحانه " صاحب كمال وجمال لا نهاية لهما " .. والتعلّق به، والتشبث برحمته، يعصمان الإنسان من الهم والحزن والخوف. ومن ثم يجارّ النورسي بهذا النداء : " يا نفسي .. ينبغي ألاّ تصرفي المحبة مباشرة إلى الكائنات، وإلا انقلبت المحبة، إلى نقمة أليمة بعد أن كانت نعمة لذيذة .. يا نفسي إن كنت تعقلين فاجمعي إذن جميع أنواع تلك المحبة وسلميتها إلى صاحبها الحقيقي وانجي من هذه البالاي " (37).

فهو - إذن - الاستمداد من مصدر الجمال الدائم الذي لا يتناقص ولا يزول ..

والتعامل مع النبع الذي تفيض منه كل القيم الجمالية في هذا العالم. كما أنه يطلب من الإنسان، وهو يتعامل مع جماليات الأنثى، أن يفك ارتباطه " بالجمال الظاهري السريع الزوال " وأن يحض محبته للجمال " الذي لا يزول ويزداد تألقاً يوماً بعد يوم، وهو جمال الأخلاق والسيرة الطيبة المنغرزة في أنوثة المرأة ورقتها ". إذ أن أحلى ما فيها من جمال وأسماء هو " في شفقتها الخالصة النورانية. فجمال الشفقة وحسن السيرة يدومان ويزدادان إلى نهاية العمر، ومحبتهم تصان حقوق هذه المخلوقة اللطيفة .. وإلا تفقد حقوقها في وقت هي أحوج ما تكون إليها بزوال الجمال الظاهري " (38).

[5]

وقد ينطوي الجمال في المنظور النورسي على بعده الأخلاقي .. بعده الإنساني .. ولا ينسلخ عنهما كما هو الحال في المعطيات الغربية على مرّ العصور، حيث يصير الجمال البشري وسيلة حسّية صرفة لتحقيق اللذة، أو أداة منفعية خالصة لتحقيق المصلحة.

وإذا كان النورسي يرفض الأخذ بالمنهج الأحادي، أو الرؤية المحدودة، في التعامل مع الظواهر والأشياء، فإنه هنا في تقويمه لجماليات الإنسان، لا ينسى أن يدبر المنظور في الاتجاهات كافة، لكي يبين أن الأمر ليس سواء، وأن الإنسان نفسه، لهذا السبب أو ذاك، قد يتنازل عن مواقع الجمال العالي باتجاه التنافر والقبح والدمامة، وأن ثمة حالات عديدة يتقلب فيها الإنسان بين القطبين بسبب من طبيعة ممارساته وصيغ تعامله مع الحقائق والموجودات والظواهر والأشياء.

ويضرب النورسي على ذلك مثلاً برجل مبارك يملك عقلاً رشيداً، فهو يقطع الطريق إلى هدفه دون أن يعاني الضيق كأخيه " ذلك أنه لا يفكر إلا في الأشياء الجميلة - لما له من جمال الخلق - ولا يأخذ بعنان الخيال إلا بما هو جميل ولطيف .. إنه يعرف النظام، ويعمل بمقتضى الولاء والاتباع .. فيمضي منطلقاً مستظلاً بالأمان والاستقرار. وهكذا مضى حتى وجد بستاناً فيه أزهار جميلة وفواكه لطيفة مع ثمة جثث حيوانات وأشياء منتنة مبعثرة هنا وهناك بسبب إهمال النظافة. كان أخوه الشقي قد دخل - من قبل - في مثل هذا البستان أيضاً غير أنه انشغل بمشاهدة الجيف الميتة وإنعام النظر فيها مما أشعره بالغثيان والدوار، فغادره دون أن يأخذ قسطاً من الراحة لمواصلة السير .. أما هذا الأخ

فعمل بقاعدة (أنظر إلى الأحسن من كل شيء) فقد أهمل الجيف، ولم يلتفت إليها مطلقاً .. وبعدها استراح مضى إلى سبيله " (39).

والمحك دائماً هو الإيمان والكفر .. الإيمان الذي يسمو بالإنسان إلى أعلى عليين " فيكتسب بذلك قيمة تجعله لائقاً بالجنة، بينما يتردى بظلمة الكفر أسفل سافلين، فيكون في وضع يؤهله لنار جهنم " (40). ويزيد النورسي المسألة إيضاحاً فيقول " إن الإيمان يربط الإنسان بصانعه الجليل .. والإيمان انتساب، لذا يكتسب الإنسان بالإيمان قيمة سامية من حيث تجلّي الصنعة الإلهية فيه، وظهور آيات نقوش الأسماء الربانية على صفحة وجوده. أما الكفر فيقطع ذلك الانتساب، وتغشى ظلمته الصنعة الربانية وتطمس على معالمها، فتنتقص قيمة الإنسان حيث تنحصر في مادته فحسب، وقيمة المادة لا يعتد بها فهي في حكم المعدوم لكونها فانية زائلة، وحياتها حياة حيوانية مؤقتة " (41).

وهكذا فإن الإيمان " يجعل الإنسان إنساناً حقاً، بل يجعله سلطاناً .. بينما الكفر يجعل الإنسان حيواناً عاجزاً " (42). ويمضي النورسي في متابعة الدور الذي يمارسه الإيمان في الارتفاع بالإنسان إلى المكانة التي تليق به " لقد جيء بالإنسان إلى هذا العالم لأجل أن يتكامل بالمعرفة والدعاء، لأن كل شيء فيه موجه إلى العلم ومرتعلق بالمعرفة حسب الماهية والاستعداد. فأساس كل العلوم الحقيقية ومعدنها ونورها وروحها هو (معرفة الله تعالى) كما أن أسّ هذا الأساس هو (الإيمان بالله جل وعلا) . وحيث إن الإنسان متعرض لما لا يحصى من أنواع البلايا والمصائب لما يحمل من عجز، وله مطالب كثيرة وحاجات عديدة مع أنه في فقر مدقع لا نهاية له، لذا تكون وظيفته الفطرية الأساس (الدعاء) بعد الإيمان، وهو أساس العبادة ونهجها .. " (43).

وكعاداته، فإن النورسي يرفع نداءه في مواجهة الإنسان منبهاً إياه أنه على مفترق طريقيين، فإما الاستقامة والقدرة والإبداع والعطاء واحتلال الموقع العالي المرموق الذي يليق بمكانة الإنسان، هذا الكائن الفريد، وإما الالتواء والعجز والانحدار إلى مظان الضعف والقبح والشرّ والتخريب : " فيا أيها الإنسان، إذا آمنت بالله وحده، وأصبحت عبداً له وحده، فزت بموقع مرموق فوق جميع المخلوقات، أما إذا استنكفت من العبودية وتجاهلتها فسوف تكون عبداً ذليلاً أمام المخلوقات العاجزة .. ولسوف تكون اضعف

لقد خلُق الإنسان (في أحسن تقويم) لكنه إذا حصر فكره في الحياة الدنيا وحدها فسيهبط ويتضع ويصبح اقل شأنًا بمائة درجة من حيوان كالعصفور، وإن كان أسمى وأتم من الحيوان من حيث رأسماله بمائة درجة!!⁽⁴⁹⁾.

يعود النورسي لكي يؤكد مرة ومرتين وثلاثًا : أن الإنسان يملك الاستعداد للهبوط إلى الدرك الأسفل، والصعود في المراقي، والتحقق بالصيغة المثلى للإنسان في أكثر حالاته اكتمالاً وجمالاً .. "نعم أيها الإنسان ! إنك من جهة جسمك النباتي ونفسك الحيوانية جزء صغير .. ومخلوق فقير، وحيوان ضعيف، تخوض في الأمواج الهادرة لهذه الموجودات المتزاحمة المدهشة. إلا أنك من حيث إنسانيتك المتكاملة بالتربية الإسلامية، المنورة بنور الإيمان، المتضمن لضياء الحجة الإلهية، سلطان في هذه العبودية، وانك كَلِّي في جزئيتك، وانك عالم واسع في صغرك، ولك المقام السامي مع حقارتك فأنت المشرف ذو البصيرة النيرة على هذه الدائرة الفسيحة المنظورة حتى يمكنك القول : إن ربي الرحيم قد جعل لي الدنيا مأوى ومسكنًا، وجعل لي الشمس والقمر سراجًا ونورًا، وجعل لي الربيع باقة ورد زاهية، وجعل لي الصيف مائدة نعمة، وجعل لي الحيوان خادماً ذليلاً، وأخيراً جعل لي النبات زينة وأثاثاً وبهجة لداري وسكني"⁽⁵⁰⁾.

فبالعبادة والتفكير يصبح الإنسان إنساناً حقاً، ويظهر نفسه أنه (في أحسن تقويم) فيصير يُمن الإيمان وبركته لائقاً للأمانة الكبرى وخليفة أميناً على الأرض⁽⁵¹⁾.

[6]

وثمة الوجه أو البعد الأخلاقي للمسألة الجمالية بقدر ارتباطها بالإنسان ودوره في العالم .. إنها قضية الخير والشرّ .. الخير باعتباره جماع القيم النبيلة الجميلة في الممارسة البشرية، وعلاقة الإنسان بالعالم وقطب الرحي فيها .. والشرّ باعتباره جماع القيم السافلة القبيحة.

والنورسي يقف طويلاً عند هذه المسألة فلا يكاد يترك فيها جانباً يثير تساؤلاً أو إشكالاً، إلا وعرضه، وفق منهجه في الكشف والتحليل، للضوء، وقال كلمته المقنعة فيه. وهو ينطلق - ابتداءً - من حقيقة أن كل شيء في الوجود، حتى ما يبدو أنه أفصح شيء، فيه جهة حسن حقيقية، فما من شيء في الكون، وما من حادث يقع فيه إلا وهو جميل

بذاته، أو جميل بغيره، أي جميل بنتائجه التي يفضي إليها. فهناك من الحوادث التي يبدو في ظاهر أمرها قبيحاً مضطرباً ومشوشاً، إلا أن تحت ذلك الستار الظاهري أنواعاً من جمال رائع، وأنماطاً من نظم دقيقة⁽⁵²⁾.

إن الرؤية النسبية القاصرة، القلقة، الموقوتة، المنفعلة، للإنسان، هي التي تستعجل الأحكام على الحوادث والأشياء، فتسم بالقبح والبشاعة ما هو - في نهاية الأمر - حسن جميل .. والعبرة بنتائج، والحدث أو الظاهرة، لا يعملان منفردين، ومعهزل عن مجمل الظواهر والأحداث، إنما هما جزئيتان في شبكة من المعطيات والمفردات. وما يتمخض عن تشكّلهما لا يحكم عليه منفرداً وإنما من خلال طبيعة ارتباطاته بالشبكة كلها .. وبالتالي من خلال النتائج النهائية التي تترتب على الحدث، وهي نتائج طالما تغيرت في المنظور النهائي، وبالإحالة على الحسن والقبيح عما كانت عليه في لحظات صيرورتها الأولى .. " فتحت حجاب الطين والغبار والعواصف والأمطار الغزيرة في الربيع تحتبئ ابتسامات الأزهار الزاهية بروعتها، وتحتجب رشاقة النباتات الهيفاء الساحرة الجميلة. وفي ثنايا العواصف الخريفية المدمرة، المكتسحة للأشجار والنباتات، والهائجة للأوراق الخضراء من فوق الأفنان، حاملة نذر البين وعازفة لحن الشجن والموت والانذار، هناك بشارة الانطلاق من أسر العمل لملايين الحشرات الرقيقة الضعيفة، التي تتفتح للحياة في أوان تفتّح الأزهار، فتحافظ عليها من قرّ الشتاء وضغوط طقسه، فضلاً عن أن أنواء الشتاء القاسية الحزينة تهيئ الأرض استعداداً لمقدم الربيع بمواكبه الجميلة الرائعة. نعم ! إن هناك تفتحاً لأزهار معنوية كثيرة تحتبئ تحت ستار عصف العواصف إذا عصفت، وزلزلة الأرض إذا تزلزلت، وانتشار الأمراض والأوبئة إذا انتشرت "⁽⁵³⁾.

ويرى النورسي أن بذور القابليات ونوى الاستعدادات الكامنة - التي لم تنبت بعد - تتسبب وتتجمل نتيجة حوادث تبدو قبيحة في ظاهر شأنها، بيد أن الإنسان المفتون بالمظاهر، والمتشبث بها، والذي لا ينظر إلى الأمور والأحداث إلا من خلال أنانيته ومصالحته بالذات، تراه تتوجه أنظاره إلى ظاهر الأمور وتنحصر فيها، فيحكم عليها بالقبح !! وحيث إنه يزن كل شيء بحسب نتائجه المتوجهة إليه فحسب، تراه يحكم عليه بالشر !

فيكون قبيحاً، فبالأمر والنهي يتحقق الحسن والقبح؟⁽⁶¹⁾.

وواضح من سياق الكلام أن النورسي يلتزم رأي أهل السنة والجماعة في مسألة الحسن والقبح هذه.. وأنه يردّ، انطلاقاً من رؤيته الأصيلة في العلاقة بين الخالق والمخلوق، وانسجماً معها: كل فعل وحكم وأمر ونهي، إلى الله سبحانه ابتداءً.. قبل ومع وبعد تشكّل الحثيات والأسباب لأنه سبحانه صانع الحثيات والأسباب، وإرادته المطلقة غير متحدّدة بما قبل إيجادها وبعده، على السواء.

الهوامش

- (1) بيدع الزمان سعيد النورسي: الكلمات، ترجمة إسمان قاسم الصالحي، الطبعة الأولى، دار سوزلر، استانبول — 1992 م، ص 111.
- (2) نفسه ص 418.
- (3) نفسه ص 349.
- (4) نفسه ص 349.
- (5) نفسه ص 139.
- (6) نفسه ص 582.
- (7) نفسه ص 97.
- (8) نفسه ص 97.
- (9) نفسه ص 204.
- (10) نفسه ص 384.
- (11) نفسه ص 414.
- (12) نفسه ص 560.
- (13) نفسه ص 560.
- (14) نفسه ص 784.
- (15) نفسه ص 822.
- (16) نفسه ص 822.
- (17) نفسه ص 23 — 24.
- (18) نفسه ص 24.
- (19) نفسه ص 24.
- (20) نفسه ص 366.
- (21) نفسه ص 367.
- (22) نفسه ص 414.
- (23) نفسه ص 774.
- (24) نفسه ص 774.
- (25) نفسه ص 774.
- (26) نفسه ص 133.

- (27) نفسه ص 134.
(28) نفسه ص 136.
(29) نفسه ص 136 – 137 وينظر: المرجع نفسه ص 225.
(30) نفسه ص 35.
(31) نفسه ص 134.
(32) ينظر: المرجع نفسه ص 211 – 214.
(33) نفسه ص 217.
(34) نفسه ص 400.
(35) نفسه ص 222.
(36) نفسه ص 224.
(37) نفسه ص 412.
(38) نفسه ص 765 وينظر: المرجع نفسه ص 771.
(39) نفسه ص 33.
(40) نفسه ص 348.
(41) نفسه ص 348. وللمزيد من التفاصيل عن هذه المسألة ينظر: المرجع نفسه ص 348 – 350.
(42) نفسه ص 354.
(43) نفسه ص 355.
(44) نفسه ص 360. وللمزيد من التفاصيل ينظر: المرجع نفسه ص 360 – 361.
(45) ينظر: المرجع نفسه ص 409 – 410.
(46) نفسه ص 362.
(47) نفسه ص 363.
(48) نفسه ص 363. وللمزيد من التفاصيل عن هذه المسألة ينظر: المرجع نفسه ص 363 – 366.
(49) نفسه ص 366.
(50) نفسه ص 371.
(51) نفسه ص 373.
(52) نفسه ص 249 – 250.
(53) نفسه ص 250.
(54) نفسه ص 250 – 251.
(55) نفسه ص 541 – 545.
(56) نفسه ص 553.
(57) نفسه ص 553 – 554.
(58) نفسه ص 196.
(59) نفسه ص 197.
(60) نفسه ص 197.
(61) نفسه ص 306.

الوظيفة الاجتماعية لمقاصد رسائل النور

- دراسة تحليلية -

الأستاذ الدكتور عمار جيدل

جامعة الجزائر

تستمد رسائل النور فاعليتها من الارتباط الوثيق بين المقاصد ووظائفها الاجتماعية، بحيث تبدو الرسائل بمعزل عن تلك الأبعاد نصا مهما كسائر النصوص المبتوثة في دنيا البشر، من هنا عدّ بحث الوظائف الاجتماعية من متطلّبات الحديث في المقاصد من الناحيتين النظرية والعملية، ليست المقاصد معارف تخشى بها الرؤوس ويتباهى بها في المجالس أو تزين بها النصوص، بل هي لب أبعاد النص نفسه ولب ذلك اللب ووظائفه الاجتماعية، من هذا المنطلق كان حديثنا عن الوظائف الاجتماعية لمقاصد رسائل النور حديثا في عمق المضمون ومقاصد مقاصده.

تتوزّع مقاصد رسائل النور على نصوصه بإحكام، يتجلى فيه التناغم والتكامل والشمول، بحيث يستغرق العالمين المادي والمعنوي، كما أنه يستغرق حياة الإنسان النفسية والاجتماعية والحضارية، ...

الإحاطة بكل تلك العناصر تأباه طبيعة المؤتمر والوقت المحدد لكل ورقة، من هذا المنطلق سينصب جهدنا على بيان بعض مظاهر الوظيفة الاجتماعية المستفادة من مقاصد رسائل النور.

لا خلاف بين قراء رسائل النور فضلا عن عشاقها بأن مؤلّفها يرمي إلى تحقيق مقصد رئيس ومجموعة من المقاصد الفرعية البحث، وأخرى فرعية بالنظر إلى المقصد الرئيس، ولكنها كلية باعتبار تحقيقها لمراتب متعلّقة بالضروري من الدين؛ فهي بهذا الوجه كلية أصلية تعبّر عن مرتبة الضروري أو ما يقرب من معناه، وقسم آخر منه كلي ولكنّه دونه من جهة الرتبة؛ فهو أقرب إلى الحاجي منه إلى الضروري⁽¹⁾، كذلك التي تتوقف وظيفة التبليغ على تحقّقها، وقسم من رتبة ثالثة يمكن إلحاقه برتبة التحسيني، بحيث يؤدي فقده

إلى العسر في المعالجة بشكل إجمالي؛ فالأول كجعل الشريعة في أصل وضعها مراعية لأوضاع الناس، جالبة لسعادتهم في الدارين (الدنيا والآخرة)، قال الأستاذ عبد الله دراز في تعليقه على كتاب الموافقات للشاطبي "القصد الأول هو أنها (الشريعة) وضعت لمصالح العباد في الدارين"⁽²⁾، والثانية كمقصد الإفهام من وضع ألفاظ الشريعة وصيغ تبليغها، والثالثة ما يتطلبه اليسر بجميع أشكاله.

يتوجّه أوّلها إلى بيان أصل قصد الله في وضع التكاليف الشرعية المستفاد من القرآن الكريم والسنة الشريفة؛ وقد عمل بديع الزمان على إثبات ذلك الأصل وتوضيحه بالتركيز الكبير على بيان أنّ من أهم ما ترمي إليه رسائل النور (المعبرة عن الشريعة) إثبات ارتباط الشريعة بمفهومها العام بمصالح العباد المعنوية والمادية؛ فمصالحهم المعنوية والمادية لا تحقق بطريقة إنسانية هادفة واقتصادية إلا بالشريعة الغراء، يؤكد هذا المعنى قوله رحمه الله "إنّ منصرف هذا العالم حكماً عامةً عالية، بشهادات رعاية المصالح والفوائد في كل شيء، وبدلالات الانتظامات والاهتمامات وحسن الصنعة في جميع المخلوقات. فهذه الحكمة الحاكمة في سلطنة الربوبية، تقتضي تلطيف المطيعين المتحنين إلى جناتها.. وكذا يشاهد إنّ له عدالة محضة حقيقية بشهادات وضعه كل شيء في الموضع اللائق، وإعطاء كل ذي حق حقه الذي يستعد له؛ وإسعاف كل ذي حاجة حاجته التي يطلبها - لوجوده أو حفظ بقائه - وإجابة كل ذي سؤال سؤاله. وبالخاصة: إذا سئل بلسان الاستعداد أو بلسان الاحتياج الفطري أو بلسان الاضطرار.. فهذه العدالة تقتضي محافظة حشمة مالكيته، وربوبيته، بمحافظه حقوق عبادته في محكمة كبرى؛ مع أنّ هذه الدار الفانية أقل وأحق وأضيق وأصغر من أنّ تكون مظهراً لحقيقة تلك العدالة؛ فلا بد حينئذ لهذا الملك العادل والرب الحكيم ذي الجمال الجليل والجلال الجميل من جنة باقية وجهنم دائمة."⁽³⁾

كما أورد ذلك المعنى في خاتمة تعليقه على دليل من الأدلة على العقيدة الإسلامية؛ فيقول في بيان المعنى المشار إليه: "وزبدة هذا الدليل هي: إتقان الصنع في النظام الأكمل في الكائنات، وما فيها من رعاية المصالح والحكم، إذ النظام المندمج في الكائنات، وما فيه من رعاية المصالح والحكم، يدل على قصد الخالق الحكيم وحكمته المعجزة، وينفي نفيّاً قاطعاً وهم المصادفة والاتفاق الأعمى."، معللاً المسألة بالإتقان الذي لا يكون

وقد بين الأستاذ وكرّر في أكثر من موقع أن تأثير رسائل النور قويّ؛ فقد كشفت منذ خمسين سنة عن أنّها تمثّل أقصر طريق لإنقاذ الإيمان والمعجزة المعنوية للقرآن الكريم في هذا العصر، بصرف النظر عن موطن حركتها، سواء تعلّق الأمر بالبلدان العربية أو الأعجمية أو الغربية، حتى بلغ إلى مسامعه خبر مفاده أنّ طلاب النور في تلك الأماكن يزيدون ثلاثة أضعاف على ما ثبتته المحاكم هنا، وما زالت تلك الخصيصة حيّة، فما زالوا يتكاثرون إلى يوم الناس هذا، لذا صرّح النورسي بأنّه اضطر روحياً إلى بيان ومشاهدة هذه النتيجة العظيمة وهو على عتبة القبر.⁽¹⁰⁾

تحقيق إنقاذ الإيمان يهيئ النفوس للتكيّف الاجتماعي مع المعطيات الجديدة أو المتجددة بما ينسجم والمحافظة على الإيمان أو التمكين له في حياتنا الاجتماعية والفكرية والتربوية.

2 - الإيمان والأخلاق:

ليس المقصود بالإيمان كلمات تلاك ثم ترمى، لا تصنع وعياً أو لا تكون حافزاً على فعل الخير، بل يرمي صاحبه إلى إنقاذ الإيمان من الانفصال عن العمل، لهذا ركّز الشيخ على ربطه بالأخلاق والعمل النافع، فكان من ظاهر الانتفاع بتلك الرسائل الوضوح والتلطّف مع الخلق أجمعين بما فيها السلطة الحاكمة؛ فلا يقبل مسلك رسائل النور تحريضاً للشعب ضد الحكومة ولا دعوة لتأسيس جمعية سرية تقوم بإحلال الأمن، وبذلك تتعد عن كل ما من شأنه أن يعكّر صفو العلاقة بين الحاكم والمحكوم، مركّزة جهدها على هدف وحيد وخدمة وحيدة هي إيفاء خدمة مقدسة للإسلام ولاسيما خدمة مقدسة للأمة الإسلامية من ناحية الإيمان والأخلاق، تلك هي أم الوظائف وهي سبيل الحصول على رضى الله تعالى.

وفاعلية ذلك المسلك مرتبطة بالأساس بعدم اشتغال قلوب أتباعها بأهداف وغايات دنيوية، لأنّ قلوبهم مشغولة بالإيمان وبأمور الآخرة، لذا فإنّه لم يخطر ببالهم أبداً ما أهمهم به المخالفون والمنائون لرسالتهم في مضمونها الفكري وبعدها الأخلاقي، لهذا لا يتحمّل طلاب النور تلك الاتهامات⁽¹¹⁾، لأنّهم قطعوا صلتهم بالتيارات السياسية، وبدلوا طاقاتهم من أجل الحقائق الإيمانية وحدها⁽¹²⁾، وبذل الوسع لتحقيقها يضع فرشة رئيسة

للتفكير الاجتماعي، إذ ترتبط الفاعلية الاجتماعية في أصل وضعها بدرجة حضور الأخلاق في الممارسة اليومية للمؤمن، بحيث لا تقبل الرسائل الفصل النكد بين الإيمان والخلق، والإصرار على هذا الأمر يؤكد مركزية المطلب الاجتماعي وبالتالي الوظيفة الاجتماعية لمقاصد رسائل النور، كما أن الأخلاق المرتبطة بالإيمان رسالة اجتماعية، ذلك أن الأخلاق تظهر في موقفك من الإنسان سواء كان موافقا أو مخالفا، وبهذا يظهر أن الأخلاق رسالة في الوظيفة الاجتماعية ليس إلا.

3 - خدمة الإيمان:

يثبت الإيمان المحقق بخدمته المستمرة الدؤوب المتجلية في الأعمال والأقوال والأحوال، ولعل من أظهر سبل تحقيقه، قراءة رسائل النور، ذلك أن تحصيل العلم فيها شيء مبتكر وأصيل في الحقيقة ولا يوجد ما يشابهه؛ لأن أي تحصيل علمي آخر تكون الغاية من الاستمرار فيه هي المنفعة المادية أو الحصول على موقع ما. أي أن الدوام لهذه الدروس لا تكون عن رغبة بل في الغالب للحصول على منافع مادية أو على شهرة. أمّا رسائل النور فتشبه جامعة حرة مفتوحة، والذين يداومون في هذه الجامعة بقراءة رسائل النور لا يتبعون أي هدف دنيوي بل يتبعون خدمة الإيمان والقرآن فقط لا غير.⁽¹³⁾

وخدمة الإيمان ليست قضية شخصية ذات بعد فردي محض، بل هي في أصل وضعها رسالة اجتماعية، بحيث إذا تعطل ذلك البعد تعطل ادعاء خدمة الإيمان، من هذا المنطلق انتهى النورسي وبنظرة استشرافية مستقبلية إلى أنه "سيأتي زمان لا يمكن للقدرات والقوى الشخصية والجزئية أن تقاوم وتصدّ هجوم أعداء رهيبين"⁽¹⁴⁾، ولهذا سيشطر كل من أراد النسج على منوال مسلك سعيد النورسي في التغيير الاجتماعي إلى البحث بحثاً حثيثاً عن الذين يملكون خطأ جيداً ليشاركهم في خدمته فيشكلون معاً آلاف الأقدام التي تحول تلك الخدمة الشخصية الجزئية إلى خدمة كلية عامة قوية، إذ يجتمعون حول تلك البذرة، بذرة النور، مثلهم كمثل اجتماع الماء والهواء والنور، ويمدّون تلك الشجرة المعنوية بالعون؛ وفضلاً عن هذه الحكمة، فإن إذابة أنانيته في حوض الجماعة المبارك كإذابة قالب الثلج نيلاً للإخلاص الحقيقي، حكمة أخرى تدفع لخدمة

الإيمان⁽¹⁵⁾. الذي يعد أكبر غاية وأهم هدف للبشرية على سطح الأرض والسعادة القصوى⁽¹⁶⁾

4 - نيل مرضاة الله:

يتحرَّك الإيمان اجتماعياً بطلب مرضاة الله التي تعدُّ قوَّة دفعه الداخلي، إذ يعود إليها تنشيط الهمم لأجل البذل والعطاء المستمرين، كان هذا في الماضي وهو مسلك الحاضر، ولا سبيل لحركة الإيمان الاجتماعية إلا بحوية هذا المحرَّك - طلب مرضاة الله باستمرار في السر والعلن - ذلك هو سبيل "أجدادنا المؤمنين الذين رحلوا إلى الدار الآخرة لهم علاقة من الناحية المعنوية بهذه الدعوى العظيمة." والدعوة التي حرَّكتهم ما زالت بين أيدينا؛ فنحن اليوم نملك في أيدينا فرصة النسخ على منوالهم ونيل ما نالوه واكتساب محبة أولئك الملايين من أهل الحقيقة ودعاءهم وشفاعتهم.

تجلت تلك الفرصة في الحقيقة السامية المسماة بـ "رسائل النور" فهي أمامنا وبين أيدينا. تلك الرسائل التي تحوَّل - بفعل نورها المستمد من القرآن الكريم - الغايات عن التعلُّق بالمراتب والمقامات الدنيوية الفانية والسفلية وترابطها بالسعي الدؤوب لنيل رضی الله تعالى الذي هو السعادة العظمى والفرحة الكبرى والهناء التي ما بعدها هناء.

وجعل نيل مرضاة الله غاية يحفز بفعل مضمونه الإيماني ووظيفته الاجتماعية الإنسان ترك الأخلاق الرديئة والهابطة ويجهزه بالإيمان ويحمِّله بالفضيلة وبالمعاني والقيم السامية، يظهر ذلك في رسائل النور المبسوطه أمامكم وهي منبثقة من الإعجاز المعنوي للقرآن المبين الذي هو نور إلهي.

وقد عمل بديع الزمان على بيان تلك الحقيقة في أكثر من موقع، وأكد بأسلوب لا لبس فيه أن غاية الغايات نيل مرضاة الله، وهي صمام الأمان وضابط توازن التصرفات الاجتماعية، بل ومكسبها بعدا إنسانيا منظورا في العاجل والآجل، يشهد لهذه المعاني قوله رحمه الله: "ما دام اكتساب الإيمان، والانتقال بهذا الإيمان في الدنيا إلى سعادة الدار الآخرة أهم غاية للإنسان، ومادامت رسائل النور تقدم - بفيض من القرآن - الحقائق الإيمانية وتقرب مئات الآلاف من قرائها ومستنسخيها إلى هذا الهدف، فلا مناص أمام عدالتكم السامية وحكمكم للحقيقة إلا فهم الوجه القرآني، والوجه الحقيقي لرسائل النور

وتقدير قيمتها الحقيقية، ومعرفة أنّ طلاب النور لا يسعون إلاّ لنيل رضى الله تعالى وأنه لا هدف لهم سواه.⁽¹⁷⁾

5 - حصول صحوة إسلامية بمضمون اجتماعي:

ترجع حيوية الأداء الاجتماعي للأسرة الإسلامية الكبرى إلى تحويل الإيمان من مجرد مطلب فتوي أو طبقي إلى مطلب عام يشمل الأمة برمتها، وهو الهدف الذي كان يصبو إليه بديع الزمان منذ نعومة أظفاره والأمل الذي كان يحدوه في حلّه وترحاله، إذ يصرّح أن مرغوبه هو حصول صحوة إسلامية تعم العالم الإسلامي، ظهرت هذه الروح العظيمة في مباحثاته مع مئات العلماء في شرقي الأناضول قبل مجيئه إلى استنبول، وتوضّح أكثر عند قدومه إليها حتى حير السياسيين.

و بقي معلق الآمال بتلك الغاية سعياً منه للقيام بهذه المسؤولية الجسيمة والمهمة الثقيلة؛ فكان يأمل أن يكون الإعلان عن الحرية والمشروطية في خدمة الشريعة الغراء، ويكون ذلك تبشير سعادة الأناضول والعالم الإسلامي قاطبة، حتى أنه ألقي الخطب في ضوء ذلك الأمل وكتب المقالات بغية تحقيقه، وظهر ذلك أيضاً في مؤلفاته ولاسيما في سنوحات، لمعات وغيرها مما ألفه، وكان لا يتوانى من التصريح أن أعظم صوت مدوّ في المستقبل هو صوت القرآن العظيم⁽¹⁸⁾، وهو طريق تحصيل صحوة حيوية وفاعلة ذاتياً، بما تحملها النصوص من بذور بقاء وديمومة اجتماعية لا تعطّلها الأحوال أو تغيرها الأحوال، ما دام أهلها بما متشبثين ودونها مرافعين ولمضامينها مجسّدين.

يرمي حصول الصحوة بمضمونها الاجتماعي إلى التأسيس العملي التطبيقي للوظيفة الاجتماعية في الأسرة الإنسانية

ثانياً - الوظيفة الاجتماعية لمقاصد رسائل النور في الأسرة الإنسانية:

1 - تعطي الحياة معنى:

لا يمكن الخلوص إلى تقرير الوظيفة الاجتماعية للمقاصد إلا بإخراج المجتمع البشري من الفوضى والعبثية إلى رحاب الأهداف والمقاصد الإنسانية، ورأس ذلك أنّ المقاصد أسست لوظيفة اجتماعية تعطي الحياة معنى، ومن مظاهر المعنى أن يتحلى الإنسان

بصفات تخوّل له جعل خدمة الإنسانية عين تحقيق السعادة الشخصية، وتدليلاً على المراد يبيّن النورسي أنّ الإيمان يعطي الوقت الميّت في أعين كثير من الخلق قيمة لا حصر لها وفائدة لا حدّ لها، كأنّه يؤسس إشارة لا عبارة إلى أنّ أسير شهواته أو فكره غير السويّ، يتحرر من أسرهِ كما تحرّر المقيد أو المسجون من أسرهِ بفعل المعاني الإيمانية الممكنة من القلب، ذلك أنّها كانت ومازالت وستبقى المبادئ الأساسية التي تعطي الحياة معنى، كأنّه يصرّح مخاطباً الأسرة الإنسانية: أيها الناس يا من ترغبون في منح حياتكم معنى، فهذا سبيلها، سبيل أعطى السجين معنى في سجنه، ومن باستطاعته منح ذلك المعنى في مثل تلك المواقع والظروف القاسية له أن يمنح المعاني نفسها في ما شاها من المواقع والظروف، وخاصة لمن رام تحرير نفسه من الأسر بمختلف أشكاله.

يشهد لهذه المعاني نصوص النورسي نفسه، منها قوله رحمه الله: "إنّ كلّ يوم من أيام العمر التي تضي في السجن، يمكن أن يُكسب المرء ثواب عبادة عشرة أيام، ويمكن أن يحوّل ساعاته الفائية - من حيث النتيجة - إلى ساعات باقية خالدة.. بل يمكن أن يكون قضاء بضع سنين في السجن وسيلة نجاة من سجن أبدي لملايين السنين."⁽¹⁹⁾

وبتأسيس معنى للحياة تتجلى في تصرفات الإنسان وظيفه اجتماعية لذلك المعنى، إذ من نتائج ذلك المعنى الارتباط بالآخرة ومنها التأسيس العلمي والعملية للوظائف الاجتماعية من الإيمان بالقيامة؛ فيرجع للعقل دوره المنوط به والمنتظر منه تحقيقه.

يعود التراحم - بمعناه ومضمونه الإنسانيين - بين البشر إلى الاعتقاد بالقيامة، "إذ الرحمة من أدلة القيامة والسعادة الأبدية؛ لأنّ الرحمة إنّما تكون رحمةً، والنعمة نعمةً إذا جاءت القيامة وحصلت السعادة الأبدية. وإلاّ فالعقل الذي هو من أعظم النعم يكون مصيبةً على الإنسان، والمحبة والشفقة اللتان هما من أطف أنواع الرحمة تتحولان المأ شديداً. بملاحظة الفراق الأبدي."⁽²⁰⁾

و بهذا يظهر جليا أن منح الحياة معنى يؤسس للوظائف الاجتماعية لمقاصد رسائل النور في الأسرة الإنسانية، ويجاوز العقلية العيشية التي تجعل الحياة مرتعا للشهوات، وتؤسس لذلك المعنى من زاويتين:

أولاهما مقاصدها المحققة في المؤمن وبذلك التحقَّ تجعل خدمة الإنسانية هدفاً شرعياً نبيلاً.

ثانيتها التأسيس لتلك المعاني في الأسرة الإنسانية بالدرس المستمر الاستفادة من حياة الرسالي المتمثل لمضامين الرسائل في حياته الفردية والاجتماعية.

2 - دفع الأمراض الاجتماعية:

ترمي رسائل النور إلى جعل حياة المسلم أنموذجاً في تجاوز الأسقام الاجتماعية والتأسيس لدفعها عملياً؛ فمن رأى من المخالفين اتحاد الجماعات الدينية - على تنوع مشاربها - في الهدف، تساءل عن أسبابه وغاياته، ومن رأى منهم شفقة ورحمة ومحبة تساءل أيضاً عن أصل ذلك، وبهذا يصبح تحقيق الوحدة محركاً لوعي الآخرين ومثار تساؤلاتهم المشبعة لحاجتهم الاجتماعية من جهة ودافعة لكثير من أمراضهم الاجتماعية من جهة أخرى.

تتجلى تلك الحقائق في الرمي إلى جعل اتحاد هدف الجماعات الدينية مقصداً وهدفاً يرمى إلى تحقيقه، وهو طريق التأسيس لتجاوز مرض خطير أشار إليه بديع الزمان، بصيغة "مالي وما عليّ فليفكر غيري"⁽²¹⁾، وتجاوز ذلك الداء العضال الفتاك يؤسس للتواصل بين المجموعات المكوّنة للأسرة الإنسانية على تنوع مشاربها ومسالكتفكيرها، وبهذا تقدّم الدليل العملي - بعد النظري المشار إليه أعلاه - على أن من مقاصد رسائل النور دفع الأمراض الاجتماعية التي على رأسها الإهمال والتسيّب المشار إليه بصيغة "مالي وما عليّ فليفكر غيري"

و مرد دفع ذلك الدواء لأمراض فرعية كالحرص الذي يعد في رسائل النور معدن الخسران والسفالة ويؤسس لدفعها بالإخلاص والقناعة.

قرر هذا المعنى النورسي بقوله: "نعم، إنّ القناعة كنز للعيش الهنيء الرغيد ومبعث الراحة في الحياة، بينما الحرص معدن الخسران والسفالة كما يتبين ذلك من الحديث الشريف: (القناعة كنز لا يفنى)،... إنّ الحرص يتلف الإخلاص ويفسد العمل الأخرى؛ لأنّه لو وُجد حرص في مؤمن تقي لرغب في توجّه الناس وإقبالهم إليه، ومن

مخلوق؛ لهذا تستجيب لحاجات الخلق جميعا وعلى رأسها مطلق الإنسان؛ فتؤسس لنيل أعظم ما يتمناه. (29)

السعي إلى ذلك الهدف الذي يعدّ مظهرا مهماً من مظاهر الاستجابة للمضامين الاجتماعية لرسائل النور يوجب تنمية القدرات العلمية والإيمانية وما يترتب عليهما من تنمية شاملة للوظيفة الاجتماعية المنتظرة من المقتنع برسائل النور منهجا أولاً ومضمونا ثانياً.

8 - تجاوز الهلاك:

يوجب السعي إلى إنقاذ الإنسان (مطلق الإنسان) دعوته إلى تجاوز المهلكات المادية والمعنوية، ولا يتأتى أن يعمل المسلم على تحقيق ذلك الهدف السامي إلاّ إذا تنبّه إلا أهمية الإسلام في صناعة وعيه النظري بالإنسان - ولو كان مخالفاً - من جهة ونماذج تطبيق تلك الرؤية الرسالية في دنيا الصالحين من جهة أخرى، لهذا يخاطب بديع الزمان المسلم تأسيساً لذلك المعنى؛ فيقول: "أيها المسلم لا ترخ يدك عن الإسلام الذي هو حامي وجودنا وكياننا تجاه الدمار الذي تولّده هذه النتيجة المخيفة لتقدم أوروبا، بل عض عليه بالنواجذ واستعصم به بقوة، وإلاّ فمصيرك الهلاك. (30)، وبهلاكك تهلك الإنسانية جمعاء، فدفع الهلاك عن نفسك دفعه عن الآخرين، لما يوجب التثبّت بالإسلام من سعي دؤوب إلى دفع الهلاك عن الأسرة الإنسانية، ذلك أنّ خدمة الأسرة الإسلامية هي عين خدمة الأسرة الإنسانية

9 - تليين القلوب:

كانت رسائل النور بأسلوبها وميزاتها المستمدة من نور القرآن الكريم فرصة سانحة لمراجعة كثير من المناوئين لموقفهم منها، لذلك "لم يتمكن أعداء رسائل النور المتسترون أن يتحملوا تلك الفتوحات النورية" فحاولوا جهدهم صرف القلوب عنها أو التحريض على أهلها، فنبهوا المسؤولين في الدولة ضد الأستاذ وتلاميذه وأثاروهم عليهم، فأصبحت الحياة - مرة أخرى - ثقيلة مضجرة، إلاّ أنّ العناية الإلهية تجلّت على حين غرة، حيث أنّ المسؤولين أنفسهم - وهم أحوج الناس إلى رسائل النور - بدءوا فعلاً بقراءة الرسائل المصادرة بشوق واهتمام، وذلك بحكم وظيفتهم. واستطاعت تلك

الرسائل بفضل الله أن تلين قلوبهم وتجعلها تنح إلى جانبها. فتوسعت بذلك دائرة مدارس النور، حيث إنهم بدؤوا بتقديرها والإعجاب بها بدلاً من جرحها ونقدها. فأكسبتنا هذه النتيجة منافع حمة، إذ هي خير مائة مرة مما نحن فيه من الأضرار المادية، وأذهبت ما نعانيه من اضطراب وقلق. ولكن ما أن مرّت فترة وجيزة، حتى حوّل المنافقون - وهم الأعداء المتسترون - نظر الحكومة إلى شخص النورسي، وتّبها أذهابها إلى حياته السياسية السابقة، فأثاروا الأوهام والشكوك، وبثوا المخاوف من حوله في صفوف دوائر العدل والمعارف (التربية) والأمن ووزارة الداخلية. ومما وسّع تلك المخاوف لديهم ما يجري من المشاحنات بين الأحزاب السياسية، وما أثاره الفوضيون والإرهابيون - وهم واجهة الشيوعيين - حتى أن الحكومة قامت إثر ذلك بحملة توقيف وتضييق شديد عليه، وبمصادرة ما تمكّن الأستاذ من الحصول عليه من الرسائل، حاولوا توقيف نشاط طلاب النور و الحدّ من فاعليتهم في المجتمع.⁽³¹⁾

حققت الرسائل تليين القلوب بمنهجها المؤسس على الشفقة والعدل والحق والحقيقة والضمير؛ فحرم عشاقها أنفسهم من التدخّل في المشوشات عن الفكرة الأصلية - إنقاذ الإيمان -، ومنعوا أنفسهم بشدّة من التدخّل بالأمر السياسي أو بالسلطة الحاكمة.

وقد مالوا إلى هذا الرأي بفعل تفكير استراتيجي، الغرض منه حفظ الأصل من الضياع، رحمة بالذين يقعون تحت سلطة المتبلين بالإلحاد والأمراض الفكرية المزمّنة أو الوقتية.

الهوامش

- 1 - الفكرة مقتبسة من الموفقات/ لأبي إسحاق الشاطبي، دار المعرفة، بيروت، لبنان 13-8/2
- 2 - انظر تعليق الشيخ عبد الله دراز على الموفقات/ لأبي إسحاق الشاطبي 5/2
- 3 - المثنوي العربي النوري 91
- 4 - المثنوي العربي النوري 428
- 5 - صيقل الإسلام 174
- 6 - المصدر السابق نفسه
- 7 - الملاحق 148
- 8 - انظر سيرة ذاتية 364
- 9 - سيرة ذاتية 506
- 10 - انظر الملاحق 415
- 11 - انظر الشعاعات 622
- 12 - انظر الملاحق 94
- 13 - انظر الشعاعات 593
- 14 - بصرف النظر عن الشخصيات الفردية أو الاعتبارية أو الفكرية أو الاقتصادية أو
- 15 - انظر سيرة ذاتية 12
- 16 - انظر الشعاعات 601
- 17 - انظر الشعاعات 606
- 18 - انظر سيرة ذاتية 182
- 19 - الشعاعات 519
- 20 - إشارات الإعجاز 29
- 21 - صيقل الإسلام 536 سيرة ذاتية 99
- 22 - اللغات 222
- 23 - انظر صيقل الإسلام 63
- 24 - انظر الشعاعات 406
- 25 - انظر صيقل الإسلام 447 سيرة ذاتية 107
- 26 - انظر صيقل الإسلام 333
- 27 - انظر سيرة ذاتية 470
- 28 - انظر الكلمات 197
- 29 - الكلمات 69
- 30 - صيقل الإسلام 367
- 31 - انظر سيرة ذاتية 383

قراءة تحليلية

في النظرة النورية إلى المسألة الغربية

(العالم الإسلامي والغرب: الحوار والفهم المتبادل)

أ.د. قطب مصطفى سانو
مدير المعهد العالمي لوحدة الأمة الإسلامية
بماليزيا

تقديم الدراسة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن
ولاه، وبعد،

فهذه صفحات معدودات عانيت بنسجها حول النظرة النورية الناصعة المحكمة إلى
المسألة الغربية، تلك النظرة التي نخاها لم تحظ ما تستحقه من التحليل والتحقيق
والتوضيح على الرغم مما لها من أهمية موضوعية جلية، ومكانة علمية دقيقة، ولئن
عاش العالم الإسلامي ردحا من الزمن أسير النظرات الفكرية المتطرفة — يمينا أو
يساراً — إزاء المسألة الغربية، بل لئن تفاوتت تحليلات النخب والمفكرين حول هذه
المسألة، فأورثوا المسلم العادي قلقا واضطرابا وتذبذبا في موقفه من الغرب إن سلبا
أو إيجاباً، لئن كان كل ذلك كذلك، فإن الحاجة اليوم تمس إلى إلقاء مزيد من الضوء
على النظرة النورية التي أوفت على الموضوعية والعلمية والمنهجية الشاملة والواقعية
العميقة.

إننا نحسب أن النظرة النورية إلى المسألة الغربية إذا نالت حظها من التحليل
العلمي الرصين والتحقيق الفكري الشامل، فإنها ستسهم — إلى حد كبير — في إنقاذ

العالم الإسلامي مما يجتاحه من محن وإحن وقلقل وامتهانات لكرامته وعزته نتيجة انخداع وانبهار شطر كبير من مفكريه بالظنرات غير الدقيقة إلى المسألة الغربية. كما أننا نحسب أن انطلاق مهندسي سياسات العالم الإسلامي من النظرة النورية في رسم علاقة الأمة بالغرب بعجره وبجره من شأنها إنقاذ الجيل الصاعد من الناشئة مما هم واقعون فيه من انخداع وانهزام وتطرف في الرؤية والنظرة إلى المسألة الغربية، فضلاً عن أنه من شأن الأخذ بتلك النظرة القيمة، فتح باب واسع ومتين من الحوار والتواصل بين العالم الإسلامي والغرب، وذلك على أساس متين من القيم المشتركة المتمثلة في المبادئ السامية التي تقوم عليها الشرائع السماوية كلها، والتي تدعو أتباعها إلى نبذ العنف والتزمت والتطرف وحل الحوار محل الصراع، والتعاون محل التنافر، والتكامل محل الانزواء والانطواء.

وتأتي هذه الورقة المتواضعة لتأخذ بزمام المبادرة إلى دعوة المخلصين من المفكرين إلى أن يولوا النظرة النورية جانب التحقيق والدراسة والتحليل، كما تروم هذه الورقة دعوة مهندسي السياسات المصرية لعموم الأمة إلى الاستعانة بهذه النظرة العلمية الدقيقة الفائقة، ذلك لأنهما تتضمنان قدرًا غير يسير من البيئات والمرتكزات من شأن الأخذ بها خلاص عموم الأمة مما تعاني منها اليوم من غبش في الرؤية إلى المسألة الغربية.

ولقد آن الآوان للمفكرين والنخب في الأقطار الإسلامية أن يتحلوا في نظراتهم بالشجاعة الفكرية كما فعل الإمام المبدع بديع الزمان، كما آن لهم الآوان أن يترفعا في نظراتهم عن إملاءات رجال السيف وضغوطات العوام، فالمفكر المخلص لا ينبغي له بأي حال من الأحوال أن يخضع في فكره ونظراته لأهواء العوام، كما لا ينبغي له أن يتطلع إلى إغراءات الحكام، بل يجب أن يطمح في فكره ورؤيته إلى انتشار العوام من برائن التخلف الفكري والهوان الذهني، ويصبوا إلى الأخذ بأيدي الحكام إلى ما فيه صلاحهم وصلاح الرعية.

ورحم الله الإمام البديع، فقد كان مفكراً مخلصاً لدينه ولأمته وللإنسانية كلها، وكان رجل القدر في حياة أمة، وإن رسائل النور التي ورثناها لخير شاهد على هذا

الإخلاص الباهر، والتفاني العميق في خدمة الإسلام والمسلمين، وتوعية العامة، وإرشاد الخاصة.

وفي الختام، لا يسعني إلا أن أزجي شكري الجزيل إلى القائمين على هذا المؤتمر، وأدعو لكم بمزيد من التوفيق والسداد، فعسى الله أن يجمعنا به ويأماننا في جنان الخلد في يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم. والله يقول الحق ويهدي إلى سواء السبيل.

قطب مصطفى سانو

طالب رسائل النور، نزيل كوالالمبور، ماليزيا

وأيا ما كان الأمر، فإننا نخلص إلى القول بأن هذه النظرة النورية تستحق التقويم العلمي الشامل، وتستحق أن تكون موضوعا لدراسات وأبحاث علمية جادة في المؤسسات التعليمية الراقية التي تعنى بتحسين الجيل الصاعد بالمناعات العلمية المطلوبة في العصر الراهن للتعامل مع المسألة الغربية بطريقة موضوعية بعيدا عن الانفعال والعاطفة والحماسة. وإلى أن يقيض الله لهذه المهمة من يروم خدمة الأمة في العصر الحاضر، نرى أن تتبع هذا المبحث بإلقاء عثارة تقويمية للنظرة النورية إلى المسألة الغربية.

المبحث الثاني

في تقويم منهجي للنظرة النورية إلى المسألة الغربية

لئن تبدت لنا النظرة النورية إلى المسألة الغربية في ضوء ما توافر لدينا من معلومات وأقوال متأثرة عن الإمام النورسي، ولئن أدركنا من خلال العرض والتحليل كون تلك النظرة من النظرات المخالفة للعديد من النظرات السابقة واللاحقة عليها، لذلك، فإننا نرى أن نعمل إلى هذا المبحث لنقف — بجلاء — على أهم الخصائص المنهجية التي نخل النظرة النورية قد انفردت بها دون سواها من النظرات التي حاولت ذات يوم تحليل المسألة الغربية وإبرازها للعالمين، بيد أنها في معظم الأحيان لم تخل — كما أسلفنا — من الافتقار إلى العديد من الخصائص المنهجية التي ينبغي توافرها في التحليلات العلمية للمسائل الشائكة والمتشعبة كالمسألة الغربية.

وبالرجوع إلى أهل العلم بمناهج البحث والتحقيق والمتخصصين في تحليل الأفكار والآراء، نجد ثمة اتفاقا بينهم على أن التحليل العلمي الدقيق للأفكار ينبغي أن تتوافر فيها جملة من الأسس الضرورية الهامة، ومن أهمها: الموضوعية، والعلمية، والشمولية. فيعد التحليل علميًا وحققيًا إذا انتظمت هذه الركائز. ومن ثم، فإن تقويم أي تحليل أو نظرة أو فكرة، ينبغي أن يتمحور حول التحقق من مدى توافر هذه الأسس العاصمة للتحليل من الانحيازية والتطويعية والتجزئية والجزئية.

وإذ الأمر كذلك، وهو كذلك، فهلم بنا لنقف هنيهة تبيين من خلالها من مدى توافر هذه الأسس في النظرة النورية إلى المسألة الغربية:

أولاً: الموضوعية في الطرح:

ليس من مرية في أنه من طبيعة الأفكار والآراء التأثير المباشر وغير المباشر بالقناعات القبلية والتقلبات الزمانية والمكانية والعادية، ومن الصعب بالمكان أن يتجرد المفكر تجردا كلياً من ترسبات ظروف الزمان وآثار تقلبات الأيام والأحوال، وكثيراً ما تدفع الظروف والأحوال المفكر إلى تبني مواقف وآراء تعكس التأثير السلبي أو الإيجابي، بما يموج الساحة من ظروف وأحوال، ولا يسلم من هذه الظاهرة من المفكرين والعلماء إلا فئة قليلة يتميزون بالصمود أمام العواصف الفكرية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية، ويتحلون بالتأمل والتأني والأناة في نظرهم إلى ما يدهم ساحتهم من مستجدات وأحوال وأهوال. ولعل نظرة سريعة فيما تعج عالم الكتابة والتأليف من أبحاث ودراسات وكتب، تبتك أن للزمان سطوة وتأثيراً غير منكورين على عامة المفكرين في تصوراتهم ونظراتهم إلى الأشياء والمسائل.

ومن ثم، تواتر عند العالمين عدم الاعتداد بالتاريخ مصدراً للتشريع، كما تواتر عند أهل العلم بالأصول والفقهاء أن الفتوى تتغير بتغير الزمان والمكان والأحوال والعادات والتقاليد، ويكاد علماء الرجال — الجرح والتعديل — يتفقون على عدم قبول رواية المحدثين الذين ابتلوا في المحن أو شاركوا في الفتن والاضطراب، ومرد هذا كله إلى الاعتراف الأكيد بتأثير الزمان والمكان الإيجابي أو السلبي على تفكير المفكر ونظرة إلى الأشياء وحكمه على الظواهر.

ولئن كان هذا الأمر جلياً يدركه أولئك الذين يتعاملون مع أعمال المفكرين ويغوصون في أعماق مراميتهم ومقاصدهم، فإن نظرة متمعنة في جل الأعمال التي تركها الإمام النورسي، تدلك على محاولته الدائبة والدائمة عدم إخضاع أفكاره وآرائه الإصلاحية لظروف الزمان والمكان، وتقلبات الأيام والأحوال، وإصراره على ضرورة جعل الأفكار والآراء حاكمة على الزمان والمكان لا محكومة بهما، فالزمان والمكان في نظره الصائب يجب أن يخضع للآراء والأفكار لا لأن تخضع لهما الأفكار والآراء. ومقتضى هذه النظرة الابتعاد عن التأثير بتقلبات الأهواء والشهوات والإرادات عند الصدع برأي أو فكر، كما أن مقتضى هذه النظرة التجرد من القناعات القبلية المنسوجة إزاء شيء من الأشياء أو ظاهرة من الظواهر التي تحدث في المجتمع، وهذا ما نرومه من الموضوعية.

وقد أوفى نظرة الإمام النورسي — رحمه الله — إلى المسألة الغربية على الموضوعية والتجرد والوضوح، إذ إن نظريته تجاوزت الرضوخ لظروف الزمان التي كانت سائدة أيامئذ، وتجاوزت استحضار تقلبات المكان والتأثر بها، فعلى الرغم من الظروف النفسية العويصة الصعبة التي كانت

على المسألة بصورة متوازنة وصریحة بعيداً عن التأثير بتقلبات أهواء العوام، وأمزجة رجال السيف في تلك الأيام، ولقد اختار الاعتدال والوسطية في النظر إلى هذه المسألة، كما ابتعد عن التطرف لأقصى اليمين أو لأقصى اليسار، فالغرب في نظره ليس كله شراً، وليس كله خيراً، بل إن العقيدة النصرانية الحققة هي الأخرى ليست عقيدة خالية من المبادئ السامية والخصال الحميدة، وليست هي المسؤولة عن نشأة ما سُمّاه بأوروبا الثانية الضارة، وبالتالي، فإن التعامل معه ينبغي أن يقوم على استحضار أمين لهذا البعد، كما أن الحكم عليه ينبغي أن يتأسس على التمييز بين الغرب النافع والغرب الضار.

وفضلاً عن هذا، فإنه لا ينبغي تحميل عقيدة أو دين التصرفات التي تقوم بها أوروبا الثانية، فالأديان السماوية كلها لا تقر بأي من تلك التصرفات، بل إن الأديان كافة تندد بها، وتنعى على فاعليها، وتبئراً منها تبرؤاً، وتراها شؤماً ووبالاً عليها. وعليه، فإن تلك الأوروبية تمردت على مبادئ الأديان السماوية كافة، وخاصة منها الديانة النصرانية الحققة، كما أنها تبرأت من المبادئ السامية التي تدعو إليها تلك الديانة، الأمر الذي صيّر لها أوروبا ضارة ومضرة بالبشرية جمعاء. وليس أدل على هذا من أن أوروبا الأولى التي تختلف في تصرفاتها وتعاملاتها عن أوروبا الثانية، كانت نافعة لأنها احتمت بالعديد من مبادئ النصرانية الحققة، كما أنها سخرت إنجازاتها وإمكاناتها وصناعاتها لخدمة البشرية، وتسهيل حياة الإنسان على الأرض بعيداً عن الاستعلاء والتعجّر والطغيان والاعتداء والاستكبار.

إن علمية الطرح النوري لم تتوقف عند هذا الحد من النظرة الوسطية المعتدلة إلى الديانة النصرانية والمسألة الغربية، بل إن الإمام النورسي — رحمه الله — أصّر على ضرورة إبراز القيم والأسباب المادية التي مكّنت أوروبا من بناء حضارتها وتقدمها على غيرها من أمم الأرض، ويتمثل تلك القيم فيما تميزت ولا تزال تتميز به من التأني والانضباط والانتظام والصلابة والحزم وحسن التخطيط لكل ما تقدم عليه من عمل أو تصرف.

إن هذه القيم التي تعد في حقيقتها محاسن أوروبا ترتد في جذورها إلى المبادئ الشرعية التي دعا إليها ديننا الحنيف، غير أن عامة المسلمين في أرجاء المعمورة تجاوزوها وتغافلوها، واستبدلوها بغيرها، وتشكوا بلدانهم وأقطارهم من غياب هذه القيم وانعدامها شبه الكلي في كثير من الأحيان، ولا غرو — إذا — أن تكون النتيجة الحتمية — وفق السنة الإلهية — تقدم أوروبا وتفوقها على العالم الإسلامي في مجال الصناعة والتقنية والفنون، ولا عجب أن تحل حضارة

أوروبا محل الحضارة الإسلامية، بل لا عجب في أن تخدم الحضارات تابعة وخاضعة لإملاءات الحضارة الغربية المتمكنة.

على أنه من الجدير بالتحديد والتقرير أن التزام الإمام النورسي العلمية في نظريته إلى المسألة الغربية لم يتوقف عند إبرازه محاسن أوروبا الأولى، والإشادة بالأسباب والمبادئ التي أقامت عليها تقدمها وتطورها وهضمتها، ولكنه انتظمت تلك العلمية تحليلاً صريحاً وواضحاً لمساوئ أوروبا الثانية التي تمردت — كما سبق — على الدين العيسوي وعلى مبادئه الإنسانية، فهذه أوروبا في نظرة الإمام — رحمه الله — هي المسؤولة عن جزء كبير من الشقاء والتعاسة التي يعيش فيها السواد الأعظم من البشرية، وقد أضرت هذه أوروبا بالإنسانية، إذ إنها دفعت بإنجازاتها ونتائج علومها وصناعاتها إلى الإضرار بالإنسانية، كما أنها تعد في حقيقتها شقية وقلقة ومضطربة، ويعزو الإمام شقاء هذه أوروبا إلى تمرداها على مبادئ النصرانية الحقة، واستخدامها ما من الله به عليها من إنجازات وصناعات فيما لا يعود إلا بالشر والضرر على البشرية. ولهذا، فإن على العالم الإسلامي الابتعاد عن هذه أوروبا، فإنها لن تزيد إلا تخلفاً وتأخراً وتقهقراً وارتكاساً وانتكاساً.

وصفوة القول، لقد أوفت النظرة النورية على العلمية والشمولية التي تحتاج إليها الأمة الإسلامية في العصر الراهن في تعاملها مع المسألة الغربية، وكان مقتضى هذه العلمية والشمولية ضرورة العودة الصادقة إلى تبني الأسباب والخصال الحميدة التي استندت إليها أوروبا في بناء هضمتها وتقدمها وحضارتها، كما كان مقتضاها ضرورة الوعي على أهمية الأديان وخاصة الأديان السماوية في ترشيد الإنجازات والصناعات وتسخيرها لخدمة البشرية والإنسانية، فليس ثمة دين سماوي يدعو أتباعه إلى تدمير البنى التحتية للأمم، وسفك الأرواح، وهتك الأعراض، وإبادة الممتلكات، والاستعلاء في الأرض، والتكبر على العباد، والخضوع للشهوات والتزوات، فكل أولئك آفات وأمراض تواترت الأديان السماوية على محاربتها والوقوف منها موقف الرفض والإنكار.

أجل، إنه ليس من عجب أن تكون العلمية حاضرة في جميع جوانب النظرة النورية، ذلك لأن الإمام — رحمه الله — تشبع من فهمه للمنهجية القرآنية القائمة على العلمية المتمثلة في الدعوة المستمرة إلى الوسطية ورفض الغلو والتطرف والتزمت في السلوك والمعتقد والتصرف، فقد تضافرت نصوص الكتاب والسنة التي تدعو المسلمين إلى التزام الاعتدال والوسطية في أفكارهم وتصرفاتهم، ومن ذلك قوله تعالى واصفاً الأمة ﴿وَكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء

على الناس ويكون الرسول عليكم شاهداً ﴿ البقرة: 143 وقوله ﴿ والذين إذا انفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً ﴿ الفرقان: 67، وثمة نصوص عديدة في هذا المجال لا يتسع المقام لعرضها.

إن تبرأ الشرع الحنيف من الأمراض الفكرية المتمثلة في الغلو والتطرف والتزمت والتبرم، يعود إلى كون هذه الأمراض الأسباب الرئيسة وراء الانزلاقات الفكرية والزلات العقديّة، ذلك لأن غياب الاعتدال والوسطية في التفكير والتحليل والتقويم ينتج عنه نشأة تلك الأمراض، كما ينتج عنه إصابة الأمم في ضعف في رؤيتها، ووهن في سلوكياتها، وعجز في تعاملها مع أزمتها ومشكلاتها.

ومهما يكن من شيء، فإن ما نراه اليوم من تصرفات هوجاء وسلوكيات حمقاء ناتجة عن الغلو والتطرف والتزمت من لدن بعض أتباع الأديان السماوية، لا ينبغي نسبتها إلى الأديان السماوية، فجميع تلك الأديان بريئة من كل دم يسفك باسمه، ومن كل عرض يهتك باسمه، ومن كل مال يباد باسمه.

إن الحوار والسلام والأمان والأمن والاستقرار يعد أولئك ركائز وأساسا دعت إلى توفيرها وتعميقها وتثبيتها جميع الأديان السماوية، ولم يشذ عنها دين سماوي قط، وقد حاول الإمام النورسي — رحمه الله — تقرير هذا التفكير والتأكيد عليه، سعيا منه إلى القضاء على تذرعات المتذرعين، وخداعات الخادعين والمخادعين الذين يستندون إلى الأديان السماوية في تصرفاتهم المخالفة لتعاليم تلك الأديان جملة وتفصيلا.

المبحث الثالث

في النظرة النورية وواقع العالم الإسلامي الراهن

ليس بخاف على أحد أن الأمة الإسلامية اليوم على مفترق الطرق، وتمر بمنعطفات خطيرة، كما تواجه تحديات جسيمة، مما يجعل مفكريها مطالبين اليوم أكثر من أي وقت مضى بأن يتسموا بالشجاعة الفكرية في نظراتهم، وأن يتحلوا بالرشد العلمي في تحليلاتهم، وأن يسموا في أفكارهم وآرائهم على الخضوع لتقلبات أهواء العوام ولضغوطات المؤسسات المتسلطة على

الضارة، وإن قامت بينها الحروب والقلاقل والأزمات، بيد أنه كان يعني بنظرته ما يوجد في حضارة أوروبا ومدنيتها من محاسن ومساوئ، وعدّ محاسنها أوروبا قائمة بجد ذاتها، كما اعتبر مساوئها أوروبا الثانية المختلفة عن الأولى.

لكأني بهذه النظرة النورية الشاملة تستشرف المستقبل وتؤكد بأن أوروبا ستتنقسم — إن عاجلا أو آجلا — على نفسها إلى أوروبا النافعة وأوروبا الضارة! وما أشبه الليلة بالبارحة، فقد تحقق هذا الاستشراق النوري في القرن الحالي الذي نعيش فيه، ذلك لأن أوروبا (الغرب) غدت اليوم منقسمة إلى أوروبا النافعة وأوروبا الضارة، فأوروبا النافعة تنعم بالتزام قيادتها بالبقية الباقية من مبادئ النصرانية الحقة، وأما أوروبا الضارة اليوم، فإنها — وإن ادعت انتماء إلى النصرانية — غير أن أفعالها وتصرفاتها تثبتك أنها أمست ضارة ومضرة بالبشرية جمعاء، ولا يعدو انتماءها إلى الدين العيسوي أن يكون انتماء صوريا فجا هشاً كما لا يخفى ذلك على أحد من أولي النهى والألباب.

وبناء على هذا، فإنه حري بعموم الأمة وخاصة نخبها ومفكرها المخلصين الغبارى أن يستأنسوا وينطلقوا من النظرة النورية العلمية والموضوعية إلى المسألة الغربية مفرقين في أطروحاتهم بين أوروبا النافعة (=الغرب النافع) وأوروبا الثانية (=الغرب الضار)، فأوروبا النافعة ينبغي التواصل معها، وفتح حوارات واسعة معها، والبحث عن السبل الممكنة لتعميق العلاقات والاتصالات بينها وبين العالم الإسلامي على مختلف الأصعدة والمجالات سعياً إلى إسعاد الإنسانية والبشرية برمتها، وإيماناً بأن تلك الأوربا تشاطر العالم الإسلامي أحلامها وآمالها وتطلعاتها. فليس من مصلحة العالم الإسلامي أفراداً وشعوباً محاربة العالم كله، كما أنه من المكابرة إعلان الحرب كل الحرب على الغرب كل الغرب دون تمييز وتفريق بين الغرب النافع منه والغرب الضار؛ بل لا بد من استثمار ما في الغرب النافع من محاسن وخيرات وتوظيفها لخدمة قضايا الأمة ومساندة مواقفها، بل لا يجب على النخب والمفكرين المخلصين البحث عن كافة السبل الممكنة لمحاورة الغرب الضار والسعي نحو تحويله إلى غرب نافع، ذلك لأن ضرر هذا الغرب لا يعدو أن يكون تمرداً منه على النصرانية الحقة، وخروجاً سافراً على ما تدعو إليه مبادئ الدين العيسوي، ولهذا، فإن هذا الضرر في حقيقته ضرر طارئ غير مؤصل في العقيدة التي يدعيها هذا الغرب المارد المائل عن مبادئ النصرانية، وصدق المفكر الإسلامي المعاصر الدكتور أحمد كمال أبو المجد عندما قال:

- 10 انظر: سر تأخر العرب والمسلمين — محمد الغزالي — (القاهرة، دار الصحوة للنشر والتوزيع، طبعة أولى عام 1995م) ص45 بتصريف..
- 11 يقرر المفكر الإسلامي المعاصر رجاء جارودي أن الثقافة المادية التي تبنتها أوروبا الضارة تقوم على أربعة مبادئ، وهي: الفصل بين العلم والحكمة، أي الفصل بين الوسائل والغايات، فالحياة الدنيا غاية في ذاتها، وليس وراءها حياة أخرى، 2— إخضاع كل حقيقة لمفهومها الخاص، ومقدارها المادي مع استبعاد كل أثارة للحب والإيمان والمعاني الروحية. 3— الفردية أو الأثانية التي تجعل امرءًا ما أو جماعة ما، المحور والمقياس لكل شيء، وترى النظام الموضوع ليس إلا توازنًا مؤقتًا بين الأطماع المتنافسة. 4— إنكار التسامي، أو إنكار القدرة على الإفلات من هذه المتهافتات المفروضة، والاستكانة لتنمية حتمية تقتصر على الكم، وتستبعد الخلق والحرية والأمل.. انظر: نقلا من كتاب الدور الحضاري ص85-86 بتصريف واختصار.
- 12 انظر: **اللمعات — مرجع سابق — ص180**
- 13 انظر: المرجع السابق ص178.
- 14 انظر: الدوري الحضاري للأمة المسلمة في عالم الغد، نخبة من الباحثين والكتتاب، (قطر، وزارة الاوقاف والشؤون الإسلامية، طبعة أولى عام 2000م) ص 74

أهمية روحانية النورسي المتبصرة في عالم مادي متأزم

أ.د. مصطفى بنحمزة

وجدة - المغرب

يعيش عالمنا الإسلامي المعاصر مخاضا عسيرا جراء اصطراع أفكار وتوجهات عديدة سمح بيرونها افتتاح الناس على آفاق ثقافية متنوعة تبلغ في تنوعها وتباينها درجة التضارب الذي يوحى بحتمة الصراع الفكري المستقبلي والخصومة المذهبية الآتية، وفي خضم هذا الاصطراع الذي يفرز الانبهام تشتد الحاجة إلى البحث عن الذات وإلى تأكيد الهوية.

ويظل تماسك الهوية مرتبطا أشد الارتباط بالتدين الذي يمنح الإنسان رصيذا معرفيا يؤطر توجهه العقدي والمذهبي في الحياة ويصله بمصدر إنتاج القيم التي تمنح شخصيته خصوصيتها وتوازنها وبعد الاستيقان من كون التدين هو فرصة الإنسان الأخيرة للإفلات من حال الاغتراب الشعوري، ومن الارتباك الفكري، فإن مشكلة كبرى تنور في وجهه الراجب في التدين وهي تتمثل في ما أصاب هذا التدين نفسه من تمزق فظيع أصبح معه الباحث عن التدين في حيرة ممضة إذ ينخرط في تساؤلات عديدة عن الصيغة المثلى للتدين الحق هل هو تدين يستقي من ظواهر النصوص الشرعية ويخاصم العقل ويشل وظيفته القائمة على تعقل النصوص ومراعاة مقاصدها وتأويل مشكلها؟ أم هو تدين يعتمد الرأي والتأويل منطلقا للنظر في النصوص بما يجعلها شاهدة لأفكار مسبقة لم تستمد في أصلها من الوحي وإنما استجلبت نصوص الوحي لتأييدها؟ أم أن التدين هو عملية جمع رفيق ومتبصر عميق بين عطاء النص الظاهري وضرورة إعمال النظر العقلي؟ أم أن هذا التدين ليس هذا ولا ذاك وإنما هو تهييمات روحية وسبحات وجدانية تقنع باللذة الروحية وتنسحب من حركة التغيير وصنع الحضارة؟.

هي من آثار الله سبحانه وتعالى، إذا فليس صحيحا قولهم لا موجود إلا هو وإنما الصحيح لا موجود إلا منه²¹.

ب- مما يدفع به النورسي وحدة الوجود أن القائلين بما إذا كانوا يقولون لا موجود إلا الله وينزلون الموجودات منزلة العدم والخيال فإن أسماء الله تعالى لا تجد تجلياتها وذلك كأسماء الرحمن والرزاق والقهار والجبار والخالق والرحيم، التي تظل اعتبارية ما دام اسم الرزاق يقتضي مرزوقا موجودا واسم القهار يقتضي مقهورا موجودا ، فإذا كانت الموجودات معدومة فإن معاني هذه الأسماء الإلهية تتعطل وتصير غير ذات موضوع.

ج- لقد خص النورسي محيي الدين بن عربي الحاتمي (638) باعتباره أبرز الذين دافعوا عن وحدة الوجود وأفاضوا في القول عنها بحيز مهم ضمن لمعانه فأجاب عن قول ابن عربي إن مخلوقية الروح هي عبارة عن انكشافها وبين أن ابن عربي ينطلق في قوله هذا من مشرب وحدة الوجود وهو لذلك يلجأ إلى تأويلات ضعيفة وإلى تكلف تأييد رأيه بآيات قرآنية، وقد لخص القول فيه بأنه لا يخدع ولكن ينخدع وهو مهتد لكن لا يكون هاديا لغيره في ما كتبه²².

إن المتتبع لتحليل النورسي لمضامين وحدة الوجود يتبين له أن تحليلاته اتسمت بالدقة وبال موضوعية وبسوق الأدلة القادرة على إبطال الفكرة دونما حاجة إلى الاتكاء على الجانب العاطفي الذي يتوسل بالعبارة المثيرة التي لا تصل إلى أكثر من إحداث موقف انفعالي قد لا يصمد بعد سكون فورة الغضب.

لقد حاول النورسي رد القول بوحدة الوجود إلى مقامات روحية قاصرة تجعل صاحبها ينخدع وإن لم يكن قصده أن يخدع أحدا، فمن ثم لا يكون القائل بما موضوع قدوة أو اتباع بل قد يكون أحوج إلى التوجيه والإرشاد، ليكتشف منزلقه وما يتأدى إليه من مآلات فكرية خطيرة.

وأخا شهما غيرا إن الأساس هو الإخلاص التام³². ويقول إن سر الأخوة هو إفناء الفرد شخصيته في شخصية إخوانه وإيثارهم على نفسه³³.

إن النورسي بهذا الاختيار يمنح كلمة الفناء معنى جديدا فيجعلها دالة على معنى إماتة الذاتية والسمو بها إلى الإيثار وإلى الانصهار في الآخرين من أجل تقديم كافة المساعدات لهم وهذا يقتضي صدقا في الأخوة وصفاء في المحبة وهذا من شأنه أن يعزز صفوف المسلمين ويجعلهم قادرين على النهوض الجماعي بمهامهم الحضارية.

وبعد فإن الحيز المتاح لمثل هذه المداخل لا يسمح بأكثر من الإشارة إلى بعض رؤوس القضايا التي تعطي فكرة عن تعامل النورسي مع التوجه الروحي الذي يظل في حاجة ماسة إلى معالجة علمية رشيدة من أجل مساعدته على تجاوز الهفوات والأخطاء والارتباط الشديد بالأحكام الشرعية الإسلامية.

الهوامش

- 1 المکتوبات. المکتوب التاسع والعشرون 574.
- 2 المکتوبات. المکتوب الخامس ص: 27.
- 3 المکتوبات. المکتوب الحادي عشر ص: 79.
- 4 المکتوبات. المکتوب الحادي عشر ص: 79.
- 5 للمعات 246.
- 6 الرسالة القشيرية 217.
- 7 الرسالة القشيرية 217.
- 8 الرسالة القشيرية 217.
- 9 الرسالة القشيرية 218.
- 10 المکتوبات. المکتوب التاسع والعشرون 574.
- 11 النبوغ المغربي عبد الله كنون ص: 208.
- 12 المکتوبات 583.
- 13 المکتوبات 583.
- 14 المکتوبات 583.
- 15 المکتوبات 583.

- 16 قواعد التصوف لأحمد زروق القاعدة 45 ص: 26.
- 17 حلية الأولياء لأبي نعيم 255/10.
- 18 المكتوبات - المكتوب التاسع والعشرون ص: 579.
- 19 شطحات الصوفية . د. عبد الرحمن بدوي ص: 190 وكالة المطبوعات الكويت 1976.
- 20 شطحات الصوفية . د. عبد الرحمن بدوي ص: 191 وكالة المطبوعات الكويت 1976.
- 21 المكتوبات - المكتوب الثامن عشر ص: 106.
- 22 للمعات ص: 52.
- 23 البحر المحيط لأبي حيان 136/6 دار الفكر بيروت ط2. 1978.
- 24 المكتوبات - المكتوب التاسع والعشرون ص: 588.
- 25 الكلمات. الكلمة الحادية والثلاثون 669.
- 26 شرح العقيدة الطحاوية 555 المكتب الإسلامي ط6. 1400.
- 27 الكلمات. ذيل الكلمة السابعة والعشرون ص: 573.
- 28 الكلمات. 574.
- 29 الرسالة القشيرية ص: 60 - معجم مصطلحات الصوفية د. عبد المنعم الحنفي ص: 66.
- 30 معجم المصطلحات الصوفية ص: 208.
- 31 الرسالة القشيرية ص: 62.
- 32 للمعات. اللمعة الحادية والعشرون ص: 245.
- 33 للمعات. اللمعة الحادية والعشرون ص: 250.

فلسفة الأمن والأمان عند الإمام بديع الزمان

أ.د. ميمون باريش
أستاذ السنة وعلومها،
جامعة القاضي عياض، مراكش).

توطئة: لقد بات من نافلة الكلام الحديث عما تعانيه البشرية في زماننا — أكثر من أي وقت مضى — من تنامي ظاهرة مرضية غريبة، تتسارع وتيرتها إلى مستويات خطيرة أضحت تهدد أمن الأبرياء في مشارق الأرض ومغاربها، وهي ظاهرة العنف والإرهاب، وما يقترن بها من أعمال همجية ووحشية فظيعة، وما يحصل بسببها في كثير من بلدان العالم من ترويع وتشريد وتخريب، واختطافات واغتيالات وتفجيرات مروعة تريق دماء الأبرياء، وتزهق أرواحهم، وتهدم مبانيهم، وتتلغ أموالهم، بلا حساب داخلي، ولا رقيب إيماني؛ فمتى حصلت هذه الآفات إن كلاً أو بعضاً تُسف الأمن والاطمئنان، وسادت أعمال الفوضى والشغب والتسيب.

وحقيقة الأمر أن ظاهرة العدوان قد وجدت مع البدايات الأولى لوجود الإنسان على وجه البسيطة، واستمرت بشكل أو بآخر إلى أن صارت إلى ما هي عليه الآن من الفظاعة والبشاعة؛ وهذا ليس بالأمر الغريب، وإنما الغريب فيه أن تُلقى تبعات العنف والإرهاب على دين سماوي يعلم الباحث المتدي — بله المنتهي — أن من خصائصه العظمى اليسر والسماحة، ومن مقاصده العامة: حفظ الأمن بمفهومه الواسع، وذلك من خلال حرصه على حماية الدين والنفس والعقل والمال والعرض والحرية...

1. مفهوم الأمن في ضوء التوجيهات الشرعية:

جاء في كثير من النصوص القرآنية أن الأمن نعمة ربانية يهبها الله تعالى لمن أحب من عباده الصالحين، من ذلك قوله تعالى (فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ

الاحترام، والثالث: الأمن والثقة، والرابع: اجتناب المحرمات، والتمييز بين الحرام والحلال، والخامس: الطاعة، وترك التسبب»²⁶.

يرى الإمام النورسي أن هذه الأسس الخمسة هي بمثابة ركائز أساسية للنظام في البلاد، والمساس بما يعني — بضرورة البرهان المنطقي — المساس بالوطن والأمة والنظام... وإن من تدبر القرآن الكريم عن وعي وعلم ومعرفة وتجردٍ كامل تراءى له أن أقصر الطرق إلى تحقيق الأمن، وأيسر السبل إلى تثبيت الأمان، ما يأتي:

1.3 ضرورة تحكيم القرآن الكريم في شؤون الحياة: يرى الإمام النورسي أن هدى

القرآن يهدف إلى تحقيق سعادة الدارين، وذلك بحفظ الأمن والأمان، وإرساء الاستقرار والاطمئنان²⁷، ويحول — بموجب دساتيره المُحكّمة — دون أية محاولة للإخلال بالنظام العام والمسّ به²⁸، وتعليل ذلك أن القرآن الكريم رسالة ربانية واقعية تملك من الحكمة والقوة ما يؤهلها لحل — ولو تدريجياً — مختلف المشاكل التي تعاني منها الإنسانية سواء أكانت سياسية، أم اقتصادية، أم اجتماعية، أم أخلاقية، أم فكرية، وهلم جرا²⁹، يقول الإمام النورسي عن القرآن الكريم المستوعب للأحكام والتوجيهات السماوية الفاعلة: إنه «قد تضمن طراز بيانه جميع دساتير سعادة الدارين، ودواعي الأمن والاطمئنان، وروابط الحياة الاجتماعية، ووسائل التربية، وحقائق الأحوال»³⁰.

2.3 تفعيل التربية الدينية لإصلاح الشباب المتسمم بسموم العلمانية: يرى الإمام

النورسي أن الأسباب الاقتصادية والاجتماعية والأخلاقية، وإن كانت طرفاً في سيادة الفوضى والقلقل الوقتية، فإن المشاكل الدينية — ولاسيما الجهل به وبحقائقه، وعدم ترويض النفوس على تكاليفه وتوجيهاته — تُعد سبباً مباشراً في اختلال الأمن وانعدامه، لذا فإن أي تقويم للاعوجاج لا يمكن أن يتحقق إلا بتفعيل الوسائل الدينية، وقد استدل الإمام النورسي على صحة هذه الدعوى بالنجاح الباهر الذي حققه رسول الله ﷺ في تبليغ الرسالة في عصر كثر فيه الهرج والمرج، وكانت السيادة فيه للتسبب والفوضى³¹.

فبعد أن قرر هذه الحقيقة ذكر بعضاً من مظاهر التربية الدينية، وأهمها:

1.2.3 التربية العقديّة، ويعني بذلك تربية أبناء الأمة على العقيدة الصحيحة بما في

ذلك تربيتهم على الإيمان بالقدر خيره وشره، لأن ذلك يورث الإيمان بالأمن والأمان،

ويحقق الروح والريحان، يقول بيدع الزمان: «فكما أن القدر لا يورث ضيقاً، فإنه يمنح خفة بلا نهاية، وراحة بلا غاية، وسروراً ونوراً يحقق الأمن والأمان، والروح والريحان»³².

2.2.3 التربية على تعزيز الأخوة الإسلامية: يرى الإمام النورسي أن تعزيز الأخوة الإسلامية، ونبذ الاختلافات الواهية يعد من أهم المطالب الوقتية³³، إذ متى تحققت الأخوة بالمفهوم السابق كان ذلك مدعاة لحمل الناس على الاحتراز من إذابة بعضهم بعضاً، يقول رحمه الله: «ألا إن المؤمن الغيور لا تسعه شهامته أن يؤدي المؤمن قط، فكيف يسبب له الأذى لمنفعته الجزئية الخاصة، فلا بد أن يسارع إلى التوبة والإنابة إلى الله حالما يشعر بخطئه وتسببه في أذى المؤمن»³⁴.

3.2.3 تفعيل التربية الروحية: تعد التربية الروحية وما تستدعيه من توجيهه إلى صالح الأخلاق ومكارمها، من الواجبات الدينية العظيمة، والمكاسب الحضارية الجليلة، إذ بموجبها يمثل المكلفون لأوامر الشرع ونواهيه، ويدعون لتوجيهاته عن اختيار وطوعية، فإذا تحقق ذلك تيسر التحكم فيهم وتوجيههم إلى ما يخدم مصالح العباد، وما به يحفظ الأمن في البلاد... وهذا ما يستدل له النورسي بقوله: «إن إدارة مائة من الفاسقين الذين فسدت أخلاقهم وتزلزل اعتقادهم، أصعب من إدارة ألوف من المتدينين. فأهل الإسلام لا يحتاجون إلى التشويق على الحرص على الدنيا، بل يحتاجون إلى تنظيم مساعيهم، والتعاون، والأمنية بينهم، وما هي إلا بالتقوى»³⁵.

3.3 الحث على ضرورة إنشاء المؤسسات التعليمية والتربوية، وذلك من منطلق أن الجهل جرثومة قاتلة تمثل أصل أصول كل الشرور الاجتماعية³⁶، واستجابة لهذه القناعات المبررة بوقائع حياتية معيشية، فقد «صرف بيدع الزمان عمره في محاربة هذه الجرثومة القاتلة، إذ رأى أنه ما لم تجهز الجماهير بالعلم والمعرفة، وما لم يتعود المجتمع على التفكير المنظم، وما لم تُجابه تيارات الأفكار المنحرفة، فمن العبث الأمل في خلاص هذه الأمة»³⁷، وهذا أمر بدهي، فإن الله تعالى قد زود آدم في بداية أمره بنعمة العلم تأهيلاً له للقيام بمهمة تعمير الأرض والخلافة فيها، فكان ذلك مما «أهل الإنسان لينال أفضلية، ليس على الملائكة وحدهم، بل أيضاً على السماوات والأرض والجبال، في حمل

الأمانة الكبرى»³⁸، من هنا كانت الضرورة داعية إلى إنشاء المؤسسات التعليمية والتربوية الهادفة: أداء للأمانة، وحرصاً على تخليص الأمة من الشرور الفتاكة المختلفة.

خاتمة: يتبين من خلال الفقرات السابقة، أن فلسفة الأمن والأمان عند الإمام بديع الزمان تقوم على منهج دقيق يتوخى رصد الوقائع والأحداث لتجسيد الداء وتقديم مقترحات الدواء: مقترحات علاج تجمع بين الترهيب والترغيب، ومن ثمة فقد آثر النورسي تفعيل المنهج الوقائي القاضي بتوجيه الأنظار إلى الوقاية من أعمال العنف والتخريب، واستئصالها نهائياً، وذلك بإيجاد قناعات داخلية تحول دون وقوعها، ذلك أن الوقاية خير من العلاج، ولاسيما أن ما يترتب عن الأعمال الإرهابية من الأضرار المختلفة: سياسياً ومادياً واجتماعياً ونفسياً، أضخم من أن تعالج بعد حصولها بمجرد أساليب الردع، أو التشريعات الجزرية... وهذا في الحقيقة تفكير رشيد، ومنهج سديد تحتاج الأمة إلى تفعيله ليس في زمن وقطر معينين فحسب، بل في كل زمان، وحيث يرفع الأذان.

* / تَمَّ، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات / *

الهوامش

- 1 — انظر: تفسير القرطبي 358/15، وكذلك: تفسير ابن كثير 2/153.
- 2 — أخرجه البخاري في صحيحه، باب: فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم (ح25)، ومسلم في صحيحه، والفظ له، باب: الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله محمد رسول الله (ح22).
- 3 — أخرجه ابن حبان في صحيحه، باب ذكر الإخبار عن إباحة قتل المرء المسلم إذا ارتكب إحدى الخصال الثلاث التي من أجلها أبيح دمه (ح4408).
- 4 — أخرجه الترمذي في سننه، باب ما جاء في تشديد قتل المؤمن (ح1395).
- 5 — مجمع الزوائد، باب منزلة المؤمن عند ربه.
- 6 — أخرجه الحاكم في مستدركه (ح2623)، وابن حبان في صحيحه، باب ذكر نفي القصاص في القتل (ح5996).
- 7 — أخرجه البخاري في صحيحه، باب إثم من قتل معاهداً بغير جرم (ح2995).
- 8 — أخرجه الترمذي في سننه، باب ما جاء فيمن يقتل نفساً (ح1403)، وقال: حديث أبي هريرة، حسن صحيح.
- 9 — أخرجه مسلم في صحيحه، باب تحريم قتل الكافر بعد أن قال لا إله إلا الله (ح96).
- 10 — صيقل الإسلام، ص337.

- 11 – مجموعة اللغات من كليات رسائل النور للإمام بيدع الزمان سعيد النورسي، ص 862، ترجمة: الدكتور إحسان الصالحي.
- 12 – مجموعة اللغات من كليات رسائل النور للإمام بيدع الزمان سعيد النورسي، ص 41.
- 13 – مجموعة الشعاعات من كليات رسائل النور للإمام بيدع الزمان سعيد النورسي، ص 544. وتشير الشهادات الحية إلى أنه لم يثبت عن سعيد النورسي الغيور على دينه ووطنه أنه حرض الشعب على الحكومة أو دعا إلى ما من شأنه أن يخل بالأمن والنظام. انظر: مجموعة الشعاعات، ص 622.
- 14 – مجموعة الشعاعات من كليات رسائل النور للإمام بيدع الزمان سعيد النورسي، ص 544.
- 15 – مجموعة اللغات من كليات رسائل النور للإمام بيدع الزمان سعيد النورسي، ص 397.
- 16 – ملحق قسطنوني، ص 212.
- 17 – مجموعة الشعاعات من كليات رسائل النور للإمام بيدع الزمان سعيد النورسي، ص 563.
- 18 – ملحق أميرداغ، ص 368.
- 19 – مجموعة الشعاعات من كليات رسائل النور للإمام بيدع الزمان سعيد النورسي، ص 622.
- 20 – ملحق أميرداغ، ص 368، وانظر: مجموعة الشعاعات، ص 617.
- 21 – انظر هذه الشهادة في اللمعة السادسة والعشرين من مجموعة اللغات، ص 400.
- 22 – ملحق قسطنوني، ص 165.
- 23 – ملحق قسطنوني، ص 165.
- 24 – مجموعة اللغات، ص 400، وانظر: اللمعة السادسة والعشرون، ص 401.
- 25 – مجموعة اللغات، ص 401/400.
- 26 – ملحق قسطنوني، ص 213.
- 27 – ملحق قسطنوني، ص 184/183.
- 28 – ملحق أميرداغ، ص 368.
- 29 – إشارات الإعجاز، ص 288.
- 30 – ملحق قسطنوني، ص 184.
- 31 – إشارات الإعجاز، ص 288.
- 32 – مجموعة الكلمات، ص 552.
- 33 – مجموعة المكتوبات، ص 349.
- 34 – صيقل الإسلام، ص 337.
- 35 – المثنوي العربي، ص 274.
- 36 – صيقل الإسلام، ص 451.
- 37 – من كلام العالم الفاضل محمد فتح الله كولن في تقديمه لكتاب المثنوي العربي.
- 38 – الكلمات، ص 270.

بديع الزمان والعنف .. أو الفكر الوقائي

د/محمد عبد النبي
جامعة الجزائر

مقدمة

الفكرة التي تنشئها المضائق قد تحبسها مساربه، والنهج الذي تتحكم فيه مسالك الاضطرار، قد لا يخرج عن أجواء الزقاق والأقبية، وحين تطول فترات الاستثناء تقل فرص الشروع في الولوج إلى الحياة الحرة الكريمة، وحين يستمر الإحساس بالقهر يُخشى أن ينضح به فكر أو سلوك، ينزع إلى غرائز التشفي والانتقام، ما لم تتداركه الأمزجة السوية بتعديل أو ترجيح، يخفف من لهجة تحتد، أو موقف قد يزداد بالقهر شططه.

ومما يجدر التنبيه إليه أن أجواء الاضطرار التي تطول، قد يألّفها تابع، فيصعب عليه هجرها، لتوجسه من مجهول لا يعرفه، ولخوفه من فشل يُخشى به من فوات موقع، أو تفلت مغنم، تنحسر به فضاءات تأثير، أو تنعدم، كانت ترفع من ذكره، وتثني على جهده.

والعاقل من ترفع عن هواجس تخضعه، لأهواء تضر ولا تنفع، ومن تحسّب للمراحل، فأعدّ لكل ظرف ما يلائمه، ولكل ساحة الفقه الذي يخدمها.

ولا يعني ما سبق أن فكر الإصلاح لا يولد إلا على الفراش الوثير، حتى يعتدل مسلكه، ولا ينشأ إلا في ظلال الدعة والسكون، حتى يُزكّي خطوه، ولكن أناسا يحسبون البلاء لازمة من لوازم القبول عند الله، وعند الناس، فيقيسون الصواب في الرأي، ويقدرّون النجاح في العمل، بمقدار البلاء الذي نزل، فيسعى، أو يسارع للتعرض له، لاكتساب شرعية تخلفت، أو لتحصيل سبق يُخشى أن يؤول إلى منافس يترصد.

هناك فرق بين سائر يتحين المحنة، وقد يعاجلها بقول لا لزوم له، أو يعمل لا ضرورة تدعو إليه، فيعرض نفسه لما لا يطيق، وقد همت السنة عن ذلك، وبين من يبتغي العافية-

وهي أمنية مشروعة-حتى لا يثير أعشاش الدبابير، فإذا نزل بساحته-مع ذلك-ما لم يطلبه أو يتمنه صبر واحتساب، ولم يتذرع بالبلاء ليجنح بالفكر، أو يجمع بالسلوك إلى وجهة لا تُرتضى.

إن الولوج إلى دائرة العنف في القول أو في العمل ينم عن اضطرار يُدفع إليه انتهاء، أكثر مما ينبئ عن قرار يخلص إليه الأحرار ابتداء، والظروف الملحثة لها دور وتأثير، ولكن البنية الفكرية والنفسية تسبق الفعل بمراحل، حتى إذا أثارها العامل الخارجي استثيرت، وقد تُصنع للفكر المنفعل أجواء فيُستدرج، أو تُختلق له معارك فيُستهلك، ذلك أن عناصر التوازن بين الأطراف لم تُنح في يوم من الأيام، والمقتدر قد يوحى بهزيمته، ليتيح للضعيف أن ينتشي فيتهور، وسرعان ما يكرّ عليه فيصرعه.

ومع ذلك فالأمور ليست بالوضوح المفترض، والوجدان الذي يصنعه القهر والظلم يصعب مواجهته، أو إقناعه بالتعقل أو التحسب للمآل، وغاية ما يطمح إليه المقهور هو التنشفي، وإرادة الانتقام، ولا يعلم أن مثل هذا المزاج يمنع العمل المثمر، والفعل الجاد، ولا مفر من إجهاد النفس بالتربية، وهي لا تنصرف فقط إلى تركية القلب والسلوك، في مدارج السعي إلى ابتغاء القبول والرضوان، ولكنها تشمل تربية العقل، ولجم العواطف، وتهذيب الطباع والوجدان.

فأما العقل فتهيئته وتأهيله للحكم على الأشياء ببصيرته، والنفوذ إلى التفاصيل، واستباق العاطفة من التأثير عليه، والأهم من ذلك النظر في النصوص، والتمييز بين ما وضحت دلالاته، فلم تحتمل إلا وجهها واحدا، وما لم تترجح فاستوى فيه الاحتمال.

و أما الوجدان والعاطفة فليضبط مساره، ولينعها من التحكم في ما يمكن أن يؤول بالقرار إلى ما لا تُحمد عقباه وآثاره.

لكل منهج نصوصه ومرجعياته الفكرية التي يستند إليها، يحتكم إليها الأتباع حين التنازع، وقد يتذرع بها من يريد التنصل من مسار، يسعى لكي يقوضه، ليبني ما يزعم أنه الأوفق مع النص، أو الأوفى لسيرة تحوز الإجماع، أو ما يشبهه، وتشكل مرجعية غير مباشرة، تعضد المرجعية الأصلية، وتمدها بما يشبه المذكرة التفسيرية في القانون.

وقد تنشأ عن الفكرة الأصلية مدارس، فيها ما قد يجنح إلى الغلو، وأخرى تميل إلى التيسير، ومن الأتباع من يناصر الأولى، ومنهم من يشايح الثانية، وكلاهما يدعي التمسك بالنصوص، والسير على الخط الأصيل، والتجارب أثبتت أن من يؤصل لتشدده، بالنص يؤوله، لن يعمر، وإن فعل فالحسائر تلاحقه، وبالتعبير النبوي: لن يقطع أرضاً، ولن يبقي ظهراً، ذلك أن نفس المنبت قصير، وأحكامه أقصر، وإن أطلقت، ومن يلجأ إلى الغلو فلوضوح الطريق، وإن ضلّ سالكها، والعقل يعطّله، يستعيض عنه بالنقول يكدها، ومن يعارضه، يسارع إلى تجريمه، بالتكفير تارة، وبالتخوين تارة أخرى.

إن أصحاب هذا الطريق يتوسلون بالأحكام المطلقة، لا يقفون عند قيد، ولا يلتفتون إلى تخصيص، ولذلك تزعجهم التفاصيل، أو تخرجهم عند الحجاج، والحكم عندهم يتلوه حكم، والتكفير تتبعه الاستباحة، ومن تردد أو تأنى فلاستشعار الحرج، ومن كفر الولاية، سبيلاً لإزالة الغيب، استبطاً النصر، فكفر الأنصار، ولذلك تراهم يعيشون في أزمة مع أنفسهم، أشد وأعتى من تلك التي يعيشونها مع مجتمعاتهم، وبعض من سعى للعلاج غدا جزاء من السقم، وبعض من جاهد من أجل البراء شعاراً، أعطى الولاء اضطراباً.

وهناك أمر آخر يقلص من فرص انفراج، ويغذي الحدة والعنف، ويبقي الأبواب-والعقول-مغلقة، فالقهر إن لم ينزل استجلب، وإن استبطئ استعجله أنصار العنف، بالمواجهة سبيلاً لابتغاء الأجر، أو طريقاً لنيل الشهادة، وفي الوجدان أن الحراك الذي لا يقود إلى البلاء مشكوك في أصحابه، والنهج الذي لا تغذيه الحن أعماله كسراب، لن يجده العامل شيئاً يوم الحساب، ولا يهيم أصحاب هذا الطرح أن يفسدوا على الأغيار طريقهم، أو أن يشملهم تنكيل، فقد يعجبهم أن ينال الخصوم ما ينالهم، إذ يرون في العقاب ما يخدم طرحاً في المفاصلة، يقنعون به أتباع غيرهم، بأن لا مجال إلا مجال العنف سبيلاً، مع أنهم لا يعترفون لهم باستقامة نهج، ولا بصحة اعتقاد، تؤهلهم للسير في دعوة، أو ترشحهم لجزاء عند الله.

جمال النفس.. و الكون

الدعوة التي تؤصل للسلم في "الداخل" ابتداء، وترفض أن تنزل مصطلح الجهاد على واقع لا يتحملة، لا تضطرها الظروف-الحقيقية أو المصطنعة-للتراجع، وإن اختارت

أن تُراجع، ففي الخيارات العملية، وليس في المبادئ أو الأسس، أما من يختار طريق العنف ابتداءً، ثم يُلجأ للتغيير، فلن يُصدّق، وإن صدّق، وسيبقى الخصم رهينة ماضيه، ليستل منه تنازلاً إثر تنازل، وحينها تغدو دعوته استجابة لإملاءات قويّ، أكثر منها تلبية لطموح، أو إشباعاً لأشواق.

وأصحاب المنهج الأول لا يكتفون بإصدار المناهي، والتحذير من قربان العنف أو ممارسته، بل يمهّدون لذلك بتربية تشمل العقل والوجدان، ويؤصلون له بفقّه يتحدد فيه المصطلح، وتُراعى فيه أحكامه حسب الزمان والمكان.

أحسب أن الفكر الذي تستند إليه دعوة بيدع الزمان النورسي من هذا القبيل، وإن لم يوصف بالفقيه اصطلاحاً، وأزعم أيضاً أن الطريق الذي اختطه لم يُضطر فيه لتبديل أو تغيير، وذلك بسبب وضوح الرؤية، وتقدير الواقع، وعدم الاغترار بالخصم، وبالغزلة التي اختارها، أو ألجئ إليها.

إن اختصار الدين في الممنوعات تُلقى جزافاً، يضيّق من فسخ المباح، وحين تُبنى دعوة على مثل هذا الأمر تمهّد لمسالك الاضطرار، الذي يفضي غالباً إلى أنواع من العنف لا تُحمد، ومن ذلك ما نلاحظه من مواقف البعض تجاه قيمة الجمال، فبعض من يتصدى للدعوة يعادي كل ما يتعلق به، يبتدئ بالممنوع منه اتفاقاً، ليشمل "تجرمه" ما لم يُتفق عليه احتياطاً، وقد يوجد منهم من لا تستوقفه لوحة منه في الكون، تستجلب الإعجاب، فيُستثار قلب، يتبعه لسان، يلهج بذكر من برأ، ويستشعر بجمال الخلق جمال الخالق، ومثل هذا الموقف ينبئ عن ظلمة في النفس تُؤلف، فيزعجها الضياء، ولا تفرح بمن يحملها، أو يدعو إليه.

إنّ من كانت نفسه بغير جمال، لا يرى في الكون شيئاً جميلاً، والعكس صحيح، الأول يسعى للانتقام، وإن رفع لغيره شعاراً، والثاني يبني على الموجود، يخشى عليه التلف، وبعض من ادعى الإصلاح الشامل هدم المعبد على من فيه، فلا الإصلاح تحقق، ولا المكاسب المحققة استمرت.

لا يكتفي بيدع الزمان بتأمل الجمال طريقاً يتوسل به إلى صفات الجلال والكمال، بل يضيف إلى ذلك القبح نفسه، فينسب إليه فضيلة الدلالة على الجمال، يقول رحمه الله:

وتعال تأمل في هذا الجمال الزاهي، والحسن الباهر، ضمن هذا الانتظام والنظافة والميزان، بحيث جعل هذا الكون العظيم على صورة مهرجان في منتهى الجمال والبهجة، وعلى صورة معرض بديع، في منتهى الزينة والروعة، وعلى صورة ربيع زاه تفتحت أزاهيره تواءً، وجمال الربيع كزهرة عظيمة واسعة، تغطي وجه الأرض بمئات الألوف من أزاهيره الجميلة، وكل زهرة منها في أروع زينة وأبدع جمال، بل جعله كسندانة زاهية وباقية زهر لطيفة أمامنا...

وهكذا فهذا الحسن المحيط الجاذب، وهذه النظافة العامة الخارقة، وهذا الميزان الحساس المهيم الشامل، وهذا الانتظام والانسجام المعجز المحيط بكل شيء، حجة قاطعة على الوحدانية، وعلامة واضحة على التوحيد، أسطع من ضوء الشمس في رابعة النهار.⁽¹⁾

وحين يُنبّه إلى أن هناك شرورا وقبحا في العالم لا تحطئه العين، وقد يشوش على الصورة الزاهية التي يرسمها لمن حوله، يجيب من غير تردد بأنه لولا صور القبح ما تجلّت صور الجمال: "إن قبحاً يكون سبباً لإنتاج أنواع من الجمال، أو سبباً لإظهارها، يعدّ كذلك جمالاً، وإن انعدام قبح يؤدي إلى إخفاء كثير من الجمال، والى عدم ظهوره، لا يعدّ قبحاً واحداً، بل أضعافاً مضاعفة من القبح."⁽²⁾

ويعرض في موضع آخر لحكمة التقابل بين القيم المتضادة فيقول: "... إن تقابل الخير والشر في هذا الكون، واللذة والألم، والنور والظلام، والحرارة والبرودة، والجمال والقبح، والمداية والضلالة، وتداخل بعضها ببعض إنما هي لحكمة كبرى، لأنه ما لم يكن هناك الشر فلا يفهم الخير، وما لم يكن هناك الألم فلا تُعرف اللذة، والضيء من دون ظلام إزائه لا يبين جماله، ودرجات الحرارة تتحقق بوجود البرودة، وتصبح حقيقة واحدة من الجمال ألفاً من الحقائق بوجود القبح، بل يكتسب آلافاً من أنواع الجمال ومراتب الحسن، ويختفي الكثير من لذائذ الجنة بعدم وجود جهنم، فقياساً على هذا يمكن أن يعرف كل شيء من جهة بضده، وبوجود الضد يمكن أن تثمر حقيقة واحدة حقائق عدة"⁽³⁾

إن ميزة هذا الموقف تكمن في فضيلة التفاؤل التي يتحلى بها صاحبه، فنصف الكأس عنده دائماً مלאى، والجوانب المضيئة هي التي تستوقفه، فيستبشر "...علينا أن ننظر إلى

الجهة الحسنة من كل شيء، والوجه الجميل المبشر منه، لكي لا تشغل قلوبنا بما لا يعني من الحالات القبيحة العابرة، التي لا حاجة لنا إليها، بل هي مضرة تورث الضيق والانقباض، ولقد ذُكر في "الكلمة الثامنة": رجلان يدخل أحدهما الحديقة بينما يغادرها الآخر، فالمحظوظ السعيد هو الذي ينظر إلى الأزاهر وما شابهها من الأشياء الجميلة في الحديقة، فينشرح ويرتاح ويهنأ، بينما الآخر الشقي يحصر نظره في الأمور القذرة الفاسدة، لعجزه عن التنظيف، فينتابه الغثيان ويتضايق، بدلاً من أن ينسّر في الحديقة، ويتركها هكذا...⁽⁴⁾

القبح..و الحدة في المزاج والأحكام

إن من تسوء علاقته بالجمال المبتوث في الكون، يكتسب حدة في مزاج، يسلمه بدوره إلى الأحكام المطلقة التي لا يقبل فيها النقاش، وهذه تؤدي بالضرورة إلى مزلق آخر لا يقل خطورة عما سبق، فأصحاب هذا المسلك يسدّون كل باب للحوار، ويوصدون أي منفذ للتفاهم، فالحق النهائي الذي يعتقدونه بجانبهم، والصواب المطلق الذي يدعون، بمنعهم من أنصاف الحلول، التي يوصل إليها الحوار، ويحجزهم عن أي قاعدة يجتمع عليها المختلفون.

ولئن كان هذا موقفهم من الحوار مع الموافق، فالحوار مع المخالف في الدين لا جدوى تُرتجى منه، وعقيدته حينئذ-و ليس اعتداؤه-هي التي تبيح دمه، أو تستوجب قتاله، وأدى اقتراب منه يثير الشك، وقد يؤدي إلى التبرؤ، وحين لا يُقدر عليه، ترتد السهام على من يليه، ذلك أن هذا الفكر يخشى من الهدوء، أو المهادنة، وإعلان العنف أو إشهاره هو الذي يرفع ذكره، ويبقيه صانعا للحدث، ولو في الظاهر، يغطى به على من يُهاب حقيقة جانبه.

لعل من أهم أسباب رفض الحوار اعتقاد جازم بامتلاك ناصية الحقيقة، وعدم التسليم-بلسان الحال أو المقال-بالوقوع في الخطأ، وكثير من الحركات تتأبى على النقد، تحسبه انتقاصا من قدر، أو نيلا من كرامة، وأكثر ما يظهر هذا الانحياز المطلق- الجالب للتعصب، والمستثير للعنف المادي أو المعنوي-حين الكلام على الحق الذي يجوز تنا، أو على الرجال الذين حملوه، ممن نحب ونقدر.

يذهب النورسي إلى أصل هذا الداء، ليضع الإصبع عليه، ويجذر من خطورته: "إن أهل الضلالة في هذا العصر قد امتطوا (أنا) فهو يجوب بهم في وديان الضلالة، فأهل الحق لا يستطيعون خدمة الحق إلا بترك (أنا) وحتى لو كانوا على حق وصواب في استعمالهم (أنا) فعليهم تركه، لئلا يشبهوا أولئك، إذ يكونون موضع ظنهم انهم مثلهم يعبدون النفس، لذا فان عدم ترك (أنا) بخس للحق تجاه خدمة الحق." (5)

ويرشد إلى كيفية تطبيق هذه القاعدة فيقول: "عندما تعلم أنك على حق في سلوكك وأفكارك يجوز لك أن تقول: (إن مسلكي حق أو هو أفضل) ولكن لا يجوز لك أن تقول: (إن الحق هو مسلكي أنا فحسب) لأن نظرك الساخط وفكرك الكليل لن يكونا محكاً ولا حكماً يقضي على بطلان المسالك الأخرى.." (6)

ولما كان ادعاء احتكار الحقيقة أصلاً لكثير من الشرور، فقد ربط بينه وبين ما يحدث من عداوة بين المؤمنين، وأرشدهم إلى الأولويات المتاحة في هذا المجال، فقال: "إن كنت تريد أن تعادي أحدا فعاد ما في قلبك من العداوة، واجتهد في إطفاء نارها واستئصال شأفتها، وحاول أن تعادي من هو أعدى عدوك وأشدّ ضرراً عليك، تلك هي نفسك التي بين جنبيك، فقاوم هواها، واسع إلى إصلاحها، ولا تعاد المؤمنين لأجلها، وإن كنت تريد العداة أيضا فعاد الكفار والزنادقة، فهم كثيرون، واعلم أن صفة الحجة محبوبة بذاتها جديرة بالحجة، كما أن خصلة العداوة تستحق العداة قبل أي شئ آخر."

ولا يكتفي بالنهي عن ذلك، بل يرشد إلى الفعل الذي من شأنه أن يشل حركة الخصم، فمن طبيعة الخصومة أنها تغري بالمزيد، ومن شأن المتحفز لها أن يترقب أدنى خطأ أو استفزاز، يبرر به ردا مساويا في العنف أو يفوق، فيقطع النورسي الطريق على ذلك كله ويقول: "وإن أردت أن تغلب خصمك فادفع سيئته بالحسنة، فيه تخمد نار الخصومة، أما إذا قابلت إساءته بمثلها فالخصومة تزداد، حتى لو اصبح مغلوباً — ظاهراً — فقلبه يمتلئ غيظاً عليك، فالعداء يدوم، والشحناء تستمر، بينما مقابلته بالإحسان تسوقه إلى الندم، وقد يكون صديقاً حميماً لك، إذ إن من شأن المؤمن أن يكون كريماً، فإن أكرمه فقد ملكته، وجعلته أخوا لك، حتى لو كان لئيماً — ظاهراً — إلا انه كريم من حيث الإيمان.." (7)

الإقناع.. و سيلة العقاب

إنّ من أولى الشرور التي يؤدي إليها مسلك امتلاك الحقيقة أن يسعى مدّعيها إلى فرضها بالإكراه، الذي يمثل مظهراً من مظاهر العنف المقيت، ويجعل النورسي من نفسه مثالا في التواضع والتسامح، فيقول: "نعم! إن الفضيلة المتسمة بالإيمان، كما لا تكون وسيلة للإكراه، لا تكون سبباً للاستبداد قطعاً، إذ الإكراه والقسر والتسلط على الآخرين، رذيلة ليس إلا، بل إن أهم مشرب لدى أهل الفضيلة هو الاندماج في المجتمع، بالعجز والفقر والتواضع..."⁽⁸⁾

ويعرض لهذا الأمر ضمن مصطلح كثيراً ما أغوت مضامينه، لكنه يتقصد هذا الربط ليؤكد موقع "الجهاد الحقيقي في دعوته، فيقول: "أما الجهاد الخارجي فنحيله إلى السيف الأمامية للبراهين القاطعة للشريعة الغراء، لأن الغلبة على المدنيين إنما هي بالإقناع وليس بالإكراه، كما هو شأن الجهلاء الذين لا يفقهون شيئاً."⁽⁹⁾

ويعرض لتفاصيل الخلاف بين السنة والشيعية-الذي لا يزال يثير الإحن والأحقاد، بل لا يزال إلى يوم الناس هذا يسيل الدماء-و يذكر في آخره أنه "لا خير في الإفراط والتفريط في كل شيء.."⁽¹⁰⁾ ثم يخلص إلى توجيه نداء للطرفين بضرورة رفع هذا النزاع، وسد الطريق على من يستغله، لضرب أحدهما بالآخر، ويقول: "فيا أهل الحق الذين هم أهل السنة والجماعة، ويا أيها الشيعة الذين اتخذتم محبة أهل البيت مسلكاً لكم (يلاحظ هاهنا أن النورسي ينسب إلى كل فريق أهم ما يميزه عن الآخر، أو ما يجب أن يُذكر به): "ارفعوا فوراً هذا النزاع فيما بينكم، هذا النزاع الذي لا معنى له ولا حقيقة فيه، وهو باطل ومضر في الوقت نفسه، وإن لم تزيلوا هذا النزاع فان الزندقة الحاكمة الآن حكماً قوياً تستغل أحدكما ضد الآخر، وتستعمله أداة لإفناء الآخر، ومن بعد إفنائه تحطم تلك الأداة أيضاً."⁽¹⁰⁾

إن لفت الأنظار إلى مسألة الاستغلال فيها من الحرص بقدر ما فيها من ذكاء، ذلك أن أهل السياسة لا يزالون يستعملون هذه "الورقة" لخدمة هذا الغرض أو ذاك، يظهرون المودة لطرف يوماً، ثم يقربون الخصم الآخر في اليوم التالي، ولو التزمت الأطراف المدعوة بفحوى هذا النداء-من النورسي ومن غيره-لُعصمت دماء كثيرة أزهقت، وجهود كبيرة أُهدرت.

الاختلاف البناء.. والتأصيل للحوار

و يؤصل للخلاف، ويفرق بين ما يُحمد منه وما يُذم، حين يُسأل عن حديث يتكرر ذكره بين الناس (اختلاف أمّي رحمة) والذي يوحى ظاهره بأن الاختلاف- في حد ذاته- محمود، وبالذات.. لضعفاء الناس من العوام، إذ ينقذهم من تسلط الخواص الظلمة، الذين إذا حصل بينهم اتفاق.. اضطهدوا هؤلاء الضعفاء.. " فيجيب-مبيناً آداب الخلاف- بالقول: " إن الاختلاف الوارد في الحديث هو الاختلاف الإيجابي البناء المثبت، ومعناه: أن يسعى كل واحد لترويج مسلكه، وإظهار صحة وجهته وصواب نظريته، دون أن يحاول هدم مسالك الآخرين، أو الطعن في وجهة نظرهم وإبطال مسلكهم، بل يكون سعيه لإكمال النقص ورأب الصدع والإصلاح ما استطاع إليه سبيلاً. أما الاختلاف السلبي فهو محاولة كل واحد تخريب مسلك الآخرين وهدمه، ومبعثه الحقد والضغينة والعداوة، وهذا النوع من الاختلاف مردود أصلاً في نظر الحديث، حيث المتنازعون والمختلفون يعجزون عن القيام بأي عمل إيجابي بناء." (11)

ومبعث هذا النوع الثاني من الاختلاف المذموم: الأغراض الشخصية في التسلط والاستعلاء، " .. وإشباع نفوس فرعونية.. فلا تتلمع بارقة الحقيقة في هذا النوع من بسط الأفكار، بل تتولّد شرارة الفتنة.." (12)

المرشد.. حين يكون مثالا

و لا يتردد بديع الزمان في تحذير أتباعه من مسلك يتعلق بمثل موقعه، طالما جر إلى التعصب، وأفضى إلى العنف المعنوي، وإلى الفتن، في الجماعات والدول، وعطلّ الإبداع، بحجة الأتباع، وقمّع نزعة الحرية بدعوى مراعاة المراتب والمقامات، ففي مسألة من مسائل أضحت مدار التناس- كما يصفها النورسي نفسه- يعرض- بشجاعة نادرة- لنفسية الزعيم أو المرشد، وكيف أن نهج الأتباع في الأتباع كفيل بخلط الصلاحيات، بل وقمين أن يداعب غروره وأنانيته، وما لم يصرح به النورسي- و يقود تحذيره إليه، كما حدث ويحدث في كثير من الحالات مما يعاني منه الفكر الإصلاحى- أن يصنع الأتباع- في نفسية الزعيم- طاغوتا يشركون به ربه في عبادتهم، يقول بديع الزمان: " كما انه ظلمٌ عظيم إذا ما أُعطي إلى شخص واحد ما تملكه الجماعة، ويكون الشخص مرتكباً ظلماً قبيحاً إذا ما غصبَ ما هو وقفٌ للجماعة، كذلك الأمر في النتائج التي تحصل بمساعي الجماعة

وعملهم، والشرف والمنزلة المترتبة على محاسن الجماعة وفضائلها، إذا ما أُسند إلى رئيسها، أو أستاذها، أو مرشدّها، يكون ظلماً واضحاً بحق الجماعة، كما هو ظلم بين بحق الأستاذ أو الرئيس نفسه، لأن ذلك يداعب أنانيته المستترة فيه ويسوقه إلى الغرور، فبينما هو حارسٌ بوابٌ للجماعة، إذا به يتزيا بزّي السلطان، ويُوهم الآخرين بزّيّه، فيظلم نفسه، بل ربما يفتح له هذا طريقاً إلى نوع من شرك خفي. نعم، إنه لا يحق أن يأخذ أمر طابور الغنائم، التي حصل عليها الجنود من فتحهم قلعةً حصينة، ولا يمكنه أن يُسند انتصارهم إلى نفسه.

لأجل هذا يجب ألا يُنظر إلى الأستاذ أو المرشد على أنه المنبع أو المصدر، بل ينبغي اعتباره والنظر إليه على أنه معكس ومظهر فحسب... لذا يجب ألا يُسند إليه مقام أكثر من مقام الوسيلة- من حيث الفيوضات- بل يحتمل ألا يكون ذلك الأستاذ-الذي يُنظر إليه كأنه مصدر-مظهراً ولا مصدراً... لهذا يمكن أن يكون مرید مخلص لشيخ غير كامل أكمل من شيخه، فينبري إلى إرشاد شيخه، ويصبح شيخاً لشيخه." (13)

إن مما يلفت النظر ذلك التقييم المترن الذي نلمسه في كتابات النورسي، فبالرغم من أن الحسين رضي الله عنه يمثل قيمة وجدانية تحوز الإجماع، إلا أن ذلك لم يمنع النورسي من أن يتناول حركته بالنقد، وتجربته للتمحيص، وحين يُسأل عن سبب إخفاقه لا يتوانى عن التصريح بالعلل التي حالت دون النصر الموعود، فيقول: "إذا استثنينا المقربين من سيدنا الحسين رضي الله عنه، نجد أن الأقوام المختلفة الذين التحقوا بهم ممن أصيب غرورهم القومي بجروح بيد العرب المسلمين، فهم يضمرون تآراً تجاههم، مما كدر صفاء النية ونقاءها التي كان يتحلى بها مسلك الحسين ومن معه، وأدّى تعكّر ذلك الصفاء وخفوت سطوع ذلك النهج القويم إلى تفهقهم أمام أولئك." (14)

كان بإمكان الشيخ أن يجيب بالجواب المعهود، الذي يريح ويطمئن الأتباع، والمتعلق بالابتلاء وحكمته، ولكنه أرجأ ذلك إلى ما بعد تبين السبب الدنيوي، مما يوحى باهتمام لافت بالأدواء والعلل الذاتية، بعيداً عن نرجسية معهودة يغوص في حماتها خطاب عاطفي لا يلتفت إلى الورا، ويتهيب من مصادمة وجدان مفعم، لا يريد أصحابه أن يشوش عليه جدل يحقق في الوقائع، ولا أن تنال منه دراسة تذهب بجلال الذكرى.

التكفير.. أو العنف المعنوي

لعل الخطوة الأقرب إلى ممارسة العنف والولوغ في تبعاته-بعد أن عرضنا لبعض الجوانب التي تقود إليه- هي تلك التي تنزع عن المسلم إسلامه، وتجرده مما غدا به معصوم الدم، ويفترض ألا ينتقل إلى غيرها إلا بينة لا تحتمل الشك، وممن هو مؤهل للنظر في ذلك، واقتضى الأمر أن يعاد النظر في سلامة معتقده، وقد كان بديع الزمان وقافا عند حدود الله، مدركا لآثار أي انحراف عن حد من حدود الله، وقد ناقش الأمر من حيث الحكم، ومن حيث ما يترتب على الإطلاق فقال: "... فمثلاً: ورد بهذا المعنى: أن هذا الشيء كفر، أي: لم تنشأ هذه الصفة من الإيمان، أي أنها صفة كافرة، ويكون ذلك الشخص قد كفر لهذا السبب، ولكن لا يقال: إنه كافر، ذلك لأنه يملك صفات أخرى بريئة من الكفر، قد نشأت من الإيمان، فهو إذن يجوز أوصافاً أخرى نابعة من الإيمان، إلا إذا علم يقيناً أن تلك الصفة قد نشأت من الكفر، لأنها قد تنشأ من أسباب أخرى، ففي دلالة الصفة شك، وفي وجود الإيمان يقين، والشك لا يزيل اليقين، فينبغي للذين يجرءون على تكفير الآخرين بسرعة، أن يتدبروا!" (15)

ثم يناقش الأمر من ناحية المصلحة والمفسدة، فيقول: "فمادام ليس هناك أمر شرعي في عدم الدم، وفي عدم التكفير، بينما في الدم والتكفير حكم شرعي، فالدم والتكفير إن كانا على غير حق ففيهما ضرر كبير، وإن كانا على حق فلا ثواب فيهما، لأن هناك ما لا يحسد من الناس ممن يستحقون الدم والتكفير، أي إن عدم التكفير وعدم الدم ليس فيهما حكم شرعي، وليس فيهما ضرر أيضاً."

وكلام بديع الزمان في هذه الجوانب-وإن كان يسيراً- إلا أنه يدل على فهم دقيق لآثار الانزلاق خلف هوى التكفير، وهو الأمر الذي جهله، أو تجاهله بعض من تعجل، فوقع فيما وقع فيه، يقول النورسي: "ولو كان الجهاد قائماً وهو جهاد إسلامي، فإن حال أطفال الكفار تبقى على وضع آبائهم، وربما يكونون من الغنائم، ويتمكن المسلمون أن يجعلوهم تحت إمرتهم وملك يمينهم، ولكن لو ارتد أحد داخل ديار المسلمين، فلا يُمْتَلِك أطفاله قطعاً، ولا يجوز التجاوز على حقوقهم بأي شكل من الأشكال، لأن أولئك الأبرياء إنما يرتبطون بالإسلام وبجماعة المسلمين، برابطة الإسلام، التي انقطعت عن والدهم، أما أولاد الكفار فرغم أنهم من أهل النجاة، فإنهم يتبعون

والدهم في الحقوق والحياة، لذا ربما يكونون أسراء (كذا) أو ممالك عبيد في أثناء الجهاد الإسلامي. "(16)

ولما كان التكفير مرتبطاً بالموقف الذي ينتجه، يعرض النورسي لبعض الأخطاء التي وقع فيها من تسرع، فحين جاءه بعض "المتدينين" - قبيل الحرب العالمية - يشكون إليه تصرفات بعض قواد الجيش، ويطلبون دعمه ومشاركته في العصيان الذي يعتزمونه أجابهم بالقول: "إن تلك الأعمال اللادينية وتلك السيئات تعود إلى أمثال أولئك القواد، ولا يمكن أن نحمل الجيش مسؤوليتها، ففي هذا الجيش العثماني قد يوجد مائة ألف من أولياء الله، وأنا لا أستطيع أن أمتشق سيفي ضد هذا الجيش، لذا لا أستطيع أن أشارك معكم، فتركني هؤلاء، وشهروا أسلحتهم، وكانت النتيجة حدوث واقعة "بتليس" التي لم تحقق أي هدف، وبعد قليل اندلعت الحرب العالمية، واشترك ذلك الجيش في تلك الحرب تحت راية الدين ودخل حومة الجهاد، فارتقت منه مئات الآلاف من الشهداء إلى مرتبة الأولياء، فقد وقعوا بدمائهم على شهادات الولاية، وكان هذا برهاناً وتصديقاً على صحة سلوكي وصواب تصرفي في تلك الدعوى." (17)

ثم إن هذا الأمر ليس من اختصاصه، ولا من قدرته، ومتى تخلفت القدرة انتفى التكليف، وانصرفت الهمم إلى القيام بما يُقدر عليه.. ثم إن شخصاً عاجزاً مثلي، لا يمكنه أن يستعمل النور والمراوة معاً في هذا الوقت، لذا فأنا مضطر إلى الاعتصام بالنور، بما أملك من قوة، فيلزم عدم الالتفات إلى هراوة السياسة، أيا كان نوعها، أما ما يقتضيه الجهاد المادي، فتلك الوظيفة ليست منأطة بنا حالياً، نعم! إن المراوة هي لوقف تجاوز الكافر أو المرتد عند حدّه، ولكن لا نملك سوى يدين، بل لو كانت لنا مائة من الأيدي ما كانت تكفي إلا للنور، فلا يد لنا تمسك بهراوة السياسة." (18)

ويضفي - في موقع آخر - بعداً فلسفياً وتعليقياً للعزوف عن السياسة ككل، وما تجره من مصائب، يكتوي بناها الأبرياء، وينجو من أتونها من أكرم، فيقول: "إن الشفقة والضمير والحقيقة تمنعنا من السياسة، لأنه لو كانت نسبة المنافقين الملحدون الذين يستحقون العقاب اثنين من عشرة، فهناك سبع أو ثمان من الأبرياء من أقاربهم وذويهم، وهناك الأطفال والعوائل والشيوخ والمرضى، فإذا نزلت المصيبة والبلاء فإن أولئك الأبرياء الثمانية سيسقطون في أتون المصيبة، ولربما سيلحق بالمنافقين الاثنين والملحدون

ضرر طفيف، ولهذا فإن ما في ماهية رسائل النور من الشفقة والرحمة والحق والحقيقة قد حالت دون الدخول في السياسة، بوسائل الإحلال بالإدارة والنظام، فضلاً عن أن نتائجها مشكوك فيها." (19)

إشفاق الداعية.. أو تطهير القلب من التشفي

إن النفس التي لا تستشعر لذائد الإيمان، تأسرها آلام الحياة، والمسلم الذي يضيق بكل من خالف، قد تضيق عليه نفسه، والذي يتأبى على التذلل لمولاه، ويطلق العنان لأهواء نفسه، قد يكسوها برداء الشرع، للتنفيس عن مزاج يستولي عليه، فيكره الآخر، وقد يحقد عليه، ويترقب لحظة انتقام تُسعفه، وقد أراح بديع الزمان نفسه من هذه المضائق، فأعلن أن الخصم أو العدو يريد موته، في حين يسعى النورسي لإنقاذه من الموت الدائم، والسيطرة على غريزة الانتقام بهذا الوجدان لا يخفف الآلام فحسب، بل يجلب اللذة والسعادة، إذ تستمر وظيفة الدعوة حتى في أشد الأوقات حرجاً: "إن الذين يسومونا العذاب قد قبضوا بأيديهم على وسائل الحياة ومباهج الحضارة والمتع والملذات، ويتهموننا: أننا لا نعبأ بذلك الطراز من الحياة، بل يدينوننا على ذلك، حتى إنهم يريدون أن يعاقبونا بالإعدام، أو بعقوبات مشددة من السجن، ولكن لا يجدون حجة قانونية لذلك.

أما نحن فنقبض بأيدينا على الموت الذي هو ستار دون الحياة الباقية، ونسعى أيضاً بكل ما نملك من قوة لإنقاذهم من تبعات المسؤولية الحقيقية، ومن الحكم عليهم، ومن الإعدام الأبدي، والسجن المنفرد الدائم (كذا) حتى أنهم إذا أصدرنا أشد العقوبات عليّ، بسبب الرسائل القوية المرسلة إلى "أنقرة" فإن قلبي وكذا نفسي تطاوعا عليّ إنزال تلك العقوبات الصارمة بي، إذا نجا أولئك الذين يصدرن تلك الأحكام، من إعدام الموت بسبب تلك الرسائل، بمعنى أننا نريد لهم الحياة في كلا العالمين، وتنحري لهم عن دواعي ذلك، أما هم فيريدون القضاء علينا، ويتشبهون بحجج لذلك." (20)

إنّ القهر الذي تنزله الطبقات البديلة بالشعوب أورت إحساساً بترقب الفرج في أي وقت، ومن أي جهة، وبعض ما نشهده اليوم قد مر مثله على بديع الزمان، حتى يُظن بأن التاريخ يعيد نفسه- في بعض الأحيان- بنفس التفاصيل، وموقفه من بعض الأحداث يمثل رؤية متقدمة، مفادها الصبر على البلاء مع بعض الأمن، خير من الفرج

الموهوم وسط الفتن والدماء، التي تجلبها محاولات الإصلاح بالقوة، أو مبادرات الإصلاح عن طريق التدخل الأجنبي، وفي هذا الإطار يرد عليه السؤال الآتي:

"إن هجوم الأجانب كإنكلترا وإيطاليا على هذه الحكومة في الآونة الأخيرة يؤدي إلى إثارة الحمية الإسلامية، وهي ركيزة حقيقية ومنبع قوة معنوية لحكومات خلت في هذا الوطن منذ أمد بعيد، وستصبح وسيلة لإحياء الشعائر الإسلامية - إلى حد ما - ولدفع شئ من البدع.. فلم عارضت هذه الحرب بشدة وسألت الله أن تحل القضية بسلام وأمان، فقد أصبحت منحازاً لحكومة المتدعين، وهذا بذاته وبتناججه موالاة للبدع!؟"

أجاب النورسي على هذا السؤال المخرج، فقال: "نحن نسأل الله الفرج والبشارة والسرور والفتح، ولكن ليس بسيف الكفار.. فسحقاً لسيوفهم ولتكن وبالاً عليهم، نحن لسنا بحاجة، ولا نرجو الفائدة من سيوفهم، لأن أولئك الأجانب المتمردين هم الذين سلطوا المنافقين على أهل الإيمان، وهم الذين ربوا الزنادقة في أحضانهم."⁽²¹⁾

وللنورسي مواقف مشهودة ضد الحروب، وما تجره من دماء ودمار، يستغلها الكبار المتجبرون، ويعاني من ويلاتها الضعفاء من البشر، وليس للإسلام فيها رأي ولا مصلحة، وتأبى روحه ومبادئه أن يزيكها، أو يزيكي أنصارها، ومن النصوص العديدة في ذلك قوله: "...إفناء الأبرياء من أطفال وعوائل وشيوخ ومرضى بالقنابل المدمرة، بحجة وجود جندي أو اثنين من جنود الأعداء فيما بينهم.. واتفاق أعنى المستبدين من البرجوازيين مع الفوضيين والإرهابيين، الذين هم المتطرفون الاشتراكيون والشيوعيون، وإهدار دماء ألوف بل ملايين الأبرياء.. والاستمرار في هذه الحرب الضارة للإنسانية جمعاء.. وردّ الصلح والسلام.. لذا فان الإسلام والقرآن الكريم بريثان بلا شك من مثل هذه الحروب المدمرة، التي لا تنسجم مع أي قانون كان من قوانين العدالة، ولا مع الإنسانية، ولا مع أي دستور كان من دساتير الحقيقة وقوانين الحقوق، ولا يتنازلان ولا يتدللان لمعاونة أولئك؛ لأن فرعونية رهيبة ومصالحة عجيبة تستحوذان فيهم،(كذا) بحيث لا يمدون يد العون إلى القرآن والإسلام، بل يحاولون جعلهما آلتين طبيعتين في سبيل مآربهم، فلا شك أن أحقية القرآن تأبى الاستناد إلى سيوف ظالمين كهؤلاء، بل الفرض على أهل القرآن والواجب عليهم الاستناد إلى قدرة رب العالمين ورحمته، بدلاً من الاستناد إلى قوة عجننت بدماء ملايين الأبرياء."⁽²²⁾

التربية السلمية.. ووضوح الطريق

لقد كان الهدف من رسائل النور واضحاً منذ البداية، وكان التركيز على مهمة إنقاذ الإيمان بالتربية منهجاً، تعليماً وتورثاً، وباللين أسلوباً، اتباعاً واحتساباً، وكان النورسي واثقاً من نتائج هذا المنهج، ولذلك تحدى خصومه بالقول: "لقد قرأ عشرون ألف فرد عشرين ألف نسخة من رسائل النور، في ظرف عشرين سنة، ورضوا بها وتقبلوها، ومع ذلك لم تقع حادثة واحدة مخرجة بالأمن من قبل طلاب رسائل النور، ولم تسجل المراجع الرسمية أية حادثة من هذا القبيل، كما لم تستطع المحكمة السابقة ولا المحكمة الحالية العثور على مثل هذه الحادثة، علماً بأن نتائج مثل هذه الدعاية القوية والمنتشرة بكثرة كان لا بد لها من الظهور في ظرف عشرين يوماً بشكل حوادث ووقائع." (23)

هذا التحدي ما كان ليصدر عن الرجل لو لم تتضح عنده معالم الطريق التي اختطها منذ البداية، والخيار الذي لجأ إليه في التربية وإنقاذ الإيمان كان خياراً استراتيجياً- بالمفاهيم الحديثة- ولم يكن تكتيكياً، تمليه ظروف طارئة، لقد قدر- فيما يبدو- أن هذه المهمة تستغرق أجيالاً، ولا تكفي فيها الخطط المرحلية، فلذلك ابتعد عن كل ما من شأنه أن يشوش على النهج، أو يعترض طريق البناء، بالمعنى الذي ارتآه، أو يورط نفسه وأتباعه في الفجوة والثغرة، يقتنصها من يكيد، ولذلك أيضاً لا يمكن ضبطه بلحن القول، يُستخرج من خلال السطور، أو من بينها، ولم يلجأ إلى ما لجأ إليه غيره من المرين والمصلحين، ربما لاختلاف ظروف الزمان والمكان، وربما لرؤية جاءت ثمرة تجربة خاصة، لا يمكن تصديرها، أو إلزام الآخرين بها، لنفس السبب.

السياسة.. و منافذ الشرور والعنف

و من نتائج هذا الوضوح ما كان يمكن ضبطه أيضاً بتعدد المسالك، واحد للسراً، وآخر للجهراً، بل هو مسلك واحد ليس فيه ما يُعاب-عند من يترصد- إلا بتمحّل يُظهر ضعف الخصم، أو تجاوز يكشف بطشه، بل يذهب أبعد في الوضوح والتحدي- الضمني- حين يدعو الدولة إلى تبني منهج الرسائل، لما فيها من خير ديني ودنيوي، ثبتت نجاحته، فيقول: "ثم بات من المسلم به فائدة هذه الرسائل، الداعية إلى القرآن، والتي هي لمعات من أنواره الباهرة، لحياة الأمة ولأمن البلاد، وحتى لحياتها السياسية، فضلاً عن حياتها الأخروية، فمن الضروري إذن للدولة ألا تتعرض لها بسوء، بل تسعى جادة إلى

نشرها، وتشجع الناس على قراءتها.. ليكون عملها هذا كفارة عما اقترفت من سيئات فاحشة سابقة، وسداً منيعاً في وجه ما سيقبل من ويلات ومصائب وفوضى وإرهاب." (24)

ويؤكد ذلك بمخاطبة أهل الحكم فيقول: "فأنتم يا أهل السياسة والحكومة! لا تشغلوا بنا بناءً على الظنون والأوهام، بل عليكم أن تذللوا المصاعب لنا وتسهّلوا الطريق أمامنا، لأن خدمتنا تؤسس الأمن والاحترام والرحمة، فتسعى لإنقاذ النظام والأمن والحياة الاجتماعية من الفوضى والإرهاب، فخدمتنا ترسي ركائز وظيفتكم الحقيقية وتقويها وتؤيدها." (25)

لقد كان هذا الخطاب يسعى-قبل أن يحس بضرورته الآخرون-للتطمين وإزالة الهواجس، وحاول أن يؤسس لعلاقة تمنع الصدام، وتعترض طريق "الإرهاب"، بالإيجاء بأن الجميع في سفينة واحدة، وأن المخاطر ليست من قبله، ولا من قبل جماعة النور، بل العكس هو الصحيح، "فليعلم أهل السياسة علماً قاطعاً-رغم أننا لا علاقة لنا بهم-أن العلاج الوحيد لإنقاذ الأمة-في هذه البلاد، وفي هذا العصر-من الفوضى والإرهاب، ومن الترددي المريخ، والتدني الرهيب هو: أسس رسائل النور." (26)

والأمر ليس آنياً، ولا تكتيكياً ظرفياً-كما يتوجس عادة أهل السياسة-بل هو نابع من طبيعة الرسائل نفسها، يقول النورسي في هذا المجال: "إن رسائل النور قد أظهرت خدماتها كسيف ألماسي قاطع بيد هذه المعجزة الكبرى، حتى ألزمت الحجة أعداءها العنيدين، وأجأهم إلى الاستسلام، وإنما تقوم بوظيفتها بين يدي هذه الخزينة القرآنية، من حيث كونها معجزةً لمعانيه المعجزة على نحو تستطيع أن تنور القلب والروح والمشاعر، مناولةً كلاً منها علاجاً الناجعة، ولا غرو، فهي الداعية إلى هذا القرآن العظيم والمستفيضة منه وحده، ولا ترجع إلا إليه."

ولما كان همها خدمة القرآن وإنقاذ الإيمان، فأتباعها ينفرون من السياسة، وفي هذا رسالة مبطنة لمن يهمهم الأمر بأنه لا أطماع تحركهم، ولا مغام ينتظرونها: "إن الإيمان والشريعة والحياة ثلاث مسائل عظيمة في العالم الإسلامي والإنساني، وأعظم هذه الثلاثة هي الحقائق الإيمانية، ولأجل ألا تكون هذه الحقائق الإيمانية القرآنية أداة لتيارات أخرى ولقوى أخرى، وللحيلولة دون التهوين من شأن الحقائق القرآنية التي هي بقيمة الألماس

إلى قيمة قطع زجاجية متكسرة، ولأجل الإيفاء بالخدمة المقدسة التي هي إنقاذ الإيمان إيفاء تاماً ينفر طلاب رسائل النور الخواص الصادقون نفوراً شديداً من السياسة" (27)

وعدل عن التلميح إلى التصريح فقال: "إن خدمة الإيمان وحقائق الإيمان هي أجلّ من كل شيء في الكون، فلا تكون أداة لأي شيء كان، فإن خدمة القرآن قد منعنا كلياً من السياسة، حيث إن أهل الغفلة والضلالة- في هذا الزمان الذين يبيعون دينهم للحصول على حطام الدنيا، ويستبدلون بالألماس القطع الزجاجية المتكسرة- يحاولون اتهام تلك الخدمة الإيمانية بأنها أداة لتيارات قوية خارج البلاد، وذلك للتهوين من شأنها الرفيع." (28)

إنقاذ الإيمان.. و الجهاد الأكبر

أحسب أن هذا البيان المتكرر لوظيفة الرسائل، يستوعبه الأتباع، والتطمين المتلاحق، يحاول بديع الزمان أن يقنع به الخصوم، هو الذي منع-بتوفيق من الله-مواجهة تفرضها الأحداث، ويتشوق إليها خصم قوي، يتمنى التخلص من غريم، يحسبه خطراً على مشروع دخيل، ولو بعد حين.

إن الحرص على الوحدة، واعتراض طريق الاختلاف، والحذر من الأعداء، يدرجه بديع الزمان ضمن "الجهاد المعنوي"، في مقابل الجهاد، بمفهومه الاصطلاحي المعروف، ويُعطيهِ الأولوية على الذكر نفسه، وإقناع الأتباع بعظيم نفعه، وكبير أجره، ولصرف الذهن عن تعلق الأجر -فقط- بالجهاد المعروف يقول: "...و لا يقولن أحدكم: سأصرف وقتي الثمين في قراءة الأوراد والأذكار والتأمل، بدلا من أن أصرفه في مثل هذه الأمور الجزئية، فينسحب من الميدان، ويصبح وسيلة في توهين الاتفاق والاتحاد، وسببا في إضعاف الجماعة المسلمة، ذلك لأن المسائل التي تظنونها جزئية وبسيطة، ربما هي على جانب عظيم من الأهمية في هذا الجهاد المعنوي، فكما أن مرابطة جندي في ثغر من الثغور الإسلامية - ضمن شرائط خاصة مهمة - لساعة من الوقت، قد تكون بمثابة سنة من العبادة، فإن يومك الثمين هذا الذي تصرفه في مسألة جزئية من مسائل الجهاد المعنوي، ولا سيما في هذا الوقت العصيب الذي غلب أهل الحق فيه على أمرهم، أقول إن يومك هذا ربما يأخذ حكم ساعة من مرابطة ذلك الجندي، أي يكون ثوابه عظيماً، بل ربما يكون يومك هذا كآلف يوم، إذ ما دام العمل لوجه الله وفي سبيله، فلا يُنظر إلى

صغره وكبره، ولا إلى سموه وتفاهته، فالذرة في سبيل رضاه سبحانه مع الإخلاص، تصبح نجمة متألئة، فلا تؤخذ ماهية الوسيلة بنظر الاعتبار، وإنما العبرة في النتيجة والغاية، وحيث إنها رضى الله سبحانه، وأن أساس العمل هو الإخلاص، فلن تكون تلك المسألة إذن مسألة صغيرة، بل هي كبيرة وعظيمة."⁽²⁹⁾

و يعرض للفساد المستشري، ولوظيفة البناء التي يتكفل بها طلبة الرسائل فيقول: "إن أهم وظيفة تقع على عاتق طلاب النور: خدام القرآن الكريم، في هذا الوقت هي: اتخاذ التقوى أساساً في الأعمال كلها، ثم التحرك وفقها أمام تيار الدمار الرهيب المهاجم، والآثام المحيطة بهم، إذ يواجه الإنسان ضمن أنماط الحياة الاجتماعية الحاضرة مئات من الخطايا في كل دقيقة، فالتقوى هي التي تجعل - دون ريب - الإنسان كأنه يقوم بمئات من الأعمال الصالحة، وذلك باجتنابه تلك المحرمات...لذا فمقاومة خدام القرآن الكريم وحدهم تلك التخريبات المريعة إنما هي عمل خارق جدا.." ثم يخلص إلى وصفه بالجهاد، فيقول: "...لذا فإن الجهاد المعنوي لطلاب النور ضد التيار الجارف، يُعدّ - بإذن الله - جهادا عظيم الثواب، إذ فيه قبس من جهاد الصحابة الكرام..."⁽³⁰⁾

وفي هذا الإطار ينبغي فهم كلامه في بعض المواضع التي قد تُحمل على غير ظاهرها: "إنني بكل ما أملك من وجود، أجاهد هؤلاء، أدعو المسلمين وبخاصة الشباب إلى الإيمان، فأنا في جهاد دائم مع هذه المجموعة الملحدة، وسأمثل إن شاء الله في ديوان حضوره سبحانه وأنا رافع راية هذا الجهاد، وكل عملي ينحصر في هذا، وأخشى ما أخشاه أن يكون الذين يحاولون بيبي وبين غاييتي هذه هم بلاشفة أيضا."⁽³¹⁾

و هناك إجماع أوضح بالفكرة التي يريد النورسي تمريرها، فاستعمال مصطلح "الجهاد الأكبر" يدخل في هذا المجال، وهو وإن كان يعني به ما يعنيه بالجهاد المعنوي، إلا أن دلالاته على ما يريد أقوى وأصرح، يقول: "... وإن جني فوائد الحرية الحقة، والاستفادة منها استفادة كاملة، منوط بالاستمداد من الإيمان، ذلك لأن من أراد العبودية الخالصة لرب العالمين، لا ينبغي له أن يذل نفسه، فيكون عبداً للعبيد، وحيث أن كل إنسان راعٍ في ملكه وعالمه، فهو مكلف بالجهاد الأكبر في عالمه الأصغر، ومأمور بالتخلق بأخلاق النبي (ﷺ) وإحياء سنته الشريفة."⁽³²⁾

لكن لا ينبغي أن يُفهم من هذا أن النورسي يغفل تاريخاً حافلاً للجهاد بمعناه الاصطلاحي، فهو يعرض لضرورته وغلبة فوائده في مناقشة افتراضية فيقول: "... عند

سوق الجيش إلى الجهاد لا بد من حدوث أضرار وشورور جزئية مادية وبدنية، ومن المعلوم كذلك أن في الجهاد خيراً كثيراً، حيث ينجو الإسلام من سيطرة الكفار، فلو ترك الجهاد خشية حدوث تلك الأضرار والشورور القليلة لحصل إذا شر كثير من دون الحصول على خير كثير، وهذا هو عين الظلم، ومثال آخر: إن قطع الإصبع التي أصابها (الغنغرينا) فيه خير وهو حسن، بينما يبدو ذلك القطع في الظاهر شراً، ولكن لو لم تقطع تلك الإصبع لقطعت اليد، فيحصل آنذاك شر أكبر." (33)

ويذكر في تفسير أواخر سورة الفاتحة إلى "أفضل الطرق وأسلمها" ويحدد بأنها "أن يرزقك الله الشهادة، أو شرف الجهاد." (34)

ومع ذلك يجدر من الزمن الذي تنقلب فيه المفاهيم فيقول: "سيكون زمان يخفي الضدُّ ضدَّه، وإذا باللفظ ضد المعنى في لغة السياسة، وإذا بالظلم يلبس قنسوة العدالة، وإذا بالخيانة ترتدي رداء الحمية بثمان زهيد، ويُطلق اسم البغي على الجهاد في سبيل الله، ويسمى الأسر الحيواني والاستبداد الشيطاني حرية." (35)

الإحالات

- (1) الشعاعات: 36/4
- (2) الشعاعات: 37/4
- (3) الشعاعات: 290/4
- (4) الشعاعات: 559/4
- (5) المکتوبات: 549/2
- (6) المکتوبات: 342/2
- (7) المکتوبات: 343/2
- (8) اللمعات: 259/3
- (9) صيقل الإسلام: 527/8
- (10) اللمعات: 37/3
- (11) اللمعات: 38/3
- (12) المکتوبات: 348-347/2
- (13) اللمعات: 205-204/3
- (14) المکتوبات: 69/2
- (15) صيقل الإسلام: 339
- (16) الملاحق: 245-244/1
- (17) الشعاعات: 422/4
- (18) اللمعات: 158/3
- (19) الملاحق: 213-212/7

- (20) الشعاعات: 395/4-396
(21) اللمعات: 158/3-159
(22) الملاحق: 203/7
(23) الشعاعات: 331/4 وانظر أيضا (427) (437) (608) (694)
(24) الكلمات: 174/1
(25) الملاحق: 160/7
(26) الملاحق: 159/7
(27) الملاحق: 165/7
(28) الملاحق: 159/7
(29) اللمعات: 235/3-236
(30) الملاحق: 169/7-170 وانظر أيضا حول استعماله لمصطلح "الجهاد المعنوي": الشعاعات 4/489
(31) الشعاعات: 544/4
(32) صيفل الإسلام: 531/8 وانظر أيضا: (534//8) و(المتنوي العربي: 213/6)
(33) المكتوبات: 52/2
(34) الكلمات: 890/1
(35) الكلمات: 849/1 وانظر: المكتوبات: 604/2

حقوق الإنسان في رسائل النور إشعاع تواصل... لا انكفاء دفاع

إيمان علي لاغا
طرابلس - لبنان

مدخل إلى البحث:

للتواصل الحضاري والاجتماعي شروط وقواعد حددتها المبادئ العلمية المتراكمة عبر الأزمان والتي تقتضي التكافؤ إضافة إلى المغايرة والخصوصية.

وفي ظل الحضارة ومدنية غدت الدعاية الوسيلة الأنبج للتحكم بمقاليد الأمور خاصة في حال انشداد الناس إلى تلك المعروفة بالسلطة الرابعة التي هي في بحث مستمر وراء كل جديد وكل خاص ليكون مادة يومية ورسائل تبشها لتوجيه الرأي العام والتحكم فيه.

ومن إحدى أهم أبعاديات التواصل، المصطلحات التي تطفو على السطح وتكون الأداة التي يستخدمها كل طرف ليعبر عن بضاعته وهذه المصطلحات إنما يتحكم فيها الطرف الأقوى الذي يطلق شعارات أرادها تعبيراً عن المبدأ الذي يرغب بالتواصل مع الآخر على أساسه وهي إنما تحمل رسائل مدنية وعلمية وسياسية وحضارية يقف متلقيها أمامها حائراً عاجزاً عن التواصل المتكافئ أمام منطق القوة، فيتراجع إلى الورا مدافعاً بأسلحة لا يلجأ إليها إلا المفلسون.

ولعل هذه المشكلة أي مشكلة تواصل العالم الإسلامي مع الآخر هي الأبرز اليوم. ومنشأ هذه الأزمة ليس عيباً حضارياً لاحقاً بالعالم الإسلامي ولكن يعود إلى تشويه فكري لدى الأغلبية التي لم تعرف حقيقة كيف تتفاعل وتتعامل مع الهزيمة السياسية

العسكرية الحادثة منذ أن أهملت الأمة دراسة نواميس التطور وقانون الحياة، فغلبت على أمرها ونخر السوس فكر الصفوة وتسرب الفساد إلى الإدارة.

وأمام هجمة هذا الآخر القوي، وأمام ما جاء به من جديد في المصطلح والتعريف لا في الجوهر والغاية، انبرى علماء المسلمين للرد والدفاع وبدأت للأسف حركة دؤوبة لامتنصاص الصدمات تسعى جاهدة إلى إثبات أن هذه المصطلحات ليست غريبة عن الإسلام. فقال بعضهم باشتراكيته ونادى الآخرون بحقيقة رأسماليته، وطرحت مفاهيم الثورة والمقاومة وجرت محاولات حثيثة لهضم مصطلحات مثل الديمقراطية وحقوق الإنسان، وأفراد العلماء المقالات والمؤلفات للحديث عن الحرية وحقوق الإنسان في الإسلام محاولين إسقاط المفهوم الجديد على ما لديهم دون إدراك لوجود مصطلحات خاصة بهم قد لا تكون مختلفة في من الناحية اللغوية ولكنها ذات مفهوم مغاير لما هم بصدده، ولم يعوا بأي حال من الأحوال أنهم مختلفون بطبعهم يحملون حضارة متكاملة تؤخذ بكلياتها.

وهكذا وبين شعارات هذه الدعوات الدخيلة والوضع الراهن السياسي والاجتماعي المتشردم، تلاقت الأضداد ووقع التناقض، واختلط الحابل بالنابل وتشوش فكر الصفوة وأسقط من يد العامة..

وتقتضي أصول لعبة الحضارات أن يتوقف هؤلاء الصفوة عن اتخاذ موقع الدفاع ليرتدوا إلى بضاعتهم ليعرضوها ممهورة بختم الأصل والجذر، ليقدموا ما لديهم ويجولوه إلى إشباع تواصل يحمل الهوية الحقيقية للعالم الإسلامي وحضارته الخاصة بعد نزع ذلك البرقع أو تلك الغشاوة العاكسة التي تغلف جوهر الحضارة وتحجبها عن العيان، والبدء ببث رسائل خاصة بهم إلى ذلك الآخر المتلهف حقيقة، وخاصة في هذه الفترة من الزمن، إلى معرفة كنه هذه الحضارة، كما هي بعد خلعها لكل رداء دخيل ليرى فيها أصالة طرح حضارة مغايرة لا انعكاساً غير واعٍ لما لديه وصورة مشوشة لما يعرف.

ولا نبالغ لو أعطي كل ذي حق حقه، إذ قد يكون لبديع الزمان النورسي السبق في تقرير نظرية المرآة العاكسة هذه وحين أطلق صورة الدمية المتحركة على العالم الإسلامي لدى قوله: "فمنذ انخراط الخلافة، ونحن لا نتحرك ذاتياً، بل بالوساطة، فأوروبا تنفخ ونحن نرقص هنا"¹. وبالتأكيد ولدى وضع قول النورسي في سياقه المعنوي يمكن تعميم

لفظ أوروبا اليوم وإطلاقه على ذلك الآخر المغاير الذي يث هذه المصطلحات سواء لرغبة في التواصل أو لغير ذلك.

وفي محاولة لحسن تلقي هذه المصطلحات بإعادة صياغتها وفقاً للجوهر الموجود في الشريعة الإسلامية سنسلط الضوء على حقوق الإنسان كونها المصطلح الدارج في هذه الأيام وتطرح بقوة من قبل الآخر الذي يروج لفكرة صراع الحضارات والثقافات حاملاً لواء الحرية والديمقراطية ولا تواجه هذه الدعاية إلا بمحاولات دفاع ألبست معظمها جواهر الإسلام لبوس المصطلح الجديد محافظة على النموذج المستورد بكل تفريعاته التي اعتبرت هي الأساس وفتش لها داخل ثنايا الشريعة الإسلامية عما يناسبها ففقدت القاعدة الإسلامية جوهرها لانسلاخها عن سياقها العام.

وفيما يلي محاولة أخرى لإعادة تركيب حيثيات وتوصفات مصطلح حقوق الإنسان وفق السياقات الواردة في رسائل النور، دون أي تداخل لأي مرجع آخر، حفاظاً على نقاوة الفكرة وتجنباً للوقوع مرة أخرى في فخ المرأة الصماء.

فما يميز رسائل النور من حيث اختيار الموضوعات أنها خلاصة فكر ولد من رحم معاناة، تعرضت لها شخصية سليمة الفطرة، تشربت الأدب القرآني وعاشت مرحلة انتقالية حساسة في تاريخ الأمة الإسلامية. فزادت التجربة من اتقاد ذهن صاحبها وكانت هذه الرسائل خلاصة فكر فريد جدد للحركة مفاهيمها ومبادئها.

وقد حوت على إشعاعات ولطائف طالت جميع ما يخص الإنسان في حياته الدنيا والآخرة، قدمت في قالب نوراني حافظ على كلية وتكامل المنهج القرآني، وأبرز مقاصده الأساسية وعناصرها الأربعة: "التوحيد والنبوة والحشر والعدالة"².

وقد يكون هذا التكامل وراء عدم تخصيص النورسي لخطاب معين يعني بحقوق الإنسان واعتبرها جزءاً لا يتجزأ من كل لا يؤخذ إلا جملة واحدة، يرتكز أساساً على حقيقة الإنسان المخلوق لعبادة الله على فطرة سليمة ويجسد المعجزة الربانية، والذي لأجله سخرت الأرض ومن قدسية غاية خلقه تشعبت حقوقه الفردية والعامية بحيث شملت ثلاثية الحرية والأخوة والمساواة دافعة بالشورى والعدالة وقدسية الحياة إلى الصدارة.

ومدار هذا البحث ليس اجتراءً لهذه الحقوق من سياقها ولكن كشفاً لها وإظهارها للعيان بالمسمى الذي اختاره النورسي ليكون عنواناً لبضاعة أراد منها أن تقف في وجه منطلق القوة "الذي تطلقه هذه المدينة المشؤومة التي أعطت البشرية دستوراً ظالمًا غداراً بحيث يزِيل جميع حسناتها ويبيِّن السري في قلق الملائكة الكرام لدى استفسارهم: [أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدَّمَاءَ].³"

ففي معرض بيانه لغلبة قوة الحق على حق القوة يقول النورسي: "إن حكمة الفلسفة ترى القوة نقطة الاستناد في الحياة الاجتماعية وتهدف إلى المنفعة في كل شيء، وتتخذ الصراع دستوراً للحياة وتلتزم بالعنصرية والقومية السلبية رابطة للجماعات. أما ثمراتها فهي إشباع رغبات الأهواء. أما حكمة القرآن الكريم فهي تقبل "الحق" نقطة استناد في الحياة الاجتماعية بدلاً من "القوة" وتجعل "رضى الله سبحانه وتعالى" ونيل الفضائل هو الغاية بدلاً من "المنفعة"، وتتخذ دستور التعاون أساساً في الحياة بدلاً من دستور الصراع وتلتزم برابطة "الدين" بدلاً من العنصرية والقومية السلبية.⁴

و سينقسم البحث إلى قسمين يدرس في الأول الحقوق العامة و بعضاً من تفرعاتها و في الثاني الحقوق الشخصية أو الفردية كما يسميها النورسي وذلك بخطوطها العريضة دون التعرض للحقوق الخاصة الجزئية.

القسم الأول: بيان الحقوق العامة.

يقرر بديع الزمان النورسي وجود حاجات للمخلوقات تستوجب الإشباع فيقول: "ليتأمل كذلك في جميع الموجودات ولاسيما الأحياء منها. فلكل منها حاجات كثيرة متنوعة ولكل منها مطالب عدة ومختلفة لإدامة حياتها وبقاء نوعها"⁵.

ثم ينتقل من عموم الكائنات والمخلوقات إلى خصوص القوافل البشرية المستنيرة التي تمضي في جادة مستقيمة ومن ينحرف عن طريق تلك القافلة العظمى سيقع في فخ معارضة الشعائر الإسلامية لمخالفته دستوراً من دساتير الحقيقة التي بينها النورسي بقوله: "إن في الشريعة الإسلامية نوعين من الحقوق: "حقوق شخصية" و "حقوق عامة" والتي هي من نوع "حقوق الله" وإن من المسائل الشرعية ما يتعلق بالأشخاص ومنها ما يتعلق بالناس عامة، أي يتعلق بها من حيث العموم، فيطلق على هذا القسم اسم "الشعائر

الإسلامية" فالناس كلهم لهم حصة من هذا القسم؛ حيث يتعلق بالعموم، وإن أي تدخل في هذا القسم من الشعائر وأي مس بها، يعتبر تعدياً لحقوق أولئك الناس عامة، إن لم يكونوا راضين عنه. وإن أصغر مسألة من تلك الشعائر (ولتكن من قبيل السنة) على جانب عظيم من الأهمية، كأية مسألة جليلة لأنها تتعلق مباشرة بالعالم الإسلامي عامة⁶.

وبذلك ربط النورسي بين حسن الانتظام العام للمجتمع وشعائر الإسلام دونما اعتبار لكبرها أو صغرها فهي مجتمعة تحقق الأمن الضامن لدقة سير المجتمع نحو الاستقرار والتكافل.

وللتركيز على بعض حقوق هذا القسم نذكر من أهمها:

- 1- الأمن الاقتصادي والاجتماعي.
- 2- الأمن السياسي.

1- الأمن الاجتماعي والاقتصادي:

يندرج تحت هذا الإطار عنوانان:

أ- حق العمل:

وقد كفلته الدعوة إلى الكسب الحلال بعرق الجبين حيث قال النورسي في إحدى مناظراته مع نفسه: "بينما الرجل الأول يقول: سأسعى سعياً حثيثاً في العمل الحلال بجانب عبادتي المتزايدة كيما أرسل إلى قبري ضياءً أكثر وأدخر لآخرتي خيراً أزيد"⁷. وهذا العمل بحاجة إلى: "بركة لينمو، في حين يذهب الإسراف وعدم القناعة به أما الطمع فيخبث وهج الشوق والتطلع إلى العمل، ويقذف بالإنسان إلى التقاعس والكسل، ويفسد إخلاصه ويفتح دونه باباً للرياء والتصنع، فيكسر عزته ويريه طريق الاستجداء الاستخذاء"⁸.

ب- التعااضد الاجتماعي

وقد كفلته الزكاة، حيث يقول النورسي لدى تفسيره لقوله تعالى: [وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ]:

"وجه النظم: أنه كما أن الصلاة عماد الدين، وبها قومه كذلك الزكاة، فنطرة الإسلام وبها التعاون بين أهله... أي الزكاة جسر يغيث المسلم أخاه المسلم بالعبور عليها، إذ هي الوسطة للتعاون المأمور به، بل هي الصراط في نظام الهيئة الاجتماعية لنوع البشر، وهي الرابطة لجريان مادة الحياة...".

وفي بيانه لعلة هذا النظام قال: "إعلم أن شرط انتظام الهيئة الاجتماعية أن لا تتحافى طبقات الإنسان وأن لا تتباعد طبقة الخواص عن طبقة العوام.. ولا ملجأ للمصالحة بين الطبقات والتقريب بينها إلا جعل الزكاة التي هي ركن من أركان الإسلامية - دستوراً عالياً - واسعاً في تدوير الهيئة الاجتماعية".

ولتقنين هذه القاعدة الاجتماعية الراسخة يقول النورسي: "ثم إن من شروط أن تقع الصدقة موقعها اللائق: أن لا يسرف المتصدق فيقعد ملوماً... وأن لا يأخذ من هذا ويعطي لذلك، بل من مال نفسه... وأن لا يمن فيستكثر... وأن لا يخاف من الفقر... وأن لا يقتصر على المال، بل بالعلم والفكرة والفعل أيضاً، ... وأن لا يصرف الآخذ في السفاهة، بل في المنفعة والحاجة الضرورية"⁹.

وهكذا نرى كيف اتحد مفهوم الأمن الاجتماعي والاقتصادي مع أركان الإسلام لتكون الزكاة عنواناً لحق الفقير في عنق الغني، "فالزكاة عمود أصيل وتتوطد به إقامة الحياة الحقيقية للإنسانية"¹⁰، لا منة فيها ولا ذلة: "لأنكم أن لم تمنحوها وتحسنوا بها في سبيل الله، ما باسم الله، فإنكم بلا شك ستبدون منة وتفضلاً... لما تظنون أنكم أصحاب المال، وفي الحقيقة لستم إلا مستخلفين مأمورين تقومون بتوزيع مال الله على عباده"¹¹.

2- الأمن السياسي:

يكتسي مصطلح السياسة عند النورسي رداءً خاصاً مغايراً في جوهره وتطبيقاته للنموذج المعلن الذي يطرحه الآخر تحت مصطلح ضرورة المشاركة في العمل السياسي وحرية إبداء الرأي. وهذه المغايرة تحمل خصوصية حاول النورسي تبسيطها لطلابه لدفعهم نحو تجنب الوقوع في فخ العشوائية والاهتمام بما لا يفيد، فقال:

"إن مسائل السياسة تتعلق إلى حد ما بوظيفة العاملين في الشؤون الخارجية وأركان الحرب في الجيش والقادة المسؤولين. أما دفع تلك المسائل إلى رجل عامي ساذج وإثارته بها وصرفه عما يلزمه من وظائف تجاه شؤون روحه وأمور دينه، بل حتى تجاه شؤونه الشخصية بالذات ولوازم بيته وقريته، ومن ثم جعله بهذا التلهف والفضول سائب الروح، نائر العقل،... إن من يولي اهتماماً ضائعاً في هذا الوقت، بالصراعات الدائرة في الكرة الأرضية ويتابعها بلهفة وفضول بوساطة الراديو تلحقه أضرار مادية ومعنوية كثيرة...¹²".

ولم يكن قول النورسي مجرد نظرية يعلمها إلى طلابه بل منهجاً اتبعه في حياته الخاصة، إذ كان عديم الرغبة في تلقي أي خبر عن أحوال العالم وأخبار السياسة والحرب وعدم الاهتمام بها طوال أربعة أشهر رغم علاقته بما يقدر آلاف الأشخاص¹³. فهذه السياسة برأيه صنيعة مؤقتة لبعض الأشخاص انجرافاً لتيارات مؤقتة لا استمرارية فيها. وما ذلك إلا محاولة منه لإفهام أتباعه ضرورة نشر الحقائق الإيمانية والانشغال بخدمة رسائل النور فلا يعكروا صفوا أذهانهم بلعبة شطرنج يمارسها الظالمون مما يورثهم صفاءً في الذهن ويمنحهم وقاية وحماية من المهالك العجيبة التي يحملها هذا العصر¹⁴، ويدفعهم بقوة إلى العودة لجذور السياسة الإسلامية اللصيقة بالحقائق الإيمانية المتمثلة بالشورى.

هذا المبدأ الإسلامي المرتكز على قوله تعالى: [وَأْمُرُهُمْ سُورَى بَيْنَهُمْ] و [وَشَاوِرُهُمْ فِي الْأَمْرِ].

فكان النورسي مقابل تحذير طلابه من السياسة الراهنة، يدفعهم ويدربهم على ممارسة الشورى فيقول لهم: "صونوا آراءكم من التشتت بإقامة الشورى الشرعية بينكم"¹⁵.

ويطبقه على نفسه ليكون المثل الذي يحتذى فيقول لهم: "إتباعاً للأمر الإلهي [وَشَاوِرُهُمْ فِي الْأَمْرِ] أجد نفسي بحاجة إلى التشاور مع أخواني"¹⁶.

وينتقل معه مفهوم الشورى إلى حيز الشمولية فيقول بعد أن أفرد لها كلمة خاصة في صيقل الإسلام: "إن مفتاح سعادة المسلمين في حياتهم الاجتماعية إنما هو الشورى فالآية الكريمة تأمرنا باتخاذ الشورى في جميع أمورنا، إذ بقوله سبحانه وتعالى: [وَأْمُرُهُمْ سُورَى بَيْنَهُمْ]".

ويعود ليقرر حقيقة "أن تلاحق الأفكار بين أبناء الجنس البشري إنما هو شورى على مر العصور بوساطة التاريخ حتى غدا مدار رقي البشرية وأساس علومها".

ليصل بعد ذلك إلى لب الموضوع فيقول: "إن سبب تخلف القارة الكبرى التي هي آسيا عن ركب الحضارة إنما هو لعدم قيامها بتلك الشورى الحقيقية".

ولأولئك المتخبطين في ظلمات السياسة المؤقتة ولمن يقف عاجزاً يبكي كالنساء ملكاً لم يحافظ عليه كالرجال، يعطيه النورسي مشعل نور يرشده إلى حقيقة الأمن السياسي الذي يعيد للأمة استقرارها فيقول: "إن مفتاح قارة آسيا وكاشف مستقبلها إنما هو الشورى، أي كما أن الأفراد يتشاورون فيما بينهم كذلك ينبغي أن تسلك الطوائف والأقاليم المسلك نفسه فتشاور فيما بينها. إن فك أنواع القيود التي تكبل ثلاثمائة بل أربعمائة مليون مسلم، ورفع أنواع الاستبداد عنهم إنما يكون بالشورى والحرية الشرعية النابعة من الشهامة الإسلامية والشفقة الإيمانية"¹⁷.

فالشورى الحق تولد الإخلاص والتساند¹⁸

وهكذا تفتح لنا الحقوق العامة كما قررها النورسي نافذة يلج منها الباحث في مكونات رسائل النور ساعياً وراء حقيقة الحرية الشرعية المدرجة ضمن حقوق الأفراد والتي فننها ودافع عنها النورسي بامتياز.

القسم الثاني: الحقوق الفردية

لدى توصيفه للواقع البشري السياسي لمعرفة موقع الفرد فيه في ظل سيطرة القوي على الضعيف وتغليب المصلحة العامة على المصلحة الخاصة، دون أي اعتبار لمفهوم الأمن الفردي المستقى من مبدأ حقوق الأفراد، يقول النورسي: "إن القانون الأساسي للسياسة البشرية هو: أن يضحى بالأفراد من أجل سلامة الأمة وتفدى بالأشخاص حفاظاً على الجماعة، ويرخص كل شيء في سبيل حماية الوطن... بيد أن جميع الجرائم البشعة التي ارتكبت في البشرية إلى الآن إنما ترتكب بسبب سوء استعمال هذه القاعدة وهذا القانون الأساسي، فلقد تيقنت من هذا يقيناً قاطعاً فهذا القانون البشري الأساسي ليس له حد معين ولا ضوابط مخصصة لذا فقد مهد السبيل للتلاعب باستعماله بكثرة..."¹⁹.

وكمثال ناطق بالحق والبرهان يؤكد النورسي كلامه بالتدليل على ما جرت به الحربين العالميتين من ويلات دمرت حضارة البشرية جمعاء.

بعد هذا التقرير ومقابل هذه الحالة يعود النورسي ليعرض بضاعته المستقاة من المنهج القرآني الذي ارتضاه الله الخالق لعباده وهو أدرى بحال خلقه، فيقول النورسي: "وهكذا ولقد وجدت عوضاً عن هذا القانون البشري الأساسي الغادر، القانون الأساسي للقرآن العظيم النازل من العرش الأعظم وذلك في الآيتين: (ولا تزرر وازرة وزر أخرى) (ومن قتل نفساً بغير نفس أو فساداً في الأرض كأنما قتل الناس جميعاً) فهاتان الآيتان تعلمان القاعدة الجلية الآتية:

لا يؤخذ أحد بجريرة شخص آخر ثم إن البريء لا يضحى به حتى من أجل جميع الناس دون رضاه... هذه القاعدة الجلية هي التي ترسي العدالة الحقة في البشرية"²⁰.

هذه العدالة تتناقض تماماً مع مفهوم العقاب الجماعي السائد بين الأمم اليوم بعدما غيب القانون القرآني وهضمت حقوق الفرد وعدا البعض على قدسية حياة الآخرين بدعوى الأمن الوقائي والمدنية والحرية. والى هؤلاء البعض يقول النورسي: "ألا ما أشقى هؤلاء الذين يطلقون على هذا القانون "قانون القرآن العظيم" اسم الرجعية ويرضون بقانون وحشي جاهلي وينفذونه في سياستهم ويجعلونه ركيزتهم في الإدارة والذي يضحى فيه بالفرد لأجل الجماعة، ولا تؤخذ حقوق الأفراد بنظر الاعتبار لأجل سلامة الوطن، ولا يكثر المظالم الجزئية لأجل سلامة سياسة الدولة،... إن لطلاب القرآن وخدامه إزاء هذه المظالم الفظيعة لهذه الرجعية الوحشية مئات من قوانين القرآن الأساسية من أمثال "ولا تزرر وازرة وزر أخرى" الذي يحقق العدالة الحقة والاتحاد والأخوة"²¹.

إن هذه العدالة المنشودة تستدعي تحقق حالات إنسانية ينبغي توفرها وإدراك الإنسان لها على الوجه السليم المتناسب مع حاجات ومتطلبات هذا الإنسان لتحقيق غاية خلقه وهي عبادة الله وعمارة هذا الكون. ومن هذه الحالات حق الحياة، وثلاثية الحرية والأخوة والمساواة التي أطلقتها الثورة الفرنسية وحملت أوروبا خطوات إلى الأمام بعد عصور من الظلمات والجور، فاقتربت من هالة الشعار دون أن تصل حقيقة إلى كنه جوهره وتلامس حقوق الإنسان السامية التي تؤدي إلى تحقيق العدالة لا المدنية الزائفة.

إذ لم تستطع شعارات الثورة الفرنسية أن تبلغ مبلغ الحقائق الإيمانية التي أراد النورسي تنبيه طلابه إليها فحذرهم من هذه الشعارات الجوفاء وقال لهم "... وما هذا إلا فسح المجال لبذر بذور الثورة الفرنسية في هذه البلاد، وهذا ما يستحق القلق عليه..."²².

غاية الأمر أن ما لديه أعمق وأبلغ بكثير من ذلك، إنه منهج قرآني يهدف إلى إقامة التوازن في هذا الكون وفق الانتظام العام الذي خلق عليه فيؤكد النورسي لطلابه أن الأصل هو "وجود قانون قرآني هو (ولا تزر وازرة وزر أخرى) يمنع بموجبه محاولة الإخلال بالنظام في أثناء القضاء على عشرة من الجناة"²³.

"هذا القانون العظيم الذي يحقق المحبة والأخوة الصادقة وينقذ الأمة الإسلامية وهذه البلاد من المخاطر"²⁴.

وفيما يلي بيان لمجموعة من هذه الحقوق الفردية المتلازمة وتحقيق العدالة كما رآها النورسي تبعاً لأصالة الشريعة الإسلامية وفي النسق الإيماني الذي يسمو بأشرف المخلوقات.

1- حق الحياة:

يقول النورسي مخاطباً نفسه، والإنسان:

"أيها الإنسان ويا نفسي!

اعلم يقيناً أن بدنك وأعضاءك، ووجودك ومالك وحيواناتك التي أنعم الله سبحانه عليك ليس للتمليك بل للإباحة أي أنه ملكك ملكه لتستفيد وأباحه لك للانتفاع ولم يملكه لك ملكاً... فما عليك إلا العمل وفق دستور الإباحة...، فمثل هذا تماماً لا يجوز الانتحار وإهماء الحياة التي وهبها لك الله سبحانه إباحة،.... فينبغي التصرف في جميع النعم في الدنيا وفق المضيف الكريم"²⁵.

كما أن الأمر ليس بالبساطة التي يجلو للبعض التحدث بما عنه بتفاهة تعكس الفراغ الروحي الذي يعاني منه، "إذ أن ماهية الحياة هي مخزن مفاتيح كنوز الأسماء الإلهية... تؤدي وظيفة المرآة العاكسة لصفات خالقها بكل قدسيتها وعلوها ورفعتها"²⁶.

يقول النورسي: "نظرت إلى حقوق الحياة الحقيقية فرأيت: أن حياتي رسالة ربانية تستقرئ نفسها... وهي موضع مطالعة يعرف الخالق الكريم، وهي لوحة إعلان تعلن

كمال خالقي.. وفهمت أن من حقوقها التزين بشعور تام بما أنعم عليها خالق الحياة - بالحياة... وإظهار محاسن ربوبية "الحي القيوم" بلسان الحال والمقال والعبودية له.. وهكذا فلا تتطلب أمثال هذه الحقوق الرفيعة للحياة مدة مديدة، فضلاً عن أنها ترفع من قيمة الحياة ودرجتها ألف مرة وهي أعلى وأسمى وأفضل بمائة مرة من حقوق دنيوية للحياة"²⁷.

وفي السياق نفسه، يشد النورسي الانتباه بصورة أكثر تركيزاً إلى الحقيقة المرادة من حق الحياة فيقول: "أما ما اشتهر بين الناس من "حق الحياة" وهو حفظ الحياة مع نوع من الراحة، فأقل وأصغر وأدنى وأصغر من أن يكون جزءاً من ملايين أجزاء "حق الحياة" تلك الحياة التي هي أعلى وأعلى وأعجب وأغرب وأشرف معجزات قدرة الحي القيوم الأحد الصمد"²⁸.

فتأمل معي أنها الإنسان أن أي ظلم توقعه على نفسك بانتهاكك لقدسية حياتك وتعديك على حياة الآخرين فحقوق الحياة وغاياتها عائدة إليه سبحانه²⁹.

2- الحرية:

يندر في عصرنا أن يمضي على الإنسان يوم دون أن يسمع فيه أو يقرأ أو يفكر بالحرية. بمختلف تشعباتها وتفرعاتها مثل الحرية الشخصية وحرية إبداء الرأي وحرية التصرف وحرية تقرير المصير وما إلى ذلك.

هذه الهالة التي تحيط بالحرية بالمطلق والفوضى المنافية للفطرة السليمة والناجمة عن تطبيقها، دفعت طلاب النور إلى التساؤل بين يدي أستاذهم عن حقيقة الأمر فقالوا، كما ورد في صيقل الإسلام: "س: لقد فسروا لنا "الحرية" تفسيراً خاطئاً سيئاً وكأن الإنسان مهما فعل - في كنف الحرية - من سفاهات ورتائل وفضائح لا يؤاخذ عليها ما دام لم يضرّ بها الناس... هكذا أفهمونا الحرية، أهى كذلك؟".

وكان جواب الأستاذ ما يلي: "إن الذين فسروها هكذا ما أعلنوا إلا عن سفاهاتهم ورتائلهم على رؤوس الأشهاد فهم يهدرون متذرعين بحجج واهية كالصبيان، لأن الحرية الحسنة ما هي إلا تلك المتأدبة بأداب الشريعة والمتزينة بفضائلها وليست تلك التي في السفاهة والرتائل. بل تلك حيوانية وبهيمية ووقوع في أسر النفس الأمارة بالسوء. إن

الحرية العامة هي المحصلة الناتجة من حريات الأفراد ومن شأن الحرية عدم الإضرار سواء بالنفس أو بالآخرين³⁰.

ولا يترك النورسي طلابه حائرين دون تعريف أصيل إيماني يتلاقى مع حق قدسية الحياة وغاية الخلق فيقول: "إلا أن الحرية هي: أن يكون المرء مطلق العنان في حركاته المشروعة مصوناً من التعرض له، محفوظ الحقوق ولا يتحكم بعض في بعض، ليتجلى فيه نهي الآية الكريمة: (ولا يتخذ بعضكم بعضاً أرباباً من دون الله) ولا يتأمر عليه غير قانون العدالة والتأدب، لئلا يفسد حرية أخوانه"³¹، موضحاً أن "كمال الحرية في أن لا يتفرعن المرء، وأن لا يستهزئ بحرية غيره"³².

ومن جهة أخرى وتماشياً مع الحرية يقوم النورس بدفع الناس إلى الوعي للتخلص من الاستبداد "الذي أقام سداً مظلماً جائراً حبس خلفه حرية آسيا..."³³ والذي آن لضياء الحرية أن ينفذ عبره مستعيناً بقوة خارقة يعرفها النورسي بقوله: "لا يكون رفع أنواع الاستبداد إلا بالشورى والحرية، الحرية الشرعية... تلك الحرية التي تزين بالأداب الشرعية وتنبذ سيئات المدنية الغربية، وتأمر بأساسين:

- 1- أن لا يذلل "المسلم" ولا يتذلل... من كان عبداً لله لا يكون عبداً للعباد.
- 2- أن لا يجعل بعضكم بعضاً إرباً من دون الله إذ من لا يعرف الله حق معرفته يتوهم نوعاً من الربوبية لكل شيء في كل حسب نسبته فيسلطه على نفسه"³⁴.

قد تنور ثائرة دعاة حرية هذا العصر إذا ما قلت لهم: تمهلوا للتأمل من جودة الحرية التي تقيمها أو تطالب بها مجموعة بشرية ما! فهذا طرح مستهجن يرد عليه دون تفكير رغم أهمية، وفي هذا الموضوع تطالعنا لطيفة دقيقة تعرض لها النورسي محلاً مدى استعداد الأمة لاستيعاب الحرية والتخلص من الاستبداد فيقول: "لا تفسروا الحرية تفسيراً سيئاً كي لا تفلت من أيديكم ولا تخنقونا بسقي الاستعباد السابق الفاسد في إناء آخر، ذلك لأن الحرية إنما تزدهر بمراعاة الأحكام الشرعية وآدابها والتخلق بالأخلاق الفاضلة... وبخلافه فإن تفسير الحرية والعمل بها على أنها التحرر من القيود والانغمار في السفاهات والملذات غير المشروعة وتجاوز الحدود مماثل لمن يتحرر من أسر سلطان واحد ويدخل في استبداد حقراء سافلين كثيرين، فضلاً عن أن هذا النمط من الحرية يظهر أن

الأمة غير راشدة وما زالت في عهد الصباوة وليست أهلاً للحرية فهي سفيهة إذن تستحق الحجر عليها بالرجوع إلى الاستبداد السابق البائد. إن عدم الأهلية للحرية الشرعية الحديثة يؤدي إلى مرض يتعرض له إتحاد الأمة العظيم فتتعرض الأمة إلى حالات فاسدة متعفنة³⁵. ولعل خير ما نختتم به الحديث عن الحرية قول النورسي "بأن المسلم ليس جزءاً فرداً سائباً حبله على غاربه، بل هو جزء من مركبات متداخلة متصاعدة لها مع سائر الأجزاء صلة رحم من حيث جاذبية الإسلام العامة"³⁶.

3- الأخوة:

إن ما يندرج تحت هذا الحق ما هو إلا ترجمة فعلية لقوله تعالى: [إنما المؤمنون أخوة] ففي الإسلام: روابط تستدعي الوحدة والتوحيد والوفاق والاتفاق والمحبة والأخوة، ولها من القوة ما يربط أجزاء الكون الهائلة³⁷.

ومن دساتير الحياة يقرر النورسي: "إن الذين يملأ قلوبهم الحقد والعداوة تجاه إخوانهم المؤمنين إنما يظلمون أنفسهم أولاً، علاوة على ظلمهم لإخوانهم، وفضلاً عن تجاوزهم حدود الرحمة الإلهية فقد ورد في الحديث الشريف: (لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال، فيلتقيان فيعرض هذا ويعرض هذا، وخيرهما الذي يبدأ بالسلام)"³⁸.

لو أراد الباحث التوسع في لطائف هذه العلاقة الإيمانية مستقيماً حيثياتها من رسائل النور لاحتاج إلى صفحات وصفحات بقدر عمق الأخوة والمحبة المفعمة من قلب كاتبها والتي تشع نوراً يغمر حياة طلابه لتعم أرجاء العالم كافة.

4- المساواة:

هي مساواة في الحقوق والواجبات تشمل أبناء الأمة الواحدة وليس هذا بالجديد في أمة إسلامية تتظلل بدستور القرآن وتستبدل مصطلح المساواة بالأخوة الإيمانية والإنسانية والمحبة المقدسة في الله وقد سبق الحديث عنها.

لذا لن يكون هذا مقصودنا بالمساواة وإنما نعني بها تلك القائمة بين المسلمين وغير المسلمين، طبقاً للتعريف الذي أرفده النورسي رداً على استفسار أحد طلابه حين سأله: "كيف تتساوى مع غير المسلمين! فقال: المساواة ليست في الفضيلة والشرف بل هي في الحقوق. فالسلطان الملك والفقير المسكين كلاهما سيان في الحقوق... فيا للعجب إن

الشريعة التي نمت عن تعذيب نملة وأمرت ألا تداس عمداً، أهمل حقوق بني آدم؟ كلا!"

ويزيد النورسي في بيانه لهذه المسألة مصححاً مفاهيم خاطئة نفشت نتيجة الجهل والإغفال لقانون القرآن فقال بهذا الصدد: "نحن الذين لم نتمثل الشريعة، ألا تكفي لتصحيح خطأكم هذا، محاكمة أمير المؤمنين الإمام علي رضي الله عنه مع يهودي فقير، ومرافعة صلاح الدين الأيوبي - وهو مدار فخركم - مع نصراني مسكين"³⁹.

إن هذه الدلائل لها من الثبوتية والقطعية ما توفي المسألة حقها.

إلا أن المساواة ليست مطلقة بالقدر الذي يعلنه دعاها في هذا الزمن، والذين يدعون امتلاك دساتير خاصة في عصر الحرية واعتماد قانون المساواة جاعلين من هذه الدعاية ذريعة للظلم والاستبداد رافضين للآخر، يشتمون من كل من يخالف مبادئهم ولاحق لهذا المخالف في الشكوى من المتضايقات لأنهم يعرفون الحرية ويدعون للانفتاح لا للظلمية على حد زعمهم.⁴⁰

وهؤلاء قال النورسي: "تضم إنني من حيث النسب ونمط معيشة الحياة من طبقة العوام ومن الراضين بالمساواة في الحقوق فكراً ومشرباً ومن العاملين على رفض سيطرة طبقة الخواص واستبدادهم وذلك بمقتضى الرحمة وبموجب العدالة الناشئة في الإسلام.

لذا فأنا بكل ما أوتيت من قوة بجانب العدالة التامة...

بيد أن فطرة النوع البشري وحكمة خلقه تخالفان قانون المساواة المطلق"⁴¹.

ويعزو ذلك إلى حقيقة الخلق وتنوع البشرية وانتشارها لإعمار الأرض، ويقول: "إن أجل خميرة لتنوع النوع البشري وأهم نابض محرك له هو التسابق لإحراز الفضيلة المتسمة بالإيمان الحقيقي"⁴².

وأخيراً هذه دعوة إلى تحيد النفس وبراءة منه رحمه الله من هؤلاء الدعاة فقال: "أنا لا أتدخل في دنياكم قط ولا علاقة لي بأية جهة كانت بمبادئكم"⁴³.

وهكذا تتربط هذه الحقوق في سلاسل إيمانية نورانية متصلة ببعضها البعض ، ممسكة بالنظام العام وتحتضن في داخلها سلاسل أخرى من حقوق أكثر دقة تخصصاً مردها جميعاً إلى عبودية الله .

ويرى النورسي أن هذه السلاسل مهددة بفرط عقدها، فيتوجه إلى هؤلاء المتمردين على عبودية الله قائلاً: " ألا فليدرك أولئك الذين يسعون لقطع تلك السلاسل النورانية

التي ارتبط بها جميع أعظم الإسلام منذ خير القرون إلى يومنا هذا، ويعاونون على تحريفها وهدمها . فليظن هؤلاء أي خطأ عظيم يرتكبون وليرتعدوا إن كانت لهم ذرة من شعور⁴⁴

الخاتمة

ما هذا إلا غيض من فيض يفور من ينابيع نورانية تطفئ ظمأ كل حيران يتخبط في فراغ روحي وفكري وسط غياب خطة ممنهجة تدير الأزمة، حيث أثبت الواقع الراهن فشل جميع الطروحات السابقة التي لم تجر على الأمة إلا الويلات ، وهكذا تبرز الحاجة إلى هذا التجديد الذي يرفد العالم الإسلامي بما يمكنه أن يكون خشبة خلاص تحميه من الغرق في بحور الضياع والقهر والاستبداد.

وبالعودة إلى نقطة البداية لنختتم هذا العرض الذي أردنا أن يكون إشعاع تواصل يضعنا مع الآخر عن خط واحد . عند هذه النقطة يتوجه النورسي إلى دعاة القوة فيقول لهم : " إن لم تتمتج دساتير الحكمة ونواميس الحكومة وقوانين الحق وقواعد القوة بعضها ببعض، ولم يستمد كل من الآخر ولم يستند إليه ... فلا تكون ثمرة ولا مؤثرة لدى جمهور الناس ."⁴⁵

ثم يلتفت إلى هذا الصراع التائه في نفق لا نهاية له ويقول : "للتصافح العلوم النابعة من الفلسفة مع الدين وتتصالح أوروبا مع حقائق الإسلام مصالحة تامة، ولتتفق المدارس الحديثة مع المدارس الشرعية..."⁴⁶

إنها دعوة للتواصل و دفع للآخر نحو الانفتاح وتقبل ما هو مغاير لمدينته.

إشعاعات يبثها مرسل لا مشكلة لديه ولا يعاني من عقدة الآخر.

الهوامش

- 1 - صقيل الإسلام، ص 316.
- 2 - إشارات الإعجاز في مظان الأيجاز ص 23
- 3 - صقيل الإسلام، ص 346.
- 4 - الكلمات، ص 145.
- 5 - المكتوبات، ص 509.
- 6 - المكتوبات، ص 511
- 7 - الكلمات، ص 301.
- 8 - - اللمعات، ص 222.
- 9 - أنظر إشارات الإعجاز ، ص 53-54-55

- 10- المكتوبات 355.
- 11 - المكتوبات، 355.
- 12 - الملاحق، ص 121.
- 13 - الملاحق، ص 148-149.
- 14 - أنظر الملاحق ص 149
- 15 - الملاحق، ص 212.
- 16 - الملاحق، ص 237.
- 17 - صيقل الإسلام، ص 514.
- 18 - صيقل الإسلام، ص 515.
- 19 - الملاحق، ص 376.
- 20 - الملاحق، ص 377.
- 21 - صيقل الإسلام، ص 374.
- 22 - الملاحق، ص 375.
- 23 - الملاحق، ص 367.
- 24 - الملاحق، ص 374.
- 25 - الملاحق، ص 93.
- 26 - أنظر الشعاعات، ص 82-83.
- 27 - الشعاعات، ص 82.
- 28 - المثوي العربي النوري، ص 417.
- 29 - المثوي العربي النوري، ص 450.
- 30 - صيقل الإسلام، ص 393.
- 31 - صيقل الإسلام، ص 394.
- 32 - صيقل الإسلام، ص 393.
- 33 - صيقل الإسلام، ص 397.
- 34 - صيقل الإسلام، ص 514.
- 35 - صيقل الإسلام، ص 468.
- 36 - صيقل الإسلام، ص 397.
- 37 - المكتوبات، ص 341.
- 38 - المكتوبات، ص 342.
- 39 - صيقل الإسلام، ص 399.
- 40 المعنى مقتبس من اللغات ص 259
- 41 اللغات، ص 259
- 42 - اللغات، ص 259.
- 43 اللغات، ص 259
- 44 المكتوبات ص 511
- 45 الكلمات ص 849
- 46 الملاحق ص 417

فعالية الدين في عصر العولمة وعالم المتغيرات

(قراءة من منظور رسائل النور)

د. إبراهيم شوقار
أستاذ مساعد بكلية العلوم
الجامعة الإسلامية العالمية - ماليزيا.

1- مقدمة

يدور محور هذا البحث حول دور رسائل النور في إبراز تكامل الإنسان بالإيمان وتحقيق فعالية الدين بكلياته في إنقاذ البشرية من المخاطر التي تحيط بها في عالم مضطرب؛ مفعم بتطورات المعارف وتقلبات الأحداث، وتبصير الأمة الإسلامية بدورها الأخلاقي الكبير في هذه العملية والتحديات العظيمة التي تواجهها. وهي المهمة التي يشير إليها قوله تعالى: (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ (110)) (آل عمران).

أما المقصود بكليات الدين فهي النظرة الكونية الإسلامية التي تنتظم في سلوكها النظم الفكرية المختلفة وتشكل الأساس العقدي للإنسان المسلم، تحدد نظريته للكون وتفسره للوقائع، وتمنح للحياة قيمتها ومعناها، وتبين للإنسان دوره في صنع الأحداث وغايته في الوجود، فيقع بذلك أثر تلك النظرة على الفرد والمجتمع في سعيهما لأداء رسالة الاستخلاف والبناء الحضاري. فالنظرة الكونية هي التي تصوغ الإنسان المسلم والمجتمع المسلم على أسس فكرية واجتماعية بما تتحدد عناصر ذاتية الأمة وتتحقق وحدتها وترابطها الضروري للتفاعل الحضاري مع الشعوب وقيادتها إلى السلام والأمان.

إن إعادة النظر في صور التدين والتأمل المستمر في النظرة الكونية الإسلامية بغرض إحياء معانيها وتحقيق غاياتها، كما هو الشأن في رسائل النور، باتت ضرورة في هذا العصر لأن الإنسانية غدت تعيش صوراً متناقضة من الحياة، بين التطور العلمي

والتقني من جانب وازدياد الاضطراب النفسي والشقاء المادي من جانب آخر، حتى صارا كأنهما أمران متلازمان. أما من الناحية المعرفية فتعيش البشرية في عصر العلم والتكنولوجيا وتحطم حواجز الزمان والمكان، حيث تمكن الإنسان بما وهبه الله تعالى من قدرات عقلية وفكرية وإمكانيات مادية من كشف العديد من سنن الله تعالى في الحياة وفي الآفاق والأنفس، فتمكن من تفجير الطاقات المكنونة في الوجود وفي طبائع الأشياء، فانطلق يجوب أقطار الأرض براً وبحراً وجواً دون حواجز ويطاول عنان السماء، ولكن دون استرشاد بقيم الدين أو التزام بمنهج الله الذي أوجد تلك السنن في هذا الكون المبدع.

كان مقتضى هذا التطور العلمي، على ما تقضي به سنن الشرع والفتوة الإنسانية السوية، هو أن تتحقق السعادة والرفاهية للبشرية جمعاء. ولكن بدلاً من ذلك نشاهد اليوم مظاهر من القلق والاضطراب تكاد تعم البشرية، بل حروباً وقاتلاً للأبرياء وإرهاباً وترويعاً للآمنين في كل مكان وتشريداً للأطفال والنساء والعجزة !

إذن ما مصدر هذا الخلق وهذا الداء الذي أصاب البشرية في هذه الحقبة من التاريخ، وأين يكمن الدواء؟ فهل كُتب للإنسانية الدوام والخلود في هذا الاضطراب والبؤس والشقاء؟ فما الخلاص وما كلمة السماء وخطتها المرسومة للخروج من هذه الأزمة البشرية إلى بر السلام والاطمئنان؟

2- محاور البحث

في محاولة للتصدي لمثل هذه التساؤلات توفرت لدي الفكر الإسلامي ثروة عظيمة من الأفكار والآراء طُرحت عبر التاريخ الإسلامي، ولكن تميزت أطروحات بديع الزمان النورسي - رحمه الله - في هذا الشأن بميزة ربما لم تتوفر في غيرها، وهي كونها تنسم بالجدة والعمق والشمول في آن واحد. فقد كان همه، رحمه الله، منصرفاً بصورة أساسية إلى تفعيل الدين في المجتمع وتعميق معاني الإيمان، وبعث حقائق النظرة الكلية للإسلام في القلوب بأسلوب عصري يبلغ وظف له كل أدوات التصوير والتمثيل مدعماً بأدلة نقلية وعقلية نافذة إلى القلب.

أما المحور الأول للبحث فيدور حول منهج رسائل النور في بيان فعالية الدين في عصر العلم وعالم المتغيرات ودور النظرة الكونية الإسلامية في إنقاذ البشرية من خلال التعريف بالخالق سبحانه وتحقيق الإيمان به تعالى وبالعالم الغيب بصورة عامة، ولا سيما البعث والقيامة. إذ شكلت قضية الإيمان بمفهومه الواسع المحور الأساس الذي تتوجه إليه كل المسائل لدى بديع الزمان، كما يقرره هو بقوله: (إن الإيمان بالله وباليوم الآخر أثن مفتاحين يجلان لروح البشر طلسم الكون ولغزه، ويفتحان أمامها باب السعادة والهناء ..)¹، كما (أن الذي يحل طلسم العالم ولغزه الخير وينقذ الروح البشرية من الظلمات هو لا إله إلا الله)².

يتعرض المحور الثاني من هذا البحث لدور المعطيات القرآنية للارتقاء بالإنسان معرفياً في نظر رسائل النور، إذ إن أكثر ما يسترعي نظر الإنسان وإعجابه في أعمال بديع الزمان، إلى جانب قدرته البارعة في التصوير والتمثيل لتعميق المعنى بدهاء، قدرته على تحديد الحقائق القرآنية بعبارات جامعة، من أبلغها - فيما يتعلق بالمنهج المعرفي، في نظري - قوله: (إن القرآن الكريم، ببياناته النافذة، إنما يمزق غطاء الألفة الملقى على موجودات الكون قاطبة)³.

حقاً إن القرآن الكريم بكلياته المعرفية يمزق غطاء الألفة عن الموجودات وإن غفل عنه أكثر الناس، ولذلك فإن البحث بين كيف أن الإمام النورسي، من خلال نظريته الكونية لموضوعات شتى كالحشر والمعجزات، قد برهن بصور عملية على أن القرآن يمزق غطاء الألفة ويأخذ بيد البشرية إلى أعلى مقامات المعرفة التي لا تخطر على بال الإنسان.

ومن الموضوعات المهمة التي في حاجة إلى نظر وتحليل من خلال محور خاص نظرة الإمام النورسي للإنسان، ماهيته وغايته في الحياة، ودور هذه النظرة في تفعيل الدين. إذ يرى أن الإنسان هو مركز الكون، ويرى في ماهيته (أما فهرس الغرائب التي تخص الأسماء الإلهية الحسنى...، ومقياس مصغر لمعرفة الشؤون الإلهية وصفاتها الجليلية، وميزان للعوالم التي في الكون...، وخريطة لهذا الكون الواسع...)⁴. أما غاية حياة الإنسان عنده فتتحدد في تسعة أمور في حاجة إلى نظر عميق وتأمل دقيق لاقتباس المعاني العميقة التي بثها فيها، ويتم تعريف الإنسان في عصر العولمة برسالته في الوجود ودوره في الحياة.

كان الإمام النورسي يهدف في عرضه للنظرة الكونية الإسلامية، إلى جانب تعميق المعاني الإيمانية، إلى تحقيق أغراض أخرى مهمة لتحقيق فعالية الدين في عصر العلم والمتغيرات، منها بيان أهمية القيم الأخلاقية في حياة الشعوب، وتثبيت أركان حسن التدين التي منها: الاعتدال وترك الغلو والطرف، وإشاعة روح التسامح والترفع عن النظرات الضيقة مثل النعرات العنصرية العرقية والقومية والشعوبية إلى مقام العالمية الإسلامية الشاملة للبشرية جمعاء، كما يشير إليها قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ (13) (الحجرات).

كل هذه الجوانب هي التي توقّف عندها البحث بنظر وتأمل لاقتباس المعاني التي تعين أمة الإسلام في مواجهتها تحديات العصر، كما كان يخطط لها الإمام النورسي رحمه الله.

3- عوامل فعالية الدين

إن فعالية الدين، بصورة عامة، قائمة على عاملين أحدهما ذاتي وآخر خارجي. أما العامل الذاتي فهو طبيعة الدين نفسه من حيث كونه قائماً على أصول عامة مجردة وتصورات كلية موافقة للفطرة الإنسانية السوية، تلي حاجاتها الروحية والمادية وتجيّب عن أسئلتها المعرفية الوجودية عن المبدأ والمصير والكون والحياة، ثم من حيث كونه منهجاً كاملاً للحياة به تنضبط وجوه النشاط الإنساني فعلاً وسلوكاً وتتحدد علاقاته.

أما العامل الثاني فهو أمر تبعي قائم على القوة الإيمانية الكامنة في قلوب المؤمنين بالدين وإخلاصهم المدعّمة بحركة التجديد والبعث والإحياء المستمرة لمعاني تلك الأصول الإيمانية في القلوب، طوراً بعد طور في وجه تقلبات الحياة وإبتلاءاتها، لإزالة الرّين عن القلوب ولتبيد الشبهات وتجاوز صروف الزمن وعوامل الانحراف التي قد تحجب من الدين جوهره وإن أبقّت شكله ومظهره.

لعل أصدق معنى لفعالية الدين بمفهومه الأول نجده في الإسلام، الذي بحيويته الفائقة وقوته الذاتية الدافعة ظهر على الدين كله وتجاوز حدود الزمان والمكان إلى كثير من

بلدان العالم وتوغل في القلوب وقاد أهلها إلى الإيمان حتى في عصور انحطاط المسلمين وضعفهم. هذا هو الجانب في الإسلام هو الذي لاحظته أحد علماء الغرب وهو الكاتب الشهير جورج مودلسكي (George Modelski)، وعبر عنه بصدق، قائلاً: (في مفتتح عصر العولمة في حوالي نهاية الألفية الأولى للميلاد كان أكثر النظم تشابهاً بنظام سياسي عالمي هو العالم الإسلامي. فقد كانت فتوحات العرب في القرن السابع الميلادي هي أصول تلك الدولة، وقوتها الدافعة هو الإسلام. ففي ذلك الوقت تمتد حدود العالم الإسلامي من إسبانيا والمغرب، عبر دمشق والقاهرة وبغداد، إلى فارس وشمال الهند، بل قد وصلت إلى أبعد من ذلك في العصور التي تلت، إلى الجزر الإندونيسية ووسط وغربي أفريقية. حتى بمقارنته بأوروبا في العصور الوسطى، فقد كان العالم الإسلامي أكثر ازدهاراً وإنتاجاً وأكثر ثراءً في الثقافة. فقد كانت مُدُنُها، بغداد والقاهرة وأمثالهما، مدناً عالمية تكتنز بالسكان من كل مكان، كما كانت مراكز لإنتاج الآداب والفنون. أما فقهاؤها وعلمائها فقد صاروا خير خلف للعلوم الإغريقية، بينما جامعاتها قد سبقت الجامعات الأوروبية بقرن على الأقل).

هكذا استمر مودلسكي في عرض مظاهر الحضارة الإسلامية بشكل دقيق، ثم ختم كلامه بملاحظة مهمة وهي تفريقه بين فاعلية الدين الإسلامي وقوته الذاتية من جانب وضعف وانحطاط المسلمين من جانب آخر، فقال: (بدخول نهاية القرن الخامس عشر للميلاد بات العالم الإسلامي إستراتيجياً محاطاً بعمليات البحرية الأوروبية، وحيويته قد استمرت في الانحطاط، هذا في الوقت الذي استمر الإسلام نفسه في كسب المزيد من الأتباع والمعتنقين في آسيا وإفريقية)⁵.

إن الدين من حيث هو حقيقة منزلة من عند الله تعالى ذي الجلال إلى العباد لبيان حقائق الوجود تعريفاً وتكليفاً، وشرعةً ومنهاجاً، ليدينوا به علماً وعملاً، فهو أمر مطلق قائم على سنن ثابتة لا تتبدل ولا تتحول. ولذلك فهو فوق التاريخ لا يقبل التجديد من هذا الوجه، وهو ما يشير إليه قوله تعالى: (إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ (19)) (آل عمران)، أي الدين الحق الثابت. أما الدين من حيث كونه كسباً بشرياً وعملاً للإنسان في تفاعله مع ذلك الحق المطلق في إطار ظرفي محدد، فلا بد أن يعتره شيء من أحوال هذا الكون المتحرك نفسه، فيطراً عليه شيء من الخمول والموات، فيصبح في حاجة إلى بعث

وتجديد وإحياء وتفصيل⁶. وتلك مهمة ينهض بها الرسل والأنبياء (عليهم السلام)، والمصلحون الأتقياء (عليهم الرحمة والرضوان)، تذكيراً بالأصول وبعثاً لشعاب الإيمان الميتة في النفوس وشحذاً للأذهان وتعبئة للطاقات نحو البناء الحضاري بتفصيل الدين على مقتضى تحديات العصر ومتطلبات الواقع. وهكذا فإن فاعلية الدين، بالنظر إلى مفهومها الثاني، تصاب بكل ما يصيب الإنسان نفسه من أنواع الابتلاء فتصبح عرضة للانتكاس والانحطاط فيقتضي التجديد والإحياء ويرتفع بذلك شأن الدين بقوة عنصريه الذاتي والتبعية وتحقق عزة أهل الإيمان وكرامة الإنسان.

4- مجهودات النورسي في إطارها التاريخي

لئن كانت الحالة التي وصلت إليها الأمة في عهد النورسي، أي الانحطاط الفكري والعقدي في عصر العلم وانفراط حبل الوحدة في عالم المتغيرات، اقتضت تغيير أسلوب الخطاب وبعض وسائل تفعيل الإيمان وآلياته، فإن حركته التجديدية الإصلاحية ذاتها إنما تقع في الجملة ضمن منظومة العمل التجديدي النهضوي للفكر الإسلامي عبر تاريخه.

لقد ظل البعث الديني والإحياء الإيماني عملاً متواصلًا في تاريخ الإسلام وفق مقتضى الحال، بدءاً بعصر الرسالة حيث كان انسلاخ البشرية عن ميراث الأنبياء التوحيدي هو التحدي، فاقتضت حكمة الله ببعث الرسول الخاتم ﷺ لإعادة صياغة مفهوم التدين من جاهلية وشرك إلى التوحيد الخالص وتمت إنقاذ البشرية من جديد بعد انقطاعها الطويل عن إرث التوحيد. ومروراً بالعهد الراشدي والصحابية في القرن الهجري الأول والذي شهد توسعاً في رقعة الدين الحق جغرافياً وصار موضوع استيعاب المقبلين إلى دين الله أفواجاً، من عرب وعمجم، وحملهم على قصد الشارع هو التحدي، فكان ما كان من تعويد منهج الأسلمة والاستيعاب حتى قال أبو بكر (رضي الله عنه) والله لأقاتلن من فرق بين صلاة وزكاة. وبذلك تم تعميق معاني الإيمان في النفوس على مقتضى ذلك المنهج المثالي من ميراث الأنبياء. وفي القرون الثلاثة الأولى بعد العهد الراشدي حتى القرن الرابع من الهجرة اقتضت الحال بناء الجانب الفكري واللغوي للأمة، حيث كان لاختلاط العرب بالعمجم وتطور الأفكار وظهور الفرق والمذاهب أثرٌ وتحديات، فجاءت أنماط

التفعيل الديني على مقتضى تلك الحالة فحصلت ثروة فكرية تجديدية عظيمة عكستها تلك الأعمال التأصيلية العظيمة مثل كتاب (الرسالة) للإمام الشافعي كما عكستها مدونات الفقهاء والمحدثين ومعاجم اللغويين ومصنفات المتكلمين وترجمات التراث الإنساني، فشهد بذلك العالم الإسلامي تطوراً فكرياً وثقافياً هائلاً. ثم امتد حبل البعث والتجديد الديني في مواجهة التحديات الفكرية في العصور التي تلت ذلك فكانت أهم إشكالية واجهت الأمة بعد القرن الرابع، هي التحور الذي طرأ على مفهوم التدين نفسه من حيث كونه حقيقة كلية مستوعبة لجملة النشاط الإنساني في تسخير الدنيا للدين إلى مجرد أمور شكلية، فوقع تفريق بين الديني والدنيوي في العلم والعمل وانقطع حبل التعمير نظراً لانقسام شخصية المسلم التي تفرقت بين هذين الأمرين في الفكر والنظر، كما ظهرت في مصنفات (المعقول والمنقول) وتجلت بصورة واضحة عند الإمام أبي حامد الغزالي في مشروعه الإحيائي في القرن الخامس: (المستصفي) و(معيار العلم) من جانب و (إحياء علوم الدين) و(المنقذ من الضلال) من جانب آخر، أي أنه بنى منهجه المعرفي في الأولين على العقل والفكر وفي الأخيرين على الذوق والوجدان.

ثم دخلت الأمة في تحدٍ ذي طابع مختلف تمثل في الجمود الفكري بتقنين التقليد وقفل باب الاجتهاد، توجساً من قلة الوازع الديني لدى الناس وخوفاً من انقراض عقد الشريعة، فانقطع بذلك الهم التجديدي الشامل للدين على مستوى الأمة إلا من أفراد، أمثال شيخ الإسلام ابن تيمية وأبي اسحاق الشاطبي في القرن الثامن، والإمام السيوطي في القرن العاشر. ثم بدأت وحدة الأمة المعنوية تنهار بفعل الجمود الفكري وكيانها الجغرافي بدأ يتآكل من الأطراف بفعل التحديات الخارجية حتى سقط رمزها كلية بسقوط الخلافة في عهد النورسي.

5- عناصر تفعيل الدين عند النورسي

إن التحدي العظيم الذي واجه الأمة في عصر بدیع الزمان سعيد النورسي ليس في مفهوم التدين أو الجمود الفكري أو العجز في فهم قصد الشارع فحسب، بل تعدى كل ذلك إلى قصد المكلف نفسه، أي عدم الرغبة في التدين لدي قطاع عريض من أبناء الأمة

ومثقفها: زهداً في الدين وجهلاً به، ورغبةً وطمعاً في الدنيا وافتناناً بالنتائج المادية للعلوم التي بهرت البشرية آنئذ، فبات إنقاذ الإيمان هو الهدف لدى بيدع الزمان النورسي، إذ قال: (إنقاذ الإيمان أعظم إحسان في هذا الزمان)⁷. وأمر آخر مهم تبع ذلك هو إعلان سقوط الخلافة، رمز وحدة الأمة وكيانها، في الربع الأول من القرن العشرين للميلاد ووقوع الأمة تحت هيمنة القوى الاستعمارية، الأمر دفع بيدع الزمان إلى التفكير في كيفية إعادة بناء شخصية المسلم من جديد بإعادة الثقة في نفسه بأنه صاحب رسالة كونية ومُشيد حضارة عالمية. لأنه ما كان للأمة أن تقع فريسة سهلة لقوى خارجية لو لم يكن ثم شئ عظيم قد سقط من قبل، وهو إيمان الأمة بذاتها وإحساسها كأمة حضارية في التاريخ. هكذا برزت تحديات حقيقية جليلة باتت تواجه مستقبل الأمة في عهد النورسي، ليس في فكرها وثقافتها فحسب، وإنما في وجود كيانها الحضاري كأمة.

استجابة لهذه التحديات جاء مشروع بيدع الزمان النورسي التجديدي الإصلاحية، وهو مشروع كلي لإنقاذ الإيمان لأن التحديات أيضاً كانت كلية. أي أن شعور الناس بوجود الله تعالى الواحد الأحد الخالق القادر، صار ضعيفاً كما ضعف إدراكهم بالقرآن معرفياً من حيث هو كلام الله تعالى المنزل للتعريف بالوجود، وتبعاً لذلك صار الإنسان جاهلاً بنفسه من حيث هو خليفة الله في الأرض ومركز الكون كله. هذه الأصول الثلاثة - أعني تحسيس الناس بوجود الله جلّ جلاله، وتنوير القرآن العظيم كتاب الوجود، وتعريف الإنسان بنفسه من حيث هو كائن مركزي في الكون - هذه هي عناصر تفعيل الدين عند بيدع الزمان سعيد النورسي، وهي أيضاً المحاور الكلية التي تدور عليها رسائل النور.

هكذا أدرك النورسي بثاقب بصره وقوة بصيرته أن تفعيل الدين وتحقيق الإيمان في عصر العلم لن يتحقق إلا من خلال هذه الأصول الثلاثة التي عمل لها الأنبياء والمرسلون. ومن هنا ندرك أن مهمة رسائل النور، كما يقول النورسي نفسه كانت مهمة كلية: (لا تعمّر تخريبات جزئية ولا ترمم بيتاً صغيراً مهدّماً، بل تعمّر أيضاً تخريبات عامة كلية، ترمم قلعة محيطية - صخورها كالجبال - تحتضن الإسلام وتحيط به)⁸.

أولاً - تفعيل الدين من خلال إعادة التعريف بالله تعالى الخالق

في سبيل إنقاذ الأمة بإحياء الإيمان وتفعيل الدين رأي النورسي أن إحساس الناس بوجود الله جلّ وعلا في زمانه قد صار ضعيفاً جداً، وذلك بسبب الانغماس في الماديات واتباع الشهوات والافتتان بالعلوم وتقليد الأمم إلى درجة أن الأمة الإسلامية لم تعد تؤمن بنفسها كأمة حاملة لرسالة كونية ومسؤولة عن إنقاذ البشرية كلها أخلاقياً، كما يقرره قول تعالى: (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا (143)) (البقرة)، وقوله تعالى: (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ (110)) (آل عمران). وقوله تعالى: (وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مَلَّةً أَيْبِكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ (78)) (الحج).

ومن جانب آخر، إن كثيراً من الحجج الدينية السابقة التي تُساق لتحقيق الإيمان باتت غير مقنعة لدي الناس في زمن النورسي، نظراً للتطور العلمي الذي أحدث انقلاباً في مناهج البحث والنظر، فوصف كل ما هو خارج الحواس بالخرافة، بما في ذلك الدين والإيمان بالملائكة واليوم الآخر، وتشبث الناس بالأسباب الظاهرية فقط وجعلوا (الطبيعة) إلهاً وتركوا رب الأسباب⁹. حتى المسلم الذي بقيّ إيمانه بالله سليماً بصورة عامة، لم يعد يدرك المعاني الإيمانية الفاعلة لأسماء الله الحسنى وصفاته العُلا في الحياة ولم يعد يتذوق حلاوتها في الواقع.

يقول النورسي في هذا الصدد: (إن الأسس الإيمانية كانت رصينة في العصور السابقة، وكان الانقياد تاماً كاملاً، إذ كانت توضيحات العارفين في الأمور الفرعية مقبولة وبياناتهم كانت كافية حتى لو لم يكن لديهم دليل. أما في الوقت الحاضر فقد مدت الضلالة -باسم العلم- يدها إلى أسس الإيمان وأركانها). ومن جانب آخر (إن معرفة الله سبحانه والإيمان بحقائق "لا إله إلا الله" يستلزم التصديق القلبي والإيمان المطلق الجازم..، أما النطق بأن "الله موجود" ثم اسناد تصريف الأمور في ملكه إلى الأسباب التي لا عد لها وإلى الطبيعة واتخاذها شركاء لله تعالى، ومن ثم الجهل بإرادته النافذة وعلمه

المطلق ومثول كل شئ أمامه، وعدم الاهتمام بأوامره ونواهيه والجهل بصفاته وما أرسل من رسله، لا شك إن هذا كله ليس من الإيمان في شئ¹⁰.

ومن هنا اتخذ الإمام النورسي بيان حقائق أسماء الله تعالى الحسنی وكشف أسرارها المعرفية، بأسلوب علمي رصين يناسب العصر، وسيلة جوهرية للتعريف بالله تعالى ولتنفيع الدين وإحياء الإيمان في القلوب. فهو يرى أن: (الأسماء الحسنی منع الحقائق والعلوم كلها)¹¹، و: (أن كل ما ناله الإنسان من حيث جامعة ما أودع الله تعالى فيه من استعدادات، من الكمال العلمي والتقدم الفني ووصوله إلى خوارق الصناعات والاكتشافات، تعبّر عنه الآية الكريمة (وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا (31) (البقرة)). وتعبير الآية، في نظر النورسي، (ينطوي على رمز رفيع ودقيق، وهو أن لكل كمال ولكل علم ولكل تقدم ولكل فن، أياً كان، حقيقة سامية عالية. وتلك الحقيقة تستند إلى اسم من الأسماء الحسنی، وباستنادها إلى ذلك الاسم، الذي له حجب مختلفة وتحليلات متنوعة ودوائر ظهور متباينة، يجد الاسم والفن والصنعة كماله ويصبح حقيقة فعلاً...، فالطب، مثلاً، مهارة ومهنة في الوقت نفسه، فمنتهاه وحقيقته يستند إلى اسم من الأسماء الحسنی، وهو اسم الله (الشافی). فيصل الطب إلى كماله ويصبح حقيقة فعلاً بمشاهدة التحليلات الرحيمة لاسم الله (الشافی) في الأدوية المبتوثة على سطح الأرض الذي يمثل صيدلية عظمی)،¹² وهكذا بقية أسماء الله تعالى الحسنی.

إلى جانب بيان أسرار أسماء الله الحسنی معرفياً لتنفيذ الدين وتعميق الإيمان في النفوس، ساق الإمام النورسي آلافاً من الأدلة والبراهين العقلية المقتبسة من كتاب الكون، مدعمة بأدلة نقلية، تفيد يقيناً أن الله تعالى هو الذي وراء حركة الكون وهو خالقه وهو المتصرف فيه. وقد أجمل أصول هذه البراهين كلها في أربعة براهين كبرى¹³ وهي: محمد النبي (صلى الله عليه وسلم) خلقه وصفاته، والبرهان الثاني هو هذا الكون كتاب الوجود، والثالث هو القرآن الكريم ذلك الكتاب الذي لا ريب فيه، والبرهان الرابع هو ما يسميه النورسي بالوجدان الحي أو الفطرة.

فهو يقول في استدلاله بكتاب الكون مثلاً: (إن منح كل شئ وجوداً بموازين حساسة، وبمقاييس خاصة وإلباسه صورة معينة، ووضعه في موضع ملائم، يبين بوضوح

أن الأمور تسير وفق عدالة وميزان مطلقين. وكذا إعطاء كل ذي حق حقه وفق استعداده ومواهبه، أي إعطاء كل ما يلزم وما هو ضروري لوجوده، وتوفير جميع ما يحتاج إلى بقائه في أفضل وضع، يدل على أن يد عدالة مطلقة هي التي تُسَيِّر الأمور¹⁴. ومن جانب آخر يقول: (إن الإعجاز الباهر الظاهر في النظام والتناسق والاطراد المشاهد في كتاب الكون الكبير، وهو برهاننا الثاني على التوحيد، يظهر بوضوح تام كالشمس الساطعة، أن الكون وما فيه ليس إلا آثار قدرة غير متناهية وعلم لا يتناهى وإرادة أزلية)¹⁵. و (إن حروف هذا الكتاب - يقصد الكون - ونقاطه فرداً فرداً أو مجموعة يتلو كلُّ بلسانه الخاص (وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ (44) (الإسراء))¹⁶.

لم يسلك النورسي، في إحيائه الإيمان في عصر العلم، الأسلوب التقليدي المعروف في عرض موضوعات العقيدة، بل اتخذ منهجاً وسطاً يجمع بين العقل والذوق مقتبساً من القرآن. وذلك ما يقرر هو بنفسه، بعد تنفيذ المناهج السابقة بقوله: (هناك أصول أربعة للعروج إلى عرش الكمالات، وهو معرفة الله جلّ جلاله. أولها منهج الصوفية، المؤسس على تزكية النفس والسلوك. ثانيها منهج علماء الكلام المبني على "الحدوث والإمكان" في إثبات واجب الوجود. ومع أن هذين الأصلين قد تشعبا من القرآن الكريم إلا أن البشر قد أفرغهما في صور شتى، لذا أصبحا منهجين طويلين وذوي مشاكل، فلم يبقيا مصانين من الأوهام والشكوك. ثالثها مسلك الفلاسفة المشوب بالشكوك والشبهات والأوهام. رابعها وأولها طريق القرآن الكريم الذي يعلنه ببلاغته المعجزة وبجزالته الساطعة، فلا يوازيه طريق في الاستقامة والشمول، فهو أقصر طريق وأقربه إلى الله وأشمله لبني الإنسان)¹⁷.

ثانياً: تفعيل الإيمان بالقرآن

لا غرابة في أن يتم إحياء القلوب وتفعيل الإيمان بالقرآن، فإن ذلك هو وظيفته في الأساس، ولكن الغريب أن يتم ذلك في عصر وُصِف فيه الدين جملة بالخرافة باسم العلم وورغب الناس عنه على هذا الأساس.

كان بيدع الزمان النورسي على إدراك تام بهذا التحدي، لذلك أعد له العدة، فسَلِّح نفسه بالعلم وبالقرآن: غاص في أسراره وأدرك مقاصده الكلية واستوعب مرامييه القريبة والبعيدة. فالقرآن بالنسبة إليه، هو كتاب أنزله الله الخالق المبدع إلى الإنسان ليقرأ به الكون. (هو الترجمة الأزلية لهذه الكائنات والترجمان الأبدي لأستنتها التاليات للآيات التكوينية، ومفسر كتاب العالم..).¹⁸ ويرى النورسي، بصدق، (أن القرآن الكريم ببياناته القوية النافذة إنما يمزق غطاء الألفة وستار العادة الملقى على موجودات الكون قاطبة، والتي لا تُذكر إلا أنها عادية مألوفة، مع أنها خوارق قدرة بديعة ومعجزاتها العظيمة. فيكشف القرآن بتمزيق ذلك الغطاء حقائق عجيبة لذوي الشعور، ويلفت أنظارهم إلى ما فيها من دروس بلغية للإعتبار والعظة، فاتحاً كنزاً لا يفنى أمام العقول)¹⁹

إن أروع الأدلة التي ساقها النورسي عملياً لإثبات هذه الدعوي، كان أغلبها في مجال التوحيد والنبوة والحشر. ولكن نسوق مثلاً واحداً من مجال "فلسفة العلم" لنرى كيف يبين بالقرآن سنن الله تعالى الكونية، التي افتتن بها الغرب باسم "قوانين الطبيعة"، في تناسق تام مع المعجزات، إذ يقول: (إن التقدير العليم والصانع الحكيم يظهر قدرته وحكمته وعدم تدخل المصادفة في أي فعل من أفعاله قطعاً بالتناسق التي تظهره عاداته، التي هي على صورة القوانين الكونية. وكذا يُظهر سبحانه بشواذ القوانين الكونية، بخوارق عاداته وبالتغيرات الظاهرية، وباختلاف التشخيصات، وبتبدل زمان الزول والظهور..، يظهر مشيئته وإرادته وأنه الفاعل المختار وأن اختياره لا يرضخ لأي قيد كان، ممزقاً بهذا ستار الرتبة والاطراد، فيعلم أن كل شئ في كل آن، في كل شأن من شؤونه، في كل ما يخصه ويعود إليه، محتاج إليه سبحانه، منقاد لربوبيته، وبهذا يشتم الغفلة ويصرف الأنظار: أنظار الجن والإنس من الأسباب إلى مسبب الأسباب. وعلى هذا الأساس تتوجه بيانات القرآن الكريم).²⁰

ثالثاً: تفعيل الإيمان ودوره في تحقيق السلام العالمي

إن نظرة النورسي للإنسان، في مشروعه التجديدي الإصلاحية، لها بُعدان وأيضاً لها إتجاهان. أما البعدان فهما البعد التكويني والبعد الغائي للإنسان، وأما الاتجاهان فهما

نظرتة للإنسان من حيث هو كائن حضاري مجتمعاً ومن حيث هو كائن متدين وأخلاقي منفرداً.

في توازن دقيق بين هذه الجوانب، بين النورسي حقيقة الإنسان وكيفية تكامله بالإيمان. فقد رأى الإنسان في بُعد التكويني أنه أقيم مخلوقات الأرض وأعلىها من حيث تجلي الصنعة الإلهية فيه. فالإنسان، في نظر النورسي، صنعة إلهية خارقة وهو أرقى معجزة من معجزات قدرته تعالى وألطفها، حيث خلقه البارئ مظهرًا لجميع أسمائه الحسنى وجعله مداراً لجميع نقوشه البديعة وصيره مثلاً مصغراً ونموذجاً للكائنات بأسرها²¹. ولذلك فهو: (خاتمة ثمرات شجرة الكون وأجمع ما فيها من الصفات، وهو بذرتها الأصلية..، وهو الآية الكونية الكبرى لقرآن الكون).²² بل إن الأجهزة التي زُرعت في الإنسان ليست لهذا الحياة الفانية، وإنما لحياة أخرى أبدية. وخلق هذه اللطائف والحواس والمشاعر في الإنسان وإدراجها في فطرته إنما الغاية من ذلك أمران: الأول أن يشعر الإنسان بالشكر تجاه كل نوع من أنواع النعم التي أسبغها المولى سبحانه عليه. أي ينبغي للإنسان أن يشعر بما والقيام بشكر الله تعالى وعبادته. أما الأمر الآخر فهو أن يجعل الإنسان مدركاً لأقسام تجليات الأسماء الحسنى التي تعم الوجود كله، معرفتها وتدويقها واحداً واحداً. أي على الإنسان أن يؤمن بتلك الأسماء ويعرفها معرفة ذوقية خالصة.²³ ومن هذا الوجه بات الإنسان أكرم مخلوقات الله ومركزاً للكون تخدمه الملائكة والجن وسائر الخلائق: (وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبُرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا (70)) (الإسراء) (وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ (34)) (البقرة).

يرى النورسي، أن الإنسان لم يبلغ هذه المرتبة العالية باسمه الذاتي ولا بمجده الخالص، فهو أضعف مخلوق من جهة الفعل والعمل، وإنما بلغ تلك المرتبة السامية باسمه الحرفي، أي الشعور بكونه مخلوقاً خالق عظيم ولغاية عظمى وليس مخلوقاً عبثاً ولا لذاته: (أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (115)) (المؤمنون). وعليه، لن يتحقق غاية الإنسان في الحياة إلا بالإيمان والتقرب إلى خالقه سبحانه.

أما غاية الإنسان في الوجود، في نظر النورسي، فهي تسعة أمور،²⁴ أهمها أن يقوم الإنسان بواجب العبودية الكلية تجاه تظاهر الربوبية، أي بلوغ مرتبة العبودية بالعلوم والكمالات.

ملخص كل هذا التحقيق هو أن الإنسان كائن متدين وأخلاقي بالفطرة، على مستوى الفرد، وكائن حضاري على مستوى المجتمع، ولكونه مكرماً يبحث عن الحق دوماً وعدم إهتدائه إلى خالقه الحق سبحانه يورثه الجهل بنفسه. وذلك لأن الكفر، كما يرى النورسي، يهبط بقيمة الكائنات ودرجتها إلى هاوية العبث، ويوهم بعدم وجود غاية من إيجادها.²⁵

ومن هنا كان شعور الإنسان في عهد النورسي بصورة عامة شعوراً يائساً رغم التقدم العلمي وتطور المعارف، الأمر الذي مازال يُلقى بظلاله القائمة على إنسان هذه العصر، فكثرت الحروب وقتل الأبرياء والعجزة وتم ترويع الأمنين وإرهابهم في كل مكان. أما الإنسان المسلم، فإلى جانب القلق العالمي، فقد أصابه شئ من القنوط من صلاح حاله الآيل إلى التخلف بإطراد أمام التقدم العلمي والتكنولوجي المادي المطرد في الغرب آنئذ. الأمر الذي دفع بعض شباب الأمة ومتقفيها في الدولة العثمانية إلى إلقاء التبعة على الإسلام نفسه، كعقيدة ونظام حياة، وظهرت محاولات للانسلاخ عن الهوية دون جدوى. هذا الشعور أورث الأمة حالة من فقدان الثقة بالنفس والإيمان بالآخر بصورة أكبر، وكيف يؤمن بك الغير وأنت لا تؤمن بنفسك؟. ومنع هذا القلق ومصدر هذا اليأس، في نظر النورسي، هو عدم الإيمان أو ضعفه في النفوس، وفي الحالتين فإن الدواء واحد، وهو إحياء الإيمان بتفعيل الدين بصورة عامة. وذلك لأن الإيمان يقتضي التوحيد، والتوحيد يقود إلى التسليم، والتسليم يحقق التوكل، والتوكل يسهل الطريق إلى سعادة الدارين).²⁶

هكذا يكتسب الإنسان قيمته من الإيمان، لأنه بالإيمان ينتسب إلى خالقه الذي انقطع عنه بالكفر ويدرك حقيقة ذاته الضعيفة، ويعيش مع سائر بني جنسه ومع سائر الخلائق في عالم من السلام والوثام.

هذا الدور الإيماني العظيم في صنع السلام العالمي هو الذي يرمي إليه العالم البريطاني الشهير في علم التاريخ والحضار، وهو أرنولد توينبي (Arnold Toynbee)، المعاصر للنورسي، في تعريفه للحضارة عندما قال: (الحضارة محاولة لإيجاد حالة للمجتمع الإنساني تصبح فيها البشرية قادرة على العيش في انسجام باعتبارهم أعضاء في أسرة كبيرة شاملة)، ثم أضاف: (أظن هذا هو الهدف الذي سعت إلى تحقيقها كل الحضارات المعروفة حتى الآن، وذلك بغير وعي إن لم يكن بوعي وإدراك)²⁷

المراجع

- 1- الأعمال الكاملة للمؤتمر الثالث لبديع الزمان سعيد النورسي، تحت شعار: تجديد الفكر الإسلامي في القرن العشرين.
- 2- الصدر، محمد باقر، السنن التاريخية في القرآن، دار المعارف للمطبوعات (بيروت 1989).
- 3- التراي، عبد الله حسن، قضايا التجديد، معهد البحوث والدراسات الاجتماعية (الخرطوم 1990).
- 4- بن نبي، مالك، شروط النهضة، دار الغر النعاصر (بيروت 1987).
- 5- النورسي، بديع الزمان سعيد، الإيمان وتكامل الإنسان: ترجمة إحسان قاسم، منشورات مكتبة القدس (بغداد 1984) حقيقة التوحيد: ترجمة إحسان قاسم، مطبعة العاني (بغداد 1985)
- الثمرة من شجرة الإيمان، ترجمة إحسان قاسم، مطبعة الزهراء الحديثة (الموصل 1985).
- الإنسان والإيمان: ترجمة إحسان قاسم، دار الإعتصام، (القاهرة 1983).
- الكلمات: ترجمة إحسان قاسم، دار سوزلر (استنبول 1992).
- مرشد أهل القرآن إلى حقائق الإيمان: ترجمة إحسان قاسم، مطبعة منير (بغداد 1991).
- المكتوبات: ترجمة إحسان قاسم، دار سوزلر (استنبول 1992).
- الطبيعة: عرض وتعلق أوديب إبراهيم الباغ، مطبعة الزهراء الحديثة، (الموصل 1985).

الهوامش

- 1 النورسي، بديع الزمان سعيد، الكلمات: ترجمة إحسان قاسم، دار سوزلر للنشر (استنبول 1992) ط1. ص26.

2 المصدر السابق، الموضوع نفسه.

3 المصدر نفسه، ص 150.

4 المصدر نفسه ص 139.

5. “At the opening of the period of globalization, at about 1000 AD, the nearest approximation to a worldwide political order was the Muslim world. Its origins lay in the Arab conquest of the seventh century, and its binding force was Islam. At the time it ranged from Spain and Morocco, through Damascus, Cairo and Baghdad, to Persia and North India; in the centuries that followed; it reached as far as the Indonesian islands, and Central and East Africa. Even by comparison with medieval Europe, it was a prosperous, productive and culturally rich world. Its cities, Baghdad and Cairo, were cosmopolitan and populous, as well as being centers of artistic and literary creation. Its scholars and scientists were the true successors of Greek learning, while its universities predated Europe’s by at least a century. After 1500, the Moslem world was strategically outflanked by European naval operations, and its vitality continued to decline, while Islam continued to gain adherents in Asia and Africa” *The Globalization Transformations Reader*, ed. by: David Held & Anthony McGrew, Polity Press (Cambridge UK 2001).p.49.

6 راجع تفصيلاً لهذه الأفكار، عبد الله حسن الترابي في كتابه: **قضايا التجديد**، معهد البحوث والدراسات الإجتماعية (الخرطوم 1990).

7 النورسي، بيدع الزمان سعيد، **مرشد أهل القرآن إلى حقائق الإيمان**: ترجمة إحسان قاسم، مطبعة منير (بغداد 1991) ص 38. وراجع في هذا الصدد كلاماً قيماً لرجب طيب أردوغان، وهو يبيّن هذه الحقيقة، إذ قال: (كان يعلم جيداً - أي النورسي- أن متقفي الدولة العثمانية والطبقة المتميزة قد فقدوا أيمانهم، وانبهروا بمن غلب عليهم من الأعداء وانجذبوا إليهم، ظانين أن طريق الخلاص في تقليدهم ومسايرتهم. وبعد أن ثبت لدى الأستاذ النورسي هذا التشخيص توجه إلى (الإيمان) كمفهوم منقذ وقدم له تعريفاً جديداً له. فالإيمان بالنسبة إليه أكبر مصدر لتحقيق قوة العالم الإسلامي وشحنه بالطاقة اللازمة. ولئن نجا المسلمون والعالم الإسلامي، فلا شك يكون ذلك ممكناً بقوة الإيمان واستيلائه على الأرواح من جيد). **الأعمال الكاملة للمؤتمر العالمي الثالث لبيدع الزمان النورسي**، تحت شعار: تجديد الفكر الديني في القرن العشرين وبيدع الزمان النورسي (استانبول 1995) ص 16.

8 ويواصل النورسي في عرض مهمة رسائل النور، إذ يقول: (وهي لا تسعى لإصلاح قلب خاص ووجدان معين، بل تسعى أيضاً - وبيدها إعجاز القرآن- لمداواة القلب العام، وضمان الأفكار العامة المكلومة بالوسائل المفسدة التي هيئت لها ورُكمت منذ ألف عام وتنشط لمداواة الوجدان العام الذي توجه نحو الفساد نتيجة تحطم الأسس الإسلامية وتياراته وشعائره التي هي المستند العظيم للجميع وبخاصة عوام المؤمنين. نعم أنها تسعى لمداواة تلك الجروح الواسعة الغائرة بأدوية القرآن والإيمان). راجع:

النورسي، بديع الزمان سعيد، **مرشد أهل القرآن إلى حقائق الإيمان**: ترجمة إحسان قاسم، مطبعة منير (بغداد 1991) ط.1، ص72-73.

9 أفضل مثال لهذا، ما عبّر عنه أحد المعاصرين للنورسي من علماء الغرب-وهو (بروندوسكي) بقوله: باتت ثمة طريقتين للبحث عن المعرفة: أحدهما للبحث عن الأفكار التي لا تخضع للنقد والتحدي، لأنها مقررة بالإعتقاد أو الحجية أو أنها بديهية. هذه هي الاستسلام الخرافي للحق الذي اختاره الشرق، وهي الفكرة البديهية التي كانت مسيطرة على عقلية العلماء في العصور الوسطى....).

“ There have always been two ways of looking for truth. One is to find concepts, which are beyond challenge (critique), because they are held by faith or by authority or the conviction that they are self-evident. This is the mystic submission to truth which the East has chosen, and which dominated the axiomatic thought of the scholars of the Middle Ages. So St. Thomas Aquinas holds that faith is higher guide to truth than knowledge is. The master of medieval science puts science firmly into second place. But long before Aquinas wrote, Peter Abelard had already challenged the whole notion that there are concepts which can only be felt by faith or authority. All truth, even the highest, is accessible to test, said Abelard “By doubting we are led to inquire, and by inquiry we perceive the truth”. The words might have been written five hundred years later by Descartes, and would have been a recipe for the Scientific Revolution. The Scientific Revolution begins when Copernicus implied the holder proposition that there is another work of God to which we may appeal even beyond this: the great work of nature. ‘No absolute statement is allowed to be out of reach of the test, that its consequences must conform to the facts of nature’ as Galileo said”. (Brondwski, Jacob: *Science and Human Values*, Harper Torch books, New York 1975 p. 45).

10 النورسي، **مرشد أهل القرآن**، مصدر سابق، ص78/79 ، 54/55.

11 المصدر السابق، 48.

12 المصدر السابق، ص48-49.

13 وقد إكتفى أحياناً بذكر ثلاثة منها، كما في الكلمة التاسعة عشرة من كتاب الكلمات، إذ جاء فيها: (إن ما يعرف لنا ربنا هو ثلاثة معرّفين أدلاء عظام: أوله كتاب الكون...، وثانيه هو الآية العظمى لهذا الكتاب العظيم، وهو خاتم ديوان النبوة (ص)، وثالثه القرآن الحكيم) **الكلمات**، ص254.

14 النورسي، **الكلمات**، مصدر سابق، ص69.

15 النورسي، بديع الزمان سعيد، **حقيقة التوحيد**: ترجمة إحسان قاسم، مطبعة العاني (بغداد 1985) ص 119.

16 النورسي، المصدر السابق، ص 114.

- 17 النورسي، **حقيقة التوحيد**، المصدر نفسه، ص 121.
- 18 النورسي، **الكلمات**، مصدر سابق، ص 264.
- 19 المصدر نفسه ، ص150.
- 20 المصدر نفسه، ص 221.
- 21 النورسي، **بديع الزمان سعيد، الإيمان وتكامل الإنسان**: ترجمة إحسان قاسم، منشورات مكتبة القدس (بغداد 1984) ص 21/20.
- 22 النورسي، **بديع الزمان سعيد، الثمرة من شجرة الإيمان**: تحقيق إحسان قاسم، مطبعة الزهراء (الموصل 1985)، ص49.
- 23 النورسي، **الكلمات**، مصدر سابق، ص 137/136.
- 24 أولها: القيام بالشكر الكلي. وثانيها: فتح الكنوز المخفية للأسماء الإلهية الحسنى بمفاتيح الأجهزة المودعة في فطرة الإنسان، ومعرفة الله جلّ وعلا بتلك الأسماء. وثالثها: إظهار ما ركبت فيه من لطائف وتجليات وبدائع صنع الله أمام الخلق. رابعها: إظهار العبودية أمام عظمة الخالق بلسان الحال والمقال. خامسها: التجميل بمزايا اللطائف الإنسانية التي وهبته له تجليات الأسماء. سادسها: شهود مظاهر الحياة لذوي الحياة، شهود علم وبصيرة. سابعها: معرفة الصفات المطلقة للخالق الجليل، وشؤونه الحكيمة ووزنها. ثامنها: فهم الأقوال الصادرة من كل وجود في العالم، كل بلسانه الخاص، وإدراك كلماته المعنوية فيما يخص وحدانية الخالق سبحانه وربوبية مبدعه. تاسعها: إدراك درجات القدرة الإلهية والثروة الربانية المطلقين بموازين الضعف والفقر والحاجة المنطوية في نفس الإنسان. (**الكلمات**، ص138).
- 25 النورسي، المصدر السابق، ص 64.
- 26 النورسي، **بديع الزمان سعيد، الإنسان والإيمان**: ترجمة على محي الدين القرّة داغي، دار الإعتصام (القاهرة 1983)، ص103.
- 27 Toynbee, Arnold J: *Study of History*, Oxford University Press (London)P 34.

ماهية الحياة ومغزاها كما بينها الإمام بديع الزمان النورسي

د. أحمد داود شحروري
جامعة الزيتونة - الأردن

أولاً : غاية الحياة ومغزاها

1) سؤال يعرض له الإمام النورسي بكل جلاء وإصرار :
(ما الحياة التي هي تجلّ أعظم لاسم الله (الحي الحي)؟ وما ماهيتها؟ وما مهمتها؟
ويجيب عنه بطريقة غير تقليدية، تسبر غور سر الكون، وتنبئ بفهم لحقيقة الأشياء
كما هي، لا بل كما يشيئها موحد الأشياء، فيقول :
(جواب هذا السؤال ندرجه على صورة فهرس، على النحو الآتي : الحياة هي لهذه
الكائنات، أهم غاية، وأعظم نتيجة، وأسطع نور، وألطف خميرة، وأصفى خلاصة،
وأكمل ثمرة، وأسمى كمال، وأزهى جمال، وأبهى زينة، وهي سر وحدتها ورابطة اتحادها،
ومنشأ كمالها، وهي أبداع ذات روح فيها، من حيث الإلتقان والماهية، وهي حقيقتها
المعجزة، تصير أصغر مخلوق عالماً بجد ذاته ... وهي صنعة إلهية حارقة تكبر الجزء الضئيل
إلى أكبر كل، حتى إنها تجعل الفرد بحكم العالم وكأنه كلي وهي ماكنة نظيفة
عظيمة، وجهاز استحالة عجيبة في مصنع الكائنات، حيث تقوم بالتصفية والتطهير في
كل نواحيه، فتظهر الشيء وتمنحه الرقي وتنوره، وكأن الجسد الذي هو عش الحياة دار
ضيافة لقوافل الذرات ومدرستها ومعكسرها، تتعلم فيه وظائفها وتندرب على أعمالها،
فتتنور وتضيء.....) (1).

2) ويسهب الشيخ في تعريف الحياة ومظاهرها وأسرارها وعجائبها حتى يوصل
القارئ إلى أنه يتحدث عن حياة لا تتوقف، وأسرار لا تنطفئ، وعجائب يستحيل معها
أن يكون الكلام عن حياة لها حدود، ذلك لأن الحياة الحقيقية هي التي تقود صاحبها إذا
استثمرها لعالم الخلود، وهذا ما يتوصل إليه الإمام رحمه الله إذ يقول : (نعم، إن غاية

هذه الحياة ونتيجتها هي الحياة الأبدية، كما أن ثمرة من ثمارها هي الشكر والحمد والمحبة تجاه واهب الحياة (الحي الحيي) وأن هذا الشكر والمحبة والعبادة هي ثمرة الحياة كما أنها غاية الكائنات .

فاعلم من هذا أن الذين يحصرون غاية هذه الحياة في عيش برفاه، و تمتع بغفلة وتنعم بهوى- إنما يستخفون بجهل مستهجن قبيح بهذه النعمة الغالية الكبرى، نعمة الحياة وهديّة الشعور وإحسان العقل، و يحقرونها وينكرونها، بل يكفرون بها فيرتكبون كفراناً عظيماً وإثمًا مبيئاً⁽²⁾ .

إن غاية الحياة في نظر الإمام-إذا- أن تمتد بأصحابها فتحملهم إلى عالم الخلود، فليس حياً من غفل عن هذا المعنى فانشغل بأدوات الفناء عن معنى البقاء، فعمّر دنياه وخرّب مآله ومشواه.

وفي تفسيره سورة الفاتحة يركز الأمام على أن غاية الحياة هي العبادة مستشهداً بقوله تعالى (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) (الذاريات 56) و الحمد صورة إجمالية للعبادة التي هي نتيجة للخلقة والمعرفة التي هي حكمة وغاية الكائنات⁽³⁾ . كما يرى الإمام يرحمه الله أن من غايات الحياة معرفة الله " رب العالمين" (إن العالم اسم ما يعلم به الصانع ويشهد عليه ويشير إليه)⁽⁴⁾ .

2) وتحت عنوان: (في بيان جوهرة من كنوز "وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون" في المتنون العربي يخلّق الإمام في عبارات روحانية يؤكد فيها أن العبادة غاية الحياة ويختّم بقوله: (وما ماهية حياتك إلا خزينة وخريطة وأ نموذج وفذلكة ومقياس وميزان وفهرسة لغرائب آثار جلوات أسماء خالق الموت والحياة، وما صورة حياتك إلا كلمة مكتوبة مسموعة مفهومة لأسمائه الحسنی، وما حقيقتها إلا مرآيتها لتجلى الأحدية، وما كمالها في سعادتها إلا شعورها بما تمثل فيها مع المحبة والشوق لما هي مرآة له، وأما سائر ذوي الحياة فيشاركونك في بعض الغايات المذكورة لكن لا يساونك، إذ أنت المرآة الجامعة كما روي " ما يسعني ارض ولا سماء ويسعني قلب عبدي المؤمن "⁽⁵⁾ .

3) ومن غايات الوجود -كما يراها الأمام- معرفة قدر النبي p الموصلة إلى الإيمان الكامل: (وكما أن حقيقته - أي الحقيقة المحمدية- هي سبب خلق العالم ونتيجته وأكمل ثمراته، كذلك تتحقق بها وبالرسالة الأحمدية الكمالات الحقيقية للكائنات قاطبة

إذ تصحح مرايا باقية للجميل الجليل السرمدي تعكس تجليات صفاته الجليلة وآثاره القيمة الموظفة لدى أفعاله الحكيمة حل جلاله، ورسائله البليغة المرسله من الملاء الأعلى، وتعدو حاملة لعالم باق، منتجة لدار سعادة خالدة ودار آخرة أبدية تشتاق إليها ذوو الشعور كلهم، وأمثالها من الحقائق التي تتحقق بالحقيقة الحمديّة والرسالة الأحمدية ... فكما تشهد البشرية بهذا على انه ρ فخر البشرية واشرف المخلوقات، كذلك فإن دخول مثل جميع الحسنات والخيرات التي يكسبها يومياً ثلاثمائة وخمسون مليوناً من المؤمنين في كل عصر، في سجل حسانه ρ حسب قاعدة " السبب كالفاعل " ونيل تلك الشخصية الحمديّة الفريدة مقاماً رفيعاً يحظى بعبودية كلية وفيوضات ربانية بقدر عبادة مئات الملايين بل المليارات من العباد المحسنين، هو شهادة قوية جداً على رسالته ρ (6).

وفيما تقدم من كلام الإمام يبرز:

أ- أن النبوة المضافة إلى شخص المعصوم ρ سبب خلق العالم، ونتيجته وثمره من ثمراته، والنتيجة والغاية سواء . وهذا ما ينص فيه الإمام على أن معرفة المصطفى ρ غاية من غايات الوجود.

ب- أن النبوة طريق معرفة صفات الله تعالى وهي بذلك تكتسب مكانتها، ويفهم منها كونها غاية من غايات الحياة .

ج- أن النبوة بما تحقّقه من معرفة وما توصل إليه من غاية وهدف سبيل سعادة البشرية، والسعادة بدورها شهادة قوية على صدق النبوة وأحقيتها .

ثانياً: فوائد فهم غاية الحياة ومغزاها

ركز الإمام على ثمرات عملية تجتني من فهم غاية الحياة، ووردت الإشارة إلى ذلك في مواضع عديدة من رسائله :

1) من أسباب السعادة كما يقرر الإمام - الإيمان بالآخرة الذي يعطي الحياة حجمها الحقيقي ويردها إلى حقيقتها في نفس المكلف، فهو -يرحمه الله- يرى أن الذي يقطع نفسه عن الإيمان بالآخرة (لا يرقى أبداً إلى مرتبة الصدق في الوفاء ولا إلى مكانة الإخلاص في الصداقة ولا إلى درجة الود المصفي من الشوائب في المحبة ولا إلى الاحترام المبرأ من الغرض في الخدمة، لأن سعة تلك السجايا والكمالات قد تضاءلت وصغرت بالنسبة نفسها وحينها يتردى الإنسان إلى درك أدنى الحيوانات عقلاً ولكن ما إن يأتي

الإيمان بالآخرة إلى هذا الإنسان لينقذه ويمده ويعيشه ويغيثه حتى يحول ذلك الزمن الضيق الشبيه بالقبر إلى زمان فسيح واسع جداً... (7).

2) ففي الكلمة الثالثة من رسالة الكلمات يشير الإمام إلى فائدة العبادة وهي غاية سامية من غايات الحياة (فمهما يكن للعبادة من حمل ثقيل ظاهراً إلا أن في معناها راحة وخفة عظيمنتين لا توصفان ذلك لان العابد يقول في صلاته "لا اله إلا الله" أي لا خالق ولا رازق إلا هو، النفع والضرر بيده، وانه حكيم لا يعمل عبثاً، كما انه رحيم واسع الرحمة الإحسان... نعم إن مبلغ الشجاعة ككل الحسنات الحقيقية هو الإيمان والعبودية وان منبع الجبن ككل السيئات هو الضلالة والسفاهة. فلو أصبحت الكرة الأرضية قبلة مدمرة وانفجرت فلربما لا تخيف عبداً لله ذات قلب منور... إن سعادة الدنيا أيضاً كالأخرة هي في العبادة وفي الجندية الخالصة لله، فعلينا إذاً أن نردد دائماً الحمد لله على الطاعة والتوفيق وأن نشكره سبحانه وتعالى على أننا مسلمون (8).

والإمام كما ترى يذكر للعبادة في كلامه ثلاث فوائد: الراحة والشجاعة والسعادة.

3) ويشير الإمام إلى ما في الإيمان باليوم الآخر وهو غاية من غايات الوجود من سعادة ولذة في نفس المؤمن، أنصت إليه بقوله (فكم يكون الأيمان بالآخرة إذا كترت عظيمًا كافيًا ووافياً لهذا الإنسان الوثيق الصلة بهذه الرغبات والأمثال التي لا تنتهي، وهو لا يملك سوى جزء من الاختيار الجزئي ويتقلب في الفقر المطلق وكم يكون هذا الإيمان محوراً للسعادة المطلوبة واللذة المبتغاة وكم يكون مرجعاً ومدار استمداد وسلوة له تجاه هموم الدنيا غير المحصورة فلو ضحى هذا الإنسان بكل حياته الدنيا في سبيل الفوز بهذه الثمرات والفوائد لكانت إذاً زهيدة (9).

4) ويرى الإمام يرحمه الله أن في ترسم خطى الشرع والتقييد بالسنة النبوية المطهرة ما يطيل العمر ولو عاش صاحبه قليلاً، وما يورث الطمأنينة والسكينة: (فيا نفس إن كنت حقاً تريد أن تنالي عملاً أخروياً خالداً في عمر قصير، وان كنت حقاً تريد أن تري فائدة في كل دقيقة من دقائق عمرك كالعمر الطويل، وان كنت تريد أن تحوي العادة إلى عبادة وتبدلي غفلتك إلى طمأنينة وسكينة، فاتبعي السنة النبوية الشريفة، ذلك لأن

تطبيق السنة والشرع في معاملة ما يورث الطمأنينة السكينة ويصبح نوعاً من العبادة، بما يثمر من ثمرات أخروية كثيرة (10).

5) ويزيد الإمام على فائدة طول العمر – المتحصلة من التقيد بالشرع الشريف – فائدة الخلود والبقاء، فيقول في رسالته للمعات : (أجل إن ثانية واحدة يقضيها الإنسان في سبيل الله الباقي الحق، وفي سبيل محبته، وفي سبيل معرفته وابتغاء مرضاته تعد سنة كاملة، بل هي باقية دائمة لا يعترىها الفناء، بينما سنة من العمر في سبيله سبحانه فهي زائلة حتماً، وهي في حكم لحظة خاطفة... إليها الناس : أتريدون تحويل عمركم القصير الفاني إلى عمر باق طويل مديد، بل مثمر بالمغانم والمنافع فما دام الجواب أن نعم، وهو مقتضى الإنسانية، فاصرفوا إذاً عمركم في سبيل الباقي، لأن أي شيء يتوجه إلى الباقي ينال تجلياً من تجلياته الباقية (11).

ويخاطب الإمام الشباب يحثهم على فهم غاية الحياة أدق ما يركز عليه – فرح الشباب بفتوهم وكرههم لزوالها، فيجعل أول فائدة للفهم دوام الشباب : (فإذ ما بذل الشباب ما يملك من طاقة مؤقتة في سبيل الخير والصلاح، ضمن دائرة الطهر والعفة والاستقامة فإن الأوامر السماوية كلها تبشره بأنه سيغنم به شباباً باقياً لا زوال له (12). كما يركز على ما تعينه فترة الشباب لأهلها إذا هم احسنوا الفهم : (إذا قضى الشباب عهد شبابه بما أمر الله به واتبع الصراط السوي، واستقام عليه، فإنه يجعله أحلى نعمة إلهية واجمل هبة رحمانية، ويتخذة سبيلاً قوياً ممهداً إلى الصالحات من الأعمال ولا ثمر له كذلك شباباً ناضراً وفتوة خالدة دائمة في الآخرة بدلاً من هذا الشباب الفاني الزائل (13).

6) عدم الخروج عن سؤال في ملحق قسطموني – عن عدم رغبته في تلقي أي خبر عن أحوال العالم في فترة من فترات حياته كانت الدنيا تموج فيها بالفتن والحروب، فيظهر لك من جوابه وضوح الهدف وخطورة الغاية وإبائه تقديم غيرها عليها، لذلك فقد انشغل بخدمة رسائل النور عن كل ما سواها تحقيقاً للهدف والغاية . (ينبغي أن تكون الحقائق الإيمانية أول مقصد وأسبقة في هذا الزمان، وتبقى سائر الأمور في الدرجة الثانية والثالثة والرابعة، وفي الوقت الذي ينبغي أن تكون خدمة الحقائق الإيمانية برسائل النور أجلاً وظيفية وموضع اهتمام ولهفة مقصودة بالذات، إلا أن أحوال العالم الحاضرة ولا سيما الحياة الدنيوية، ولا سيما الحياة الاجتماعية والحياة السياسية خاصة وأخبار

الحرب العالمية بالأخص التي هي تجل من تجليات غضب الله النازل عقاباً لضلالة المدينة الحاضرة وسفاهتها - والتي تستحيل الناس من جانبها وتميج الأعصاب والعروق حتى تدخل إلى باطن القلب، بل حتى مكنت فيه الرغبات الفاسدة المضرة بدلاً من الحقائق الإيمانية الرفيعة النافعة ... (14).

رحم الله الإمام فقد كان وضوح غاية الحياة في عقله وقلبه كشافاً يهتك ستر الظلمة التي عشعشت في قلوب كثيرين من معاصريه الذين انشغلوا بتحديد الأسباب المادية للحرب العالمية وعزوها على تضارب مصالح المتحاربين، في حين وضع الإمام إصبعه على الجرح الحقيقي حيث وصف الحرب بأنها تجل من تجليات الغضب الإلهي على أهل المدينة المعاصرة الحر لخروجهم عن الجادة وضياعهم عن طريق الغاية والهدف .

(7) من فوائد فهم غاية الحياة - كما يراها الإمام- تحقيق الصدق والبعد عن الكذب . (أجل إن الصدق هو عقدة الحياة في حياة الإسلام الاجتماعية ... إن الكفر بجميع أنواعه كذب، والإيمان إنما هو صدق وحقيقة، وعلى هذا فالبون شاسع بين الصدق والكذب ... إن الصدق والكذب بعيدان أحدهما عن الآخر بعد الكفر عن الإيمان (15) . وربط الإمام بين الصدق وغاية الحياة واضح في عبارته كما ترى .

(8) وتحقيق المحبة فائدة أخرى من فوائد ونتاج فهم غاية الحياة عند الإمام (اجل إن أسباب المحبة هي الإيمان والإسلام والإنسانية وأمثالها من السلاسل النورانية المتينة والحصون المعنوية المنيعه. أما أسباب العداوة والبغضاء تجاه المؤمن فإنما هي أمور خاصة تافهة تفاهة الحصيات، لذا فإن إضمار العداوة لمسلم إضماراً حقيقياً إنما هو خطأ جسيم لأنه استخفاف بأسباب المحبة التي هي أشبه بالجبال، نحصل مما سبق أن الود والمحبة والاخوة هي من طباع الإسلام وروابطه (16).

ثالثاً: أضرار وأخطار عدم فهم غاية الحياة

في عدد من رسائل الإمام - يرحمه الله - يعرض لأضرار تلحق بمن على عينيه غشاوة تمنعه من فهم غاية الحياة، ولا يكتفي بذكر الأضرار، ولكنه يتبعها ببلسم يصفه لمرضى القلوب يذهب عنهم غشاوتهم، في كل موضوع يذكر فيه ضرر من أضرار عدم الفهم، يظهر هذا البلسم مظهر منفعة من منافع الفهم، لكن آثرت ألا أذكرها في المنافع السابق

ذكرها لأنها ليست مستقلة وإنما جاء ذكرها تبعاً وإنما جاء ذكرها تبعاً لذكر الأضرار ودرءاً لها :

1) خسارة من لم يفهم غاية الحياة كبيرة، استمع إلى الإمام يعبر عن ذلك ببلاغة وهو يقول (فالإنسان الذي تاه في كثرة المخلوقات وغرق في الكائنات واخذ حب الدنيا حتى غره تبسم الغانيات وسقط في أحضانها، لاشك أن هذا الإنسان يخسر خسراناً مبيناً إذ يقع في الضلال والفناء والعدم أي يعدم نفسه معنى ولكن إذا رفع هذا الإنسان رأسه واستمع بقلب شهيد لدروس الإيمان من لسان القرآن وتوجه إلى الوجدانية فإنه يستطيع أن يصعد بمعراج العبادة إلى عرش الكمالات والفضائل فيغدو إنساناً باقياً⁽¹⁷⁾ .

2) وفي سطور قليلة يحشد الإمام صفات سلبية عديدة للمفتقر الى فهم غاية الحياة : (واعلم أن كل الألم في الضلالة وكل اللذة في الإيمان فبالله عليك كيف حال هذا الشخص إن لم يعتقد بالمبدأ أو المعاد والصانع والحشر ؟ أتظن جهنم اشد عليه من حالة واخرق لروحه؟ فإن له حالة تركبت من الخوف والهيبة والعجز والرعدة والقلق والوحشة واليتم واليأس لأنه إذا راجع قدرته يراها عاجزة ضعيفة وإذا توجه إلى تسكين حاجاته رآها لا تسكت، وإذا صاح واستغاث لا يسمع ولا يغاث فيظن كل شيء عدواً ويتخيل كل شيء غريباً فلا يستأنس بشيء ولا ينظر إلى دوران الأجرام إلا بنظر الخوف والدهشة والتوحش المزعجة للوجدان . ثم تأمل في حال ذلك الشخص إذا كان على الصراط المستقيم واستضاء وجدانه وروحه بنور الإيمان، كيف ترى إذا وضع قدمه في الدنيا وفتح عينيه فرآى تماجم العاديات الخارجية يرى إذاً نقطة استناد يستند إليها في مقابلة تلك العاديات وهي معرفة الصانع فيستريح⁽¹⁸⁾ .

3) يعد الإمام شعور الغافلين بالسعادة وهمماً ما داموا بعيدين عن دينهم، والوهم ضرر وحظر لأنه يبعد صاحبه عن الحقيقة، وفي سبيل إيصال هذه الفكرة يتألق - يرحمه الله - في رسم صورة تعجز ريشة فنان عن تجليتها، يقول (اعلم يا من يتوهم اللذة والسعادة الدنيوية في الغفلة وفي عدم التقيد بالدين أبي جربت نفسي مرة فرأيتني على جسر امتد من رأس جبل إلى رأس جبل شاهقين، وتحتها واد عميق في غاية العمق، وقد أظلم علينا الدنيا بما فيها، فنظرت في يميني الماضي فما رأيت إلا ظلمات عديمة مدهشة، ثم في يساري المستقبلي فما رأيت إلا غياهب مهددة دهّاشة، ثم إلى تحتي فرأيت عمقاً إلى

اسفل سافلين، ثم إلى فوقي فما رأيت إلا غيماً بكماً صماً يمطر الغم واليتم واليأس والبأس، ثم في أمامي فرأيت من خلال الظلمات عفاريت وعقارب وليوثاً وذئاب كأشرة أسنانها للافتراس، ثم في خلقي فما رأيت مدداً ولا مغيناً ولا معيناً، فبينما أنا مدهوس مأبوس نادم من تجريتي، إذ تنتهي الهداية الربانية، فرأيت وتطلع على الأيام قمر الإسلام وأشرقت شمس القرآن، فرأيت جسراً للحياة طريقاً تمر بين جنان النعم السبحانية وتنتهي إلى جنة الرحمة الرحمانية، ويميني الماضي بساتين مزهرة بالصلحاء، منورة مثمرة بالأنبياء والأولياء، تجري من تحتهم انهار الدهور، وهي في البقاء خالدون . ويساري فراديس تزهر فيها الآمال والأمان برحمة الحنان المنان، وفوقنا سحائب الرحمة تفيض علينا ماء الحياة، وفي خلالها تبتسم الشمس بأنوار الهداية والسعادة الأبدية .

وأما ما في أمامي من الكائنات فأخواني وأحبابي وأنعام مؤنسات صورتها ظلمة الضلالة وحوشاً موحشات، فقرأت علينا هذه الواقعة "الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات" (البقر 257)⁽¹⁹⁾ .

ولا يحسن بعد هذا التجلي من تعليق إلا أن يستقر في ذهن القارئ عظم الفرق بين فهم وعدم الفهم وصدق الله العظيم (قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون) (الزمر 9) اللهم لا يستويان.

4) يبين الإمام أن من أضرار عدم فهم غاية الحياة الخروج (من دائرة ما احله الله من الطيبات الكافية لكي يفهم إلى الدخول في دائرة ما حرمه الله من الخبيثات المنغصة التي تجبرهم على ترك بعض شعائر دينهم أو ترك دينهم)⁽²⁰⁾ .

5) وغير الفاهم غاية الحياة لا يكفيه جهل نفسه، بل هو يجتهد في دعوة سواه لضلالة ليصيبهم ما أصابه من العمى فبأمثال هذا يقول الإمام (فاعلم أن تلاميذ المدينة السفهية وطلبة الفلسفة السقيمة المضلة قد سكروا باحتراسات عجيبة وتفرعات غريبة، فجاؤوا يدعون المسلمين إلى اتباع عادات الأجانب وترك شعائر فيها شعور وإشعار بأنوار الإسلام فيقابلهم تلامذة القرآن بـ " يا أيها الضالون الغافلون إن قدرتم أن ترفعوا من الدنيا الزوال والموت، ومن الإنسان العجز والفقر، فاستغنوا عن الدين وشعائره، وإلا فاحسبوا واطرخوا وسوستكم ودمدمتكم التي هي من كزممة الذباب ... فإن أردت

أن لا تبقى أشقى وأذل وأحمق وأضل من جميع الحيوانات فأنصت واسمع بسمع الإيمان بشارة القرآن بإعلان "ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم " (يونس 62-64)⁽²¹⁾ .

رابعاً: من دلائل فهم غاية الحياة ومغزاها

كما حرص الإمام على بيان غاية الحياة ومغزاها، وفوائد معرفة ذلك وأضرار الجهل به، حرص أن ينصب بعض الدلائل على فهم الفاهمين و يشير إلى عدم التوفيق لذلك في موضع متفرقة من رسائله .

1) واعظم دليل على فهم المكلف غاية أن يؤمن بربه فيعمل صالحاً، أوضح دليل على عدم الفهم كفره بربه فيعمل قبيحاً، ولست أبالغ إذا قلت أن شاهد هذه الحقيقة من كلام الإمام رسائله هو كلامه كله، لأنك تراه في كل مسألة أو تفريع أو بيان أو استنباط أو استطراد يضع الإيمان في كفه والكفر في كفة أخرى، فيبني على كل منهما ما يرتبه في حق صاحبه من حال دنيوي وأخروي⁽²²⁾ .

تأمل سؤالاً يطرحه الإمام ليجيب عنه بعد ذلك : (ترى ما اللذة لحياتي الدنيوية وما سعادتها ؟ راجعت الآية الكريمة أيضاً " حسبنا الله ونعم الوكيل " لأجد الجواب فرأيت وفهمت منها أن أصفى لذة وأنقى سعادة لحياتي هذه إنما هو الإيمان أي الإيمان الجازم بأبي مخلوق من خلقتي ورباني، فأنا مصنوعة وعبدته وتحت رعايته ومحتاج إليه كل حين، وهو ربي والهي وهو الرحيم والرؤوف بي . فيإماني هذا لذة ما بعدها لذة، لذة كافية وافية دائمة، وسعادة خالصة لا يعكرها ألم، ففهمت من تلك الآية الكريمة كم يكون إذاً عبارة " الحمد لله على نعمة الإيمان " عبارة جديرة ولائقة⁽²³⁾ .

2) علاقة الدنيا بالآخرة : تتجلى لك علاقة الدنيا بالآخرة في رسائل الإمام من خلال ما يلي :

أ- الدنيا مزرعة الآخرة : في مواضع تفوق الحصر من رسائل الإمام حديث رائق عن علاقة الدنيا بالآخرة مختصرة أن الدنيا مزرعة الآخرة (إن الدنيا مزرعة ومعمل ينتج المحاصيل التي تناسب سوق الآخرة، إذ كما أن أعمال الجن والإنس ترسل إلى سوق

الآخرة، كذلك تؤدي بقية الموجودات في الدنيا أعمالاً كثيرة أيضاً في سبيل الآخرة وتنشئ محاصيل وفيرة لها، بل تجري كرة الأرض لأجل تلك الأعمال.

لاشك أن أهل الجنة يرغبون أن يتذكروا خواطيرهم في الدنيا، ويتجاوروا فيما بينهم حول ذكرياتها، وربما يتلهفون لرؤية ألواح "مشاهد" تلك الذكريات والحوادث ومناظرها، إذ يستمتعون كثيراً بمشاهدة تلك الحوادث وتلك الألواح كمن يستمتع بمشاهدة المناظر على شاشة السينما فما دام الأمر هكذا فالجنة التي هي دار اللذة ومثل السعادة توجد فيها لامحالة المناظر السرمدية لمخاورات الأحداث الدنيوية ومناظر أحداثها، كما تشير إلى ذلك الآية الكريمة " على سرر متقابلين " (الحجر 47) (24).

ترى هل يكون هذا الفهم للعلاقة بين الدنيا والآخرة إلا لمن نور الله تعالى قلبه بفهم غاية الحياة ومغزاها ؟

ب- الموت وسيلة للبقاء : إن فهم غاية الحياة يريح صاحبه لما يسكن قلبه من طمأنينة إزاء ظاهرة الموت و الفراق، وأنها وسيلة البقاء الحقيقي، ولأجل هذه الفكرة يضرب الإمام مثلاً (عندما تشاهد والدة عجوز طفلها الوحيد الذي تحبه حباً خالصاً يتقلب في السكرات، يذهب فكرها حالاً إلى رقوده في تراب القبر بدل فراشه الناعم الوثير، لما تتصور الموت عدماً وفراقاً أبدياً، لتوهمها الخلود في الدنيا نتيجة الغفلة والضلالة، لذا لا يخطر على بالها رحمة الرحمن الرحيم ولا جنته ولا نعمة فردوسه المقيم، فأنت تستطيع أن تقيس من هذا مدى ما يعانيه أهل الضلالة والغفلة من ألم وحزن وبأس على بصيص من أمل، بينما الإيمان والإسلام وهماً وسيلتا سعادة الدارين يقولان للمؤمن : أن هذا الطفل الذي يعاني ما تعاني من سكرات الموت سيرسله خالقه الرحيم إلى قدس جنته بعد ما يخرج من هذه الدنيا القذرة زد على ذلك انه ستجعله لك مشجعاً، كما سيجعله لك أيضاً ولداً أبدياً فلا تقلق إذاً ولا تغتم بالفراق مؤقت، واصبر قائلاً "الحكم لله " (25).

ج- دور الموت في فهم معنى الحياة: من لطائف إشارات الإمام إلى العلاقة بين الحياة والموت ما يبينه من دور الموت في فهم معنى الحياة : (إذا أكل الإنسان فواكه طيبة فإنها تتجزأ وتتلاشى في معدته وتمضم وتمحى ظاهراً إلا أنها تعطي كل خلية من خلايا جسمه لذة وذوقاً ضمن فعالية، فضلاً عن الفم والمعدة ويكون مدار حكم كثيرة جداً كإثراء

الحياة في أقطار الجسم وإدامتها، والطعام نفسه يرقى من الوجود النبائي إلى مرتبة حياة الإنسان وكذلك عندما تختفي الموجودات وراء ستار الزوار تظل بدلاً عنها تسبيحات باقية كثيرة جداً لكل موجود من الموجودات، وتودع كثير من الأسماء الإلهية ومقتضياتها في يد تلك الأسماء، أي تودعها إلى وجود باق، وهكذا تمضي وترحل.

ترى لو بقيت ألوف من أنواع الوجود التي نالت نوعاً من البقاء بديلاً عن وجود مؤقت فإنه يمكن أن يقال يا حسرة على ذلك الوجود المؤقت ! وأنه مضى إلى عبث، أو لم رحل هذا المخلوق اللطيف ؟ أفيمكن أن يشتكي على هذه الصورة ؟ بل إن الرحمة والحكمة والمحبة في حق ذلك المخلوق تقتضي هكذا، بل هو هكذا، وإلا يلزم ترك ألوف المنافع للحيلولة دون حدوث ضرر واحد وعندئذ تحدث ألوف الأضرار .

بمعنى أن الأسماء الحسنى الرحيم، الحكيم، الودود، تستلزم مضي الموجودات وراء ستار الزوال والفراق، وتقتضيهما ولا تعارضهما⁽²⁶⁾ .

د- تفضيل الدنيا على الآخرة علامة على عدم فهم معنى الحياة: يعقد الإمام مسألة في ملحق قسطنطيني عنونها (لم تفضل الدنيا على الآخرة) عد فيها تفضيل الدنيا على الآخرة مرضاً (والحال أن هذا العصر قد غرز حب الحياة الدنيوية في عروق الإنسان، حتى إنه يترك أموراً دينية ثمينة جداً كالألماس لحاجة صغيرة تافهة أو لئلا يصيبه ضرر دنيوي اعتيادي، نعم إن هذا العصر الذي رفعت منه البركة من جراء الإسراف المتزايد وعدم مراعاة الاقتصاد، ومن عدم القناعة مع الحرص الشديد فضلاً عن تزايد الفقر والحاجة والفاقة وهموم العيش، مما سبب جروحاً بليغة في تطلع الإنسان للعيش، وفي نزوعه لحفظ الحياة، علاوة على تشعب متطلبات الحياة المرهقة، زد على ذلك استمرار هل الضلالة بتوجيه كل الأنظار إلى الحياة، كل ذلك عمق تلك الجروح حتى دفع الإنسان ليفضل أدنى حاجة من حاجات الحياة على مسألة إيمانية عظيمة.

نعم، انه لا يصمد اتجاه هذا المرض العجيب لهذا العصر العجيب ولسقمه الرهيب إلا رسائل النور الناشرة لأدوية القرآن المبين التي لها فعل المضاد للسموم، و لا يمكن أن يقاوم هذا المرض العضال إلا طلاب رسائل النور الأقوياء الثابتين الذين لا تزعزعون الخالصون الصادقون المضحون⁽²⁷⁾ .

وفي كلام الإمام:

- 1- وصف لحال عصر فضّل كثير من أهله الدنيا على الآخرة .
- 2- وصف لمن فضل الدنيا على الآخرة بالضلّال، وهذا يعني ضياعهم عن معرفة غاية الحياة ومغزاه.
- 3- وصف للدواء القرآني المبين المتضمن في رسائل النور .
وبالنور وبرساتله أحتّم هذه الورقة التي أسأل الله تعالى أن يتقبلها .

الخاتمة

يا رب المحامد كلها، يا إله الفضل، يا مليك الجمال والكمال ،
يا رب القلوب، والنفوس والآجال
أحمدك حمداً لا يجد ولا يعدّ ولا يحصيه أحد أن أكرمتني بالتنور برسائل النور،
وأثحت لي التلمذة على إمام مدرسة النور حيث أبحرت على متن (الكلمات) و
(المكتوبات) و (اللمعات) و(الشعاعات) وأخواهما لكن أتني لمثلي أن يغوص، ولما
يجد العموم بعد ؟
وعزائي أنها محاولة للفهم عسى أن أقبل على الله بها، فأقول يا رب : ها قد بدأت،
فأقبل بدائي، في طريق الوصول إلى غاية الغايات من هذا الوجود رضاك، واللجوء إلى
حماك؟!!

أتقبل مني أن أهم فائدة لهذا الفهم أن أعيش سعيدا برضاك
أتقبل مني أن أهم ما يحذر من عدم الفهم اللجاجة في الضلالة والعمى ؟
أتقبل مني أن يستقر في نفسي أن علامة الفهم ألا أأمل في غير عطائك وألا انشغل
بدنياي عن يوم لقائك.
يا رب ... هل فهمت عن بيدع الزمان لأعيش في أمان؟! أسأل الله تعالى
ذلك.

والحمد لله في الأولى والآخرة وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الهوامش

- 1 انظر للمعات 557-560
- 2 للمعات ص 560
- 3 إشارات الإعجاز ص 27
- 4 المرجع نفسه
- 5 انظر المثنوي العربي 38-383
- 6 الشعاعات ص 655
- 7 الشعاعات ص 279
- 8 انظر الكلمات ص 13 و 14
- 9 الشعاعات ص 278
- 10 الكلمات ص 316
- 11 انظر للمعات ص 24_25
- 12 الشعاعات ص 255
- 13 المصدر السابق ص 256
- 14 الملاحق - ملحق قسطنوني ص 149
- 15 صيقل الإسلام ص 506 و 507
- 16 المرجع السابق ص 510
- 17 الكلمات ص 418
- 18 إشارات الإعجاز ص 37
- 19 المثنوي العربي النوري ص 290-291
- 20 المرجع نفسه 358
- 21 المرجع السابق 360-361
- 22 انظر الكلمة الثانية (الذين يؤمنون بالغيب) الكلمات ص 9-ص 11
- 23 الشعاعات ص 84
- 24 المكتوبات ص 380
- 25 المرجع نفسه ص 99-100
- 26 المكتوبات ص 381-382
- 27 الملاحق - ملحق قسطنوني ص 143

أسس علاقة العالم الإسلامي مع الغرب

في ضوء رسائل النور

الدكتور آزاد سعيد سمو

دهوك- العراق

لقد كثر الكلام حول العلاقة بين العالم الإسلامي والغرب وطبيعة تلك العلاقة، والأسس التي يجب أن تبني عليها تلك العلاقة، فهل يجب أن تكون العلاقة بينهما مبنية على أساس الحرب والعداء وسفك الدماء، أم أن بالإمكان أن تبني تلك العلاقة على أساس التفاهم والتعايش والحوار بل وحتى التعاون وتبادل الخبرات والمنافع، أسئلة كثيرة على هذه الشاكلة تطرح في الكثير من الأوساط وللإجابة عليها أدلى كل بدلوه وفق قناعاته الفكرية والأيديولوجية، والأستاذ النورسي هو واحد من المفكرين الذين أولوا اهتماماً كبيراً بهذه المسألة حيث تطرق إلى للحديث عنها في الكثير من رسائله، فالعلاقة بين العالم الإسلامي والغرب كانت من الإشكاليات التي تحتم على الأستاذ النورسي معالجتها وبيان رأيه فيها.

لقد تأثر الشعب التركي وسائر الشعوب الإسلامية الأخر التي كانت تقطن الدولة العثمانية، والجمهورية التركية فيما بعد بالحضارة الأوروبية تأثراً شديداً، حيث انبهر الناس بالحضارة الأوروبية ومخترعاتها، وتقنياتها، وتقدمها العلمي وغير ذلك من الأمور التي كانوا يقارنون بينها وبين الواقع المتردي لدى الدولة العثمانية والجمهورية التركية، وقد أدى ذلك إلى نشوء اتجاه داخل تركيا يرى ضرورة السير نحو خطى الدول الأوروبية كي تتوصل إلى ذلك الرقي الحضاري الذي توصلت إليه الدول الأوروبية، ولكن للأسف الشديد قام المجتمع التركي بتقليد الأوربيين في المأكل والمشرب والملبس، وكذلك في الفكر والسياسة والأيديولوجيا فحسب، أما بالنسبة للتقدم العلمي

والصناعات والتكنولوجيا فلم يفعل شيئاً يذكر لذلك انقلب ذلك التقليد والاتباع وبالأعلى عليهم بدلاً من تحقيق أحلامهم التي كانوا يلمون بها.

هنالك ثلاثة اتجاهات بارزة بخصوص الموقف من العلاقة بين العالم الإسلامي والغرب، وبالإمكان تلخيصها فيما يأتي:

الاتجاه الأول: ويتبناه تيار التبعية والتقليد الأعمى للغرب والانصهار فيه.

يرى أصحاب هذا الاتجاه أن العلاقة بين الإسلام والغرب يجب أن تكون على أساس علاقة التابع بالمتبوع أي تبعية العالم الإسلامي للغرب قائلاً بلسان حاله: إننا يجب أن نسير وفق خطى أوروبا ونذوق من حلوها ومرّها لكي نحقق النتائج نفسها التي حققوها، ومن أبرز رواد ومناصري هذا الاتجاه سلامة موسى (1888-1958م) ومن أقواله في هذا الصدد: ((وإذا كانت الرابطة الشرقية سخافة، لأنها تقوم على أصل كاذب، فإنّ الرابطة الدينية وقاحة، فإننا أبناء القرن العشرين أكبر من أن نعتمد على الدين جامعة تربطنا.. ونحن في حاجة إلى ثقافة حرّة أبعد ما تكون عن الأديان... إنني كلّما ازدادت خبرة وتجربة وثقافة توضحت أمامي أغراضني يجب علينا أن نخرج من آسيا، وأن نلتحق بأوروبا، فإنّنا كلّما زادت معرفتي بالشرق زادت كراهيتي له، وشعوري بأنه غريب عنّي، وكلّما زادت معرفتي بأوروبا زاد حبّي لها وتعلّقي بها، وزاد شعوري بأنّها منّي وأنا منها، وهذا هو مذهبي الذي أعمل له طول حياتي، سرّاً وجهراً، فأنا كافر بالشرق، مؤمن بالغرب))⁽¹⁾. ويؤكد طه حسين في كتابه (مستقبل الثقافة في مصر) على المعنى ذاته، حيث يدعو إلى الاتصال بالغرب إلى درجة الانصهار فيه والاندماج معه كلياً (لفظاً ومعنى، وحقيقةً وشكلاً) [ويدعو إلى إشعار الغرب بأننا] نرى الأشياء كما يراها، ونقوم الأشياء كما يقومها، ونحكم على الأشياء كما يحكم عليها))⁽²⁾، ويقول في موضع آخر: (هي واحدة فهذه ليس لها تعدد، وهي: أن نسير سيرة الأوربيين ونسلك طريقهم لنكون لهم أندادا ولنكون لهم شركاء في الحضارة خيرها وشرها، حلوها ومرّها، وما يجب منها وما يكره، وما يحمد منها وما يعاب، ومن زعم لنا غير ذلك فهو خادع أو مخدوع)⁽³⁾.

هذان نموذجان اثنان فقط من بين المئات إن لم نقل الآلاف من النماذج التي اغترّ أصحابها بالغرب حيث رأوا أنفسهم أقزاماً أمام الحضارة الغربية وما توصل إليه الغرب

من التقدم العلمي والتقني، وما أنتجه من مخترعات وأجهزة متطورة تضيء على الحياة اليومية طابعاً من اليسر والسهولة والراحة.

نحن لا ننكر أن الغرب قد قطع شوطاً بل أشواطاً واسعة نحو التقدم العلمي والرقمي الحضاري ولكن ذلك ليس كل شيء، بل هناك جوانب أخرى لا تقل أهمية عن ذلك بل هي أهم منها بكثير وهي الجوانب الإنسانية والروحية والخلقية، وقد صدق الرجل الذي قال لأحد المستشرقين: لقد استطعتم أن تطيروا في السماء مثل الطيور، وأن تغوصوا في البحار مثل الأسماك، ولكنكم لم تستطيعوا أن تعيشوا على الأرض مثل البشر، وبناء عليه أقول: لا ما نع البتة من الاستفادة من تجارب الآخرين والاقتراب من الحضارات الأخرى ولكن دون أن يؤدي ذلك بنا إلى الانصهار والذوبان في بوتقة الآخرين فالتاريخ لم يسجل لنا (أن أمة من الأمم، أو شعباً من الشعوب خضع لمشروع التبعية والاستتباع الحضاري واستمر في السيطرة إلا على قاعدة تحلف عميق، وجمود شامل تعانیه تلك الأمة أو ذلك الشعب في ذاته وكيانه الداخلي)⁽⁴⁾.

الاتجاه الثاني: ويتبناه التيار الرفض للعلاقة بين الإسلام والغرب جملة وتفصيلاً.

يرى أصحاب هذا الاتجاه أنه من الواجب رفض العلاقة بين الإسلام والغرب جملة وتفصيلاً أيّاً كان نوعها انطلاقاً من فكرة رفض الحضارة الغربية جملة وتفصيلاً ويرى أنها وبال كلاً لذلك يجب علينا الابتعاد عنها ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً، وإذا كان خطأ أصحاب الاتجاه الأول أنهم أفرطوا في التقرب من الغرب إلى درجة التخلي عمّا لديهم من تراث وفكر غنيين وإبداهما بثمن بخس وهو ما لدى الآخر، فإنّ خطأ أصحاب هذا الاتجاه هو التفريط في العلاقة مع الغرب وذلك عندما رفضوا بضاعته جملة وتفصيلاً، حيث لم يفرّقوا بين النافع والضار، والجيد والردّي، بل اعتبروا أنّ أية محاولة للأخذ منه يعد نوعاً من الانحراف في الفكر يؤدي إلى انحراف في العقيدة، يقول المفكر الباكستاني المعروف أبو الأعلى المودودي في حق هؤلاء: (ولا يزال رجال هذه الطائفة الأخيرة حتى اليوم من المحافظة على القديم والظن بآثاره العتيقة على ما كانوا عليه يوم ضربتهم الحضارة الغربية بضربتها الأولى من غير أن يأتوا بتعديل أو يعيدوا النظر في سلوكهم، ولم يصرفوا لحظة من أوقاتهم بجد واهتمام في تحليل ما ورثوه عن الأقدمين ومعرفة ما يحسن

الإبقاء عليه وما يحتاج إلى التغيير، وكذلك ما تفكروا أصلاً في معرفة ما يحسن أخذه أو ينبغي رفضه مما جاءت به الحضارة الغربية، وما سعوا سعياً معقولاً ليعلموا ما كان في نظامهم القديم للفكر والعمل من المساوى والأسقام التي فتت في عضدهم وأوجبت هزيمتهم، وما عند الأمة الأجنبية التي جاءتهم من وراء البحار من القوة العلمية التي مهّدت لها السبيل وسببت لها الاستيلاء على بلادهم⁽⁵⁾.

الاتجاه الثالث: ويتبناه أصحاب التيار الوسطي في فهم الإسلام.

أما الاتجاه الصحيح والذي يجب تبنيه حسب اعتقادي فهو يتلخص في أنه يجب على كل من العالم الإسلامي والغرب أن يقتنعا بأن العلاقة بينهما يجب أن تكون على أساس التفاهم والحوار والتعاون وعدم رفض الآخر جملة وتفصيلاً وأن في ذلك مصلحة للطرفين.

وإذا ما درسنا رسائل النور رأينا أنّ الأستاذ النورسي قد تبنى هذا الاتجاه انطلاقاً من قول الله تبارك وتعالى: ((وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً))⁽⁶⁾، فالأستاذ النورسي لم يغترّ بالحضارة الغربية كما اغترّ بها غيره من معاصريه، ولم ينخدع بمظاهرها البرّاقة، وشعاراتها الرنانة، وتقنياتها المتطورة، إلاّ أنّه في الوقت ذاته لم يرفضها جملة وتفصيلاً كما فعله آخرون من معاصريه ومن جاءوا بعده، وكذلك لم يقل بالقطيعة بين الإسلام والغرب، ولم يخلق الباب بصورة مطبقة، بل اتخذ موقفاً وسطاً في ذلك من خلال الأسس الآتية التي يمكن استنباطها من رسائل النور:

الأساس الأوّل: الأصل في علاقة الإسلام مع الحضارات والشعوب الأخرى هو السّلم والحوار والتعاون.

إنّ الأساس الأوّل الذي يمكن أن يتخذ منه منطلقاً لتحديد نوعيّة العلاقة بين الإسلام والحضارات الأخرى لا سيّما الغربيّة هو كون الأصل في علاقة الإسلام مع تلك الحضارات هو السّلم والتفاهم والحوار والتعايش إلى ما هنالك من هذه المصطلحات، فقد ورد في القرآن الكريم قوله تعالى: ((لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبرّوهم وتقسطوا إليهم إنّ الله يحبّ المقسطين))⁽⁷⁾، ويقول

تبارك وتعالى في آية أخرى: ((يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير))⁽⁸⁾.

يقول الأستاذ سعيد النورسي في إحدى رسائله:

((يجب أن لا ننظر للأجانب نظرة عدا، بل ربّما يتوجّب علينا أن ننظر إليهم كأصدقاء ومساعدين لأنهم أصبحوا وسيلة لسعادتنا وإعلاء كلمة الله في هذا الزمان لكونهم وسطاء لرفيقنا ومشوقين بل حتّى مجبرين لنا لاكتساب المدنيّة))⁽⁹⁾.

لقد بيّن الأستاذ النورسي رحمه الله في كلامه هذا موقفه تجاه الشعوب الأخرى بكلّ وضوح وجرأة، ولم يكتف برفض فكرة العدا للأجانب والشعوب الأخرى بل دعا إلى تكوين العلاقة معهم على أساس الصداقة والاحترام لكونهم قد أفادوا المسلمين في اكتساب المدنيّة والتطوّر العلمي والتقني وما إلى ذلك، فنحن يجب أن لا نبخس الناس أشياءهم لأنّ ذلك يعدّ نوعاً من أنواع الظلم الذي ينهانا الإسلام عنه أشدّ النهي.

ويقول الأستاذ النورسي في كتابه الرائع المثنوي العربي النوري:

((ومدنيّة المؤمنين باطنها أعلى من ظاهرها، ومعناها أتمّ من صورتها، في جوفها أنسيّة وتجب وتعاون، والسرّ: أن المؤمن بسرّ الإيمان والتوحيد يرى أخوة بين كلّ الكائنات، وأنسيّة وتجباً بين أجزائها، لا سيّما بين الآدميين، ولا سيّما بين المؤمنين، ويرى أخوة في الأصل والمبدأ والماضي، وتلاقياً في المنتهى، والنتيجة في المستقبل))⁽¹⁰⁾.

إنّ الأستاذ سعيد النورسي كثيراً ما يتحدّث عن الأخوة الإنسانيّة القائمة بين كافّة بني البشر منطلقاً من قوله صلّى الله عليه وسلّم: (كلّكم لأدم وآدم من تراب)، وبناء عليه فإنّ تلك الأخوة (الأخوة الإنسانيّة) توجب على أولئك الاخوة أن يعطوا تلك الأخوة حقّها، وأن يعيشوا مع بعضهم البعض في حبّ ووثام وسلام رغم اختلاف العقائد والأديان، وحتّى هذه الاختلافات يمكن أن نتحاور معاً حولها بأسلوب لئيم وهادئ دون اللجوء إلى سفك الدماء وانتهاك الأعراض والحرمات، وإكراه بعضنا البعض على تغيير معتقداته الدينيّة، وفي هذا الصدد يقول الأستاذ النورسي: (وأسلوبنا مع غير المسلمين قائم على الإقناع ذلك لأننا نعرف أنهم أشخاص مدنيّون لذا يجب إظهار

الإسلام بشكل محبوب وبشكل سام⁽¹¹⁾، ويقول في كتابه إشارات الإعجاز: (الإقناع هو الوسيلة الوحيدة للتغلب على المدنيين وليس بالإكراه والقوة وكأتهم وحوش)⁽¹²⁾.

الأساس الثاني: عدم النظر إلى الغرب وحضارته بمنظار أسود قاتم.

ابتداءً يجب علينا أن نبتعد عن إطلاق الأحكام الجزافية، والقرارات المسبقة، والقناعات المتبورة عن الأدلة والبراهين الدامغة، فالذي يلبس نظارة سوداء يرى كل شيء أمام عينيه أسود رغم اختلاف ألوانها وأشكالها، وكذلك الحال بالنسبة لنظرتنا إلى الغرب وحضارته إذ يجب علينا أن ننظر إليها على حقيقتها وأن نميز بين النافع والضار، والإيجابي والسلبي، والجيد والرديء، وإذا رجعنا إلى رسائل النور لرأينا أنه كان للأستاذ سعيد النورسي رحمه الله موقفاً واضحاً وعادلاً تجاه الغرب وحضارته حيث قسّم الحضارة الأوروبيّة إلى قسمين:

أولاً: الحضارة الأوروبيّة النافعة التي لا بأس من الاستفادة منها وتبنيها.

ثانياً: الحضارة الأوروبيّة الضارة وهي التي يجب الابتعاد عنها ولا يجوز تبنيها.

يقول الأستاذ النورسي في اللمعة السابعة عشرة من كتابه اللمعات: (ولئلا يساء الفهم لا بدّ أن ننبه أن أوربا اثنتان:

أحدها: هي أوربا النافعة للبشريّة بما استفاضت من النصرانيّة الحقّة وأدت خدمات لحياة الإنسان الاجتماعيّة بما توصلت إليه من صناعات وعلوم تخدم العدل والإنصاف فلا أحاطب في هذه المحاوره هذا القسم من أوربا، وإنما أحاطب أوربا الثانية: تلك التي تعفنت بظلمات الفلسفة الطبيعيّة وفسدت بالمادية الجاسية، وحسبت سيئات الحضارة حسناً لها، وتوهمت مساوئها فضائل فسأقت البشريّة إلى السفاهة وأردتها الضلالة والتعاسة)⁽¹³⁾.

يرى الأستاذ سعيد النورسي أنه لا بأس من أن يستفيد المسلمون من التقدم العلمي والتكنولوجي والمخترعات التي اخترعها الأوروبيون، بل يبحث المسلمون لكي يسلكوا مسلكهم في ذلك، بل والتفوق عليهم إن أمكن، أما التشبث بقشور الحضارة الأوروبيّة

واتباعهم في الأمور السلبية والتي لا مصلحة لهم فيها فيرفضها الأستاذ النورسي ويحذر من التقرب منها.

لا بد لنا من أن نقف تجاه الحضارة الغربية وقفة إسلامية صحيحة وذلك باتخاذ موقف وسط منها بحيث لا نرفضها جملة وتفصيلاً كما يراه البعض، ولا نقبلها بحذافيرها كما يريد ويدعو إليه آخرون، بل يجب علينا تصنيف مفرداتها، والأخذ بالجوانب الإيجابية التي يمكن أن نخدمنا في أمورنا الحياتية من العلوم التطبيقية، والتجارب العلمية، والتقنيات الحديثة، أما الجوانب السلبية كالأخلاق السيئة لديهم، والنظريات الفكرية المنحرفة، والمسائل الثقافية _حسب زعمهم_ فينبغي علينا تجنبها لأن فيها خطورة كبيرة على مجتمعاتنا.

إن التعامل مع الحضارة الغربية يجب أن يتسم بالحذر التام وأن يكون بشكل مخطّط ومدروس، وكذلك ينبغي علينا الابتعاد عن العشوائية في الاستفادة من الحضارة الغربية، وحذر من الظنّ أنه يجب علينا الأخذ بالحضارة الغربية بجلوها ومرّها إذا أردنا أن نحقق تقدماً حضارياً كالذي حقّقه هم، فالذين (اغتربوا فكرياً ومسلِكياً مواظبين على محاكاة الأجنبي كأنهم صبية صغار يقلّدون بأفعالهم عظماء الأفلام وأبطالها، أو من هم أكبر منهم، كل هذه التوجهات ليست طريقاً للتحضّر، لأنّ الحضارة حركة شعب بأكملها استرشاداً بأفكار واضحة، ووصولاً إلى غايات محدّدة... [ثمّ] إنّ ما يصلح من فكر لأوروبّا لا يجدي في صنع التقدّم في مجتمعات أخرى)⁽¹⁴⁾.

الأساس الثالث: التفرقة بين التبعية والتقليد الأعمى للغرب، وبين التفاعل الحضاري بين الإسلام والحضارة الغربية.

إذا كنّا نعتقد بأنّ التلاقح الفكري والتفاعل الحضاري أمر مطلوب وضروري بين الإسلام والحضارة الغربية فإنّ ذلك لا يعني بالضرورة تبعية الإسلام للغرب، وانصهار الأول في الثاني وتقليده في كلّ شيء، ونقل تجربته بحذافيرها إلى العالم الإسلامي فهذا أمر مرفوض ومناف لمبدأ التفاعل الحضاري، فالاستفادة من تجارب الأمم والحضارات الأخرى لا تعني أخذ كلّ ما عندها بحذافيرها، بل لا بدّ من القيام بعملية انتقاء حيث (يستطيع المسلم الناضج الراسخ في إيمانه و علمه: أن يقرأ ما شاء من الفلسفات، و يطّلع

على ما شاء من الثقافات، ومنها الثقافة الغربية الحديثة، ثم يقتبس منها ما يلائم عقيدته ومفاهيمه عن الوجود وعن المعرفة وعن القيم، وما يتفق مع نظرتة إلى الألوهية وإلى الكون والإنسان والحياة والتاريخ⁽¹⁵⁾.

لقد تبّه الأستاذ سعيد النورسي إلى هذه الحقيقة منذ زمن مبكر حيث بين في أكثر من مناسبة موقفه الواضح والصريح من التلاقح الحضاري والفكري بين الإسلام والحضارة الغربيّة، وأنّ على المسلمين أن ينتقوا أحسن ما عندهم دون أن يأخذوا برديتها وسيئاتها.

أمّا بالنسبة للدراسة في الجامعات الغربيّة فينبغي أن نكون حذرين في اختيار الطلبة المبتعثين إلى تلك الجامعات، وكذلك يجب الاقتصاد على إرسال الطلبة إلى الدراسات العلميّة والتجريبية البحتة دون الدراسات الإنسانيّة لأنّ فيها مجالاً واسعاً للتأثير على الطلبة من الناحية الفكرية وغرس مبادئ الفكر المادي في عقولهم، وتشويه صورة الإسلام والفكر الإسلامي لديهم، يقول الأستاذ النورسي: (وبناء على ما سبق ما ينبغي أن ننخدع بل نجعل القاعدة الآتية دستور عمل لنا وهي: "خذ ما صفا دع ما كدر" وفي ضوءها سنأخذ من الأجنب - مشكورين - كل ما يعين على الرقي المدني من علوم وصناعات، أمّا العادات والأخلاق السيئة فهي ذنوب المدنيّة ومساوئها التي لا يتبين قبحها كثيراً لكونها محاطة بمحاسن المدنيّة الكثيرة، فنحن لو أخذنا منهم بسوء حظنا وسوء اختيارنا بما يوافق الهوى والشهوات كالأطفال تاركين محاسنها التي تحتاج إلى بذل الجهد للحصول عليها نكون موضع سخريّة كالمخانيث⁽¹⁶⁾ أو كالمترجّلات⁽¹⁷⁾... ينبغي لنا الاقتداء باليابانيين في المدنيّة، لأنّهم حافظوا على تقاليدهم القوميّة التي هي قوام بقائهم، وأخذوا بمحاسن المدنيّة من أوروبا، وحيث أنّ عاداتنا القوميّة ناشئة من الإسلام وتزدهر به فالضرورة تقتضي الاعتصام بالإسلام⁽¹⁸⁾).

من خلال قراءة متأنية ودقيقة لكلام الأستاذ النورسي الآنف الذكر بإمكاننا التوصل إلى جملة أمور منها:

أولاً: لقد وضع الأستاذ النورسي قاعدة مهمّة جدّاً يمكن الاعتماد عليها أثناء التعاطي مع الحضارات الأخرى "خذ ما صفا دع ما كدر" إنّه كلام مختصر جدّاً ولكن الاعتماد

والتعويل عليه بإمكانه أن يؤدّي بالمسلم إلى برّ الأمان وهو يتعامل مع ذلك الآخر الحضاري.

ثانياً: لقد أشار الأستاذ النورسي في كلامه إلى أننا عندما نأخذ من الأجانب ما نراه مفيداً لنا، وما من شأنه أن يعيننا على الرقي المدني والعلمي.. نأخذه منهم مشكورين، وهذه مسألة في غاية الأهمية لأنّ المسلم يجب أن يكون وقياً وشاكراً لمن أسدى إليه معروفاً والرسول صلّى الله عليه وسلّم يقول: ((لا يشكر الله من لا يشكر الناس)).

كما ينبغي علينا أن لا ننسى بأن العلم ليس حكراً على أحد، وليس عيباً أن تستفيد أمة من الأمم من التجارب العلميّة التي توصلت إليها الأمم الأخرى، فإذا كنّا اليوم نأخذ العلم والتكنولوجيا من الأوروبيين يجب أن لا ننسى بأنهم في يوم من الأيام كانوا يتلمذون على أيدي علماء المسلمين للاستفادة من علومهم ومعارفهم التي كانوا يحملونها في ذلك الزمن، وتأييداً لهذه الحقيقة نورد فيما يأتي نصّ الرسالة التي كان قد بعث بها الملك جورج الثاني ملك إنجلترا إلى هشام الثالث خليفة المسلمين في الأندلس، حيث يقول فيها⁽¹⁹⁾.

((من جورج الثاني ملك إنجلترا والغال والسويد والنرويج، إلى الخليفة ملك المسلمين في مملكة الأندلس، صاحب العظمة هشام الثالث الجليل المقام.

بعد التعظيم والتوقير، نفيديكم أننا سمعنا الرقي العظيم الذي تتمتع بفيضه الصافي معاهد العلم والصناعات في بلادكم العامرة، فأردنا لأبنائنا اقتباس نماذج من هذه الفضائل لتكون بداية حسنة في اقتفاء أثركم لنشر أنوار العلم في بلادنا التي يحيط بها من أركانها الأربعة.

وقد وضعنا ابنة شقيقنا الأميرة (دوبانت) على راس بعثة من بنات الأشراف الإنجليز لتشرّف بلثم أهداب العرش، والتماس العطف، لتكون مع زميلاتها موضع عظيمكم، وحماية الحاشية الكريمة، وحب من لدن اللواتي سيتوفرن على تعليمهن.

وقد زودت الأميرة الصغيرة بمهدية متواضعة لمقامكم الجليل، أرجو التكرم بقبولها مع التعظيم والحب الخالص.

الإمضاء

من خادمتكم المطيع

جورج))

ثالثاً: لقد أشار الأستاذ النورسي إلى حقيقة هامة يجهلها أكثر الناس ويغفلون عنها وهي جهل حقيقة مساوئ المدنيّة الغربيّة، وسبب ذلك كما يراه الأستاذ النورسي هو أن تلك المساوئ محاطة ومغلّفة ومزيّنة بزخارف ومحاسن مدنيّتهم، فعلى سبيل المثال هناك الكثير ممن ينظر إلى أخلاق الغرب من خلال الأجهزة والآلات الإلكترونيّة المتطوّرة التي اخترعوها، وهذه آفة عظيمة، وفيها خطورة كبيرة على المسلم لأنّه يتعامل مع شيء ظاهره يخالف باطنه، كالذي يريد أن يفتح عبوة مفخخة وهي مغلّفة بغطاء لمّاع ومزركش من النوع الذي تغلّف به الهدايا التي يتبادلها الأحبّة في المناسبات دون أن يدري بأن تحت ذلك الغطاء شيئاً خطيراً ربّما يؤدي إلى القضاء عليه أو إصابته بجروح بالغة إذا كان سعيد الحظ.

رابعاً: لقد بيّن الأستاذ النورسي أننا عندما نأخذ بحسنات المدنيّة الغربيّة _ حسب تعبيره _ إنّ ذلك لا يعني أنه يجب علينا أن نأخذ بسيئاتها أيضاً، بل نتركها لهم، وضرب لنا مثلاً واقعياً وهو طريقة تعامل اليابانيين مع الحضارة الأوروبيّة.

وخلاصة الكلام: يرى الأستاذ سعيد النورسي أنّ العلاقة بين الإسلام والحضارة الغربيّة يجب أن تتخذ طابعاً وسطياً، وهذه الوسطيّة نابعة من صميم الشريعة الإسلاميّة، وهي مستقاة من روح النصوص القرآنيّة ونصوص السنّة النبويّة المطهّرة حيث يجب علينا أن نضع مسألة علاقة الإسلام بالحضارة الغربيّة في إطارها الصحيح، بعيداً عن صهر الإسلام في بوتقة الحضارة الغربيّة وتبعيته لها كما يريده البعض، أو رفض الحضارة الغربيّة جملة وتفصيلاً كما يريده آخرون، بل يجب أن تكون العلاقة على أساس التفاهم والحوار والتعاون والتلاقح الحضاري وفي ذلك مصلحة للطرفين.

الهوامش

- (1) سلامة موسى، اليوم والغد، ص212.
- (2) طه حسين، مستقبل الثقافة في مصر، 44.
- (3) طه حسين، مستقبل الثقافة في مصر، ص36.
- (4) محمد محفوظ، الفكر الإسلامي المعاصر ورهانات المستقبل، ص112.
- (5) أبو الأعلى المودودي، موجز تجديد الدين وإحيائه - واقع المسلمين وسبيل النهوض بهم، ترجمة محمد كاظم سباق، ومحمد عاصم الحداد، ص168 - 169.
- (6) البقرة، 143.
- (7) الممتحنة، 8.
- (8) الحجرات، 13.
- (9) بديع الزمان سعيد النورسي، آثار بديعية، ص389.
- (10) بديع الزمان سعيد النورسي، المثنوي العربي النوري، ص181.
- (11) بديع الزمان سعيد النورسي، آثار بديعية، ص379.
- (12) بديع الزمان سعيد النورسي، إشارات الإعجاز، ص53.
- (13) بديع الزمان سعيد النورسي، اللغات، ص176.
- (14) الدكتور أسعد السحمراني، مالك بن نبي مفكراً إسلامياً، ص155.
- (15) الدكتور يوسف القرضاوي، ثقافتنا بين الانغلاق والانفتاح، ص44.
- (16) المخانيث هم أولئك الرجال الذين يتشبهون بالنساء سواء في الملبس، أو في الحركات والكلام وغير ذلك.
- (17) المترجلات هن النساء اللواتي يتشبهن بالرجال سواء في الملبس أو غير ذلك.
- (18) بديع الزمان سعيد النورسي، سيرة ذاتية، ص86.
- (19) الدكتور محمد السيد الوكيل، أسباب ضعف الأمة الإسلامية، ص273.

فكر بديع الزمان النورسي في العدالة في الإسلام في ضوء "رسائل النور"

الدكتور إسماعيل عبد الرحيم شلبي
الأستاذ بكلية الحقوق
جامعة الزقازيق
جمهورية مصر العربية

مقدمة :

منذ أحداث الحادي عشر من سبتمبر عام 2001 بالولايات المتحدة الأمريكية لبس الباطل ثوب الحق وتوالت الهجمات الشرسة على الإسلام والمسلمين. ووصفت التجمعات الإسلامية بالإرهاب وواجهت الأقليات الإسلامية المقيمة في الدول الغربية اعتداءات ومضايقات غير إنسانية وتعالت الأصوات بالمطالبة بطرد المسلمين والعرب من هذه الدول وعودتهم إلى أوطانهم. وقد ظهرت العنصرية على حقيقتها. حيث وصفت الحضارة الإسلامية بأنها حضارة تدعو للإرهاب وفيها من التخلف ما يجعل أصحابها غير متحضرين.

وبات واضحاً أن الغرب بأكمله يجهل تماماً أو يتجاهل حقيقة الإسلام وحقيقة تعاليمه ومبادئه السمحة (ومنها مبدأ العدالة) التي لو اتبعها الجميع لعاشوا في أمن ورخاء ولما احتاج الناس في العالم كله إلى من يهددهم ويخرجهم من الظلمات إلى النور.

إن العدل يعد لدى كل الشعوب والحضارات قيمة من القيم الكبرى التي ينبغي على الإنسان أن يسعى إلى تحقيقها في هذا العالم من أجل خير الإنسان وسعادته.

والإنسان في أصل فطرته الصافية يميل إلى العدل وينفر من الظلم. ولا نعدو قول الحق إذا قلنا أن العدل يعد ضرورة حياتية لا يستطيع الإنسان أن يحيا حياة حقيقية بدونه.

ونظراً لأهمية المبادئ السمحة في الإسلام فإننا سوف نركز على أحد هذه المبادئ الهامة وهي مبدأ العدالة. ولذلك سوف تشمل هذه الدراسة الفصول الآتية:—

الفصل الأول: سوف نلقى فيه الضوء إلى مبدأ العدالة في الإسلام.

الفصل الثاني: سوف نركز فيه على فكر بيدع الزمان النورسي في العدالة في الإسلام في ضوء "رسائل النور".

ثم نقوم بخاتمة هذه الدراسة.

الفصل الأول

العدالة في الإسلام

إن من يطلع على القرآن الكريم والسنة النبوية بقلب مفتوح ويلقى نظرة ولو سريعة على أصول الإسلام وعقائده ومبادئه ومفاهيمه التي يزرعها الكتاب والسنة أو يقرأ التاريخ الإسلامي من مصادره الأصلية ليدرك لأول وهلة أن الإسلام دين العدل والعدالة ودين السماحة والرحمة ويدعو إلى التعارف والتآلف والتآخي والتعاون بين الشعوب والأمم فيما فيه صالح البشرية وتقدمها ورفاهيتها وليس دين حرب وإرهاب وإراقة دماء.

ولما كان الإسلام دين عدالة فإنه جعل من العدالة قوام الدولة وأساسها المتين. حيث أمر بإقامة العدالة بين الناس جميعاً لا فرق بين رجل وامرأة وبين مسلم وذمى وبين أبيض وأسود. فالله سبحانه وتعالى يقول "إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إن الله نعما يعظكم به إن الله كان سمياً بصيراً" (النساء: 58). ويقول الله تعالى "يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنئان قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون"

(المائدة: 8). ويقول الله تعالى "إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون" (النحل: 90).

أليس هناك مثل أروع على العدالة الإسلامية في قول الرسول ﷺ "والله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها"⁽¹⁾.

إن العدالة أساسها المساواة بين الناس في الحقوق والواجبات والمساواة أمام القانون والمساواة في المسئولية المدنية والجنائية وفي استحقاق المكافأة على فعل الخير والعقوبة على فعل الشر⁽²⁾. حيث يقول الرسول ﷺ "لا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي ولا لأحمر على أسود ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى"⁽³⁾.

وقد طبق القضاة المسلمون قواعد العدالة الإسلامية ورعوها أكمل رعاية في كل القضايا التي عرضت عليهم. فأمر المؤمنين علي بن أبي طالب يذهب إلى شريح القاضي ويقول له: إنه وجد درعاً له عند يهودي ويطلب من القاضي أن يحكم له بالدرع ويستشهد بانه الحسن على دعواه. فرد شريح شهادة الحسن قائلاً: إن شهادة الابن لا تجوز للأب. وحكم بالدرع لليهودي، لأنه صاحب اليد عليه. فبهت اليهودي من عدالة الإسلام التي حكمت له ولم تحكم لأمر المؤمنين. فنطق بالشهادتين وأسلم لتوه وأقر بأن الدرع درع علي ورده إليه.

ولقد جاء الأمر بالعدل ومقاومة الظلم في القرآن الكريم صريحاً لا يحتمل التأويل حيث يقول الله تعالى "إن الله يأمر بالعدل" (النساء: 75) كما جاء بالحديث القدسي المشهور عن رسول الله ﷺ "يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا..."⁽⁴⁾.

وهذا الأمر الديني يعزز الجانب الإنساني الذي يرتكز على الطبيعة الإنسانية النقية التي تميل إلى العدل وتنفر من الظلم. وتضافر الجانب الديني مع الجانب العقلي يقوى عزم الإنسان وتصميمه على سلوك سبيل العدل ومقاومة الظلم في شتى صورته وأشكاله.

وطبقاً لتعاليم القرآن الكريم يتجلى العدل في الرحمة الإلهية التي تعم العالم كله بما فيه ومن فيه كما جاء بالقرآن الكريم "ورحمتي وسعت كل شيء" (الأعراف:

156). تلك الرحمة التي لا تفرق بين الناس الذين هم جميعاً خلق الله يحكم بينهم بالعدل ويشملهم برحمته. وكل إنسان مطالب بالسعي إلى إقامة العدل والأمل في تحقّقه من منطلق الرحمة الإلهية.

والإيمان بالعدل والتصميم عليه والأمل في تحقّقه يحرر الإنسان من كل القيود التي تقف عقبه في سبيل توجيهه نحو السلوك العادل⁽⁵⁾.

وعند التأمل في مفهوم العدل يتضح لنا أن للعدل جانبين لا يجوز أن ينفصل أحدهما عن الآخر. فالإنسان من حيث طبيعته ومن حيث هو كائن عاقل - في حاجة إلى العدل يطلبه ويسعى إليه. ولكن هناك وجهاً آخر للعدل يسير جنباً إلى جنب مع حاجة الإنسان له، وطلبه إياه. ونعني بذلك أن العدل نفسه يحتاج إلى الإنسان بوصفه كائناً عاملاً حراً من أجل تحقيقه والعمل على إقراره. فالإنسان بدون العدل لا يستطيع أن يحيا حياة حقيقية على هذه الأرض. والعدل كقيمة مثالية ليست شيئاً دون أن يكون هناك إنسان يعمل على تحقيقها في عالم الواقع. فالعدل ضروري للإنسان مثلما أن الإنسان ضروري لتحقيق العدالة⁽⁶⁾.

والقرآن الكريم يبين لنا المكانة الرفيعة التي يحتلها صاحب السلوك العادل في مقابل هذا الذي لا يرجى منه خيراً فيقول "وضرب الله مثلاً رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شيء وهو كل على مولاه أينما يوجهه لا يأت بخير هل يستوي هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم" (النحل: 76).

إن الله يحب العادلين المقسطين. حيث يقول القرآن "وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط أن الله يحب المقسطين" (المائدة: 42). كما أن رسالة الأنبياء جميعاً ترمي إلى التزام الناس بالعدل وتربيتهم على ذلك. كما يقول القرآن الكريم "لقد أرسلنا رُسُلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط" (الجديد: 25).

ويمكن القول بأن التأكيد على حرية الإنسان كان يتردد في التاريخ الإسلامي دوماً عندما تنطلق الشكوى من العدوان على الحرية والذي كان يحدث بين الحين والآخر. وفي هذا الصدد نورد مثلاً على ذلك في تلك العبارة المشهورة التي أطلقها الخليفة الثاني عمر بن الخطاب في مواجهة العدوان على حرية بعض الأفراد من جانب

بعض أصحاب النفوذ حين قال "متى استعبدم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟". وقد قيل ذلك بمناسبة مشهورة تتصل بوالي مصر عمرو بن العاص في ذلك الوقت. فقد شكوا أحد المصريين والى مصر لدى الخليفة من الظلم الذي تعرض له حيث اعتدى عليه ابن الوالي بالضرب على هذا المصري دون مبرر. وبدلاً من أن ينصف الوالي هذا الرجل أودعه السجن حتى يمنعه من إيصال شكواه إلى الخليفة. وقد استطاع المصري أن يهرب من السجن ويذهب إلى الخليفة ويعرض عليه شكواه. فاستدعى الخليفة الوالي وابنه. وبعد أن تحقق من صحة ما قاله المصري أعطاه عصاة وطلب منه أن يضرب بها ابن الوالي قصاصاً منه لضربه إياه. ففعل المصري ذلك وضرب ابن الوالي. وطلب الخليفة من المصري بعد ذلك أن يضرب الوالي أيضاً ويقتص منه. نظراً لأن ابن الوالي ما كان يستطيع أن يضربه إلا بنفوذ والده. لكن المصري اكتفى بضرب من ضربه. وعقب ذلك قال الخليفة قولته المشهورة "متى استعبدم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟" وذلك مما يؤكد ارتباط العدل بالحرية⁽⁷⁾.

ومن المبادئ الأساسية أن العدل لا يتجزأ ولا يجوز أن يكون متحيزاً أو منحازاً لطائفة معينة أو فريق معين من الناس. وهذا المبدأ هو ما يطالب به القرآن الكريم صراحة ووضوحاً وذلك على الوجه التالي⁽⁸⁾ :-

أولاً : ينبغي على الإنسان أن يلتزم بالعدل حتى في حالة ما إذا كان الأمر يتعلق بشخصه أو والديه أو أقاربه ومحبيه "يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين. إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما. فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً" (النساء: 135).

ثانياً : ينبغي الالتزام بالعدل بين الناس بصرف النظر عن وضعهم الاجتماعي من حيث الغنى أو الفقر أو الجاه أو النفوذ. ولا يجوز أن يكون لذلك أي تأثير على قراراتنا. حيث يقول القرآن الكريم "إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل. إن الله نعماً يعظكم به إن الله كان سميعاً بصيراً" (النساء: 58).

ومن المآثورات الإسلامية في هذا الصدد ما يروى أن أسامة بن زيد قد تشفع لدى النبي ﷺ في أمر العفو عن المرأة المخزومية التي سرقت. وكانت من أسرة لها مكانتها في المجتمع. وقد رفض النبي ذلك رفضاً قاطعاً مؤكداً على ضرورة أن يطبق على الجميع معيار واحد بصرف النظر عن أي اعتبار آخر. وقال قوله المأثورة في حديثه النبوي "إن من كان قبلكم إذا سرق فيهم الضعيف قطعوه. وإذا سرق فيهم القوي تركوه. والله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها"⁽⁹⁾.

ثالثاً: ينبغي الالتزام بالعدل وعدم السير وراء الأهواء والميول أو الأنانية أو الخوف من أصحاب النفوذ أو مشاعر الكراهية إزاء بعض الناس أو بعض الجماعات. حيث يقول الله تعالى في القرآن الكريم "يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنئان قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون" (المائدة: 8).

رابعاً: يتحتم معاملة كل الناس من حيث المبدأ بالعدل والمودة إلا في حالة ما إذا حاربونا بسبب الدين أو أخرجونا من ديارنا أو ناصروا أعداءنا ضدنا. وتلك حالة استثنائية تزول بزوال أسبابها. وفي ذلك يقول القرآن الكريم "لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين. إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم عن دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون" (الممتحنة: 8، 9).

فالمطلوب إذن ليس فقط مجرد عدالة تحكم بل عدالة تعمل بطريقة فعالة على بقاء الإنسانية حية في النفوس وأن تمنح للناس الفرصة ليمارسوا حياتهم في كرامة. فعلى أساس من الشعور بالكرامة واحترام الذات تُبنى أخلاق الإنسان.

والعدل يعلو على مجرد الشرعية. إنه عدل ذلك الإنسان الذي يتصرف بحق بوصفه خليفة الله في الأرض. إنه عدل الإنسان الذي يتقى الله ويعدل لأنه يجب العدل لذاته. وهذا يعني أنه يجب الله، لأن الله هو نفسه العدل المطلق. والإنسان عندما يتجه في

سلوكه إلى خدمة إخوانه في الإنسانية وإلى خدمة العالم الذي يعيش فيه بصفة عامة عن طريق استقامة سلوكه وعدله. فإن ذلك يكون بمثابة عبادة الله تعالى.

الفصل الثاني

فكر بديع الزمان سعيد النورسي في العدالة في الإسلام

في ضوء "رسائل النور"

لقد استمتعت كثيراً بقراءة رسائل النور لبديع الزمان سعيد النورسي في أجزاءها الثمانية وقد استفدت كثيراً بما تحتويه هذه الرسائل من حقائق ومعلومات وبيانات ودروس وعظات وتقاليد خالدة وما لاقاه من مشاكل ومصاعب في حياته. جزاه الله عن ما كتبه وتركه من تراث وقيم في هذه المجالات المختلفة.

ونظراً لاحتواء دراستنا هذه عن فكره بشأن العدالة في الإسلام فقد لاحظت أنه قد تحدث بالكثير عن العدالة في الإسلام وقسمها ونوعها وأعطى الأمثلة التاريخية مجالاً خصباً تأييداً لما ذكره عن العدالة في الإسلام.

هذا وسوف نقوم بإيضاح بعض ما جاء في رسائل النور عن العدالة في الإسلام

وذلك حسب العناوين الآتية :-

- 1- العدالة في الإسلام.
- 2- العدالة المحضة والعدالة النسبية.
- 3- العدالة في الصراع بين الدين والقومية.
- 4- السلام النفسي عند النورسي.
- 5- أسباب فساد الحياة الاجتماعية.

المبحث الأول :

العدالة في الإسلام

يقول بديع الزمان سعيد النورسي بشأن العدالة في الإسلام⁽¹⁰⁾: إن لم تكن تصرفات المؤمن وحركاته وفق الدساتير السامية التي وضعها الحديث الشريف "الحب في الله والبغض في الله"⁽¹¹⁾ والاحتكام إلى أمر الله في الأمور كلها، فالنفاق والشقاق

يسودان. نعم إن الذي لا يهتدي بتلك الدساتير يكون مقترفاً ظلماً في الوقت الذي يردم العدالة.

وقد استدل على ذلك بواقعة أو حادثة ذات عبرة. وهي أنه في إحدى الغزوات الإسلامية كان الإمام علي - رضي الله عنه - يبارز أحد فرسان المشركين فتغلب عليه الإمام وجرحه. فلما أراد الإمام أن يجهز عليه تفل على وجه الإمام. فما كان من الإمام إلا أن أخلى سبيله وانصرف عنه فاستغرب المشرك من هذا العمل. فقال: إلى أين؟ قال الإمام: كنت أقاتلك في سبيل الله فلما فعلت خشيت أن يكون قتلى إياك فيه ثأر لنفسي فأطلقتك لله. فأجابه الكافر: كان الأولى أن تترك فعلي أكثر فتسرع في قتلى. ومادمت تدينون بدين في منتهى السماحة فهو بلا شك دين حق.

وفي حادثة أخرى عزل حاكم مسلم قاضيه لما رأى منه شيئاً من الحدة والغضب أثناء قطعه يد السارق. فما ينبغي لمن ينفذ أمر الله أن يحمل شيئاً من حظ نفسه على المحكوم. بل عليه أن يشفق - من حيث النفس - على حاله دون أن تأخذه رافة في تنفيذ حكم الله. وحيث أن شيئاً من حظ النفس قد اختلط في الأمر مما ينفي العدالة الخالصة فقد عزل القاضي.

ثم تقدم ببناء للأخوة المسلمين قائلاً: إن الإخلاص واسطة الخلاص ووسيلة للنجاة من العذاب. فالعداء والعناد يزعزعان حياة المؤمن المعنوية فتتأذى سلامة عبوديته لله إذ يضيع الإخلاص. ذلك لأن المعاند الذي ينحاز إلى رأيه وجماعته يروم التفوق على خصمه حتى في أعمال البر التي يزاولها. فلا يوفق توفيقاً كاملاً إلى عمل خالص لوجه الله. ثم إنه لا يفوق أيضاً إلى العدالة. إذ يرجع الموالين لرأيه الموافقين له في أحكامه ومعاملاته على غيرهم. وهكذا يضيع أساسان مهمان لبناء البر "الإخلاص والعدالة" بالخصام والعداء.

أيها المؤمنون إن كنتم تريدون حقاً الحياة العزيزة وترفضون الرضوخ لأغلال الذل والهوان فأفيقوا من رقدتكم. وعودوا إلى رشدكم. وادخلوا القلعة الحصينة المقدسة "إنما المؤمنون أخوة" (الحجرات: 10). وحصنوا أنفسكم بها من أيدي أولئك الظلمة

الذين يستغلون خلافاتكم الداخلية. وإلا تعجزون عن الدفاع عن حقوقكم بل حتى عن الحفاظ على حياتكم.

فيا معشر أهل الإيمان: إن قوتكم تذهب أدراج الرياح من جراء أغراضكم الشخصية وأنانيتكم وتحزبكم. فقوة قليلة جداً تتمكن من أن تذيبكم الذل والهلاك. فإن كنتم حقاً مرتبطين بملة الإسلام فاستشهدوا بالدستور النبوي العظيم: "المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً"⁽¹²⁾. وعندها فقط تسلمون من ذل الدنيا وتنجون من شقاء الآخرة.

أما عن رأى بديع الزمان سعيد النورسي عن سيطرة خواص المسلمين واستبدادهم فيقول⁽¹³⁾:-

إن من يشق طريقاً في الحياة الاجتماعية ويؤسس حركة لا يستثمر مساعيه ولن يكون النجاح حليفه في أمور الخير والرقى ما لم تكن الحركة منسجمة مع القوانين الفطرية التي تحكم الكون. بل تكون جميع أعماله في سبيل التخريب والشر. فما دام الانسجام مع قانون الفطرة ضرورياً فإن تنفيذ قانون المساواة المطلوبة لا يمكن إلا بتغيير فطرة البشر ودفح الحكمة الأساسية في خلق النوع البشرى.

نعم إنني من حيث النسب ونمط معيشة الحياة من طبقة العوام. ومن الراضين بالمساواة في الحقوق فكراً ومشرباً. ومن العاملين على رفض سيطرة طبقة الخواص المسلمين بالبرجوازيين واستبدادهم وذلك بمقتضى الرحمة وبموجب العدالة الناشئة عن الإسلام.

لذا فأنا بكل ما أوتيت من قوة بجانب مع العدالة التامة وضد الظلم والسيطرة والتحكم والاستبداد.

بيد أن فطرة النوع البشرى وحكمة خلقه تخالفان قانون المساواة المطلقة إذ الفاطر الحكيم سبحانه كما يستحصل من شيء قليل محاصيل كثيرة ويكتب في صحيفة واحدة كتباً كثيرة. ويجرى بشيء واحد وظائف جمّة. كذلك ينجز بنوع البشر وظائف ألوف الأنواع وذلك إظهاراً لقدرته الكاملة وحكمته التامة. وفي النهاية يقول "لا يمكن بالظلم والجور محو الحقيقة. ارفع القلب إن كنت مقتدرًا من الإنسانية". أو أقول: لا

يمكن بالظلم والجور محو الفضيلة. ارفع الوجدان إن كنت مقتدرًا من الإنسانية. نعم إن الفضيلة المتسمة بالإيمان، كما لا تكون وسيلة للإكراه لا تكون سبباً للاستبداد قطعاً. إذ الإكراه والقسر والتسلط على الآخرين رذيلة ليس إلا. بل إن أهم مشروب لدى أهل الفضيلة هو الاندماج في المجتمع بالعجز والفقر والتواضع. ولقد مضت حياتنا والله الحمد وما زالت كذلك تمشي على وفق هذا المشرب.

وفي ذكره أن العدالة جاءت من اسم الله "العدل أو العادل" قال⁽¹⁴⁾ :

إن العدالة العامة الجارية في الكون النابعة من التجلي الأعظم لاسم "العدل" إنما تدير موازنة عموم الأشياء. وتأمّر البشرية بإقامة العدل.

وإن ذكر الميزان أربع مرات في "سورة الرحمن" إشارة إلى أربعة أنواع من الموازين في أربع مراتب وبيان لأهمية الميزان البالغة ولقيمتها العظمى في الكون. وذلك في قوله تعالى "والسمااء رفعها ووضع الميزان. ألا تطغوا في الميزان. وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان" (الرحمن: 7-9).

فاعلم من هذا أن "العدالة والاقتصاد والطهر" التي هي من حقائق القرآن وديناميات الإسلام ما أشدها إيغالاً في أعماق الحياة الاجتماعية. وما أشدها عراقة وأصالة. وأدرك من هذا مدى قوة ارتباط أحكام القرآن بالكون. وكيف أنها مدت جذوراً عميقة في أغوار الكون فأحاطته بعري وثيقة لا انفصام لها. ثم افهم منها أن إفساد تلك الحقائق ممتنع كامتناع إفساد نظام الكون والإخلال به وتشويه صورته.

وإن عظمة الربوبية التي تظهر دقة متناهية وحساسية فائقة — إذا جاز التعبير — في الرحمة والشفقة والعدالة والحكمة. وكذا الألوهية الباسطة سلطاتها على الوجود كله والتي تريد إظهار كمالها وتعريف نفسها وتجيئها بما زين الكائنات ببدايع صنائعها وبما أسبغ عليها من نعم. هل يمكن أن تسمح — هذه الربوبية العظيمة والألوهية الجليلة — بعدم إقامة الحشر الذي يسبب الخط من قيمة جميع كمالاتها ومن قيمة مخلوقاتها قاطبة؟ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. فمثل هذا الجمال المطلق لا يرضى — بالبدهة — بمثل هذا القبح المطلق.

ثم انظر من خلف التجلي الأعظم لاسم "العدل" تراه يدير جميع الكائنات بموجوداتها ضمن فعالية دائمة بموازينه الدقيقة⁽¹⁵⁾. ومقاييسه الحساسة ومكاييله العادلة بحيث يجعل العقول في حيرة وإعجاب. فلو فقد نجم من الأجرام السماوية توازنه لثانية واحدة. أي إذا انفلت من تجلي اسم (العدل) لحل المهرج والمرج في النجوم كلها ولأدى - لا محالة - إلى حدوث القيامة.

وهكذا فكل دائرة من دوائر الوجود وكل موجود من موجوداتها ابتداء من الدوائر العظيمة - المسماة بدرج التبانة - إلى حركات أصغر الموجودات في الجسم من كريات حمراء وبيض كل منها قد فصل تفصيلاً خاصاً وقدر تقديراً دقيقاً وقيس بمقاييس حساسة. ومنح شكلاً معيناً ووضعاً مخصوصاً بحيث يظهر - كل منها - الطاعة التامة والانقياد المطلق ودينونة كاملة للأوامر الصادرة من الذي يملك أمر "كن فيكون" ابتداء من جيوش النجوم الهائلة المتألثة في الفضاء إلى جيوش الذرات المتناهية في الصغر.

المبحث الثاني :

العدالة المحضة والعدالة الإضافية (النسبية)

أوضح بديع الزمان سعيد النورسي الفرق بين العدالة المحضة والعدالة النسبية وذلك بالإشارة إلى "معركة الجمل" التي دارت رحاها بين سيدنا علي رضي الله عنه وجماعته من جهة، وبين طلحة والزبير وعائشة رضي الله عنهم أجمعين من جهة أخرى، هي معركة بين العدالة المحضة والعدالة الإضافية (النسبية). وتوضيحها كالآتي:

لقد جعل سيدنا علي رضي الله عنه، العدالة المحضة أساساً لسياسته في إدارة دفة الحكم. وسار بمقتضاها على وفق اجتهاده وبمثل ما كان الشيخان يسيران عليه من قبله. أما معارضوه فقد قالوا: إن صفاء القلوب وطهارة النفوس في عهد الشيخين كانا ملائمين وممهدين لكي تنشر العدالة المحضة سلطاتها على المجتمع، إلا أن دخول أقوام متباينة الطبائع والاتجاهات وهم على ضعف الإسلام بمرور الزمن، في هذا المجتمع أدى إلى وضع عوائق مهمة إزاء الرغبة في تطبيق العدالة المحضة، فغدا تطبيقها صعباً، لذا فقد اجتهدوا على أساس العدالة النسبية التي هي اختيار لأهون الشرين⁽¹⁶⁾.

إن قسماً من الصحابة قد ظهوروا في الجهة المخالفة للإمام علي في تلك الفتن نتيجة الأخذ بالعدالة النسبية (الإضافية) واتباعاً للرخصة الشرعية بدلاً من أن يكونوا مع الإمام علي الذي ألزم نفسه الأخذ بالعدالة الحقيقية (المحضة) والأخذ بالعزائم الشرعية مع مسلكه المتسم بالزهد الشديد والاستغناء عن الناس والتقشف، فأولئك الصحابة الكرام قد تركوا مسلك الإمام علي ودخلوا في الصف المخالف له نتيجة هذا الاجتهاد حتى أن "عقيل" وهو أخو الإمام علي و"ابن عباس" الملقب بحجر الأمة كانا في الصف المخالف للإمام لفترة⁽¹⁷⁾. ولأجل كل هذا فقد اتخذ أهل السنة والجماعة القاعدة الأساسية الشرعية وهي عدم جواز فتح أبواب تلك الفتن فقالوا: "من محاسن الشريعة سد أبواب الفتن": وقد طهر الله أدينا فنطهر ألسنتنا⁽¹⁸⁾.

ولكن، لأن المنافسة حول هذين النوعين من الاجتهاد آلت إلى ميدان السياسة، فقد نشبت الحرب بين الطرفين. وحيث أن كل طرف قد توصل إلى اجتهاده بنية خالصة ابتغاء مرضاة الله سبحانه وتعالى ومصلحة الإسلام، ونشبت الحرب نتيجة هذا الاجتهاد الخالص لله، فيصح أن نقول: القاتل والمقتول كلاهما من أهل الجنة، وكلاهما مأجوران مثابان، رغم معرفتنا أن اجتهاد الإمام علي رضي الله عنه كان صواباً وأن اجتهاد مخالفيه بجانب للصواب. وهؤلاء المخالفون ليسوا أهلاً للعقاب الأخروي. إذ المجتهد لله إذا أصاب فله أجران وإن أخطأ فله أجر واحد، أي أنه ينال ثواب بذله الجهد في الاجتهاد، وهو نوع من العبادة، أي هو معذور في خطئه.

أما إيضاح الفرق بين العدالة المحضة والعدالة الإضافية فهو :

أن حق الشخص البريء الواحد لا يبطل لأجل الناس جميعاً، أي أن حقه محفوظ، وهذا المعنى هو الذي تشير إليه الآية الكريمة "من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً" (المائدة: 32) فلا يُضحى بفرد واحد لأجل الحفاظ على سلامة الجميع؛ إذ الحق هو حق ضمن إطار الرحمة الإلهية، فلا يُنظر إلى كونه صغيراً أو كبيراً، لذا لا يُفدى بالصغير لأجل الكبير، ولا بجياة فرد وحقه لأجل سلامة جماعة والحفاظ عليها، إن لم يكن له رضى في الأمر. أما إذا كانت التضحية برضاه ورغبة منه فهي مسألة أخرى.

أما العدالة الإضافية فهي أن الجزء يضحى لأجل سلامة الجميع، فهذه العدالة لا تأخذ حق الفرد بنظر الاعتبار لأجل الجماعة، وإنما تحاول القيام بنوع من عدالة إضافية من حيث الشر الأهون. ولكن إذا كانت العدالة المحضة قابلة للتطبيق فلا يُصار إلى العدالة الإضافية، وإن صار إليها فقد وقع الظلم. فالإمام علي رضي الله عنه قال: إن العدالة المحضة قابلة للتطبيق، كما كان عليه في عهد الشيخين. لذا حاول بناء الخلافة الإسلامية على تلك القاعدة من العدالة المحضة. بينما معارضوه كانوا يقولون إن هذه العدالة المحضة غير قابلة للتطبيق، حيث هناك، عوائق ومشكلات كثيرة تظهر أثناء تطبيقها، فصار اجتهادهم إلى العدالة الإضافية.

أما ما أورده التاريخ من أسباب أخرى فهي ليست أسباباً حقيقية، بل حجج ومبررات واهية.

إن الآية الكريمة "ولا تزر وازرةٌ وزر أخرى" (الأنعام: 164) تفيد العدالة المحضة، أى لا يجوز معاقبة إنسان بجريرة غيره. فترى القرآن الكريم ومصادر الشريعة الأخرى وآداب أهل الحقيقة والحكمة الإسلامية كلها تنبهك إلى: أن إضرار العدا للمؤمن والحق عليه ظلم عظيم، لأنه إدانة لجميع الصفات البريئة التي يتصف بها المؤمن بجريرة صفة جانبية فيه. ولا سيما امتداد العدا إلى أقاربه وذويه بسبب صفة تمتعض منها، فهو ظلم أعظم، كما وصفه القرآن الكريم بالصيغة المبالغة "إن الإنسان لظلوم" (إبراهيم: 34) أفبعد هذا تجد لنفسك مبررات وتدعى أنك على حق؟

فاعلم! أن المفاصد التي هي سبب العدا والبغضاء كثيفة في نظر الحقيقة، كالتراب والشر نفسه، وشأن الكثيف أنه لا يسرى ولا ينعكس إلى الغير - إلا ما يتعلمه الإنسان من شر من الآخرين - بينما البر والإحسان وغيرهما من أسباب الحبة فهي لطيفة كالنور وكالحبة نفسها، ومن شأن النور الانعكاس والسرمان إلى الغير. ومن هنا سار في عداد الأمثال: "صديق الصديق صديق" وتجد الناس يرددون: "لأجل عين ألف عين تكرم".

فيا أيها المحصف! إن كنت تروم الحق، فالحقيقة هي هذه، لذا فإن حملك عدا مع أقارب ذلك الذي تكره صفة فيه، وحقك على ذويه المحبوبين لديه، خلاف للحقيقة وأي خلاف!⁽¹⁹⁾

"من قتل نفساً بغير نفس أو فساداً في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً، ومن أحيانا فكأنما أحيانا الناس جميعاً" (المائدة: 32). هذه الآية الكريمة حق خالص ولا تنافي العقل قطعاً، وهي حقيقة محضة لا مبالغة فيها قط.

تضع أعظم دستور للعدالة المحضة التي تقرر: لا تهدم دم برئ ولا تزهد روحه حتى لو كان في ذلك حياة بشرية جمعاء، فكما أن كلها في نظر القدرة الإلهية سواء فهما في نظر العدالة سواء أيضاً. وكما أن نسبة الجزئيات إلى الكلى واحدة كذلك الحق في ميزان العدالة، النسبة نفسها. ولهذا فليس للحق صغير وكبير.

أما العدالة الإضافية فهي تفدى بالجزء لأجل الكل بشرط أن يكون لذلك الجزء المختار الرضا والاختيار صراحة أو ضمناً، إذ عندما يتحول "أنا" الأفراد إلى "نحن" الجماعة ويمتزج البعض ببعض الآخر مولداً روح الجماعة، يرضى الفرد أن يضحى نفسه للكل⁽²⁰⁾.

إن الإسلام وشريعته الغراء: المالك الحقيقي وصاحب العنوان المعظم .. والمؤثر الحق والمتضمن للعدالة المحضة .. ويحقق نقطة استنادنا .. ويرسى المشروطة على أساس متين .. وينقذ ذوى الأوهام والشكوك من ورطة الحيرة .. ويتكفل بمستقبلنا وآخرتنا .. وينقذكم من التصرف في حقوق الله بدون إذن منه، تلك الحقوق التي تضمن مصالح الناس كافة .. ويحافظ على حياة أمتنا .. ويظهر ثباتنا وكمالنا ويحقق وجودنا أمام الأجانب .. وسحر العقول والأذهان .. وينقذكم من تبعات الدنيا والآخرة .. ويؤسس الاتحاد العام الشامل نهاية المطاف .. ويولد الأفكار العامة (الرأي العام) التي هي روح ذلك الاتحاد .. ويحول دون دخول مفساد المدنية إلى حدود حريتنا ومدنيتنا .. وينجينا من ذل التسول من أوروبا .. ويطوى لنا المسافة الشاسعة التي تخلفنا فيها عن الرقى في زمان قصير بناءً على سر الإعجاز .. ويرفع من شأننا في زمن قصير بتوحيد العرب والطوران وإيران والساميين .. ويظهر الشخصية المعنوية للدولة بمظهر الإسلام⁽²¹⁾.

إن الدستور الغادر للسياسيين الظلمة الذين هو: "يضحى بالفرد لأجل الجماعة" له وقائع وأحداث قاسية ظالمة تحت اسم "أهون الشرين" الذي اتخذ بعض الحكام نوعاً من أنواع العدالة الإضافية (النسبية) وأبرزوه لمصلحة إدامة حكمهم⁽²²⁾.

حتى في هذا العصر. بموجب هذا الدستور الغادر يفنى أحدهم قرية كاملة بخطأ شخص واحد فيها، ويهلك ألوف الناس لتوهم ضرر قد يلحق بسياساتهم من جراء معارضة عشرة أشخاص.

وحيث أن هذا الدستور الغادر للسياسة قد دخل إلى حد ما بين المسلمين في العصور الإسلامية، فقد أثر السلف الصالحون السكوت - مضطرين - أمام هذه الدساتير الرهيبة، فسد أئمة أهل السنة والجماعة تلك الأبواب بقولهم: طهر الله أيدينا فنطهر ألسنتنا.

المبحث الثالث :

العدالة في الصراع بين الدين والقومية

لقد اعتمد الأمويون على جنس العرب في تقوية الدولة الإسلامية، وقدموهم على غيرهم، أي فضلوا رابطة القومية على رابطة الإسلام فأضروا من جهتين⁽²³⁾:

الأولى: آذوا الأقوام الأخرى بنظرهم هذه، فولدوا فيهم الكراهية والنفور.

الثانية: أن الأسس المتبعة في القومية والعنصرية أسس ظالمة لا تتبع العدالة ولا توافق الحق، إذ لا تسير تلك الأسس على وفق العدالة، لأن الحاكم العنصري يفضل من هم بنو جنسه على غيرهم، فأنى له أن يبلغ العدالة! بينما (الإسلام يجب ما قبله)⁽²⁴⁾ من عصبية جاهلية، لا فرق بين عبد حبشي وسيد قرشي إذا أسلما⁽²⁵⁾. فلا يمكن إقامة رابطة القومية بدلاً من رابطة الدين في ضوء هذا الأمر الجازم. إذ لا تكون هناك عدالة قط وإنما تمدر الحقوق ويضيع الإنصاف.

وهكذا فإن سيدنا الحسين رضى الله عنه قد تمسك برابطة الدين، وهو محق في ذلك، لذا قاوم الأمويين حتى رزق مرتبة الشهادة.

وإذا قيل: لم لم ينجح سيدنا الحسين رضى الله عنه في مسعاه رغم أنه كان على حق وصواب؟ وكيف سمحة الرحمة الإلهية والقدر الإلهي أن تكون عاقبته وعاقبة آل بيته فاجعة أليمة؟

الجواب: إذا استثنينا المقربين من سيدنا الحسين رضي الله عنه، نجد أن الأقوام المختلفة الذين التحقوا بهم هم ممن أصيب غرورهم القومي بجروح بيد العرب المسلمين، فهم يضمرون ثأراً تجاههم، مما كدر صفاء النية ونقاءها التي كان يتحلى بها مسلك الحسين ومن معه، وأدى تعكر ذلك الصفاء وخفوت سطوع ذلك النهج القويم إلى تقهقرهم أمام أولئك.

أما حكمة تلك الحادثة المؤلمة من زاوية نظر القدر الإلهي فهي: أن الحسن والحسين رضي الله عنهما وذويهما ونسلهما كانوا مرشحين لسلطنة معنوية ومؤهلين لتسليم مرتبة سامية معنوية. ولما كان الجمع بين سلطنة الدنيا وتلك السلطنة المعنوية من الصعوبة بمكان، لذا جعلهم القدر الإلهي يُعرضون عن الدنيا، وأظهر لهم وجه الدنيا الدميم، لئلا تبقى لهم علاقة قلبية مع الدنيا، ودفعهم إلى أن ينفضوا أيديهم من سلطنة صورية دنيوية مؤقتة زائلة، بينما عينهم لتسليم الأمور لدى سلطنة معنوية سامية دائمة، فأصبحوا مرجعاً لأقطاب الأولياء بدلاً من أن يكونوا مرجعاً للولاة الاعتياديين.

أما سؤالكم: عن الحكمة في المصيبة الأليمة والمعاملة الظالمة التي أصابت أولئك الظاهرين الميامين؟

الجواب: هناك ثلاثة أسس كان معارضو سيدنا الحسين رضي الله عنه وهم الأمويون يسرون عليها والتي أدت إلى ارتكاب تلك المظالم والمعاملات القاسية:

الأول: هو دستور السياسة الظالم ومؤداه؛ أن الأشخاص يضحى بهم في سبيل الحفاظ على الدولة واستتباب النظام في البلاد.

الثاني: كانت دولتهم تستند إلى القومية والعنصرية، وكان الحاكم المهيمن على الأمور قانون القومية الظالم وهو: "كل شيء يضحى في سبيل الحفاظ على سلامة الأمة".

الثالث: تأصل عرق المنافسة لدى الأمويين منذ مدة طويلة تجاه الهاشميين، فظهر في يزيد وأمثاله، مما سبب تفجر استعدادات ظالمة قاسية لا رحمة فيها ولا رأفة.

وهناك سبب رابع وهو الذي يَخُص الذين انضموا إلى صف سيدنا الحسين رضي الله عنه، وهو أن اعتماد الأمويين على قومية العرب وحدهم في إدارة شؤون الدولة، ونظرهم المتعالية على سائر الأقوام كأنهم عبيد لديهم وتسميتهم بالموالي، أصاب غرور أولئك، مما دفعهم إلى الالتحاق بصف سيدنا الحسين، وهم يحملون نية غير خالصة لله. وهى نية أساسها دافع الثأر. هذا الأمر هيج العصبية القومية لدى الأمويين فأدى بهم الأمر إلى ارتكاب تلك الفاجعة الأليمة التي لا تجد فيها رحمة ولا عطفاً ولا رأفة.

هذه الأسباب الأربعة المذكورة: هي أسباب ظاهرية. إلا أننا إذا نظرنا إلى الأمر من زاوية القدر الإلهي نجد أن سيدنا الحسين وذويه رضي الله عنهم قد أحرزوا نتائج أخروية وسلطنة روحية ورقياً معنوياً، من جراء تلك الفاجعة الأليمة، بحيث تكون تلك الآلام والصعوبات التي لاقوها في تلك الحادثة الأليمة زهيدة ويسيرة تجاه تلك المنازل الرفيعة التي حظوا بها. فمثلاً: إن الذي يستشهد نتيجة تعذيب يستغرق ساعة يغنم من المراتب العالية والدرجات السامية للشهادة ما لا يمكن أن يحصل عليها من يسعى بجهد متواصل خلال عشر سنين. فلو سئل ذلك الشهيد بعد فوزه بدرجة الشهادة عن ذلك التعذيب لأجاب: لقد فزت كثيراً جداً بشيء يسير جداً.

المبحث الرابع :

السلام النفسي عند النورسي

واجه بديع الزمان سعيد النورسي الكثير من المشاكل والمصاعب فسأله البعض من الأصدقاء بأنه رغم ما يواجهه من مشاكل ومصاعب يلاحظون راحته النفسية ويستغربون من إثارة الصمت والتحلي بالصبر تجاه كل المصائب التي تنزل به. رغم أنه كان قبل ذلك شديد الغضب لا يرى أن يمس أحد عزته ولا يتحمل أدنى إهانة. فكان رده كالآتي :-

قبل سنتين ذكر مدير مسئول في غيايي كلمات ملفقة فيها إهانة وتحقير لى، دون سبب ومبرر. ونُقل الكلام إلى، تأملت ما يقرب من ساعة بأحاسيس سعيد القديم. ثم وردت برحمته سبحانه وتعالى إلى القلب حقيقة أزال ذلك الضيق، ودفعتني لأصفح عن ذلك الشخص. والحقيقة هى:

قلت لنفسى: إن كان تحقيره وما أورده من نقائص تخص شخصي ونفسي بالذات، فليرض الله عنه إذ أطلعني على عيوب نفسي. فإن كان صادقاً، فسوف يسوقني اعتراضه إلى تربية نفسي الأمانة وتأديتها، فهو إذاً يعاونني في النجاة من الغرور. وإن كان كاذباً، فهو عون لي أيضاً للخلاص من الرياء، ومن الشهرة الكاذبة التي هي أساس الرياء. نعم! إنني لم أصالح نفسي قط، لأنني لم أربها. فإن نبهني أحد على وجود عقرب في أي جزء من جسمي، على أن أرضى عنه، لا أمتعض منه.

أما إن كانت إهانته تعود لصفة كوني خادماً للإيمان والقرآن، فتلك لا تعود لي، فأحيل ذلك الشخص إلى صاحب القرآن الذي استخدمني في هذه المهمة، فهو عزيز حكيم.

وإن كان كلامه لأجل تحقيري وإهانة شخصي بالذات والخط من شأني، فهذا أيضاً لا يخصني، لأنني أسير مكبل وغريب في هذا البلد، فالدفاع عن كرامتي ليس لي فيه نصيب، بل يخص من يحكم هذه القرية ثم القضاء ثم المحافظة التي أنا ضيف لديهم. إذ إن إهانة أسير تعود إلى مالكه، فهو الذي يدافع عنه.

فاطمأن القلب بهذه الحقيقة، وتلوت: "وأفوض أمري إلى الله إن الله بصير بالعباد" (غافر: 44) وأهملت الحادثة واعتبرتها لم تقع، ونسيتها. ولكن تبين بعدئذ - مع الأسف - أن القرآن لم يتجاوز عنه، فعاقبه⁽²⁶⁾.

وفي واقعة أخرى طرق سمعي في هذه السنة أن حادثة وقعت، وقد سمعتها بعد وقوعها إجمالاً فحسب، لكنني لقيت معاملة كأنني ذا علاقة قوية بالحادثة. علماً أنني ما كنت أرسل أحداً، وما كنت أكتب رسالة إلا نادراً إلى صديق وحول مسألة إيمانية، بل لم أكتب حتى لشقيقي إلا رسالة واحدة خلال أربع سنوات. فكنت أمتنع نفسي عن مخالطة الناس والاتصال بهم، فضلاً عن أن أهل الدنيا كانوا يمنعونني عن ذلك. فما كنت ألقى إلا واحداً أو اثنين من الأحباب خلال أسبوع، مرة أو مرتين. أما الضيوف القادمون إلى القرية، وهم آحاد لا يزيدون عن واحد أو اثنين فكانوا يلقونني دقيقة أو دقيقتين، خلال شهر، ولمسألة أخروية. كنت على هذه الحالة من الاغتراب، وقد مُنعت عن كل الناس، عن كل شيء، وبقيت وحيداً غريباً، لا قريب لي، في قرية ليس فيها ما

يلائم مكسب نفقتي. حتى أنني قبل أربع سنوات، عمرت مسجداً حرباً وقمت فيه بالإمامة لأربع سنوات (نسأل الله القبول) حيث أحمل شهادة الإمامة والوعظ، من بلدي. ومع هذا لم أستطع الذهاب إلى المسجد في شهر رمضان الفائت. فصليت أحياناً منفرداً وحُرمت من ثواب الجماعة البالغ خمساً وعشرين ضعفاً.

فتجاه هاتين الحادثتين اللتين مرتا بي أظهرتُ صبراً وتحملاً مثلما أظهرته قبل سنتين إزاء معاملة ذلك المسئول. وسأستمر على هذا الصبر والتحمل بإذن الله.

والذي يدور في خلدي وأريد أن أقوله هو:

أن العنت الذي يذيقني إياه أهل الدنيا. والأذى والتضييق عليّ منهم، إن كان تجاه نفسي القاصرة المملوطة بالعيوب فإنني أعفو عنهم، لعلّ نفسي تصلح من شأنها بهذا التعذيب فيكون كفارة لذنوبها. فلئن قاسيت من أذى في هذه الدنيا المضيقة، فأنا شاكر ربي، إذ قد رأيت بمجتها ومتعتها.

ولكن إن كان أهل الدنيا يذيقوني العذاب لقيامي بخدمة الإيمان والقرآن، فالدفاع عن هذا ليس من شأني وإنما أحيله إلى العزيز الجبار.

وإن كان المراد من ذلك التضييق إفساد توجه الناس إلىّ والحيلولة دون إقبالهم عليّ، أي للحد من الشهرة الكاذبة التي لا أساس لها، بل هي السبب في الرياء وإفساد الإخلاص فعليهم إذاً رحمة الله وبركاته لأني أعتقد أن كسب الشهرة وإقبال الناس ضار لأشخاص مثلي. والذين لهم علاقة معي يعرفونني جيداً: أنني لا أقبل الاحترام لنفسي. بل أنفر منه حتى أن صديقاً فاضلاً عزيزاً عليّ قد هزته أكثر من خمسين مرة لشدة احترامه لي.

ولكن إن كان قصدهم من التهوين من شأني وإسقاطي في أعين الناس يخص الحقائق الإيمانية والقرآنية التي أقوم بتبليغها فعبثاً يحاولون لأن نجوم القرآن لا تسدل بشيء. فمن يغمض عينه يجعل نهاره ليلاً لا نهار غيره.

المبحث الخامس :

ما يفسد الحياة الاجتماعية للإنسان

إن ما يفسد الحياة الاجتماعية للإنسان هي الدسيسة الشيطانية الآتية: أنه يحجب بسيئة واحدة للمؤمن جميع حسناته. فالذين يلقون السمع إلى هذا الكيد الشيطاني من غير المنصفين يعادون المؤمن. بينما الله سبحانه وتعالى عندما يزن أعمال المكلفين بميزانه الأكبر وبعدائه المطلقة يوم الحشر فإنه يحكم من حيث رجحان الحسنات أو السيئات. وقد يحسو بحسنة واحدة ويذهب ذنوباً كثيرة. حيث أن ارتكاب السيئات والآثام سهل ويسير ووسائلها كثيرة. فينبغي إذاً التعامل في هذه الدنيا والقياس بمثل ميزان العدل الإلهي، فإن كانت حسنات شخص أكثر من سيئاته كمية أو نوعية فإنه يستحق المحبة والاحترام. وربما يُنظر إلى كثير من سيئاته بعين العفو والمغفرة والتجاوز لحسنة واحدة ذات نوعية خاصة.

غير أن الإنسان ينسى، بتلقين من الشيطان، وبما يكمن من الظلم في جبلته، مئات من حسنات أخيه المؤمن لأجل سيئة واحدة بدرت منه فيبدأ بمعاداته، ويدخل في الآثام. فكما أن وضع جناح بعوضة أمام العين مباشرة يحجب رؤية جبل شاهق، فالحقد كذلك يجعل السيئة - التي هي بحجم جناح بعوضة - تحجب رؤية حسنات كالجبل الشامخ، فينسى الإنسان حينذاك ذكر الحسنات ويبدأ بعداء أخيه المؤمن، ويصبح عضواً فاسداً وآلة تدمير في حياة المؤمنين الاجتماعية.

وهناك دسيسة أخرى مشابهة لهذه ومماثلة لها في إفساد سلامة تفكير المؤمن والإخلال باستقامتها وبصحة النظرة إلى الحقائق الإيمانية وهي أنه يحاول إبطال حكم مئات الدلائل الثبوتية - حول حقيقة إيمانية - بشبهة تدل على نفيها. علماً أن القاعدة هي: أن دليلاً واحداً ثبوتياً يرجح على كثير من النفي، وأن حكماً لشاهد ثبوتي واحد لدعوى، يؤخذ به ويرجح على مائة من المنكرين النافين.

الخاتمة :

تلك نبذة بسيطة عن ما ذكره بديع الزمان سعيد النورسي بفكره الخالص لوجه الله عن العدالة في الإسلام. وهذه قطرة في بحر كبير تطرق لها هذا المفكر الإسلامي في رسائل النور، نرجو من الله أن تكتب في حسناته وأن يستفيد منها جميع الخلق من الأمة الإسلامية. ولولا أن المسئولين عن هذا المؤتمر قد حددوا عدد معين من الصفحات لكنت قد استرسلت في الكتابة بأعداد مضاعفة ممن كتبه وسطره هذا العالم الفاضل. جزاه الله عنا خير الجزاء فيما كتبه وسطره وتركه من تراث إسلامي ومما لاقاه من عذاب ومصاعب ومضايقات في حياته الدنيا.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ..

الهوامش

- (1) مسند أحمد 213/4، 199/8 - مسلم (الحدود).
- (2) مأمون عبد القيوم - الإسلام دين العدالة والسماحة والرحمة - دراسة مقدمة للمؤتمر الثاني عشر لمجمع البحوث الإسلامية - 2002/4/16.
- (3) مسند أحمد 411/5، 199/8 - مجمع 84/8.
- (4) صحيح مسلم (البر والصلة والآداب) باب 15 رقم 2725/55.
- (5) د. محمود زقزوق - مفهوم العدل في القصور الإسلامي - دراسة مقدمة للمؤتمر الثاني عشر لمجمع البحوث الإسلامية - القاهرة 2002/4/16.
- (6) د. محمود زقزوق - المرجع السابق - ص 733.
- (7) راجع: علي الطنطاوي وآخرين: أخبار عمر - ص 182 وما بعدها - دمشق 1959م.
- (8) د. محمود زقزوق - مرجع سابق - ص 741-742.
- (9) رواه الإمام مسلم 1315/3.
- (10) انظر: رسائل النور الجزء الثاني، ص 348.
- (11) رواه مسلم والبخاري في كتاب الإيمان - المترجم.
- (12) أخرجه البخاري: وكان سعيد النورسي يخطب في الأمة الإسلامية اليوم بهذه الكلمات الطيبة لشحن الأمة الإسلامية على الوحدة والاتحاد بدلاً مما هي فيه من شرزمة وفرقة.
- (13) انظر: رسائل النور - الجزء الثالث - ص 357-359.
- (14) انظر: رسائل النور - الجزء الثالث - ص 526، 527.
- (15) رسائل النور - الجزء الثالث - ص 592.
- (16) رسائل النور - الجزء الثاني - ص 66-67.

-
- (17) رسائل النور - الجزء السابع - ص 299.
- (18) "طهر الله أيدينا فنظهر ألسنتنا" من قول عمر بن عبد العزيز، انظر اليواقيت والجواهر للشعراني 69/2 وشرح جوهرة التوحيد للباجوري 334 - المترجم.
- (19) رسائل النور - الجزء الثاني - ص 342.
- (20) رسائل النور - الجزء الثامن - ص 337.
- (21) رسائل النور - الجزء الثامن - ص 525.
- (22) رسائل النور - الجزء السابع - ص 301.
- (23) رسائل النور - الجزء الثاني - ص 68-70.
- (24) رواه ابن سعد في طبقاته عن الزبير وجبير ابن مطعم، ورواه أحمد والطبراني عن عمرو بن العاص. (كشف الخفاء 127/1) - المترجم.
- (25) وردت أحاديث كثيرة عن النهي عن دعوى الجاهلية. انظر البخاري كتاب الجنائز والمناقب وتفسير القرآن ومسند أحمد 338/3 و 385، 130/4 و 202، 344/5 ومسند الطيالسي (1162).
- (26) رسائل النور - الجزء الثاني - ص 80-82.

السلام والعدالة الاجتماعية في الإسلام من منظور النورسي

الدكتور عبد السلام أقليمون
جامعة ابن زهر
أكادير/المغرب

"لذا فأنا بكل ما أوتيت من قوة بجانب العدالة النامة، وضد الظلم والسيطرة
والتحكم والاستبداد"

بديع الزمان سعيد النورسي

1- مقدمة:

إن الإسلام دين اشتق معناه من السلام، وهذا السلام بدوره شعاع من نور الله كما يرى النورسي، ولا بد لحياة ترغب في أن تستهدي بنور الله وتريد إسقاط أشعة السلام على محيطها العام أن تجعل ذلك النور المنبثق من اسم الله مناسبا لدلالته ومعناه. ومن معانيه أن يجد الإنسان توازنا في حياته الفردية عبر اعتدال الميزان الاجتماعي. وإلا فإن كل المطالب الأخلاقية المغرقة في الفردانية والوعظ الشخصي تنسى أن الإسلام دين اجتماعي كما هو دين فردي وخلص للناس في منظومة قيمهم التشاركية كما هو تخلص للفرد.

لا يمكن أن يستقر السلام والوثام الاجتماعيين على أساس فردي مع استهتار اجتماعي، يستن بالحيف والهضم ويدعو إلى تركية الأفراد خارج أنساقهم الاجتماعية.

إن بديع الزمان النورسي يقدم تصورات علمية وإيمانية تصلح لكي تكون أرضية

جديدة لصياغة منظومة قيمية إسلامية تفتح إلى السلم عبر تحرير الذات من شروط الاستعباد الذاتي والموضوعي، وتحرير المجتمع من سادية الاستعلاء والاستغلال. وهي مدخل لم يتمكن الفقه الإسلامي الجزئي من تجليتها وتسويقها عالميا بحكم انشغاله الكبير والطويل بجزء من الدين، وانشغاله عن أجزاء أخرى اكتشفتها المدنية الحديثة فيما يسميه النورسي أوروبا المؤمنة. وهذا المنظور في الاعتراف بالمشارك الإنساني فرصة حقيقية - الآن- لتجسير العلاقة بين العالمين الإسلامي والغربي.

إن القدرة على الربط بين قيم الإسلام السامية المستوحاة من دستور خالد قائم على ميزان العدل ومقيما لميزان العدل ، وبين حقائق تستنتجها البشرية في كدحها العقلي والطويل والمنصف أحيانا نابعة عند النورسي من تشبعه الكبير بقيم القرآن الكريم، ومعاشته الاستثنائية لمعانيه، بما أهله -بما يشبه السليقة- على أن يترجم تلك المعاني وأن ييسر تلك الدلالات، بما يترجم المعنى الأصيل لصفة "الكريم" الملازمة لقرآن رب العالمين. فهو كريم من حيث سخاؤه اللامتناهي في تزويد العقول -بمختلف درجاتها- بما تحتاجه من مؤهلات ودروس ودلائل... لمعرفة العالم وإحسان قراءته.

ومن العناصر التي تجعل كتابات النورسي تحظى بجرارة "الراهنية"، بما هي تبعد مستمر ومعانقة دائمة لمستجدات الظرف البشري، التصاقه الدائم بمرجعية قرآنية، واستمداده من معين خلودها الأبدي الهادي.

وبتحكيم هذا الأصل الكبير، نستطيع أن نحفر في رسائل النور، لنبعث بواسطتها الوعي ببعض القضايا الراهنة. وفي هذا المستوى بالذات يكون سعيد النورسي بحكم نشأته في فضاء مصائب للحضارة الغربية، ومعاشته لتجلياتها الثقافية... أقدر على تفكيك رموز هذه الحضارة المتمادية في توسعها المادي لتغطية أركان العالم كله باسمها/ العولمة. أي الرغبة في طي الثقافات كلها تحت جناح الثقافة الغربية، بما هي في زعمهم أرقى ما انتهى إليه العقل البشري في رحلة تطوره المشهود. لهذا توقف كثيرا- كما سنرى- ليوازن بين رؤية القرآن الكريم ورؤية أوروبا إلى الحياة. وهو أيضا أقدر على مجابهة هذه الأفكار، لكونه يحمل منظورا حضاريا عالميا بديلا ، يستطيع أن يستوعب مختلف النوعيات الثقافية، في خطابه الآدمي المتعالي عن كل تمييز أو استكبار. إنها إذا مجابهة بين

عولة قيمة أخلاقية تتخذ من المسجد فضاء أمودجا ترغب في تعميم سماته على العالم/باسم الله، وبين عولة تتبنى قيم السوق الربحية المادية وتطمح إلى توسيع المدى الكبير لمكتسباتها لصالح الإنسان الغربي/باسم القوة .

إنها موازنة بين حضارة تدعو إلى نفسها محتجة بصنائعها وإبداعاتها، معترزة بما في يمينها من مكتسبات مادية تحاول إرغام البشرية على تشربها، وبين حضارة تدعو إلى ربها معترفة بأنعمه التي يظهرها على يد من يشاء من عباده، محاولة أن تقنع البشرية كلها بالاستجابة لداعي الكسب الذي يؤجر عليه... لذلك ينشأ تدافع حضاري قوي تارة وخفي تارة أخرى. لكن النورسي في تأملاته البديعة وتفرغه لتلك العلاقات الناجمة عن مفهوميين وتصوريين وحركتين يحاول أن يجترح مسلكا خاصا منسجما مع الرؤية الإيمانية، تلك التي تتعالى على الظرفيات والعصبية والجغرافيات والأنايات... تلك التي تسعى وتبذل وتنفع... وهذه الرؤيا هي قوام تنشئة حضارية بديلة يمكن أن تقتاد البشرية، إلى العدالة والسلام أي إلى الآية الكريمة:

"وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان" المائدة 3.

2 مفاهيم ودلالات :

من خصائص النورسي المنهجية، محاولة بناء كليات عامة تطرد بها جزئيات كثيرة. لهذا فهو لا يلتفت للحالات الخاصة إلا من باب ضرب المثل أو تأكيد مقاصده الكلية. وسبب ذلك هو أن "الخطاب النوري" متشرب في جوهره للآليات القرآنية التي لا تحتفل في النهاية إلا بكل ما هو إنساني وبشري وعمام. وهذا نفسه مظهر من مظاهر العدالة في الخطاب الإسلامي. فالإسلام لا يعترف بالعنصرية والعصبية، ويدعو البشرية إلى روابط محايدة :

" إن الأسس المتبعة في القومية والعنصرية أسس ظالمة لا تتبع العدالة ولا توافق الحق، إذ لا تسير تلك الأسس على وفق العدالة، لأن الحاكم العنصري يفضل من هم بنو جنسه على غيرهم، فأنتى له أن يبلغ العدالة! بينما (الإسلام يحب ما قبله) ¹ من عصبية جاهلية، لا فرق بين عبد حبشي وسيد قرشي إذا أسلما ² فلا يمكن إقامة رابطة

القومية بدلاً من رابطة الدين في ضوء هذا الأمر الجازم. إذ لا تكون هناك عدالة قط وإنما تهدر الحقوق ويضيع الإنصاف"¹

إن رسائل النور تدفع قارئها تلقائياً إلى أن يتنزّه عن العصبية والقبلية والمحليات، وتسهل عليه أن يندمج في كونية خطابية تعدّه ليصبح إنساناً ليس فقط كونياً ولكن ليصبح "إنساناً ميتا دينوي" أي متعقل بطريقة أخروية. بحيث تكون حساباته النهائية كلها مشروطة بمدى الكسب الأخروي. ولأنه معني بهذا الكسب الأخروي فليس أمام مسلم ينشئه الخطاب القرآني إلا أن يكون عادلاً، وهو ملزم بذلك شرعاً كما يلزم بفرائض الدين، وليس أمامه إلا أن ينشد السلام لأنه طالب هداية ورحمة للعالمين وهم كلهم عباد رب رحيم.

قد يعتقد البعض أن هذا الخطاب هو نوع من الأفلاطونية المتأخرة، أو هو نوع من الطوباوية البديلة... ولكن النورسي لا يبالي بالفرقاء والخصوم... ولا يخاطب أحداً بما يهوى. بل يظل مصراً على أفكاره الكلية مستهدياً بالقرآن الكريم لا يلفته ولا يصرفه عنها شيء.

والنتيجة المتحصلة من المنظور النوري هي إقامة "ميزان فكري" منسجم مع ميزان الكون في ذاته وغايته :

- في ذاته : لأنه فكر مؤسس على طبائع الأشياء، ومنسجم مع نوااميس الكون ومقتضيات الطبيعة كما أنشأها خالقها. أي العدل بما هو تجل لأنوار اسم الله "العدل". وما يؤكد أن الحياة كلها في اختبار سيعرض نتائجه ميزان الآخرة النهائي .

- في غايته : لأنه فكر تتولد عنه أحكام ومقتضيات يريد لها أن تكون منسجمة مع المقتضى الشرعي الكبير وهو إقامة ميزان العدل، وبسط نتائجه على كل الكائنات. ومن نتائجه البارزة : "السلام" وهذه غنيمة، ما فتى التاريخ يؤكد حتميتها وحاجة البشرية إليها.

وبناء على المقدمة السابقة يمكننا أن نصوغ النتيجة الآتية:

"كلما أحكم بناء ميزان العدل ، كلما استتبت دعائم السلام والعكس صحيح"

لكن سؤالاً حيويًا يفرض نفسه على كل باحث جاد ماهي الجهة المخولة بإقامة ذلك الميزان ونصبه أمام العالمين.

يجد قارئ رسائل النور الجواب على هذا السؤال من البدايات المبسطة أمامه في أدلة علمية مصدرها آيات القرآن وآيات الكون ونتائج العلوم الحديثة. والجواب يصير بدهاءة ليس لأن النورسي يجنح إلى الاستعجال والسطحية - وقد يوهم تحليلنا وهو لا يحيط بكل حقائق رسائل النور بذلك- بل لأنه يؤمن بالتبسيط والأجرأة. فالفكرة عنده لا تكتسب قيمتها من التغيير اللفظي والتعير المعنوي، بل تستمد قوتها من سماحة المعنى ولطف التدليل عليه.

لهذا سينتهي القارئ أن الجهة المخولة بنصب ذلك الميزان ورعاية تنفيذ مقتضياته ومحكمة الناس على مدى الالتزام به هي الله وحد. فهو من جهة "رب العالمين" وهو من جهة أخرى مالك يوم الدين".

فلأنه رب العالمين فالناس كلهم عبيده وليس له بينهم قريب بغير مستحقات التقرب، وليس بينهم ولد ولا عشيرة ولا عصبية ولا أرض أقرب... بل كل الناس محكومون بربوبيته بنفس القدر والقسط.

ولأنه مالك يوم الدين فهو الحكم الفصل بعد أن يرجع إليه كل شيء وينتهي إليه كل أمر وحكم. فيصدر الأمر النهائي والحكم الفصل.

وهذه كلها غايات تحمل البشرية على لزوم القسطاس ، لأنهم مسؤولون عن أحكامهم وأوامرهم ومختلف أعمالهم: "وقفوهما إنهم مسؤولون" الصافات 25
أما كل جهة أخرى غير الله فهي متحيزة إما لزمان أو مكان أو أشخاص أو مصالح... لهذا لا بد أن يكون واضع الموازين القسط ميراً من ذلك كله.

هذه النظرة تحتم على النورسي أن يعيد إنتاج الفكرة الإسلامية بما هي مصلحة الناس جميعاً، وخير البرية بدون استثناء. ولقد حاول علماء أصول الفقه إظهار القواعد العامة المبينة لأصول الدين الكبرى ، ولكنها في كثير منها محفوفة بالتعقيد .

بينما جاءت الرؤيا المقاصدية النورية منسجمة مع مطالب البيان، الذي أحد معانيه التبسيط والإفهام في غير ما ضعف أو إسفاف أو إخلال.

"لقد ثبت بالبحث والتحري الدقيق والاستقراء والتجارب العديدة للعلوم أن: الخير والحسن والجمال والإتقان والكمال هو السائد المطلق في نظام الكون وهو المقصود لذاته، أي هو المقاصد الحقيقية للصانع الجليل..."²

والجمال المعنوي المنشود للحياة الاجتماعية، ليس شيئاً آخر سوى العدالة تسود بين الناس والسلام يعم البلدان والأقطار... وهما الوجه الحضاري المكمل لجمال الكون:

"وقد ثبت ببراهين دامغة في أغلب أجزاء (رسائل النور): إن فعل التنظيم والنظام الذي هو تجلٍ من تجليات اسم الحكيم والحكيم، وإن فعل الوزن والميزان الذي هو تجلٍ من تجليات اسم العدل والعدل، وإن فعل التزيين والإحسان الذي هو تجلٍ من تجليات اسم الجميل والكريم، وإن فعل التربية والإنعام الذي هو تجلٍ من تجليات اسم الرب الرحيم. كل فعل من هذه الأفعال، هو فعل واحد، وحقيقة واحدة، تشاهد بوضوح"³

ولكي يبرز هذه المقاصد جاءت الرسائل حافلة بالشواهد العلمية، بشكل يكاد يشكل قطيعة مع جزء كبير من التراث الإسلامي الذي استغرقت الجزئيات والشواهد اللفظية، حتى كاد يضيع عن الحقيقة المركزية وهي أن القرآن الكريم كتاب هداية وليس مجرد خزان لشواهد النحو والبلاغة.

هذا المنعطف الجديد الذي هديت إليه رسائل النور سيشكل حتما ثورة مفهومية كبرى تفتح القرآن الكريم على العصر، وتخرج مفهوم الآية من البعد الرقمي واللفظي إلى البعد الحقيقي المتمثل في الدليل والبرهان والشاهد والحجة... وكل ما هو بسبيل الإفضاء إلى إثبات دعاوى القرآن وعطف العقل البشري على حقائقه.

فإحدى المعجزات الكبرى للرسالة الأخيرة هو نصبها لهذه العدالة الاجتماعية التي لا يزيد تاريخ البشرية إلا بحثا عنها. وما هذا التيه في ظلمات الحروب والدمار سوى دليل آخر على نشدان نور السلام والوثام. وهو أحد التشريعات البارزة في القرآن الكريم:

"إفناء الأبرياء من أطفال وعوائل وشيوخ ومرضى بالقنابل المدمرة بحجة وجود جندي أو اثنين من جنود الأعداء فيما بينهم. . واتفاق أعتى المستبدين من البرجوازيين مع الفوضويين والإرهابيين الذين هم المتطرفون من الاشتراكيين والشيوعيين وإهدار دماء ألوف بل ملايين من الأبرياء. . والاستمرار في هذه الحرب الضارة للإنسانية جمعاء. . وردّ الصلح والسلام. . لذا فإن الإسلام والقرآن الكريم بريئان بلا شك من مثل هذه الحروب المدمرة التي لا تنسجم مع أي قانون كان من قوانين العدالة ولا مع الإنسانية ولا مع أي دستور كان من دساتير الحقيقة وقوانين الحقوق"⁴

لكن الفائدة الأهم التي نحصلها من هذا التحليل هو الإضاءة الكاشفة لحقائق القرآن التي بات العقل البشري يكتشف أدلتها الأخرى المبسوطة في سطور الكون. وهو أمر كان النورسي واعيا بنتائج الدعوة وحصيلته العقديّة. فكلما تقدم العقل وزاد وعيا بحقائق الكون كلما كان أكثر أهلية لتقبل دعوة القرآن الكريم ، وهذه حقيقة يؤكدونها في أكثر من مكان من رسائله، بل على شرطها نهض قسط كبير من مشروعه النوري.

ولعل مائدة الحقائق العلمية مثل مائدة الغداء العالمي كلاهما موضوع حوار عميق قد يفضي إلى السلم والسلام العالميين ، إذا حكم في النظر إليهما ميزان العدل؛ أو يفضيان إلى الحرب والدمار إذا حكم فيهما إجحاف الظلم والهضم.

3 التكامل الثلاثي وبناء الميزان :

إذا حاولنا أن نستخرج عوامل إضافية دعمت المشروع النوري، وحولته إلى خطاب تجديدي وهو يحاول أن يبني توازن القيم لفائدة الإنسان كل الإنسان ؛ سنجد في مداخله المعرفية الكثيرة ومواقفه الاستنتاجية والاستدلالية مفعما بحجوية إجرائية تنفض عنه كل أشكال الخمول المعرفي التي لازمت الفكر الإسلامي في عصور التقوقع والتراجع الحضاريين.

إن الخطاب النوري لا يكتفي بتمديد معاني القرآن الكريم وملازمة مدلولاتها بشكل أمين وفاعل معاً، بل يسد ثغرة كبيرة نشأ عليها البحث الديني وهي الغفلة عن آليات قرآنية كثيرة يمكن لتوظيفها أن يكون مصدر تسديد وتأييد حضاريين ، يمكن تطبيقه على مفردات الحضارة الإسلامية . وسوف نحاول أن نقف على آيتين بارزتين في هذا

السياق لنرى كيف نجح الخطاب النوري في توظيفهما . وهما آليتين قرآنيتين تفتقدهما اليوم المجتمعات الإسلامية وتحكمهما المجتمعات المتقدمة، وهما أحد أسرار تقدمها. مما يجعل الحقائق القرآنية كما يردد النورسي كثيرا أستاذا لكل القيم والمثل الإيجابية.

لنكتفي باليتين يمكن أن ينشأ بهما تعزيز قدرات كل مجتمع على حدة ، كما تنشأ بهما أواصر التبادل الحضاري البناء بين المجتمعات:

أ-التفعيل والارتقاء:

قاعدة أولى: إن كل فعل يعتبر من منظور شرعي فعلا معطلا إذا بقي محصورا في الأمنيات والأحلام التي لا يسندها عمل محكم وتديبر حصيف.

"وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون" الجاثية 23

"ذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذي كانوا يوعدون" الزخرف 83

قاعدة ثانية: إن كل عمل مهما أنفق فيه من جهد لا يعتد به شرعا إذا لم يقصد به

خير:

"فقدنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا"

قاعدة ثالثة: إن العمل المأجور عليه والذي تظهر نتائجه الباهرة هو العمل الخير المتقن

"إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا" الأعراف 170

لقد تنبه النورسي إلى غفلة المسلمين عن حقائق دينهم وهي نواميس اجتماعية لا تختلف في شيء عن نواميس الطبيعة. لهذا حاول أن يرفع همّة العقل المسلم ويوجهه إلى نتائج العمل والاجتهاد، مستشهدا بما يتحقق من نتائج تنمية وحضارية في بلاد الغرب كلما أحكمت أسباب العمل .

والخلاصة التي ينتهي إليها متأمل رسائل النور أن إحراز التوفيق يحتاج إلى اشتغال ثلاثي آني للعناصر الثلاثة الآتية :

أ-النية والعمل والإحسان

والنية في المنظور النوري ليست إحساسا مخبوءا ولا إرادة خامدة متوارية في الخلفيات المظلمة للفكر المستسلم ، بل هي إرادة عازمة وإصرار على الإقدام ينطوي على حب عميق للخير وللهادي إليه. وبذلك يمكننا أن نتحدث عن نية فاعلة عوض نية خاملة.

ثم العمل لا يكون تواكلا لا تسنده الخطة ولا يسبقه الإعداد، بل يكون برنامجا جاهزا مدروس الخطوات قابلا للتنفيذ محكم الأهداف والغايات.

وأخيرا يكون الإحسان هو الارتقاء بذلك العمل إلى أعلى مراتب الإتقان، مراعيًا التدبير المحكم والتحكم العلمي في مراحل الإنجاز، وهو ما يعرف اليوم بأنظمة الجودة. وهي أنظمة أقرها الإسلام وعرضتها كل سطور الكون كما يبين النورسي ولكن العقل المسلم في سببته الطوعي والقسري لم ينتبه إلى آياتها.

	الاستراتيجية	=	النية
الجودة	البرنامج	=	الإحسان العمل

ولاشك أننا في حاجة ماسة إلى إحياء هذه الآليات قصد إنجاز أدوارنا الحضارية بعد هذه الاستقالة الطويلة التي تركت الساحة فارغة لسياقات بشرية مهما حازت من كمالات التقدم تظل قاصرة عن إقامة ميزان مطلوب ينصف به الناس جميعا.

وخيرية الأمة الإسلامية المشروطة بدعوتها إلى الخير وإشاعة المنافع - وأبرز تجليات الخير إقامة ميزان أممي للعدل بين الجميع بما يحفظ الكرامة الإنسانية من الهدر والامتهان. وإشاعة الأخوة بدل الحروب - لا يمكن أن تتم مع الضعف والعجز والهوان. بل مستحيلة بدون تمثل تلك القيم والاستفادة منها أولا قبل عرضها على الضمير العالمي. والحقيقة أن غياب تحقيقات فعلية للمقصد الشرعي الاجتماعي هو نفسه عائق، ما فتئ النورسي يبين تأثيره السلبي على انتشار قيم الإسلام بين العالمين.

ب- الاحتواء والتجاوز:

إن الحيوية الفائقة للخطاب النوري نابعة من تفعيله لآلية قرآنية مهمة تتمثل في الاحتواء والتجاوز. فالقرآن الكريم يدل على أنه احتوى كتباً سماوية سابقة، ثم بين أنه تجاوزها وهيمن عليها بعد أن نفى عنها أشكال الزيف والتحريف ثم قدمها للبشرية في حلة الرسالة الخاتمة المحفوظة.

يؤكد النورسي أن المسلم ليس في صدام سرمدى مع كل الخطابات الغيرية كيفما كانت طبيعتها، بل إن المسلم خصيم للشر وخطاباته حليف للخير وخطاباته. وبذلك يكون الخطاب النوري حاضاً على قدر من المرونة تسمح باستيعاب الحكمة حيثما وجدت، وكيفما كان مصدرها؛ ونفي الضلال كيفما كان مصدره وحيثما وجد.

"الحضارة الإنسانية التي يوجد فيها الخير والشر والطيب والخبيث والظاهر والقدّر معاً. فالعاقل هو مَنْ يعمل على قاعدة: (خذ ما صفا. . دع ما كدر) فيسير مع سلامة القلب واطمئنان الوجدان"⁵

وبذلك تتعزز قدرات الحكمة ويزكو رصيد الفكر الإسلامي منها في ما يسميه النورسي: "الشورى التاريخية". فالتاريخ نفسه بما يراكم من أفكار تنتفع بها الأجيال المختلفة، إنما يخلق هذه الشورى الأفقية الممتدة عبر الزمان. تتواصل العقول وتتلاقح الفهوم بين المجتمعات والأقطار، وبين العلماء والمفكرين من مختلف البقاع. فلو استحدثت الناس قياساً على هذه الشورى التعاقبية، نوعاً من الشورى التزامية لغنم الزمن المتكثف في "آن" العالمين، نفس ما يغنمه الزمن الممتد في تاريخ العالمين.

وهذا الخطاب الذي يؤمن بحاجته إلى الآخر لا يمكن أن تنشأ عنه أفكار عدوانية تبحث عن التضاد المطلق. بل لا بد أن يكون خطاباً يبحث عن تجسير العلاقات ومد الصلات بين الأفكار التي هي تجليات لعقول الأمم. بما ينشأ عنه تعارف كوني رحيم بين أقطار العالم.

وعلى هذا يمكن أن نولد القاعدة الآتية:

كلما كان الفكر مرنا قادرا على احتواء إيجابيات الآخر، كلما تأهل تلقائيا لتجاوز ذلك الفكر والهيمنة عليه.

ملحوظة: المقصود هنا بكلمة الهيمنة نفس معنى الهيمنة القرآنية-وليس الهيمنة العدوانية- أي استيعاب حسنات جهة معينة وإضافة حسنات أخرى ليست في تلك الجهة، وضم الجميع بما يرفع من قيمة الجهة المستوعبة ويجعلها أعلى وأكمل . انسجاما مع تصديق القرآن الكريم بالكئي السابقة وهيمنته عليها.

3 العدالة بين جاذبيتين :

لقد كان النورسي واعيا وهو يبني خطابه النقدي لأوربا على أساس الإنصاف وحسن التمييز. انسجاما مع قوله تعالى (ولا يجرمكم شأن قول على ألا تعدلوا إعدلوا هو أقرب للتقوى). هذا العدل في إقامة النظر النقدي ليس مفيدا حسب لعدم التحجني على الآخر مهما بلغت درجة خصومته ومغايرته للذات، ولكن لأن الذات نفسها في حاجة لاستبصار منهجي لا يعمى على الحق. خصوصا والخطاب القرآني قائم على حسن الاعتبار والتدبر. وهذان لا يقومان إلا مع الإنصاف. فأني درس سيستخلصه متجن حائق.

والحسنات إنتاج عقلي، والعقل نعمة واهبه. وحرى بالمنصفين أن يجمعوا حسنات العقول لتنمو بما مداركهم ويزدان بها منطقتهم مهما كان مصدرها.

إن الشق الإيجابي في حضارة أوربا هو تميم لسياق ديني هدت إليه النصرانية، وهي شريعة ربانية كانت قائمة على النصح والإرشاد قبل أن ينالها التحريف . وهذه البقايا الصالحة من دين سماوي ، وذلك التماس اللاحق مع الإسلام في بلاد الغرب، وذلك النهوض العقلي الجبار... هذه كلها صنعت أوربا الحضارة. وهذه هي التي يقول عنها النورسي:

" هي أوربا النافعة للبشرية، بما استفاضت من النصرانية الحقة، وأدّت خدمات لحياة الإنسان الاجتماعية، بما توصلت إليه من صناعاتٍ وعلومٍ تخدم العدل والإنصاف

ولكن هذه الأوربا ليست هي كل إنتاج الغرب الحضاري، بل إن عوامل التحريف والضلال وشبهوات الفكر المادي المنطلق سترسب إلى جانب هذه العلامة الحضارية المضئية، ساحلا من الظلام المتربص لالتهام العالمين بعد أن يدمر أوربا نفسها. وهذه الأوربا الثانية هي موضوع السجال الذي يخوضه النورسي. لأنه بصدد بناء أسس فكرية بديلة تحاول استيعاب ما في أوربا من محاسن ودرأ ما فيها من مفاسد على نحو ما ينشده القرآن الكريم ويرشد إليه:

" فلا أخاطب - في هذه المحاورة - هذا القسم من أوربا. وإنما أخاطب أوربا الثانية تلك التي تعفنت بظلمات الفلسفة الطبيعية وفسدت بالمادية الجاسية"⁷

إن المادية المستفحلة في أوربا تعمل على طمس حسنات المجهود الأوربي الأول في تطوير الحياة ، وتجعل أبناءها -وأبناء الأوطان الأخرى وهي تحاول توسيع نموذجها- يعيشون شقاء نفسيا عبر عنه النورسي بكونه جحيما دنيويا يحمل في نفسه الدليل على عذاب أكبر.

لهذا سنجد النورسي في نهاية المطاف لا يرضى على المنجزات الحضارية الغربية ما دام كل همها الإغلاء من شأن المادة والخط من أقدار الإنسان:

"ثرى هل يُجدي أعظم علومكم، وأعلى صروح حضارتكم وأرقى مراتب نبوغكم وأنفذ خطط دهائكم شيئا أمام هذا السقوط المخيف المريع للإنسان؟ وهل يستطيع الصمود حيال هذا اليأس المدمر للروح البشرية التواقفة الى السلوان؟ وهل يقدر ما تطلقون من " طبيعة " لكم، وما تسندون إليه الآثار الإلهية من " أسباب " عندكم، وما تنسبون إليه الإحسانات الربانية من " شريك " لديكم، وما تتباهون به من " كشوفاتكم " وما تعتزون به من " قومكم " ، وما تعبدون من " معبودكم"⁸

إن الأمر قد يكون هينا لولا أن الغرب يحاول أن يبني ميزانا خاصا به يزن به أفعال الخلق كلهم ، ويحاكم إليه كل أنواع السلوك البشري. بل إنه يشيد مؤسسات تسهر على تدير الشأن الدولي العام وفق هذا الميزان . ويزعم الغرب أن ميزانه كفيل بأن يؤسس قيم العدالة ويبني جسور السلام.

ولما كانت الوقائع هي حقائق الأقوال، وتصديق الأفعال فإن ما يشهده العالم من أكدار واضطرابات عبر تاريخه الحديث والتي فاقت في بشاعتها كل أشكال البدائية البشرية، وطفولتها المتوحشة ؛ تثبت -عكس أقوال الغرب- أن العالم بات أكثر من أي وقت آخر في حاجة إلى ميزان يقيم العدل ويبنى عريش السلام للبشرية المسكينة. خصوصاً وأن وسائل التدمير اليوم تفوق كل الأشكال السالفة ، والتي ليست سوى لعب أطفال بالمقارنة مع ما تدخره مخازن السلاح العالمية الراهنة.

"نعم، إن المدنية الدنية الظالمة قد عوقبت، بكفرانها بالنعمة الإلهية وعدم إيفائها الشكر لله، تجاه ما أنعم عليها سبحانه من الخوارق الحضارية، لصرفها تلك الخوارق الى الدمار حتى سلبت سعادة الحياة كلياً وأردت الناس الذين يُعدّون في ذروة الحضارة والمدنية إلى أدنى من دركات الوحوش الضالة، وأذاقتهم عذاب جهنم قبل الذهاب إليها"⁹

ومهما كان من أمر فإن السلام لا يمكن أن يقوم سوى على دعائم الحق. لهذا تحتاج أوروبا/الغرب إلى بناء موقف واضح لتفعيل الثقافة الحضاري. وعليها أن تكف عن الميركاتيلية المتوحشة التي ترى في العالم فرصة لتنمية مدحراتها من المعادن النفيسة، والناس سوى الغربيين مجرد سواعد تستخدم لبناء مجد الحضارة البيضاء.

هذا المنظور يفتقد قيم الإنصاف، ويختل به ميزان يريده رب العالمين رحيمًا بكل العالمين. لهذا فالعالم اليوم في أمس الحاجة إلى ميزان كلي تستقيم به شؤون العالم الاجتماعي كما تستقيم شؤون العالم الكوني.

بينما نلاحظ قدراً هائلاً من الإنصاف والموضوعية تنعش الفكر النوري ، وتبين عن مداحل حقيقية لإقامة السلام وإشاعة العدل؛ فالنورسي بهذا الشق من الحسنات في قلب أوروبا يبني جسراً متيناً ستعبر عليه أشكال من الحوار والتواصل بين الفكرين الإسلامي والغربي، ويؤسس فرصة لاكتشاف أنوية إيجابية إسلامية قائمة في الفكر الغربي وأنوية إيجابية غربية ماثورة في الفكر الشرقي. وبذلك يتحقق تواصل جزئي بين الحضارتين الإسلامية والغربية في نصف دائرة تطلب تمتتها. فالجانب المضني المتحقق في بلاد الغرب في شكل حضارة مدنية ينسجم مع دعوة الإسلام في العمل والإتقان، أي حسن إعمار

الأرض . و لا يشترط النورسي على الأمة الإسلامية في استقائها من الحضارة الغربية غير حسن التنخيل والاختيار؛ لأن الخطر كله هو في الغفلة عن أوربا الإيجابية والنهل من أوربا السلبية:

" المقصود محاسن المدنية التي أسدتها إلى البشرية ، وليست سيئاتها وآثامها التي يلهث وراءها الحمقى ظناً منهم أن تلك السيئات حسنات حتى أوردونا الهلاك، ولقد تلقت البشرية صفتين مريعتين وهما الحربان العالميتان من جراء ما طفحت به كفة سيئات المدنية على حسناتها وتغلبت آثامها على محاسنها حتى أبادتا تلك المدنية الآثمة فقاءت دمماً لطخت به وجه الكرة الأرضية كله. نسأل الله أن تغلب بقوة الإسلام في المستقبل محاسن المدنية لتطهر وجه الأرض من لوثاتها وتضمن السلام العام للبشرية قاطبة"¹⁰

إن العالم واقع اليوم بين جاذبيتين: واحدة غربية تخلب العالمين بريقها الظاهري اللامع، بينما تكتب لهم الشقاء الدنيوي والأخروي؛ والثانية جاذبية إسلامية تبحث عن عولة القيم والمبادئ النبيلة التي تساوي بين أصناف البشر، وترحم جميع الكائنات.

فالإسلام قادر على إعادة إنتاج مدينة صافية من أكرار الحضارة الغربية التي بات شرها يستفحل ويهدد العالم بكل أنواع.

أ-جاذبية القهر :

"فهذه المدنية الخبيثة التي لم نرَ منها غير الضرر، وهي المرفوضة في نظر الشريعة، وقد طغت سيئاتها على حسناتها، تحكم عليها مصلحة الإنسان بالنسخ، وتقضي عليها يقظة الإنسان وصحوته بالانقراض.

"فلو كنا منتصرين لكنا نتعهد حماية هذه المدنية السفهية المتمردة الغدارة المتوحشة معنيً في أرجاء آسيا.

قال أحدهم من المجلس:

- لم ترفض الشريعة هذه المدنية؟

قلت: لأنها تأسست على خمسة أسس سلبية:

فنقطة استنادها هي: القوة، وهذه شأنها: الاعتداء.

وهدفها وقصدتها: المنفعة، وهذه شأنها: التزاحم.

ودستورها في الحياة: الجدال والصراع، وهذا شأنه: التنازع.

والرابطة التي تربط المجموعات البشرية هي: العنصرية والقومية السلبية التي تنمو على حساب الآخرين. وهذه شأنها: التصادم، كما نراه.

وخدمتها للبشرية خدمة فاتنة جذابة هي: تشجيع هوى المنفعة، وإثارة النفس الأمارة، وتطمين رغباتها وتسهيل مطالبها. وهذا الهوى شأنه: إسقاط الإنسان من درجة الملائكية إلى درك الحيوانية الكلبية. وبهذا تكون سبباً لمسخ الإنسان معنوياً.

فمعظم هؤلاء المدنيين لو انقلب باطنهم بظواهرهم لوجد الخيال تجاهه صور الذئاب والذبابة والحيات والقردة والخنازير.

ولأجل هذا فقد دفعت هذه المدينة الحاضرة ثمانين بالمئة من البشرية إلى أحضان الشقاء وأخرجت عشرة بالمئة منها إلى سعادة مموهة زائفة. وظلت العشرة الباقية بين هؤلاء وأولئك، علماً أن السعادة تكون سعادة عندما تصبح عامة لكل أو للأكثرية؛ بيد أن سعادة هذه المدينة هي لأقل القليل من الناس¹¹

ب- جاذبية الرحمة :

"قلت: أما المدينة التي تأمرنا بها الشريعة الغراء وتتضمنها، فهي التي سنتكشف بانقشاع هذه المدينة الحاضرة، وتضع أسساً إيجابية بناءً مكان تلك الأسس النخرة الفاسدة السلبية.

نعم! إن نقطة استنادها هي الحق بدلاً من القوة. والحق من شأنه: العدالة والتوازن. وهدفها: الفضيلة بدلاً من المنفعة، والفضيلة من شأنها: الحبة والتجاذب.

وجهة الوحدة فيها والرابطة التي تربط بها المجموعات البشرية: الرابطة الدينية، والوطنية، والمهنية بدلاً من العنصرية. وهذه شأنها: الأخوة الخالصة، والسلام والوثام، والذود عن البلاد عند اعتداء الأجانب.

ودستورها في الحياة: التعاون بدل الصراع والجدال، والتعاون من شأنه التساند والاتحاد. وتضع الهدى بدل الهوى ليكون حاكماً على الخدمات التي تقدم للبشر، وشأن الهدى: رفع الإنسانية إلى مراقي الكمالات، فهي إذ تحدد الهوى وتحّد من النزعات النفسانية تُطمئن الروح وتشوقها إلى المعالي¹²

4 أركان العدالة وثوابت السلام:

1-4 العدالة السياسية:

إن العالم الكوني تسوسه سببية داخلية تجعله منضبطاً لأوامر عليا - كما يسميها النورسي- فلا يجيد عن مساراته ولا يخرج عن مداراته، استجابة لكلمة الله وأمره، بما يخدم صالح الإنسان إنارة وتسخينا وبرودة وإنضاج طعام... أي بما يجعل الاستضافة الكونية تجلّيا لقدرة الله وحكمته ورحمته.

أما شؤون العالم الإنساني فإن أمر سياستها وتديرها موكول إلى الإنسان وعلى ضوء إنجازاته سيحاسب. فلا بد لكل "مسؤول" إذا أقام ميزانه في الأرض أن يعلم أنه وميزانه سيعرضان على ميزان الله الذي لا يظلم نقيرا. وكثير من الناس غفلوا عن أن مسؤول صيغة اشتقت من اسم مفعول سيقع عليه السؤال. ومن الإحسان المرغّب فيه شرعا أن يكون هذا السؤال في الدنيا قبل الآخرة، حتى لا يطغى المسؤولون فيصبحوا مجرد سائلين، وبذلك ينالهم عقاب الشرك الذي لا يغفره الله لأن صفة الذي لا يسأل تخص الله جل جلاله وحده وهي من خائص الألوهية المشمولة بالعدل المطلق الذي لا تعقيب عليه ولا مراجعة: " لا يسأل عما يفعل وهم يسألون" والضمير "هم" في الآية الكريمة شامل لمطلق الشمولية لا يقبل ولا ينبغي أن يخرج عن حكمه شيء.

إننا اليوم في حاجة إلى رؤية جديدة، وبعث جديد لقيم الدين الأصيلة في مختلف المجالات خصوصا في المجال السياسي الذي باتت سيئاته تأكل كل حسنات الأمة وأرصدتها في مجال القيم والإعزاز الإنساني؛ وأن نسهم بدورنا بتخليق الحياة الكونية.

فلا بد أن نبنى البيئة الإيجابية العامة التي يمكن أن ينشأ داخلها السلم المدني والتعايش الاجتماعي الرحيم المبني على كفالة حقوق جميع المواطنين .

إذا حكمتنا الآلية الإسلامية المبنية على التبصر، والاعتبار، والحكمة، والتي تفيد في نهاية المطاف عمل العقل الإسلامي على رصد كل دواعي الخير والفضيلة وطرق إنتاجهما، والعمل على احتواء ذلك وتجاوزه بما يعني أن تكون الأمة الإسلامية شاهدة على الناس ومؤيدة لما بين أيديهم من الخير بما يجعلها مصدقة لما بين يديها من نباهة الأمم وحيويتهم ومهيمنة على ذلك، تماما كما أن القرآن الكريم مصدق لما بين يده من الكتاب ومهيمن عليه. واضح إذن أن الهيمنة القرآنية-كما أسلفنا- هي دعوة لتحريب انفتاح حضاري متميز يغذي الذات الإسلامية بالقيم الإيجابية ويجعلها تحتويها ثم تتجاوزها بما تبذله من جهد لتبئة ذلك وتنزيله على واقع المسلمين في حلل فيها يسر الشريعة وعدالة الرب الرحيم.

وفي الخلاصة فإن بعض الجوانب الإيجابية في السياسة والتدبير كما هي في الدول المتقدمة، هدية معروضة على المسلمين لاحتوائها وتجاوزها بما يبذلونه ويضيفونه من حسنات أخرى. سياسة تجعل الحاكم "مسؤولا"- أي يقع عليه السؤال والمحاسبة -لا يمكن إلا أن تكون إسلامية كما بيناه.

والسؤال هو وسيلة حضارية لحماية الأموال العامة والحقوق العامة، وبعث التنافسية والجدية في مناشط التدبير، وطريقة لتنخيل الإيرادات الصادقة التي لا تخشى السؤال لأنها تملك الجواب، بمعنى أنها أصلا لا تبيت نية أكل أموال الناس واستضعافهم بالباطل. وهذا هو أول شروط العدالة الاجتماعية. وبهذا يستتب الرضا والتساكن والسلام داخل المجتمع.

ولعل الآليات المعتمدة في البلاد المتقدمة توفر قدرا كبيرا من هذه الاحتياطات. كما أنها بلغت حدا من التوفيق في التدبير العام الذي يحمي الحقوق ويرفع من قيمة الإنسان. من خلال حفظ حقوق أساسية للإنسان أصبحت إنجازا متحققا في التعليم والصحة والشغل والقضاء والحماية الاجتماعية -وهذه جوانب مشرقة لا يستنكف النورسي في أن يصف أوروبا بسببها بالمؤمنة-... والمؤسف أن تبقى الدعاوى الحقوقية في البلاد الإسلامية -في واقعنا الراهن- شعارات غير قابلة للإنجاز والتحقق بسبب ما يكتنفها من تعقيد وتباين في المواقف، وكثرة الفرقاء وغياب الإرادة، وأحيانا بسبب تعقيد المدونة

الفقهية، ما بين محرم ومحلل ومبيح ومكروه !! فأصبحت حقوق المسلمين شعارات مطوية في كتب طائفة من الأصوليين، تنتظر من يجعلها حقائق تمشي على الأرض.

وهذه القيم الأصولية تفتنت إلى جوهر الشريعة الإسلامية، بشكل يدعو إلى الإعجاب من خلال نظم الكليات الدينية ومن خلال قواعد أخرى تنبئ عن حيوية العقل المسلم، لولا أن حطمته السياسة والاختلاف. وهي أدواء ما فتى النورسي يحمل عليها بقوة ويدعو إلى تجاوزها، وترميم البيت الداخلي، والتهيؤ لنشر أنوار الرسالة الإسلامية عوض تعطيلها بالصراعات البينية المدمرة:

"إن تباين الأفكار هذا قد هزّ أساس الأخلاق الإسلامية وفرّق اتحاد الأمة، وأخرنا عن ركب الحضارة، لأن أحدهم يكفر الآخر ويضلله، بينما الآخر يعدّ الأول جاهلاً لا يوثق به. وهكذا ساد الإفراط والتفريط. وعلاج هذا الداء هو الصلح النابع من توحيد الأفكار، وربط العلاقات ووصلها حتى يوصل إلى نقطة الاعتدال، فيتصافح الجميع، ويتفقوا جميعاً لئلا يُخلّوا بنظام الرقي"¹³

ويعمد النورسي إلى استقراء دائم للبينات القرآنية مستخلصاً منها دروساً يقوم بتعديتها إلى واقع المسلمين استجابة لدعوة إلهية بضرورة الاعتبار، فقصص الأنبياء عنده ليست مجرد حكايات تقرأ، بل دروس أحكمت بابتلاءات تاريخية تدل على نتائج الفعل التاريخي الإيجابي بقيادة الأنبياء والرسل، وهو الأمر الذي طلب من كافة المسلمين الاقتداء به بعد حسن تأمله واستخلاص الدرس المناسب منه. بل هي دعوة أمام البشرية لتلمس طريق النجاة خارج الزهو القاروني، والخطورة الفرعونية، في الأوبة النبوية ليونس عليه السلام، والذي بخفض الجناح لرب العالمين تجاوز كل العقبات ونجا من جميع الظلمات.

والحقيقة التي لا يخطئها النورسي هي أن المسؤوليات تكليفات شرعية، يحاسب عليها في الدنيا بأن تظهر نتائجها الخيرة تقدماً وازدهاراً ونتائجها السيئة تدهوراً ودماراً. ويحاسب عليها في الآخرة بجنة النعيم أو بدار جحيم مقيم. ولذلك فالمسؤوليات ليست ترفاً لإصابة قدر من الكبرياء والاستعلاء على الناس وحكمهم جوراً كالحیوانات

المسلوبة الإرادة، بل يقين لتثبيت دعائم العدل وإقامة ميزان الله فيهم الذي أعطى كل شيء حقه. لهذا يصيح النورسي بين الفينة والأخرى:

"أيها الحكام! ويا من تسلمتم أمر البلاد! إن كنتم تريدون أن تسود العدالة أنحاء مملكتكم، فاقتدوا بسليمان - عليه السلام - واسعوا مثله إلى مشاهدة ما يجري في الأرض كافة، ومعرفة ما يحدث في جميع أرجائها"¹⁴

والخطاب النوري مهما بدا موعلاً في تدقيق الوعي بواقع الانحطاط في العالم الإسلامي، لا يغفل عن قراءة جادة لقيم ، ما تزال في حالة كمون، ثاوية في الخطاب القرآني. وهي ثوابت تشتغل، كلما توفرت الإرادة الجادة لتفعيلها.

إن النورسي وهو يتحرك في هذه المساحة الكبيرة للوعي الاستراتيجي ، مشدود إلى تأسيس قوانينه الافتراضية على كل آليات الارتقاء الحضاري الجاهزة والموجودة في حالة كمون. وهي تحتاج إلى إيمان ووعي حضاري مسلح بفهم السننية الكونية لتخرج من كمون القوة إلى واقع الفعل. لهذا فكل المؤشرات حسب النورسي تثبت قوة الخطاب القرآني وصلاحيه قيمه الكلية لنصب ميزان عدالة كوني يستمتع بإنصافه المسلمون وغيرهم. وبذلك فهو وحده الميزان القادر على الاستجابة لتطلعات البشرية بل وغيرها من الكائنات الكونية:

"وبشر المسلمين جميعاً بل الإنسانية قاطبة بأن الإسلام سيظهر على الأرض كافة مبنياً أن اعظم رقي مادي ومعنوي سيحققه الإسلام، وستجلى الحضارة الإسلامية بأبهى مظهرها وستطهر الأرض من اللوثات، كل ذلك مقروناً بدلائل عقلية رصينة..."¹⁵

4-2 العدالة الاجتماعية

إن ما أنجزته هذه المدنية الحاضرة من حوارق - في ساحة العلم - نعم رباية تستدعي شكراً خالصاً من الإنسان على ما أنعم عليه، وتقتضي منه كذلك استخداماً ملائماً لها لفائدة البشرية ومنفعتهم. بيد أننا نرى الآن خلاف ذلك؛ إذ تقود تلك الحوارق قسماً من الناس - الذين لهم أهمية بالغة في الحياة - وتوردهم موارد الكسل والسفاهة... إذ إنها تذكي نار الأهواء النفسانية، وتشير كوامن النزعات الشهوانية

فُتقِد الإنسان عن الكدّ والسعي وتثنيه عن الشوق الى العمل، وتسوقه بعدم القناعة وعدم الاقتصاد إلى السفاهة والإسراف والظلم وارتكاب المحرمات¹⁶

إن قوة الفكر النوري هي في هذه القدرة الفائقة على الربط العضوي بين عناصر الظاهرة الاجتماعية، والوعي بحركة مختلف العناصر لتفعيل البنية الاختلالية الكبرى في المنظومة الحضارية. فكل عنصر مهما بدا مستقلاً بذاته إلا انه في نهاية المطاف متعلق مع غير مؤثر فيه ومتأثر به. ولعل التسليح بمثل هذا الوعي سيولد قدراً كبيراً من الحزم في تدبير مختلف العناصر المسؤولة عن النهوض أو التردّي الاجتماعي، بما في ذلك الأخلاق الفردية والأخلاق العامة والحركة الاقتصادية.

لقد تنبه النورسي مبكراً إلى عناصر يمكن أن تفتن النظر الشرقي، وهو يقارن بين مدينة غربية ناطقة-أي ما يشكل أوروبا الإيجابية كما أوضحنا أعلاه- وبدعوة شرقية غارقة. فيحاول البعض أن ينسب تلك الإيجابيات في الحضارة الغربية إلى عوامل التحلل من الدين مطلقاً محاولاً أن يدعو إلى إقامة شعائر حضارية بديلة عن شعائر الدين، بينما يرى في النكوص الحضاري الشرقي دليلاً على فشل الإسلام، فيكون ذلك سبباً يجعل الشرق مقبلاً على الغرب لاستعادة مدينته دون وعي أو أهلية تمييزية. وقد يسقط لأجل ذلك في انحطاط مضاعف إذا نهل من عناصر السلب الغربي وزادها على ما في أوطانه من سلب سابق. فيصنع الانحطاط القادم والانحطاط القائم وضعية بئيسة أبلغ ما يكون البؤس.

بينما يحمل القرآن كل أنوية الانطلاق وعوامل الدفع الحضاري اللازمين لتحقيق الرقي الفعلي والتقدم المعقول. والشيء الذي صح أوله يصح آخره. أفليس القرآن أخرج مجموعة من البدو الغارقين في صحراء منقطعة، إلى أمة تبني أعز حضارة وأكملها:

"إن أثر القرآن في كل هذا التقدم (الحضاري الإسلامي) لا ينكر، فالقرآن هو الذي دفع العرب إلى فتح العالم، ومكنهم من إنشاء إمبراطورية فاقت إمبراطورية الإسكندر الكبير، والإمبراطورية الرومانية سعة وقوة وعمرانا وحضارة. " ¹⁷

لهذا كان النورسي في جزء كبير من مشروعه النوري معنياً بمكافحة الشبهات وإسقاطها، قبل الخلوص إلى ملكوت الإيمان ومملكة الإسلام المنسجمة المتناغمة مع كل

درات الكون والمتجاوبة مع كل أصوات الحكمة المنتشرة في العالم ، وسبب ذلك عنده أن الحكيم الذي أبدع الكون بهذا القدر من الجمال والجلال هو نفسه الذي أمر بإقامة شريعته الغراء؛ وهي كلمة فيها أيضا أصناف من الجمال والجلال الاجتماعيين القادرين على جعل الناس يسلمون الوجهة إلى بارئهم الحكيم مطمئنين إلى جمال المسلك إليه وجلال الإقبال عليه.

"فالسلامة والأمان إذن لا وجود لهما إلا في الإسلام والإيمان" ¹⁸

لأن الإسلام وهو يقيم ميزان العدالة العام ينصبه وفق إرادة إلهية لكي يضيفي على الحياة الاجتماعية بهاء شاملا ويظهرها من القبح المعنوي، انسجاما مع حكمة قضت بالعدل في كل شيء في الكون :

"وترى العدالة المطلقة تضع كل عضو من الكائن الحي في موضعه اللائق به، وتنسقه بموازين دقيقة حساسة - ابتداء من ميكروب صغير الى كركدن ضخيم، ومن نخل ضعيف إلى نسر مهيب، ومن زهرة لطيفة إلى ربيع زاه بملايين من الأزهار. . وتراها تمنح كل عضو تناسباً لا عبث فيه، وموازنة لا نقص فيها، وانتظاماً لا ترى فيه إلا الإبداع، كل ذلك ضمن جمال زاهر وحسن باهر حتى تغدو المخلوقات نماذج مجسمة للإبداع والإتقان والجمال. . فضلا عن أنها تمب لكل ذي حياة حق الحياة؛ فتيسر له سبل الحياة، وتنصب له موازين عدالة فائقة؛ فجزاء الحسنة حسنة مثلها، وجزاء السيئة سيئة مثلها. . وفي الوقت نفسه تُشعر قوتها وسرمديتها، بما تنزل من عذاب مدمر على الطغاة والظالمين منذ عهد آدم عليه السلام. فكما لا تكون الشمس دون نهار، فتلك الحكمة الأزلية، وتلك العدالة السرمدية لن تتحققا تحقاً كلياً إلا بحياة أخرى خالدة لذا لن ترضيا أبدا ولن تساعدا بحال من الأحوال على نهاية لا عدالة فيها ولا حكمة ولا إحفاق حق، تلك هي الموت الذي لا بعث بعده، والذي يتساوى فيه الظالمون العتاة مع المظلومين البائسين ! فلا بد إذن أن تكون وراءه حياة أخرى خالدة كي تستكمل الحكمة والعدالة حقيقتهما" ¹⁹

ولعل الآفات الاجتماعية المنكرة ، والكثيرة بسبب انتشار ثقافة الغرب... لوثت وجه الأرض بكل أنواع الفساد والقبح... وصارت أشبه شيء بالدمامل والتقرحات في وجه البشرية، مما شوه وجه هذه الحضارة الجميلة أصلاً وذهب بحاسنها الأخرى.

يتضح ذلك في مسألة المرأة وهي بسبيل أن تكون قضية معولة، فصناع القرار يجتهدون في أن يحولوا المنظمات الدولية-، وهم تحكموا في مقاليدها، ويصوغون توجهاتها على نحو منسجم مع رؤيتهم الخاصة للكون والإنسان- إلى مجالات للتشريع الكوني على نحو يلزم كل دول العالم بما يصدر من قرارات . كما هو الشأن مع مؤتمر بيكين... وغيره من مؤتمرات وندوات دولية تنهياً لابتلاع القيم الحضارية للعالمين وطبها تحت جناح المادية الاستهلاكية.

ولعل هذه التشريعات في حاجة ماسة إلى أن تلقي السمع إلى النورسي وهو يحتاجه بهذا الخطاب الصريح :

"أتحسبون أن "مهمة حياتكم" محصورة في تلبية متطلبات النفس الأمانة بالسوء ورعايتها بوسائل الحضارة إشباعاً لشهوة البطن والفرج؟ أم تظنون أن الغاية من درج ما أودع فيكم من لطائف معنوية رقيقة، وآلات وأعضاء حساسة، وجوارح وأجهزة بدعية، ومشاعر وحواس متجسدة، إنما هي لمجرد استعمالها لإشباع حاجات سفلية لرغبات النفس الدنيئة في هذه الحياة الفانية؟ حاشَ وكلا!!"²⁰

إن الربط بين القيم الاجتماعية والسلام مسألة في غاية الدقة والأهمية، ذلك لأن هذا الكم الهائل من الأخلاق السفلية التي تحتفل بكل ما هو تحتي، تشد الإنسان إلى الأرض مثل أحط الجمادات التي من خصائصها الطبيعية الانجذاب إلى الأسفل، بينما يجدر بإنسان وهب الحرية أن يثبت كرامته عليها بتساميه ونشدها الأعلى، وأن لا يخضع لإرغامات التسفل.

وإن مجتمعا تعيث فيه الأفكار السفلية ، سرعان ما يصبح عشا للزنابير الآدمية، التي تملأ سطح الأرض بأنواع المخدرات والخطايا والجرائم والجنائيات... والخطر كله يكمن في أن تتسع دائرة الشر فتشمل القسط الكبير من الذين نشقوا في هذا الدرك الاجتماعي، فيكون منهم : المسؤول الكبير والبرلماني والوزير... ومن بيده أوامر الزر النووي؟

لهذا ينبغي على البشرية أن تحمل هذا الوعيد الإلهي محل الجد :

(واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة) الآية

ثم عليهم أن يسعوا إلى تنشئة اجتماعية راشدة ، تدفع هذا القدر من المجون والشرود عن الأخلاق الذي طفح على سطح سفينتنا الأرضية المتحركة والتي تسبح بنا هذا الملكوت في اتجاه الآخرة.

أليس النورسي محقا إذن عندما يعتبر المعادلة الاجتماعية ، حاسمة في بناء الاستقرار الاجتماعي والأمن المحلي والسلم الكوني .

"فاعلم من هذا أن "العدالة والاقتصاد والطهر" التي هي من حقائق القرآن ودساتير الإسلام، ما أشدها إيغالا في أعماق الحياة الاجتماعية، وما أشدها عراقة واصالة. وأدرك من هذا مدى قوة ارتباط أحكام القرآن بالكون، وكيف أنها مدّت جذوراً عميقة في أغوار الكون فأحاطته بعري وثيقة لا انفصام لها. ثم افهم منها أن إفساد تلك الحقائق ممتنعٌ كامتناع إفساد نظام الكون والإخلال به وتشويه صورته"²¹

3-4 العدالة الاقتصادية :

إذا كان الاقتصاد في عرف الاشتراكية هو ما تراكمه الدولة من إنتاج ووسائل

وإذا كان في ميزان الرأسمالية هو ما يجوزه الفرد من أموال وممتلكات

فهو في ميزان الإسلام -حسب النورسي- توزيع خيرات المائدة الرحمانية على الأنام جميعهم مع الشكر لله وتجنب الإسراف. فالاقتصاد في النهاية خارج الخدلقات استثمار نعم الله مع توقيرها:

"أجل! إن الاقتصاد كما هو شكر معنوي، فهو توقيير للرحمة الإلهية الكامنة في النعم والإحسان. . وهو سبب حاسم للبركة والاستكثار. . وهو مدار صحة الجسد كالحمية. . وهو سبيل إلى العزة بالابتعاد عن ذل الاستجداء المعنوي. . وهو وسيلة قوية لإحساس ما في النعم والآلاء من لذة. . وهو سبب متين لتذوق اللذائذ المحبأة في ثنانيا نعم تبدو غير لذيدة. . ولكون الإسراف يخالف الحكم المذكورة آنفاً باتت عواقبه وخيمة"²²

ويسقط النورسي المعادلة الاقتصادية على المعادلة الأخلاقية، فيتحصل له بذلك وعي متكامل عميق يتجاوز السطحية المادية الموسومة بالنفعية الآنية والأناية؛ ليؤسس الحاجة الاقتصادية على مطالب التخليق التي باتت شعار الاقتصاديين أنفسهم اليوم، وليقيم ميزان العدالة الاجتماعية بين حاجات الإنسانية كلها راهنا، وحاجة الأجيال المتعاقبة الذين ستستضيفهم المائدة الرحمانية كما استضافت الذين من قبلهم.

فالاقتصاد حسب النورسي يعني من الاستجداء ويقي مدخرات مانعة من النكوص . . فهو اعتدال في التصرف وحكمة في التصريف . وقد وجدت هذه الدعوة صدى في كتابات لاحقة لمفكر آخر هو مالك بن نبي، فخصص لها كتابه الموسوم ب"المسلم في عالم الاقتصاد".

هذا المطلب الاقتصادي المحتاج إلى مدخل أخلاقي حاسم يمكن تجليته على النحو الآتي:

$$\text{الواجب} + \text{الحق} = \text{إنتاج} + \text{استهلاك} = 0$$

هذه المعادلة يمكن تمديدها ورصد كل الاحتمالات المتولدة عن تشغيل كافة أوجهها:

الواجب أكبر من الحق = الإنتاج أكثر من الاستهلاك ← اقتصاد مزدهر

الواجب يساوي الحق = الإنتاج يساوي الاستهلاك ← اقتصاد راكد

الواجب أصغر من الحق = الإنتاج أقل من الاستهلاك ← اقتصاد متدهور

فكلما كثر المستهلكون وقل المنتجون كلما قلت المنتوجات وضعفت المدخرات القومية، وبددت الثروات الوطنية. لهذا كان معنى الاقتصاد متساويا من جهة الدالتين اللغوية والاصطلاحية في تعبير النورسي، بما يفيد إحسان القيام بواجب الإنتاج والاعتدال في الاستفادة من حق الاستهلاك، ليكون حاصل الفرق بين الحدين ما تنمو به الأمة وترداد به قوة :

" إذ بسبب الابتعاد عن الاقتصاد، يكثر المستهلكون، ويقل المستحصلون، ويبدأ الجميع يشدون نظرههم إلى باب الحكومة، وحينها تنتكس وتتناقص الصناعة والتجارة

والزراعة التي هي محور الحياة الاجتماعية ومدارها، وينهار المجتمع ويتدن بدوره ويغدو فقيراً معدماً²³

والأصل الأصيل عند النورسي، وما ينبغي أن يكون شرطاً للسلام العالمي، من خلال تحقيق هذا القسط الضروري من العدالة الاجتماعية والأمن الغذائي، هو أن الله لم يخلق أرزاقاً أقل من العباد بل خلق أرزاقاً تزيد على الحاجيات ولكن تحصيلها المجحف هو الذي يؤدي إلى استئثار فئة غاصبة، تبدد ليس فقط ما تنتج ولكن ما ينتجه جم غفير، من المحرومين المتجنى على حقوقهم .

هذا الدرس الاقتصادي يراه النورسي مبسوطاً في آيات القرآن ودلائل الحكمة القائمة على العدل في كل شيء والتي تستلزم تعميم مقتضياتها على كافة الناس، ولكن البشرية لما عميت عنه ولم تفهم أهمية الاقتصاد القائم على توقير النعم وشكر المنعم، واستهترت بالخيرات وقع الظلم بين الفئات والمجتمعات، فعادت لتكتشف نفس الدرس مبسوطاً هذه المرة في وقائع التاريخ وفي لطمات العقاب كما يسميها النورسي:

"نعم لقد أثبت الزمان فعلاً هذه الكرامة الاقتصادية وذلك عندما شهدت البشرية بعد عامين الحرب العالمية الثانية. . . تلك الحرب التي بثت الجوع والتخريب وضروب الإسراف المقيت في كل أنحاء العالم مما أرغم البشرية على التشبث بالاقتصاد والالتفاف حوله عنوةً"²⁴

5 دليل الحكمة ، الميزان الشامل :

نقطة الارتكاز الأساسية في ميزان الله ، حسب النورسي، هي الحق. الحق الذي قامت به السموات والأرضين، والحق الذي هو منهج الحياة العامة ومطلب جميع الشرائع السماوية. فلماذا كانت الحججة للإقناع بهذا الحق هي منطق الشريعة وليس الغلبة القائمة على الإكراه والعنوة والقوة. وذلك هو السبيل الذي سيحمل الناس على حب السلام و جعله خياراً كونياً ، ليس لأنهم أكرهوا على تبني معاييرهم بل لأنهم اقتنعوا بجدواهم ومغزاه :
" الحق بدل القوة، ومن شأن الحق دائماً: العدالة والتوازن. ومن هذا ينشأ السلام ويزول الشقاء"²⁵

إن هذا الميزان الإلهي يحكم بالحق كل شيء ، ولا يخرج عن تديره أي شيء، ولا يجابي جهة على حساب أخرى سواء كانت أضخم الجرات أو أبسط الذرات:

"النجوم والشموس التي هي أكبر من الأرض بألف مرة، يوزن كل منها بذلك الميزان ويكال بمكياله، فتعطي لتلك المخلوقات كل ما يلزمها من حاجيات من غير نقص وقصور حتى تتساوى أمام ذلك الميزان، ميزان العدالة، تلك المخلوقات الصغيرة جداً مع تلك المصنوعات الخارقة في الضخامة"²⁶

إن المراد الأصلي للشريعة الغراء هو أن تنصب على الأرض موازين القسط، حتى تكون البشرية بكل أجناسها وأسمائها ومستوياتها، سواء أمام ميزان العدالة. فالمل معني بأن تصان كرامته وأن تحفظ حقوقه، ولا يجوز العدوان على الفرد الواحد كيفما كان نوعه -إلا بالحق الذي يقرره ميزان الحق- وكل عدوان أو تجن عليه هو عدوان وتجن على النوع البشري كله .

وبذلك تكون النواميس الاجتماعية مماثلة للنواميس الكونية في مطلب الحق والعدالة، وقد تكفل الله بالنواميس الكونية إذ لا قبل للناس بتدبير شؤونها ، وأمرهم بتدبير الشؤون الاجتماعية بميزان بينه لهم وأمرهم بالالتزام بمقتضياته وذلك مناط تكليفهم وموجب محاسبتهم. لهذا كانت الآخرة في رأي النورسي حاجة ماسة ومطلب ضروري حتى تسلم الحقوق الدنيوية وتنتصب العدالة الاجتماعية.

إن التعبير بالميزان في القرآن الكريم وذكر السموات ولأرض معه دليل على كليته وشموليته، وذكره أكثر من مرة في الحيز الواحد من القرآن الكريم دليل على ضرورته وأهميته:

"وإن ذكر الميزان أربع مرات في "سورة الرحمن" إشارة إلى أربعة أنواع من الموازين في أربع مراتب وبيان لأهمية الميزان البالغة ولقيمتها العظيمة في الكون. وذلك في قوله تعالى: (والسمااء رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ - الأ تَطَعُوا فِي الْمِيزَانِ - وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ) (الرحمن: 7-9).

نعم، فكما لا إسراف في شيء، فلا ظلم كذلك ظلماً حقيقياً في شيء، ولا بخس في الميزان قط، بل إن التطهير والطهر الصادر من التجلي الأعظم لاسم "القدوس" يعرض

الموجودات بأبهى صورتها وأبدع زينتها، فلا ترى ثمة فذارة في موجود، ولا تجد قبحاً أصيلاً في شيء ما لم تمسه يد البشر الوسخة"²⁷

إن الإسلام وفق المقاييس النورية لا يمكن إلا أن يكون سلاماً بالطبيعة، وأما بالفطرة ما دام ديناً أعد لإعمار الأرض بالخير، وإقامة ميزان الحق، وجعل ذلك مداراً لتكليف العباد، ثم أحيط ذلك التكليف بكل ضمانات العدالة الأخروية الصارمة. وجعلت كل أعمال البر عبادات في رحاب مسجد كبير تتراحب قبلته بكل أفعال الخير التي تسلم وجهها لله ويكون غايتها النفع العام.

من أجل ذلك كان شأن المسلمين -وهو ما ينبغي أن يكون دائماً- أنهم غارقون في عبادتهم بهذا المسجد الكبير المسمى دار الدنيا، ولذلك جازت لهم الصلاة في كل بقعة من بقاعه، حتى يشيعوا السلام أينما كانوا؛ احتراماً لقدسية الأرض التي يعبدون الله عليها. وهذا حسب النورسي هو الذي أهل الرعيل الأول ليفتحوا للبشرية عهداً الجديد مع الخيرية الكبرى:

"وهكذا يمثل هذه الوظائف المتنوعة للعبودية، أدواً فريضة عمرهم ومهمة حياتهم في هذا المسجد الأكبر المسمى بدار الدنيا، حتى اتخذوا صورة أحسن تقويم، واعتلوا مرتبةً تفوق جميع المخلوقات قاطبة، إذ أصبحوا خلفاء أمناء في الأرض، بما أودع فيهم من الإيمان والأمانة"²⁸

والحاجة اليوم أمس لإشاعة هذه المفاهيم العادلة بين البشرية، خصوصاً ونحن نجد تطالعات كونية غير مسبوقه لإعمار العالم بمفاهيم بديلة، وإقامة ميزان بشري توزن به أعمال الحياة والشعوب قاطبة. لكنه ميزان قائم على القوة بدل الحق وعلى المنفعة بدل الفضيلة، وهذا سبب تناقضه مع الموازين الإسلامية التي :

" نقطة استنادها هي الحق بدلاً من القوة. والحق من شأنه: العدالة والتوازن. وهدفها: الفضيلة بدلاً من المنفعة، والفضيلة من شأنها: المحبة والتجاذب"²⁹

لقد تنبه النورسي بجموية بالغة إلى كل التطالعات العالمية للسيطرة على العالم، وقرأ مناهج تلك السيطرة وأنظمة التحكم التي تنشده تلك الدول الطاغية بسطها. فلم يكن يلتفت إلى شعاراتها بل يقرأ وقائعها ويفكك عناصرها الداخلية ليثبت له أن منافسة هذه

الشرائع الظالمة للشريعة العادلة هو عدوان مزدوج ، من جهة على من تعتبرهم هذه الدول خصوماً، ومن جهة ثانية بمن تمثلهم من شعوب ودول. بل كان النورسي يرى في أنوية التسلط المسنود بمنطق القوة والحجاج الإعلامي ومغالطة الضمير، نوعاً من الحيف ستستن به كل قوة غاشمة آنت من نفسها القدرة على التطاول على حقوق الآخرين، وستصبح شريعة الهيمنة والعدوان طموحاً تتنافس في تحقيقه كل دولة آنت من نفسها سعة في النفوذ وبسطة في القوة. قال النورسي ذلك وهو يرصد العدوان البريطاني في الهند، وصدقت نبوءته بعدوان أمريكا الأخير :

"نعم ! لقد أظهر الزمان أن دولة تسمى داعية الحرية، قد كَبَلت بثلاثمائة من موظفيها المستبدين ثلاثمائة مليوناً من الهنود، منذ ثلاثمائة سنة، وسيطرت عليهم كأهم ثلاثمائة رجل لا غير، حتى لم تتركهم يحركون ساكناً. ونفذت قانونها الجائر عليهم بأقصى صورة من صور الظلم، آخذة آلاف الأبرياء بجريرة مجرم واحد. أعطت لقانونها الجائر هذا اسم العدالة والانضباط. فخدعت العالم ودفعته إلى نار الظلم. هذه الدولة غدت مقتدى ذلك الاستبداد القادم في المستقبل"³⁰

وسيتواصل استقراء النورسي للوقائع والأحداث، مسترشداً بالآليات الاعتبارية التي حض عليها القرآن الكريم، فيمنح لنظرة بعدا استقبالياً يستشرف اللاحق من خلال السابق، ويبين نتائج ما سيكون على ضوء ما هو كائن. فيخرج له من تأمله ذلك وعي استراتيجي مفعم بروح المستقبلات . حتى إن الباحث ليعجب من كلام النورسي ذلك وهو يطفح بالراهنية:

"إن ضلال البشرية وعنادها النمرودي وغرورها الفرعوني، تضخّم وانتفش حتى بلغ السماء ومسّ حكمة الخلق، وأنزل من السموات العلاء ما يشبه الطوفان والطاعون والمصائب والبلايا. تلك هي الحرب العالمية الحاضرة. إذ أنزل الله سبحانه لطمة قوية على النصارى بل على البشرية قاطبة. لأن أحد أسبابها التي يشترك فيها الناس كلهم هو الضلال الناشئ من الفكر المادي، والحرية الحيوانية، وتحكم الهوى"³¹

ثم وكأنما يتحدث عن شعارات الغطرسة المعاصرة، وهي تقلب الحقائق وتلبس المفاهيم دلالات نقيضة:

"سيكون زمان يُخفي الضدَّ ضدهُ، وإذا باللفظ ضد المعنى في لغة السياسة. وإذا بالظلم¹ يلبس قنسنوة العدالة، وإذا بالخيانة ترتدي رداء الحمية بثمان زهيد. ويُطلق اسم البغي على الجهاد في سبيل الله ويسمى الأسر الحيواني والاستبداد الشيطاني حرية"³²

أليس هذا حديثا عن سجن "أبو غريب" ؟

أليس الاستبداد الشيطاني فعلا هو الذي يسوق اليوم للبشرية على أنه حرية ؟

أليست الاستهانة بحق الحياة دليلا على إفلاس الموازين الغربية التي تريد بسط عدالتها بديلا عن ميزان رب العالمين؟

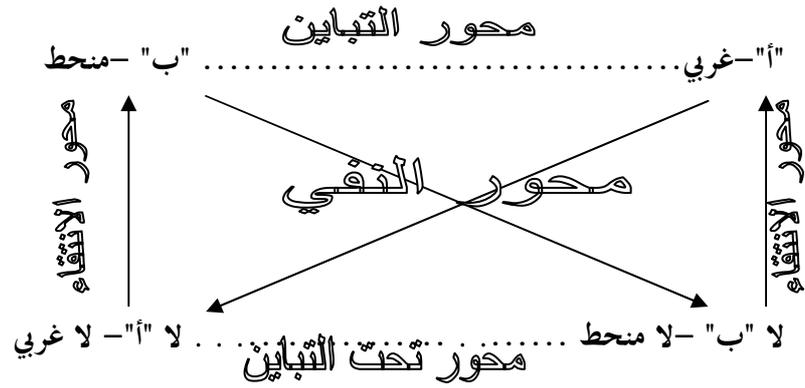
"إن العدالة التي لا مساواة فيها ليست عدالة أصلا. "33

6 العدل أصل الدين وعنوان العقيدة :

لو تدرجنا إذن بمقتضيات العدالة في الإسلام لوجدناها تناسب مختلف المقامات الإنسانية، فردية كانت أو جماعية، محلية أو دولية. وهذه الخصائص مفروضة على المسلمين شرعا و هم يتعبدون ربهما ويتقربون إليه بواسطتها. فليس أمامهم -إذن- إلا خيار واحد هو إقامة العدل في أنفسهم وإحقاقه مع غيرهم . وبذلك يكتسبون أهلية الشهود الحضاري على الناس لأنهم يجرون فيهم بمقتضى مراد رب الناس.

فإذا نظرنا في الميزان الغربي سنجد عادلا محليا وظالما عالميا، وبذلك تكون البشرية كلها خاسرة بغياب التشريع الإسلامي وشغور محله لفائدة التشريع الغربي.

ولو حاولنا أن نسقط الفكرة الغربية على مربع دلالي يكشف لنا ، مستوى التقدير الغربي لكل ما ليس غربيا لاتضح لنا أن التمرکز حول الذات المحلية ومحاوله استتباع العالم لحاجياتها، ليس فقط خروجا عن حدود الإنصاف بل تأصيل للاعدالة، وتمكين للكيل بمكيالين:مكيال الإنصاف لكل ماهو غربي ، ومكيال الإجحاف لكل ما ليس غربيا -خصوصا ماكان إسلاميا، لأن العصبية على الإسلام نابعة من الإحساس برسالته العالمية ومنافسته للتمدد الكوني للرسالة الغربية المنقوصة.



لا يخفى أن هذا النموذج التمثيلي يعكس إصرارا على حصر الاختيار وتضييق الأفق بنوع من العصبية لا يبررها المنطق. فإذا كان محور النفي صحيحا: (أ... لا أ = غربي... لا غربي)؛ فإن محور الانتقاء يعكس شوفينية عنصرية لا يمكن أن تحوز صفة الأهلية للشهود على الناس، لأنها قائمة على التنقيص من أقدارهم والخط من قيمتهم . وإلا فإن الانتقال من عنصر تحت التباين: (لا أ / لا غربي إلى عنصر التباين ب / منحط) غير مبرر، ذلك أن " لا أ " قد تكون "ب" أو "ج" أو "س" .. أو "ن". فليس كل ما لا يكون غربيا يكون منحطا، وليس كل ما لا يكون منحطا يكون غربيا. ولعل هذه العصبية الظاهرة انتقلت من الصف الثالث والثاني في المجتمعات الغربية إلى الصف الأول حيث لا يعمل كبار المسؤولين من ترديد: "نحن أمة الأحرار، ومعسكر الأحرار... " بما يفيد: "وغيرنا من ثقافات وهويات معسكر العبيد وأمة العبيد"

فإذا ثبتت الفكرة الرئيسة التي يريد النورسي ترسيخها في ذهن العالمين، وهي أن القيم الإسلامية لازمة للحياة كما تلزم القيم الطبيعية سيرورة الكون، لزم أن نعرف حاجتنا في العالم الإسلامي إلى استعادة الوعي بمسؤوليتنا التاريخية تجاه العالمين.

مما يستوجب تأهيل السياسة الداخلية في العالم الإسلامي ورفع الحيف والاستعباد، وتمكين المسلم من الإعزاز المطلوب . لأن في السياسة الإسلامية كما تمارسها الدول الإسلامية اليوم قدر كبير من الاستضعاف، يعطي انطبعا خاطئا أن الأمة الإسلامية

فعلا لا تعيش إلا مع الاستبداد والقهر. وهو أمر عمد النورسي إلى كل الوسائل الحجاجية الممكنة للبرهنة على بطلانه.

ولعل هذا يتحقق، بتفعيل المنظومة الأصولية، وإضافة عنصر سادس ليكون أصلا من أصول الدين الكبرى التي جاءت الشريعة لإقامتها وهو "العدل". ثم جعله على رأس الأصول كلها لأن الذي نخلص إليه عبر هذه الرحلة الموجزة في فكر النورسي أن المكونات الأخرى كلها مشروطة به، وتكون بذلك هذه الأصول الستة الكبرى هي :

1- حفظ العدل

2- حفظ الدين

3- حفظ العقل

4- حفظ النفس

5- حفظ المال

6- حفظ العرض

وواضح مما سبق أن النورسي يعتبر العدالة دليل على الحكمة الإلهية، وغياها معناه العبث بهذه الحكمة وإخلال بموازينها الشبيهة بالإخلال بموازين الكون... مما ينجم عنه باستعمال القياس الافتراضي :

تغييب العدالة = غياب السلام

اضطراب الكون = استحالة الحياة

فليس عبثا جعل النورسي العدل عقيدة كبرى لا يصح دين بدونها، كما تبين

ذلك هذه التسيحة الدالة:

"جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظَمَ شَأْنُهُ اللهُ أَكْبَرُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ قُدْرَةٌ وَعِلْمًا، إِذْ هُوَ الْعَادِلُ الْحَكِيمُ الْقَادِرُ الْعَلِيمُ الْوَاحِدُ الْوَاحِدُ السُّلْطَانُ الْأَزَلِيُّ الَّذِي هَذِهِ الْعَوَالِمُ كُلُّهَا فِي تَصَرُّفٍ قَبْضَتِي نِظَامِهِ وَمِيزَانِهِ وَتَنْظِيمِهِ وَتَوَازِينِهِ وَعَدْلِهِ وَحِكْمَتِهِ وَعِلْمِهِ وَقُدْرَتِهِ، وَمَظْهَرٌ سِرٌّ وَاحِدِيَّتِهِ وَأَحَدِيَّتِهِ بِالْحَدْسِ الشُّهُودِيِّ بَلْ بِالْمَشَاهِدَةِ. إِذْ لَا خَارِجَ فِي الْكُونِ مِنْ دَائِرَةِ النَّظَامِ وَالْمِيزَانِ وَالتَّنْظِيمِ وَالتَّوْزِينِ؛ وَهُمَا بَابَانِ مِنَ "الْإِمَامِ الْمُبِينِ"

وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ". وَهُمَا عُنْوَانَانِ لِعِلْمِ الْعَلِيمِ الْحَكِيمِ وَأَمْرِهِ وَقُدْرَةِ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ وَإِرَادَتِهِ. فَذَلِكَ النَّظَامُ مَعَ ذَلِكَ الْمِيزَانِ، فِي ذَلِكَ الْكِتَابِ مَعَ ذَلِكَ الْإِمَامِ بُرْهَانَانَ نَبْرَانَ لِمَنْ لَهُ فِي رَأْسِهِ إِذْعَانٌ، وَفِي وَجْهِهِ الْعَيْنَانِ، أَنْ لَا شَيْءَ مِنَ الْأَشْيَاءِ فِي الْكَوْنِ وَالزَّمَانِ يَخْرُجُ مِنْ قَبْضَةِ تَصَرُّفِ رَحْمَنِ، وَتَنْظِيمِ حَنَّانٍ، وَتَزْيِينِ مَنَّانٍ، وَتَوْزِينِ دِيَّانٍ³⁴

إن إقامة العدل وإشاعة السلام طمأنينة دنيوية تسهل إقامة ضيوف الرحمن في هذا الفندق البديع ، المسمى دار الدنيا، وتمهد لهم الطريق نحو الإقامة الأبدية في دار السلام الأخرى:

"وستفهم أن ساكني هذا الفندق هم ضيوف مسافرون، وإن ربحم الكريم يدعوهم إلى دار السلام"³⁵

والسلام عليكم

الهوامش

- 1المكتوب الخامس عشر - ص: 68
- 2الخطبة الشامية الأحمديّة الدار البيضاء 2001 ص40
- 3اللمعة الثلاثون - ص: 519
- 4الملاحق - ملحق قسطنوني، ص: 203
- 5الكلمة الحادية عشرة - ص: 136
- 6اللمعة السابعة عشرة - ص: 178
- 7اللمعة السابعة عشرة - ص: 178
- 8الكلمة الثانية والثلاثون - ص: 757
- 9الملاحق - ملحق قسطنوني، ص: 122
- 10صيقل الإسلام/السانحات - ص: 357
- 11صيقل الإسلام 357
- 12صيقل الإسلام 358
- 13صيقل الإسلام 470
- 14الكلمة العشرون - ص: 283

- 15سيرة ذاتية 115
- 16اللمعة الرابعة والعشرون - ص: 300
- 17إشارات الإعجاز - ص: 280
- 18الكلمة الثانية - ص: 11
- 19الشعاع الحادي عشر - ص: 264
- 20اللمعة الرابعة والعشرون - ص: 304
- 21اللمعة الثلاثون - ص: 526
- 22اللمعة التاسعة عشرة - ص: 213
- 23اللمعة التاسعة عشرة - ص: 222
- 24اللمعة الثلاثون - ص: 525
- 25اللوامع - ص: 855
- 26الشعاع الثاني - ص: 36
- 27اللمعة الثلاثون - ص: 526
- 28الكلمة الخامسة والعشرون - ص: 497
- 29صيقل الإسلام/السانحات - ص: 359
- 30صيقل الإسلام/المناظرات - ص: 382
- 31اللوامع - ص: 873
- 32اللوامع - ص: 849
- 33اللوامع - ص: 873
- 34اللمعة التاسعة والعشرون - ص: 485
- 35الكلمة العاشرة - ص: 78

دور الأخلاق في تغيير الواقع المعاصر من خلال فكر الإمام النورسي

د. عبد العظيم أحمد عبد العظيم

جامعة الإسكندرية

مصر

توطئة

إن الله يبعث على رأس كل قرن لهذه الأمة من يجدد لها دينها؛ وقد شهد القاضي والداني للإمام النورسي — رحمة الله — بالإخلاص لدين الله وربطه بين التراث والحياة المعاصرة، ومما لفت انتباهه في الحياة المعاصرة فساد أخلاقها، فشرع يفند أسباب هذا الفساد وكيفية وضع العلاج الناجع له من خلال تراث الإسلام. ومن ثم فإن الأخلاق في كليات رسائل النور هي جوهر العمل الديني عند الإمام. ومن المقاصد الرئيسة في كل مؤلفاته ولذلك تعددت أوصافها ونعوتها، وهي نعوت لم تتعد عن المفهوم الذي قصده السلف، حيث أنهم كانوا يفصلون الحديث عنها في أبواب (المكارم)، أو (الفضائل)، أو (الآداب)، وقد أثر الإمام النورسي مصطلح (الكليات الخلقية) لأنه جامع ومستغرق للقضايا الخلقية، ومراد الإمام من الحديث عن الأخلاق إلى بعث المسلمين بعثاً قرآنياً يستوعب حضارة العصر، لكنه لا يحمل أوزارها وأوساخها. ومن هنا فإن هذا البحث يهدف إلى دراسة الأخلاق عند الإمام النورسي من خلال بحوثه ومصنفاته، وسلوكه وأفعاله. وذلك في أربعة مطالب؛ أولها تعريف الأخلاق، والثاني مصادر الأخلاق عند الإمام النورسي والثالث عن أسباب انهيار الأخلاق ومظاهره وآثاره على المجتمعات، والمبحث الرابع عن المنهج النوري في الإصلاح.

أولاً.. تعريف الأخلاق:

قال الراغب الأصفهاني في مفرداته: الخَلْقُ والخُلُقُ في الأصل واحد، لكن خص الخَلْقُ بالهيئات والأشكال والصور المدركة بالبصر، وخص [الخُلُقُ] بالقوى والسجايا المدركة بالبصيرة. وقال صاحب مختار الصحاح: والخُلُقُ بسكون اللام وضمها: السجية. وفلان يَتَخَلَّقُ بغير خلقه: أي يتكلفه، فالأخلاق في اللغة تعني التصرفات الإنسانية الصادرة عن أوصاف النفس وسجاياها الباطنة. وفي الحديث: "ليس شيء في الميزان أثقلَ من حُسن الخُلُقِ"¹، ونظرية الأخلاق مسطورة في كل كتب الفلاسفة والحكماء، ولكنها ليست كنظرية الإسلام، كما أن حديث الحكماء عنها ليس كحديث الإمام.

أ — الأخلاق في المدارس الفلسفية:

وتتسم المذاهب الأخلاقية غير الإسلامية بالجزئية، إذ يأخذ بعضها بمبدأ الأخلاق الطبيعية، ويقتصر بعضها الآخر على مبدأ الأخلاق العلمية، بينما يدعوا آخرون إلى الأخلاق الواقعية أو الأخلاق العلمانية. وكل نظرية أخلاقية اعتمدت مفهوما واحدا. ونظرية أريستيب وأبيقور تقوم على اللذة، ونظرية سقراط وأفلاطون تقوم على السعادة، ونظرية نيتشه أساسها القوة، ونظرية إيمانويل كانط تقوم على الواجب، ونظرية بنتام وجون استيوارت مل تقوم على المنفعة،

وقد تحدث أفلاطون عن (المدينة الفاضلة)؛ ورغم مثاليته التي يصبو إليها إلا أنه لجأ إلى ما يسمى (الكذب الضروري). حيث أنه لم يجد حرجا في لجوء الحكام والفلاسفة أحيانا إلى الكذب وخداع المواطنين من الطبقة الدنيئة، بينما لا يجوز لهؤلاء المواطنين أن يخدعوا الحكام. ويكون ذلك الكذب ضروري لأن المعدن الذي خلقت منه كل طبقة مختلف عن المعدن الذي خلقت منه الأخرى²! وهكذا فغاية الأخلاق الأفلاطونية تمجيد (الأنا) للحكام والفلاسفة والنبلاء. وبعد أفلاطون تطورت الأخلاق إلى مذهب نفعي في صورة مادية محضة كما هو الحال في الليبيرالية أو الماركسية، كما أثبتته مؤرخ الفلسفة الغربية الفيلسوف الإنجليزي (برتراند راسل)³،

وقد حصر فلاسفة الإسلام وحكماؤه أصول مكارم الأخلاق في (الحكمة والشجاعة والعفة والعدل و الصبر)، وهي تتولد — حسب تصورهم — من ثلاثة قوى: (القوى

الفكرية، والقوى الغضبية والقوى الشهوية⁴ وحدد الحافظ ابن حجر الكليات الخلقية في خمسة أصول استنبطها من حديث خديجة للنبي ρ حين قالت: (كلا والله ما يجزيك الله أبدا، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق)⁵

ب - التعريف النوري للأخلاق:

وفي اصطلاح بديع الزمان النورسي؛ فالأخلاق هي: [نظام القرآن الذي يطبع صورة الروح الإنسانية بماهيتها، ويسلك بها مدارج التربية والمجاهدة؛ لاكتساب معناها الكوني]. ومن ثم فإن المنظومة الأخلاقية التي وضع أسسها النورسي، تستوحي الأخلاق القرآنية والأخلاق المحمدية جميعها، ولذلك فهي تتسم بالعموم والكلية والشمول، فقد شملت علاقة الإنسان بخالقه وعلاقة الإنسان بأخيه الإنسان، وعلاقة الإنسان بكل عناصر الكون ومكوناته.. ويرى الإمام أن [الأخلاق عزة لأن من أراد العبودية الخالصة لرب العالمين لا ينبغي له أن يذل نفسه فيكون عبداً للعبيد. وحيث أن كل إنسان راعٍ في ملكه وعالمه فهو مأمور بالتخلق بأخلاق النبي ρ وإحياء سنته الشريفة]⁶ كما أن [الإفراط والتفريط في الأخلاق يفسدان الاستعدادات والمواهب. وهذا الإفساد ينتج العبثية، وهذه العبثية مناقضة للحكمة الإلهية المهيمنة برعاية المصالح والحكم حتى على أصغر شئ في العالم]⁷.

إن كثيرا من الأحكام الدينية، والتشريعات القرآنية، التي دأب بعض الكتاب على تصنيفها خارج مفهوم الأخلاق، جعلها الإمام من صميم الأخلاق، وأصولها. ومن هذا الفهم الشامل للأخلاق تحدث الإمام عن الصدق والشورى والعدل والتعاون والأخوة والأمل والتواضع والاجتهاد والوفاء والعفة والمحبة والشكر وغيرها، بل إنه خصص لبعضها رسائل مستقلة، كما نبه على خطورة الأخلاق الذميمة مثل الكذب والرياء والنفاق والظلم والتفرق والتعصب والتكبر والأنانية واليأس والاستبداد والتكاسل والعداوة والشر والخيانة. ويستدل على صدق ما وصل إليه بحضارة الإسلام فيقول: [أما المدنية التي بنيت على أساس التشريع الإسلامي والأخلاق المحمدية الرفيعة، فإنها مبنية على الحق والفضيلة والرابطة الدينية والتعاون والهدى، وهذا ما يؤدي إلى العدالة والتوازن

والمودة والأخوة والمسألة والاتحاد وترقي الإنسان⁸] وهذا هو سر التزام الناس بالقانون التشريعي الإسلامي حيث عمقه الخلق الرفيع.

ويرى الإمام أن الأخلاق نسبية في درجة تطبيقها من موقف لآخر ومن شخص لآخر، إذ يقول: "إن الفضائل والأخلاق، وكذا الحسن والخير، أغلبها أمور نسبية، تتغير كلما عبرت من نوع إلى آخر، وتباين كلما نزلت من صنف إلى صنف، وتختلف كلما بدلت مكانا بمكان، وتبدل باختلاف الجهات، وتتفاوت ماهيتها كلما علت من الفرد إلى الجماعة، ومن الشخص إلى الأمة. فمثلا: الشجاعة والكرم في الرجل تدفعانه إلى النخوة والتعاون، بينما تسوقان المرأة إلى النشوز والوقاحة وخرق حقوق الزوج. ومثلا: إن عزة النفس التي يشعر بها الضعيف تجاه القوي، لو كانت في القوي لكانت تكبرا، وكذا التواضع الذي يشعر به القوي تجاه الضعيف، لو كان في الضعيف لكان تذلا. ومثلا إن جدية ولي الأمر في مقامه وقار، بينما لينه ذلة، كما أن جديته في بيته دليل على التكبر، ولينه دليل على التواضع"⁹

وقد عنى الإمام في نظريته الأخلاقية بالصدق واعتبره أساس الإسلام، والرباط لكل الكمالات.. وهو الحياة للأخلاق العالية [وهو الذي يُسرّع بنوع البشر في طريق الترقى - كالبرق - إلى كعبة الكمالات.. وهو الذي يصير أحمد الناس وأفقره أعزّ من السلاطين.. وبه تفوّق أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام على جميع الناس.. وبه ارتفع "سيدنا محمد الهاشمي" عليه الصلاة والسلام إلى أعلى عليين مراتب البشر¹⁰] والصدق هو أس أساس الإسلام، أساس عظيم وجوهر ساطع، وواسطة العقد في سجايه الرفيعة ومزاج مشاعره العلوية. فعلينا إذا أن نحبي الصدق الذي هو حجر الزاوية في حياتنا الاجتماعية في نفوسنا ونداوي به أمراضنا المعنوية¹¹] وإذا كان الصدق أس الإسلام فإن من لا يتبع الإسلام يحتل ببيان الصدق عنده؛ ومن ثم يقول الإمام: [إن الكفر بجميع أنواعه كذب. والإيمان إنما هو صدق¹²]. ويقول أيضا: [أما الكذب فلا يسمح به قطعا¹³] [إن الأخلاق العالية إنما تتصل بأرض الحقيقة بـ "الجدية" وان إدامة حياتها وانتظام مجموعها إنما هي بـ "الصدق". ومتى ما انقطعت عرى الصدق والجدية منها صارت كهشيم تذروه الرياح.¹⁴]

[ولما كان الصدق إيمانا والكذب كفرا، أي كانا متضادين ومتناقضين تباعدا وتدافعا: "وعلى هذا فالبون شاسع بين الصدق والكذب بُعد ما بين المشرق والمغرب. ولا ينبغي أن يختلط الصدق والكذب اختلاط النور والنار، إن الصدق والكذب بعيدان أحدهما عن الآخر بعد الكفر عن الإيمان، ولكن لما ابتعد الناس عن الفطرة والأخلاق الحميدة، اختلط الصدق والكذب، وأعطت الدعايات السياسية رواجاً كبيراً للكذب وأفسحت له المجال فبرز في الميدان، ووجدنا من ينظر للكذب ويعتبره ظاهرة لغوية ونصية، أي ظاهرة طبيعية¹⁵]

ثانياً — مصادر الأخلاق عند النورسي:

يقول الإمام: "إن إصابة الأمة في قلبها إنما هو من ضعف الدين، ولن تنعم بالصحة إلا بتقوية الدين، أما مسلكنا فهو التخلق بالأخلاق الحميدة ρ وإحياء السنة النبوية، ومرشدنا في الحياة: الشريعة الغراء، وإذا كانت الأخلاق فطرة فطر عليها الإنسان، فإن دور الدين يتمثل في تثبيت هذه الفطرة وتكميلها وتهذيبها¹⁶". من خلال هذا النص يتبين لنا أن مصادر الأخلاق عند الإمام تتمثل في:

أ- الفطرة:

الفطرة هي طبيعة الكائن التي تصاحبه منذ نشأته، وهي التي لم تستمد من التجربة، قال تعالى: "فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله" ويذهب الإمام إلى أن الأخلاق فطرية في الإنسان أي أنها مركوزة في بنينه وخلقته، وأنها مقوم أساسي من مقومات ذاتيته وهويته.

إن الإنسان مفطور على التدين والخير والصدق والسعي نحو الكمال، وكل الأخلاق الحميدة، فالأخلاق الحميدة هي القاعدة، والأخلاق الرديئة المذمومة هي الاستثناء، والأخلاق الأولى هي غاية في حد ذاتها وهي السائدة الغالبة في نظام الكون ونظام الكائنات، أما الأخلاق الفاسدة، وإن كانت مركوزة هي الأخرى في الفطرة، فهي جزئية وثانوية، ووجودها إنما كان بقصد التعرف على تجليات الحق والخير والجمال والكمال، وقديماً قيل: "بضدها تتبين الأشياء". والدليل على فطرية الأخلاق أن كلمتي

الخُلُق والخُلُق في اللغة العربية مشتقتان من مادة لغوية واحدة، أي أهما تنتمي إلى نفس الجذر اللغوي "خ.ل.ق".

ب — القرآن:

إن تصور الإمام للمعنى المستنبط من القرآن قائم على أن القرآن — كل القرآن — إنما جاء لبناء الأخلاق، وذلك هو منطوق حديث عائشة رضي الله عنها لما سئلت عن خلق النبي ﷺ فقالت في حديثها الذي يرويه مسلم في صحيحه: (كان خلقه القرآن) ومن ثم فإن رسالة القرآن إنما جاءت لتصنع مجتمعاً قائماً على أساس الأخلاق، بمعنى كلي. فكل التصرفات البشرية في العلاقات النفسية، والاجتماعية، والوجودية، مع سائر الكائنات؛ إنما هي أخلاق. لذلك فإن تصور الأخلاق على أنها (فضيلة) أو (نافلة) هو مفهوم جزئي. والافتقار عليه يؤدي إلى تحريف الدلالة القرآنية، ذات البعد الشمولي العميق لمصطلح (أخلاق). فالقرآن نظام رباني، أنزله الله لتنظيم حياة الإنسان. ولذلك بين الإمام أن أخلاق القرآن قد وسعت كل ما جاءت به الكتب السماوية السابقة وزيادة. قال رحمه الله: (إن أصول الأخلاق في القرآن عالية علو ما جاء في كتب الديانات الأخرى جميعها. إن أهم نتيجة يمكن استنباطها هي تأثير القرآن العظيم في الأمم التي أذعن لأحكامه، فالديانات التي لها ما للإسلام من السلطان على النفوس قليلة جداً، وقد لا تجد ديناً اتفق له ما اتفق للإسلام من الأثر الدائم، والقرآن هو قطب الحياة في الشرق وهو ما نرى أثره في أدق شؤون الحياة¹⁷)

ج — الرسول:

إن القارئ المدقق لكليات النور يرى من خلالها حبا خالصا للنبي وسنته؛ وأن الرسائل قد كتبت بمداد الحب النبوي؛ فهي سهلة الوصول إلى شغاف القلوب. ومن ثم يقول الإمام في ثناياها: "إن آثار محمد ﷺ وسيرته المباركة وتاريخ حياته تشهد أنه قد اجتمعت فيه الخصال العالية كافة. ومن شأن امتزاج كثرة من تلك الأخلاق توليد عزة النفس، التي تولد شرفاً ووقاراً يترفعان عن سفاسف الأمور، كترفع الملائكة وتنزههم عن الاختلاط بالشياطين، فالأخلاق السامية كذلك لا تسمح أصلاً بتداخل الحيلة والكذب بينها، بل تنزهه وتبرأ وترفع عنها، بحكمة التضاد فيما بينها¹⁸" ومن ثم فإن "الزمان

الماضي والزمان الحاضر - أي عصر السعادة النبوية - والمستقبل يتضمنان براهين نيرة على النبوة، ويرددان بلسان واحد برهان ذاته p بأنه معدن الأخلاق العالية وداعي الصدق ودلال النبوة¹⁹. وكيف لا وهو القائل: (إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق)²⁰ ولكن محبة المسلمين لنبيهم لا تكتمل إلا باتباع سنته، إذ أن مقياس اتباع السنة رهين بدرجة التخلق بأخلاق رسول الله p .

ثالثاً - فساد الأخلاق:

يعيب الإمام على من يعمدون إلى الفصل بين الأخلاق والحضارة؛ فيقول: [لما كانت مدينة أوربا لم تتأسس على الفضيلة والهدى بل على الهوس والهوى، وعلى الحسد والتحكّم، تغلبت هيئات هذه المدينة على حسناتها إلى الآن. وأصبحت كشجرة منحورة بديدان المنظمات الثورية الإرهابية، وهذا دليل قوي ومؤشر على قرب انهيارها وسبب مهم لحاجة العالم إلى مدينة آسيا الإسلامية التي ستكون لها الغلبة عن قريب²¹] أما [الأعمال اللاأخلاقية الدنيئة والخسيسة التي تحملها حضارة العصر لا قيمة لها فهذا انتصار وقتي لا قيمة له ولا أهمية له أمام بشرى قوله تعالى "والعاقبة للمتقين"²²]

أ - أسباب انهيار الأخلاق:

ويُرجع الإمام فساد الأخلاق في هذا الزمان وغيره من الأزمنة لعدة أسباب منها ما يلي:

1 - الفقر والجهل:

يوضح الإمام العلاقة بين الفقر وسوء الأخلاق فيقول: "لأن السعي والعمل لا يكفيان لمواجهة المصاريف المتزايدة؛ انساق الإنسان إلى مزاوله الخداع والحيلة وأكل الحرام. وهكذا فسد أساس الأخلاق. وبينما تعطي هذه المدينة للجماعة والنوع ثروة وغنى وبهرجة إذا بما تجعل الفرد فقيراً محتاجاً، فاسد الأخلاق."²³ ويرى الإمام أن هذا السبب من السهل تداركه والقضاء عيه وذلك باتباع منهج الاقتصاد الإسلامي، ففي "وجوب الزكاة" و"حرمة الربا" حكمة عظيمة، ومصلحة عالية، ورحمة واسعة؛ إذ لو أمعنت النظر في صحيفة العالم نظراً تاريخياً وتأمّلت في مساوي جمعية البشر لرأيت أسّ أساس جميع اختلالاتها وفسادها، ومنع كل الأخلاق الرذيلة في الهيئة الاجتماعية كلمتين

فقط: إحداهما: "أَنْ شَبَعْتُ فَلَا عَلَيَّ أَنْ يَمُوتَ غَيْرِي مِنَ الْجُوعِ". والثانية: "اِكْتَسِبَ أَنْتَ لَأَكُلَ أَنَا. وَاتَّعَبَ أَنْتَ لِأَسْتَرِيحَ أَنَا".

أما عن العلاقة بين الجهل وسوء الأخلاق فيقول: "إن أعداءنا ليسوا هم الأجانب بل إن عدونا هو الجهل وما تولد منه من منع إعلاء كلمة الله وما نتج عنه من مخالفة الشريعة. ثم البؤس وثمرته سوء الأخلاق وسوء التصرفات، والخلاف وما يتولد عنه من الحقد والنفاق²⁴"

وهو في هذه وتلك يحذر من آفة التقليد فيقول: "إن أحوالي وأخلاقي مخالفة للناس، كما هو الحال في ملابسي. فالتخذوا الأمر الواقع والحق محل النظر وموضع الاعتبار. ولا تتخذوا ما روجه الزمان أو العادات من أخلاق سيئة بتقليد الناس بعضهم بعضاً مقياساً لوزن الأمور²⁵". ويحذر الإمام أشد التحذير من تقليد المستعمرين وأعداء الملة فيقول: إن (الإنكليز) كالشيطان الرجيم يثير أحاسيس الإنسان الخبيثة ويشجع الأخلاق الرذيلة في حين يطفئ جذوة المشاعر النبيلة²⁶".

2 – الإعلام:

لا ينكر الإمام فضل الإعلام في نشر رسالة الإسلام، بل إنه يعد من أخطر وسائل الدعوة، ولكن الإمام يحذر من الإعلام الذي ليس له غاية ولا هدف بل هو إعلام عبثي فيقول: "لقد دأبت الصحف على زعزعة الأخلاق الإسلامية، حتى اهلكوا الأفكار العامة السائدة. فتصديت لهم بمقالات نشرتها في الجرائد²⁷"، فبالإعلام غير الرشيد انفتحت الشعوب على ثقافات غيرها ففتح الباب أمام الثقافة الغربية الرخيصة "التي تستوجب الرذائل في الأخلاق والقضاء على الفضيلة"²⁸ "ونشطت الصحافة في نشر الابتذال في الأخلاق والاستهزاء بالدين، فانتشرت كتب الإلحاد وحلت محل كلمات (الله، الرب، الخالق، الإسلام) كلمات (الطبيعة، التطور، القومية التركية.. الخ)"²⁹

3 – المدارس الفلسفية الفاسدة:

ولا ينكر الإمام الفلسفة التي تدعو إلى الحكمة ومعرفة الحق والخير والجمال، ولكنه ينكر الفلسفة التي غدت وسيلة للتردي في الضلالة والإلحاد إذ يقول: "الفلسفة التي تخدم الحياة الاجتماعية، وتعين الأخلاق والمثل الإنسانية وتمهد للرقى الصناعي، فهي في

وفاق ومصالحة مع القرآن، بل هي خادمة لحكمة القرآن، فلا تعارضها ولا يمكنها ذلك، وأما الفلسفة التي غدت وسيلة للتردي في الضلالة والإلحاد والسقوط في هاوية المستنقع الآسن للطبيعة، فإنها تنتج السفاهة واللهو والغفلة والضلالة وتعارض الحقائق القرآنية³⁰.

ب — مظاهر انهيار الأخلاق:

إن التقدم المادي والازدهار المعاشي، من شأنهما أن يزرعا بالإنسان في حالة من الترف والاستكبار والاعتداد بالقوة والتنكر لموازن الحق.. وهذا هو مصداق قول الله عز وجل: "إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى" ومن ثم فإن المجتمع الإنساني مدعو بل مضطر إلى أن يجدد نفسه دائماً، كي لا يقع في آفة التراجع إلى الاستبداد والطغيان من جراء تألق الحياة المادية وازدهار أسباب المعيشة، وبخاصة أن حضارة اليوم تعتمد على تسييد القوة بمفهومها الشامل، وتسعى لصياغة منظومة قيمية شمولية تقوم على مبادئ وأخلاقيات الليبرالية الجديدة التي تبشر بأبدية الرأسمالية الأمريكية الأوروبية، وانغلاق جميع السبل المناهضة لها.

ومن مخاطر تلك الحضارة تغير النسق القيمي من جهة؛ وفقد الهوية من جهة أخرى، فقد عمل الأمريكان واليهود على تفكيك البنيات الاجتماعية والبنيات الأخلاقية للشعوب فضلاً عن ذلك نصبوا أنفسهم مدافعين عن حقوق الإنسان بتشجيع الأقليات داخل الشعوب والدفاع عنها لتفكيك البنيات الاجتماعية للأمم والهدف هو القضاء على الخصوصيات الشعبية في العالم والوصول إلى إنسان لا انتماء له، لا مرجعية له؛ وإنما إنسان قابل لأن يكون مستهلكاً. وقد نجحوا في تجنيد من يرونه أهلاً لتنفيذ مخططاتهم، ومن [حملوا لواءهم: تكين آلب (يهودي) و ضياء كوك آلب الذي تتلمذ على العالم الاجتماعي الاسرائيلي (دور كيم) وإن لم يحضر دروسه في فرنسا، و أحمد آغايف ويوسف أفجورة، ممن هياثم المخابرات الروسية و أرسلوا إلى تركيا بعد عزل السلطان عبد الحميد.³¹]

وقد أكد الإمام أن [الأعمال الأخلاقية الدنيئة والخسيسة التي تحملها حضارة العصر لا قيمة لها؛ فهذا انتصار وقتي لا قيمة له ولا أهمية له أمام بشرى قوله تعالى "والعاقبة للمتقين"³²] وقد نوه الإمام بأساس الحضارة اللاديني، وبأنها عجنت الثورة على الدين،

فهي في خصومة دائمة مع الدين والأخلاق، وبالتالي فهي عاكفة على عبادة آلهة المادة، وتؤسس في كل يوم لها معبداً جديداً. وهي رغم كل المفاسد لا تريد أن تحيد عن نهجها، مع كل ما عانته من حروب عالمية وأمراض اجتماعية وأخلاقية مستعصية!!.

وينعى الإمام تلك الحضارة في هذا الشق اللاديني اللاأخلاقي - قائلاً لها وللمفتونين بها: [يا أوروبا الثانية (!!) اعلمي جيداً أنك قد أخذت بيمينك الفلسفة المضلة السقيمة، وبشمالك المدنية المضرة السفهية ثم تدعين أن سعادة الإنسان بهما. ألا شئت يداك، وبئست الهدية هديتك، ولتكن وبالاً عليك، وستكون³³].

ومن مظاهر الهيار الأخلاق "الكذب" [وما الكذب إلا افتراء على القدرة الإلهية، وضد للحكمة الربانية.. وهو الذي خرب الأخلاق العالية.. وهو الذي صير التشبثات العظيمة كالشبهات المنتنة.. وبه انتشر السم في الإسلام.. وبه اختلت أحوال نوع البشر.. وهو الذي قيّد العالم الإنساني عن كمالاته، وأوقفه عن ترقياته.. وبه وقع أمثال "مسيلمة الكذاب" في أسفل سافلي الخسة.. وهو الحمل الثقيل على ظهر الإنسان فيعوقه عن مقصوده.. وهو الأب للرياء والأم للتصنع.. فلهذه الأسباب أختص بالتلعين والتهديد والنعي النازل من فوق العرش³⁴].

ج - آثار فساد الأخلاق:

إن المدنية الغربية بنيت على أساس الأخلاق الذميمة، ولذا فإنها لا تكفل سعادة البشرية. إنها بنيت على خمسة مبادئ سلبية:

- مبنية على القوة: وهذا يؤدي إلى الاعتداء والظلم.
- هدفها وقصدتها المنفعة: وهذا من شأنه التدافع والتراحم.
- دستورها في الحياة هو الجدل: وهذا يؤدي إلى التنازع والخصام.
- رابطتها بين الكتل هي العنصرية والقومية السلبية: وهذا يؤدي إلى تصادم رهيب.
- خدمتها الجذابة هي تظمين وتشجيع الهوى والهوس: وهذا يمسخ الإنسان روحياً.

إن من أخطر أخلاق الحضارة الغربية "الحرص والأنانية"، ومن ثم يحذر الإمام من خطرها إذا ما تأصلت وكان لها تأثيراتها فيقول: [الحرص أضرَّ على الحياة الإنسانية وأدهى] و[الحرص بذاته سبب الخيبة والخذلان، وداء وبيل ومهانة وذلة، وهو الذي يجلب الحرمان والدناءة. والحرص يظهر تأثيره السيئ بدءاً من أوسع دائرة في عالم الأحياء، وانتهاءً إلى أصغر فرد فيه³⁵]. و[الذي تمكَّن فيه الحرصُ والأنانيَّةُ، يصبح إنساناً يريدُ القضاء على كل شيء يقف دون تحقيق حرصه حتى تدمير العالم والجنس البشري إن استطاع³⁶] ونتج عن هذا أن حضارة اليوم [تتسم بالدمار الأخلاقي والروحي وبإثارة هوى النفس الأمارة وبإطلاق الشهوات من عقلمها³⁷] [وبهذا الأسلوب أحاطت الحضارة الغربية المجتمعات البشرية بمالة من الهيبة ووضعت في يد صانعيها وحماها ثروة الناس؛ فأصبح الفرد فقيراً وفاقداً للأخلاق³⁸]

ولا يلقي الإمام باللائمة على صناع الحضارة الغربية فقط بل إنه يتهم المسلمين كذلك في تنكبهم طريق الأخلاق وأن ابتعادهم عن طريق الجادة والإيمان لا يقل خطراً عن مهاوى الحضارة المزعومة؛ إذ يقول: [والمانع السادس والسابع لعدم سيادة المسلمين الآن تفشي روح الاستبداد فينا. وانتشار الأخلاق الذميمة النابعة من مجافاة الشريعة ومخالفتها³⁹].

رابعا - النموذج النوري للإصلاح:

قبل أن يضع الإمام منهجاً للإصلاح عمد إلى إصلاح نفسه أولاً، فهذهما، على نهج الأخلاق الحمادية متجاوزاً برازخ النفس والهوى، فبرز في هذا العصر مثلاً فريداً مجسماً لمكارم الأخلاق. فأمضى حياته حاملاً همّة عالية واطمئناناً راسخاً وعفة تامة مع نكران ذات صادق تتحير منه العقول. كل ذلك بما وهبه المولى الكريم من صفاء قلب وتوكل كامل وقناعة تامة، فنرى البساطة الكاملة في عيشه وملبسه بل في كل حاله وطوره. حتى لا تراه يحمل ذرة من محبة الدنيا وميل إليها.

ويروى لنا الإمام لقطات من حياته تعبر عن حُسن منهجه وصدقه في تطبيقه إذ يقول [وقد كنا في "قوصتورما"، في روسيا، مع تسعين من ضباطنا الأسرى في ردهة واحدة، وكنت ألقى عليهم أحياناً الدرس. وذات يوم حضر القائد الروسي وشاهد الموقف

وقال: إن هذا الكردي قائد المتطوعين قد ذبح كثيراً من جنودنا، ويأتي الآن ويلقى دروساً سياسية هنا، لا يمكن هذا، امنعه قطعاً. ولكن بعد يومين قال: يبدو أن دروسكم غير سياسية، بل دينية وأخلاقية. استمر عليها؛ فسمح بإلقاء الدرس⁴⁰ [أما الشباب الذين كانوا يتناوبون عليه أحيانا فكان يوصيهم بقراءة رسائل النور والحذر من مهالك ضياع الأخلاق في هذا العصر ولزوم أداء الصلوات. وبفضل الله فقد صحح الكثيرون من رقدتهم⁴¹]

[وكان الفدائيون الأرمن يذبّحون أطفال المسلمين في عدد من المناطق وكان المسلمون يقابلونهم بالمثل في ذبح أطفال الأرمن. ولكن ما إن جُمع ألوف من أطفال الأرمن في المنطقة التي كانت تحت إمرة بيدع الزمان حتى أمر الجنود: لا تتعرضوا لهؤلاء الأطفال بشئ. ثم أطلق سراحهم جميعاً دون أن يمس أحدهم بسوء. فعادوا إلى عوائلهم التي كانت خلف الخطوط الروسية. هذا السلوك كان درساً قيماً وعبرة للأرمن مما دفعهم إلى الإعجاب بأخلاق المسلمين⁴²]

أ – اتباع الحنيفة السمحاء:

يرى الإمام أن الغلبة ستكون للإسلام كما تنبه إلى ذلك بسمارك الذي يعتبر من أشهر رجال الفكر في تاريخ أوروبا الحديث وأحد الذين حققوا الوحدة الألمانية في القرن التاسع عشر، فالحقيقة التي لا غبار عليها أن الحاكم على الدهر وعلى طبائع البشر إلى يوم القيامة هو حقيقة الإسلام، [فلو أننا أظهرنا بأفعالنا وسلوكنا مكارم أخلاق الإسلام وكمال حقائق الإيمان لدخل أتباع الأديان الأخرى في الإسلام جماعات وأفواجاً، بل لربما رضخت دول العالم وقاراته للإسلام⁴³]

أما عن الدعوة إلى الإسلام وأخلاقه فيرى الإمام أن تكون حسب نهج الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة [إذ أن الظهور على المدنيين من منظور الدين إنما هو بالإقناع وليس بالإكراه. وبإظهار الإسلام محبوباً وسامياً لديهم وذلك بالامتثال الجميل لأوامره وإظهار الأخلاق الفاضلة. أما الإكراه والعداء، فهما تجاه وحشية المهجين⁴⁴]. ولقد أثبت التاريخ أن الذين تربوا في مدارس الإيمان هم وحدهم الذين صلحت بهم الحياة، واعتدل في أيديهم ميزان الحق والعدل. وانكشف بسبب وجودهم، ونقاء أخلاقهم:

أساليب الوضاعة، والحيانة، والغدر. ومن ثم يوجّه النورسي دعوة إلى علماء الاجتماع وعلماء الأخلاق ليروا الفرق الهائل بين أخلاقيات الشريعة المعتمدة على الإيمان وأخلاقيات المدينة الحديثة، مدنية أوروبا، فيقرر أنّ مبدأ الإيمان أساس ترتكز عليه كليات الأخلاق،

ب - خذ ما صفا.. دع ما كدر:

[ما ينبغي أن نخذع، بل نجعل القاعدة الآتية دستور عمل لنا وهي: خذ ما صفا دع ما كدر وفي ضوئها سنأخذ من الأجانب - مشكورين - كل ما يعين الرقي المدني من علوم وصناعات. أما العادات والأخلاق السيئة، فهي ذنوب المدنية ومساوئها التي لا يتبين قبحها كثيراً لكونها محاطة بمحاسن المدنية الكثيرة⁴⁵].

ج - إصلاح الفرد:

لما كان الإنسان هو مصدر الخير والشر جميعاً؛ فإن الإمام يرى وجوب إصلاح أخلاق آحاد الناس قبل الحديث عن إصلاح المجتمع، [فالإنسان هو منبع الشرور الأخلاقية، وبالتالي وجب عليه إصلاح أنانيته التي هي مصدر لمصائب ومعاصي كثيرة، أشنعها وأكثرها سوءاً المصيبة الدينية، والتي تتمثل في الكفر سبب كل الشرور⁴⁶] والسبيل الوحيد إلى تجدد نفس الإنسان أن يشدّ نفسه دائماً إلى وصايا القرآن وأوامره وعظاته. وعندئذ يظل المجتمع الإنساني صاعداً في طريقين من التقدم: طريق التقدم في المعارف والعلوم وأسباب المنعة والقوة، وطريق التقدم على سلم الأخلاق أو القيم الإنسانية الرفيعة، التي لا تعرف التفاتاً إلى الوراء، ولا تتجه إلا صعداً نحو الجدة وفتوة المجتمع الإنساني.

وأخطر ما في الإنسان من مساوئ "الأنانية" وقد فطن الإمام إلى ذلك فقال [لو أمعنت النظر في صحيفة العالم نظراً تاريخياً وتأملت في مساوي جمعية البشر لرأيت أس أساس جميع اختلالاتها وفسادها، ومنع كل الأخلاق الرذيلة في الهيئة الاجتماعية كلمتين فقط: إحداهما: (إن شبعت فلا علي أن يموت غيري من الجوع) والثانية: (اكتسب أنت لأكل أنا، واتعب أنت لأستريح أنا) والدواء لهاتين الخصلتين الفاسدتين هو الزكاة وحرمة الربا⁴⁷].

د - إصلاح الحكم:

لقد جاء في الأثر أن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن، ومن ثم رأى الإمام أن إصلاح السلاطين من ركائز إصلاح الأخلاق في المجتمع، حيث أن نسبة الأخلاق والعبادة وأمور الآخرة والفضيلة في الشريعة هي تسع وتسعون بالمائة بينما نسبة السياسة لا تتجاوز الواحدة بالمائة. ورغم ذلك فإن السياسة الفاسدة قد تضيّع الشريعة كلها، [فلسياسة المبنية على المنافع وحش رهيب⁴⁸] أما السياسة في الإسلام مرتبطة بالعقيدة، وبالأخلاق وبالقيم التي تنادى بها هذه العقيدة، وبلغت الإمام نظر السياسة إلى المعنى الصحيح للحرية فيقول: [يا أبناء الوطن! لا تفسروا الحرية تفسيراً سيئاً كي لا تغفلت من أيديكم، ولا تختنقونا بسقي الاستعباد السابق، الفاسد؛ في إناء آخر! ذلك لأن الحرية إنما تزدهر بمراعاة الأحكام الشرعية وآدابها، والتخلق بالأخلاق الفاضلة⁴⁹] [إن صدى الحرية والعدالة ينفخ نفخ اسرافيل فيبعث الحياة في مشاعرنا المدنية وآمالنا الخاملة وورغباتنا القومية الرفيعة وأخلاقنا الإسلامية الحميدة، حتى يرن صماخ الكرة الأرضية المجذوبة جذبة المولوي، ويهيج الأمة جميعاً ويهزها هزّ المجذوب⁵⁰]

* مصادر الدراسة:

- 1 — ابن حجر "أحمد بن علي أبو الفضل العسقلاني الشافعي" (773 — 852) فتح الباري شرح صحيح البخاري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، محب الدين الخطيب، دار المعرفة، بيروت، 1379. (22/1)
- 2 — إحسان قاسم الصالحى: بديع الزمان النورسي.. نظرة عامة عن حياته وآثاره، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1999.
- 3 — أحمد السايح، فلسفة الحضارة الإسلامية، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، 1990م.
- 4 — بديع الزمان سعید النورسي، إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز، تحقيق إحسان قاسم الصالحى، بغداد، دار الانبار، ط1، 1989.
- 5 — بديع الزمان سعید النورسي، الخطبة الشامية، ترجمة إحسان قاسم الصالحى، الأحمديّة للنشر، البيضاء، 2001.
- 6 — بديع الزمان سعید النورسي، السيرة ذاتية، إعداد ترجمة إحسان قاسم الصالحى، الطبعة الثانية، سوزلر للنشر، القاهرة، 1998 هـ.
- 7 — بديع الزمان سعید النورسي، الشعاعات، ترجمة إحسان قاسم الصالحى، الطبعة الثانية، سوزلر للنشر، القاهرة، 1994 .
- 8 — بديع الزمان سعید النورسي، الكلمات، ترجمة إحسان قاسم الصالحى، الطبعة الثانية، سوزلر للنشر، القاهرة، 1992 م.

- 9 — بديع الزمان سعيد النورسي، اللغات، ترجمة إحسان قاسم الصالحى، الطبعة الثانية، سوزلر للنشر، القاهرة، 1993 م.
- 10 — بديع الزمان سعيد النورسي، المكتوبات، تحقيق إحسان قاسم الصالحى، الطبعة الثانية، سوزلر للنشر، القاهرة، 1992 م.
- 11 — بديع الزمان سعيد النورسي، صيقل الإسلام، ترجمة إحسان قاسم، دار سوزلر، استانبول.
- 12 — بديع الزمان سعيد النورسي، مرشد أهل القرآن، ترجمة إحسان قاسم، سوزلر للنشر، 1998.
- 13 — خليل زياد الدغامين، إعجاز القرآن وأبعاده الحضارية في فكر النورسي، ط1، دار النيل، أزمير، 1998
- 14 — سعيد محمد القرني، المنهج التربوي عند بديع الزمان سعيد النورسي، رسالة ماجستير غير منشورة، قسم التربية الإسلامية والمقارنة، جامعة أم القرى بمكة المكرمة، 1998
- 15 — محسن عبد الحميد، النورسي متكلم العصر الحديث، سوزلر للنشر، القاهرة، 1995.
- 16 — محمد التهامي، النورسي أنوار لا تغيب، الطبعة الأولى، القاهرة، 1998 م.
- 17 — محمد زاهد الملازكردي، عجلة مقتطفة من أقلام أفاضل العلماء والدكاترة في حياة الإمام الخليل بديع الزمان سعيد النورسي، دار الآفاق الجديدة، بيروت، د. ت.
- 18 — هنري كوربان، تاريخ الفلسفة الإسلامية. ترجمة: نصير مروة وحسن قبيسي. بيروت 1966م
- 19 — ويل ديورانت، قصة الفلسفة من أفلاطون (428 — 347 ق.م) إلى جون ديوي (1859 — 1952م)، ترجمة: د. فتح الله محمد المشعشع، الطبعة الثانية، مكتبة المعارف، بيروت، 1972.

الهوامش

- 1 رواه أحمد عن أبي الدرداء، مرفوعاً. وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير: 5390.
- 2 ويل ديورانت، قصة الفلسفة، ص 144.
- 3 المرجع السابق، ص 215.
- 4 هنري كوربان، تاريخ الفلسفة الإسلامية، ص 99.
- 5 طرف من حديث طويل أخرجه البخاري من حديث عائشة في كتاب بدء الوحي، انظر: ابن حجر، الفتح، (1/22)
- 6 بديع الزمان سعيد النورسي "السيرة الذاتية"، ص 102
- 7 بديع الزمان سعيد النورسي: صيقل الإسلام، "محاكمات - ص: 140"
- 8 بديع الزمان سعيد النورسي: المكتوبات، ص : 606-607.
- 9 صيقل الإسلام، مرجع سابق، السانحات، ص : 333.
- 10 بديع الزمان سعيد النورسي، إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز، ص 97.
- 11 صيقل الإسلام، مرجع سابق، 506
- 12 بديع الزمان سعيد النورسي، الخطبة الشامية، ص : 46.

- 13 المصدر السابق، ص : 50.
- 14 صيقل الإسلام، مرجع سابق، ص: 143
- 15 الخطبة الشامية، ص : 46-48
- 16 المرجع السابق، ص : 85.
- 17 إشارات الإعجاز، مرجع سابق، ص 285.
- 18 صيقل الإسلام، مرجع سابق، ص: 143
- 19 نفس المرجع، ص: 142
- 20 رواه الحاكم عن أبي هريرة. وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير : 2349
- 21 الخطبة الشامية، ص : 38.
- 22 بديع الزمان سعيد النورسي، الكلمات، ص: 370.
- 23 السيرة الذاتية، ص 140.
- 24 نفس المرجع، 98.
- 25 نفس المرجع، 70.
- 26 صيقل الإسلام/محاكمات - ص: 117
- 27 السيرة الذاتية، مرجع سابق، ص 100
- 28 الكلمات، مرجع سابق، ص: 855.
- 29 السيرة الذاتية، مرجع سابق، ص 217.
- 30 الكلمات، مرجع سابق، ص 508، 512.
- 31 السيرة الذاتية، مرجع سابق، ص 217.
- 32 الكلمات، مرجع سابق، ص: 370.
- 33 المكتوبات، مرجع سابق، ص 215
- 34 إشارات الإعجاز، مرجع سابق، ص: 97
- 35 بديع الزمان سعيد النورسي، اللغات، ص 315
- 36 نفس المصدر، ص 316.
- 37 بديع الزمان سعيد النورسي، مرشد أهل القرآن، ص 166.
- 38 الكلمات، مرجع سابق، ص: 856.
- 39 صيقل الإسلام، مرجع سابق، ص: 496
- 40 بديع الزمان سعيد النورسي، الشعاعات، ص 574
- 41 السيرة الذاتية، مرجع سابق، ص 515
- 42 نفس المرجع، ص 106
- 43 صيقل الإسلام، مرجع سابق، ص: 494.
- 44 السيرة الذاتية، مرجع سابق، ص 98.
- 45 نفس المرجع، ص 86
- 46 المكتوبات، مرجع سابق، ص، 107
- 47 إشارات الإعجاز، مرجع سابق ص : 67-68.
- 48 الخطبة الشامية، مرجع سابق ص : 103
- 49 صيقل الإسلام، مرجع سابق، ص 467

غاية الحياة والإنسان من خلال رسائل بديع الزمان

د. عبد الكريم عكيوي
كلية الآداب - جامعة ابن زهر
أكادير - المغرب.

إن رسائل النور أراد لها مؤلفها أن تكون قبسات من أنوار القرآن الكريم وتعبيرا عن حقائقه وبيانا لأحكامه وحكمه. وإن أصدق وصف يمكن أن يوصف به القرآن الكريم أنه كتاب حياة ينطق بحقائق الكون ويفصح عن أسرار الحياة وغاياتها وصفات الإنسان وحقيقته. ولقد اكتسبت رسائل النور هذا الوصف، فأودع فيها مؤلفها خلاصة ما اقتبس من القرآن الكريم، فكانت تنير حقائق الحياة وغايتها.⁽¹⁾ ومن الأسباب التي حملت بديع الزمان النورسي على العناية بحقيقة الإنسان وغاية الحياة، ما رآه رحمه الله من الانحراف الخطير في تقدير حقيقة الحياة والإنسان في الفكر الغربي والفلسفة الغربية، وأثر ذلك في انحراف الحياة البشرية. يضاف إلى ذلك أنه رحمه الله كان قد أوقف حياته وعمره على إصلاح أحوال الفكر الإسلامي وتقويم ما انحرف من أوضاع المسلمين في عصره، وكان يرى رحمه الله أن عملية الإصلاح الفكري والاجتماعي والسياسي إنما تقوم أولا على تربية الإنسان، وإن تربية الإنسان إنما تقوم أولا على ترسيخ حقيقة الحياة وفهم غاياتها الصحيحة. ولهذا فإن بديع الزمان النورسي كان مولعا في رسائله ببيان فلسفة الوجود وحقيقة الكون والإنسان وغاية الحياة، فلا تكاد صفحة من صفحات رسائله تخلو من ذلك.

ولما كانت الفلسفة الغربية قد ألفت بثقلها على عقول كثير من المسلمين في هذا العصر، فقد كان بديع الزمان النورسي يبين في أكثر من موضع من رسائله تهافت ما

تجعله الفلسفة الغربية غاية للحياة وحكمة لوجود الإنسان على ظهر الأرض. وقد حرص رحمه الله في ذلك على تقديم الأدلة الصريحة الواضحة، فكان يتتبع الآثار العملية والواقعية التي أحدثتها الفلسفة الغربية في حياة البشر وسلوكهم، وما تفرع عنها من الاضطراب والضياع، وشيوع فكر العدم و انتشار فلسفة العبث. من ذلك مثلاً بيانه رحمه الله ما تورثه الفلسفة الغربية من القلق والضجر من بعض عوارض الحياة البشرية، مثل النكبات والمصائب، وأعظمها الموت وزوال الحياة عن الجسد. يقول رحمه الله: " إن ما يثيره فلاسفة أوروبا من شبهات وجحود في هذا العصر قد جلب الحيرة إلى بعض المنكوبين المفتونين بهم، فأزال يقينهم وأباد سعادتهم الأبدية وأوقعهم في شقاء وتعاسة، ذلك لأن إنكارهم هذا حول معنى "الموت" الذي يصيب يومياً ثلاثين ألفاً من الناس، من معناه الحقيقي الذي هو إنهاء وظيفة الإنسان على الأرض، إلى صورة الإعدام الأبدي والفناء النهائي والنهاية المرعبة المخيفة. وأصبح القبر -الذي لا ينغلق بابه- يسمم لذائد حياة ذلك المنكر وينغص عليه عيشه بآلام مبرحة ملوحاً له بالعدم الرهيب دائماً وبإعدامه الأبدي"⁽²⁾ فمقتضى الفلسفة الغربية إن غاية الأمر وتمامه هو الحياة على وجه الأرض وطلب اللذة المادية وتحصيل المتعة، ولا شيء قبل هذا ولا بعده. وإن اعتبار هذا غاية الحياة يحول الحياة البشرية إلى عذاب ويجعل اللذة لذة متوهة وليست حقيقية. فلو تصورنا إنساناً قد بلغ الغاية القصوى من اللذة وحصل أكمل ما يمكن أن يحصله بشر في الحياة على ظهر الأرض، فإن اعتقد أن ذلك غاية أمره ومنتهى حياته ومبلغ طلبه وجهده، فإن عقيدته هذه تحول متعته عذاباً ولذته جحيماً، لأن الخوف من زوال النعمة عذاب، وهو ينظر إلى الموت شبحاً مخيفاً يترصد له ليقطع لذته ويصيره إلى الهلاك الأبدي والفناء السرمدى.

وبهذا البرهان العملي الواضح أقام بديع الزمان النورسي الحجة على قصور الفلسفة الغربية في بيان غاية الحياة وحقيقة الإنسان والكون، وإن غاية الحياة أعظم من متعة زائلة وأكبر من نعيم مؤقت.

يقول رحمه الله: "أنحسبون أن مهمة حياتكم محصورة في تلبية متطلبات النفس الأمارة بالسوء ورعايتها بوسائل الحضارة إشباعاً لشهوة البطن والفرج؟ أم تظنون أن الغاية من درج ما أودع فيكم من لطائف معنوية رفيقة، وآلات وأعضاء حساسة

وجوارح وأجهزة بديعة، ومشاعر وحواس متحسسة، إنما هي مجرد استعمالها لإشباع حاجات سفلية لرغبات النفس الدنيئة في هذه الحياة الفانية؟⁽³⁾ ويزيد في بيان قصور النظرية المادية، من خلال بيانه لحقيقة الإنسان وصفات النفس البشرية، ليخلص من ذلك إلى أن الإنسان قد ركب على خلقة عجيبة تدل بالقوة على أن وجوده على وجه الأرض أعظم من أن يكون لتحصيل المتعة الجسدية واللذة المادية، ليخلص رحمه الله بعد ذلك إلى بيان غاية الحياة العظمى وحقيقتها الكبرى، فمعرفة غاية الحياة يتوقف على معرفة حقيقة الإنسان.

1 - الإنسان قبضة من طين ترتقي بالقوى المعنوية والنفحات الروحية.

إن من البدهيات الواضحة أن الإنسان جسد مادي به غرائز وشهوات، كما بين الله تعالى في قوله: " زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث، ذلك متاع الحياة الدنيا، والله عنده حسن المآب"⁽⁴⁾ ولما كانت الشهوات من المأكّل والمشرب والمنكح والملبس والمركب وغيرها من لذات الجسد موجودة بالقوة الظاهرة في الإنسان، توهم الكثير من البشر عبر العصور أن غاية الحياة إنما هي تحصيل اللذة والمتعة الجسدية، وجاءت الفلسفة المادية فرسخت هذا الاعتقاد. لكن حقيقة الإنسان وغاية الحياة أعظم من ذلك وأكبر، فاللذة الجسدية لم توجد لذاتها ولا كانت الحياة من أجلها لأنها ليست لذة حقيقية بنفسها. فإذا توهم الإنسان الكمال في اللذة المادية ورثة ذلك النكد والعذاب، لأن عمره القصير وتحول قواه الجسمية إلى ضعف بعد ضعف، ومآله إلى الهرم والشيخوخة، يجعل حياته ودنياه تضيق عن استيعاب حاجاته المادية وتضعف عن الاستجابة لقوة غرائزه وشدة شهواته. فكمال اللذة مستحيل في الحياة الدنيا، لأن استعدادات الإنسان المادية غير متناهية وعمره المادي وقواه المادية متناهية. ومعنى هذا أن رغبات الإنسان وغاية لذته لا مكان لها في الحياة الدنيا، لأن الحياة تضيق عنها، فإذا جعلها غاية أمره ومنتهى طاقته ورثه ذلك شقاء وعذابا. وقد صور النبي صلى الله عليه وسلم هذا أبلغ تصوير في قوله: " لَوْ أَنَّ ابْنَ آدَمَ أُعْطِيَ وَادِيًا مَلَأًا مِنْ ذَهَبٍ أَحَبَّ إِلَيْهِ ثَانِيًا وَلَوْ أُعْطِيَ ثَانِيًا أَحَبَّ إِلَيْهِ ثَالِثًا وَلَا يَسُدُّ جَوْفَ ابْنِ آدَمَ إِلَّا التُّرَابُ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ تَابَ * " (صحيح البخاري: كتاب الرقاق، باب ما يتقى من فتنة المال) وقوله أيضا: " لَا يَزَالُ قَلْبُ الْكَبِيرِ شَابًا فِي

أثنتين في حُبِّ الدُّنْيَا وَطُولِ الأَمَلِ " (البخاري: كتاب الرقاق، باب من بلغ ستين سنة...) وهو أيضا تعبير عجيب وتصوير بليغ، في تنصيحه صلى الله عليه وسلم على أن القلب يبقى شابا، وهو إشارة إلى قوة الشهوات وتجدها، وفي مقابل ذلك فإن الجسد يصير إلى ضعف وهرم، فكلما زاد الإنسان في طلب اللذة زاد الجسد عذابا. وقد عبر الشيخ بديع الزمان النورسي عن هذه الحقيقة بقوله: "... استعداد الإنسان غير المتناهي وآماله ورغباته غير المحصورة وأفكاره وتصورات غير المحدودة وقوته الشهوية والغضبية غير المحددة. فنرى الإنسان يتأسف ويتأفف ويقول: ليت كذا وكذا، حتى لو منح ملايين السنين من العمر وتمتع بلذات الدنيا وحكم حكما نافذا في كل شيء، وذلك بحكم اللاتناهية المغروزة في استعداده، فكأن عدم الرضا هذا يرمز ويشير إلى أن الإنسان مرشح للأبد، ومخلوق للسعادة الأبدية كي يتمكن من تحويل استعداده غير المحصور من طور القوة إلى طور الفعل في عالم غير متناه وغير محدود بمحدوده وأوسع بكثير من عالمه هذا... إن هذه الدنيا... لا تسع كمالات الإنسانية، بل تحتاج تلك الكمالات إلى عالم أرحب... " (5) إن الإنسان -من خلال شهواته- ينزع إلى عالم أرحب لا مكان فيه لحدود العمر ولا لقيود الزمان وصروف الدهر وخطوب المكان التي هي من لوازم الحياة على ظهر الأرض، فالشهووات ليست غاية وإنما هي دليل إلى غاية.

فمن جعل اللذة على ظهر الأرض منتهى غايته وغاية طلبه فقد ضيق على نفسه، واستبدل العنت والحرَج بالرحب والسعة، واكتفى باللذة المتوهمة المشوبة بالعذاب والنكد، لأنه يطلب الأمر في غير موطنه، لأن الأرض ليست موطننا له، وإنما هو طارئ عابر إلى حين، فهو ينزع دائما إلى أصله ويتشوف إلى موطنه الأول. فالإنسان لا يقنع أبدا بما هو فيه من اللذة على ظهر الأرض بدلا عن موطنه الأول، ولن يجد في الحياة الدنيا ما يغنيه أبدا عن لذة الجنة التي هي منزله الأول.

كم منزل للمرء يألفه الفتى ولكن حينه أبدا للمنزل الأول

فالحياة الدنيا إنما هي مقام أدنى يرتقي منه الإنسان إلى المقام الأعلى، وهذا وجه إخراج أبي البشر آدم عليه السلام من الجنة إلى الأرض إلى حين. فقد خلق أولا في عالم البقاء والكمال، ثم أخرج منه إلى عالم الفناء، اختبارا وامتحانا، لتنمية استعداداته نحو الكمال، وكلف بالارتقاء منه إلى عالمه الأرحب. وفي بيان حكمة إخراج آدم من الجنة

يقول بديع الزمان النورسي: "حكمته التوظيف، فقد بعث إلى الأرض موظفا، موكولا إليه مهمة جليلة، بحيث إن نتائج تلك الوظيفة هي جميع أنواع الرقي المعنوي البشري، وانكشاف جميع استعدادات البشر ونمائها... فلو كان سيدنا آدم عليه السلام باقيا في الجنة لبقى مقامه ثابتا كمقام الملك، ولما نمت الاستعدادات البشرية. بينما الملائكة الذين هم ذوو مقام ثابت مطرد كثيرون، فلا داعي إلى الإنسان للقيام بذلك النوع من العبودية. فاقتضت الحكمة الإلهية وجود دار تكليف تلائم استعدادات الإنسان التي تتمكن من قطع مقامات لا نهاية لها... أي أن إخراج آدم عليه السلام من الجنة هو عين الحكمة ومحض الرحمة."⁽⁶⁾ فبين رحمه الله أن الدنيا ولذاتها ليست مقصودة لذاتها وإنما ليرتقي منها الإنسان إلى غيرها، حتى إذا نمت استعداداته ارتقى من الأدنى إلى الأعلى. فهو - في الحياة الدنيا- في المقام الأدنى ليرتقي منه إلى عالم الكمال، فهو غايته ومنتهاى طلبه.

وهذا وجه التعبير في القرآن الكريم بصيغة "الهبوط" في بيان خروج آدم من الجنة في قوله تعالى: "قلنا اهبطوا منها جميعا"⁽⁷⁾ وقوله تعالى: "قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو"⁽⁸⁾ ليفيد البون الشاسع بين المقامين، وإن الحياة على ظهر الأرض منزلة أدنى بالنسبة إلى الحياة في الجنة، وأن الحياة الدنيا توظيف وتكليف وسعي إلى الرقي إلى الوطن الأصلي حيث كمال اللذة وغاية السعادة. ولكي تنمو الاستعدادات البشرية للرقي في مدارج الكمال في عالم البقاء، خلق الله تعالى في البشر قوى معنوية وأودع فيه نفحات روحية عظيمة يرقى بها من دركات اللذة الدنيوية العابرة إلى درجات الكمال.

فالشهوات والغرائز البشرية تثور في الإنسان وهو على ظهر الأرض ليشاهد قبسا يسيرا من الجمال، ويدوق جزءا حقيرا من اللذة تدله على غيرها، ثم تثور القوى المعنوية لتسوقه إلى الجمال السرمدي، فتكون بذلك شهوات النفس ولذات الحياة الدنيا طريقا إلى اللذات الغامرة والجمال السرمدي في دار البقاء. "إذ المشاهد المشتاق لجمال سرمدي والعاكس الذي يعكسه كالمرآة، لا بد أن يظل باقيا ويمضي إلى الأبد"⁽⁹⁾ فالقوى المعنوية والنفحات الروحية في الإنسان هي القائد لقبضة الطين والدليل لشهوات الجسد إلى السعادة الحقة واللذة الكاملة. ولهذا كانت حقيقة الإنسان متوقفة على قبضة الطين ونفخة الروح، وكلما توهم الإنسان الاستغناء عن أحدهما هوى في مواطن الضياع

والانحراف. فمن خلال هذين الشقين تكون عمارة الدنيا وعمارة الآخرة، وتجتمع لذة الحياة الدنيا بلذة نعيم الآخرة. فبعمل العقل والقلب والجوارح يرتقي الإنسان في مراتب السمو الروحي، يبدأ من الدنيا ليلبغ الغاية المرجوة في الآخرة. أما "الذين يبحثون عن كل شيء في المادة، عقولهم في عيونهم، والعين لا تبصر المعنويات"⁽¹⁰⁾ فلا بد للجسد والعقل من نفحات القلب، لأن قلب الإنسان بمثابة خريطة معنوية لآلاف العوالم. إذ كما أن دماغ الإنسان... بمثابة مركز معنوي لهذا الكون، يستقبل ما في الكون من علوم وفنون ويكشف عنها، ويثبثها أيضا فإن قلب الإنسان كذلك هو محور لما في الكون من حقائق لا تحد، ومظهر لها، بل هو نواتها... فعلى القلب إذن أن يقوم بعمله الذي خلق من أجله كما يقوم العقل بعمله"⁽¹¹⁾.

فحقيقة الإنسان تقوم على ركنين هما العقل والقلب، وينسجم فيها الجسد والروح. وإن نور الفكر والعقل ظلام ما لم يتوهج بضياء القلب ويستنير بأنواره ويمتدح بنفحاته المعنوية النورانية⁽¹²⁾. وإن ضياء القلب هو العلوم الدينية، ونور الفكر والعقل هو العلوم الكونية... وبامتزاجهما تتجلى الحقيقة، وبافتراقهما تتولد الخيل والشبهات في هذا، والتعصب الذميمة في ذاك"⁽¹³⁾ ولهذا كان المنهج التربوي والتعليمي عند بديع الزمان النورسي يراعي ثنائية العقل والقلب، فكان رحمه الله يجمع بين علوم الكون والحياة وعلوم الوحي والشريعة، ووضع مشروعه لإصلاح التعليم المسمى "مدرسة الزهراء" على هذا الأصل، تنسجم فيه علوم الكون بعلوم الوحي، ويمتدح فيه ضياء العقل بنور القلب وحاجات الجسد بعوالم القلب المعنوية وقواه الروحية، فتكون لذة الدنيا طريقا إلى غاية، وسبيلا إلى الرقي في مراتب السمو إلى أن يبلغ الغاية المرجوة حيث تكتمل اللذة ويتحقق تمام السعادة في عالم البقاء والخلود. وإن أي انحراف في حياة البشر سببه الاضطراب في فهم حقيقة الإنسان، وقد ثبت هذا عبر الزمان من خلال التجارب البشرية. ويزيد بديع الزمان النورسي في تأكيد ذلك وإن هذه الحقيقة ستثبت أيضا في الزمن المستقبل، عندما يتحقق المادي الملحد من الحاجة إلى دفع القيم المعنوية، ويتحقق الروحاني من الحاجة إلى قوة العقل، فيتوجه كل منهما نحو الآخر فيلتقيان على طريق وسط وهو طريق الإسلام⁽¹⁴⁾، وأساس ذلك أن الإنسان قبضة من طين ونفحة من روح، وإن الحياة ليس

غايته اللذة المادية، وإنما اللذة المادية طريق إلى غاية أسمى ومقام أعلى يتحقق فيه كمال اللذة عبر السمو الروحي والراقي المعنوي، فهذه غاية الحياة على ظهر الأرض.

2 - غاية الحياة : الرقي المعنوي والسمو الروحي

إن خلق اللطائف المعنوية وإيداع القوى الروحية في الإنسان يدل على أنه مترشح للظفر بعالم أرحب وينزع إلى عالم الكمال وتمام السعادة والجمال. فلو كان الإنسان مرشحا للذة المادية على ظهر الأرض فقط ما كان لوجود القوى المعنوية فيه وجه فائدة. ثم إن القصد إلى اللذة المادية فقط، ليس لذة حقيقية، لما يقترب به من الآفات التي تجعل اللذة ألما. ولا تكون اللذة المادية لذة حقا إلا إذا كانت طريقا إلى لذة النعيم المقيم. فقيمة الإنسان بحسب قصده من حياته، فما أحقر الإنسان وما أدحره وما أصغره إذا كان غاية حياته تحصيل لذة المأكّل والمشرب والملبس والمنكح والمسكن والمركب، وما أشد حزنه وضنك معيشتة وهو يطلب هذه اللذات بكل قواه وهي فانية زائلة، وما أشد عذابه وهو يتناولها ويخشى زوالها، بل هو موقن من ذهابها وأفولها، لأن الخوف من زوال اللذة عذاب.

"إن قيمة الإنسان بنسبة ماهيته، وماهيته بدرجة همته، وهمته بمقدار المقصد الذي يشغل به" ⁽¹⁵⁾ فلا يمكن للذة المادية أن تكون غاية الحياة لأنها فانية زائلة مع ما يقترب بها من النكد والكبد، "لقد خلقنا الإنسان في كبد" ⁽¹⁶⁾ ومن جعلها غاية حياته فقد تعلق بالعدم لأن اللذة الظاهرة تزول إلى العدم بالزوال، وإنما البقاء للمعاني، وإنما المقصد الحق هو ما يبقى بعد زوال اللذة المادية من معانيها وآثارها، فهي الغاية المرجوة، ولا تكون اللذة المادية لذة حقا إلا بما. "إن كل موجود بعد ذهابه من الوجود يذهب إلى العدم والفناء ظاهرا، ولكن تبقى المعاني التي كان قد أفادها وعبر عنها وتحفظ... إن الموجود يفقد وجودا ظاهريا صوريا، ويكسب مئات من الوجود المعنوي والعلمي" ⁽¹⁷⁾.

فكل الموجودات المادية وكل اللذات والشهوات لا تؤخذ لذاتها وإنما لما يترتب عنها بعد زوالها من الأحوال المعنوية والكمالات الروحية، "فإن فناء هذه الموجودات الجميلة، بعد ظهورها في آن واحد، وتعاقب بعضها ببعضها كإنما هي آلات معمل لتشكيل المناظر السرمدية... عندما تختفي الموجودات وراء ستار الزوال تظل بدلا عنها تسيحات باقية كثيرة جدا لكل موجود من الموجودات، وتودع نقوش كثيرة من الأسماء

الإلهية... تودعها إلى وجود باق".⁽¹⁸⁾ ولهذا فإن غاية الحياة هي الرقي المعنوي والسمو الروحي الذي يحصل بمعرفة الله تعالى والإيمان به. وكل ما يعرض للإنسان على ظهر الأرض من العوارض وما يحتف به في أمور معاشه، إنما هو طريق إلى هذه الغاية ودرجة من درجات الرقي في سلم هذه الكمالات الروحية. فاللذة والألم، والشدة والرخاء، والغنى والفقر، والحياة والموت، والعمران والخراب، والصحة والسقم، والخير والشر، والمأكل والمشرب، والمنكح والملبس، والعوالم وجميع الخلق، وكل ما هو من أجزاء عالم الدنيا ويلتبس بالإنسان في معاشه وتقبله في حياته - كل ذلك - موجود ومخلوق ليكون طريقاً إلى الرقي المعنوي والسمو الروحي، ودليلاً إلى الله تعالى وسبيلاً سالكا إلى معرفته عز وجل والإيمان به، وما يلزم من ذلك من محبته وعبادته وطاعته، "وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون".⁽¹⁹⁾ يقول بديع الزمان النورسي رحمه الله: "اعلم يقينا أن أسمى غاية للخلق وأعظم نتيجة للفطرة الإنسانية هو "الإيمان بالله"، واعلم أن أعلى مرتبة للإنسانية وأفضل مقام للبشرية هو "معرفة الله" التي في ذلك الإيمان، واعلم أن أسمى سرور لروح الإنسان وأنقى بهجة لقلبه هو "اللذة الروحية" المترشحة من تلك المحبة. أجل إن جميع أنواع السعادة الحقة... واللذة التي لا تفوقها لذة، إنما هي في "معرفة الله"، في "محبة الله"..."⁽²⁰⁾ فالحياة الدنيا بما فيها، والأرض بما عليها إنما هي من أجل ذلك، والخلق كله لتحقيق هذه الفائدة، وما من شيء يحيط بالإنسان ويلتبس بحياته إلا له فيه ومن خلاله رقي إلى معرفة الله ومحبه وطاعته.

تناول الطيبات والتمتع باللذات سلوك إلى الرقي المعنوي:

إن من النظرات الدقيقة عند بديع الزمان النورسي رحمه الله، أن كل شيء في عالم الشهادة إنما خلق ليتخذ الإنسان طريقاً إلى السمو الروحي والرقي المعنوي، وهذا مما تفرع عن أصل تكريم الإنسان المنصوص عليه في قوله تعالى: "ولقد كرّمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً"⁽²¹⁾ ومقتضى هذا التكريم أن كل المخلوقات لفائدة بني آدم، ومعلوم عند بديع الزمان النورسي - استنباطاً من القرآن الكريم - أن الفائدة المرجوة من الحياة هي السمو الروحي، فيلزم من ذلك أن كل ما يقع عليه نظر الإنسان ويجده طوع إرادته إنما هو لهذه الغاية. ولهذا كان محبة الدنيا وتناول لذاتها والتمتع بطيباتها طريقاً إلى السمو المعنوي،

أي إن محبة لذات الدنيا وطلب نعيمها طريق من طرق السلوك إلى الله تعالى وكسب نعيم الآخرة بعد نعيم الدنيا.⁽²²⁾ وأصل ذلك من السنة النبوية أن كل لذة حلال تتحول بالنية والقصد الحسن إلى عبادة وقربى وهي رقي معنوي. ومن أدلة ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: " وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ، قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيَأْتِي أَحَدُنَا شَهْوَتُهُ وَيَكُونُ لَهُ فِيهَا أَجْرٌ ! قَالَ: أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي حَرَامٍ أَكَانَ عَلَيْهِ فِيهَا وَزْرٌ، فَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الْحَلَالِ كَانَ لَهُ أَجْرًا * (صحيح مسلم، كتاب الزكاة، باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف) وهذا ما يجعل محبة اللذة والرغبة فيها عبادة ورقيا معنويا. لكن هذه المحبة التي يتوجه بها الإنسان إلى الدنيا ولذاتها، محبة خاصة وعلى وجه مخصوص يقترن التناول والتلذذ بالذكر والتفكير، لأن شهوة الدنيا يزيد بها الذكر والتفكير بهاء وجمالا ويلبسها ثوب العبادة والقربة.⁽²³⁾ وأما كيف يكون التمتع بلذات الدنيا طريقا إلى السمو الروحي فهذا ما يفصح عنه الشيخ بديع الزمان النورسي بالقول: " إن الحياة التي وهبها الله للإنسان هي رأسمال عظيم يستطيع أن يكسب به الحياة الأخروية الباقية، وهي كنز عظيم يحوي أجهزة وكمالات خالدة، ومن هنا فالمحافظة على الحياة الدنيا ومحبتها من هذه الزاوية وتسخيرها في سبيل الله عز وجل يجعلها تعود إلى الله سبحانه، إذ أن محبتها والشغف بها على هذه الصورة ينقلب إلى محبة لوجه الله تعالى، إذ هي في هذه الحالة تكون مزرعة للآخرة ومرآة لأسماء الله الحسنى، ورسائل ربانية إلى الوجود ودار ضيافة مؤقتة. فاجعل حبك للدنيا وما فيها من مخلوقات بالمعنى الحرفي وليس بالمعنى الاسمي، أي المعنى ما فيها وليس لذاتها، ولا تقل لشيء " ما أجمل هذا" بل قل: " ما أجمله خلقا". فإن جميع ما ذكرناه من أنواع المحبة إن وجهت الوجهة الصائبة على الصورة المذكورة آنفا... فإنها تورث لذة حقيقية بلا ألم"⁽²⁴⁾ ومعنى هذا أن تناول لذة الدنيا والاستمتاع بجمالها يأنس منه العبد قدرا من جمال الله تعالى وجلاله، ويرتشف منه شيئا من ظل تجليات أسمائه تعالى وحسن صفاته جل وعلا وكمال أفعاله، فيورثه ذلك محبته تعالى مع ما يلازمها من اللذة الحقيقية. ويزيد رحمه الله في تفصيل هذا المعنى بقوله: " فالتلذذ بالأطعمة الشهية وتذوق الفواكه الطيبة مع التذكر بأنها إحسان من الله سبحانه وإنعام من الرحمن الرحيم، يعني المحبة لاسم "الرحمن" واسم "المنعم" من الأسماء الحسنى... أما محبة الزوجة وهي رفيقة حياتك، فعليك بمحبتها على أنها هدية أنيسة لطيفة من هدايا

الرحمة الإلهية... فمن هذه الزاوية تصبح هذه المحبة لله... ثم محبة الربيع والشوق إليه تكون في سبيل الله ومتوجهة إلى أسمائه الحسن، من حيث كونه أجمل صحيفة لظهور نقوش الأسماء الحسنى النورانية. فالتفكر في الربيع من هذه الزاوية محبة متوجهة إلى الأسماء الحسنى. " (25) وكلما زاد العبد في تناول لذات الدنيا على هذا الوجه، زادت محبته لخالق الدنيا المنعم بخيراتها. " فإذا تناول الإنسان نعمة لذية ثم أدى شكره عليها، فإن تلك النعمة تصبح - بواسطة ذلك الشكر - نورا وضاء له وتغدو ثمرة من ثمار الجنة الأخروية، وفضلا عما تمنحه من لذة، فإن التفكر في ألها أثر من آثار التفات رحمة الله الواسعة وتكرمة منه سبحانه وتعالى يمنح تلك النعمة لذة عظيمة دائمة وذوقا ساميا لا حد له... " (26) لأن الحسن والجمال، واللذة والنعمة المأخوذة من جميع الموجودات إنما هي "نوع ظل من تجلي جماله سبحانه وحسن أسمائه جل وعلا" (27) وهذا وجه ولوع بيدع الزمان النورسي بالطبيعة وجمالها والكون وزينته وما فيها من أصناف الخلائق وأنواع النعم ووجوه الخيرات (28)، فهي طريق إلى السمو الروحي لما يجد الناظر فيها - مع الذكر والشكر والتفكر - من لذة التمتع بجمالها ولذة محبة خالقها وبارئها عز وجل. (29) فعلى هذا النحو يكون تناول الطيبات والتمتع باللذات طريقا إلى السمو الروحي والرقى المعنوي، لأنه يعرف بأسماء الله وجماله وجلاله، ويورث محبته تعالى والتشوف إلى كمال اللذة في النعيم المقيم.

"قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق، قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة" (30)

خلق الشر وتقدير الآفات والنكبات طريق إلى السمو الروحي

إذا كانت النعمة واللذة في الدنيا طريقا إلى السمو الروحي الذي يحصل بمعرفة الخالق المنعم ومحبته، فإن ما يقابلها من عوارض الحياة الأخرى من الآلام الناشئة عن المصائب والنكبات، مثل الجوع والمرض والخوف، طريق آخر إلى هذا الرقى المعنوي، وإن وجوده إلى جانب طريق النعمة واللذة، حكيمته تنوع الطرق والمسالك، وفي هذا التنوع أيضا لذة وسمو. فكل ما يعرض للإنسان في عالم التكليف ومرحلة التوظيف، إنما هي مسالك يضعها الخالق البارئ أمام المكلف ويفتحها بين يديه ويمهدا أمام بصره ليسلكها نحو الرقى المعنوي. فخلق الشرور والبلايا والشياطين، إنما هو من أجل المجاهدة والمسابقة في

تحريك الاستعدادات الكامنة في جوهر الإنسان، وتوجيهها نحو السمو والرقى في درجات الكمال البشري، الذي يبدأ في الحياة الدنيا ثم يرتقي بفعل المجاهدة إلى أن يكتمل في دار البقاء حيث كمال النعيم وتمام اللذة وغاية السعادة. ففي عالم الإنسان في الحياة الدنيا تمتد المسافة بين مراتب الرقى ودركات التدني أبعادا طويلة جدا، بدء من أكبر الطغاة وأعظم الظلمة، إلى أرقى الأولياء وأكبر الصديقين والصالحين. فوجود الشياطين والشر والبلايا، "وبسر التكليف، وبارسال الأنبياء، انفتح ميدان الامتحان والتجربة والجهاد والمسابقة، وبه تتميز الأرواح السافلة... عن الأرواح العالية... فلولا المجاهدة والمسابقة لبقيت الاستعدادات كامنة في جوهر الإنسانية... أي لتساوت الروح السامية لسيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه وهي في أعلى عليين مع روح أبي جهل التي هي في أسفل سافلين".⁽³¹⁾ وهذا بخلاف الملائكة التي ليس لها مقام ترتقي إليه لأن مقامها ثابت. فالبلايا طريق السمو الروحي لأن من خلالها تتجلى آثار أسماء الله الحسنى وأفعاله وصفاته عز وجل، "فإن الصانع الجليل قد ألبسك جسما بديعا مزينا بالعين والأذن والأنف وغيرها من الأعضاء والحواس. ولأجل إظهار آثار أسمائه الحسنى المتنوعة، يبتليك بأنواع من البلايا، فيمرضك حيناً ويمتعك بالصحة حيناً أخرى... وهكذا يقلبك في أمثال هذه الأطوار والأحوال لتتقوى ماهية الحياة وتظهر حلوات أسمائه الحسنى... إن السكون والهدوء والرتابة والعطالة، نوع من العدم والضرر، وبعكسه الحركة والتبدل وجود وخير. فالحياة تتكامل بالحركة وترقى بالبلايا وتنال حركات مختلفة بتجليات الأسماء وتتصفي وتتقوى... وتستحق الأجر الأخروي".⁽³²⁾ فالضراء والبلايا التي تعترى الإنسان إنما هي من أفعال الله تعالى، تجعله في مقام الضعف والفقر، وفي مقام الضعف والفقر تنكشف أمامه حقائق الأسماء الحسنى وتظهر له تجليات الصفات العليا، من الغنى والقوة والرحمة وغيرها. فبلاء الجوع مثلا وسيلة الشعور بالعجز والفقر، ويترتب عنه الالتجاء إلى الله تعالى، وهذا وجه كون الصوم، الذي هو كف عن المفطرات، عبادة يرتقي بها العبد في مقامات السمو الروحي، وهو المعبر عنه "بالتقوى" في قوله تعالى: "يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون"⁽³³⁾ وهو المعبر عنه "بالجنة" (بضم الجيم) وهي الحرز والوقاية، في حديث: "الصوم جنة".⁽³⁴⁾

"إنه إزاء الشرور الجزئية للشياطين، تكمن في وجودهم كثير من المقاصد الخيرة الكلية وكمالات ترقى بالإنسان في سلم الكمال".⁽³⁵⁾ إن الموت وهو أكبر مصائب الدنيا، إذا نظر إليه بالنظر الخاص لأهل الإيمان، فإنه طريق إلى السمو وكسب البقاء. "إن الموت في حقيقته تسريح وإهاء لوظيفة الحياة الدنيا... وهو دعوة إلى الحياة الباقية الخالدة ومقدمة لها... (فمثلاً) موت الأثمار والبذور والحبوب الذي يبدو ظاهراً تفسخاً وتحللاً، هو في الحقيقة عبارة عن عجن لتفاعلات كيميائية متسلسلة في غاية الانتظام.... وهذا يعني أن موت البذرة هو مبدأ حياة النبات الجديد... فكيف بالموت الذي يصيب الإنسان وهو في أرقى طبقات الحياة؟ فلا شك أن موته هذا سيثمر حياة دائمة في عالم البرزخ..."⁽³⁶⁾ إن الموت إعلان عن بقاء الإنسان واستمراره واتصال حياته الأولى بالأخرى، وهو - على هذا النحو - يكسب السمو الروحي، لأنه يمنح للإنسان اطمئناناً وانسجاماً مع نفسه، فيكسبه شجاعة وقوة وسمواً لأنه طريق الرحلة إلى حياة البقاء حيث كمال السعادة وتمام اللذة، وحيث الحياة الحقيقية المرجوة التي لا تعدلها الحياة الدنيا إلا في الاسم، "وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب وإن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون".⁽³⁷⁾ إن الموت ليس فناء وعدمًا، وإنما هو تحول وارتقاء إلى الأكمل والأشرف، لأنه "من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه".⁽³⁸⁾ وإذا كان الموت ارتقاءً إلى الكمال، فإن الحياة الدنيا إعداد واستعداد، وهذا ما يحمل الإنسان على التزام منازل الفضل فتكون الحياة الدنيا كلها سلوكاً وارتقاءً. ويزيد النورسي في تفصيل هذا فيذكر أربعة أوجه من النعمة والامتنان للموت، والتي تجعله سبباً للرفي وطريقاً إلى السمو، وهذه الأوجه هي:

- الموت إنقاذ للإنسان من أعباء وظائف الحياة الدنيا، ووصول مع الأحبة في عالم البرزخ.
- إنه خروج من سجن الدنيا المظلم الضيق المضطرب، ودخول في رعاية الباقي المحبوب وفي كنف رحمته الواسعة وتنعم بحياة خالدة مستتيرة لا هم فيها ولا حزن.
- إنه استراحة من أسباب الإرهاق في الحياة من الشيخوخة وغيرها، فليتصور المرء مدى الرهق والعذاب ولو بقي أباه وأجداده أمامه وهم جميعاً في أوج الشيخوخة وأرذل العمر.
- إنه راحة للإنسان ورحمة للمبتلين خاصة، من المرضى والجرحى.⁽³⁹⁾

فعلى هذا النحو تكون جميع المصائب والشور والبلايا طريقا إلى الرقي المعنوي وسبيلا سالكا إلى السمو الروحي.

نور العقل وحقائق العلوم المادية سبيل سالك إلى الرقي المعنوي.

إن من الحقائق التي ذكرها النورسي وأعاد ذكرها وفصل أدلتها في رسائله، أن الإنسان والكون والطبيعة وجميع الموجودات مرآة لأسماء الله الحسنى وتجليات لصفاته العليا عز وجل. فمعرفة أحوال الإنسان وصفاته الخلقية (بفتح الخاء) والمعنوية، واكتشاف حقائق الكون وقوانين الطبيعة إنما هو استكشاف الأسماء والصفات. فالعلوم المادية كلها إنما هي استنطاق للكون وما فيه من الموجودات بحثا عن بارئها واكتشافا لتجليات أسماء مدبرها، القائم على أمرها، فهي بذلك طريق وسلوك إلى الرقي المعنوي والسمو الروحي الذي يحصل بمعرفة الله تعالى ومحبه، من خلال أفعاله وصفاته المتجلية في خلقه عز وجل. فالعلوم المادية كلها إنما هي نظر إلى الإنسان وإلى الآفاق بمطالعة كتاب الكون لاكتشاف تسيحاته لأنه و"إن من شيء إلا يسبح بحمده"⁽⁴⁰⁾ ولأن الكون العظيم بمثابة حلقة ذكر، وبمنزلة مسجد عظيم تلهج فيه أنواع لا تحصى من الكائنات بأسماء الله الحسنى وتشهد بصفاته العليا. فإن "للصانع جل جلاله على كل مصنوع من مصنوعاته سكة خاصة بمن هو خالق كل شيء، وعلى كل مخلوق من مخلوقاته خاتم خاص بمن هو صانع كل شيء"⁽⁴¹⁾ فالنظر في المخلوقات، بما فيها من تجليات أسماء خالقها وصفات بارئها، يحصل منه لذة معرفة الخالق المنعم جل وعلا ومحبه، الناشئة من معرفة إنعامه وإفضاله. فعلى هذا النحو تكون علوم الدنيا كلها طريقا إلى اللذة المعنوية الناشئة من معرفة الخالق ومحبه. وإن القرآن الكريم ليدل على هذا الطريق فيذكر الموجودات ليس لذاتها، وإنما لمعانيها وأصلها وغايتها. يقول النورسي في بيان ذلك: "إن القرآن الكريم إنما يبحث عن الكائنات استطرادا للاستدلال على ذات الله وصفاته وأسمائه الحسنى، أي يفهم معاني هذا الكتاب كتاب الكون العظيم كي يعرف خالقه... إن القرآن يستخدم الموجودات لخالقها لا لأنفسها... فمثلا يبحث عن الشمس لا للشمس، ولا عن ماهيتها، بل لمن نورها وجعلها سراجا... وما الانتظام والنظام إلا مرايا معرفة الصانع الجليل..."⁽⁴²⁾ فمعرفة خصائص الشمس وماهيتها و"أنها كتلة نارية عظيمة تدور في مستقرها حول نفسها، تطايرت منها شرارات سيارة" ليس علما

حقيقة لأنه لا يحصل منه رقي معنوي وروحي، لأن هذه المعرفة وقفت عند الموجود لذاته، ولم تنظر لما قبله ولا لما بعده ولا لخالقه ومدبر أمره، وهذا غاية ما انتهى إليه الفكر الفلسفي، فحصل منه الضياع وشاع فكر العبث، لأنه حول العالم إلى شيء تافه بلا خالق ولا مدبر، لا شيء قبله ولا شيء بعده، وحول معنى الموت إلى صورة الإعدام الأبدي والفناء النهائي والنهاية المرعبة المخيفة. ولهذا جعل القرآن الكريم علوم الدنيا لذاتها علما لظاهر الحياة الدنيا، وذلك في قوله تعالى: "يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون"⁽⁴³⁾ وأمر تعالى بالإعراض عن مثل هذا العلم في قوله عز وجل: "فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا، ذلك مبلغهم من العلم"⁽⁴⁴⁾ ومعنى ذلك أن علوم الدنيا إنما يعتد بها لما فيها من فائدة الرقي المعنوي والسمو الروحي لأن "كل علم من العلوم... يبحث عن الله دوما، ويعرف بالخالق الكريم بلغته الخاصة..."⁽⁴⁵⁾ أي أنه يرقى به البشر فيدرك الرحمة والإحسان الإلهي ليقابل ذلك بالشكر والمحبة. "لذا يلزم النظر إلى المخلوقات بالنظر الحر في لا الاسمي وفق دستور:

وفي كل شيء له آية تدل على انه واحد

وذلك لأجل أن يسمو الإنسان إلى مستوى الإنسان حقا".⁽⁴⁶⁾

إن علوم الكون تسمو بالإنسان في مراتب الإنسانية الحقة، وترفعه في درجات الرقي المعنوي، لأن غايتها الحقة هي إظهار تجليات جمال الله في الكون، وإن إدراك تجليات جمال الله وجلاله لذة روحية يستشرف بها العبد لكمال اللذة في الدار الآخرة، وبين مقام إدراك تجليات الله في الكون ومقام اللذة الكاملة في دار البقاء، ما لا يحصى من مقامات الرقي الروحي ودرجات السمو المعنوي.

3- الإيمان ضمان السمو الروحي والرقي المعنوي.

إن عمر الإنسان وحياته وما أودع فيه من أجهزة إنسانية راقية وقوى معنوية عجيبة سامية، إنما وجد ليؤهله لأداء وظائف مهمة سامية، تجتمع في معرفة الله تعالى والإيمان به. وما الحياة الظاهرة واللذات والشهوات إلا طريق يسمو منه الإنسان نحو تمام هذه الوظيفة، فتكون جميع أحواله وكل ما يعرض له في حياته من العوارض - مما يسمع أو يشاهد أو يتذوق أو يدرك - مسالك يجد في سلوكها الرقي المعنوي والسمو الروحي.

فلولا الإيمان ما تمحضت طرق السلوك ولا حصل الرقي المعنوي ولا تحقق السمو الروحي، فالإيمان هو الذي يعطي للحياة معناها ويمنحها غايتها ويبين مغزاها. فلولا الإيمان لكانت الحياة عبثا، وكان الموت شرا محضا وهلاكاً سرمديا. إن هذا السمو الروحي الذي سبق بيان بعض وجوهه لا يكون ولن يكون إلا بالإيمان، فهو الذي يعلم الإنسان أنه مرشح لدنيا أخرى أبدية، ومؤهل لمملكة باقية وسالك نحو سعادة دائمة. إن الإيمان يجر الإنسان من أسر الزمان والمكان ويخله من أغلال الدنيا، لأنه -من خلال ديناه ومعاشه ولذاته على ظهر الأرض- ينظر إلى أسماء الله الحسنى، ويرنو إلى عالم البقاء لأنه في مزرعته فيتلذذ بجميع عوارض التكليف ومشاق الامتحان.⁴⁷ أنظر مثلا إلى شيخ عجز ينتظر نهاية حياته بعد حين، ويتربح دخوله تحت أطباق التراب، وقد ضرب العجز والمهرم بحجاب بينه وبين الدنيا الجميلة وأوصدت أبوابها دونه، فليس هناك في الدنيا كلها ما يجد فيه سلوانا لحاله، ليس له ما يركن إليه سوى الإيمان وما يقتضيه من الإيمان باليوم الآخر. إن الإيمان باليوم الآخر يهتف به وبأمثاله قائلا " لا تغتموا أيها الشيوخ ولا تبالوا كثيرا، فإن لكم شبابا خالدا وهو أمامكم، وسيأتي حتما، وإن حياة ساطعة بهيجة وعمرا مديدا أبديا في انتظاركم، وستلقون أولادكم وأقاربكم الذين فقدتموهم، وجميع حسناتكم محفوظة وستأخذون ثوابها. وهكذا يمنحهم الإيمان باليوم الآخر سلوانا وانسراحا لهم بحيث لو حمل أحدهم أثقال مائة شيخوخة لتحملها صابرا في انتظار ما سيعقبها من حياة أخرى سعيدة." (48) وانظر أيضا إلى هذا الإنسان الجرد من الإيمان، إنه ليس له من حياته إلا المتعة الحاضرة مع ما يكتنفها من آلام الخوف من زوالها بل واليقين من ذهابها بعد حين، أما الأزمنة الماضية فهي عدم لأنها زالت وأدبرت، وإن الأزمنة المقبلة معدومة أيضا لأنه لا يدري أمرها وما سيكون حالها. (49) إن اللذة الحقيقية الصافية إنما تحصل بالإيمان، وإن السمو الروحي والرقي المعنوي يتوقف على الإيمان، وكل ما سواه ليس غاية بذاته وإنما طريق إلى هذا السمو، فغاية الحياة - وهي السمو الروحي والرقي المعنوي- تتحقق بالإيمان، ودون هذه الغاية مفاوز من المجاهدة والعمل، ولهذا قال الله تعالى: " وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون" (الذاريات: 56).

الخلاصة

إن الغاية المرجوة والهدف الحقيقي المنشود الذي هو أهل أن يسعى إليه الإنسان في الحياة الدنيا هو السمو الروحي والرقى المعنوي، بمعرفة الله تعالى ومحبه والإيمان به وطاعته، فهو اللذة الحقيقية والسعادة الصافية التي لا يشوبها كدر، وكل شيء في الوجود إنما وجد ليكون طريقاً إلى هذه الغاية وسبيلاً سالكا إليها، فالدنيا كلها بما فيها ليست غاية بذاتها وإنما هي سبيل إلى غاية. " من كان يريد حرث الآخرة نذر له في حرثه، ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له في الآخرة من نصيب".

الهوامش

- (1) - انظر "المكتوبات" ص: 476.
- (2) - "الشعاعات" ص: 137.
- (3) - "الكلمات" ص: 136.
- (4) - آل عمران : 14
- (5) - "صيقل الإسلام" ص: 136-137.
- (6) - "المكتوبات" ص: 50-51
- (7) - البقرة : 38.
- (8) - الأعراف : 24.
- (9) - الكلمات ص: 136.
- (13) - "صيقل الإسلام" ص: 428.
- (14) - انظر أيضا في تفصيل طريق الإسلام هذا، كتاب "الإسلام بين الشرق والغرب" لعلي عزت بيغوفيتش، حيث وصف الإسلام بأنه " وحدة ثنائية القطب" تجتمع فيه علوم الوحي بعلوم الكون، والدنيا بالآخرة، والعقل بالقلب، والجسد بالروح، والفرد بالجماعة، والمصلحة الخاصة بالمصلحة العامة، وليتحقق هذا الانسجام كانت حقيقة الإنسان على هذا الأساس فاجتمعت فيه القوى المعنوية بالشهوات المادية.
- (15) - "صيقل الإسلام" ص: 128.
- (16) - " البلد " : 4
- (17) - "المكتوبات" ص: 378-379.
- (18) - نفسه ص 380-381.
- (19) - " الذاريات " : 56 .
- (20) - "المكتوبات" ص: 289.
- (21) - " الإسراء " : 70 .

- (22) - انظر "المكتوبات" ص 592 .
- (23) - وهذا على خلاف ما سار عليه عامة أهل السلوك من أن طلب لذة الدنيا مناف للسلوك إلى الله تعالى.
- (24) - الكلمات ص 765 - 766 مع بعض التصرف.
- (25) - "الكلمات" ص 764 - 765 - 766 .
- (26) - "المكتوبات" ص: 472-473.
- (27) - "المكتوبات" ص: 297.
- (28) - انظر "الكون والطبيعة في فكر الإمام النورسي : أثرا ودلالة وهدفا" لفاروق حمادة . ضمن أعمال مؤتمر "جهود بديع الزمان النورسي في تجديد الفكر الإسلامي" 17-18 مارس 1999م- الرباط- المغرب.
- (29)- انظر "ملحق بارلا" ص 68-69 ، "ملحق قسطنوني" ص: 144.
- (30)-"الأعراف" : 32 .
- (31)-"المكتوبات" ص 52.
- (32)-"المكتوبات" ص 54.
- (33) - "البقرة" : 183 - 184 .
- (34) - " صحيح البخاري " كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى " يريدون أن يبدلوا كلام الله" .
- (35)-"اللمعات" ص: 110.
- (36)-"المكتوبات" ص: 8.
- (37) - " العنكبوت " : 64 .
- (38) - " صحيح البخاري " كتاب الرقاق، باب من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه. و لزيادة التفصيل في الموضوع انظر "فلسفة الموت عند النورسي" لمصطفى ابن حمزة، ضمن أعمال المؤتمر العالمي الثالث لبديع الزمان النورسي - اسطنبول 1995.
- (39) - انظر " المكتوبات" ص: 9.
- (40) - " الإسراء " : 44 .
- (41)-"المتنوي العربي النوري" ص: 41
- (42)-"المكتوبات" ص: 269.
- (43) - " الروم " : 7 .
- (44) - " النجم " : 29 - 30 . وانظر "ملحق أميرداغ" ص: 354-355 فما بعدها.
- (45) - "الشعاعات" ص: 257.
- (46) - "ملحق أميرداغ" ص: 359، وانظر نموذجا جميلا ومثالا رائعا للرقى المعنوي من خلال علوم الكون الناشئة من نور العقل في "الشعاعات" ص: 141-191.
- (47) - أنظر : المكتوبات ص 375 .
- (48)-"الشعاعات" ص 280 .
- (49)- أنظر ملحق قسطنوني ص 175 .

العدالة الاجتماعية في الإسلام من فكر بديع الزمان سعيد النورسي

الدكتور الشيخ علاء الدين زعتري

سوريا

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيد الأنبياء والمرسلين،
سيدنا محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين، وأصحابه الغر الميامين، وبعد:

فإنه حَرِيٌّ بِالْأُمَّمِ الْحَيَّةِ أَنْ تَسْتَذَكِرَ عِظَمَاءَهَا وَرِجَالَاتِهَا الَّذِينَ عَاشُوا ظُرُوفَهَا وَوَعَا
حَاجَاتِهَا فِي فِتْرَةٍ مِنَ الزَّمَنِ، وَعَمَلُوا مَا بَوَسَعَهُمْ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَنْقَلُوا وَاقِعَهَا إِلَى مُسْتَقْبَلٍ
مَشْرِقٍ تَصْبُوا إِلَيْهِ، تَارِكِينَ إِشْعَاعَاتِ فِكْرِهِمُ النَّيِّرَةَ عَلَى كُلِّ عَمَلٍ يَزَاوِلُونَهُ، وَبِصِمَاتٍ
أَصَابِعُهُمُ الْوَاضِحَةَ فِي كُلِّ نَشَاطٍ يَشْتَرِكُونَ فِيهِ.

إن تذكر هؤلاء الرجال وتدارس حياتهم، ومعرفة خصائصهم، والتعرف على
نشاطاتهم يزيد في عمر ذاكرة الأمة، ويُضيف بعداً فكرياً إلى خصائصها، ومعرفة
ظروفها، والواقع الذي تعيشه، والمستقبل الذي تنشده وتقفو إليه.

وإن من واجب كل مسلم أن يكون عالمياً في فكره وتوجهاته، يريد الخير لبني البشر
جميعاً، وهذا ما يُلاحظ في المُصلحين العظام، والأئمة الأعلام، ومن بينهم في آخر
الزمان: علامة الدنيا، ومنبع صفاء الفكر المعاصر: الشيخُ بديع الزمان سعيد النورسي،
فخطأه — كما يقول إحسان قاسم الصالح — (جاء مُوجَّهاً إلى الإنسانية عامةً، وليس
المسلمين وحدهم؛ فهو يتكلم مستلهماً من القرآن الكريم، يتكلم من خلال حقيقة
الفطرة التي تربط بين أجزاء البراهين العظيمة الثلاثة لمعرفة الله وتوحيده، وهي:

القرآن الكريم المقروء.

والقرآن الناطق؛ وهو الرسول الحبيب .p

والقرآن المنظور؛ وهو الكون الفسيح.

ويُقَرَّب الحقائق بأسلوب فصيح ورائق.

نعم ، إن النورسي لم يكتب لمرحلة معينة، ولا لقوم بعينهم، ولا كان أسيرَ زمنٍ محدد، بل عاش في قلب القرآن الخالد، ووقف وراء موكب رسول الله ρ ، وجال بفكره الثاقب في آفاق الكون⁽¹⁾.

ومن هنا يمكن وصف العلامة النورسي: بأنه مجددُ العصر، وعالمٌ خبير، ومفكرٌ مبدع، وأديبٌ لامع، وباحثٌ متقن، فهو عميق الاطلاع واسع الأفكار، ومخلِّقٌ في الآفاق؛ علماً ومعرفةً؛ ما عالج قضية من القضايا إلا بدا بها خبيراً.

وفي هذا البحث نُنعم النظرَ في إحدى القضايا المهمة التي شغلت بال العلامة النورسي، ألا وهي: العدالة الاجتماعية.

مفهوم العدالة:

اسم العدل: الوسط، مشتق من المعادلة بين شيئين؛ بحيث يقتضي شيئاً ثالثاً وسطاً بين طرفين؛ لذلك كان اسمُ الوسط يُستعمل في كلام العرب مرادفاً لمعنى العدل.

فعن رسول الله ρ في تفسيره لقوله تعالى: {وكذلك جعلناكم أمة وسطاً} [البقرة: 143]، قال: "عدلاً، والوسط هو العدل"⁽²⁾.

العدالة لغة:

[العدْل: ما قام في النفوس أنه مُستقيم، وهو ضدُّ الجور، عدل الحاكم في الحكم يعدل عدلاً وهو عادل... وعدل عليه في القضية، فهو عادل،... وفي أسماءه سبحانه: العدل، وهو الذي لا يميلُ به الهوى فيجور في الحكم،... والعدْل: الحُكْم بالحق، يقال: هو يقضي بالحق ويعدل، قال — تعالى — في موضعين: {وأشهدوا ذوي عدل منكم} [الطلاق: 2]، وقال: {يحكم به ذوا عدل منكم} [المائدة: 95]⁽³⁾.

العدالة اصطلاحاً:

العدالة من العدل، والعدل يعني تمكين صاحب الحق من الوصول إلى حقه من أقرب الطرق وأيسرها.

والعدالة عند العلامة النورسي: هي المساواة في الحقوق والواجبات في نظر الخالق والخلق، يقول: [إن العدالة التي لا مساواة فيها ليست عدالة] ⁽⁴⁾.

مصدر العدالة:

استقت الشرائع القديمة مبادئ العدالة من العقل وشعور العدل في النفس، ولكن هذا المصدر اتخذ صوراً مختلفة تبعاً لاختلاف الشعوب؛ فكان مصدر العدالة عند الرومان (قانون الشعوب)، وعند اليونان (قانون الطبيعة)، وعند الإنكليز (ضمير الملك).

أما مصدر العدالة في شريعة القرآن هو: نصوصُ الشريعة، والعقلُ السليمُ الفاهم لحكمة التشريع في الإسلام.

والعدالة واحدة من القيم التي تنبثق من عقيدة الإسلام في مجتمعه، فلجميع الناس في مجتمع الإسلام حق العدالة وحق الاطمئنان إليها، عملاً بقول الله تعالى: {وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل} [النساء: 58].

العدالة تشكل ربع المقاصد الأساسية من القرآن:

يراد بالمقاصد الأساسية للإسلام: الأهداف الاستراتيجية التي جاء الإسلام لتحقيقها في حياة المسلمين والبشر عموماً.

ويرى العلامة النورسي: أن [المقاصد الأساسية من القرآن وعناصره الأصلية أربعة: التوحيد، والنبوة، والحشر، والعدالة] ⁽⁵⁾.

وفي موضع آخر، يقول: [إن المقصد الأصلي في القرآن الكريم إرشادُ الجمهور إلى أربعة أساسيات هي: إثباتُ الصانع الواحد، والنبوة، والحشر، والعدالة] ⁽⁶⁾.

وفي استدلاله على هذه الأهداف والمقاصد الأساسية للدين الحنيف، يقول العلامة النورسي: [لَمَّا أنزل (بسم الله) لتعليم العباد كان "قُلْ" مقدراً فيه، وهو الأُمُّ في تقدير الأقوال القرآنية، فعلى هذا يكون في "قل" إشارةً إلى الرسالة، وفي (بسم الله) رمز إلى الألوهية، وفي تقديم الباء تلويحٌ إلى التوحيد، وفي (الرحمن) تلميحٌ إلى نظام العدالة والإحسان، وفي (الرحيم) إيماءٌ إلى الحشر.

وكذلك في (الحمد لله) إشارة إلى الألوهية، وفي لام الاختصاص رمزاً إلى التوحيد، وفي (رب العالمين) إيماء إلى العدالة والنبوة أيضاً؛ لأن بالرسول تربية نوع البشر، وفي (مالك يوم الدين) تصريح بالحشر.

وحديثنا عن العدالة المستفادة من كلمة (الرحمن) في البسملة، ومن قوله: [رب العالمين] في سورة الفاتحة، حيث دعا الإسلام إلى عدالة اجتماعية شاملة ترسيخاً لفكرة العدل كمبدأ، وتنمية لها كسلوك؛ لأن العدل هو أهم الدعائم التي يقوم عليها كل مجتمع صالح.

فالمجتمع الذي لا يقوم على أساس متين من العدل والإنصاف هو مجتمع فاسد مصيره إلى الانحلال والزوال⁽⁷⁾.

وعن العدالة العامة في الكون يقول العلامة النورسي: [العدالة العامة الجارية في الكون النابعة من التجلي الأعظم لاسم (العدل) إنما تدبر موازنة عموم الأشياء، وتأمير البشرية بإقامة العدل.

فاعلم من هذا إن (العدالة والاقتصاد والطهر) التي هي من حقائق القرآن ودساتير الإسلام، ما أشدها إيغالاً في أعماق الحياة الاجتماعية، وما أشدها عراقة وأصالة، وأدرك من هذا مدى قوة ارتباط أحكام القرآن بالكون، وكيف أنها مدّت جذوراً عميقة في أغوار الكون فأحاطته بعري وثيقة لا انفصام لها، ثم افهم منها إن إفساد تلك الحقائق ممتنعٌ كامتناع إفساد نظام الكون والإحلال به وتشويه صورته⁽⁸⁾.

ويستدل على ذلك من القرآن بقوله: [وإنَّ { وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ } {فصلت: 46} نموذجٌ آخرٌ يشير إلى دليل العدالة في الكون]⁽⁹⁾.

فعدالة الإسلام ذات سمة خاصة تميزها عن سائر العدالات.

فمجتمع الإسلام يقوم على توحيد الإله، وتوحيد الأديان جميعاً في دين الله الواحد، وتوحيد الرسل في الدعوة بهذا الدين الموحد منذ نشأة الحياة: [إن الدين عند الله الإسلام] [آل عمران: 19]، و[إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون] [الأنبياء: 92]، و[إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون] [المؤمنون: 52].

وعدالة الإسلام تتناول جميع مظاهر الحياة وجوانب النشاط فيها، وتسعى إلى تحقيق العدالة فيها بوسائل شتى:

أولاً: إعلان الأخوة بين أبناء المجتمع الإسلامي، يقول الله تعالى: [إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم][الحجرات: 9]، ويقول رسول الله ﷺ: "لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه"⁽¹⁰⁾.

ثانياً: تشديد النكير على كل عمل يوهن الأخوة الإسلامية، ومن أجل ذلك:

— حَرَّمَ التَّعَالِي والسَّخْرِيَّة، بقوله تعالى: [يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكنَّ خيراً منهن][الحجرات: 11].

— وَحَرَّمَ التَّعْرِيفَ بِالْعِيُوبِ والتَّفَاخَرَ بِالنَّسَابِ: [ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب][الحجرات: 11].

— وَحَرَّمَ الغَيْبَةَ والنَّمِيمَةَ وسوء الظن: [يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم، ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضاً أيحِبُّ أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه][الحجرات: 12].

ثالثاً: الترغيبُ في كل ما يجمع القلوب ويدعم الوحدة وذلك:

— كالدعوة إلى الإصلاح بقوله ﷺ: "ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة؟ قالوا: بلى يا رسول الله. قال: إصلاحُ ذات البين"⁽¹¹⁾.

— وَكحَسْنِ الجِوَارِ، بما رُوِيَ فِي بَيَانِ حَقِّ الجَارِ، فَقَدْ جَاءَ فِي الأَثَرِ عَنِ جَابِرِ T وَغَيْرِهِ مِنْ صَحَابَةِ رَسولِ اللّهِ ﷺ أَنَّ بَعْضَهُمْ سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ: مَا حَقُّ الجَارِ؟ قَالَ: "إِنْ مَرَضَ عُدَّتْهُ، وَإِنْ مَاتَ شَيَّعْتَهُ، وَإِذَا اسْتَقْرَضَكَ أَقْرَضْتَهُ، وَإِذَا افْتَقَرَتْ عَلَيْهِ، وَإِذَا أَصَابَهُ خَيْرٌ هِنَأْتَهُ، وَإِذَا أَصَابَتْهُ مَصِيبَةٌ عَزِيزَتَهُ، وَلَا تَسْتَظِلُّ عَلَيْهِ بِالبَنِيَانِ فَتَحْجُبَ عَنْهُ الرِّيحُ إِلَّا بِإِذْنِهِ، وَلَا تُؤْذِهِ بِقِتَارِ رِيحِ قَدْرِكَ، إِلَّا أَنْ تَعْرِفَ لَهُ مِنْهَا، وَإِنْ اشْتَرَيْتَ فَاكْهَةً فَأَهْدِ لَهُ، فَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَأَدْخِلْهَا سِرًّا، وَلَا يُخْرِجْ بِهَا وَلَدَكَ لِيَغِيظَ بِهَا وَلَدَهُ"⁽¹²⁾.

وكذلك أغرى الإسلام بالمساعدات والخدمات الاجتماعية فاعتبر مساعدة الضعيف صدقةً، وإزاحة الأذى عن الطريق صدقة، وحث على التعاون ابتغاء خير الجماعة، فقال تعالى: [وتعاونوا على البر والتقوى][المائدة: 2].

وقال رسول الله ﷺ: "لأن يمشي أحدكم مع أخيه في قضاء حاجة (وأشار بإصبعه) أفضل من أن يعتكف في مسجدي هذا شهرين" (13).

والعدل الإسلامي مبدأ مقرر في كل شيء؛ في القول، وفي العمل، وفي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وفي النساء، وفي الأقارب، والأولاد، والضعفاء حتى في الجوارح، فضلاً عن العدل في الاقتصاد، وفي الشهادة، وفي الحكم.

ويتحقق هذا بمعرفة كل مسؤول ما له وما عليه.

وأمثله ذلك:

1 — في القول: [وإذا قلتم فاعدلوا][الأنعام: 152].

2 — في العمل: يقول رسول الله ﷺ مخاطباً أهله: كما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: لما نزلت هذه الآية: {وأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ} [الشعراء: 214] دعا رسول الله ﷺ قريشاً فعمَّ وخصَّ، فقال: "يا معشر قريش أنقذوا أنفسكم من النار، يا معشر بني كعب أنقذوا أنفسكم من النار، يا معشر بني هاشم أنقذوا أنفسكم من النار، يا معشر بني عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النار، يا فاطمة بنت محمد أنقذي نفسك من النار، فإني والله لا أملك لكم من الله شيئاً إلا أن لكم رحماً سألها ببالها — أي سأصلها —" (14).

3 — في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: [كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر][آل عمران: 110].

وَتَبِعَةُ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ لَا تُلْقَى عَلَى عَاتِقِ الْفَرْدِ وَحْدَهُ، بَلْ تُلْقَى عَلَى عَاتِقِ الْجَمَاعَةِ كَلِّهَا، فَإِذَا أَهْمَلَتْ ذَلِكَ تَعَرَّضَتْ لِلْكَوَارِثِ وَالْوَيْلَاتِ، يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: [وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً][الأنفال: 25]، كما يقول سبحانه: [لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا

عصوا وكانوا يعتدون* كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون][المائدة: 78].

4 — في النساء: فالإسلام لا يعترف بالفرقة الجائرة بين الرجل والمرأة في معنى الإنسانية المشترك وفي حق كل منهما، بأن يتمتع بمقتضيات حياته النوعية وخصائصه الطبيعية في إطار الحق والعدل، يقول الله تعالى: [ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيراً][النساء: 124].

5 — في الأقارب وذوي الأرحام: يقول الله تعالى: [واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام][النساء: 1]، بمعنى: صلواها واعدلوا فيها ولا تغطوها أو تنسوا حقوقها عليكم فتظلموها.

6 — في الاقتصاد: إن كل عدل لا يقوم على اقتصاد منظم فهو عدل ناقص، فلن نكون عمليين حين نقول للجائع أو العاري أو المفلس أو العاطل عن العمل: لا ترتكب الجريمة، قبل أن نحقق له مجتمعاً صالحاً لا يجوع فيه ولا يعرى ولا يتعطل عن العمل.

7 — العدل في القصاص والحدود: وكذلك تناولت عدالة الإسلام الحدود؛ إذ جعلتها متفاوتة لكي يتناسب الحد مع الجرم، فجعل الإسلام عقوبة الزنى: الرجم للمحصن والجلد فقط لغير المحصن؛ تبعاً للفرق بين المتزوج والعازب، فقال رسول الله ﷺ: "البكر بالبكر جلد مئة ونفي سنة والثيب بالثيب جلد مئة والرجم"⁽¹⁵⁾.

8 — العدل في الشهادة: والشهادة في الإسلام حق واجب الأداء، فكل مسلم أو مسلمة مطالبٌ بأداء الشهادة وعدم كتمها، لقول الله تعالى: [ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله وما الله بغافل عما تعملون][البقرة: 140].

9 — العدل في الحكم: فقد أمر الله رسوله أن يحكم بالعدل، في قوله سبحانه: [وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط إن الله يحب المقسطين][المائدة: 42]، كما أمر الله تعالى من يأتي من بعد رسول الله من الحكام المسلمين أن يحكموا بالعدل بقوله سبحانه: [وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل][النساء: 58].

جزاء العدل:

أبوابُ السماء مفتوحة أمام الإمام العادل وأمام المظلوم على سواء، يقول رسول الله ﷺ: "ثلاثة لا تردّ دعوتهم: الإمام العادل، والصائم حتى يفطر، ودعوة المظلوم"⁽¹⁶⁾، فالله سبحانه يجيب دعوته، وينصف من يستغيث به، ويدفع عنه مظلمته، بل أباح للمظلوم فوق ذلك الدعاء على الظالم، والتشهير به، وقول السوء في حقه حتى يرجع عن ظلمه، مصداقاً لقول الله تعالى: { لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم } [النساء: 148].

يقول العلامة النورسي في بيان العدل المحقق إما في الدنيا أو الآخرة: [فاعلم! أنا كثيراً ما نرى الظالم الفاجر الغدار في غاية التنعم، ويمرّ عمره في غاية الطيب والراحة. ثم نرى المظلومَ الفقيرَ المتدينَ الحسنَ الخلقَ ينقضي عمره في غاية الزحمة والذلّة والمظلومية، ثم يجيء الموتُ فيساوي بينهما. وهذه المساواة بلا نهاية تُري ظلماً.

والعدالة والحكمة الإلهيتان اللتان شهدت عليهما الكائناتُ منزهتان عن الظلم؛ فلا بد من جمعٍ آخر ليرى الأول جزاءه والثاني ثوابه فيتجلى العدالة الإلهية⁽¹⁷⁾.
العدالة بين الفردية والجماعية، والأناية والغيرية:

العدل في الإسلام لا يتأثر بحبّ أو بغض، فلا يفرق بين مسلم وغير مسلم، كما لا يفرق بين حسَب ونَسَب، ولا بين جاه ومال، بل يتمتع به جميع المقيمين على أرضه من المسلمين وغير المسلمين مهما كان بين هؤلاء وأولئك من مودة أو شنان، بقول الله تعالى: [يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا، اعدلوا هو أقرب للتقوى، واتقوا الله، إن الله خبير بما تعملون] [المائدة: 8].

وفي هذا المعنى يقول العلامة النورسي: [العدالة القرآنية المحضة، لا تُهدِر دمَ بريء، ولا تُزهِق حياته؛ حتى لو كان في ذلك حياة بشرية جمعاء]⁽¹⁸⁾.

وما يشيع اليوم بين الناس من كثرة المقاضاة بشأن الديون والحقوق واتساع رقعة الخصومات بشأن الاختلاف بين الناس على الأموال ونحوها: يوهن من رابطة الأخوة بين المسلمين فيما بينهم وبين غيرهم من بني الإنسان، ولم يصل الأمر إلى ما وصل إليه اليوم

في صورته البشعة إلا نتيجة طغيان غرائز الإنسان؛ من الطمع والجشع وحب الاستئثار الذي يجرد الناس من آدميتهم وإنسانيتهم وعقيدتهم وضمائرهم.

وفي معالجة المسألة جاء الإسلام يدعو إلى ضرورة العدل مع الظالم والمظلوم، وذلك بالحديث النبوي الشريف: "انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً"، قالوا: يا رسول الله! ننصره مظلوماً فكيف ننصره ظالماً؟ فقال p: "تأخذون فوق يديه وتردعون عنه عن ظلمه"⁽¹⁹⁾.

وعن مفهوم العدالة الإسلامية في الحكم، وأنها المساواة بين الطرفين، دون ميل لأحدهما بسبب دين أو عرق أو لون يقول العلامة النورسي: [فكما أن كليهما — أي المتخاصمين — في نظر القدرة — أي القدرة الإلهية — سواء، فهما في نظر العدالة — البشرية — سواء أيضاً]⁽²⁰⁾.

ثم يشير إلى الأخطاء التي يقع فيها الحكام، من سيطرة الأهواء النفسية، والأطماع الشهوانية، والمصالح المادية على أحكامهم، فيقول العلامة النورسي: [ولكن الذي تمكّن فيه الحرصُ والأنانية يصبح إنساناً يريد القضاء على كل شيء يقف دون تحقيق حرصه، حتى تدمير العالم والجنس البشري إن استطاع]⁽²¹⁾.

وتحدث عن ظهور الأنانية وطغيان الأفراد في زمانه، فقال: [طغيان الأنانية وهيمنتها الواسعة في هذا الزمان]⁽²²⁾، وقال في موضع آخر: [إنه في زمان قد استولت فيه الأنانية، وطغت فيه الأثرة، واستهدفت المنافع الشخصية حتى انحصر شعور الإنسان في إنقاذ نفسه]⁽²³⁾.

ومن تواضعه وفهمه لم يستثن نفسه بحسن ظن إخوانه به، فيقول رضي الله عنه: [أرفضُ حسن الظن المفرط بشخصي الذي يفوق كثيراً حدّي وطوقتي، لأني كإخوتي، لا أحسن الظن بنفسي]⁽²⁴⁾، ويؤكد أن الأنانية تتدخل في النفس البشرية فيقول: [إن الذي يرى نفسه صاحب مقام فالأنانية ربما تتداخل في الأمر]⁽²⁵⁾، ويربأ بنفسه أن يكون إلا مخلصاً، فيقول: [وليس في مسلك النور — بأية جهة كانت — الرغبة في الأنانية وحب الشخصية والتطلع إلى المقامات والحصول على الشرف وذئوع الصيت، وكل ذلك منافٍ لسر الإخلاص تماماً]⁽²⁶⁾.

المدنية قلبت المفاهيم، بخلاف الحضارة:

في بيان الواقع المرير للأمة الإسلامية يشير العلامة النورسي إلى أنه: [حصل انقلاب في بعض الحقائق، حيث استبدلت الأضدادُ أسماءها ومواقعها، فَيُطْلَقُ العدالةُ على الظلم، والبغيُّ على الجهاد، والحريَّةُ على الأسر] (27).

وهنا يقول العلامة النورسي: [لقد وضع الظلمُ على رأسه قَلنسوةَ العدالة، ولبست الخيانةُ رداءَ الحمية، وأطلق على الجهاد اسمُ البغي، وعلى الأسر اسمُ الحريَّة، وهكذا تبادلت الأضدادُ صُورَها] (28).

وفي مقابل المدنية المعاصرة كانت المدنية الإسلامية الحضارية في قيمها ومفاهيمها، ومن هنا يقول العلامة النورسي: [المدنية التي تتضمنها الشريعة الأحمدية وتأمُرُ بها؛ فإن نقطة استنادها: الحق بدلاً من القوة، والحق من شأنه: العدالة والتوازن، وهدفها: الفضيلة بدلاً من المنفعة، والفضيلة من شأنها: المودة والتجاذب] (29).

فالحق في الحضارة هو الأصل والأساس، ومن شأن الحق: العدالة والتوازن، وهدف الحق في الحضارة: الفضيلة والقيم الأخلاقية، المفضية إلى المودة والتحابب، والرحمة والتوادد.

تطبيقات في العدالة:

1 – ميراث الذكور والإناث.

لما كانت العقول البشرية المحدودة لا ترغب في التأمل بعدل ميراث الأخوة والأخوات في الإسلام، وقد جعل بعض الناس مسألة الميراث مثار شبهة على التشريع الإسلامي، كان ردُّ العلامة النورسي بقوله: [إن الحكم القرآني { فللذكر مثلُ حظِّ الأنثيين } [النساء: 176] محض العدالة وعين الرحمة في الوقت نفسه نعم، إن ذلك الحكم عدالة؛ لأن الرجل الذي ينكح امرأة يتكفل بنفقتها كما هو في الأكثرية المطلقة، أما المرأة فهي تنزوح الرجل وتذهب إليه، وتحمل نفقتها عليه، فتلافي نقصها في الإرث.

ثم إن الحكم القرآني رحمة؛ لأن تلك البنت الضعيفة محتاجة كثيراً إلى شفقة والدها وعطفه عليها وإلى رحمة أخيها ورأفته بها فهي تجد - حسب الحكم القرآني - تلك الشفقة عليها من والدها وعطفه دون أن يكدرها حذر؛ إذ ينظر إليها والدها نظرة من لا

يخشى منها ضرراً، ولا يقول بأنها ستكون سبباً في انتقال نصف ثروتي إلى الأجنب والأغيار، فلا يشوب تلك الشفقة والعطف الأبوي الحذر والقلق.

ثم إنها ترى من أحييها رحمة وحماية لا يعكرها حسد ولا منافسة، إذ لا ينظر إليها أخواها نظر من يجد فيها منافساً له يمكن أن تبدد نصف ثروة أبيهما بوضعها في يد الأجنب؛ فلا يُعكّر صفو تلك الرحمة والحماية حقد وكدر.

فتلك البنت اللطيفة الرقيقة فطرةً، والضعيفة النحيقة حلقةً، تفقد في هذه الحالة شيئاً قليلاً في ظاهر الأمر.

إلا أنها تكسب - بدلاً منه - ثروة لا تفنى من شفقة الأقارب وعطفهم عليها ورحمتهم بها، وإلا فإن إعطاءها نصيباً أكثر مما تستحق بزعم أن ذلك رحمة في حقها أزيد من رحمة الله سبحانه، ليس رحمة بها قط بل ظلم شنيع في حقها، ربما يفتح سبيلاً أمام الحرص الوحشي المستولي على النفوس في هذا الزمان لارتكاب ظلم أشنع، يذكر بالغيرة الوحشية التي كانت مستولية على النفوس في زمن الجاهلية في وأدهم البنات.

فالأحكام القرآنية كلها تُصدّق - كما يُصدّق هذا الحكم - قوله تعالى: {وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين} (الأنبياء: 107) [30].

ويشير إلى تنطع المدنية المعاصرة في تحاملها على عدالة التشريع الإسلامي، فيقول: [إن المدنية التي لا تتحاكم إلى المنطق العقلي، تنتقد الآية الكريمة {للدكر مثل حظ الأنثيين} [النساء: 11] التي تمنح النساء الثلث من الميراث (أي نصف ما يأخذه الذكر).

ومن البديهي أن أغلب الأحكام في الحياة الاجتماعية إنما تُسنُّ حسب الأكثرية من الناس؛ فغالبية النساء يجدن أزواجهن يعيلوهن ويحموهن، بينما الكثير من الرجال مضطرون إلى إعالة زوجاتهم وتحمل نفقاتهن.

فإذا ما أخذت الأنثى الثلث من أبيها (أي نصف ما أخذه الزوج من أبيه) فإن زوجها سيسد حاجتها، بينما إذا أخذ الرجل حظين من أبيه فإنه سينفق قسطاً منه على زوجته، وبذلك تحصل المساواة، ويكون الرجل مساوياً لأخته، وهكذا تقتضي العدالة القرآنية [31].

2 – معاقبة المسيء، والعدل في القضاء:

شرّح الإسلام في القضاء مبادئ وأصولاً ومناهج لإقامة العدل تعد دستوراً لجميع قضاة الأرض، وستظل علماً ونوراً يهتدون به ويسيرون في ضوئه في كل مكان وعلى كل الأزمان.

من هذه المبادئ والأصول:

أ — أنه ρ أوجب على كل قاض أن لا يقضي في الحادثة حتى يسمع كلام الخصوم سماعً فهم وتدبر، لقوله ρ للإمام علي كرم الله وجهه: "إذا تقاضى إليك رجلان فلا تقض للأول حتى تسمع كلام الآخر؛ فسوف تدري كيف تقضي"، قال علي: فما زلت قاضياً بعد⁽³²⁾.

ب أوجب رسول الله ρ على القاضي حين يقضي أن يكون حاضر الذهن هادئ البال، غير منفعل ولا غضبان؛ حتى يأمن الخطأ في قضائه، فقال ρ : "لا يقضين حاكم بين اثنين وهو غضبان"⁽³³⁾.

ج — شرع رسول الله ρ مبدأ البيئة على إقامة الحق والعدل، فقال: "البيئة على المدعي واليمين على من أنكر"⁽³⁴⁾.

ويشير العلامة النورسي إلى أهمية العدالة في القضاء والحكم بقوله: [إن الآية الكريمة: { وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى } [الأنعام: 164] تفيد العدالة المحضة، أي لا يجوز معاقبة إنسان بجريرة غيره.

إن لم تكن تصرفات المؤمن وحركاته وفق الدساتير السامية التي وضعها الحديث الشريف: "الحب في الله والبغض في الله"⁽³⁵⁾ والاحتكام إلى أمر الله في الأمور كلها، فالنفاق والشقاق يسودان.

نعم، إن الذي لا يستهدي بتلك الدساتير يكون مقترفاً ظلماً في الوقت الذي يروم العدالة.

حادثة ذات عبرة: في إحدى الغزوات الإسلامية، كان الإمام علي τ يبارز أحد فرسان المشركين، فتعلّب عليه الإمام وصرعه، فلما أراد الإمام أن يُجهز عليه تفلّ على

وجه الإمام، فما كان من الإمام إلا أن أحلى سبيله وانصرف عنه، فاستغرب المشرك من هذا العمل، فقال: إلى أين؟، قال الإمام: كنت أقاتلك في سبيل الله، فلما فعلت ما فعلت خشيت أن يكون قتلي إياك فيه تاراً لنفسي فأطلقتك لله، فأجابه الكافر: كان الأولى أن تتبرك فعلي أكثر فتسرع في قتلي! وما دمتم تدينون بدين هو في منتهى السماحة فهو بلا شك دين حق.

وحادثة أخرى: عزل حاكم مسلم قاضيه؛ لما رأى منه شيئاً من الحدة والغضب أثناء قطعه يد السارق.

فما ينبغي لمن ينفذ أمر الله أن يحمل شيئاً من حظ نفسه على المحكوم، بل عليه أن يشفق — من حيث النفس — على حاله دون أن تأخذه رافة في تنفيذ حكم الله، وحيث إن شيئاً من حظ النفس قد اختلط في الأمر وهو مما ينافي العدالة الخالصة؛ فقد عُزل القاضي [36].

3 — العدل السياسي: السياسة الحاضرة شيطان في عالم الأفكار ينبغي الاستعاذة منها:

يقول العلامة النورسي: [إن سياسة المدينة الحاضرة تُضَحِّي بالأكثرية في سبيل الأقلية، بل تُضَحِّي قلة قليلة من الظلمة بجمهور كبير من العوام في سبيل مقاصدها.

أما عدالة القرآن الكريم، فلا تُضَحِّي بحياة بريء واحد، ولا تهدر دمه لأي شيء كان، لا في سبيل الأكثرية، ولا لأجل البشرية قاطبة؛ إذ الآية الكريمة: {مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا} [المائدة: 32] تضع سرّين عظيمين أمام نظر الإنسان:

الأول: العدالة المحضة، ذلك الدستور العظيم الذي ينظر إلى الفرد والجماعة والشخص والنوع نظرة واحدة، فهم سواء في نظر العدالة الإلهية مثلما إنهم سواء في نظر القدرة الإلهية. وهذه سنة دائمة.

إلا أن الشخص يستطيع - برغبة من نفسه - أن يضحى بنفسه، من دون أن يُضْحَى به قطعاً، حتى في سبيل الناس جميعاً؛ لأن إزهاق حياته وإزالة عصمته وهدر دمه بإبطال حق الناس جميعاً شبيه بإزالة عصمتهم جميعاً وهدر دمائهم جميعاً.

والسر الثاني: هو لو قُتِلَ مغرورٌ بريئاً دون ورع، تحقيقاً لحرصه وإشباعاً لـنـزواته وهوى رغباته؛ فإنه مستعد لتدمير العالم والجنس البشري إن استطاع⁽³⁷⁾.

وقراءةً للأحداث التاريخية ولبیان مفهوم العدل المطلق والنسبي، يشرح العلامة النورسي القضية بقوله: [إن (معركة الجمل) التي دارت رحاها بين سيدنا علي - رضي الله عنه - وجماعته من جهة، وبين طلحة والزبير وعائشة - رضي الله عنهم أجمعين - من جهة أخرى، هي معركة بين العدالة المحضة والعدالة الإضافية (النسبية).

وتوضيحها كالآتي: لقد جعل سيدنا علي - رضي الله عنه - العدالة المحضة أساساً لسياسته في إدارة دفة الحكم، وسار بمقتضاها على وفق اجتهاده ويمثل ما كان الشيخان يسيران عليه من قبله.

أما معارضوه فقد قالوا: إن صفاء القلوب وطهارة النفوس في عهد الشيخين كانا ملائمين وممهدين لكي تنشر العدالة المحضة سلطانها على المجتمع، إلا أن دخول أقوام متباينة الطبائع والاتجاهات وهم على ضعف الإسلام. مرور الزمن، في هذا المجتمع أدى إلى وضع عوائق مهمة إزاء الرغبة في تطبيق العدالة المحضة، فغدا تطبيقها صعباً، لذا فقد اجتهدوا على أساس بالعدالة النسبية التي هي اختيار لأهون الشرين.

ولكن، لأن المنافسة حول هذين النوعين من الاجتهاد آلت إلى ميدان السياسة، فقد نشبت الحرب بين الطرفين. وحيث أن كل طرف قد توصل إلى اجتهاده بنية خالصة ابتغاء مرضاة الله سبحانه وتعالى ومصالحة الإسلام، ونشبت الحرب نتيجة هذا الاجتهاد الخالص لله، فيصح أن نقول: القاتل والمقتول كلاهما من أهل الجنة، وكلاهما مأجوران مثابان، رغم معرفتنا أن اجتهاد الإمام علي - رضي الله عنه - كان صواباً وإن اجتهاد مخالفه مجانب للصواب، وهؤلاء المخالفون ليسوا أهلاً للعقاب الأخروي؛ إذ المجتهد لله إذا أصاب فله أجران، وإن اخطأ فله اجر واحد، أي أنه ينال ثواب بذله الجهد في الاجتهاد، وهو نوع من العبادة، أي هو معذور في خطئه⁽³⁸⁾.

وعن إيضاح الفرق بين العدالة المحضة والعدالة الإضافية، يقول العلامة النورسي: [إن حق الشخص البريء الواحد لا يبطل لأجل الناس جميعاً، إي: إن حقه محفوظ، وهذا المعنى هو الذي تشير إليه الآية الكريمة: {مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا} [المائدة: 32]، فلا يُضحى بفرد واحد لأجل الحفاظ على سلامة الجميع؛ إذ الحق هو حق ضمن إطار الرحمة الإلهية، فلا يُنظر إلى كونه صغيراً أو كبيراً، لذا لا يُفدى بالصغير لأجل الكبير، ولا بحياة فرد وحقه لأجل سلامة جماعة والحفاظ عليها، إن لم يكن له رضا في الأمر، أما إذا كانت التضحية برضاه ورغبة منه فهي مسألة أخرى.

أما العدالة الإضافية فهي أن الجزء يُضحى لأجل سلامة الجميع، فهذه العدالة لا تأخذ حق الفرد بنظر الاعتبار لأجل الجماعة، وإنما تحاول القيام بنوع من عدالة إضافية من حيث الشر الأهون.

ولكن إذا كانت العدالة المحضة قابلة للتطبيق فلا يُصار إلى العدالة الإضافية، وإن صار إليها فقد وقع الظلم.

فالإمام علي — رضي الله عنه — قال: إن العدالة المحضة قابلة للتطبيق، كما كان عليه في عهد الشيخين؛ لذا حاول بناء الخلافة الإسلامية على تلك القاعدة من العدالة المحضة.

بينما معارضوه كانوا يقولون إن هذه العدالة المحضة غير قابلة للتطبيق؛ حيث هناك عوائق ومشكلات كثيرة تظهر أثناء تطبيقها، فصار اجتهادهم إلى العدالة الإضافية⁽³⁹⁾. وعن أهمية الرابطة الإسلامية جامعة ومكمّلة، وأن القوميات الصغيرة ممزقة ومنفردة، يتحدث العلامة النورسي عن طريقة الأمويين في حكمهم، حيث [فضّلوا رابطة القومية على رابطة الإسلام فأضروا من جهتين:

الأولى: آذوا الأقوام الأخرى بنظرهم هذه، فولدوا فيهم الكراهية والنفور.

الثانية: إن الأسس المتبعة في القومية والعنصرية أسس ظالمة لا تتبع العدالة ولا توافق الحق؛ إذ لا تسير تلك الأسس على وفق العدالة، لأن الحاكم العنصري يفضل من هم بنو

جنسه على غيرهم، فأثى له أن يبلغ العدالة! بينما ((الإسلام يجب ما قبله))⁽⁴⁰⁾ من عصبية جاهلية، لا فرق بين عبد حبشي وسيد قرشي إذا أسلما، فلا يمكن إقامة رابطة القومية بدلاً من رابطة الدين في ضوء هذا الأمر الجازم؛ إذ لا تكون هناك عدالة قط، وإنما تُهدر الحقوق ويضيع الإنصاف⁽⁴¹⁾.

ويصف العلامة النورسي الحالة السياسية عامة بقوله: [إن الدستور الغادر للسياسيين الظلمة الذين هو: "يضحى بالفرد لأجل الجماعة" له وقائع وأحداث قاسية ظالمة تحت اسم "أهون الشرين" الذي اتخذ بعض الحكام نوعاً من أنواع العدالة الإضافية (النسبية) وأبرزوه لمصلحة إدامة حكمهم، حتى في هذا العصر بموجب هذا الدستور الغادر يُفني أحدهم قرية كاملة بخطأ شخص واحد فيها، ويهلك ألوف الناس لتوهم ضرر قد يلحق بسياستهم من جراء معارضة عشرة أشخاص]⁽⁴²⁾.

وفي موضع آخر يقول: [دستور المدنية الدنيئة الظالم هو: يُضحى بالفرد لأجل الجماعة ولا يُنظر إلى الحقوق الجزئية من أجل سلامة الأمة.

وقد فتح هذا الدستور ميدان مظالم شنيعة لم يُر مثلها حتى في القرون الأولى.

بينما العدالة الحقيقية للقرآن المبين أنه لا يُفدى بحق الفرد لأجل الحفاظ على الجماعة، فالحق حق، لا ينظر إلى كثيره وقليله⁽⁴³⁾.

ويوجه العلامة النورسي الحكام إلى حسن السيرة مع الشعوب متمثلين بأخلاق العظام من الأنبياء والمرسلين؛ أصحاب الحق والعدل، فيقول: [أيها الحكام! ويا من تسلمتم أمر البلاد! إن كنتم تريدون أن تسود العدالة أنحاء مملكتكم، فاقتدوا بسليمان - عليه السلام - واسعوا مثله إلى مشاهدة ما يجري في الأرض كافة، ومعرفة ما يحدث في جميع أرجائها؛ فالحاكم العادل الذي يتطلع إلى بسط راية العدالة في ربوع البلاد، والسلطان الذي يرعى شؤون أبناء مملكته، ويشفق عليهم، لا يصل إلى مبتغاه إلا إذا استطاع الاطلاع - متى شاء - على أقطار مملكته، وعندئذ تعم العدالة حقاً، وينقذ نفسه من المحاسبة والتبعات المعنوية⁽⁴⁴⁾.

ويوجه عنايته إليهم ليحسنوا التعامل مع الرعية مسترشدين بالعدالة؛ صوتاً لحكمهم وحفاظاً على هويتهم، فيقول: [العدالة المحضة تتطلب رعاية حقوق الرعية، لتصان هوية الحكومة وعظمة الدولة]⁽⁴⁵⁾.

وفي الختام: لا يسعني إلا أن أشكر القائمين على هذا المؤتمر، جزاهم الله خيراً، وهم الذين يذكرون ويتذكرون أحد أهم عظماء الأمة في الزمن القريب؛ تكريماً وعرفاناً بالجميل.

وأذكر قول العلامة النورسي: [لو كان لي ألف روح، لكنت مستعداً لأن أضحى بها في سبيل حقيقة واحدة من حقائق الشريعة؛ إذ الشريعة سبب السعادة وهي العدالة المحضة وهي الفضيلة، أقول: الشريعة الحقّة لا كما يطالب بها المتمردون]⁽⁴⁶⁾.

رحم الله العلامة النورسي رحمة واسعة، وأجزل مثوبته، ورفع مقامه، وألحقه بموكب الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقاً.

الهوامش

- (1) من نوى رسائل النور والأدب الإيماني، إحسان قاسم الصالحي، مركز رسائل النور — استانبول، موقع رابطة أدباء الشام، www.odabasham.org.
- (2) تفسير الطبري، 7/2، ومصنف ابن أبي شيبة، 310/6.
- (3) لسان العرب، ابن منظور، مادة (عدل)، 430/11.
- (4) من نوى الحقائق، والكلمة الثالثة والثلاثون.

- (5) من إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز، تحقيق: إحسان قاسم الصالحي، ص 23.
- (6) من إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز، تحقيق: إحسان قاسم الصالحي، ص 177.
- (7) من إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز، تحقيق: إحسان قاسم الصالحي، ص 24.
- (8) من اللمعة الثلاثون.
- (9) من الكلمة التاسعة والعشرون.
- (10) رواه البخاري ومسلم.
- (11) رواه أبو داود والترمذي.
- (12) رواه الطبراني.
- (13) رواه الحاكم.
- (14) رواه مسلم والترمذي، ضبطناه بفتح الباء الثانية وكسرهما وهما وجهان مشهوران ذكرهما جماعات من العلماء قال القاضي عياض رويناه بالكسر قال ورأيت للخطابي أنه بالفتح وقال صاحب المطالع وريناه بكسر الباء وفتحها من بله يبله والبلال الماء ومعنى الحديث سأصلها شبهت قطيعة الرحم بالحرارة ووصلها باطفاء الحرارة ببرودة ومنه بلوا أرحمكم أى صلوا
- (15) رواه مسلم.
- (16) رواه ابن ماجه والبيهقي.
- (17) من إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز، تحقيق: إحسان قاسم الصالحي، ص 66.
- (18) من نوى الحقائق، والكلمة الثالثة والثلاثون.
- (19) فتح الباري، ابن حجر، 98/5.
- (20) من نوى الحقائق، والكلمة الثالثة والثلاثون.
- (21) من نوى الحقائق، والكلمة الثالثة والثلاثون.
- (22) من ملحق أمير داغ، بكتيات رسائل النور، 308/1.
- (23) من ملحق أمير داغ، بكتيات رسائل النور، 311/1.
- (24) من ملحق أمير داغ، بكتيات رسائل النور، 308/1.
- (25) من ملحق أمير داغ، بكتيات رسائل النور، 308/1.
- (26) من ملحق أمير داغ، بكتيات رسائل النور، 316/1.
- (27) من سيرة ذاتية، ص 137.
- (28) من نوى الحقائق، والكلمة الثالثة والثلاثون.
- (29) من نوى الحقائق، والكلمة الثالثة والثلاثون.
- (30) من المکتوب الحادي عشر.
- (31) من الكلمة الخامسة والعشرون.
- (32) رواه الترمذي، وقال: هذا حديث حسن، ورواه ابن أبي شيبة، والبيهقي.
- (33) الدراري المضيئة، الشوكاني، 415/1.
- (34) فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن حجر، 283/5.
- (35) مصنف ابن أبي شيبة، 170/6، وأخرجه أبو داود كما في فتح الباري، 47/1.

- (36) من المکتوب الثاني والعشرون.
(37) من الكلمة الثالثة والثلاثون.
(38) من المکتوب الخامس عشر.
(39) من المکتوب الخامس عشر.
(40) فتح الباري، ابن حجر، 196/7، ومجمع الزوائد، الهيتمي، 31/1.
(41) من المکتوب الخامس عشر.
(42) من ملحق أمير داغ، بکليات رسائل النور.
(43) من ملحق قسطنوني بکليات رسائل النور، في فقه دعوة النور، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، ص: 172.
(44) من الكلمة العشرون.
(45) من الكلمة العاشرة.
(46) من سيرة ذاتية، ص 108.

تأملات في بعض أدوات التزكية الروحية في رسائل النور قراءة في خصوصيات المنهج التربوي

د. محمد حكيب
جامعة شعيب الدكالي / الجديدة
كلية الآداب والعلوم الإنسانية.
أما قبل:

ما مستقبل الإنسان؟

وما مصيره في ضوء ما نشاهده من تقدم علمي ومن رفاهية مادية لا حد لها؟
ما السبيل إلى الحفاظ على التوازن الروحي في زمن أصبحت فيه المادة هي القوة
المسيطرة؟

وما السبيل إلى زرع الانسجام بين احتياجات النفس الروحية والمعنوية، وبين العالم
المادي بتناقضاته المتنوعة والمختلفة؟

وإذا كان حق السؤال مشروعاً فإن السؤال الذي يفرض نفسه في هذا المقام هو ما
السبيل إلى علاج هذا الواقع المر؟

لقد صارت هذه الأسئلة وغيرها في عمق ومقدمة ما يشغل اهتمام الباحثين
والدارسين خاصة في ضوء ما يعرفه العالم من مظاهر توحى بأن مستقبل الإنسانية غير
واضح ولا جلي، فقد بدا العالم على شفى هاوية، أو هو مقبل على السقوط في واد
سحيق لا قرار له حتى ليخيل للمرء أنه في وسط دوامة تجذبه إلى الأسفل ماذا يديه
باحثاً عن شيء يتعلق به لكن دون جدوى.

فالأزمات الأخلاقية، وانسلاخ المرء عن هويته الإنسانية، قبل هويته الدينية والوطنية، وتفكك رؤيته للكون، وانهميار إحساس بجدوى وجوده فيه إلى درجة العبث، وانحصار إحساسه بوظيفته في هذا العالم والكون، وتفاقم علاقته بخالق الوجود، مما أدى إلى مسخ معنى العبودية لله وتحويلها إلى مجرد حركات طقوسية خالية من كل فعالية روحية، ومن كل مغزى حقيقي يربط العبد بخالق الكون، وانكماش إحساسه بالروابط الأسرية، واستغراقه في ملذات الحياة الفانية مما نتج عنه تفسخ في القيم، واستهتار بالرؤية الشمولية التي لا تفصل الإنسان عن هذا الوجود، وعن الخالق.

كل ذلك إنما هو نتيجة فعلية لشدة ارتباط الإنسان بالمادة وانبهاره بما حققه التطور التكنولوجي من تطور مهول وتقدم لا حدود لهما، وهميشه للتغذية الروحية في حياته، ودورها في الارتقاء به، وقد كان من نتائج ذلك تزايد مهول في عدد المنتحرين عبر العالم، وتفاقم الجريمة، وتوسع دائرة الانحلال الخلقي، والقائمة طويلة.

ومما لا شك فيه أن النورسي بما متعه الله به من قدرة على استشراف مشكلات العالم الحضارية، ومعالجتها بعين ثاقبة، ومنهج متطور يتلاءم مع جميع مستجدات العصر تستمد قوتها من القرآن ومنهجه، لقادر من خلال الرسائل على تقديم البلسم والعلاج لهذه المشاكل كلها، بل إن الرسائل بصفة شمولية علاج عملي لما يتخبط فيه العالم، وكأن النورسي يقول بلسان حال الرسائل: إن هذه الرسائل وصفة علاجية لكل أسقامك النفسية والحياتية فأحسن التجواب معها والتفاعل، وليس ذلك بالأمر المستغرب على منهج تربوي يوازن بين الروحي والمادي، مسترشداً بالمنهج القرآني، ومنطلقاً منه وسائراً على طريقته.

أما بعد:

سيحاول هذا البحث الكشف عن بعض الأدوات التي هي جزء من منهج النورسي في الرقي بالإنسانية وتخليصها من برائن السقوط والانهيار، — وهي كثيرة — وذلك لأن الإنسانية في حاجة اليوم، وأكثر من أي وقت مضى، إلى دفعات روحية، وإلى صفات

علاجية قوامها الأخلاق، تربطها بالغيب وبخالق الكون، في أفق إصلاح الواقع الحضاري بمختلف تجلياته الاجتماعية والثقافية والفكرية والسياسية.

لقد سطر النورسي في الرسائل منهجا تربويا مؤهلا لتخليص العالم من أمراضه، بما يحتويه من آليات وأدوات مقتبسة من القرآن، من الممكن أن نطلق عليها "الأدوات القرآنية للتركية الإنسانية".

ومن بين هذه الأدوات نجد المعيار الجمالي في التعامل مع الكون، باعتباره قيمة محورية يجب أن تركز عليها نظرة الإنسان إلى الكون والحياة والواقع، بحيث يصير استيعاب فكرة الجمال بمفهومه الحقيقي أو بمفهومه القرآني، وسيلة لتقييم وتقويم العالم، ففكرة الجمال كما بلورها الأستاذ، أداة قادرة على تخليص العالم من الويلات التي يتخبط فيها، وبهذا يصير هذا المعيار موجها للناس لكافة بكل توجهاتهم ومشاربهم ودياناتهم، وليس فقط لطلبة ومريدي الشيخ بديع الزمان النورسي.

ومن الصفات الأخرى التي تحمل في عمقها دواء داء العصر، أداة أسماء الله الحسنى وتجليها في الكون، وهو معيار نظن أن التفاعل معه على الصورة التي صاغها النورسي بها وطبقها، كفيلة بأن تغير نظرة الإنسان لكل ما يحيط به فيصير إقباله عليها من داخلها، يخالف كلية الإقبال عليها خارج إطار تجلي أسماء الله الحسنى.

ومن الأدوات الأخرى التي تبدو أنهما صاحبة المركز القوي في منهج النورسي التربوي، والتي يركز عليها كثيرا، أداة عقيدة الآخرة بما تستتبعه من حشر وحساب، وهي رحلة يعطيها النورسي، أبعادا إيجابية من خلال ما يسبغ عليها من رونق، وما يضيف عليها من روائع الحلل القشبية، ورائق المعاني اللطيفة.

ومن الأدوات الأخرى كذلك التي تشكل سبيلا من سبل التركيبة الروحية، أداة أو سبيل الحكيم أو الحكاية التي لم يكن توظيفها في المنهج عبثا، بل عنصرا ضروريا لا يكتمل المنهج التربوي عند النورسي إلا به، وهو المنهج نفسه الذي طبقه النورسي مع نفسه ومع طلبته، وصار عليه طلبته من بعده خلاله مسترشدين بجميع تفاصيل حياته وتوجيهاته.

فكيف تشتغل هذه المكونات وما طبيعة العناصر التي توصل بها النورسي من أجل جعلها فعالة؟

المبحث الأول: مكونات معيار الجمال ومقاييسه في منهج النورسي التربوي.

ليس مفهوم الجمال في تصور النورسي مجرد ترف فكري أو ترف تأملي، بل هو أساس يقوم عليه التصور الرؤوي بكامله، ومن القصور اعتباره مجرد رغبة في نقل رؤية تأملية للجمال من منظور خاص وشخصي فهذا الأمر غير حاضر أصلا في تصور النورسي وذلك لسبب بسيط وهو أن الرسائل تنطلق من القرآن، والقرآن كما هو معروف للجميع منزّه عن التكرار وعن الترف الزائد، ومنزه عن العبث فكل ما في هذا الكتاب له غاية ومعنى ومرمى ينبغي إدراكه وفهمه واستيعاب أبعاده، ومبحث الجمال عند النورسي له غاية وهدف ومرمى ومن هنا لا يمكن فصله عن الأدوات والوسائل والآليات التوجيهية الأخرى في منهج النورسي في بناء الإنسان، إن الرسائل في عبارة قصيرة مشروع لبناء الإنسان من منظور قرآني، وعلى هذا الأساس فمبحث الجمال ومضامينه عند النورسي قابلة لأن تكون أداة من الأدوات الكثير، التي يمكن توظيفها في تخليص العالم من هوة السقوط والضياع.

فالنورسي أو الأستاذ كما كان يسميه طلبته ومريدوه قد قدم الجواب والعلاج الناجع لهذا التيهان، والاتصال برسائله بصدق وإخلاص لا بد أن يحمل الأمل إلى الإنسانية كلها. يقول د. فاروق حمادة: "وحرى بأهل الدعوة والفكر وحملة القرآن والرسالة، ودعاة السنة، ومحاربي الجهالة والضلالة أن يقفوا أمام رسائله طويلا، ويرجعوا البصر في أفكاره المشعة ونظراته للكون والحياة والإنسان تكرارا ومرارا، ليمتحوها منها في عالم لم يتغير كثيرا عما عاشه هذا الإمام، وعالج قضاياها بكل حكمة واتزان واهتمام، بل إن كثيرا مما عاجله قد تعمق جرحه واستفحل خطره، وما أحوج البشرية إلى البلسم القرآني، والدواء الرباني لتضميد جراح الروح والنفس والجسد والمجتمع، فقد كان هذا الإمام يقدم المرهم والبلاسم من صيدلية القرآن جاهزة للاستعمال، سهلة قريبة المنال"¹

وليس هذا بالأمر الغريب على رجل قوي اتصاله بالقرآن وتشربت روحه وجميع جوارحه معانيه، وأعدت ترجمتها إلى وصفات علاجية ناجعة تملك القدرة على التسرب بلطف وهدوء إلى أعماق النفس الإنسانية، وترجمتها كذلك إلى صور فنية مؤثرة، وإلى كلمات تفيض حيوية حتى كأنها تنطق.

لقد كان النورسي رجلاً مؤثراً له لا يرى إلا بمنظار القرآن، ولا يتأمل إلا من خلال الفيض الجمالي الذي تجلت به أسماء الله الحسنى في الوجود

وبعبارة أخرى إن النورسي لم يكن ينظر وهو ينقل العالم بكل مكوناته إلا الوجه الظاهر للجمال الإلهي، هذا الجمال الذي اكتسب القدرة على فهم خفاياه الدقيقة بإخلاصه في الاتصال بقرآن.

اعتبر النورسي الوجود كتاباً جميلاً كتب بكلمات جميلة وكل حرف من حروف هذا الكتاب التي لا تعد ولا تحصى دليل من الأدلة الظاهرة على الجمال الإلهي بما تحويه هي ذاتها من جمال مسبح في وقت وحين، وبما حباها صاحب الجمال من قدر جمالي يوافق حكمة إبداعها. فالتأمل في الرسائل لا بد وأن يلاحظ بأن مسحة جمالية ظاهرة للعيان تشدك إليها شداً، فيلج جانب الأسلوب الأدبي الأخاذ والمعجم الذي لا يتوقف على اقتباس واستحضار ألفاظ تنتمي إلى حقل الجمال، فيلج جانب ذلك كله وغيره نلاحظ بأن النورسي في كل فقرة من الرسائل، ومنذ الاتصال الأول معها يؤسس علاقة قوية ووشائج عميقة مع الكائنات² إنه حوار عميق ودقيق يفتح النورسي مع الوجود ليستخرج أسرار الحكمة الإلهية المتضمنة فيما يطلق عليه النورسي القرآن المنظور يقول: " انه محال أن يكون كتاب بلا كاتب، ولا سيما كتاب كهذا الذي تتضمن كل كلمة من كلماته كتاباً خُطَّ بقلم دقيق، والذي تحت كل حرف من حروفه قصيدة دُججت بقلم رفيع. وكذلك من أمحل المحال أن يكون هذا الكون من غير مبدع، حيث إن هذا الكون كتاب على نحو عظيم تتضمن كل صحيفة فيه كتباً كثيرة، لا بل كل كلمة منها كتاباً، وكل حرف منها قصيدة.. فوجه الأرض صحيفة، وما أكثر ما فيها من كتب! والشجرة كلمة واحدة، وما أكثر ما فيها من صحائف! والثمرة حرف، والبذرة نقطة.. وفي هذه النقطة فهرس الشجرة الباسقة وخطة عملها. فكتاب كهذا ما يكون إلا من

إبداع قلم صاحب قدرة متصف بالجمال والجلال والحكمة المطلقة. أي أن مجرد النظر إلى العالم ومشاهدته يستلزم هذا الإيمان، إلا مَنْ أسكرته الضلالة!

ومثلما لا يمكن أن تكون دار بلا بناء، لاسيما هذه الدار التي زينت بأبداع زينة، ونقشت بأروع نقوش وأعجبها وشيدت بصنعة خارقة، حتى أن كل حجر من أحجارها يتجسم فيه فن ما في البناء كله. فلا يقبل عاقل أن تكون دار مثل هذه الدار بلا بناء ماهر، وبخاصة أنه يشيد في هذا الديوان - في كل ساعة - مساكن حقيقية في غاية الانتظام والتناسق، ويغيرها بانتظام وسهولة كاملين - بسهولة تبديل الملابس - بل انه ينشئ في كل ركن غرفاً صغيرة عدة في كل مشهد حقيقي. " 3

يدل هذا الكلام دلالة واضحة على أن الوجود في تجلياته لوحة جمالية رائعة تدل على الخالق وتدل على المبدع الذي هو الله تبارك وتعالى، وإيرادها بهذه الحرارة المتدفقة وبهذه الدقة المتناهية، التي لخصت الوجود في فقرتين ليس الغرض منه هو إبراز القدرة على تقرير صورة فنية، تبرز فيها المحسنات البلاغية، والمعجم الجمالي بشكل قوي، كما قد يتصور البعض، ولكن الغرض الحقيقي الذي يرمي إليه النورسي، هو تعليم الإنسانية كيفية تذوق الوجود، وكيفية الانغماس في كل دقائقه العظيمة ذلك لأن كل مكونات هذا الوجود مهما ضعف حجمها هي دقيقة عظيمة من دقائق الوجود، لأنها تخفي سبيل من سبيل التفكير في كل ما خلق الله ، بروح تعبدية.

لقد أنفذت روح النورسي الصافية، كروح أي عارف بالله، حقيقة الجمال إلى جميع أذخاها حتى لم يبق جانب فيها غير نابض بروح الجمال، وبعبارة أخرى، لقد تمكن النورسي من إدراك حقيقة الجمال في الوجود وهذا الإدراك جعله ينغمس كلية في المظاهر الظاهرة والخفية لتجلياته، فنقلها نقلاً صادقاً ودقيقاً، وكأنه يتناول مداد كلماته من ذوات تجلي الجمال الإلهي في الكون. ولم تكن غايته في أي وقت من الأوقات في جعل الجمال مجرد لذة روحية لا غير بل لقد سكنه هم إشراك الإنسانية عموماً معه في تذوق هذه اللذة العظيمة، ولسان حاله يقول أيها الناس إن السبيل إلى الخلاص من أقداركم هو أن تتعلموا كيفية النظر إلى الوجود بجميع تجلياته ومظاهره نظرة جمالية.

ومما لاشك فيه أن النورسي قد استوعب هذه الحقائق وكتب عن الجمال من خلال الجمال وبالجمال نفسه، وهذا هو السر في عدم فقدان الرسائل لروحها وعمقها بالرغم من ترجمتها إلى العديد من اللغات، فالقارئ للرسائل يلمس بأن سرا خفيا يتحكم فيها، وهو لا يعدو أن يكون تجلي أسماء الله الحسنى، التي تشربتها روح النورسي، بكل ما تخفيه من أبعاد روحية، على أن هذه الأسماء في حد ذاتها هي جزء لا يتجزأ من فيض الجمال الإلهي المطلق.

وليس هذا فقط فدقائق الأشياء والبسيط منها، والتي قد لا نعبأ بوجودها، تخفي حالة خاصة من الجمال كما يدل على ذلك مضمون كلام النورسي، وذلك لأن هذه الأشياء من صنع الخالق المتصف بجميع الأوصاف الكمالية، فليس غريبا أن تقتبس حظها من الجمال، يقول النورسي: "الصانع كما انه واجب الوجود وواحد؛ كذلك انه متصف بجميع الأوصاف الكمالية؛ لأن ما في المصنوع من فيض الكمال إنما هو مقتبس من ظل تجلي كمال صانعه. فبالضرورة يوجد في الصانع جل جلاله من الجمال والكمال والحسن ما هو أعلى بدرجات غير متناهية من عموم ما في عموم الكائنات من الحسن والكمال والجمال؛ اذ الإحسان عموم الكائنات من الحسن. والكمال فرعٌ لثروة المحسن ودليل عليها، والإيجاد لوجود الموجد، والإيجاب لوجوب الموجب، والتحسين لحسن المحسن المناسب له." ⁴

ولكن السؤال هو هل يمكن أن يكون الجمال وسيلة من وسائل مداواة مشاكل العالم النفسية والروحية؟

والجواب هو بالإيجاب لأن النورسي يؤسس رؤية جمالية تقوم على جعل الجمال قيمة مركزية في حياة الفرد والجماعة على حد سواء، فقد كان يرى أن الجمال هو القيمة التي تنتهي إليها وعندها كل المعاني الكونية فإذا قارنا بين نظرتين إحداهما جمالية والأخرى عامة وجافة وخالية من أي معنى فلا شك بأن النظرة ذات البعد الجمالي تستطيع أن تتفاعل أكثر مع المعطيات الواقعية والوجودية ومع الكون وهو سنن الله في الكون، ومن هنا فإن هذا التفاعل لا بد وأن ينتج غنى ميزته الأساسية هي الجمال ومن هنا كذلك فإن النظرة التشاؤمية إلى الواقع لن تنج سوى العطاء المتور والفاسل وهو عطاء مآله النسيان

والتهميش والإهمال في حين أن العطاء الذي ينطلق من رؤية جمالية ينتج عطاء إيجابياً، والمتشبع بالجمالي في أسمى معانيه لا يمكن أن يفكر في الانتحار، أو مغادرة الحياة متى شاء ذلك على سبيل التمثيل مجرد أن همومه وأحزانه أكبر من أن تستوعبها نفسه، وأكبر من أن تصاحب وجوده في الحياة فالأفضل هو مغادرة الحياة، وهذا هو مضمون الحكاية الثامنة التي يسردها النورسي في الكلمة الثامنة حيث يعقد النورسي مقارنة بين شقيقين يذهبان معا إلى سياحة طويلة، إلى أن وصلا إلى مفترق طريقين، فسألا رجلا كان موجودا هناك عن أي الطريقين أفضل، فأخبرهما بأن طريق اليمين يسود فيه القانون والنظام، ويتحتم الخضوع لهما، من أجل الشعور بالأمان والسعادة، وأما طريق الشمال فعلى الرغم مما يتوفر عليه من حرية وتححر، إلا أن في ثناياه يوجد الشقاء والهلاك، وتستمر الحكاية مترصدة خطوات الأخوين اللذان يواجهان من المصاعب والمحن الشيء الكثير، فالشقيق الثاني الذي عبر طريق الشمال ما أن عبر "الوديان العميقة والمرتفعات العالية الوعرة حتى دخل وسط مفازة خالية وصحراء موحشة؛ فسمع صوتاً مخيفاً، ورأى أن أسداً ضخماً غضوباً قد انطلق من الأحرش نحوه؛ ففر منه فراراً وهو يرتعد خوفاً وهلعاً، فصادف بئراً معطلة على عمق ستين ذراعاً فألقى نفسه فيها طلباً للنجاة، وفي أثناء السقوط لقيت يدها شجرة فتشبت بها. وكان لهذه الشجرة جذران نبتا على جدار البئر وقد سلط عليهما فأران، أبيض وأسود. وهما يقضمان ذبئك الجذرين بأسنانهما الحادة. فنظر إلى الأعلى فرأى الأسد واقفاً كالحارس على فوهة البئر، ونظر إلى الأسفل فرأى ثعباناً كبيراً جداً قد رفع رأسه يريد الاقتراب منه وهو على مسافة ثلاثين ذراعاً، وله فم واسع سعة البئر نفسها. ورأى ثمة حشرات مؤذية لاسعة تحيط به. نظر إلى أعلى الشجرة فرأى أنها شجرة تين، إلا أنها تثمر بصورة حارقة أنواعاً مختلفة وكثيرة من فواكه الأشجار ابتداء من الجوز وانتهاء إلى الرمان" ⁵ وأما الشقيق الآخر فقد مضى في طريقه دون عناء "ذلك لأنه لا يفكر إلا في الأشياء الجميلة - لما له من جمال الخلق - ولا يأخذ بعنان الخيال إلا بما هو جميل ولطيف، لذا كان يستأنس بنفسه ولا يلاقي الصعوبة والمشقة كأخيه. ذلك لأنه يعرف النظام، ويعمل بمقتضى الولاء والاتباع. فيرى الأمور تسهل له، ويمضي حراً منطلقاً مستظلاً بالأمان والاستقرار. وهكذا مضى حتى وجد بستاناً فيه أزهار جميلة وفواكه لطيفة مع ثمة حثث حيوانات وأشياء منتنة مبعثرة هنا وهناك بسبب إهمال النظافة. كان أخوه الشقي قد

وأشياء منتنة مبعثرة هنا وهناك بسبب إهمال النظافة. كان أخوه الشقي قد دخل — من قبل — في مثل هذا البستان أيضاً غير أنه انشغل بمشاهدة الجيف الميتة وانعام النظر فيها مما أشعره بالغثيان والدوار. فغادره دون أن يأخذ قسطاً من الراحة لمواصلة السير. أما هذا الأخ فعملاً بقاعدة "انظر إلى الأحسن من كل شيء" فقد أهمل الجيف ولم يلتفت إليها مطلقاً، بل استفاد مما في البستان من الأشياء والفواكه. وبعدما استراح فيه الراحة التامة مضى إلى سبيله.⁶

فهذه القصة تشير إلى قيمة رؤية الكون والوجود بعين الجمال ومدى تأثير ذلك في توجيه النفسية الإنسانية، فالأخ الطيب الذي وطن نفسه على رؤية العالم الذي يحيط به بعين راضية مفعمة بالجمال، وبعين تمكنه من التغلب على كل العوائق والموانع، قد تمكن بالفعل من التغلب على كل مخاوفه وأبعد المواجهس التي خامرته متمماً سيره بقلب واثق في الله تعالى ونفس مطمئنة. فالحسنة تجلب الحسنه كما يقول النورسي.⁷ وهذا الأخ الطيب قد أدرك الجانب العملي للجمال، وأدرك حقيقته الفعلية. والحقيقة هي الأخرى ذات لون واحد هو لون الجمال، لأن الحقيقة لا يختلف مذاقها وإن اختلفت أبعادها لأنها حقيقة وهي تدرك حقيقة بصيغة واحدة وإن اختلفت وسائل البحث عنها والسبل. يقول النورسي: "والحقيقة بذاتها جميلة، ومع إدراك جمال الحقيقة فانه يحترم كمال صاحب الحقيقة ويوقره فيستحق رحمته"⁸

وما أحوج الإنسانية اليوم إلى أن تتلقى جرعات من منهج بديع الزمان النورسي في تعويد الذات على رؤية الجمال، وتعويدها كذلك على تذويب همومها ومشكلاتها النفسية بالانغماس في الجمال وتذوقه في كل ما يحيط بهذه الذات من أفراح وهموم وأشياء ومخلوقات وغيرها. يقول النورسي: "فهناك من الحوادث التي يبدو في ظاهر أمرها قبيحاً مضطرباً ومشوشاً، إلا أن تحت ذلك الستار الظاهري أنواعاً من جمال رائق، وأنماطاً من نظم دقيقة"⁹

والفرق شاسع عندما يحول المؤمن هما من هموم ذاته، ومصيبة من مصائبها إلى عبادة يرددها من خلال عبارة "الحمد لله على كل حال". فهذه العبارة تحتوي من الدعم النفسي ما يعجز عنه أقوى الأطباء النفسانيين، وتعجز عنه أحدث النظريات في علم

النفس، وأدق الصفات العلاجية، فمنهج النورسي واضح المعالم لا يحتاج سوى إلى إرادة قوية صلبة، وإلى لحظات تأمل صادقة تبدأ بإنعام النظر في كل ما يمكن أن يكون دليلاً على جمال الخالق فالموجودات " الشبيهة بالمرايا مع أنها تتعاقب بالزوال والفناء فان وجود تجليات الجمال نفسه والحسن عينه في وجهها، وفي التي تعقبها، يدل على أن ذلك الجمال ليس ملكاً لها، بل هو آيات حسن منزهة، وامارات جمال مقدّ".¹⁰ فالموجودات جميعها بما فيها الإنسان نفسه تختزن من الحسن والجمال ما هو حري بهذا الإنسان أن يمضي العمر كله هائماً فيها ومتلذذاً لذة تعبد في هذا الجمال، الذي هو قيس من الجمال الإلهي المطلق، الذي يستحيل أن يتبدل جماله أو ينقلب قبحا، فهو دائم وباق، لأنه هو الحقيقة المطلقة، ومن المستحيل أن تنقلب الحقيقة "لأن انقلاب الحقائق محال بالاتفاق. واشد محالاته هو انقلاب الضد إلى ضده. وضمن عدم إمكان انقلاب الحقائق إلى أضدادها حقيقة لا تقبل الضد قطعاً، وهي انقلاب الشيء مع احتفاظه بمهيته إلى عين ضده، كأن ينقلب الجمال المطلق — مع احتفاظه بهذا الجمال — إلى القبح الحقيقي! فتحول جمال الربوبية الواضح والظاهر ظهوراً جلياً إلى ضده مع بقاءه على ماهيته هو اشد محالاً وأكثر عجباً في أحكام العقل".¹¹

ومن هنا تبرز قدرة النورسي على تغيير مسار المفاهيم وشحنها دائماً ببعد إيجابي وكأنه يريد أن يعلم الإنسان بصفة عامة وليس الإنسان المسلم فقط أينما كان هذا الإنسان ومتى وجد، أن يعلمه كيفية النظر إلى العالم والأشياء والواقع وكل ما قد يتبادر إلى الذهن، نظرة إيجابية، مسترشداً بمنهج الرسول صلى الله عليه وسلم، القائم على التبشير لا التنفير، والقائم كذلك على المنهج القرآني الذي بالرغم من كونه كتاباً يقرن الوعيد بالخيبة الدنيوية والأخروية وبعدم القدرة على رؤية الحقيقة الربانية والإقبال عليها بحيوية، ويقرن في الوقت نفسه السعادة الدنيوية والأخروية بالإقبال على المنهج القرآني القويم الذي " يرشد الجن والإنس إلى الآيات الكونية التي سطرها قلم القدرة الإلهية على صحائف الكون الواسع ودبجها على أوراق الأزمنة والعصور. وهو الذي ينظر إلى الموجودات التي كل منها حرف ذو مغزى - بالمعنى الحرفي، أي ينظر إليها من حيث دلالتها على الصانع الجليل. فيقول: ما أحسن خلقه! ما أجمل خلقه! ما أعظم دلالاته على جمال المبدع الجليل. وهكذا يكشف أمام الانظار الجمال الحقيقي للكائنات".¹²

إن الجمال الحقيقي هو الذي يقود إلى معرفة الخالق المبدع، لأن الجمال الذي لا يقود إلى معرفة الله ولا يقود إلى معرفة اكتشاف الحقيقة المطلقة، ولا يزكي الروح، ولا يرقى بها عن متاهات المادة الفانية ولا يخلص النفس من أمراضها ومن همومها التافهة وأوهامه القاتلة، جمال زائل ولا فائدة ترجى منه سوى الفتنة. وبعبارة أخرى إن الجمال الحقيقي الذي هو وسيلة من وسائل التزكية الإنسانية، هو الجمال الذي تحضر فيه العبادة باعتبارها طاقة محرّكة تنقل بريقها إلى كل من يحسن ذوقها.

إن الهدف الذي يحرك النورسي وهو تعميق تحليله هو الإنسان بصفة عامة فهو بالنسبة له حلقة إيجابية لأن الله قد فضله على جميع الكائنات، لكن جزءا كبيرا يعيش حيرة عارمة، تحيط به الأبواب من كل جانب ولكنه لا يملك مفاتيح هذه الأبواب والنورسي بإعادة قراءته القرآن الكريم بمستوييه المقروء والمنظور حسب تصوره، واسترشاده بالمنهج النبوي قد تمكن من أن ينبته إلى هذه المفاتيح، ويعرف الناس عليها مقدما إياها على طبق من ذهب لكل من هو في حاجة إليها، يقول رحمه الله: "نعم أيها الإنسان! إنك من جهة جسمك النبائي ونفسك الحيوانية جزءٌ صغيرٌ وجزئيٌّ حقيرٌ ومخلوقٌ فقيرٌ وحيوانٌ ضعيفٌ تخوض في الأمواج الهادرة لهذه الموجودات المتراخمة المدهشة. إلا أنك من حيث إنسانيتك المتكاملة بالتربية الإسلامية المنورة بنور الإيمان المتضمن لضياء المحبة الإلهية سلطاناً في هذه العبدية.. وانك كليٌّ في جزئيتك.. وانك عالمٌ واسع في صغرك.. ولك المقام السامي مع حقارتك فأنت المشرف ذو البصيرة النيرة على هذه الدائرة الفسيحة المنظورة، حتى يمكنك القول: "إن ربي الرحيم قد جعل لي الدنيا مأوىً ومسكناً، وجعل لي الشمس والقمر سراجاً ونوراً، وجعل لي الربيع باقةً ورد زاهية، وجعل لي الصيف مائدةً نعمة، وجعل لي الحيوان خادماً ذليلاً، وأخيراً جعل لي النبات زينةً واثاثاً وبهجة لداري ومسكني".¹³

فالإنسان من زاوية النظر النورسية هذه عالم قائم بذاته، ومعنى ذلك هو أنه في حد ذاته منطلق للتأمل، لأن التأمل الحقيقي لا بد وأن يقود المرء إلى وعي طبيعة وجوده في الكون، وعلى أساس ذلك يستطيع أن يحدد طبيعة تصرفه في الواقع، ويحدد كذلك طبيعة تعامله مع الوجود، في إطار سلوك تعبدية، دائم مستمر لا يعرف الفتور. يقول النورسي: "منها كمال حسن الصنعة؛ إذ كمال حُسن الصنعة في هذه المصنوعات، يدل

على الرسالة الاحمدية دلالة قطعية؛ لان جمال هذه المصنوعات المزينات يُظهر للناظر حُسنَ صنعة وزينة بالمشاهدة، وان حسن الصنعة وزينة الصورة يدلان بالبداهة على أن في صانعها ارادةً تحسّين وطلبَ تزيين في غاية القوة. وان ارادة التحسين وطلبَ التزيين يدلان بالضرورة على أن في صانعها محبةً علويةً لصنعتة، ورغبةً قدسية لإظهار كمالات صنعتة. وان تلك المحبة والرغبة تدلان بالقطع على أن الإنسان الذي هو اكمل المصنوعات وأبدعها واجمل المخلوقات واجمعها، هو المظهر الجامع والمدارُ البارِعُ لتلك المحبة والرغبة، وهو الذي تتمركزان فيه. وان الإنسان لكونه اجمع وأبدع المصنوعات فهو الثمرة الشعورية لشجرة الحلقة. أي هو لها كثمره ذات شعور. فلكونه كالثمرة، فهو ما بين أجزاء الكائنات جزء اجمع وأبعد من جميع الأجزاء. فلكونه اجمع وأبعد وذا شعور، فله نظرٌ عام وشعور كلي. فلكون نظره عاماً يرى مجموع شجرة الحلقة، ولكون شعوره كلياً يعرف مقاصد الصانع، فهو المخاطب¹⁴

ومن هنا فالذي يتوصل إلى وعي ذاته، باعتبارها عنصراً جمالياً يستمد بهجة جماله من الجمال المطلق ظاهراً وباطناً، ويدرك مغزى خلقها ووجودها، بتدبر الآيات الكونية بعيد جمالي، يستحيل عليه أن ينزل إلى مستوى والتصرفات الحيوانية وسلوكها، فيأتي ما يشوه القيمة الروحية للجمال، التي تنشرها الروح بتفاعلها الإيجابي برؤية جمالية مع الكون بكل تفاصيله وجزئياته.

ولذلك كذلك فالذي يعي هذه الحقيقة لا يمكن أن يفكر في الانتحار، أو تهديم أخيه الإنسان، أو حتى تشويه كل أو بعض ما يجلب السعادة لأخيره الإنسان، ومن هنا كذلك فإن الحضارة التي تفتقر إلى الرؤية الجمالية وفق المنهج القرآني، وكما تصورها النورسي، ليست حضارة حقيقية لافتقارها إلى مغزى حركيتها، وهي وإن كانت تقدم للإنسان السعادة الآنية كما قد يظن، فإنها مع ذلك عاجزة عن تقديم الطمأنينة الروحية لكم واسع من المحرومين. يقول النورسي: "نعم إن السموّ والرقى الحقيقي إنما هو بتوجيه القلب، والسر، والروح، والعقل، وحتى الخيال وسائر القوى الممنوحة للإنسان، إلى الحياة الأبدية الباقية، واشتغال كلٍّ منها بما يخصّها ويناسبها من وظائف العبودية. أما ما يتوهمه أهل الضلالة من الانغماس في تفاهات الحياة والتلذذ بملاذاتها الهابطة والانكباب على جزئيات لذاتها الفانية دون الالتفات إلى جمال الكليات ولذاتها الباقية الخالدة

مسخرين القلب والعقل وسائر اللطائف الإنسانية تحت إمرة النفس الأمارة بالسوء وتسييرها جميعاً لخدمتها، فان هذا لا يعني رقياً قط، بل هو سقوط وهبوط وانحطاط".¹⁵

ومن القضايا التي تدخل في نطاق الجمال باعتباره حلقة من حلقات التزكية الإنسانية، قضية التوازن الذي بني عليه الكون بمختلف عناصره، والانسجام الذي يسود مختلف هذه العناصر فيما بينها حتى تتكامل، لأن الجمال مقوم من مقومات التوازن، ومكون من مكونات الانسجام، بل لا يمكن تصور الجمال في إطار لا انسجام أي في إطار الفوضى، ولا يمكن للجمال أن يتفاعل وينتج تأثيره بعيداً عن التوازن، فلقد أقام الله تبارك وتعالى الدليل على وجود الانسجام بين مختلف عناصر الكون، بدءاً من عناصر الطبيعة، وانتهاء بذات الإنسان نفسه، والنورسي لا يفتأ يذكر بذلك ومحسناً المرء على السعي وراء عناصر هذا الانسجام ليلمس باللموس غاية وجوده ووظيفته في الكون، ويلمس كذلك غاية وجود باقي الكائنات، ووظيفتها في حلقة التوازن والانسجام، ليرز الجمال مرة ثانية مكوناً رئيساً في ترتيب عناصر الجمال، يقول النورسي متحدثاً عن الجمال حقيقة الانسجام الذي يقوم عليه الكون، كما سطر عناصره القرآن الكريم: "فنرى أن القرآن الكريم يبين تلك الحقيقة النورانية بجميع فروعها واغصانها وبجميع غاياتها وثمراتها بياناً في منتهى التوافق والانسجام بحيث لا تعيق حقيقةً أخرى ولا يفسد حكمٌ حقيقةً حكماً لأخرى، ولا تستوحش حقيقةً من غيرها. وعلى هذه الصورة المتجانسة المتناسقة بين القرآن الكريم حقائق الأسماء الإلهية والصفات الجليلة والشؤون الربانية والأفعال الحكيمة بياناً معجزاً بحيث جعل جميع أهل الكشف والحقيقة وجميع أولي المعرفة والحكمة الذين يجولون في عالم الملكوت، يصدقونه قائلين أمام جمال بيانه المعجز والاعجاب يغمروهم: "سبحان الله! ما اصوب هذا! وما اكثر انسجامه وتوافقه وتطابقه مع الحقيقة وما اجمله وأليقه".¹⁶

وبكلام آخر إن من يقف حقيقة على هذه الأشياء ستسمو روحه وتشرئب إلى الجمال المطلق بإتيان كل ما يقرب إليه تعالى، والابتعاد عن كل ما يبعد ويحول دون إدراكه والذوق من جماله فكل "من يحمل قلباً حياً، لا شك انه يحب من كان ذا جمال وكمال وإحسان، وهذه المحبة تترادف وفق درجات ذلك الجمال والكمال والإحسان، حتى تبلغ درجة العشق والتعبد. فيضحى صاحبها بما يملك في سبيل رؤية ذلك الجمال،

بل قد يضحى بديناه كلها لأجل رؤيته مرة واحدة. وإذا علمنا أن نسبة ما في الموجودات من جمال وكمال واحسان إلى جماله وكماله واحسانه سبحانه وتعالى لا يبلغ أن يكون لميعات ضئيلة بالنسبة للشمس الساطعة. فإذا تستطيع أن تدرك - إن كنت انساناً حقاً - مدى ما يورثه من سعادة دائمة ومدى ما يبعث من سرور ولذة ونعمة، التوفيق إلى رؤية مَنْ هو الأهل لمحبة بلا نهاية وشوق بلا نهاية ورؤية بلا نهاية في السعادة بلا نهاية".¹⁷

وخلاصة الكلام في هذه العجالة أن معيار الجمال وسيلة من وسائل الارتقاء بالإنسان وتخليصه من ويلات السقوط الأخلاقي، ومن الانهيار النفسي، وهو كذلك عنصر أساسي في بناء الإنسان الذي من خلاله يتم البناء الحضاري. وعلى العموم فإن مبحث الجمال عند النورسي في رسائله مبحث واسع يحتاج إلى دراسة مستقلة بذاتها، فما ذكرناه بخصوص هذا الموضوع مجرد غيض من فيض وإلا فإن في النفس أشياء كثيرة بخصوص هذا المبحث توحى بها كل فقرة من فقرات تراث النورسي.

المبحث الثاني

الأبعاد الروحية، لأسماء الله الحسنى، وعمق تأثيرها في البناء التربوي

في كل مرة تقرأ فيها المرء رسائل بديع الزمان النورسي، أو على الأقل نتفا منها فلا بد أن تكون النتيجة إضافة جديد في إيمان القارئ، أو تغييراً في سلوكه، ولا بد أن يلمس كذلك أنه غير المرء الذي كان من قبل، فكل عبارة من عبارات الرجل وكل مرحلة يقطعها في التدبر في كلامه، وكل منطقة هي درجة تقرب من الحقيقة القرآنية، ومعنى ذلك هو أن أهم ما كان يثير اهتمام النورسي عملياً هو الإنسان، يقول أحد المهتمين الكبار بتراث النورسي في هذا الموضوع: "...الإنسان هو نقطة المركز من دائرة عالم "النورسي" الفكري، وعقله موضع نقاشه وقلبه وروحه متلمس بصيرته وإنه لا يني يشعل في الإنسان نورا إيمانياً يبصر به مواقع الزلل والخطأ في الفكر والسلوك. ويضع يده على مفاتيح الحق والعدل والجمال في النفس والحياة، ويزيح الأستار عن طهر الحياة وقداستها، ويبرهن له أنها أصل الخلق والوجود، بينما الموت خلق عارض ليس له قوة

إلغاء الحياة أو إيقاف مدها الزخار إلى بحر الأبدية والخلود"¹⁸. وفي هذه الأشياء لم يجد النورسي عن منهج القرآن، الذي يعتبر الإنسان محوره المركزي في ظل ثنائية الهداية والضلال، التي تخفي نموذجين إنسانيين:

النموذج الأول: هو الإنسان الضال والتائه عن الحق، والمنغمس في دروب المعتقدات والأفكار المادية وغيرها ومهمة الرسائل هي أن تمد له يد العون لتتكشف عن فكره الحجب وعن عقله الغشاوة.

النموذج الثاني: هو الإنسان المؤمن وقد يكون هذا الإيمان أداة محرّكة له في هذا العالم فيحقق بذلك سعادة الدنيا والآخرة، وإما أن يكون غافلا عن دوره في الوجود ومهمة الرسائل أن توقظه من الغفلة.

لقد اهتم النورسي بالنموذجين معا، إذ لم يترك صنفاً إلا وذكره إما في باب التزكية أو في باب التبشير بالجنة وحسن العاقبة وإما في باب التحذير وشحن الهمم والإيقاظ من الغفلة، وقد كانت وسائله كثيرة ومتعددة كما سبق وأشرنا، ويبرز من بينها دور الأسماء الحسنى في تزكية النفس والارتقاء بها في مدارج التقرب إلى صاحب الأسماء، ولكن شريطة أن تستوعب الذات هذه الأسماء على حقيقتها، ذلك لأنها مفاتيح يستطيع الإنسان أن يفتح بها جميع أسرار الوجود، بدءاً من ذاته هو نفسه، يقول النورسي: "إن " أنا " مفتاح؛ يفتح الكنوز المخفية للأسماء الإلهية الحسنى، كما يفتح مغاليق الكون. فهو بحد ذاته طلسمٌ عجيب، ومعنى غريب. ولكن بمعرفة ماهية " أنا " ينحلّ ذلك الطلسم العجيب وينكشف ذلك المعنى الغريب " أنا " وينفتح بدوره لغز الكون، وكنوز عالم الوجود.

وقد ذكرنا ما يخص هذه المسألة في رسالة " شمة من نسيم هداية القرآن " كالآتي:

" اعلم! إن مفتاح العالم بيد الإنسان، وفي نفسه، فالكائنات مع أنها مفتحة الأبواب ظاهراً إلا أنها منغلقة حقيقةً فالحق سبحانه وتعالى أودع من جهة الأمانة في الإنسان مفتاحاً يفتح كل ابواب العالم، وطلسماً يفتح به الكنوز المخفية لخلاق الكون، والمفتاح هو ما فيك من " أنا " . إلا أن " أنا " أيضاً معمى مغلق وطلسم منغلق. فإذا فتحت " أنا " بمعرفة ماهيته الموهومة وسر خلقته انفتح لك طلسم الكائنات كالآتي.

ان الله جل جلاله وضع بيد الإنسان أمانةً هي: " انا " الذي ينطوي على إشارات ونماذج يستدل بها على حقائق اوصاف ربوبيته الجليلة وشؤونها المقدسة. اي يكون " انا " وحدة قياسية تُعرّف بها اوصاف الربوبية وشؤون الالهية.¹⁹

إن أسماء الله الحسنى قد انعكست في الإنسان كما انعكست في باقي المخلوقات، فالنورسي قد قدم رؤية مركبة عن علاقة الإنسان بأسماء الله الحسنى، وهي رؤية تستقي معانيها من كل المكونات المعرفية الموجودة في القرآن الكريم، والموجودة كذلك في الوجود، أو القرآن المنظور، والعنصر المحوري في هذا هو الإنسان، "أنا" فأنا هي مفتاح الكنوز الموجودة المختفية في أسماء الله الحسنى، ومن خلالها تفتح جميع كنوز الوجود، لكن ذلك كله مرتبط في العمق بوعي "أنا" نفسها، لأن الأنا في حد ذاتها طلسم عجيب، فعندما يفتح هذا الطلسم، وتظهر كنوزه تفتح أسرار الوجود وتظهر كنوزه وتبرز، فـ"أنا" وحدة قياس لمعرفة سر الربوبية، وشؤون الألوهية.

إن أجمل ما يمكن أن يقدمه مصلح في مستوى بيدع الزمان النورسي للإنسان الحائر في لغز المخلوقات، والإنسان المسكون بأوهام العصر الواقع تحت تأثير طغيان المادة وتسلطها، والباحث عن حقيقة وجوده في هذا الكون الفسيح، فأجمل يقدم هو تصوره بخصوص أسماء الله الحسنى، في علاقتها بالوجود، والإنسان جزء من هذا الوجود الفسيح، فما من "علم أو معرفة أو معنى سام أوصفة جميلة على هذه الأرض إلا وتستمد حياتها، وتنال قوت بقائها من واحد من هذه الأسماء المقدسة الطاهرة، أو من جملة منها"²⁰ لقد حمل الإنسان الأمانة العظمى وهي أمانة تعمير الكون، وبناء الحضارة، من زاوية كون الله تبارك وتعالى هو المؤثر في صيرورة التاريخ وهو الفاعل في حركة الإنسان الحضارية، فالإنسان باعتباره أرقى المخلوقات وأشرفها، ملزم بأن يتذوق أسماء الله الحسنى بشكل صحيح ليتمكن بالفعل من نقل تأثيرها إلى الواقع والحياة في شكل تشييد للحضارة، وبناء ملموس ومحسوس لمملك الأسماء الإلهية الحسنى في الحياة.

وبناء على هذه الرؤية العميقة، نستطيع القول بأن النورسي قد قدم علاجاً آخر للإنسانية الضالة، والتي تعيش أزمة السقوط الحضاري، وتعيش على هامش البناء الحضاري الصحيح، وكأن النورسي يريد أن يقول للإنسانية كافة، إن من يريد تدلية

المادة، من زاوية تجلّي اسم من أسمائه تعالى، ومن يريد تسخير الكون خدمة للإنسان، وتقرباً إليه تعالى، يستحيل عليه أن يسخر هذا التدليل فيما يضر الإنسانية، ولا يجلب لها الطمأنينة، والسعادة في الدنيا والآخرة. وما أعظمها من أمانة تجرأ الإنسان على تحملها يقول النورسي: "أيها الإنسان! إن ما تملكه من نفسٍ ومال ليس ملكاً لك، بل هو أمانةٌ لديك، فمالكُ تلك الأمانة قديرٌ على كل شيء، عليمٌ بكل شيء، رحيمٌ كريم، يشترى منك ملكه الذي عندك ليحفظه لك، لئلا يضيع في يدك، وسيكافؤك به ثمناً عظيماً، فأنت لست الآ جندياً مكلفاً بوظيفة، فاعمل لأجله واسعَ باسمه، فهو الذي يرسل إليك رزقك الذي تحتاجه، ويحفظك مما لا تقدر عليه.

إن غاية حياتك هذه ونتيجتها هي أن تكون مظهراً لتجليات أسماء ذلك المالك، ومعكساً لشؤونه الحكيمة.. وإذا ما أصابتك مصيبةٌ فقل: (إنا لله وإنا إليه راجعون) (البقرة: 156). أي أنا طوعُ أمر مولاي، فان كنتِ قادمةً أيتها المصيبة بإذنه وباسمه، فأهلاً ومرحباً بك، فنحن لا محالة راجعون إليه لامناص من ذلك. وسنحظى بالمثل بين يديه، فنحن حقاً مشتاقون إليه.. فما دام سيُعتقنا يوماً من تكاليف الحياة فليكن ذلك على يديك أيتها المصيبة.. انا مستسلمٌ راضٍ. ولكن إن كان الأمر والإرادة قد صدر اليك منه سبحانه لأجل الابتلاء والاختبار لمدى محافظتي على الأمانة ولمدى قيامي بواجباتي، فلا أسلم ما استطعت أمانة مالكي لأيدٍ غير أمينة. ولا استسلم لغير أمره ورضاه سبحانه.²¹

فمن كان هذا هو توجهه فإنه سيحصل على سعادة الدارين، وسيحصل على طمأنينة النفس والروح، وستكون نظرتُه للحياة نظرةً إيجابية، لأنه قد استقر في قرارة نفسه أن الحياة الدنيا فانية أن الحياة الحقيقية هي حياة الآخرة، وليس معنى ذلك انزواء الإنسان في ركنه متعبداً، زاهداً في الحياة منتظراً الموت والسفر الأخير، بل على العكس من ذلك فالنورسي يحث الناس تذوق أسمائه تعالى، لتمكنوا من فتح طلاسيم الذات، ومن خلالها فتح طلاسيم الكون وكله وتسخيره.

وتعتبر الكلمة العاشرة محطة عجيبة لتتبع فاعلية أسماء الله الحسنى، من خلال مبحث الحشر، وهو مبحث نستطيع أن نلمس منه الفاعلية نفسها في الحياة، في ضوء جملة حقائق، ظاهرة التجلي في الكون:

الحقيقة الأولى: باب الربوبية والسلطنة وهو تجلي اسم "الرَّب"

الحقيقة الثانية: باب الكرم والرحمة وهو تجلي اسم "الكَرِيم والرَّحِيم" باب الكرم والرحمة

الحقيقة الثالثة: باب الحكمة والعدالة وهو تجلي اسم "الحَكِيم والْعَادِل"

الحقيقة الرابعة: باب الجود والجمال وهو تجلي اسم "الجَوَاد والجَمِيل"

الحقيقة الخامسة: باب الشفقة وعبودية محمد(صلى الله عليه وسلم) وهو تجلي اسم "المُجِيب والرَّحِيم"

الحقيقة السادسة: باب العظمة والسرمدية وهو تجلي اسم "الجَلِيل والبَاقِي"

الحقيقة السابعة: باب الحفظ والحفيظية وهو تجلي اسم "الحَفِيز والرَّقِيب"

الحقيقة الثامنة: باب الوعد والوعيد وهو تجلي اسم "الجَمِيل والجَلِيل"

الحقيقة التاسعة: باب الإحياء والاماتة وهو تجلي اسم "الحَي القِيوم والحَي والمَمِيت"

الحقيقة العاشرة: باب الحكمة والعناية والرحمة والعدالة وهو تجلي اسم "الحَكِيم والكَرِيم والْعَادِل والرَّحِيم"

الحقيقة الحادية عشرة: باب الإنسانية وهو تجلي اسم "الحَق"

الحقيقة الثانية عشرة: باب الرسالة والتنزيل وهو تجلي "بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ"

لقد جمعت هذه الأسماء تقريبا جميع فاعليات الوظيفة التي ترعى حركة الإنسان وما على المرء سوى فتح قلبه لاستعاها بغرض فهم واستيعاب أسرار الكون في أفق تسخيرها. ومن هنا يظهر بجلاء هدف النورسي وغايته من مبحث أسماء الله الحسنى وهي الارتقاء بالإنسان فوق تفاهة الحياة المادية التي لا معنى وقيمة لها. وبكلام آخر إن

النورسي قد كان مسكونا برغبة جعل الناس على قدر واحد في استيعاب القرآن الكريم، الذي عرفه بقوله رحمه الله: "هو الترجمة الأزلية لهذه الكائنات، والترجمان الأبدي لألسنتها التاليات للآيات التكوينية، ومفسر كتاب العالم.. وكذا هو كشاف لمخفيات كنوز الأسماء المستترة في صحائف السموات والارض.. وكذا هو مفتاح لحقائق الشؤون المضمرة في سطور الحادثات.. وكذا هو لسان الغيب في عالم الشهادة.. وكذا هو خزينة للمخاطبات الأزلية السبحانية والالتفاتات الأبدية الرحمانية.. وكذا هو أساس وهندسة وشمس لهذا العالم المعنوي الإسلامي.. وكذا هو خريطة للعالم الأخروي.. وكذا هو القول الشارح والتفسير الواضح والبرهان القاطع والترجمان الساطع لذات الله وصفاته واسمائه وشؤونه.. وكذا هو مرب للعلم الانساني، وكالماء وكالضياء للانسانية الكبرى التي هي الإسلامية.. وكذا هو الحكمة الحقيقية لنوع البشر، وهو المرشد المهدي إلى ما خلق البشر له.. وكذا هو للإنسان: كما انه كتاب شريعة كذلك هو كتاب حكمة، وكما انه كتاب دعاء وعبودية كذلك هو كتاب أمر ودعوة، وكما انه كتاب ذكر كذلك هو كتاب فكر، وكما انه كتاب واحد لكن فيه كتبا كثيرة في مقابلة جميع حاجات الإنسان المعنوية، كذلك هو كمنزل مقدس مشحون بالكتب والرسائل . حتى انه قد أبرز لمشرب كل واحد من أهل المشارب المختلفة، ولمسلك كل واحد من اهل المسالك المتباينة من الاولياء والصدقيين ومن العرفاء والمحققين رسالة لائقة لمذاق ذلك المشرب وتنويره، ولمساق ذلك المسلك وتصويره حتى كأنه مجموعة الرسائل.²²

المبحث الثالث:

مقومات الحكاية، ومركزيتها في دعم المنهج التربوي.

تعتبر الحكاية والتمثيل من أهم الأدوات والآليات التي توصل بها بديع الزمان سعيد النورسي في تزكية النفس الإنسانية و بسط مشروعه القرآني الحضاري، ولا تكاد رسالة من رسائله تخلو من حكاية تمثيلية، أو من مثال، وبالأرقام فقد بلغ عدد الحكايات والتمثيلات في الرسائل:

- في الكلمات: 183 حكاية
في المكتوبات: 95 حكاية
في اللمعات: 106 حكاية
في الشعاعات: 38 حكاية
في إشارات الإعجاز: 32 حكاية
في المثنوي العربي النوري: 92 حكاية
في الملاحق: 19 حكاية
في صقيل الإسلام: 7 حكايات
في سيرة ذاتية: 30 حكاية.

تبين هذه الأرقام أن الحكاية عنصر أساسي في منهج النورسي التربوي، فالحكاية هي السبيل إلى تقريب الكثير من الأشياء التي يريد بلوغها إلى عموم متلقيه، ومصطلح الرسائل، طلبته. فالعنصر المركزي الواجب مراعاته عند مساءلة هذه الحكايات هو كونها مرتبطة في العمق بالرؤية، التي ينطلق منها النورسي فضرب الأمثال وتوظيف الحكاية عنده ليس مسألة غريبة عن إطار القرآن وعالمه البهيج، بل هي من آثار القرآن في شخصيته وقد أكد ذلك في كثير من المواطن والمواضع يقول: " انه مهما يظهر من قوة التأثير، وبهاء الجمال في أسلوب كتاباتي، فإنها ليست مني، ولا مما مضغه فكري، بل هي من لمعات "ضرب الأمثال" التي تتألاً في سماء القرآن العظيم، وليس حظي فيها الا الطلب والسؤال منه تعالى، مع شدة الحاجة والفاقة، وليس لي إلا التضرع والتوسل اليه سبحانه مع منتهى العجز والضعف."²³

منذ الوهلة الأولى نلمس أن للحكاية عناصر ثابتة تكاد تعيد نفسها في أغلب الحكايات، ولها عناصر محيطة أو مساعدة. فالحكاية عند النورسي ذات مغزى ووجودها في منهجه التربوي وتصوره الحضاري ضروري، وتوظيفها فعال جدا في تقريب الفكر القرآني من الأفهام والألباب وقد بين ذلك قائلا: "إن سبب إيراد التشبيه والتمثيل بصورة حكايات في هذه الرسائل هو تقريب المعاني إلى الأذهان من ناحية، وإظهار مدى معقولية الحقائق الإسلامية ومدى تناسبها ورسالتها من ناحية أخرى، فمغزى

الحكايات إنما هو الحقائق التي تنتهي إليها، والتي تدل عليها كنايةً. فهي إذن ليست حكايات خيالية وإنما حقائق صادقة. «²⁴

الاسترشاد بالقرآن، والصدق في مضمون الحكاية وحقائقها، والارتباط بالرؤية الإسلامية للكون، والحرص على الارتقاء بالإنسان في كل زمان ومكان، وتركيز روح الإنسان، والتركيز على وظيفة الأعمار وبناء الحضارة التي أنيطت بالإنسان. تلكم هي أهم العناصر المتحكمة في بنية الحكاية التي في الأصل مقاييس قرآنية، أو بالأحرى هي مقاييس رسائل النور.

تنطلق الحكاية عند النورسي بدافع تربوي، ذلك أن أحد تلامذة الأستاذ كما يطلق عليه مريدوه سأله النصيحة، فأجابه إلى ذلك بذكر ثماني حكايات، تأملية وتفكرية، وهي حكايات وليدة اللحظة التي طرح فيها السؤال، والدليل على ذلك هو إصرار النورسي على أن المقصود بها بالدرجة الأولى هو نفسه لكونها أحوج ما تكون إلى النصح، يقول "أيها الأخ! لقد سألتني بعض النصائح، فها أنذا أسدي إليك بضع حقائق ضمن ثماني حكايات قصيرة، فاستمع إليها مع نفسي التي أراها أحوج ما تكون إلى النصيحة، وسأوردها لك بأمثلة عسكرية لكونك جندياً، فلقد خاطبتُ بها نفسي يوماً خطاباً مسهباً، في ثماني (كلمات) أفدها من ثماني آيات كريمات، اذكرها الآن لنفسي ذكراً مقتضياً، ولسان العوام، فمن يجد في نفسه الرغبة فليلقِ السمع معنا."²⁵

يدل هذا الكلام على أن للحكاية غاية محددة، فهي ذات مغزى في الدرجة الأولى، وهي إلى جانب ذلك مسألة تفكرية وهذا مرتكز محوري في الحكاية، وتصور مرتبط بالمنطلق النظري العام عند النورسي، والذي ولا يفتأ يذكر به في كل وقت وحين، وهو أن كل ما يأتيه الإنسان من سلوكات وأفعال، وكل ما يحيط به هو في النهاية موضوع يدعو إلى التفكير، وإلى العبادة، ومن هنا تصبح الكتابة بصفة عامة عبادة، والحكاية التي هي جزء لا يتجزأ من حقل الكتابة، عبادة أو هي سبيل من سبل العبادة.

وتفرض طبيعة الحكاية نفسها في رسائل النور سؤالاً مهماً جداً وهو هل الحكاية جزء من الغاية التربوية أم إن الغاية التربوية جزء من الحكاية؟ بعبارة أخرى أيهما أسبق الغاية التربوية أم الحكاية؟ إن أول ما قد يتبادر إلى الأذهان هو أن الحكاية جزء من

الغاية التربوية، فالتأمل في مواضيع هذه الحكايات، في ضوء عناوينها الضمنية، وانطلاقاً كذلك من اعتبارها الاستفتاحية، سيلاحظ أنها أحاطة بكل ما يتصل بالذات الإنسانية، بدءاً من غاية وجودها وهو العبادة، مروراً بما يحقق لها السعادة الدنيوية والأخروية، ويقودها في رحلة المصير الدنيوي قبل الأخروي.

والتأمل في هذه العبارات سيلاحظ بأنها تشكل مرتكزات الحياة السعيدة في الدنيا والآخرة وذلك هو لب رسائل النور ومحورها، وعمق ما ندر الداعية بديع الزمان النورسي حياته له.

وتؤسس الحكاية التي تكون الإطار الثاني، كما سبقت الإشارة، منهجها خاص بها، فأغلب الحكايات التي يتوسل بها النورسي لا يتجاوز شخصها في الغالب الشخصيتين، حيث تواجه كل شخصية اختيارين صعبين، أو بتعبير النورسي طريقتين أحدهما يقود إلى النجاة، والآخر يقود إلى الهلاك. والجميل في هذه الحكاية هو تحول بعض الأحداث إلى شخص تمارس الحوار بطريقة ضمنية، تقوم مقام الشخصية الثانية الواردة في باقي الحكايات.

وتمثل كل شخصية طرفاً أساساً في معادلة النورسي التربوية، مختزلاً بذلك المسارين الكبيرين المتحكمين في حياة الإنسان، وهما مسار الاستقامة والتوازن ومسار الخطيئة والتهور. ومختزلاً كذلك قضية الصراع الأبدي بين الخير والشر، على أن النورسي لا يقدم ذلك في شكل صراع بقدر ما يقدمه في شكل مقارنة عقلية تستهدف متلقيه، وتستهدف جرهم إلى قبول الحقيقة التي يريد الوصول إليها بكل عفوية ومنطق، وبأسلوب بعيد عن الترهيب، لكنه قريب من الترغيب بلمح لطيف وهادئ يشعر معه المرء بأن قيود الأمر الجازم لا تنهال عليه كالصواعق المفزعة.

وبعبارة أخرى فإن الحكاية عند النورسي لا تبني على صراع الشخصيات فيما بينها كما هو الحال في أنواع من الكتابة السردية الحديثة، وخاصة في الرواية التي تلح بعض نظرياتها على بناء شخصياتها على أساس صراع يخفي صراعاً آخر بين الطبقات أو الأجيال أو الثقافات، أو أشياء أخرى. أما في حكاية النورسي فالشخصية لا تعرف سوى صراع واحد هو صراع النفس والهوى، بين غياب وحضور، فعندما تتلزم

الشخصية بطريق التوازن والرزانة تتغلب منطقياً على هوى النفس، وعندما تختار سبيل الغواية والهوى، تكون الشخصية منساقاً وراء هوى النفس. فالهدف عند النورسي بالدرجة الأولى، والتي سخر لها حياته بكاملها، هي بناء الإنسان في كل زمان ومكان مسترشداً بمنهج القرآن وسالكاً سبيل الرسول الكريم محمد صلى الله عليه وسلم.

ويرتكز هذا السرد على توسيع دائرة معادلة الشخص، حيث يبرز جانب الاستقامة بأبعاد إيجابية، في ثوب الاختيار السليم والأفضل نظراً لأن عواقبه مضمونة، في الوقت الذي يبرز فيه جانب لا استقامة في ثوب الاختيار غير المناسب، لأن نتائجه وخيمة.

وبعد سرد الحكاية تأتي مرحلة أخرى ذات أهمية قصوى، لا يكتمل الدور التربوي، ولا يأخذ المغزى معناه إلا بها وهي فك رموز الحكاية، فهذه المخططة مهمة جداً في منهج النورسي السردى إن صحت هذه العبارة لكونها تعيد وضع عناصر الحكاية في سياقها التربوي، وكأن النورسي يريد من خلال ذلك ألا يضل تفكير المتلقي وألا يؤدي به الفهم بعيداً عما قصده السارد أو النورسي يقول في فك رموز الحكاية الثامنة: " فيما نفسي الباكية على ما ضحكت أيام شباهما. اعلمي! إن ذلك الجندي المسكين المتورط هو أنت، وهو الإنسان.. وإن ذلك الأسد هو الأجل.. وإن أعواد المشنقة تلك هي الموت والزوال والفراق الذي تذوقه كل نفس.. ألا ترين كيف يفارقنا كل حبيب إثر حبيب ويودعنا ليل نهار.. أما الجرحان العميقان، فأحدهما: العجز البشري المزعج الذي لا حد له. والآخر: هو الفقر الإنساني المؤلم الذي لا نهاية له.. أما ذلك النفي والسفر المديد فهو رحلة الامتحان والابتلاء الطويلة لهذا الإنسان، التي تنطلق من عالم الأرواح مارةً من رحم الأم ومن الطفولة والصبا ثم من الشيخوخة ومن الدنيا ثم من القبر والبرزخ ومن الحشر والصراط.. وأما الطلسمان فهما الإيمان بالله وباليوم الآخر. نعم إن الموت بهذا الطلسم القدسي يلبس صورة فرس مسخر بدلاً عن الأسد، بل يتخذ صورة بُراق يُخرج الإنسان المؤمن من سجن الدنيا إلى روضة الجنان، إلى روضة الرحمن ذي الجلال. ومن هنا كان الكاملون من الناس يجنون الموت ويطلبونه، حيث رأوا حقيقته. ثم إن سير الزمان ومروره على كل شيء ونفوذ الزوال والفراق والموت والوفاة فيه يتخذ بهذا الطلسم الإيماني صورةً وضاءةً حيث تحفز الإنسان إلى رؤية الجدّة بتجدد كل شيء، بل يكون مبعث التأمل في ألوان مختلفة متنوعة وأنواع متباينة لمعجزات إبداع

الخالق ذي الجلال وخوارق قدرته، وتحليلات رحمته سبحانه ومشاهدتها باستمتاع وبهجة كاملين. يمثل ما يضيفي تبدل المرايا العاكسة لألوان نور الشمس، وتغيّر الصور في شاشة السينما من جمال وروعة إلى تكون المناظر الجذابة وتشكلها.²⁶ تعتبر الحكاية الثامنة من أكثر الحكايات التي درسنا استعمالاً للرموز، وتبرز فيها بشكل قوي قدرة النورسي الأدبية، وتمكنه من قاموس رمزي خاص، ولقد كان النورسي موفقاً إلى حد بعيد في توظيفها خدمة للفكرة المحورية في الأقصوصة في الدرجة الأولى، وخدمة للمشروع العام وهو الرقي بالإنسان في الدرجة الثانية. والجذور يبرز هذه الرموز ويجدد دلالاتها، كما تصورها النورسي

إن هذه الرموز ليست رموزاً مجنحة ولا رموزاً معقدة بحيث يستعصي على المتلقي فهم أبعادها بالرغم من أن النورسي يتكفل بشرحها وإبراز معانيها، وهي رموز تحيل، إذا ما نظرنا إليها بصورة مجملة، على كافة مظاهر الإنسان، النفسية والمعيشية، وحتى المظاهر التفكيرية التي تدل على الكون وعلى خالقه.

وعلى العموم فإن الحكاية عند النورسي لن تكشف كل أسرارها وكل مخزونها الأدبي والفني والفكري والتربوي في مثل هذه الدراسة، بل لا بد من دراسات متعددة ومتنوعة خاصة وأن شأنها شأن الجانب الأدبي في شخصية النورسي التي تجسدها الرسائل من هنا فإن الحكاية والأقصوصة وضرب الأمثال في رسائل النور مجرد حلقة في سلسلة واسعة من القضايا ذات البعد الأدبي، والتي ينتظمها فيما نرى نظرية أدبية متكاملة تنتظر من يستخلص مكوناتها من الرسائل وكل ما كتب النورسي، وأسأل الله أن يوفقني إلى المساهمة في كشف بعض جوانب هذه النظرية.

الهوامش

1 الإنسان في فكر الإمام النورسي وجوداً، ومهمة، وغاية، النظرة القرآنية للإنسان، من خلال رسائل النور، ص: 5 - 20 أعمال المؤتمر العالمي الخامس لبيدع الزمان سعيد النورسي، شركة نسل للطبع والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى: ص5

2 لقد نتبع د. عماد الدين خليل هذا الموضوع في بحث خاص بعنوان: رؤية جمالية في الكلمات، يقول: "إن قارئ الكلمات" يعثر بين لحظة وأخرى على مفردات مشتقة من قاموس الجمال: الشعاع، التألؤ، الزينة، الصنعة، النور، الغصون، الرشحات، اللوامع، الفطرات، الجوهرة، الألماس، الشعلة، الزاهي، القشيب، المزركش،

- القبس، الجلوة، اللآئى، الزهيرة، اللطيفة، الوضاعة، الشفافية، النورانية، شمة النسيم، البحر، التجميل، الأزهير، الحُسن، نوى الحقائق، الروعة، الإبداع، الانسجام، الجمال، الإتقان، الكمال، الضياء، الألوان، الأصوات... " بديع الزمان سعيّد النورسي في مؤتمر عالمي حول تجديد الفكر الإسلامي، استنبول 1992، مطبعة سوزلر للنشر، القاهرة: ص133
- 3 كليات رسائل النور، الكلمات، تر: إحسان قاسم الصالحي، شركة سوزلر للنشر، ط3 / 1999: ص 60 – 61.
- 4 اشارات الاعجاز في مظان الإيجاز: ص 154 – 155.
- 5 الكلمات: ص 31 – 32.
- 6 نفسه: ص 33.
- 7 نفسه: ص 34.
- 8 نفسه: ص 35
- 9 نفسه: ص 350
- 10 نفسه: ص 71
- 11 نفسه: ص 363
- 12 نفسه: ص 143
- 13 نفسه: ص 371
- 14 المثنوي العربي النوري: ص 66
- 15 الكلمات: ص: 76
- 16 نفسه: 154
- 17 نفسه: ص 698.
- 18 أديب الدباغ، مطارحات في المعرفة الإيمانية عند النورسي، مركز الكتاب للنشر، القاهرة، ط1/1417هـ – 1997م: ص 10.
- 19 الكلمات، ص 635 – 636.
- 20 أديب الدباغ، مطارحات في المعرفة الإيمانية عند النورسي: ص 129.
- 21 كليات رسائل النور، اللمعات: ص 183.
- 22 إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز: ص 22
- 23 المکتوب الثامن والعشرون: ص 487
- 24 الكلمات: ص 47.
- 25 الكلمات: ص 6.
- 26 الكلمات : 27 – 28.

تكامل الأخلاق عند بديع الزمان سعيد النورسي

الدكتور محمد خروبات
رئيس شعبة الدراسات الإسلامية وأستاذ
التعليم العالي بكلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة القاضي عياض - مراكش
المغرب

1 - مقدمة :

نحاول من خلال هذا العرض بحث موضوع : (تكامل الأخلاق عند بديع الزمان سعيد النورسي)، وهو موضوع يدور على محاور أساسية نبرزها في صيغ استفهامية ومقابلات ضدية كالآتي :

1 - البحث عن العلاقة بين النظرة الخلقية والسلوك الأخلاقي عند بديع الزمان سعيد النورسي، إلى أي حد تطابقت نظراته الأخلاقية ودعوته إلى الأخلاق مع سلوكه الشخصي وممارساته الخلقية في حياته...؟
هل هناك تقاطعات في سلوك النورسي؟، هل عاش فترة من الوقت على خلق ، ثم عاش فترة أخرى على خلق آخر؟

2 - البحث عن العلاقة بين نظراته الخلقية ودعوته إلى إصلاح النفس البشرية من جهة والواقع المعيش من جهة أخرى...هناك قضايا خلقية جاء بها القرآن إلى البشرية، وهناك قضايا خلقية أخرى فرضها الواقع...هل من تمييز عند النورسي بين تلك الأخلاق وهاته الأخلاق؟

3 - البحث عن علاقة دعواته الخلقية بالقرآن الكريم والسنة المطهرة...هل الأخلاق عند النورسي مستوحاة من هذين الأصلين، أم أنها انطباعات فكرية وآراء فلسفية وتأملات نظرية؟

4 - البحث عن علاقة الأخلاق التي يدعو إليها بعلمية الإسلام وشموليته وواقعيته على الدوام.

هذا كله يبحث باستحضار المقابلات الضدية التالية :

- فالبحث عن العلاقة بين النظرة الخلقية والسلوك الخلقى يقابلها انفصام حاد بين الدعوة إلى الأخلاق وعدم التخلق بها في الحياة العامة.

- والبحث عن العلاقة بين الدعوة إلى الأخلاق والواقع يقابلها انفصام مدهش بين الأخلاق والواقع.

- والبحث عن علاقة الأخلاق بالقرآن والسنة تقابلها علاقة ضدية تتجسد في علاقة الأخلاق بالفلسفة، بحيث تصبح الفلسفة مصدرا للأخلاق في ثقافتنا المعاصرة .

- والبحث عن علاقة الأخلاق بعلمية الإسلام وشموله الدائم تقابلها علاقة أخرى تدفع بأخلاق الأمة إلى الارتقاء في أحضان ثقافة العولمة ومسلكتها النظام الدولي الجديد. هذه هي الاشكالات المحورية التي يدور حولها هذا العرض، قد تكون هي دوافعه، أو حوافزه أو مقاصده أو محاوره الأساسية ، وكيفما كان الحال فهي ظواهر عامة حركت بيدع الزمان للكلام، وحركتنا نحن أيضا لإبراز هذا الكلام وتأمله وتحليله ، وقد تسنى لنا ذلك بطريقتين : الأولى تقويمه بالمنهج المطلوب والثانية تقديمه على الوصف المرغوب، وقد تحقق لنا هذا بخطوة منهجية تضم ثمانية عناصر وهي :

1 - مقدمة.

2 - مفهوم تكامل الأخلاق.

3 - التكامل والإصلاح، أية علاقة؟

4 - عناصر التكامل، وهي محددة في خمس ارتباطات.

1-4- ارتباط الأخلاق بالمؤلف.

2-4- الارتباط بالقرآن الكريم.

3-4- الارتباط بالسنة النبوية.

4-4- الارتباط بالواقع.

4-5- ارتباط الأخلاق برسائل النور.

5 — الوظائف الأخلاقية للرسائل .

6 — من (التكامل) إلى (القوة) .

7 — (الأخلاق العملية) ومستلزمات التكامل .

8 — خاتمة .

2 — مفهوم تكامل الأخلاق :

أ — يجب التفريق بين نوعين من (التكامل) بينهما تلازم، الأول (تكامل الذات)، والثاني (تكامل الموضوع)، نعني بالأول: تكامل شخصية بديع الزمان سعيد النورسي، ونعني بالثاني تكامل نظرية الأخلاق عنده.

تكامل الشخصية يتوقف على " ذات الشخصية " المعنية، نعني أنه يتوقف على بديع الزمان نفسه، وتكامل النظرية الخلقية يتوقف على (فكر) للشخصية نفسها. ذكرنا هذا لأن التصور الإسلامي لا يفرق بين العلم والعلم، بين الذات والموضوع، بين الشخص والفكر... كلاهما يشكل في المعرفة الشرعية وجهها واحدا وإن كان النظر في الشخصية من جهة المعرفة والأحوال أسبق.

إن الوجه الواحد المشار إليه سلفا هو التكامل في نوعه الثالث، وهو النوع المركب من النوعين السابقين، وهو الذي تشير إليه الآية الكريمة: (يأأيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون، كبر مقتا عند الله أن تقولوا مالا تفعلون)¹.

الاكتمال يعني الإتمام، والكمال يعني التمام، وطريق الكمال الاكتمال، وطريق التمام الإتمام²، وقد اقتربنا في آية واحدة من قوله تعالى: (اليوم أكملت لكم دينكم، وأتممت عليكم نعمتي، ورضيت لكم الإسلام ديناً)³، إكمال التشريع وإتمام النعمة أعطيا الإسلام الذي ارتضاه الله للبشرية ديناً، ومن هذا (الدين) متح بديع الزمان سعيد النورسي.

ب — نريد أن ننقل خطاب بديع الزمان النورسي من حالة رصد الأفكار المبتوثة والمفرقة في ثنايا (رسائل النور) إلى حالة مجموعة تسهل إدراك المعنى، حيث ينتظم المفرق داخل إطار كلي اخترنا أن يكون هذا الإطار هو (الأخلاق)، واخترنا أن نربط بين الجزئيات برابط منهجي، هذا الرابط هو المتجسد في فقرات ومضامين هذا العمل،

وانتظام هذه الأجزاء داخل الكل هو ما نعبر عنه بـ (التكامل)، كل جزئية تكمل الأخرى لغرض إتمام الصورة العامة التي نريد رسمها، ويبقى الشخص الوحيد المقصود بهذه الدراسة هو بديع الزمان النورسي، ويبقى التراث المستهدف بهذه الدراسة هو الرسائل ، كما يبقى المقصد من هذه الدراسة هو المساهمة بما تحمله الرسائل من أفكار لمعالجة الآفات الأخلاقية ولإصلاح رذائل القيم.

هذا كله لا يتم إلا بالتكامل الذي حددنا مفهومه وإلا أوقع في النقيض، إذ نقيض التكامل الإنحلال والتفكك، انحلال الأخلاق وتفكك القيم، وهما آفتان تغزوان المجتمعات الإنسانية في العصر الراهن.

3 - التكامل والإصلاح : أية علاقة؟

ماذا يريد بديع الزمان بمآته الأخلاق المتكاملة؟ من يقصد؟ ولماذا؟

لما كان شعار بديع الزمان هو القرآن الكريم كان حريا بنا نظفر بالجواب من قوله تعالى: (ان أريد إلا الإصلاح ما استطعت، وما توفيقى إلا بالله)⁴ .

توجه بديع الزمان إلى واقع بشرية هذا القرن، القرن الذي تصدعت فيه القيم وترزعزت فيه المبادئ وانهارت فيه الأخلاق انهيارا شاملا، وغابت - على إثر ذلك - إنسانية الإنسان، الإنسانية التي أرادها الإسلام للإنسان، فأطلت رسائل النور على الإنسانية الغافلة لتؤدي وظيفة الإصلاح والتقويم والتوجيه والإرشاد نحو الصراط الذي أراده الله للبشر، ولذلك فهي تؤدي هذه المهمة في أحلك الحالات وأرهبها، وفي أخرج الأوقات وأشدّها ، فكانت خدمتها خدمة إيمانية وتربوية بأسلوب أخاذ يفهمه الجميع، ويمكن للمرء كيفما كان أن يلحظ هذا في أسلوب ومعاملة الطلبة المعتكفين على هذه الرسائل، والذين يطلق عليهم (طلبة النور)، وهو وصف سام، رقيق ودقيق، لا يتصف به إلا من تحلى بأخلاق هذه الرسائل، وعمل بما جاء فيها من وصايا وأخلاق وفضائل⁵ ، مع السعي في البث والنشر والدعوة.

4- عناصر التكامل، وهي محددة في خمس ارتباطات:

قبل أن نتكلم عن صلة الأخلاق برسائل النور يجدر بنا أن نحدد ارتباط رسائل النور بعناصر أربعة أساسية، ذلك أن تحديد صلة الرسائل بالعناصر الأربعة المتقدمة سيؤدي بنا

إلى التوقف عند صلة الأخلاق بالرسائل، وستفضي بنا الدراسة إلى استكمال البحث في نظرة بديع الزمان التكاملية إلى الأخلاق.

4-1- ارتباط الرسائل بالمؤلف: الرسائل مرتبطة بصاحبها، وصاحبها هو بديع الزمان النورسي، كاتبها ومؤلفها، وهو صاحب التجربة الخلقية المزدوجة من أمرين: الأولى فكرية والثانية عملية، قدم بديع الزمان هذه التجربة هدية في صيغة وصية لطلبة النور، ولكل متعلم يريد أن يتخلص من عفونة الرذائل الجارفة. إن سر نجاحه في وصاياه يكمن في الارتباط الذي يتجلى في حقيقة العلاقة بين نظراته الأخلاقية والسلوك التربوي لديه، لم يكن يدعو إلى خلق يعمل بخلافه، أو يقرر سلوكا في فترة ثم ينقضه في أخرى... إن البحث في هذا الارتباط من شأنه أن يجلي حقيقة (تكامل الأخلاق) لديه، تكامل يتضح حين يدفع بديع الزمان بالرسائل في مجاري السنوات والقرون بصفات أساسية ومحددة:

- فهي معجزة من معجزات القرآن الكريم.
 - وهي إحسان من إحسانات الرحمة الإلهية.
 - وهي بذلك تتجاوز مؤلفها وكاتبها لتصبح في ملك كل فرد يريد إصلاح نفسه وأمته.
 - ولذلك فهي هدية غالية، وأعطية نفيسة.
- يقرر هذا في عبارة مشرقة مفعمة بأفكار نيرة مضيئة فيقول: (لذا، لا يمكن أن يسند تأليفها إلى رجل عاجز نصف أمي قضى حياته بين المنفى والسجن ، وتحت رقابة سلطات الدولة، وتنفيها الناس من حوله بالدعايات المغرضة، فمثل هذا الرجل لا يمكن أن يكون مالكا لها، ولا يمكن أن يفتخر بها لنفسه، فهي ليست نابعة من ذكائه ومهارته، إنما هي معجزة من معجزات القرآن الكريم ، وإحسان من إحسانات الرحمة الإلهية، وكل ما في الأمر أن هذا الرجل وآلآفا من أصدقائه قد مدوا أيديهم إلى تلك الهدية الغالية النفيسة فوق الخيار عليه في نشرها)⁶ .

هذا عن الارتباط الأول، أما الارتباط الثاني فهو:

4-2- الارتباط بالقرآن الكريم رأساً: وهذا ما أشار إليه في العبارة السابقة التي تم الاستشهاد بها في الارتباط الأول، ما فتئ يذكره ويكرره في غير ما مرة ، فالرسائل وما حوت هي (برهان باهر للقرآن الكريم، وتفسير قيم له، وهي لمعة براقعة من لمعات إعجازه المعنوي، ورشحة من رشحات ذلك البصر، وشعاع من تلك الشمس، وحقيقة ملهمة من كنز علم الحقيقة، وترجمة معنوية نابغة من فيوضاته...)⁷ تلك بعض تعابيره رحمه الله التي يحاول بها تأكيد ارتباط الرسائل بالقرآن الكريم، فالقرآن إذا هو مصدرها، ثم يقيم مقارنة بينها وبين مختلف التأليفات في مختلف الفنون ليدلل على مصدريتها القرآنية فهي (ليست كالمؤلفات الأخرى التي تستقي معلوماتها من مصادر متعددة من العلوم والفنون، فلا مصدر لها سوى القرآن، ولا أستاذ لها إلا القرآن، ولا ترجع إلا إلى القرآن...)⁸ .

لم لا تكون كذلك ومؤلفها أدار وجهه على شيخ الطريقة الصوفية، واستبدل به شيخاً واحداً هو (القرآن الكريم) .

إن الارتباط المتحدث عنه هنا لا يعني توحيد الرسائل مع القرآن، أو تقديمها عليه، أو جعلها بديلاً عنه كلاً فالقرآن قرآن لا يضاف إليه شيء بعدما حفظ نزولاً واكتمل تنزيلاً،

(إننا نحن نزلنا الذكر وإننا له لحافظون)⁹ ، وهو كلام الله الذي لا يتقدم عليه شيء: (يأيتها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله)¹⁰ ، فالرسائل هي تفسير له ودلالة عليه وإشارة إليه، وترجمة معنوية لأحكامه ومعانيه، وقد اكتست هذه الصفة لأنها مستوحاة منه، ومتأثرة به، فقد سئل الشيخ مرة عن: أيهما أفضل: حفظ القرآن أم استنساخ الرسائل؟ فقدم الحفظ على الاستنساخ، ثم لما فرغ اتبع استنساخ الرسائل لحفظ القرآن،¹¹ يقول: (لهذا كله أقول: إن الرسائل ليست ملكي ولا مني بل هي ملك القرآن)¹² .

إذا كان هذا عن القرآن فما نصيب السنة النبوية من هذا الارتباط، والاسلام هو قرآن وسنة؟ .

الجواب في الارتباط الثالث .

4-3- ارتباطها بالسنة النبوية: السنة لا تفارق القرآن ولا تنفصل عنه، ومن طلب الاتصال بالقرآن بلا سنة فقد أحدث القطع وأوقع الفصل.

ارتباط الرسائل بالقرآن يعني ارتباطها بالسنة أيضا، وهذا ارتباط يأتي في الدرجة الثانية، فهو مثل مرتبة السنة تجاه القرآن، وارتباط رسائل النور بالسنة يكشف عن ارتباط صاحبها بسنة النبي ρ . ولللسنة النبوية دور كبير في صياغة الأخلاق في خطاب بديع الزمان سعيد النورسي، لقد أعانت السنة وساعدت على تحصيل ثروة من المصطلحات الخلقية بمفاهيمها وأساليبها، وتنوع صورها وأشكالها في رسائل النور، والحديث يتسع كثيرا إذا أردنا بحث دور السنة النبوية في تكوين الأخلاق الإسلامية، وفي تأسيسها وتهذيبها وتصحيحها، لكننا نختصر الكلام بالقول: إن رسائل النور متحت من هذا الجانب كثيرا، لأنها لما اهتمت بالقرآن توجهت إلى السنة النبوية، وحين يتكلم بديع الزمان سعيد النورسي عن الأخلاق من سنة النبي ρ فذلك من موقع قوله تعالى: (وإنك لعلی خلق عظیم)¹³ ليوجه إلى ما يشهد لهذه الآية من حديث عائشة رضي الله عنها حين تصف خلق النبي ρ بقولها: (كان خلقه القرآن)¹⁴.

هذا كله فتح الباب لبديع الزمان ليتكلم في لمعاته عن النبي ρ الذي هو المثال والأمودج، يقول: (لما كان الرسول ρ قد خلق في أفضل وضع وأعدله، وفي أكمل صورة وأتمها، فحركاته وسكناته قد سارت على وفق الاعتدال والاستقامة، وسيرته الشريفة تبين هذا بيانا قاطعا وبوضوح تام بأنه قد مضى وفق الاعتدال والاستقامة في كل حركة من حركاته، متجنبنا الإفراط والتفريط)¹⁵.

هذا عن وضع الارتباط بالقرآن والسنة، لكن ماذا عن كيفية؟

الكيفية التي ترتبط بها الأخلاق عند النورسي بالقرآن الكريم والسنة النبوية تظهر فيما يلي:

أ - أن بعض الكليات الخلقية في رسائل النور لها صلة بآية قرآنية أو بحديث نبوي شريف من حيث المعاني وإن اختلفت الألفاظ.

ب - أن بعضها يكون جزءا من آية أو طرفا من حديث.

ج - أن بعضها - وهو كثير - مستوحى من تعاليم القرآن والسنة، وهذا الاستيحاء يأتي على أساليب ثلاثة:

- إما بأسلوب يعارض العمل بما نهى الله عنه
- وإما بأسلوب يعارض تعطيل ما أمر الله به.
- وإما بأسلوب يعكس اجتهاد بديع الزمان، بحيث تكون أفكاره مستوحاة من روح الشريعة الإسلامية.

د - وبعضها يأتي تفسيراً لآية كريمة ، أو شرحاً لمتن حديث نبوي.

4-4- الارتباط بالواقع:

تتحلى واقعية الأخلاق في رسائل النور في النواحي الآتية:

- أ - خطابه الأخلاقي المتضمن للكليات الخلقية هو خطاب شمولي يتجه إلى كل إنسان، إلى الشيوخ والشباب والطلبة والتلاميذ والأساتذة والمعلمين ، كما يتجه إلى النساء والرجال كأزواج ، وإلى النساء كبنات وعجائز وعانسات... الخ
- ب - إن رسائل النور بثروتها الخلقية تخرج المنتسب إليها والمطلع عليها من رذائل الأخلاق إلى فضائل أخلاق الإسلام، ومن مشاين الحضارة المادية المعاصرة إلى مكارم الشيم في أعلى مستوياتها، وفي أرفع معانيها...
- ج - تدفع رسائل النور بأخلاق الإسلام نحو عولمتها الحققة، لقد كون الإسلام في التاريخ البشري عولمة من نوع إيجابي تجلت عملياً بكل المواصفات الموضوعية والنفعية على المستوى الاقتصادي والسياسي والثقافي والأخلاقي - وحين نهارت قوة المسلمين وتوارت جاء دور عولمة جديدة، عولمة منافية لعولمة الإسلام، ومناقضة لتوجهاته ، فرسائل النور تبرز معالم عولمة الإسلام، وتجلي خصائصها ومقوماتها على المستوى الخلقية.. وقد اختار بديع الزمان لتحقيق ذلك اللغة التي تليق لهذا العصر، والأسلوب الذي يصلح لواقع هذه الأمة، ويكفي رسائل النور واقعية أنها تدفع بالمسلم المعاصر إلى التحلي بأصوله الأخلاقية، ويكفيها أنها تعارض وتجاهه وتصارع في منازلة صعبة (الأخلاق الطبيعية)¹⁶ ، التي هي قوام عولمة النظام الدولي الجديد، يفصح بديع الزمان بشيء من هذا فيقول: (إن أفضل منقذ ثبت بالتجربة ، من ظلم هذا العصر المريض الغادر المشؤوم ومن ظلماته الدامسة هو النور الذي تشعه (رسائل النور). بموازينها الدقيقة وموازناها السديدة، يشهد على صدق هذا أربعون ألف شاهد)¹⁷ .

4-5- ارتباط الأخلاق برسائل النور:

سواء علينا أقلنا ارتباط الأخلاق برسائل النور أو العكس فالوجه واحد. إن من يطالع رسائل النور يجد أن بديع الزمان يحاول أن يجعل من هذه الرسائل مصدرا للأخلاق والتقوى والورع، فهو يذكر دائما أنها دالة على الخير وموجهة للفضيلة، ومساعدة على التدرج في سلم المكارم، وهذا كله يقوي الإيمان ويزيد فيه. كتب تحت عنوان: (رسائل النور حصن الإيمان الحصين) كلاما رائعا ما أحوجنا إلى تذوقه، لقد بين أن العصر الذي نعيشه هو عصر صراع بين نوعين من القيم: قيم الكفر وقيم الإيمان، وكل منهما يستند في مواجهته للآخر على آخر الحصون، قيم الكفر لها حصنها. وقيم الإيمان لها حصنها، ولتوضيح ذلك وبيانه أحال على رسالة الآية الكبرى التي توضح هذه الظاهرة وضوحا كاملا، ثم ضرب مثلا في حالة وقوع حرب عظيمة، حيث كل فئة تمد جانبها، وجانب الكفر لا يدع وسيلة إلا ويستعملها في سبيل تشتيت قوة أهل الإيمان المعنوية، ومعلوم أن القوة المعنوية لأهل الإيمان هي قوة احتياطية سائدة عظيمة، حتى إذا أوشك العدو أن يقضي على هذه القوة جاءه البشير يذكره بنقطة الاستناد العظيمة، و في نهاية المطاف يجعل النورسي الرسائل هي نقطة الاستناد هاته.

5-5- الوظائف الأخلاقية لرسائل النور.

لكي تكون رسائل النور هي (نقطة الاستناد) يحدد لها بديع الزمان وظائف أخلاقية مهمة، نسوقها كآتي:

- أ — إنها خير معين وأجل مساعد لكل مسلم يائس يريد النجاة بنفسه من حريق الرذائل، يشبهها النورسي من هذا الوجه ب(الخضر) عليه السلام¹⁸.
- ب — تسمو رسائل النور على معارف الشرق والغرب لسبيين: الأول أنها لم تستمد من بضاعة معلومات الشرق وعلومه، والثاني أنها لم تعتمد على بضاعة فلسفة الغرب وفنونه.. إنها سمت بسبب واحد هو أنها ارتبطت بالقرآن الكريم.
- ج — تتوجه رسائل النور بمنظومتها الأخلاقية إلى إصلاحات كلية تتوجه صوب التخريبات العامة، فهي بذلك ترمم القلعة العامة للإنسانية كلها، وذلك بالتوجه إلى قلبها العام وإلى وجدانها الكلي... هذا الوجدان الذي مال إلى الفساد وتخصص فيه.. كل من

دخل إلى ساحة هذه الرسائل إلا ودفعت به كفرد نحو الجماعة، وكجزء نحو الكل، وهذا يعود على المرتبط بالرسائل بما سماه النورسي (خيرات كلية جماعية)¹⁹ .

د - استطاعت الرسائل أن تحل أسراراً كثيرة مضمنة في المعاني التي جاءت بها الشريعة الإسلامية، وذلك بالشرح والتفصيل والبيان مع الكشف والتحليل، ومن هذه الأسرار أسرار الأخلاق والقيم .

هـ- إنها تقف حائلاً ضد التخريب، وعائقاً ضد الفساد ، من الصغير إلى الكبير، ومن البسيط إلى المركب، ومن الجزئي إلى الكلي... وذلك بالرد والنقد والتصحيح والتصويب، لقد جعلها النورسي خصماً لدوداً للمعاندين، وعدواً للجاحدين والماكرين لسبب واحد هو أنها تقف ضد طموحاتهم وتعرقل مشاريعهم، ثم إنها تجلي حقيقة القرآن لبشرية هذا العصر بأرقى صورة وبأحسن أسلوب .

بهذه الوظائف تكون رسائل النور قد قدمت خدمة رفيعة ما فتئ بديع الزمان يشير إلى هذا النوع من الخدمة²⁰ ، مبيناً في النهاية أن الرسائل تضمن لقارئها وللمطلع عليها (عبادة فكرية من نوع فريد)²¹ .

5- من (التكامل) إلى (القوة):

يعطي النورسي لمفهوم التكامل مغزى آخر يضاف إلى ما سبق تحديده، بيان هذا المغزى أن سبب الانهزام أمام الآخر يكمن في أن المسلم يتقدم جندياً في ساحة الوغى من دون أن يكون (متكامل) في حرب الدفاع والمواجهة أمام جماعة (متكاملة) كل واحد منها يكمل صاحبه الآخر، يطلب النورسي من المسلم أن يتقدم (متكامل)، أو يقدم جندياً (متكامل) لمواجهة الجماعة النقيض، وانتصاره مرهون باكتمال يشبه اكتمال الجماعة (ليكون كل جندي من جنودك - يقول - في حكم جماعة ، ويمثابة شخص معنوي يستمد معنوياته من الدوائر المحيطة به)²² .

صدق بديع الزمان ، لقد كان جنود محمد ρ كل واحد منهم مكتمل باكتمال جماعة من المشركين، اجتمع فيه ما تفرق في كثير منهم، سواء في القوة المادية أو في الإيمان بالقضية ، أو في المروءة، والأخلاق والقيم، ولذلك حاز المؤمنون النصر، وظفروا بالعدو. ومن هذا المعيار فكثرة المسلمين مع غياب اكتمال شخصيتهم يجعلهم في حكم الأقلية، ويصبحون أكثرية ذات شوكة قوية إذا تحقق اكتمال كل فرد منهم ولو كان

عدددهم قليلا،) ويوم حنين إذا أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا، وضاعت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين) ²³ . غير أن الله عز وجل بدل حال النقص بحال الاكتمال فقال: (ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين، وأنزل جنودا لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين)، ²⁴ وقاعدة هذا كله هو قوله تعالى : (كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله) ²⁵ ، فغلبة الفئة القليلة لا تكون إلا بالاكتمال الذي تحدد معناه سلفا، وإلا حصلت الهزيمة، لا من الفئة القليلة فحسب بل حتى من الكثرة التي لا تكون سوى زبد أو غثاء، (فأما الزبد فيذهب جفاء، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض) ²⁶ .

الاكتمال أساس القوة، والقوة أساس النصر، ذلك هو سر كسب المعركة عند النورسي، وهو سر كشفت عنه رسائل النور، إن الرسائل حققت انتصارات متوالية، انتصارات التأثير الذي يبدو غير اعتيادي ، وشحنة هذه القوة ترجع إلى جاذبية القرآن الكريم لا إلى شخصية المصنف، شحنة كلمات الرسائل هي تصديق لا تصور ، وإيمان لا تسليم، وتحقيق لا تقليد، وشهادة وشهود لا معرفة، وإذعان لا التزام، وحقيقة لا تصوف، وبرهان ضمن الدعوى لا ادعاء ²⁷ .

6 - الأخلاق العملية ومستلزمات (التكامل) :

من مستلزمات (التكامل) أن تكون الأخلاق عملية لا نظرية، وهذا الجانب توفر في أطروحة النورسي في مجال الأخلاق، فالأخلاق عنده هي التي يبنى عليها العمل، وهي من هذا الوجه تختلف عن الأخلاق كما هي عند الفلاسفة، فهو يتجه بها إلى ما ينفع على صعيد العمل والممارسة، لذلك كان كلامه عن الأخلاق في صلتها بالعمل أقوى من كلامه عن أي شيء آخر، وهو ما أطلقنا عليه (الأخلاق العملية) .

تحتاج (الأخلاق العملية) إلى معلم ومتعلم، فالمعلم هو الموجه والمرشد، والمتعلم هو الموجه والمرشد ، والمعلم هو المربي والملقن، والمتعلم هو المربي والملقن، وهذا ثابت في أصل الحلقة قبل أن يكون من ثوابت هذه (العملية)، فهناك خالق ومخلوق، وهناك نبي وقوم، وهناك أهل العلم من المفكرين والباحثين والدارسين وهناك العامة الذين يستفيدون علم هؤلاء ويعملون به ، ليرشدوا ويصلحوا، وينطبق هذا الوصف على علم الأخلاق بصفة عامة كما ينطبق على رسائل النور بصفة خاصة، ولما كانت رسائل النور تضم

ثروة من الأخلاق والقيم في صيغتها الإنسانية العملية فإن صاحبها - بديع الزمان - ظهر فيها بمظهر الأستاذ الناجح، الذي لقن مادة الأخلاق إلى كل إنسان ولا سيما إنسان الإيمان، لكن ماذا عن عدم الاستجابة لدعوته الإصلاحية من هذا الجانب؟ وماذا لو تنكر الناس وتراجعوا، وانطفأت جذوة شوقهم إلى أخلاق الرسائل وتوجيهاتها وإرشاداتها؟ هل هذا النقص في المعلم أم في المتعلمين؟ وفي كل الأحوال ما موقف المعلم من هذه الظاهرة؟

لا يسمح بديع الزمان لنفسه أن يتيه وسط ركام من الكلام لعلاج هذه الظاهرة بل يؤصل الكلام ليريح ويسترخ، يقول: (والحال أن سيدنا الرسول ρ وهو الأستاذ الأعظم ومقتدى الكل، والراشد الأعلى قد اتخذ الأمر الإلهي (وما على الرسول إلا البلاغ المبين)²⁸ ، دليلاً ومرشداً له، فكلما أعرض الناس عن الإصغاء وتولوا عنه ازداد جهادا وسعيا في سبيل التبليغ، لأنه علم يقينا أن جعل الناس يصغون ويهتدون إنما هو من شؤون الله سبحانه وفق الآية الكريمة (إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء)²⁹ ، فما كان يتدخل ρ في شؤونه سبحانه)³⁰ .

لننظر كيف ربط الأخلاق العملية ب (التبليغ)، وفي النص دلالات قيمة على الأخلاق في صيغتها العملية من مثل الإشارة إلى الإقتداء، والريادة العليا، والدليل والإرشاد والهداية الخ، وهذه كلها من مهمة المربي، وتنحصر في (التبليغ)، ثم لننظر كيف ربط ظاهرة الإعراض بالمشيئة الإلهية، ثم قبل هذا وبعده ننظر كيف أصل دعوته الإصلاحية حين ربطها بدعوة محمد ρ التي ترتبط هي بدورها بتوجيهات القرآن الكريم وإرشاداته.

لكن هل تتوقف (الأخلاق العملية) عند بديع الزمان مع بديع الزمان أم أنها ستستمر بعده؟ وكيف ذلك؟

الشخصية تتوقف مسيرتها في الزمان بالموت، لكن الفكر لا يتوقف ولو مات صاحبه، ولا يتوقف من الفكر إلا ما لا ينفع، وما لا ينفع منه متوقف حتما ولو استمر ألف عام، أما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض إلى أن يرثها الله ويرث من عليها، وحديث: (إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله من الدنيا إلا من ثلاثة: إلا من صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له)³¹ واضح في الباب . .

هذا ما فكر فيه بديع الزمان نفسه، إن توقف العملية التربوية المشمولة بقيم وفضائل أخلاق الإسلام كما قدمتها الرسائل مع بديع الزمان فيه محو لكل جهوده، وقضاء نهائي على رغباته وطموحه وتلك هي الخسارة الكبرى حين يموت الإنسان ويموت معه عمله ، لذلك تسائل قائلاً : (ترى أيؤدي طلاب النور بعد وفاي تلك المهمة بدلا مني وفي هذا الزمان الرهيب؟) فكان جوابه أن طلاب النور هم الذين يواصلون المهمة، وقد رأى برهان ذلك في حياته، وتضاعف ذلك بعد مماته.

7 - خاتمة :

بسطنا في مقدمة هذا العمل الإشكال العام للموضوع، وشرعنا في عرض المعاني الأساسية التي قصدناها بـ (تكامل الأخلاق)، فتحددت لنا المعاني وانضبطت لنا المفاهيم، ثم ربطنا ذلك بالمقصد والهدف المتمثل في الإصلاح والتوجيه والإرشاد والتربية... التي تدخل كلها في عنصر (الأخلاق)، تحقق ذلك بالمدافعة حيناً وبمنازلة الضد والنقيض حيناً آخر.

انتقلنا بعد ذلك إلى الكلام على عناصر التكامل الخمسة التي حددناها في الارتباطات الخمسة، فارتباط الأخلاق بالمصنف يضيف عليها الصبغة البشرية، وهذا يبين أنه كلما زادت معرفتك ببديع الزمان جيدا كلما زادت معرفتك بـ (الأخلاق) التي يدعو إليها جيدا.

وارتباطها برسائل النور يضيف عليها الصبغة العلمية، إنها تمت بـ (العلم) وفي (العلم)، فهي من العلوم الإنسانية ومتوجهة إلى الإنسانية كلها. وارتباطها بـ (القرآن الكريم) و بـ (السنة النبوية) يجعل منها أخلاقاً شرعية، ذات مصادر ربانية، سامية ونبيلة.

وارتباطها بـ (الواقع) ينفى عليها صبغة التجريد والميتافيزيقية البحتة، فهي ليست غيبية بإطلاق ولا مادية واقعية بإطلاق، إنها غيبية واقعية، ومثالية مادية، وبذلك اكتست صبغة الشمولية والعالمية والتوازن.

وحين انتقلنا بعد هذا إلى تحديد الوظائف الأخلاقية للرسائل مع بيان الوسائل والطرق الضرورية المؤدية إلى تحقيق تلك الوظائف مثل الشخصية المعنوية وتحقق الأخلاق

العملية... تكون الصورة الكاملة لموضوع (تكامل الأخلاق عند بيدع الزمان) قد اكتملت. والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات .

الهوامش

- 1 - سورة الصف ، الآية 2 - 3 .
- 2 - مستوحى مما ضبطوه لغة، انظر القاموس المحيط للفيروز ابادي - ص: 1362 - مؤسسة الرسالة، الأولى، تحقيق مكتب تحقيق التراث.
- ومعجم مقاييس اللغة لابن فارس - 139/5 - مادة (كمل) - تحقيق عبد السلام هارون - دار الجيل - بيروت - لبنان .
- 3 - سورة المائدة الآية : 4 .
- 4 - سورة هود الآية 88.
- 5 - انظر وصف طالب النور في مرشد أهل القرآن ص: 84 .
- 6 - مرشد أهل القرآن إلى حقائق الإيمان ، ص: 78- من كليات رسائل النور - 6 - ترجمة إحسان قاسم الصالحي، سوزلر للطباعة والنشر - الأولى 1998 .
- 7 - مرشد أهل القرآن ...ص : 81 .
- 8 - المرجع السابق .
- 9 - سورة الحجر الآية 9 .
- 10 - سورة الحجرات الآية 01.
- 11 - انظر الملاحق - كليات رسائل النور 7 - ص: 123 .
- 12 - مرشد أهل القرآن ص: 91 .
- 13 - سورة القلم ، الآية : 4 .
- 14 - أخرجه البخاري في الأدب المفرد - باب من دعا الله أن يحسن خلقه - ص: 116 رقم الحديث 309 . وأبو داود في السنن - كتاب الصلاة -
- 41/2 رقم 1342، والبيهقي في السنن كتاب الطهارة 499/2.
- 15 - مرشد أهل القرآن ، ص: 95 ، وراجع السنة النبوية مرقاة ومنهاج - كليات رسائل النور - شركة سوزلر.
- 16 - للوقوف على المغزى الحقيقي ل (الطبيعة) ومعطياتها، انظر كتابنا(خلاصة في نقد الفكر الطبيعي، قراءة في كتاب الطبيعة مع مقالة في بناء الإنسان عند بيدع الزمان سعيد النورسي) - الأولى - المطبعة الوطنية بمراكش - المغرب.
- 17 - مرشد أهل القرآن ...ص: 224 .
- انظر مرشد أهل القرآن ...ص: 86 بنفس المعطيات السابقة.18.
- المرجع السابق ، ص: 103 . 19
- من ذلك مثلا ما كتبه في الملاحق تحت عنوان: (مكاسب العمل لرسائل النور)، انظر ص: 288 . 20

-
- مرشد أهل القرآن ، ص: 137 . 21
 - المصدر السابق ، ص: 85 . 22
 - سورة التوبة الآية : 25 . 23
 - سورة التوبة الآية : 26 . 24
 - سورة البقرة الآية : 247 . 25
 - سورة الرعد الآية : 19 . 26
 - 27 - وفي الموضوع شاهد من حديث النبي ρ يقول فيه: (يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة على قصعتها، فقال قائل: ومن قلة نحن يومئذ؟ قال: بل إنكم يومئذ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل ، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن الله في قلوبكم الوهن...) أخرجه أبو داود في السنن حديث رقم : 4297، وأحمد في المسند 278/5 . وأبو نعيم في الحلية 182/1 .
والحديث في سلسلة الأحاديث الصحيحة لناصر الدين الألباني 683/2 رقم 958 .
 - 28 - سورة النور الآية : 52 .
 - 29 - سورة القصص الآية : 56 .
 - 30 - انظر مرشد أهل القرآن... ص: 110 .
 - 31 - أخرجه مسلم بن الحجاج في صحيحه - باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته - 3 / 1255 ، رقم 1631 ، وأبو داود في السنن ، كتاب الوصايا - باب ما جاء في الصدقة عن الميت 3 / 117 رقم 2880 .

تأثير الأخلاق والعلم والدين في الفرد والمجتمع

الدكتور محمد عبد الواحد الشجاع
قسم الدراسات الإسلامية
نائب عميد كلية الآداب
جامعة صنعاء - اليمن

مقدمة

الحمد لله نحمده ، ونستعينه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله .

[يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ] سورة آل عمران : 102.

[يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا] سورة النساء: 1.

[يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا] سورة الأحزاب : 70 ، 71 .

وبعد ...

فإن تأثير الأخلاق والعلم والدين في الفرد والمجتمع من الأهمية بمكان إذ لا يمكن أن يعيش مجتمع آمناً مستقراً منتجاً ما لم يكن على صفة مميزة من الأخلاق وأن تكون نابعة

ومستوحاه من الدين القويم لقوله Y : [إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ] سورة آل عمران : 19 ، وقوله Y : [ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ] سورة الروم : 30 ، وقوله I : [أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ] سورة البلد : 8-10 ، وقوله I : [وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ] سورة النازعات : 40 ، 41 ، وقوله Ψ : [وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ] سورة القلم : 4 ، وقوله ρ : [إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِعَبْدٍ خَيْرًا جَعَلَ لَهُ مِنْ نَفْسِهِ وَعَظْمًا مِنْ نَفْسِهِ يَأْمُرُهُ بِهَا]⁽¹⁾ وكما هو معلوم أن الأحكام الإسلامية تنقسم إلى أربعة أقسام :

القسم الأول: قسم العقيدة وهذا يتعلق بالجوانب العقديّة مثل الإيمان بالله ورسوله وباليوم الآخر..... الخ .

القسم الثاني: قسم العبادات وهذا يختص بالصلاة والزكاة والصيام والحج..... الخ .

القسم الثالث: ويشمل المعاملات من بيع وشراء وهبه وقضاء وقصاص وديات وحدود وميراث وكل الجوانب العملية من المعاملات .

القسم الرابع: الأخلاق ويشمل كل الأقوال والأعمال الحسنة من صبر وصدق وكظم غيظ وتواضع وأمانة وقدوة حسنة وعدم النفاق والكذب والاحتيال والحسد والطمع.

وكل الصفات الحسنة وكل الصفات غير الحسنة وهذه الأقسام الأربعة متداخلة مع بعضها البعض ولا فصل بينها وإذا ما حدث ذلك كان له تأثير على بقية الأقسام وقد تساءل بعض العلماء هل هناك عقوبة لمذنب جريمة خُلُقِيّة في الدنيا؟ فكان الجواب بالإيجاب إذا ما حدث ضرر للغير⁽²⁾.

وسأحاول عرض موضوع البحث من خلال مبحثين.

المبحث الأول

الأخلاق والعلم والدين والفرد والمجتمع

تعريف المسميات

لقد وردت في عنوان البحث مجموعة من المسميات تحتاج إلى تعريف لدلالاتها من الجانبين اللغوي والاصطلاحي

أولاً الأخلاق:-

الأخلاق لغةً: جمع خلق يعني المروءة ، العادة ، السجية ، الطبع⁽³⁾.

وبمعنى آخر: علم الإنسان علم الخير هو دراسة الواجب والواجبات.

أما تعريف الأخلاق اصطلاحاً⁽⁴⁾:

هو العلم بالفضائل وكيفية اقتنائها ليتحلى الإنسان بها والردائل وكيفية توقيها ليتحلى الإنسان عنها ، والإلمام بقواعد السلوك الإنساني وبالمقياس الذي تقاس من أعمال الإنسان الإرادية فيحكم عليها بأنها خير أو شر مع تحديد الجزاء لكل منهما.

وبمعنى آخر: هو الذي يدرس الظواهر السلوكية الموجودة في المجتمع من العادات الأخلاقية. ويشمل الصفات الطبيعية في الإنسان والصفات المكتسبة ويشمل كذلك جانب نفسي وجانب سلوكي ظاهري.

وذكر المودودي⁽⁵⁾ رحمه الله. الصفات الإنسانية وسمها أخلاقية منها العزم ، الصبر ، الثبات ، الهمة ، الشجاعة ، البسالة ، والقدرة على العمل المنظم. بمعنى آخر : أن كل التعريفات يكون معناها كل صفة حسنة لدى الكائن البشري يطلق عليها الأخلاق وينظم إلى الأخلاق الإنسانية الأخلاق الإسلامية إذ أن الإسلام نفسه يوافق الفطرة ، ومن ثم فهو يجعل للصفات والأخلاق الإنسانية جذوراً إيمانية فتلتقي مع الأخلاق الإسلامية لتتشكل منظومة أخلاقية واحدة وهي التي نعني بها الأخلاق.

ثانياً العلم:

ويجمع على علوم ويعني إدراك الشيء بحقيقة اليقين والمعرفة فالعلم من صفات الإنسان وليس من صفات الحيوانات⁽⁶⁾ كما في مقدمة ابن خلدون⁽⁷⁾ إنما يتميز عنها

بالفكر الذي يهتدي به لتحصيل معاشه والتعاون عليه بأبناء جنسه والمجتمع المهياً لذلك والتعاون عليه.

أما تعريف العلم اصطلاحاً⁽⁸⁾:

فيشمل جميع العلوم: الدينية والإنسانية والتطبيقية وأهمها علوم الشريعة لأن سعادة الإنسان متوقفة عليها. ولا نعني بالعلم مجرد جمع المعلومات وإنما العلم الاعتقاد الجازم المطابق للواقع⁽⁹⁾. وهو العلم الشرعي الذي يعد منهجاً عملياً للدين وكل علم إنساني تطبيقي فهو مسخر لقيام خلافة الإنسان على الأرض فيتماشى ويتداخل مع العلم الشرعي.

وذكر الأمام الغزالي⁽¹⁰⁾ في كتابه الإحياء (وإياك أن تشتغل بما يصلح غيرك قبل إصلاح نفسك فإن كنت المشغول بنفسك فلا تشتغل إلا بالعلم الذي هو فرض عليك بحسب ما يقتضي حالك وما يتعلق منه بالإعمال الظاهرة من تعلم الصلاة والطهارة والصوم ... الخ).

وكما ذكر العالم والمفكر ومجدد عصره بيدع الزمان النورسي⁽¹¹⁾ (إن جميع أهل الاختصاص والشهود ، وجميع أهل الذوق والكشف من العلماء المدققين والأولياء الصالحين ، متفقون على أن زاد طريق أبد الآباد ، وذخيرة تلك الرحلة الطويلة المظلمة ونورها وبراقها ، ليس إلا امتثال أوامر القرآن الكريم واجتناب نواهيه ، وإلا فلا يغني العلم والفلسفة والمهارة والحكمة شيئاً في تلك الرحلة ، بل تقف جميعها منطفئة الأضواء عند باب القبر).

ثالثاً الدين⁽¹²⁾ :

ويجمع لغة على أديان فدان ودنيا والديانة : خضع وذلل وأطاع .

والديانة هو اسم لجميع ما يعبد الإنسان سواء كان الله I أو غيره ، يقال قوم دين أي دائنون. بمعنى خاضعين.

وبمعنى آخر الدين هو مجموعة متساندة من الاعتقادات والأعمال المتعلقة بالأشياء المقدسة اعتقادات وأعمال تضم إتباعها في وحدة معنوية تسمى الملة⁽¹³⁾ .

ولكن ما نقصده هنا هو دين الإسلام وهو (نظام الحياة الصحيح المرضي عند الله : المبني على طاعة الله I)⁽¹⁴⁾ فيقول الله I : [إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ] سورة آل عمران : 19 ، ويقول I : [وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ] سورة آل عمران : 85 .

أما تعريف الدين اصطلاحاً :

فله عدة تعاريف: منها بأنه الأوامر والنواهي المثبوتة بالقرآن الكريم والسنة النبوية . وكما ذكر العالم بديع الزمان⁽¹⁵⁾: بأن الدين امتحان وأن التكليف الإلهية تجربة واختبار من أجل تسابق الأرواح العالية والأرواح السافلة ، ويتميز بعضها عن بعض في حلبة السباق ، وبمعنى آخر هو الشعور بواجباتنا من حيث كونها قائمة على أوامر إلهية أو هو محاولة تصور مالا يمكن تصوره والتعبير عما لا يمكن التعبير عنه وهو التطلع إلى اللانهائي وهو حب الله.

رابعاً الفرد :

ويجمع لغوياً على أفراد وهو الإنسان⁽¹⁶⁾ الذي له حراك داخل المجتمع أو هو موقف للفرد أن يتميز عن الجماعة⁽¹⁷⁾ .

أما تعريف الفرد اصطلاحاً:

فهو الإنسان الذي يعيش على هذه الأرض والمكلف أي الذي بلغ سن التكليف كما حدده الشارع لكي يتحمل المسؤولية من أوامر ونواهي. لقوله تعالى : [وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ] سورة محمد : 17 وقوله Y : [فَاسْتَقَمَّ كَمَا أُمِرَتْ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ] سورة هود : 112 وقوله Y : [كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِيْنَةٌ] سورة المدثر : 38 وقوله Y : [يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا] سورة النحل : 111 وقوله Y : [وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى] سورة فاطر : 18

خامساً المجتمع :

في اللغة هو مكان الاجتماع وجماعة من الناس يعيشون في بقعة من الأرض ويتعارفون ويتجانسون في علاقات اجتماعية ودينية ودينية⁽¹⁸⁾ ومعنى آخر المجتمع هو مجموعة من الأفراد تقطن على بقعة جغرافية محددة من الناحية السياسية ومعترف بها ولها مجموعة من العادات والتقاليد والمقاييس والقيم والأحكام الاجتماعية والأهداف المشتركة المتبادلة التي أساسها الدين واللغة والتاريخ والعنصر⁽¹⁹⁾.

أما المجتمع اصطلاحاً⁽²⁰⁾:

فنعني به المجتمع الإسلامي ذلك الذي يعيش تحت ظلال كلمة لا إله إلا الله ويطبق أحكام الإسلام وهذا ما يطلق عليه المجتمع المسلم. أما المجتمع غير المسلم فهو الذي لا يعتقد بلا إله إلا الله ولا يطبق أحكام الله .

المبحث الثاني

تأثير الأخلاق والعلم والدين في الفرد والمجتمع

عرفنا أن الأخلاق والعلم والدين محاور أساسية في حياة الأفراد والأمم والشعوب وان الإنسان لا يكون مكرماً إلا إذا دان بالدين الذي ارتضاه خالقه له. وهو الإسلام وتعلم بالعلم الذي به يقيم أمر الله بالأرض وتخلق بالأخلاق الربانية التي تعلمها من ربه ومالم فلا فرق بينه وبين الحيوان. فالذي يخرج عن هذه المنظومة يكون أضل من الحيوان لقوله تعالى : [أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ] سورة الأعراف : 179 .

وعلينا هنا أن نوجز أثر هذه المحاور الثلاثة (الأخلاق - العلم - الدين) في حياة الأفراد والمجتمعات معاً وسنتحدث عن ذلك في مطلبين.

المطلب الأول

تأثير الأخلاق والعلم والدين في الفرد

أولاً تأثير الأخلاق :

الإنسان مطبوع مجبول على قبول الخلق ولا يتم إلا بالتأديب والتعليم⁽²¹⁾ ولهذا كان عليه الصلاة والسلام خلقه القرآن كما قالت عنه زوجته عائشة بنت الصديق رضي الله عنهما⁽²²⁾.

لذلك فللأخلاق تأثير في الفرد وإذا لم تتحقق الصفات الخلقية فيه فإنه سيعيش عيشة ضنكا وهذا قائم على النية⁽²³⁾.

كما ذكر العالم والمفكر بديع الزمان⁽²⁴⁾ بقوله إن النية إكسير عجيب تقلب بخاصيتها العادات الترابية والحركات الرملية (أي العادات الأرضية) إلى جوهر العبادة وكذا هي روح نافذة تحيا بها الحالات الميتة فتصير عبادات حيوية وكذا فيها خاصية تقلب السيئات حسنات .

وعناصر التأثير هي : العادة ، البيئة والوراثة. وهذه جميعها لا بد من إخضاعها لأحكام الإسلام ، وإلا تصبح عوائق تمنع مضي الفرد في التحلي بصفات الأخلاق المنبثقة من دين الله. لقول النبي ρ : [أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً]⁽²⁵⁾.

وهناك أحاديث كثيرة تحت الفرد على أن يسلك السلوك القويم منها قول النبي ρ : [ثلاث من لم تكن فيه أو واحدة منهن فلا تعتد بشيء من عمله : تقوى تحجزه عن معاصي الله ، أو حلم يكف به السفه ، أو خلق يعيish به في الناس]⁽²⁶⁾.

ثانياً تأثير العلم :

إن في العلم فوائد عدة على الفرد فإذا لم يعلم بما يجب عليه وماذا يترك وماذا يعمل فإنه بالتأكيد سيدخل دائرة الجهل مما يؤدي به إلى الضلال والتمرد المقيت.

إذا العلم لا بد من الإحاطة به لمعرفة أحكام الله وتنفيذها لكي يسعد الفرد ويسعد المجتمع⁽²⁷⁾.

قال الرسول ρ : [العالم والمتعلم شريكان في الخير ولا خير في سائر الناس]⁽²⁸⁾

وروي عن رسول الله ρ : [فضل العالم على العابد سبعون درجة ما بين كل درجتين حضر الفرس سبعين عاماً وذلك لأن الشيطان يبدع البدعة للناس فيبصرها العالم فينهي عنها والعابد مقبل على عبادة ربه لا يتوجه لها ولا يعرفها]⁽²⁹⁾.

ثالثاً تأثير الدين :

ذكر العالم والمفكر بديع الزمان⁽³⁰⁾ في رسائله (الكلمات) إن الفرد لا يشعر بالسعادة التامة إلا إذا كان مؤمناً بالغيب وذكر عدة قصص ليدلل على ما يقول: بأن الرجل الرباني العابد لله والباحث عن الحق فقد كان ذا أخلاق حسنة بحيث لقي في رحلته مملكة طيبة هي في نظره في منتهى الروعة والجمال. بعكس الرجل الطالح فلا يشعر بهذا الشعور وإنما يشعر به الفرد المؤمن الخاضع لله ليس غيره .

ومن هذا المنطلق فإن (نظرية العالم والمفكر بديع الزمان سعيد النورسي في تربية الإنسان المسلم تربية إسلامية صحيحة نابعة من تأسيه بسيرة النبي ρ حين وضع بذرة الإيمان الأولى في أعماق نفس الإنسان فصادفت التربة الصالحة فنمت وأثمرت واستطاع أفراد كانوا يعدون على أصابع اليد في أول الأمر أن يكونوا نواة لدين إسلامي حنيف عم الخافقين)⁽³¹⁾

المطلب الثاني

تأثير الأخلاق والعلم والدين في المجتمع

أولاً تأثير الأخلاق :

إن للأخلاق الفاضلة دوراً في حياة البشر بل إن توفر الأخلاق في حياة أي تجمع بشري فإنه في هذه الحالة سيعيش عيشة طيبة وهذا يظهر من قول رسول الله ρ وهو يحدد هدف الرسالة التي جاء بها من عند الله Y : [إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق]⁽³²⁾ ولذلك كان رسول الله ρ هو أول متحل بهذه الأخلاق فقد سئلت السيدة عائشة رضي الله عنها عن خلق الرسول ρ فقالت : [كان خلقه القرآن]⁽³³⁾ .

ومن ثم اقتدى به صحابته رضوان الله عليهم لقول الله Y : [لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ] سورة الأحزاب : 21 وعندما ترقى الصحابة في الجانب الأخلاقي اقتدى بهم البشر وذلك من خلال التوسع في الفتوحات الإسلامية حيث دخل الناس في دين الله أفواجاً.

فقد ذكر العالم والمفكر بديع الزمان النورسي (إن الأخلاق القرآنية قد رفعت ذلكم المقدس وجملته حين ضمت إليه فصولاً كاملة الجدة رائعة التقدم جمعت إلى الأبد العمل الأخلاقي)⁽³⁴⁾.

فالأخلاق الإسلامية ربانية المصدر فهي ليست رأياً بشرياً ولا نظاماً وضعياً وإنما هي مستمدة من شرع رب البشر سواء منها ما أثبتته الشرع ابتداءً أو أقره مما قد تعارف عليه الناس وما لم ينص عليه الشرع من محاسن الأخلاق فهي ربانية المصدر وربانية الهدف والغاية والقصد غير أن أصول الأخلاق وأمهاقها مستمدة من الشرع⁽³⁵⁾.

ثانياً تأثير العلم :

للعلم تأثير كبير في حياة أي أمة وأمة الإسلام على وجه الخصوص والرسول ρ عندما هاجر إلى المدينة حث صحابته على العلم وجعل تعليم مجموعة من المسلمين من قبل الأسرى فداءً له بدلاً عن المال⁽³⁶⁾.

وقبل هذا وذاك أنه لا يمكن العمل بأحكام الله إلا بالعلم وأول ما أنزل على النبي ρ [اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ] العلق : 1 ثم أقسم الله Y بالقلم لقوله تعالى: [ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ] القلم : 1 .

وهذا دليل على أهميته لأن كل الشرائع نزلت بصحف وكتب وأهم وسيلة للكتاب هي القلم ، والقلم أساس العلم وما من أمة لا تصعد بسلم العلم إلا وحدث لها الهوان والانكسار وهذا حدث في كثير من الأمم الغابرة وذلك عندما تتأخر في مجال العلوم تتأخر في كل مجالات حياتها⁽³⁷⁾.

وكما ذكر العالم والمفكر بديع الزمان⁽³⁸⁾ (إن تعليم الإنسان المالك لاستعداد جامع - علوماً كثيرة لا تحد ، وفنوناً كثيرة لا تحصى ، حتى تستغرق أنواع الكائنات ، فضلاً

عن تعليمه المعارف الكثيرة الشاملة لصفات الخالق الكريم وشئونه الحكيمة .. إن هذا التعليم هو الذي أهل الإنسان لينال أفضلية ، ليس على الملائكة وحدهم ، بل أيضاً على السموات والأرض والجبال ، في حمل الأمانة الكبرى) .

وذكر في القرآن الكريم : [إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا] سورة الأحزاب : 72 .

وذكر بيدع الزمان في موضع آخر قائلاً (فإن لم تكن سويداء القلب في فكره بيضاء ناصعة ، فحصىلة الدماغ لا تكون علماً ولا بصيرة ، فلا عقل دون قلب ، ولا يتنور الفكر من دون ضياء القلب ، فإن لم يمتزج ذلك النور وهذا الضياء ، فالفكر ظلام دامس يتفجر منه الظلم والجهل)⁽³⁹⁾ .

قال رسول الله ﷺ : [الناس معادن كمعادن الذهب والفضة ، فخيرهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا]⁽⁴⁰⁾ .

وعن معاذ بن جبل ؓ قال : (تعلموا العلم فإن تعلمه لله خشية ، وطلبه عبادة ، ومذاكرته تسبيح ، والبحث عنه جهاد ، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة ، وبذله لأهله قرينة ، لأنه معالم الحلال والحرام ومنار سبل أهل الجنة وهو الأنيس في الوحشة والصاحب في الغربة والمحدث في الخلوة والدليل على السراء والضراء والسلاح على الأعداء والزين عند الأخلاء يرفع الله به أقواماً فيجعلهم في الخير قادة وأئمة تقتص آثارهم ويقتدى بفعالهم وينتهي إلى رأيهم ترغب الملائكة في خلقتهم وبأجنتها تمسحهم ويستغفر لهم كل رطب ويابس وحيتان البحر وهوامه وسباع البر وأنعامه لأن العلم حياة القلوب من الجهل ومصايح الأبصار في الظلم يبلغ العبد بالعلم منازل الأخيار والدرجات العلى في الدنيا والآخرة ، التفكر فيه يعدل الصيام ، ومدارسته تعدل القيام به توصل الأرحام ، وبه يعرف الحلال من الحرام وهو إمام و العمل تابعه ، يلهمه السعداء ويحرمه الأشقياء)⁽⁴¹⁾ .

ثالثاً تأثير الدين :

كما ذكرنا في السابق فإن دين الله الذي ارتضاه للبشر هو الإسلام وهو محور حياة البشر لأن الله Y قال : [وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ] سورة الذاريات : 56 وما من نبي أو رسول إلا وأمر قومه بعبادة الله سبحانه وتعالى العبادة الحقه التي لا فيها شرك ولا فسق ولا فجور فما انتشر هذا الدين في أي مجتمع إلا وكان الفلاح والتقدم والنصر متحققاً في حياته كلها. وإذا ما تلاشى الدين من أي مجتمع حل به الويل والمهلك والثبور والذل والهوان .

نتائج وتوصيات

ونخلص إلى جملة من النتائج والتوصيات منها:

- 1- تبين أن هناك علاقة وثيقة بين الدين و العلم.
- 2- إن محور الأخذ بالدين و العلم هو الفرد و المجتمع .
- 3- إن الأخلاق هو القسم الرابع من الأحكام الإسلامية ولا بد من التحلي به .
- 4- إن أي مجتمع التزم بأحكام الإسلام عاش بسعادة و وئام وطمأنينة.
- 5- إن أي مجتمع لم يلتزم بأحكام الإسلام عاش بشقاء و يؤس و شقاق و معاص و فجور.
- 6- إن صلاح الأخلاق لا يكون إلا بصحة الدين فإذا صلح دين المرء صلح خلقه.
- 7- ندعو جميع إخواننا المسلمين على التحلي بالصفات الأخلاقية ليكتمل أمر هذا الدين في نفوسهم ويكونوا قدوة للغير في كل مجالات الحياة.

هذا وأسأل من الله التوفيق والسداد والصلاح

لكل فرد و مجتمع يريد رضا الله Y

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

المراجع

- 1- القرآن الكريم
* أحمد أمين :
- 2- كتاب الأخلاق موسوعة أحمد أمين الأدبية. دار الكتاب العربي. بيروت. لبنان. 1974م.
* أحمد محمود صبحي (الدكتور):
- 3- الفلسفة الأخلاقية في الفكر الإسلامي. دار المعارف. مصر. 1969م .
* أمانييل كانت :
- 4- تأسيس ميتافيزيقا الأخلاق. ترجمة الدكتور عبد الغفار مكاوي. الهيئة المصرية العامة للكتاب. 1980م. القاهرة .
* البخاري. أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبة البخاري الجعفي:
- 5- الأدب المفرد. يرويه عنه أحمد بن محمد بن الجليل البزار. 1980م. منشورات دار مكتبة الحياة. بيروت. لبنان .
* بديع الزمان سعيد النورسي :
- 6- كليات رسائل النور 6. المتنوى العربي النوري. ترجمة إحسان قاسم الصالحي. سوزلر. فرع القاهرة. ط1. 1415هـ-1995م .
- 7- كليات رسائل النور 1. الكلمات. ترجمة إحسان قاسم الصالحي. ط3. سوزلر. استانبول. 1419هـ-1998م .
- 8- كليات رسائل النور 7 . الملاحق. ترجمة إحسان قاسم الصالحي. ط3. القاهرة. شركة سوزلر. القاهرة .
* البناء. أحمد عبد الرحمن البناء :
- 9- الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني مع مختصر شرح بلوغ الأمان من أسرار الفتح الرباني. دار إحياء التراث العربي. بيروت. لبنان.
* جاكالين روس :
- 10- الفكر الأخلاقي المعاصر. عويدات للنشر والطباعة. بيروت. لبنان. ط1. 2001م .
* الجرجاني :
- 11- كتاب التعريفات. دار الكتب العلمية 155. بيروت 1403هـ - 1983م .
* ابن خلدون :
- 12- مقدمة ابن خلدون. دار الشعب. القاهرة. ط لجنة البيان العربي بتحقيق الأستاذ علي عبد الواحد وافي .
* دراز محمد عبد الله (الدكتور) :
- 13- دستور الأخلاق في القرآن. ترجمة الدكتور عبد الصبور شاهين. مؤسسة الرسالة. دار البحوث العلمية. الطبعة 6. بيروت. 1405هـ-1985م.
* دينكتي ميشيل :

- 14- معجم علم الاجتماع. ترجمة الدكتور إحسان محمد الحسن. دار الطليعة. بيروت .
* شفار تزمان :
- 15- الأخلاق البورجوازية. ترجمة محمود شعبان. دار دمشق للطباعة والنشر. مطبعة ابن خلدون.
دمشق. ط1. 1986م .
* عادل ضاهر (الدكتور) :
- 16- الأخلاق والعقل. دار الشروق للنشر والتوزيع. عمان. الأردن .
* عبد الحفي محمد قابيل (الدكتور) :
- 17- المذاهب الأخلاقية في الإسلام. دار الثقافة للنشر والتوزيع. القاهرة. 1984م.
* أبو علي أحمد بن مسكويه :
- 18- تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق. (ت 421هـ). ط 2. دار مكتبة الحياة. بيروت .
* الغزالي. أبو حامد محمد بن محمد :
- 19- خلق المسلم. طبعة متقنة منقحة .
- 20- إحياء علوم الدين. مطبعة الاستقامة. القاهرة .
* فريديك تيشة :
- 21- أصل الأخلاق وفصلها. ترجمة حسن قبيسي. ط 2. 1403هـ-1983م. بيروت .
* فؤاد أحرام البستاني :
- 22- منجد الطلاب. ط الرابعة. المطبعة الكاثوليكية. بيروت.
* مالك :
- 23- الموطأ. صححه ورقمه وخرج أحاديثه وعلق عليه محمد فؤاد عبد الباقي. كتاب الشعب .
* المبار كفوري. صفي الرحمن :
- 24- الرحيق المختوم. الطبعة الأولى. 1408هـ- 1988م. دار الكتب العلمية. بيروت. لبنان .
* مجموعة من العلماء :
- 25- المنجد في اللغة والإعلام . دار المشرق. بيروت. 1986م .
* محمد بيصار (الدكتور) :
- 26- العقيدة والأخلاق. دار الكتاب اللبناني. ط 4. 1973م .
* محمد التهامي:
- 27- النورسي أنوار لا تغيب. شركة سوزلر للنشر. القاهرة. الطبعة الأولى. 1418هـ -
1998م.
* محمد شفيق غربال :
- 28- الموسوعة العربية الميسرة. دار الشعب مؤسسة فرنكلين للطباعة والنشر. صورة طبق الأصل عن
1965م. القاهرة .
* محمد ممدوح على محمد العربي (الدكتور) :
- 29- الأخلاق والسياسة في الفكر الإسلامي والليبرالي والماركسي. الهيئة المصرية العامة للكتاب.
1992م. القاهرة .
* محمود الخزندار :

- 30- هذه أخلاقنا حين نكون مؤمنين حقاً. ط 3. 1418هـ-1997م. دار طيبة. السعودية .
* مراد وهبة :
- 31- مستقبل الأخلاق. دار الثقافة الجديدة. ط 1. 1994م. القاهرة.
* مقداد يالجن (الدكتور) :
- 32- التربية الأخلاقية الإسلامية. مكتبة الخانجي. مصر. ط 1. 1397هـ-1977م.
* المودودي :
- 33- أبو الأعلى. الأسس الأخلاقية للحركة الإسلامية. مؤسسة الرسالة. بيروت. 1402هـ-
1982م.
* النوي. محي الدين أبو زكريا يحيى بن شرف النوي :
- 34- شرح صحيح مسلم. المطبعة المصرية .

الهوامش

- (1) الجامع الصحيح . 7/1 .
(2) الغزالي . خلق المسلم . طبعة منقحة منقحة . 28 وما بعدها .
(3) المنجد ص 194 . قاموس المحيط للفيروز آبادي انظر كلمة الخلق فيه . لسان العرب لابن منظور .
ص 16 - سفار تزمان . الأخلاق البرجوازية . ص 187 - محمد بيبصار . العقيدة والأخلاق
ص 221-224 - الغزالي . خلق المسلم . ص 7 وما بعدها .
(4) محمد بيبصار . العقيدة والأخلاق 221-224 - أحمد أمين . كتاب الأخلاق . ص 11 ، 12 -
المودودي . أبو الأعلى . الأسس الأخلاقية للحركة الإسلامية ص 20 ، 21 - د/محمد العربي .
الأخلاق والسياسة . ص 21 - عبد الحميد قابيل . المذاهب الأخلاقية في الإسلام . ص 110 .
(5) المودودي . أبو الأعلى . الأسس الأخلاقية للحركة الإسلامية . دار الفكر . بيروت . ص 20 .
(6) المنجد في اللغة والإعلام . دار المشرق . بيروت . 1986م . ص 527 .
(7) المنجد في اللغة والإعلام . دار المشرق . بيروت . 1986م . ص 396 .
(8) الموسوعة العربية الميسرة . 1226 ، 1227 - بيدع الزمان النورسي . كليات رسائل النور . الكلمات
(1) . ص 29 وما بعدها وانظر 175 ، 270 ، 277 ، 303 ، 848 .
(9) الجرجاني . كتاب التعريفات . دار الكتب العلمية . بيروت . 1403هـ - 1983م . ص 155 .
(10) الغزالي . أبو حامد محمد بن محمد . إحياء علوم الدين . ج 1 . مطبعة الاستقامة . القاهرة . ص 39 .
(11) بيدع الزمان النورسي . الكلمات . الكلمة السابعة ص 29 .
(12) المنجد في اللغة والإعلام . دار المشرق . بيروت . 1986م . ص 231 - العقيدة والأخلاق . محمد
بيبصار . ص 86 ، 87 .
(13) الموسوعة العربية الميسرة 1226 ، 1227 .
(14) المودودي . أبو الأعلى . المصطلحات الأربعة . ط 6 . دار القلم . الكويت . 1397هـ - 1977م .
ص 129 .
(15) بيدع الزمان النورسي . كليات رسائل النور . الكلمات (1) . الكلمة السابعة ص 295 .
(16) المنجد في اللغة والإعلام . دار المشرق . بيروت . 1986م . ص 574 .
(17) جاكالين روس . الفكر الأخلاقي المعاصر . ص 16 .

- (18) فؤاد أكرام البستاني . منجد الطلاب . ط الرابعة . المطبعة الكاثوليكية . بيروت . ص 93 - أحمد أمين . كتاب الأخلاق . ص 17 .
- (19) دينكتي ميشيل . معجم علم الاجتماع . ترجمة / د.إحسان محمد الحسن . دار الطليعة . بيروت . ص 226 .
- (20) د/أحمد محمد صبحي . الفلسفة الأخلاقية في الفكر الإسلامي . ص 48 - سفار تزمان . الأخلاق البرجوازية . ترجمة محمود شعبان ص 48 - فريدريك نيتشة . أصل الأخلاق وفصلها . ترجمة حسن قبيسي ص 38 .
- (21) أبو علي أحمد بن مسكويه . تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق . (ت 421هـ) . ط 2 . دار مكتبة الحياة . بيروت . ص 51 .
- (22) رواه البخاري في الأدب المفرد ص 1980/66م . منشورات دار مكتبة الحياة . بيروت . لبنان . بدون مكان طبع - ورواه مسلم شرح النووي . كتاب صلاة المسافرين وقصرها . باب صلاة الليل ومن نام عنها أو مرض . ج 6 . ص 26- ورواه أحمد ابن حنبل . الفتح الرباني . تأليف أحمد عبد الرحمن البنا . كتاب السيرة . باب ما جاء في خلقه العظيم . ج 22 . ص 17 . رقم الحديث 650 . دار إحياء التراث العربي . بيروت . لبنان .
- (23) د/مقداد يالجن . الأخلاق الإسلامية . ص 46 وما بعدها .
- (24) بديع الزمان النورسي . المثنوى العربي النوري . ص 158 ، 159 .
- (25) أخرجه الترمذي برقم (1162) في الرضاع ، وأبو داود برقم (4682) في السنة وإسناده حسن وقال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح .
- (26) في مجمع الزوائد نحوه عن علي 24/8 ، انظر الأصبهاني ، أحمد بن محمد السلفي . انتقاء الحافظ أبي بكر . ص 29 ، 30 .
- (27) بديع الزمان النورسي . كليات رسائل النور . الكلمات (1) ص 198 ، 199 .
- (28) ابن ماجة . رقم الحديث (232) ج 1 . ص 83 ، انظر محمد الغزالي . خلق المسلم . ص 221 .
- (29) أخرجه الاصبهاني ، انظر محمد الغزالي . خلق المسلم . ص 216 - أخرجه ابن عدي من حديث أبي هريرة وأبي يعلى من حديث عبد الباري بن عوف ، انظر الإمام أبي حامد الغزالي . إحياء علوم الدين .
- (30) بديع الزمان النورسي . كليات رسائل النور . الكلمات (1) ص 9-11 ، 16 ، 17 ، 27 ، 30 ، 145 ، 208 ، 210 ، 473 ، 639 ، 640 ، 861 ، 878 .
- (31) محمد التهامي . النورسي أنوار لا تغيب . شركة سوزر للنشر . القاهرة . ط الأولى . 1418هـ - 1998م . ص 37 .
- (32) الإمام مالك . الموطأ . ج 2 . ص 904 .
- (33) سبق تخريجه .
- (34) دراز . دستور الأخلاق . ص 9 - بديع الزمان النورسي . المثنوى العربي النوري . ص 159 ، 183 ، 292 ، 362 ، 406 .
- (35) محمود الخزندار . هذه أخلاقنا حين نكون مؤمنين حقاً . ط 3 . 1418هـ . 1997م . دار طيبة . السعودية . ص 19 .
- (36) المباركفوري . صفى الرحمن . الرحيق المختوم . الطبعة الأولى . 1408هـ - 1988م . دار الكتب العلمية . بيروت . لبنان . ص 208 ، 209 .
- (37) بديع الزمان النورسي . كليات رسائل النور الكلمات (1) 178 ، وانظر 270 ، 277 ، 303 ، 355 ، 848 ، 852 ،

- (38) بيدع الزمان النورسي . كليات رسائل النور الكلمات (1) ص 270 .
(39) بيدع الزمان النورسي . كليات رسائل النور الكلمات (1) ص 848 .
(40) متفق عليه من حديث أبي هريرة ، انظر الإمام أبو حامد الغزالي . إحياء علوم الدين . ج 1 . ص 6 .
(41) ابن عبد البر . انظر محمد الغزالي . خلق المسلم . ص 220 .

الحوار الإسلامي الغربي : لقاء المتصارعين أم لقاء المتكاملين ؟ (دراسة مستوحاة من فكر الإمام بديع الزمان النورسي)

د. محمود أبو الهدى الحسيني
طبيب وباحث في العلوم الإنسانية
سورية

أولاً - التمهيد :

بدأ العالم يتحدث في الإسلام، لكن لا من وجه واحد، فحلا للبعض أن يصوره في صورة المهمجية والوحشية والإرهاب، وحلا للبعض الآخر أن يجعله ديناً من الأديان السماوية التي أذن الله تعالى للعالم اليوم بالعمل بها جميعاً ؛ ولإنسان أن يختار منها ما شاء ليعبد الله بأيٍّ منها من شرائع التوراة أو الإنجيل أو القرآن.

وبين الإفراط والتفريط تكمن الحقيقة التي تنتظر الدعاة ليقدموها متألفةً واضحةً على مطايا التعبير البالغ البليغ، بعيداً عن التنفير والتكدير، في ثياب تتناسب مع السامع الجديد، ومضمون يبيّن المراد المجيد، ولا بد في التمهيد لبحث الحوار الإسلامي الغربي المستمد من فكر الإمام النورسي رحمه الله من التنويه أولاً بأمرين اثنين :

- وجود التكامل الروحي المادي في حضارة الإسلام.

- كون التطور المادي الغربي يحقق أحد مطلبي الإسلام الإنسانيين.

1 - التكامل الروحي المادي في حضارة الإسلام :

منع الإسلام تقديم الدنيا على الآخرة، بقوله تعالى : (الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَعْنُونَهَا عَوَجًا أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ)¹، لكنه

امتدح الجمع بينهما في إطار الدين، قال تعالى : (وَمَنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ، أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا)²، وقال سبحانه : (وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا)³.

قال النورسي : (إن حقائق الإسلام تمتاز باستعدادها استعداداً كاملاً لدفع أهلها إلى مراقبي التقدم المادي والمعنوي معاً)⁴

وهكذا فإن الإسلام لم يكن لاهوتياً صرفاً ؛ بل كان دينَ الروح والمادة، اعتبر واحترام زينة الله التي أخرجها لعباده وجعل الإنسان مستخلفاً فيها ؛ ليوظفها أحسن توظيف، ويثمرها في معاملة الناس ونفعهم : (قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ)⁵.

1 - 1 - توظيف الإسلام زينة الله تعالى توظيفاً صالحاً بالعلوم :

بين الإسلام وبين العلوم الكونية علاقة لا تنفصل، بل إن الإسلام - كما يقول النورسي رحمه الله : هو (سيد العلوم ومرشدها ورئيس العلوم الحقة ووالدها..)⁶، وكيف لا (وأوائل أكثر الآيات القرآنية وخواتمها تحيل الإنسان إلى العقل قائله: راجع عقلك وفكرك أيها الإنسان..)⁷ وما أكثر ما يتكرر في القرآن قوله تعالى : (فاعلموا... فاعلموا... أفلا يعقلون... أفلا يتذكرون... أفلا يتدبرون... فاعتبروا يا أولي الأبصار..)⁸.

1 - 2 - دعوة الإسلام إلى ربط المال بالمقاصد الصالحة :

وجود المال يحقق الدعم المادي للبحث في العلوم، ويساعد على تطبيقاتها في الواقع، وهذا التوظيف للمال في دعم العلوم هو من أحسن توظيفات المال، قال النبي ﷺ : (نِعْمَ الْمَالُ الصَّالِحُ لِلْمَرْءِ الصَّالِحِ)⁹، وإذا حصل التطوير في المادة صار خادماً للدين وللدعوة إليه، قال النورسي رحمه الله : (نحب الدين ونحب الدنيا أيضاً لأجل الدين، ولا حير في الدنيا بلا دين)¹⁰.

1 - 3 - تحقيق الإسلام للتوازن بين جانبي المادة والروح :

فالإفراط والتفريط كلاهما في منظور الإسلام فاسد، (ومن توغل كثيراً في شيء

أدى به في الغالب إلى التغابي في غيره¹¹، (من توغل في الماديات تبدد في المعنويات وظل سطحياً فيها)¹² والعكس صحيح (وربما كان التفريط أكثر ضرراً إلا أن الإفراط أكثر ذنباً لأنه يسبب التفريط)¹³

2 - التطور المادي الغربي يحقق أحد مطلبي الإسلام الإنسانيين :

إن بناء الإنسان وتطوير الحضارات لا يتحقق - كما تقدم - إلا بشطري المادة والروح، أو كما يقرر النورسي (بتكامل المبادئ، واكتمال الوسائل)¹⁴ (وفي العالم ميل للاستكمال وبه يتبع قانون التكامل)¹⁵.

وهما مطلبان إنسانيان إسلاميان.

وقد اقترب الغرب من أحدهما وهو اكتمال الوسائل وبقي أن تكتمل المبادئ فيه كما اكتملت الوسائل ليكون الترقى حاصلاً فيه بحقيقته لا بصورته الزائفة.

وذلك التقدم المادي الغربي في الوسائل راجع - كما يرى النورسي - إلى صفات في الشعوب الغربية لا سيما الأوروبية منها وهي :

- 1 - التأني في أخذ كل شيء أو تركه.
- 2 - والصلابة في الأمر التي هي من شأن برودة بلادهم.
- 3 - ونمو الفكر والمعرفة.
- 4 - والتوجه إلى الصناعة لكثرة السكان وضيق المكان والمساكن.
- 5 - والتعاون والتتبع الحاصلان من وجود الوسائط المساعدة كالبحر والمعادن وأمثالها¹⁶.

لكن ذلك التعاون لا يؤثر إلا في الجانب المادي (أو جانب الوسائل)، أما المبادئ فإنها ليست ناتج تعاون تراكمي؛ فهي منطلقات سمو وثوابت فضيلة، والفرد والجماعة فيها سواء¹⁷، لذلك لم يكن التعاون سبباً لتكامل المبادئ في الغرب.

ولم تأت المدارس الأخلاقية والأفكار الفلسفية بالمبادئ واضحة متألفة واقعية كما أتت بها العلوم الإلهية التي بلغها الرسل للناس عن الله تعالى، وكان حاتمهم وإمامهم رسول الإسلام محمد^ﷺ.

لكن الغرب يعاني من معضلات إنسانية خلقية، ويشعر بالحاجة الشديدة إلى المبادئ

التي تنشرها الأرواح، وهو بذلك كالظامئ للإسلام من غير أن يعلم عن ذلك الذي سيروي ضمأه إلا القليل القليل .

وقال النورسي : (إن أوروبا وأمريكا حبالى بالإسلام وستلدان يوماً ما دولة إسلامية)¹⁸ .

والذي سيساعدُ في وصول الغرب إلى الحقيقة الإسلامية تغلبُ مساوي مدنيته على محاسنها، تلك المساوي التي بثت الفوضى الخلقية فيه وأرهقت حضارته.¹⁹

وقد فسح المجال فيه للسفاهة ؛ وتلبية شهوات النفس واستبعد كون الدين والفضيلة دستوراً للمدينة²⁰ .

وتوهم الغرب أن كل دين يُوجدُ بينه وبين العلوم تناقضٌ وتصادمٌ، وتوهموا أن الأمر هو كذلك في دين الإسلام²¹ .

وظهرَ تباينٌ اجتماعيٌ رهيبٌ في الحياة المعاشية بسبب فقدان التراحم الناجم عن حب الشهوات ومجافة الدين²² .

ورأى النورسي أن الزكاة التي هي مسألة واحدة من ألف من مسائل حقيقة الإسلام لو صارت دستور المدينة وأساس التعاون فيها فستكون دواءً ناجعاً وترياقاً شافياً للتباين الفظيع في الحياة المعاشية الذي هو جحر الحيات و السم الزعاف والبلاء المدمر²³ .

وقد زاد الطين بلة أن تلك الفوضى ولدت - كما رأى النورسي - كثيراً من المنظمات الفوضوية وهيئات الإفساد والإضلال²⁴ .

ولم تتوقف تلك الفوضى عند حدود البلاد الغربية بل سعى الغرب إلى نشرها في بلاد العالم باسم القانون الدولي، فنشر من خلاله اتفاقيات تتنافى مع التربية الإنسانية الخلقية السليمة، ومن الأمثلة بنود وثيقة حقوق الطفل التي نشرتها في العالم منظمة (اليونيسيف) فقيدت الوالدين ومنعتهما من حق التربية لطفلهما وفسحت المجال لممارسات المراهقين السلوكية الشاذة باسم الحرية، ومن الأمثلة على تلك الفوضى التي تعدت حدود الغرب إلى العالم (حق الفيتو) في مجلس الأمن الذي يميز بين الشعوب، ويعطي للدول القوية سلطة تشريعية لا تملكها الدول الأضعف، ولو كان تعداد مجموعها يصل إلى المليارات، وكم أصدر مجلس الأمن الدولي قرارات ظالمة لم يكن مضمونها إلا دعم مصالح الأقوياء

على حساب شعوب العالم المضطهدة، كالقرارات الصادرة في حق الفلسطينيين والعراقيين.

قال النورسي : (نشاهد أن هذه المدينة المشؤومة قد أعطت البشرية دستوراً ظالماً غداراً بحيث يزيل جميع حسناتها ويبين السر في قلق الملائكة الكرام لدى استفسارهم " أيجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء " إذ لو وجد خائنٌ عاصٍ واحدٌ في جماعة فهي تقضي بالقضاء على تلك الجماعة مع أفرادها وعوائلها وأطفالها) . . . (وهكذا تحكّم هذه المدينة بوحشية رهيبية) (فلئن كان المرء لا يؤاخذ حتى بجريرة أخيه فكيف تدان ألوف الأبرياء في قسبة أو في جماعة لوجود مخرب واحد فيها علماً أنه لا تخلو مدينة أو جماعة منهم)²⁵ .

وقال أيضاً : (لما كانت مدينة أوربا لم تتأسس على الفضيلة والهدى بل على الهوس والهوى وعلى الحسد والتحكّم تغلبت سيئات هذه المدينة على حسناتها إلى الآن وأصبحت كشجرة منخورة بديدان المنظمات . . .)²⁶

ومن مفردات الفوضى في المدينة الغربية الجديدة ما يلعبه الإعلام من قلب الحقائق وتقريب المسافة بين الكذب والصدق سعياً وراء المصالح العديدة السياسية والعسكرية.

يقول النورسي رحمه الله واصفاً تلك الفوضى : (... تقاربت المسافة بين الصدق والكذب بل أعطت الدعايات السياسية أحياناً رواجاً أكثر للكذب فبرز الكذب والفساد في الميدان وأصبح لهما المجال إلى حد ما . .)²⁷

(على أن قصدنا من مدينة الغرب هو محاسنها وجوانبها النافعة للبشرية وليس ذنوبها وسيئاتها، كما ظن بعض الحمقى من الناس أن تلك السيئات محاسن فقلدوها وخرّبوا الديار فقدموا الدين رشوة للحصول على الدنيا فما حصلوا عليها ولا حصلوا على شيء)²⁸ .

ثانياً - البحث :

1 - أزمة التخلف في العالم الإسلامي وأثرها على الحوار الإسلامي الغربي :

ما يكاد يدعو المسلم إلى الإسلام حتى يقول الآخرون له : لا جدوى من هذا الدين بعدما تغير العالم إلى شكله الجديد الذي تفوقت فيه العلمانية تفوقاً مادياً كبيراً، ثم يدللون

على دعواهم بالقول : إن أتباع الإسلام يمثلون اليوم العالم المتخلف، ويزعمون أن الإسلام مرحلة تاريخية قد انتهت دورها، وينبغي أن يكون دور الإسلام في المرحلة الجديدة منحصراً في تهذيب النفوس بالصلاة والصيام والطقوس العبادية داخل المسجد.

ومما لا شك فيه أن واقع بلاد الإسلام اليوم يمثل نكسة في الحوار مع الغرب، فقد تأرجح هذا العالم بين الغنائية التي صلتها بالإسلام خيط عنكبوت ؛ وبين الروحانية التي لا تجد لها طريقاً إلى الصورة الواقعية الحضارية على الأرض.

وأفراد علمنا نوعان في الغالب :

إما أصحاب أعمال صورية هشيمة لا نتيجة لها في الغالب، كثيرة حركاتها، قليلة بركاتهما، تحركوا على أرض الواقع لكن بسطحية وفوضوية وانفعالية مجردة عن عمق النظر ورؤية المستقبل، وألقوا تبعات التخلف كلها على الأجنبي²⁹.

وإما أصحاب روحانية آثرت الانعزال عن الواقع واستأنست بروائع التاريخ، ورأت في الزمان ظرفاً ليس فيه إلا الفتنة والفساد، وتوهمت أن الوقت قد حان لبعض المؤمنين فيه على جذع شجرة مبتعداً عن الفتن وأهلها، وأولوا أحاديث الفتن الواردة في كتب السنن على أنها قد وقعت في هذا الزمان، وما علموا أن حركة الدعوة على الأرض ما تزال في سيرها إلى الظهور والانتشار حتى تبلغ - كما أخبر النبي الصادق المصدوق - ما يبلغ الليل والنهار.

1 - 1 - الأسباب الكبرى لتخلف علمنا الإسلامي :

رأى النورسي رحمه الله أسباباً لتخلف علمنا الإسلامي وتردّيه :

1 - 1 - 1 - جهل أكثر الناس في علمنا بمحقات الشريعة الإسلامية³⁰.

وسببه باعتقادي :

أ - فقدان أسباب المعرفة :

بسبب إهمال الأفراد للتعلم والبحث تكاسلاً أو زهداً فيه، أو بسبب تقصير الدعاة وطلبة العلم في نشر المعرفة بجميع وسائل نشرها.

ب - تبني الأوهام كبديل عن العلوم :

قال النورسي رحمه الله : (إذا وقع المجاز من يد العلم إلى يد الجهل ينقلب إلى حقيقة ويفتح الباب للخرافات. .. إذ المجازات والتشبيهات إذا ما اقتطفتها يسار الجهل المظلم من يمين العلم المنور أو استمرت وطال عمرهما انقلبنا إلى حقيقة مستفرغة من الطراوة والنداوة فتصير سراباً خادعاً بعدما كانت شراباً زلالاً وتصبح عجوزاً شمطاء بعدما كانت فاتنة حسناء، ومما أطلعني على هذه الحقيقة ودلني عليها هو حدوث خسوف القمر زمن صباي إذ سألت والدتي عنه فأجابت : لقد ابتلع الثعبان القمر فقلت فلم يشاهد القمر ؟ قالت إن ثعابين السماء شبه شفافة)³¹.

وقال أيضاً : (إن دخول طائفة من الإسرائيليات وقسم من الفلسفة اليونانية ضمن دائرة الإسلام وظهورها بزي الدين الجميل شوشت الأفكار)³².

ج - تبني الوعاظ ما لا يصح من الرواية :

فقد نشر بعض المشتغلين بالوعظ نصوصاً موضوعةً بنية حسنة على القاعدة الفاسدة التي تقول : (نكذبُ لرسول الله ولا نكذب عليه)، وتنقلب تلك النصوص عند العامة إلى حقائق ثابتة فلا يبقى من المعرفة لديهم إلا خيوط عنكبوت.

يقول النورسي : (إن إسناد قسم من الأحاديث الموضوعة إلى ابن عباس رضي الله عنهما وأمثاله من الصحابة الكرام لأجل الترغيب أو الترهيب إثارة للعوام وحضاً لهم إنما هو جهل عظيم . . . نعم إن الحق مستغن عن هذا، والحقيقة غنية عنه فنورهما كافيان لإنارة القلوب، تسعنا الأحاديث الصحيحة المفسرة للقرآن الكريم، ونثق بها، ونطمئن إلى التواريخ الصحيحة الموزونة بميزان المنطق)³³ (إن حبة من حقيقة تفضل بيدرأ من الخيالات)³⁴ (والمبالغة تشوش الأمور وتبلبلها لأن من سجايا البشر : مزج الخيال بالحقيقة بميل إلى الاستزادة في الكلام فيما التذ به، والرغبة في إطلاق الكلام جزافاً فيما يصف، والانجذاب إلى المبالغة فيما يحكى، وبهذه السجية السيئة يكون الإحسان كالإفساد، ومن حيث لا يعلم يتولد النقصان من حيث يزيد، وينجم الفساد من حيث يصلح، وينشأ الدم من حيث المدح، ويتولد القبح من حيث يحسن، وذلك لإخلاله من حيث لا يشعر بالحسن الناشئ من الانسجام والموازنة في المقاصد)³⁵ (والصديق الجاهل يمكنه أن يضر الدين بمثل ما يضر به العدو)³⁶.

1 - 1 - 2 - الضرورة والفقر :

وقد قادا - مع الأسف - إلى الشذوذ السلوكي في أمتنا وفساد أخلاقها³⁷،
فانتشرت الرشوة والسرقة والغش والاحتكار وغير ذلك من المفاسد فيها.

وقليل من يثبت على الاستقامة عند الضرورة والفقر، وعلمنا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ نَقُولَ : (اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْفَقْرِ وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْقَلَّةِ وَالذَّلَّةِ)³⁸.

على أن المسلم الذي ينهل من معين الإسلام الصافي لا ينحرف بسبب تلك
الضرورة، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : (بِئْسَ الْعَبْدُ عَبْدٌ طَمَعَ يَقُودُهُ، بِئْسَ الْعَبْدُ عَبْدٌ هَوَى
يُضِلُّهُ، بِئْسَ الْعَبْدُ عَبْدٌ رَغِبَ يُذِلُّهُ)³⁹.

1 - 1 - 3 - الاختلاف :

وقد أنتجت ذلك الخلاف - كما بين النورسي - الأغراض الشخصية الخاصة
والمآرب النفسانية الضيقة، ولتحصيلها انتشر النفاق، وانتفى الوفاق⁴⁰.

1 - 2 - الأمراض الكبرى في عالمنا الإسلامي :

يرى النورسي رحمه الله أن من أمراضنا الكبرى :

1 - 2 - 1 - حياة اليأس :

(وهو الداء العضال للأمم والشعوب الشبيه بالسرطان، المانع عن بلوغ الكمالات،
المخالف لروح الحديث القدسي الشريف (أنا عند ظن عبدي بي)، وهو الداء القاتل
الذي دب في صميم العالم الإسلامي وأوقعنا صرعى و قتل فينا الخصال الحميدة، وأمات
فيها الروح المعنوية التي بها استطاع المسلمون أن يسيطروا سلطانهم على مشارق الأرض
ومغارها بقوة ضئيلة فلما ماتت تلك القوة المعنوية الخارقة باليأس تمكّن الأجنبي
منها)⁴¹.

(بل قد أصبح الواحد بسبب هذا اليأس يتخذ من فتور الآخرين وعدم مبالاهم
ذريعة للتملص من المسؤولية ويخلد إلى الكسل قائلاً : " مالي وللناس فكل الناس خائرون
مثلي"، فيتخلى عن الشهامة الإيمانية ويترك العمل الجاد للإسلام)⁴².

(ولا بد للأمم من ضرب رأس ذلك اليأس بسيف الآية الكريمة: " لا تقنطوا من

رحمة الله "، وقصم ظهره بحقيقة أن " مالا يدرك كله لا يترك جله " ⁴³ .

(وأمام أهل الإيمان الأسباب القوية والوسائل القويمة للرقى المادي والمعنوي، والطريق السوي الممهد كسكة الحديد للوصول إلى السعادة في المستقبل، وعلينا أن لا نياس وأن لا نثبط روح العالم الإسلامي المعنوية، وعلينا أن لا نظن ظن السوء: أن الدنيا دار ترق وتقدم للأجانب وللجميع بينما أصبحت دار تدن وتأخر للمسلمين المساكين وحدهم) ⁴⁴ .

1 - 2 - 2 - موت الصدق :

(والصدق - كما يرى النورسي - هو عقدة الحياة في حياة الإسلام الاجتماعية، أما الرياء فهو نوع من الكذب الفعلي، وأما المداهنة والتصنيع فهو كذب دنيء مرذول، وأما النفاق فهو كذب ضار جداً) ⁴⁵ .

1 - 2 - 3 - حب العداوة :

يقول النورسي : (إن صفة العداوة والبغضاء التي هي عامل تدمير الحياة الاجتماعية وهدمها هي أقبح صفة وأضرها وأجدر أن تتجنب وينفر منها) ⁴⁶ .

1 - 2 - 4 - الغفلة عن روابط الأمة الإيمانية النورانية :

(وأسباب المحبة الإيمان والإسلام والإنسانية، وأمثالها من السلاسل النورانية المتينة والحصون المعنوية المنيعه) (والود والمحبة والأخوة من طباع الإسلام وروابطه) ⁴⁷ .
وحين تغفل الأمة عن تلك الروابط فسوف تبقى ضعيفة مفككة.

وزيادة على الأثر السيء الذي ينتجه تخلف واقعنا على حوارنا مع الغرب، فإنني أرى أن العالم الإسلامي قد أصيب بضرر كبير بسبب بعض العمليات التخريبية التي قام بها بعض الانفعاليين من المسلمين في بلاد الغرب، وجدير بنا في هذا المقام أن نقرأ كلمات النورسي الآتية:

(.. في زماننا هذا ولاسيما بعد أربعين أو خمسين سنة ليس المسيء هو وحده المسؤول عن سيئته بل تتضرر الأمة الإسلامية بملاينها بتلك السيئة وستظهر أمثلة هذه الحقيقة بكثرة بعد أربعين أو خمسين سنة) (وإذا ارتكب فرد في عشيرة ما جريمة فلإن

عشيرته بأسرها تكون مسؤولة ومتهمّة في نظر العشيرة الأخرى، وكان كل فرد من تلك العشيرة هو الذي قد ارتكب الجريمة فتلك الجريمة قد أصبحت بمثابة الألوّف منها) ⁴⁸.

لكنّ الغرب - مع الأسف - عمّم الحكم على الإسلام والمسلمين من خلال بعض الظواهر الشاذة التي لا تعبر عن مجموع المسلمين، (ترى لو وجدت نقود مزيفة في كنز أدخلت إليه من الخارج ؛ أو لو شوهد تفاح فاسد سقط إلى بستان من غيره أمن الحق والإنصاف عدُّ الكنز كلّ مزيفاً أو البستان كلّ فاسداً) ⁴⁹.

2 - المستقبل الغربي الإسلامي :

تقدم قول النورسي رحمه الله : (إن أوروبا وأمريكا حبالى بالإسلام وستلدان يوماً ما دولة إسلامية) ⁵⁰، وإن وجود الأمل هذا في قلوب الدعاة كفيل بمحو العداوة القديمة التاريخية التي سببتها ممارسات خاطئة كمحاكم التفتيش الإسبانية، والحروب الصليبية التي اتخذت من المسيحية مطية لأغراضها المادية ومضامين المسيحية منها بريئة.

هذا الأمل في قلوب الدعاة يضع في تصوراتهم أخوة مستقبل قريب مع الغرب المسيحي، ويستطيعون عندها فهم عبارة النورسي : (الأجانب ليسوا أعداءنا) ⁵¹.

2 - 1 - موانع انتشار الإسلام في الغرب :

ما تزال مسافة من العوائق تمنع الكثير من الغربيين من أن يتعرفوا إلى الإسلام ويفهموه، وما تزال بعض الموانع تمنعهم من قبوله.

ومن أكبر الموانع التي أشار إليها النورسي رحمه الله :

- الجهل بحقيقة الإسلام.

- التقليد الأعمى لرجال الدين.

- توهم التناقض بين الإسلام والعلم. ⁵²

2 - 1 - 1 - الجهل بحقيقة الإسلام :

والإنسان عدو ما يجهل، وبانعدام التعريف الصحيح للإسلام عبر الوسائل المتنوعة؛ انعدمت المعرفة به عند الكثيرين، وكان للوسائل الإعلامية والفنية المتنوعة التي تهيمن عليها المؤسسات الانحلالية والمادية والصهيونية دورٌ في إشغال الفرد الغربي إشغالاً يبعدة

عن مقاصد إنسانيته ومطالبها التي تطلب المنجد والمنقذ الذي ليس في العالم كله من يقوم بدوره كالإسلام، ولم يستطع المسلمون لأسباب عديدة الدخول بقوة إلى تلك الوسائل، فانعدم التعريف القوي بالإسلام وبقيت الجهالة به مسيطرة على أكثر الغربيين.

2 - 1 - 2 - التقليد الأعمى لرجال الدين :

لا ينكر متأمل أن الغرب المسيحي مع زهده في دينه على مستوى سلوكياته العملية والعلمية والسياسية ؛ بقي مرتبطاً ارتباطاً عاطفياً شعورياً بدينه وبرجاله، وبقيت الرمزية والقدسية له ولرجالها حاضرة في النفوس، ومن هنا فإن كثيراً من الشعوب ما تزال تصغي بقوة إلى كلمة رجال الكنيسة من غير تأمل، وأقرب مثال حاضر تأثير كلمة الكنيسة على القبارصة اليونان لرفض الوحدة مع جيرانهم القبارصة الأتراك.

إن اللادينية التي انتشرت في الغرب في الأزمنة الحاضرة لم تلغ الأثر الشعوري الكبير للكنائس في تلك الشعوب، على أن (انتشار حرية الفكر وميل النوع البشري إلى البحث)⁵³ بدأ يترك مساحة كبيرة للتفكير الحر البعيد عن التقليد، والإسلام كما هو معلوم يُقدّم ثقافةً خادمةً للتطور ولا يشكل خطراً سياسياً، إنه يدعو الإنسان إلى إنسانيته دون أن يسلبه خصوصيته القومية أو الحضارية أو التراثية، فهو يقدم زيادة خير من غير أن يسلب الإنسان حقاً من حقوقه، وقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : (تَلَاثَةٌ لَهُمْ أَجْرَانِ) منهم (رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنَ بِنَبِيِّهِ وَآمَنَ بِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ).. الحديث⁵⁴.

2 - 1 - 3 - توهم التناقض بين الإسلام والعلم :

حين رفضت أوربة دخول دينها القديم في الحياة الجديدة فلأنها وقعت في تناقضات وصراعات بين كنيستها وباحثيها في العلم والتجربة والاستقراء الكوني، وقاست بعد ذلك على هذا كُلاً دين، وكان نظر الكثيرين منها إلى الإسلام يجول في حدود ذلك.

على أن ذلك لم يمنع تفتُّن بعض المتنورين الغربيين إلى ما يوجد في الإسلام من الحقيقة المنتظرة المنقذة للإنسانية من تحبطها، ومنهم الأمير بسمارك - الذي أشار إليه النورسي - (والذي يعتبر من أشهر رجال الفكر في تاريخ أوربة الحديث - ونقل عنه قوله - : لقد درستُ الكتب السماوية بإمعان فلم أجد فيها الحكمة الحقيقية التي تكفل سعادة البشرية وذلك للتحريف الذي حصل فيها ولكنني وجدت قرآن محمد صلى الله

عليه وسلم يعلو على سائر الكتب، وقد وجدت في كل كلمة منه حكمة وليس هناك كتاب يحقق سعادة البشرية مثله ولا يمكن أن يكون كتاب كهذا من كلام البشر فالذين يدعون أن هذه الأقوال أقوال محمد صلى الله عليه وسلم يكابرون الحق وينكرون الضرورات العلمية أي أن كون القرآن كلام الله أمر بديهي⁵⁵.

(وظهرت مؤلفات قيّمة لعلماء الإسلام تبيّن الانسجام والتوافق التام بين الإسلام والعلم الحديث)⁵⁶، فكان لها دورٌ في إزاحة الستار عن بعض الحقائق الغائبة عن الأذهان هناك.

2 - 2 - حاجة الغرب إلى الإسلام :

قال النورسي متعجباً ممن لا ينصف الإسلام مع حاجته الذاتية إليه : (أعداء الدين الذين يبخسون الإسلام حقه يستحقون لقب " الصديق الأحمق ")⁵⁷، إنه مع كونه لم يهتد إلى سبب رشاده الأكبر لكنه يبقى باعتبار إنسانيته صديقاً وليس بعدو.

وقرر النورسي أن الأصل في الكون هو الخير لا الشر وذلك بقوله : (لقد تحقق لدى العقول الصحيحة : أن الخير هو الأصل في العالم أما الشر فهو تبعية فالخير كلي والشر جزئي)⁵⁸ وقال : (فقد ثبت بشهادة العلوم جميعها وبتصديق الاستقراء التام الناشئ من نظر الحكمة : أن الحسن والخير والحق والكمال هو المقصود بالذات . . في خلق العالم أما الشر والقيح والباطل فهي أمور تبعية ومغلوبة ومغمورة وحتى لو كانت لها الصولة فهي صولة مؤقتة)⁵⁹.

وبتقرر ذلك فلن ينظر الدعاة إلى الشر القابع في سلوكيات بعض الإدارات الغربية الشاذة إلا على أنه يمثل تلك الصولة المؤقتة، أما الحقيقة والفضيلة والعدالة فسيبقى سلطانها إلى الأبد قوياً ولو كمن، ومجلاً ولو ضعفاً.

3 - وسائل الحوار الإسلامي الغربي :

3 - 1 - انتظار الغرب لمنقذ إنساني يسهل الحوار :

(لقد بدأت قارات العالم ودوله . وبظهور الإلحاد تدرك الحاجة البشرية الشديدة إلى الدين)⁶⁰، (وأخذت البشرية تصحو وتتيقظ بنتائج العلوم والفنون الحديثة، وأدركت كنه الإنسانية وماهيتها، وتيقنت أنه لا يمكنها أن تعيش هماً بغير دين، بل حتى أشد الناس إلحاداً وتنكراً للدين مضطر إلى أن يلجأ إلى الدين في آخر المطاف لأن : (نقطة

استناد) البشر عند مهاجمة المصائب والأعداء من الخارج والداخل مع عجزه وقلته
حيلته وكذا (نقطة استمداد) آماله غير المحدودة الممتدة إلى الأبد مع فقره وفاقته ليس
إلا (معرفة الصانع) والإيمان به والتصديق بالآخرة، فلا سبيل للبشرية المتيقظة إلى
الخلاص من غفوتها سوى الإقرار بكل ذلك، وما لم يوجد في صدفة القلب جوهر الدين
الحق فسوف تقوم قيامات مادية و معنوية على رأس البشر، وسيكون أشقى الحيوانات
وأذلها)⁶¹.

ومهما تنكرت المادية للدين الحق وبحثت عن خلاصها في المادة فستبقى (عقول
الذين يبحثون عن كل شيء في الماديات في عيونهم)⁶² ولن تكون أحكامهم في المبادئ
والقيم مقبولة لأن (حكم الحاذق في الماديات لن يكون حجة في المعنويات بل لا يستحق
سماعه)⁶³.

3-2- وسيلة انتشار الإسلام اليوم بالبراهين لا بالسلاح :

تتغير الأحكام بتغير الأزمان، تلك هي حقيقة ينبغي التنبيه إليها، فقد كانت
الظروف الجغرافية والإقليمية تمنع وصول الإسلام إلى الجهات البعيدة، وكان الملوك
بجيوشهم يشكلون عائقاً أمام شعوبهم مانعاً من سماع الحق المننزل بوحى السماء،
ومن نظر في الواقع العالمي الجديد سيجد تغيراً يقتضي أحكاماً جديدة تراعى الظرف
الحاضر، فقد وجد في الماضي تقابل بين صفتين يندر اختلاط النوع فيهما، واليوم لا تجد
صورة التقابل إلا حين تقوم دولة غازية بالاعتداء على غيرها اعتداءً ظالماً، أما الشعوب
فإنها تمثل اليوم خليطاً متنوعاً، وأنظمة منح الجنسيات تجاوزت الانحصار في دين دون
دين، وأصبحت حرية المعتقد مبدأً منتشراً في العالم، (وتطورت وسائل النقل والاتصال
إلى درجة كبيرة فأصبح العالم كله كالمدينة الواحدة وغداً أهله في مداولتهم الأمور كأنهم
في مجلس واحد)⁶⁴.

لهذا فإننا نستطيع الجزم بصحة ما قرره النورسي رحمه الله من أن الفتوحات الجديدة
للإسلام لن تكون بسيف الحديد لكنها ستكون بسيف البراهين القاطعة للشريعة الغراء
لأن الغلبة على المدنيين ستكون بالإقناع لا بالإكراه⁶⁵، قال رحمه الله :

(إن رقي الإسلام وتقدمه في الماضي كان بالقضاء على تعصب العدو وتمزيق عناده

ودفع اعتدائه وقد تم ذلك بقوة السلاح والسيف، فسوف تُغلب الأعداء ويُشتت شملهم بالسيوف المعنوية بدلاً من المادية) ⁶⁶.

3-3 - وسائل الدعوة وطرق الحوار :

لا بد لتحقيق الحوار والتواصل الإسلامي الإنساني مع الغرب المادي والمسيحي من إعداد كبير يتناسب مع تلك المهمة العظيمة، ويتضمن ذلك الإعداد الأمور الآتية :

3-3-1 - تأهيل الدعاة :

والتأهيل يعني الارتقاء بالاستعدادات المعرفية والثقافية، والأداء العملي، والخلقي، واللغوي للدعاة بحيث يكون ذلك مقدمة للحوار الجاد المنشود وذلك عبر الأمور الآتية :

أ - التأهيل المعرفي والثقافي :

ويتضمن العنصرين الآتيين :

أ-1 - تأهيل الدعاة لفهم العلوم الإسلامية ومصادرها فهماً صحيحاً يدركون فيه مقاصد الشريعة وصلاتها لكل الظروف والأزمنة، من غير تجميد في رؤية واحدة ضيقة، ومن غير خرق للثوابت الإسلامية الكبرى، (فالقرآن يفسر بعضه بعضاً ومعناه فيه وصدفه در مثله لا قشر) ⁶⁷، وحين يقيد الفكر الدلالات المتعددة للآيات والأحاديث في ركن واحد (فإن حكيم البلاغة يسجن ذلك الوهم بشكوى الآيات عليه) ⁶⁸ (وطالب الحقيقة لن يقبل ذلك وسيقول له : إن معنى الآية در وهذا مدر، ومفهوم الحديث مهج وهذا همج) ⁶⁹.

وسبب ذلك التجمد غالباً التعصب أو التقليد الأعمى (ومن سيئات استبداد الأحاسيس تأسس المسالك والمذاهب على التعصب) ⁷⁰.

ومما يساعد على نبذ ذلك التجمد معرفة اللغة العربية التي هي لغة المصادر الإسلامية، دون انهماك في علوم آلتها إلى درجة تصرف المتعلم عن المقصود في النصوص، يقول النورسي : (إن السبب المهم الذي أدى إلى تدي علوم المدارس الدينية وصرفها عن مجراها الطبيعي هو : أن العلوم الآلية لما أدرجت في عداد العلوم المقصودة أصاب الإهمال العلوم العالية إذ سيطر على الأذهان حل العبارة العربية التي لباسها لفظها في حكم معناها وظل العلم الذي هو أصل القصد تبعياً) ⁷¹.

وتبقى اللغة العربية ضرورة لفهم علوم الإسلام، ومن تكلم العربية فهو عربي.

وقال النورسي رحمه الله : (إنني أوجه كلامي هذا بوجه خاص إليكم يا معشر العرب العظماء الأماجد ويا من أخذتم من التيقظ حظاً أو ستتيقظون تيقظاً تاماً في المستقبل لأنكم أساتذتنا وأساتذة جميع الطوائف الإسلامية وأتمتها فأنتم مجاهدو الإسلام الأوائل ثم جاءت الأمة التركية العظيمة لتمد وظيفتكم المقدسة تلك أيما إمداد)⁷².

إن فهم الدعاة للعلوم الإسلامية ليس بالأمر العسير (فأركان الدين وأحكامه الضرورية نابعة من القرآن الكريم والسنة النبوية المفسرة له وهي تشمل تسعين بالمائة من الدين أما المسائل الخلافية التي تحمل الاجتهاد فلا تتجاوز العشرة منه)⁷³.

أ - 2 - تأهيل الدعاة لفهم الثقافة الغربية ومبادئ العلوم المعاصرة فهماً واقعياً من غير تبديل في هويتهم الإسلامية ومن غير انحراف في مبادئهم الإسلامية، ولا بد لتحقيق ذلك من إيصال (نهر العلوم الحديثة والثقافة الجديدة الجاري والآتي إلينا من الغرب)⁷⁴ إلى الدعاة بعد (تصفيته بمصفاة الشريعة من الشوائب، وهذا الأمر تقع مسؤوليته على عاتق أساتذة العلوم الشرعية)⁷⁵.

ب - الارتقاء بالأداء العملي :

ونعني به خروج الدعاة عن الأداء الفردي المشتت إلى الأداء الجماعي المنتظم الذي ينتفي فيه الاستبداد، وتزول عنه الفوضوية، والصيغ العملية المقترحة والمتاحة اليوم هي : المدارس الدينية، والجامعات الشرعية، والحلق العلمية المسجدية، فإذا تحقق فيها انتفاء الاستبداد، وفتح الباب فيها للشورى وتكامل التخصصات في ساحة العبودية لله تعالى وإخلاص النية يصبح عندها الأداء العملي في درجة القبول.

يقول النورسي : (إن كثيراً جداً من الناس يمضي بميل السيادة والآمرية والتفوق على الآخرين فيجعل العلم المشوق المرشد الناصح اللطيف وسيلة قسر وإكراه لاستبداده وتفوقه، فبدلاً من أن يخدم العلم يستخدمه، وعلى هذا فقد دخلت الوظائف بيد من ليسوا لها أهلاً ولا سيما الوظائف في المدارس الدينية فآلت إلى الاندراست نتيجة هذا الأمر)⁷⁶.

ويرى النورسي أن تصحيح ذلك يكون بتحويل الدعاة إلى أسلوب العمل المؤسساتي: (والعلاج الوحيد لهذا: تنظيم المدرسين الذين هم في حكم العاملين في دائرة واحدة في دوائر كثيرة كما هو الحال في الجامعة كل في مجال اختصاصه ليذهب كل واحد بسوق إنسانيته وبتوجهه نحو حقه ينفذ قاعدة تقسيم الأعمال بميله الفطري امتثالاً للأمر المعنوي للحكمة الأزلية)⁷⁷.

ويقول: (إن مفتاح سعادة المسلمين في حياتهم الاجتماعية إنما هو (الشورى) فالآية الكريمة تأمرنا باتخاذ الشورى في جميع أمورنا إذ يقول سبحانه: (وأمرهم شورى بينهم) (إن الشورى الحق تولد بالإخلاص والتساند إذ إن ثلاث ألفات هكذا: (١١١) تصبح مائة وإحدى عشرة فإنه بالإخلاص والتساند الحقيقي يستطيع ثلاثة أشخاص أن يفيدوا أمتهم فائدة مائة شخص ويخبرنا التاريخ بحوادث كثيرة أن عشرة رجال يمكنهم أن يقوموا بما يقوم به ألف شخص بالإخلاص والتساند الحقيقي والشورى فيما بينهم)⁷⁸.

ج - الارتقاء الخُلقي :

وتأهيل الدعاة تأهيلاً خُلقياً يفتح لهم أبواب القبول في كل مكان، وكما فُتح الشرق الإسلامي في الماضي بالأخلاق؛ سيفتح الغرب اليوم بالأخلاق، يقول النورسي: (لو أننا أظهرنا بأفعالنا وسلوكنا مكارم أخلاق الإسلام؛ وكمال حقائق الإيمان لدخل أتباع الأديان الأخرى في الإسلام جماعات وأفواجاً، بل لربما رضخت دول العالم وقاراته للإسلام)⁷⁹، وعلى الدعاة احترام الشعوب التي يحتلّطون بها والتي يسافرون إليها وأن لا يكونوا بأي حال سبباً للفوضى فيها، يقول النورسي: (يجب ألا يخل بنظام المجتمع من كان داخلياً فيه)⁸⁰.

حتى الكذب للمصلحة الذي أفتى به في الماضي بعض العلماء مؤقتاً للضرورة يرى النورسي أن الزمان قد نسخه⁸¹، (وأنه في هذا الزمان لا يعمل بتلك الفتوى إذ أسيء استعماله إلى حد لم يعد فيه نفع واحد إلا بين مائة من المفاسد، وأنه لا نجاة إلا بالصدق لأنه العروة الوثقى)، (والمصلحة لا يمكن أن تكون علة للكذب والطريق اثنان لا ثالث لهما: إما الصدق وإما السكوت)⁸².

د - الارتقاء اللغوي بالدعاة لتعلم اللغات الغربية :

والأصل في ضرورة هذا التواصل اللغوي ما رواه الصحابي الجليل زيد بن ثابت قال :
(قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تُحَسِّنُ السُّرِّيَانِيَّةَ إِنَّهَا تَأْتِينِي كُتُبٌ قَالَ :
قُلْتُ: لَا قَالَ : فَتَعَلَّمَهَا فَتَعَلَّمْتُهَا فِي سَبْعَةِ عَشَرَ يَوْمًا)⁸³.

3-3-2- أساليب الحوار المنفتح المثقف مع الغرب :

(إن الغالب على تدبير شؤون الإنسان إما العقل أو البصر، وبتعبير آخر: إما الأفكار، أو الأحاسيس المادية وبتعبير ثالث: إما الهدى أو الهوى)⁸⁴، وحين نفهم ذلك ندرك أن للدعوة وظيفتين، الأولى ترجيح الأفكار على الأحاسيس، والثانية هدي الأفكار؛ وضبط الأحاسيس.

ويرى النورسي بنور البصيرة (أبناء المستقبل وقد تغلبت أفكارهم على أحاسيسهم المظلمة بالهوى والشهوة)⁸⁵، وهو تفاؤلٌ محمودٌ بنجاح الدعوة واعتدال الأحوال، يستند إلى البشارات النبوية ببلوغ الدين ما يبلغه الليل والنهار.

لكن كيف هو الوصول إلى ذلك؟ وما هي الأساليب المناسبة التي تحقق هذا التغيير؟

أ - تحول الأسلوب الخطابي القديم إلى الأسلوب الإقناعي البرهاني :

مما لا شك فيه أن الأسلوب الخطابي القديم كان يتوجه إلى الأحاسيس يداعبها ويؤثر في ميولها ورغباتها ولم يكن يتوجه إلى الأفكار والبراهين، وهو ناتجٌ - كما يرى النورسي - عن الرغبات الخاصة والميول وفرض الأشياء بالقوة والميل إلى التفوق على الآخرين، أما أبناء هذا الزمان فيناسيهم الإقناع والحجة، فنحن نطلب الدليل ولا ننخدع بتصوير المدعي وتزيينه⁸⁶.

ب- إبراز ثوابت الإسلام المطابقة للحقيقة، والحكمة في آثارها :

يقول النورسي : (ما جعل الإسلام يتجلى دوماً وتـنـكشـف حقائقه. إلا تأسسه على الحقيقة وتقلده البرهان ومشاورته العقل واعتلاؤه عرش الحقيقة ومطابقته دساتير الحكمة المتسلسلة من الأزلى إلى الأبد ومحاكاته لها)⁸⁷، ويقول للذين يحاولون جرح الإسلام ونقده من بعيد مستدلين بأقوال بعض المغرضين من الدارسين : (زنوا الأمور بالحكمة العقلية ولا تنخدعوا ولا تكتفوا بالنظر السطحي فالذين أصبحوا سبباً

لأعداركم الواهية في نقد الإسلام يسمون بلسان الشريعة : علماء السوء)، (و سترون أن كل حقيقة من حقائق الإسلام برهانٌ نيرٌ كالنجم الساطع يتلألاً عليه نقش الأزل والأبد)⁸⁸ .

(والحقيقة الإسلامية أستاذ جميع الكمالات والمثل .. وهي المجهزة بالمدنية الحقيقية والعلوم الصحيحة ولها من القوة ما لا يمكن أن تهزمها قوة)⁸⁹ ، والذي سيفتح العيون المعصوبة عن رؤية الحقيقة (أمرُ القرآن الكريم الإنسان بالتدبر والتأمل في الآفاق والأنفس، وسوف تفتح الأبصارَ نجومُ القرآن الثاقبة وترفعُ ظلام الجهل .. إذ تمزق الآيات البينات بيدها البيضاء حجابَ الألفة والنظر السطحي، وأستار التشبث بالظاهر المحسوس، فتوجه العقول وترشدها إلى حقائق الآفاق والأنفس، وها هو الإنسان المعاصر لما عجز بنظره السطحي أن يتذوق ما في جفان الكائنات وصحونها من غذاء روحي مغطى بغطاء الألفة سئم من لعق الجفان ولحس الغطاء، ولم يفده ذلك سوى عدم القناعة والتلهف إلى حوار العادات والرغبة في الخيالات مما ولد لديه الرغبة في المبالغة... وتلك المبالغة شبيهة بكرة الثلج المتدحرجة من أعلى قمة الجبل كلما تدحرجت كبرت... ثم يجيء النظر بالحق فيجرده من توابعه ويرجعه عارياً مجرداً إلى أصله فيظهر سر (جاء الحق وزهق الباطل)⁹⁰ ، وصدق النورسي في رؤيته تلك، فليس ديدن (الهوليود) والمؤسسات الفنية الغربية اليوم إلا الابتعاد بالإنسان عن الحقيقة إلى الخيالات هروباً من الحقيقة والواقع، وفراراً من قوانين الله تعالى الثابتة في كونه البديع. يقول النورسي : (يا أولياء الأمور إن أردتم التوفيق فاطلبوه في موافقة أعمالكم للسنن الإلهية في الكون أي قوانين الله وإلا الخذلان)⁹¹ .

ج - التعريف الحكيم بشخص سيدنا محمد p وسيرته المباركة :

والنفس بجبلتها تعشق الكمال والجمال، وما عرَفَ روميُّ أو فارسيُّ أو حبشيُّ أو تركيُّ أو عربيُّ هذا الرسول الكريم معرفة متجردة عن الأهواء الفاسدة والعصبيات إلا عشقه وأحبه، فإذا أحسن الدعاة نقلَ الحكاية عن شخصه p الكريم وقلبه الرحيم وعقله العظيم ونفسه الزكية وشمائله البهية فإن العالم سيكون عاشقه المتابع المشغوف، يقول النورسي : (ثبت أن أكمل الكل هو محمد p تشهد له معجزاته وأخلاقه السامية كما يصدقه علماء البشر المحققون بل يُسَلِّمُ به أعداؤه وعليهم أن يُسَلِّمُوا)⁹² .

د - استعمال الوسائل الإعلامية والفنية المتعددة كرافد لا بد منه في ذلك

الحوار :

فمنها القصة الجذابة المقروءة باللغات العديدة، ومنها القصة المرئية المعروضة بالوسائل المختلفة الحديثة، ومنها وسائل الإعلام المسموعة والمرئية باللغات التي تؤدي الأفكار الإنسانية الإسلامية من غير تنفيرٍ أو إيذاءٍ لمشاعرٍ غير المسلمين، وقد استعمل النورسي رحمه الله الأمثال والقصص في رسائله، وعبر عن الفكرة بالصور البديعة، وانظر إلى عبارته الرشيقية الفاتنة وهو يحكي عن تناسق الكون وروعته قائلاً : (إن شريعة الفطرة الإلهية المسماة بنظام خلق العالم فرضت على الأرض التي تسير سير المرشد المولوي العاشق أن لا تشذ عن صف النجوم المقتدية بالشمس إذ قالت الأرض مع قرينتها السماء: (أتينا طائعين) والطاعة في الجماعة أفضل وأحسن)⁹³.

ثالثاً - الخلاصة :

لابد من مشروع متكامل للحوار مع الغرب يقوم به فدائيو المحبة، الذين فهموا مضامين الرسالة الإنسانية الإسلامية وأدركوا أبعاد المتغيرات العالمية الجديدة، وما استجد من الثقافات البشرية على الأرض.

ولابد في هذا المشروع من تعاون إسلامي عالمي يخرج عن إطار الإقليمية والعرقية إلى مستوى العالمية الإنسانية، ويكون عبر عمل منتظم يستوفي كل الشروط المؤسسية والعلمية والعملية.

وإن من خير من أدرك نواة هذا المشروع ودعا إليه البديع النورسي، فكان بحق رائداً لفدائيي المحبة، وما علينا جميعاً إلا أن نكون مفردات هذا المشروع وحملة مضامينه الجليلة الغراء.

المصادر والمراجع :

1. القرآن الكريم
2. ابن حنبل، الإمام أحمد، المسند، دار الفكر، دمشق.
3. البخاري، الإمام أبو عبد الله محمد بن اسماعيل، الجامع الصحيح، ط 4، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1988 م.

4. الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة، السنن، دار إحياء التراث العربي.
5. النسائي، الحافظ أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب، السنن، دار الكتاب العربي، بيروت.
6. النورسي، بديع الزمان سعيد النورسي، صيقل الإسلام، ترجمة إحسان قاسم الصالحى، دار سوزلر للنشر، استانبول.

الهوامش

- 1 ابراهيم (3).
- 2 البقرة (201-202).
- 3 القصص (77) .
- 4 صيقل الإسلام للنورسي / 493 .
- 5 الأعراف (32).
- 6 صيقل الإسلام للنورسي / 23 .
- 7 المصدر السابق / 495.
- 8 المصدر السابق / 495.
- 9 مسند أحمد عن عمرو بن العاص (17096).
- 10 صيقل الإسلام للنورسي / 533 .
- 11 المصدر السابق / 33.
- 12 المصدر السابق / 33.
- 13 المصدر السابق / 37 .
- 14 المصدر السابق / 32 .
- 15 المصدر السابق / 55 .
- 16 المصدر السابق / 57.
- 17 راجع المصدر السابق / 33 .
- 18 المصدر السابق / 499 .
- 19 راجع المصدر السابق / 55 .
- 20 المصدر السابق يتصرف / 56 .
- 21 راجع المصدر السابق / 23 .
- 22 المصدر السابق يتصرف / 56 .
- 23 المصدر السابق / 56 .
- 24 المصدر السابق يتصرف / 55 .
- 25 المصدر السابق / 346 .
- 26 المصدر السابق / 501 .
- 27 المصدر السابق / 507 .
- 28 المصدر السابق / 500 .

-
- 29 راجع المصدر السابق / 535 .
30 راجع المصدر السابق / 535.
31 المصدر السابق / 40 .
32 المصدر السابق / 34 .
33 المصدر السابق / 39 .
34 المصدر السابق / 39.
35 المصدر السابق / 46 .
36 المصدر السابق / 65.
37 راجع المصدر السابق / 535.
38 سنن النسائي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ .
39 سنن الترمذي عَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ عَمِيْسِ الْخَتَمِيَّةِ .
40 راجع صيقل الإسلام / 535.
41 المصدر السابق / 505.
42 المصدر السابق / 505.
43 المصدر السابق يتصرف / 505.
44 المصدر السابق يتصرف / 501
45 المصدر السابق / 506 .
46 المصدر السابق / 509 .
47 المصدر السابق / 510 .
48 المصدر السابق / 511 .
49 المصدر السابق / 37 .
50 المصدر السابق / 499 .
51 المصدر السابق / 535 .
52 راجع المصدر السابق / 496 .
53 المصدر السابق / 496 .
54 البخاري عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ قَيْسٍ .
55 صيقل الإسلام / 498 .
56 راجع المصدر السابق / 497 .
57 المصدر السابق / 24.
58 المصدر السابق / 53.
59 المصدر السابق / 53.
60 المصدر السابق ببعض تصرف / 495.
61 المصدر السابق ببعض تصرف 494.
62 راجع المصدر السابق / 33.

- 63 راجع المصدر السابق / 33.
64 راجع المصدر السابق / 55 .
65 راجع المصدر السابق / 527 .
66 المصدر السابق / 500.
67 المصدر السابق/ 23 .
68 المصدر السابق باختصار وبعض تصرف / 36 .
69 المصدر السابق يتصرف / 36 .
70 المصدر السابق / 51 .
71 المصدر السابق / 67 .
72 المصدر السابق / 512 .
73 المصدر السابق / 347 .
74 المصدر السابق/ 530 .
75 راجع المصدر السابق/ 530 .
76 المصدر السابق/ 67 .
77 المصدر السابق/ 67 .
78 راجع المصدر السابق/ 514 .
79 المصدر السابق/ 494 .
80 المصدر السابق/ 33 .
81 المصدر السابق يتصرف/ 508 .
82 راجع المصدر السابق / 508 .
83 أخرجه أحمد في مسنده والترمذي في سننه .
84 صيقل الإسلام باختصار/ 49 .
85 المصدر السابق/ 49 .
86 راجع المصدر السابق/ 50 .
87 المصدر السابق باختصار/ 52 .
88 المصدر السابق/ 48 .
89 راجع المصدر السابق/ 498 .
90 المصدر السابق يتصرف واختصار/ 63 .
91 المصدر السابق/ 530 .
92 المصدر السابق/ 54 .
93 المصدر السابق/ 72

السّلام والعدالة الاجتماعيّة في الإسلام

إدريس منغا
أستاذ مساعد في اللغة العربية
كلية اللغة العربية والدراسات الأدبية
الجامعة الإسلامية بالنيجر

مقدمة :

كتب على بني آدم أن يحيا ويعيش مكرما في جو يسوده السلم والاستقرار مستعينا في هذه الحياة بكل ما أتيح له من قوة عقلية وبدنية في الكسب المادي والمعنوي. وقد كان المرء في أول أمره، وكما هو معلوم، يسعى لتوفير حاجاته الضرورية طبقا لفطرته السليمة التي خلق عليها. فكان كل فرد يصيب يومئذ، نصيبه من نعم الحياة بما يتناسب ومقتضيات الحياة الطبيعية. وقد قامت المجتمعات الأولى على هذه السنة الطيبة حينما من الدهر، فساد فيها الأمن والاستقرار .

غير أن غريزة حب الاستثثار، سرعان ما تغلبت على شعور الإنسان، مع تعقد الحياة الاجتماعية، وبمرور الزمن، لما غشيه من ظلمة الجهل، وغياب الإيمان الصحيح في القلوب، فتأثرت علاقاته مع غيره من أفراد المجتمع تأثرا سلبيا، فكانت النتيجة أن كثرت الفتن فاشتدت الحياة على الناس .

وقد نشأ عن هذا الفراغ العقدي انقياد أعمى للنفس الأمارة بالسوء وللغريزة، مما أدى إلى أزمة أخلاقية، فاتخذ منطق القوة والمكر، في مجتمعات كثيرة، سندا شرعيا لاستحلال ما تشتهي إليه الأنفس. ومن هنا أصبحت القوة لا العقل، القانون المنظم

للحياة، والمصدر الذي يستوحيه كل فرد من أفراد المجتمع في معرفة مقدار ما يمكن أن يتمتع به من حقوق .

والقوة كما لاحظها الشيخ الجليل بديع الزمان سعيد النورسي، إذا ما نصبت نقطة استناد في حياة أي مجتمع، كان الاعتداء شعاره، وكان الصراع أو النزاع وسيلة إلى انتزاع الحقوق¹. لقد استخدمت القوة في الحياة الاجتماعية كثيرا .

أ — قديما :

1 — في الغرب : كان المجتمع الغربي مجتمعا متخلفا وقد ظل على هذه الحال قرونا طويلة. ففي العصور الوسطى على سبيل المثال، كان هذا المجتمع متسما بالجهل والفقر كما كان متسما بعقلية متخلفة، وكان الهوى يحكم سلوك أفرادها، فكان الضعيف فيه فريسة شرعية للقوي؛ وذلك لأن منطق القوة يجعل القوي دائما وأبدا على الحق².

2 — في الشرق : عرف العرب في جاهليتهم سلوكا مماثلا، حيث كان يأكل بعضهم بعضا بالإغارة والغزو لفساد القلوب؛ فقد كان الأب في المجتمع الجاهلي يتمتع بسلطة مطلقة بين أهله، إذ كان يملك عليهم الحياة والموت والبيع³. فكانت الذلة والمسكنة نصيب المستضعفين في هذه المجتمعات .

ب — حديثا :

إن الأزمة الثقافية والأخلاقية لم تقتصر على المجتمع البشري القديم، بل استمرت وبصورة مطردة لتطال مجتمعاتنا في العصر الحديث ذلك أن اللجوء إلى القوة وركوب هوى النفس، واللهث وراء المصالح المادية، أضحت سمة للمجتمع الحديث. فكان من الطبيعي أن يكثر الظلم فيه وتكثر الفتن. والظلم أشكال عدة، فقد يأخذ شكل تكتل جماعي ضد جماعة أخرى، أو فرد ضد جماعة، أو العكس .

مظاهر الظلم في المجتمع :

فمن مظاهر الظلم فكرة القومية بشكلها السلبي. وهي عند النورسي — قومية مشؤومة مضرة تنمو بابتلاع الآخرين وتدوم بعداوة من سواهم، فيولد المخاصمة والنزاع. إن فكرة القومية بشكلها السلبي كانت وما زالت سلاحا في يد الغزاة ذوي

النوايا الاستعمارية ضد المجتمعات الضعيفة الإيمان، لتحقيق أغراضهم بإثارة الفتن وإحداث التنافر بين أفراد المجتمع الواحد⁴.

" لقد ظهرت طوال التاريخ أضرار كثيرة نجمت عن القومية السلبية، نذكر منها : أن الأمويين خلطوا شيئاً من القومية في سياستهم، فأسخطوا العالم الإسلامي فضلاً عما ابتلوا ببلايا كثيرة من جراء الفتن الداخلية. وكذلك شعوب أوروبا، لما دعوا إلى العنصرية وأوغلوا فيها في هذا العصر نجم العداة التاريخي المليء بالحوادث المرعبة بين الفرنسيين والألمان، كما أظهرت الدمار رهيب الذي أحدثته الحرب العالمية، مبلغ الضرر الذي يلحقه هذا الفكر السلي للبشرية⁵.

و قد وصف سعيد النورسي هذا النوع من الظلم الاجتماعي بأنه حماقة كبرى، كما نفى نفيًا قاطعاً أن يكون ذلك حمية وغيره، خلافاً للقومية التي يعدها إيجابية نابعة من حاجة داخلية للحياة الاجتماعية، وهي عنده، قومية قائمة على التعاون والتساند بين إخوة الأمة الواحدة. فمثل هذا الفكر القومي، على قوله، ينبغي أن يكون خادماً للإسلام، ويكون قلعة حصينة له وسوراً منيعاً حوله، دون أن يحل محل الإسلام أو بديلاً عنه، لأن الأخوة الناجمة عن هذا النوع من القومية تمثل واحدة من أنواع الأخوة التي يمنحها الإسلام⁶.

فإذا كانت القومية السلبية ضارة للحياة الاجتماعية لما فيها من معاداة جماعة عرقية على جماعة أخرى، فكذلك الأنانية؛ فإنها لا تقل خطورة عن القومية من حيث إنها إذا ما تمكنت في الواحد منا — على بيان الشيخ سعيد النورسي — أثارت فيه النفس الأمارة ونمت فيه نية القضاء على كل ما يقف دون تحقيق رغبته، بل وصل به الأمر أحياناً إلى درجة لا يرى فيها سوى القضاء على العالم من حوله وعلى الجنس البشري قاطبة، متى استطاع إلى ذلك سبيلاً⁷. فالأنانية من هذا القبيل ظلم لا شك في تأثيره على الحياة الجماعية سلباً. والظلم إنما ضلالة، وهذا ما أكده النورسي حين قال: " إن أهل الضلالة في هذا العصر قد امتطوا "أنا" فهو يجوب بهم في وديان الضلالة. فأهل الحق لا يستطيعون خدمة الحق إلا بترك "أنا" وحتى لو كانوا على حق وصواب في استعمالهم "أنا" فعليهم

تركه، لئلا يشبهوا أولئك، إذ يكونون موضع ظنهم إنهم مثلهم يعبدون النفس. لذا فإن عدم ترك "أنا" بحس للحق تجاه خدمة الحق" ⁸.

فالأنانية إذن بالنظر إلى ما سبق، نوع من الظلم الذي يقف به الفرد موقف العدا من الجماعة. وإلى جانب هاذين النوعين من الظلم، كانت النصرانية، ولاسيما مذهب الكاثوليك، أداة تحكم في يد رجال الدولة. وقد استغلوها للاستبداد بالشعب، و"كوسيلة لسحق أصحاب المهتم والحمية من العوام الذين كانوا يطلقون عليهم اسم (الفوضويين والدهمائي)، وقد باتت وسيلة لسحق المفكرين من دعاة الحرية الذين كانوا يتصدون لاستبداد الخواص ومظالمهم. بل قد عد ذلك المذهب هو السبب في سلب راحة الناس وبث الفوضى في الحياة الاجتماعية لسبب الثورات التي حدثت في بلاد الإفرنج طوال ما يقارب أربعمئة سنة، لذا هوجم ذلك المذهب باسم مذهب آخر للنصرانية لا باسم الإلحاد. ونما السخط والعداء عليه لدى طبقة العوام ولدى الفلاسفة" ⁹.

غاية رسالة الإسلام :

فمن خلال هذه النماذج من الأمثلة، يمكن أن نتلمس مدى الظلم الذي شهده البشر في حياتهم الاجتماعية من فجر الحياة إلى يومنا هذا. وقد يتساءل المرء من هنا إن كان من الممكن وضع نظام بديل يتحقق به للإنسان السلام والسعادة .

لقد تتابعت الرسائل السماوية منذ بداية الخلق لهداية البشر إلى سوي السبيل، وكان الإسلام — كما هو معلوم — آخر رسالة أنزلها الله على محمد صلى الله عليه وسلم إلى الناس كافة لإخراجهم من ظلمات الجهل إلى نور العلم لقوله سبحانه وتعالى في سورة إبراهيم: " ألر. كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور" ¹⁰. فالدين في جوهره ميزان تترن به الحياة وتستقيم، فينعم كل مخلوق بالسعادة والأمان. يقول الله جل جلاله في هذا الشأن : " لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط" ¹¹. فلكون الدين ذا أهداف إنسانية، ولأنه جعل الإنسان في بؤرة اهتمامه، رأى بعض العلماء أن الإسلام كنظام حياة هو البديل لما يوفره من عدالة اجتماعية، ولكونه " وحدة نظامية شاملة متكاملة لضروب الحياة المختلفة له سبله ومثله العليا وقوانينه وتشريعاته" ¹².

فقد أثبت التاريخ والاستقراء لحياة البشر أن الدين ضرورة لا غنى عنها، ضرورة للفرد ليطمئن ويسعد، وتزكو نفسه، وضرورة للمجتمع ليستقر ويتماسك ويرتفع ويرقى¹³.

والدين الإسلامي دين مساواة وعدالة لا يفرق بين المرء وأخيه، بل جعل من العدالة الأس الرئيس لإنشاء المحبة بين الناس. فلا أفضلية لأحد على آخر إلا بالتقوى. يقول الله تبارك وتعالى: " إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم"¹⁴. فلذا، يرى الشيخ الجليل سعيد النورسي أن العدالة في تدبير شؤون الناس والتحلي بالأخلاق الحميدة، أمران لا مناص منهما لممارسة سياسة إنسانية حكيمة بدلا من السياسية المدنية الحاضرة التي تضحي بالأكثرية في سبيل الأقلية، بل تضحي قلة قليلة من الظلمة بجمهور كبير من العوام في سبيل مقاصدها¹⁵. فهذه المدنية عنده، هي التي أطلقت الهوى والنوازع من عقابها، ليصبح فيها الإنسان خاضعا خضوعا تاما لغرائزه وهواه، بحيث أحل لنفسه جميع ما يهواه وجعل نفسه سيدا ظلما لا يتحكم فيه غير شهوته¹⁶.

النورسي والدعوة إلى الإسلام :

فبالنظر لهذه الحقيقة المرتبطة بالإنسان الذي يمثل بدوره حلقة هامة في الحياة الاجتماعية، ظل النورسي يدعو إلى الإسلام باعتباره نظاما كفيلا بتنظيم الحياة الاجتماعية بقيمه الإنسانية السامية التي لا يظلم معها الإنسان مهما كانت منزلته في المجتمع؛ لأن العدالة والإحسان من أهم أركان هذا الدين. يقول سبحانه وتعالى: " إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى"¹⁷. يقول سعيد النورسي: " إن القرآن الكريم النازل رحمة للعالمين لا يقبل إلا طرازا من المدنية وهي — على قوله — المدنية التي تمنح السعادة للجميع أو الأكثرية؛ وذلك باتخاذ الحق نقطة استناد في الحياة الاجتماعية بدلا من القوة وجعل رضى الله سبحانه وتعالى، ونيل الفضائل غاية بدلا من المنفعة الشخصية، واتخاذ دستور التعاون أساسا في الحياة، بدلا من دستور الصراع"¹⁸. فالإسلام دين إنساني، ولقد تولد عن عقيدته حياة مدنية راقية، وينطوي الإسلام في ثناياه مقومات كفيلة بوضع حد لتجاوز النفس الأمارة، ودفع

الروح إلى معالي الأمور وإشباع مشاعرها السامية بسوق الإنسان نحو الكمال والمثل الإنسانية؛ لأن شأن الحق، على عبارة الشيخ سعيد النورسي، هو الاتفاق، وشأن الفضيلة هو التساند... وشأن دستور التعاون، هو إغاثة كل للآخر، وشأن الدين هو الأخوة والتكاتف، وشأن إلجام النفس وكبح جماحها، وإطلاق الروح وحثها، هو سعادة الدارين¹⁹. فمفتاح السعادة إذن، في التمسك بالقيم الإسلامية. فقد اتسمت الحياة الاجتماعية بالأمان والاستقرار بفضل روح الإسلام التي تشبع بها من قبلنا من الصحابة والسلف الصالح. فالصحابة أقاموا المجتمع الإسلامي على القيم الإسلامية.

نماذج من العدالة في الإسلام :

فأبو بكر رضي الله عنه، في خطبته الأولى، بعد توليه الخلافة، يقول : " أيها الناس إني قد وليت عليكم وليست بخيركم، فإن رأيتموني على حق فأعينوني، وإن رأيتموني على باطل فسدوني، أطيعوني ما أطعت الله فيكم، فإذا عصيته فلا طاعة لي عليكم، ألا إن أفواكم عندي الضعيف حتى آخذ الحق له، وأضعفكم عندي القوي حتى آخذ الحق منه"²⁰. ويقول عمر رضي الله عنه لقائده في حرب الفرس : " إذا لاعب أحدكم — بمعنى إذا لاغى — أحد الفرس فظن أنه يعطيه عهد أمان فأنفذه، فالجندي المسلم لم يعط عهداً في الحقيقة، ولكن الجندي الفارسي ظن أنه يعطيه عهد أمان، فكان على هذا القائد المسلم أن يفي بهذا الوعد"²¹.

وهذا علي كرم الله وجهه، تضيع منه درعه، فيفتقدها، فيجدها عند يهودي، فيقول له: " هذه درعي"، فينفي اليهودي أنها درع علي كرم الله وجهه، فيأخذ إلى قاضيه (شريح)²² ويعرض عليه القضية حتى إذا وقف الخصمان بين يدي القاضي يقول علي كرم الله وجهه : الدرع درعي ولم أبع ولم أهب — فيلتفت القاضي إلى اليهودي يقول : ما تقول فيما يقول أمير المؤمنين ؟ فيقول اليهودي : الدرع درعي، وما أمير المؤمنين عندي بكاذب. فيلتفت القاضي إلى أمير المؤمنين فيقول : يا أمير المؤمنين هل من بينة... هل كل بينة على أن هذه درعك ؟ فيجيب علي أمير المؤمنين قائلاً : صدق شريح ! ما لي بينة، فيقضي القاضي بالدرع لليهودي وهو يعلم يقينا أن الدرع درع أمير المؤمنين. لكن القاضي لا يحكم بعلمه، لا بد من بينة كما تقتضيه الشريعة الإسلامية²³.

وهذا أيضا أبو عبيدة في حرب الشام، كان قد فتح شمال الشام وأخذ الجزية من أهلها، ثم سمع أن هرقل يجهز له جيشا عظيما، فرد الجزية إلى أهلها وقال لهم : أخذنا منكم الجزية بشرط أن نحميكم وقد سمعتم ما يجهز لنا، وإنا لا نقدر على حمايتكم، بل نحن على شرط إن نصرنا الله عليهم²⁴.

فهذه بعض من نماذج العدالة التي شهدتها التاريخ على حكام المسلمين، وقد ساد الأمن والسلام يومئذ المجتمع الإسلامي بفضلها، فعاش الناس شاعرين بوفاء الدولة بحقوقهم طبقا لشرع الله سبحانه وتعالى .

إن العدالة القرآنية المحضة، لا تهدر دم بريء ولا تزهد حياة حتى لو كان في ذلك حياة البشرية جمعاء. فلا يحق في الإسلام؛ لأي مظلوم كان، ولأي مفكر كان، أن يشكو من الدين الحمدي، والشريعة الإسلامية؛ لأن هذا الدين لا يسخطهم بل يحميهم، في حين أن المذهب الكاثوليك سبب ثورات داخلية دامت أربعمئة سنة، فالإسلام حصن حصين للعوام أكثر منه للنخوص، إذ لا يجعل الخواص مستبدين على العوام، بل يجعلهم خادمين لهم — من جهة — وذلك بوجوب الزكاة وتحريم الربا²⁵.

حق الفرد في الإسلام :

إن حق الفرد في المجتمع الإسلامي محفوظ. فخلافا لما هو معروف في أنظمة الغرب الديمقراطية، حيث يظل حق الفرد لصالح الأغلبية، فحق الإنسان في الإسلام يدخل ضمن العناية الإلهية ورحمته، فلا ينظر إلى كونه صغيرا أو كبيرا، لذا قال سعيد النورسي بأن حق الفرد لا يفدى بالصغير لأجل الكبير، ولا بحياة فرد وحقه لأجل سلامة جماعة والحفاظ عليها، إن لم يكن له رضى في الأمر، إلا إذا كانت التضحية برضاه ورغبة منه²⁶.

فالخلاف التاريخي الذي نشأ بين الحسن والحسين من جهة، والدولة الأموية من جهة أخرى كان بسبب اعتماد الأمويين في الحكم على العنصر العربي دون غيرهم من المسلمين، وقد قاوم الحسن والحسين هذه التفرقة العنصرية على أساس الجنس لتناقضها مع المنهج الإسلامي. ولذا أخذت مقاومتهم طابع الصراع بين العدالة والظلم. يقول سعيد النورسي : " إن الأسس المتبعة في القومية والعنصرية أسس ظالمة لا تتبع العدالة ولا

توافق الحق، إذ لا تسير تلك الأسس على وفق العدالة، لأن الحكم العنصري يفضل من هم بنو جنسه على غيرهم، فأني له أن يبلغ العدالة ! لا فرق بين عبد حبشي وسيد قرشي إذا أسلم. فلا يمكن إقامة رابطة قوية في ضوء هذا الأمر الجازم. إذ لا تكون هناك عدالة قط، وإنما تهدر الحقوق ويضيع الإنصاف"²⁷.

ويقول في موضع آخر : " إن لم تكن تصرفات المؤمن وحركاته وفق الدساتير السامية التي وضعها الحديث الشريف : " الحب في الله والبغض في الله " والاحتكام إلى أمر الله في الأمور كلها، فالنفاق والشقاق يسودان ... نعم، إن الذين لا يستهدي بتلك الدساتير يكون مقترفا ظلما في الوقت الذي يروم العدالة"²⁸.

حق المرأة والرجل :

إن الرجل والمرأة هما الركبان اللذان يقوم عليهم المجتمع. ولقد أعطى الله جل جلاله، لكل منهما حقه. فلو رجعنا إلى قوله : " فللذكر مثل حظ الأنثيين "²⁹ لوجدنا فيه "محض" العدالة وعين الرحمة في الوقت نفسه، نعم، إن ذلك الحكم عدالة؛ لأن الرجل الذي ينكح امرأة، يتكفل بنفقتها كما في الأكثرية المطلقة. أما المرأة، فهي تتزوج الرجل وتذهب إليه، وتحمل نفقتها عليه، فتلافي نقصها في الإرث. ثم إن الحكم القرآني رحمة؛ لأن تلك البنت الضعيفة محتاجة كثيرا إلى شفقة والدها وعطفه عليها، وإلى رحمة أخيها ورأفته بها، فهي تجد — حسب الحكم القرآني — تلك الشفة عليها من والدها وعطفه دون أن يكدرها حذر، إذ ينظر إليها والدها نظرة من لا يخشى منها ضررا، ولا يقول بأنها ستكون سببا في انتقال نصف ثروته إلى الأجنبي والأعيار. فلا يشوب تلك الشفة والعطف الأبوي الحذر والقلق"³⁰.

ولذا، يرى سعيد النورسي أن الشريعة الإسلامية تربي روح المسلم على الشفقة والرأفة، وما المشاكل وحالات عدم الاستقرار في المجتمع إلا نتيجة للظلم وعدم الالتزام بالقيم الإسلامية التي حددتها لنا الشريعة الإسلامية. يقول : " إن سبب نزول المصائب العامة هو خطأ الأكثرية من الناس، وأن الحرب العالمية التي شهدتها البشرية إنما هي لطمة قوية على البشرية لكثرة الظلم، ولا سبيل إلى حياة اجتماعية سعيدة وآمنة في نظره إلا

بالتمسك بالدستور الرباني العادل الذي ينظر إلى الفرد والجماعة والشخص والنوع نظرة واحدة³¹.

الخلاصة :

لقد تبين لنا مما سبق في هذا العرض، مدى تمسك الصحابة رضوان الله عليهم بالقيم الإسلامية، وكيف أن العدالة التي تميز بها الحكم في عصرهم، كانت سبب استقرار وسلام اجتماعيين. فالعدالة الإسلامية — كما رأيناها — عدالة غير مختصة لفئة دون أخرى، بل هي عدالة تتجاوز جميع الاعتبارات مادية كانت أو معنوية. وعليه، اتسمت الحياة الاجتماعية في عهد الصحابة بالأمن والاستقرار؛ ولذا رأى الشيخ الجليل سعيد النورسي ضرورة الدعوة إلى التمسك بالكتاب والسنة كي نقذ مجتمعاتنا من المصائب، ونعيش في سلام، فإنه لم ير نظاماً أكثر ضماناً للإنسان العدالة من الإسلام.

الهوامش

- 1 - الكلمات ، ج 1 ، ص 145.
- 2 - ينظر : تاريخ الأدب لأحمد الزيات ، ط 1413هـ / 1993م ، دار المعارف ، ص 378.
- 3 - المرجع نفسه ، ص 12.
- 4 - ينظر : المکتوبات ، ص 414.
- 5 - المرجع نفسه ، ص 41.
- 6 - ينظر : المرجع نفسه، ص 415.
- 7 - المرجع نفسه ، ص 608.
- 8 - المکتوبات ، ص 549.
- 9 - المرجع نفسه ، ص 561-562.
- 10 - الآية : 1.
- 11 - سورة الحديد ، الآية : 25.
- 12 - خطوط رئيسية في الاقتصاد الإسلامي ، محمود أبو السعود ، الاتحاد الإسلامي العالمي للمنظمات الطلابية ، ص 9.
- 13 - الإيمان و الحياة ، يوسف القرضاوي ، مكتبة وهبة ، ص 7.
- 14 - سورة الحجرات ، الآية : 13.
- 15 - ينظر : الكلمات ، ص 856.

- 16 - ينظر : الكلمات ، ص856.
- 17 - سورة النحل ، الآية : 90.
- 18 - الكلمات ، ص1.
- 19 - المرجع نفسه ص145.
- 20 - البداية و النهاية لابن كثير ، ج1، ص201.
- 21 - ينظر : الإسلام لمحمد قطب ، مكتبة السنة ، ص72.
- 22 - هو ابن الحارث قيس الكندي ، قاضي الكوفة .
- 23 - المرجع نفسه ، ص71.
- 24 - الإسلام لمحمد قطب ، ص71.
- 25 - ينظر : المکتوبات ، ص562.
- 26 - ينظر : المرجع نفسه ، ص67.
- 27 - المکتوبات ، ص68.
- 28 - المرجع نفسه ، ص348.
- 29 - سورة النساء ، الآية : 176.
- 30 - المرجع نفسه ، ص48.
- 31 - ينظر : الكلمات ، ص859.

الغاية من الحياة

كما أوضحتها رسائل النور

د. عبد الله الخطيب

أستاذ مشارك في علوم القرآن وتفسيره

جامعة الشارقة - الشارقة ص. ب. 27272

الإمارات العربية المتحدة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وعلى آله وصحبه
وسلم أجمعين، وبعد

فإن الإمام بدیع الزمان سعيد النورسي رحمه الله تعالى قد تناول موضوع الحياة والهدف منها تناولا فريدا، فهو يعتبر الحياة مظهرا لقدرة الله تعالى وعظمته وسرا من أسرار الخلق، الذي وضع الله تعالى فيها أسرارها (قل الروح من أمر ربي)، وكذلك فالحياة هي المحور الذي تتعلق بها كل الأمور من رزق وغيره، ولا حياة حقيقية للإنسان إلا بمعرفة الله تعالى وحببه والتقرب إليه، وهذا هو الهدف الرئيس من الحياة، أن تعبد الله تعالى وترى نفسك مظهرا لتجليات القدرة والعلم والحكمة الإلهية وغيرها من الأسماء الحسنى المتجلية على الإنسان والكون.

إذا عرفت ذلك وتذوقته عرفت لذة الحياة ومعناها الحقيقي، وكنت بذلك إنسانا حقيقيا، (والعصر إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر).

أما الإنسان الذي لم يعرف ربه وعاش في الدنيا للدنيا وغفل عن الآخرة ولم يعرف الهدف من الحياة فإن حياته شقاء في شقاء، ويعيش هذا الإنسان في حياة زائفة بفرحها ولذاتها وبهرجها إذ سرعان ما تزول اللذات وتبقى السيئات، وسرعان ما يذهب

الشباب ويأتي الشيب، وسرعان ما تنتهي حياة الإنسان ويأتي الموت الذي يخاف منه الكفار والغافلون عن الله تعالى.

إن ما تعانيه الإنسانية اليوم من شقاء هو بسبب ما أصابها من جهل بالله تعالى وابتعاد عن تعاليم السماء. ولا خروج للإنسانية من هذا المأزق إلا بالعودة إلى الله تعالى وحبّه وحب رسوله صلى الله عليه وسلم.

إن معرفة موضوع الهدف من الحياة وكيف تناوله الإمام النورسي لشيء مهم. وتتناول هذه الورقة هذا الموضوع من جوانب عديدة:

1-تعريف الحياة.

2-أهمية الحياة وخصائصها.

3- مقارنة بين نظرة المؤمن للهدف من الحياة ، وبين نظرة الكافر للحياة الدنيا

4- الإنسان في المذاهب والفلسفات المعاصرة:

5-الإنسان في القرآن:

6- مقارنة بين حكمة الإسلام وحكمة الفلسفة في النظر إلى الحياة الدنيا:

الخاتمة..

أولاً: تعريف الحياة:

يقول الراغب الأصفهاني إن الحياة تستعمل على أوجه: 1-القوة النامية الموجودة في النبات والحيوان، 2-القوة الحساسة،وبه سمي الحيوان حيواناً،¹ أو: هي صفة توجب للموصوف بها أن يعلم ويقدر،² 3-القوة العاملة العاقلة قال الله تعالى: (أومن كان ميتاً فأحييناه)، 4-الحياة الأخروية الأبدية السرمدية، قال الله تعالى: (يا ليتني قدمت لحياتي) يعني بها الحياة الأخروية الدائمة، وهذه الحياة في مقابل الحياة الدنيا، قال الله تعالى: (وما الحياة الدنيا في الآخرة إلا متاع). 5-الحياة التي يوصف بها الباري سبحانه ، فإذا قيل فيه تعالى: "هو حي"، فمعناه لا يصح عليه الموت، وليس ذلك إلا لله عز وجل،³ (الله لا إله إلا هو الحي القيوم).

ثانيا : أهمية الحياة وخصائصها:

يحدد الإمام النورسي في النكتة الخامسة من اللمعة الثلاثين تعريف الحياة وماهيتها وغايتها وخصائصها فيقول:

"الحياة هي لهذه الكائنات: أهمُّ غاية، وأعظمُ نتيجة، وأسطع نور، وألطفُ خميرة، وأصفى خلاصة، وأكملُ ثمرة، وأسمى كمال، وأزهى جمال، وأبهى زينة، وهي سرُّ وحدتها، ورابطةُ اتحادها، ومنشأُ كمالها، وهي أبداع ذاتِ روحٍ فيها، من حيث الإتقان والماهية، وهي حقيقتها المعجزة؛ تُصيرُ أصغر مخلوق عالماً بحدِّ ذاته، وهي أروع معجزات القدرة الإلهية؛ يجعلها الكائن الحي بمثابة كَوْنٍ مصغر، فكأنها - اي الحياة - وسيلةٌ لانطواء الكائنات في ذلك الكائن الحي الصغير؛ بما تُظهر فيه ما يشبه فهرس الكون العظيم، كما تجعله في رباط وثيق مع معظم الموجودات..

وهي صنعةٌ إلهيةٌ حارقة؛ تكبِّرُ الجزء الضئيل إلى أكبر كلِّ، حتى أنها تجعل الفردَ بحكم العالمِ وكأنه كليّ. وتُعرض الكونَ - من حيث الربوبية - في حكم الكلِّ والكلي الذي لا يقبل التجزئة والاشتراك والانقسام.

وهي أسطعُ برهانِ ضمن ماهيات الكائنات، واثبتُه واكمله، يشهد على وجوب وجوده سبحانه، وعلى أنه "الحي القيوم" ويدل على وحدته وأحديته جل وعلا.

وهي أبلغ صورة لصنعة ربانية حكيمة - ضمن المصنوعات الإلهية - وأخفاها وأظهرها وأتمنها وازدها وأنزها وألمعها. وهي ألطف تجلٍ للرحمة الإلهية وأرقها وأدقها؛ تجعل الموجودات خادمة لها..

وهي أجمع مرآة تعكس الشؤون الإلهية للأنظار..

وهي أعجوبة الخلق الربانية؛ إذ تجمع تجليات اسم "الرحمن، الرزاق، الرحيم، الكريم، الحكيم وأمثالها من الأسماء الحسنى" وتجعل الحقائق الكثيرة والمشاهدة كالرزق والحكمة والعناية والرحمة تابعة لها، فتقودها، مثلما هي منشأ جميع المشاعر ومعدن الحواس العامة كالبصر والسمع والشعور..

وهي ماكنة تنظيفٍ عظيمة، وجهاز استحالةٍ عجيبة في مصنع الكائنات حيث تقوم

بالتصفية والتطهير في كل نواحيه؛ فتطهر الشيء وتمنحه الرقي وتنوره، وكان الجسد الذي هو عيش الحياة - دار ضيافة لقوافل الذرات ومدرسها ومعسكرها؛ تتعلم فيه وظائفها، وتندرب على أعمالها، فتتنور وتضيء .

وهي وسيلة ينور بها الحي الحبي سبحانه عالم الدنيا المظلم الغابي السافل ويمنحه نوعاً من البقاء، ويجعله بماكنة الحياة لطيفاً مهيباً للمضي إلى العالم الباقي ..

ثم إن وجهي الحياة، أي الملك والملكوت، صافيان طاهران لا نقص فيهما، ساميان وهي - أي الحياة - مخلوق خاص متميز عن كل خلق آخر لم توضع لها الأسباب الظاهرة حجباً بينها وبين تصرفات القدرة الإلهية - كما هي في سائر الأشياء - وذلك ليكون أمر صدورها من يد القدرة الربانية مباشرة دون حجب أو وسائط، وحقيقة الحياة نورانية تتطلع إلى الأركان الإيمانية الستة وتثبتها معنى ورمزاً، أي: أنها تثبت وجود واجب الوجود سبحانه وحياته السرمدية، والدار الآخرة وحياتها الدائمة، ووجود الملائكة، وتتوجه توجهاً كاملاً إلى إثبات سائر الأركان الإيمانية وتقتضيها.

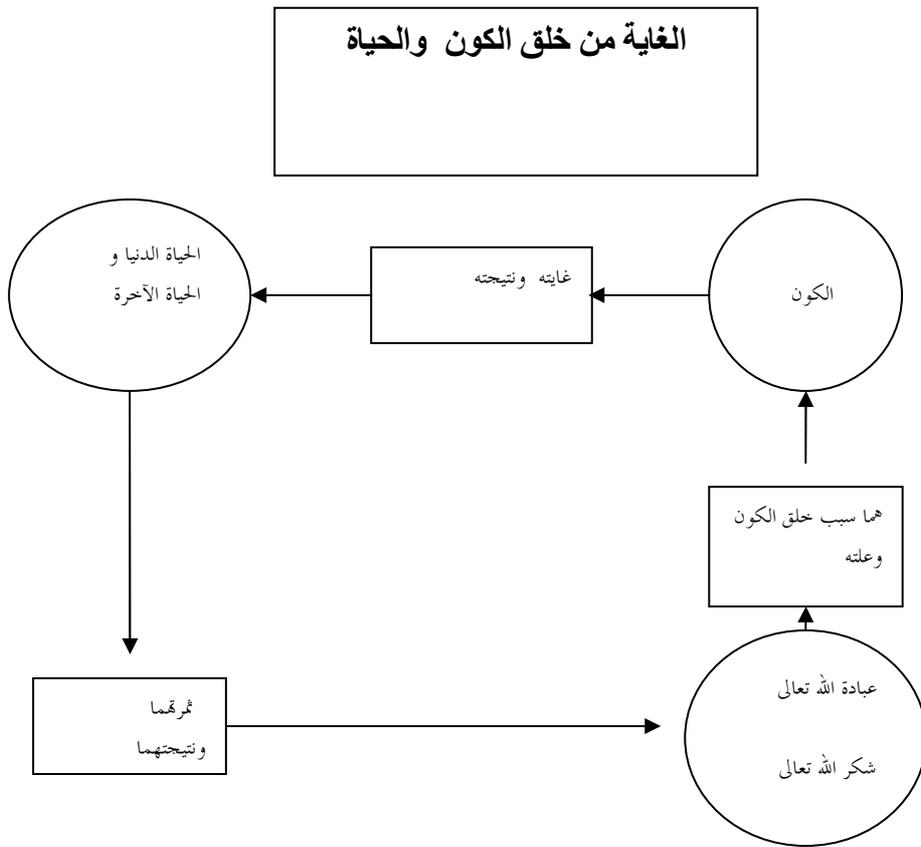
وهي أصفى خلاصة مترشحة من الكائنات كلها كما أنها أعظم سر يولد الشكر والعبادة والحمد والمحبة التي هي أهم المقاصد الإلهية في الكون وأهم نتيجة لخلق العالم هذا.

تأمل هذه الخصائص المهمة القيمة للحياة والبالغة تسعاً وعشرين خاصية، ودقق النظر في مهماتها السامية الشاملة، ثم انظر من وراء اسم المحبي إلى عظمة اسم الحي " وادرك كيف ان اسم "الحي" هو اسم الله الأعظم من حيث هذه الخصائص العظيمة للحياة، ومن حيث ثمارها ونتائجها، وافهم أيضاً ان للحياة غاية كبرى كبر الكون ونتيجة عظيمة ما دامت هي اعظم نتيجة لهذه الكائنات وأعظم غاية واثن ثمرة؟ لأن الثمرة مثلما هي نتيجة الشجرة، فنتيجة الثمرة شجرة قادمة بوساطة بذرتها".⁴

وبعد ذكره لهذه الخصائص يلخص نتيجة الحياة والهدف منها قائلاً: "إن غاية هذه الحياة ونتيجتها هي الحياة الابدية، كما أن ثمرة من ثمارها هي الشكر والعبادة والحمد والمحبة تجاه واهب الحياة "الحي المحبي" وإن هذا الشكر والمحبة والحمد والعبادة هي ثمرة الحياة كما أنها غاية الكائنات"⁵.

ويتابع كلامه عن غاية الحياة في الرمز الثالث قائلا: " الحياة هي نتيجة الكائنات، مثلما أن نتيجة الحياة هي الشكر والعبادة، فهما سبب خلق الكائنات وعلّة غايتها، ونتيجتها المقصودة. نعم، إن خالق الكون سبحانه "الحي القيوم" إذ يعرف نفسه لذوي الحياة ويحببها إليهم بنعمه التي لا تعد ولا تحصى، يطلب منهم شكرهم تجاه تلك النعم، ومحبتهم إزاء تلك المحبة، وثناءهم واستحسانهم مقابل بدائع صنعه، وطاعتهم وعبوديتهم تجاه اوامره الربانية.

فيكون الشكر والعبادة - حسب سرّ الربوبية هذا - اعظم غاية لجميع انواع الحياة، وبدورها يكون غاية الكون بأسره".⁶ ويمكننا أن نستنتج من كلام الإمام النورسي المعادلة التالية حسب الرسم البياني:



ثالثاً: مقارنة بين نظرة المؤمن للهدف من الحياة ، وبين نظرة الكافر للحياة الدنيا:

إن المؤمن الحقيقي الذي مدحه القرآن الكريم ينظر إلى الحياة على أنها نعمة ربانية وهدية رحمانية فيستعملها فيما خلقت من أجله، ويبيع نفسه لله فيربح ربها عظيماً، قال الله تعالى: (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة)، فالمؤمن يستعمل عقله في تأمل آيات الله في الكون وفي تسخير السنن الكون في طاعة الخالق سبحانه، وهو يدرك حقيقة استعمال آياته التي أوتمن عليها فيستعمل عينه وأذنه ويديه ورجليه في طاعة الله تعالى ورضوانه فيصير مظهراً لرضوان الله تعالى ومحبه، كذلك يقوم المؤمن بحق الله عليه فيشكره ولا يكفره على نعمه التي لا تعد ولا تحصى، ويعبده بحب وشوق إلى لقائه يوم الدين، ويرى المؤمن نفسه مظهراً لتجليات الأسماء الحسنى لله تعالى كالعليم والحكيم وغيرها من أسماء حسنى، وبذلك يقدر المؤمن قيمة الحياة ويدرك الهدف منها تأكيداً لقوله تعالى: (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون)، وهو بهذه العقيدة الصافية تسمو نفسه وتركو حتى يستحق الجنة العالية التي قطوفها دانية ويستحق النعيم الأبدي في الحياة الحقيقية في الجنة التي من أجلها خلق الإنسان المؤمن.

أما الكافر الذي لم يدرك حقيقة الحياة وسرها وهدفها وغايتها فإنه يظن أنه خلق ليتمتع ويأكل كما تأكل الأنعام، ويظن الحياة الدنيا هي الحياة الحقيقية، فيعيش عيش رفاه وغفلة وهوى، فيستخف بنعمة الحياة وهدية الشعور وإحسان العقل، ويكفر بنعمة الحياة ويرتكب كفراناً عظيماً ويكسب إثماً مبيهاً.⁷ وكذلك تصبح نعمة العقل وبالاً عليه لأنه لا يجد السلوان أمام المصائب الدنيوية ويستبد به القلق والخوف من المستقبل، وهو يخون الأمانة في استخدام أعضائه، فيأكل بدون قيود، وينظر من غير احتراز عن الحرام ويتكلم بما يعلم وما لا يعلم، ويرتكب جهالات كبيرة، وينكر الآخرة الحقبة فيستحق بذلك عقوبة أبدية ونار لا يصلاحها إلا الأشفى.

إن مشكلة العلوم اليوم باختصار أنها فصلت بين قراءة الكون قراءة مبنية على تعاليم السماء وأخضعتها لقراءة الإنسان المتأله الجاهل (إنه كان ظلوماً جهولاً)⁸ فكيف تعاملت العلوم المعاصرة مع أهم كائن في الحياة ألا وهو الإنسان وما هي نظرة القرآن الصحيحة لعلاقة الإنسان بهذا الكون؟...

رابعاً: الإنسان في المذاهب والفلسفات المعاصرة:

إن إنكار الفلسفة الأوروبية المعاصرة لتأثير الله في الكون، أو حتى وجوده قد أدت بها إلى تعريف المعرفة بأنها: "كل معلوم خرج للحس والتجربة"، وهذا هو تعريف اليونيسكو للمعرفة،⁹ فأبعدت الخالق سبحانه وتعالى عن كونه مدرّكاً معروفاً للإنسان لأن الغيب لا يخضع للحس والتجربة وبذلك أبعدت الإنسان عن مصدر قوته وسعادته وسر وجوده ألا وهو الله تعالى. أدى ذلك إلى الإيمان - منذ ثورة كوبرنيك العلمية وحتى نيوتن - بأن الكون الذي نعيش فيه هو نظام ميكانيكي خاضع لأنظمة الطبيعة كالساعة العظمى وطريقة فهمه خاضع للتجربة والمشاهدة فقط، وأن هذا الكون حدث صدفة وما يحدث فيه صدفة وهذا ولّد نظرية داروين الذي يؤكّد نظرية الصدفة عبر تطور الأنواع فلا يوجد في الكون شيء غيبي، والإنسان وجد صدفة في الكون لا خالق له فهو قد تطور كغيره من الجينات والحيوانات، والمشتغلون بالعلوم الحديثة يرون أن الإنسان ما هو إلا كائن مادي لا يخرج عن كونه امتداداً للظواهر الطبيعية الأخرى، فهو آلة منتظمة وحيوان مدفوع بغرائزه.

والإنسان في الماركسية ما هو إلا نتاج المادة فكراً وسلوكاً وتاريخاً وحلقة من حلقات الصراع في هذا الكون. والإنسان عند الفرويدية تسيطر عليه غريزة الجنس فهي أم الغرائز ويتكيف السلوك البشري بناءً عليها من المهد إلى اللحد. والوجودية بنت نظريتها على حرية الإنسان المطلقة وأعلنت موت الإله. والمذهب البرغماتي يرى أن الإنسان كائن بيولوجي وهو عبد لمنافعه ومصالحه يتصرف بناءً لها ويكيف سلوكه وفقاً لها. وأما في المذهب الرأسمالي فالإنسان وسيلة من وسائل الإنتاج والثروة.¹⁰

وقد أدى بالفلسفة الأوروبية في غضبها على الكنيسة بأن تجعل عدو الإنسان الأول - استغفر الله ألف ألف مرة - هو الله تعالى، واشتهرت المقولة التي تنص على أن كل شيء هو فداء للإنسان وكان الله أول فدية، وأعلن بعض الفلاسفة الملحدين موت الله - استغفر الله ألف ألف مرة -، وأهت الفلسفة الأوروبية الإنسان، فالإنسان هو إله نفسه تحكمه أهواؤه ونزواته، ووصول الإنسان لحرته هو بقطع علاقته بالله تعالى وإن غاية الإنسان الذي هو مخلوق اجتماعي أو حيوان مفكر هي البقاء على قيد الحياة في الصراع

الذي يظهر بين الأنواع وفق قوانين الكون، وما الهدف من العلم إلا تحقيق الرفاه المادي للإنسان الذي هو حلقة دنيوية صاحبة قوى ذهنية.¹¹

أدت هذه الفلسفة إلى أمراض ذريعة فتكت بالإنسان والمجتمع الإنساني.¹² وأدت كذلك إلى إيجاد إنسان الحضارة الغربي المنحرف، إنه إنسان مزدوج الشخصية مشتمل على ثنائية مهلكة فهو فرعون طاغية على غيره وعلى أخوانه من بني البشر والحروب العالمية شاهد مصدق لما أقول رغم دعاوى الحضارة والديموقراطية واحترام حقوق الإنسان، لكنه في التعامل مع أهوائه ذليل ذلة عبد وثني يرتكس في عبادة أحسن الأشياء تدمره المخدرات، ويصرعه الإيدز، ويموت مجاناً تحت عجلات الآلة الإنتاجية الرهيبة ببطء، وتفتك به الأمراض النفسية، أو تدفعه إلى الانتحار السريع، إنه إنسان متمرد على الوجود الجميل وخالقه الجميل الجليل ينكر قدرته وعظمته وجماله الظاهر في الكون، ولكنه مسكين عاكف على محراب لذائذه القاتلة، فهو لأجل لذة تافهة يقبل قدم الشيطان بوعي منه أو بغير وعي، يسجد لأصنام المال والجنس، ولكون هذا الإنسان فارغاً من الإيمان والتوحيد والنظرة الصحيحة إلى الكون والحياة وغاياتها فإنه يشعر بعجز ذاتي أصيل يدفعه إلى إملاء النقص ومعالجة مركبة بالتجبر على الآخرين، والثورة على الطبيعة، وقد تفتح له في الكون والحياة آفاق وحقائق مدهشة إلا أنها لا تهديه إلى الحق لأنه لا يجد مرتكراً في قلبه من الإيمان بأوي إليه.¹³ وهذا مصداق قوله تعالى: (لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل)¹⁴.

إنّ هذا الكفر الذي تولد من إنكار الله تعالى، يُحطّمُ الماهيةَ الإنسانيةَ ويحوّلها من الأماس إلى الفحم لأنه يقطع انتساب الإنسان لخالقه العظيم الله، ويرجع خلقه للتصادف الأعمى والطبيعة السافلة، وبذلك لا يعترف الإنسانُ بقدرته الله وعظمته المتجلية في خلقه فيقلب حقيقة وجوده الأماسي إلى زجاج يتكسر ويفنى فيهبوي إلى دركة أسفل سافلين،¹⁵ التي عبّر الله عنها بقوله: (ثم رددناه أسفل سافلين إلا الذين آمنوا)¹⁶.

إن الكفر والعياذ بالله يخرج الإنسان من إنسانيته ويسبب له الشقاء الذي يعيشه اليوم (ومن أعرض عن ذكرني فإن له معيشة ضنكا)¹⁷، ويحمل على رأس الإنسان الضعيف

الهموم والغموم واليأس القاتل وقد اعترف كثير من الغربيين بأنهم بابتعادهم عن الأخلاقيات وعن تعاليم السماء والإيمان بالله فإن حضارتهم ساءت الإنسان للاتجار حتى قال هافل Havel: إنني اعتقد أن هذه الأزمة مرتبطة بشكل مباشر بفقدان روح الحضارة العصرية يعني فقدان القطعية الميتافيزيقية... وفقدان السيطرة الأخلاقية التي هي فوق كل شخصية...¹⁸

وإن إقصاء علماء النفس والاجتماع الغربيين للبعد الروحي والإيماني عند الإنسان أدى بهم لعدم فهم الإنسان فهما صحيحا ومن ثم تفسير بعض أنماط السلوك الإنساني والاجتماعي تفسيراً خاطئاً مما دفع بالإنسان إلى هاوية الفساد الأخلاقي بالرغم من هذا التقدم المادي الكبير.

خامساً: الإنسان في القرآن:

لقد وضع الإسلام للإنسان تصوراً واقعياً:

- 1- خلق الله الإنسان خليفة له في الأرض لعمارها ولعبادة الله تعالى فيها، وكرمه وفضله على كثير ممن خلق تفضيلاً.
- 2- الإنسان مخلوق من عنصرين جسد من طين، وروح نورانية من أمر الله تعالى تجل في الجسد فتحياه وينتج عن اندماج الروح والجسد النفس.¹⁹
- 3- لا بد من إشباع كل من حاجات الجسد والروح (وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا)²⁰.
- 4- لا يطمئن الإنسان في الحياة إلا بمعرفة الله تعالى الخالق الواحد الأحد الصمد. وبدون معرفته تتولد الأمراض الاجتماعية والنفسية، قال الله تعالى: (ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكاً)²¹، وهذا كما ينطبق على الأفراد فإنه كذلك ينطبق على الجماعات.
- 5- الإنسان لديه استعداد بأن يرقى إلى أعلى عليين بإيمانه بالله تعالى واتباعه لأوامره عز وجل، أو بأن ينزل إلى دركة أسفل سافلين بالكفر واتباعه للباطل، قال تعالى: (والعصر . إن الإنسان لفي خسر . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا

بالحق وتواصوا بالصبر)، وقال أيضا: (لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم . ثم رددناه أسفل سافلين . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات).

فالإسلام ربي إنسانه المتحضر على الشكل التالي:

"المؤمن راقى الأخلاق هيناً ليناً، ذو كرامة موفورة وعزة إيمانية فهو لا يسجد إلا لله ولا يخضع إلا له، أما الشهوات فلا تؤثر فيه ولا يعبدها وهو في منظوره الاجتماعي والكوني رحب الصدر لأنه يشعر أن: جميع عباد الله الصالحين في الأرض والسموات إخوان له، ويشعر من أعماق روحه بأواصر تشده إليهم"²² وهو مطمئن لا تهزمه الحن ولا الابتلاءات لأنه يواجهها بالصبر والإيمان الخالص. إن الإنسان كما يعرفه القرآن هو:

حائمة ثمرات شجرة الكون، وأجمع ما فيها من الصفات... وهو الآية الكونية الكبرى لقرآن الكون بل هو الآية الحاملة لتجليات الاسم الأعظم في ذلك القرآن الكوني كآية الكرسي في القرآن.. وهو خليفة الأرض.. وأنشط موظف مأذون له بالتصرف في سكنه ذلك القصر.. الحامل للأمانة الكبرى...²³

وقد فتح الله أمامه طريقين إما ليرقي إلى أعلى عليين بالإيمان به أو لينزل إلى أسفل سافلين بالكفر به، هذا هو الإنسان في نظر القرآن. فشتان بين المؤمن الذي يعطي قيمة للوجود ولكل موجود وذلك بإيمانه بالخالق المبدع، وبين الكافر الذي يحقر الكائنات عندما يقول بأن الوجود صدفة وعبث، فالكافر بهذه العقيدة الفاسدة ينكر تلقائياً آثار أسماء الله الحسنى المتجلية في كل شيء من هذا الكون.²⁴

ومما سبق يتبين أنه لا يمكن بأي حال فهم الإنسان أو تفسير سلوكه في حياته الفردية والاجتماعية إلا في ضوء ذلك البعد الروحي المتصل بوعي الإنسان بوجود ربه ومليكه، ومعرفته بصفات الخالق وأسمائه وكمالاته.. وما يترتب على ذلك من ارتباطه بالله عز وجل، فهذا البعد الروحي هو الذي يعطي حياة الإنسان معناها الحقيقي.²⁵ وهذا البعد الروحي هو الذي يعيننا على وضع الحلول المناسبة للمشكلات الاجتماعية والنفسية التي يعاني منها الإنسان اليوم.

وبهذه النظرة الثاقبة للإنسان التي أكدها الإمام النورسي في رسائل النور فإنه وضع النقاط على الحروف، وأوضح الحل الناجع للإنسانية اليوم كي تخرج من مأزقها الذي

وقعت فيه بسبب الابتعاد عن منهج الحق، منهج الله تعالى الذي بينه الرسول صلى الله عليه وسلم، قال الله تعالى: (قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني..).

إن موضوع الحياة واسع في رسائل النور، وليس الهدف من هذا البحث هو تفصي كل الموضوعات التي تكلم عنها الإمام النورسي عن الحياة وإنما نشير إلى بعض القضايا الهامة في هذه الرسائل تفرد بها الإمام النورسي، وأبدع رحمه الله تعالى فيها. ومن هذه الأمور:

أن الحياة تدل على الأركان الستة: الإيمان بالله تعالى والملائكة والبعث والرسول والكتب والقدر.²⁶ فإذا كانت الحياة هي نتيجة الكائنات وحكمة خلقتها، فإنها لا تنحصر في هذه الحياة الدنيا الأليمة الناقصة والقصيرة الفانية، بل إن غاية شجرة الحياة ذات الخواص التسع والعشرين السابقة، وثمرتها اللائقة بعظمتها هي الحياة الأبدية الأخروية في دار السعادة الحية بأحجارها وأشجارها وتراجمها، فالإيمان باليوم الآخر يعطي الإنسان الطمأنينة ويمده بالقوة اللازمة لتحمل أعباء الحياة، والطمع برحمة الله وعدله لأنه وحده هو مالك يوم الدين، فهو الذي يعفو عن المذنبين، ويقتص من المعتدين. أما غير المؤمنين فإنهم عن الآخرة غافلون، ولا يعلمون إلا ظاهرا من الحياة الدنيا، فياكلون ويتمتعون كما تأكل الأنعام ويستلذون بالحياة من دون شكر المنعم وبذلك يرتكبون ذنبا لا يغفر وكفرانا عظيما أما المنعم الحقيقي والخالق الواحد الأحد سبحانه، وبذلك يسقط معنى الحياة، وتصير الحياة لا هدف ولا غاية لها، مع أن الدلائل العقلية والشرعية تدل على أن كل شيء في الحياة يسير نحو هدف محدد، ويحقق هدفا مرسوما ومقدرا من القدير العليم، فتعسا لمن غابت عنه هذه الحكم ولم يتذوق لذاتها ولم يدرك مغازيها، ولهذا فإن الكافر يوم الدين يكون حاله: (يوم يعرض الظالم على يديه يقول يال ليتني اتخذت مع الرسول سبيلا) ، أما المؤمن الذي أدرك معنى الحياة وهدفها فشكر وعبد بحبة ورهبة فجزاؤه أنه يؤتى كتابه بيمينه وينقلب إلى أهله مسرورا لأنه آمن بالحساب فلم يسرف ولم يعتد على حرمة الله تعالى ويكون مصيره جنات عدن التي تجري من تحتها الأنهار والتي وعد الرحمن عباده المتقين.

ويصل الإمام النورسي في نهاية الرمز الرابع إلى الحقيقة الرائعة التي قرر فيها بأن الوحي القرآني والرسالة المحمدية هما روح الحياة وعقلها، "وإن حياة محمد صلى الله عليه وسلم -المادية والمعنوية- بشهادة آثارها حياة حياة الكون، والرسالة المحمدية شعور لشعور الكون ونور له، والوحي القرآني -بشهادة حقائقه الحيوية- روح حياة الكون وعقل لشعوره... فإذا ما فارق نور الرسالة المحمدية الكون وغادره مات الكون وتوفيت الكائنات، وإذا ما غاب القرآن وفارق الكون جن جنونه وفقدت الكرة الأرضية صوابها، وزال عقلها، وظلت دون شعور، واصطدمت بإحدى سيارات الفضاء وقامت القيامة".²⁷ هذه حقيقة لا يمكن إنكارها، ولكن الكافرين عنها غافلون، ولو علموا ما في الإسلام من رحمة وهدى وطمأنينة للنفس وللمجتمع لاعتقوه وبدلوا من أجله الغالي والرخيص، ولو علموا ما في الإسلام من رحمة وسلام لما أهتموه بالحث على الإرهاب ولما أهتموا أتباعه بالتطرف والعنف وغيرها من أمور، قال الله تعالى: (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين)، والتاريخ خير شاهد على الرحمة التي تضمنتها الرسالة الإسلامية للناس أجمعين. فالله أحينا مسلمين وأمتنا مسلمين، وابعثنا مسلمين، والحمد لله رب العالمين.

ويختتم الإمام النورسي كلامه عن الحياة في الرمز الخامس من اللمعة النكتة الخامسة في اللمعة الثلاثين، ويركز على كيفية دلالة الحياة على وحدانية الله تعالى وأحديته، وكيف أن الحياة لها من الجامعة بحيث تعرض في نفسها أغلب السماء الإلهية الحسنى المتجلية على الكائنات كلها وكأنها مرآة جامعة تعكس الأحدية.²⁸

سادسا: مقارنة بين حكمة الإسلام وحكمة الفلسفة في النظر إلى الحياة الدنيا:

إن الإسلام الدين الكامل هو الدين الحق، وإن مبادئه أتت من الأزل لتذهب إلى الأبد، وإن قوانينه تشب وتزداد نضارة كلما شاب الزمان، وفي الإسلام مبادئ وقوانين تجعله الدين المهيمن على كل الأديان المعاصرة والمذاهب الفلسفية والفكرية الإنسانية المعاصرة. وفي المقابل فإن قوانين الفلسفة الغربية التي تعتمد عليها الحضارة الغربية اليوم فيها نقص وتناقض وتعارض، ولهذا السبب فقد سببت الشقاء للبشر بالرغم من تفوقها المادي والتكنولوجي، وحرمتهم الراحة والطمأنينة، وولدت لهم الفراعنة والجبابرة،

وجعلت من دولهم دولا لا تعترف بحقوق الإنسان الذي لا ينتمي لبشرتهم أو دينهم، وللأسف.

وقد عقد الإمام النورسي مقارنة بين قوانين المدنية الحديثة وقوانين الإسلام الخالدة السامية وبرهن أن قوانين الإسلام فيها توافق تام مع متطلبات النفس الإنسانية والمجتمع البشري والفطرة التي فطر الله الناس عليها، ولهذا السبب بقي الإسلام كدين تدين به خمس البشر على مر الأزمنة والأيام، وسيبقى على أن تقوم الساعة.²⁹ وكذلك عقد الإمام النورسي مقارنة رائعة بين حكمة القرآن وكيف تنظر للكون والدينا، وبين الفلسفة وكيف تنظر للكون والدينا وخلص إلى هذه الخلاصة التالية وهي:

1- ان فلسفة البشر وحكمته تنظر إلى الدنيا على أنها: ثابتة دائمة، فتذكر ماهية الموجودات وخواصها ذكراً مفصلاً مسهباً، بينما لو ذكرت وظائف تلك الموجودات الدالة على صانعها فانها تذكرها ذكراً مجملاً مقتضباً. أي أنها تفصل في ذكر نقوش كتاب الكون وحروفه، في حين لا تعير معناه ومغزاه اهتماماً كبيراً.

أما القرآن الكريم فانه ينظر إلى الدنيا، على أنها: عابرة سيّالة، خداعة سيّارة، متقلبة لا قرار لها ولا ثبات، لذا يذكر خواص الموجودات وماهياتها المادية الظاهرة ذكراً مجملاً مقتضباً، بينما يفصل تفصيلاً كاملاً لدى بيانه وظائفها التي تنم عن عبوديتها التي اناطها بما الصانع الجليل، ولدى بيانه مدى انقياد الموجودات للأوامر التكوينية الإلهية، وكيف وبأي وجه من وجوهها تدل على أسماء صانعها الحسني.

2- إن القرآن الكريم بجميع آياته المتوجهة للكون (اي الآيات الكونية) يكشف عن حقيقة الدنيا كما هي، ويبيّن لها لانظار. ويصرف نظر الانسان ببيانه إلى مدى دمامة وجه الدنيا القبيح وفنائها بآيات مثل قوله تعالى: (اذا السماء انفطرت...) (اذا الشمس كوّرت...) (اذا السماء انشقت...) (ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الارض إلاّ من شاء الله...) (الزمر: 68) - ليتوجه إلى الوجه الصبوح الجميل للدنيا الجميلة، ذلك الوجه المتوجه إلى الصانع الجليل. فيوجه نظر الانسان إلى هذا الوجه، ملقناً اياه الحكمة الصائبة والفلسفة الحقّة بما يعلمه من معاني كتاب الكون الكبير مع التفاته إلى حروفه ونقوشه، من دون ان يبدد جهوده فيما لا يعنيه من امور نقوش الحروف الزائلة

كما تفعله الفلسفة الثملة العاشقة للقبح، حيث أنسته النظر إلى المعنى والمغزى.

فالفلسفة السقيمة؛ بتدقيقاتها الفلسفية وتحرياتها، وبمفهوم الطبيعة المادي، وبمغريات المدنية السفهية الفاتنة، وهوساتها وعربدتها.. كثفت تلك الدنيا وزادتها صلابة وتجمداً، وعمقت الغفلة في الانسان، وضاعفت من لوثاتها وشوائبها حتى أنسته الصانع الجليل والآخرة البهيجة.³⁰

الخاتمة

إن الإمام النورسي رحمه الله تعالى قد أوضح إيضاحاً رائعاً معنى الحياة وقيمتها ، وكذلك أوضح كما بينا الهدف الحقيقي من الحياة وأن لا حياة بدون إيمان، بل إن الهدف الحقيقي من الحياة هو بمعرفة الله تعالى. وإن المدنية الحديثة المنكرة للآخرة لم تقدم للإنسان إلا الشقاء والغفلة والسفاهة، لأن هدفها إشباع الشهوات الإنسانية وتزويد حاجات البشر، ولا يشبع الإنسان غير المؤمن من شيء.

فالحمد لله على الإسلام ونعمة الإيمان ، والإسلام هو الدين الذي سيخرج الإنسانية من شقائها وغفلتها عن الله تعالى وعن الآخرة. فاللهم وفقنا لنشر القرآن ونشر انوار القرآن بكمال الرواج بين عالم الإسلام.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الهوامش

- 1 الحسين بن محمد الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، تحقيق محمد خليل عيتاني، (بيروت: دار المعرفة، 1998/1418)، ط1، ص: 144-145.
- 2 علي بن محمد الجرجاني، كتاب التعريفات، تحقيق إبراهيم الأبياري، (بيروت: دار الكتاب العربي، 1423هـ/2002)، ط1، ص: 81.
- 3 الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، ص: 144-146.

-
- 4 سعيد النورسي، اللغات، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، (القاهرة: شركة سوزلر للنشر، 1993/1413)، ط2، ص: 558-560.
- 5 المرجع السابق نفسه، ص: 560.
- 6 المرجع السابق نفسه، ص: 562.
- 7 المرجع السابق نفسه، ص: 559-560.
- 8الأحزاب: 72.
- 9طه جابر العلواني، الجمع بين القراءتين، ص: 26.
- 10بلفاسم محمد الغالي، الإنسان في نظر الإسلام، مجلة كلية أصول الدين والدعوة، الزقازيق، مصر، العدد الثامن، 1995، ص: 452 - 453.
- 11ميم كمال أوكه، بديع الزمان وأسلمة المعرفة، ص: 465 - 466.
- 12 عقد الإمام النورسي مقارنة مهمة بين الحضارة الغربية وفلسفتها، والحضارة الإسلامية وفلسفتها في كتابه المقالات، ص: 48.
- 13محمد رشدي عبيد، فكر سعيد النورسي، قراءة معاصرة، أوراق المؤتمر العالمي لبديع الزمان سعيد النورسي، (استانبول، نسل، 1996)، ط1، ص: 485.
- 14الأعراف: 179.
- 15سعيد النورسي، المقالات، ترجمة محمد زاهد الملازكردي، (بيروت، عالم الكتب، 1406 / 1985) ط1، ص: 353.
- 16التين: 5.
- 17طه: 124.
- 18ميم كمال أوكه، بديع الزمان وأسلمة المعرفة، ص: 466.
- 19 إبراهيم عبد الواحد رجب، المنهج الإسلامي وعلاج المشكلات النفسية الاجتماعية، ص: 68.
- 20القصص: 77.
- 21طه: 124.
- 22محمد رشدي عبيد، فكر سعيد النورسي قراءة معاصرة، ص: 485.
- 23 سعيد النورسي، الشعاعات، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، (القاهرة: 1414 / 1993)، ط2، ص: 272 - 273.
- 24سعيد النورسي، المقالات، ترجمة محمد زاهد الملازكردي، ص: 365.
- 25إبراهيم عبد الواحد رجب، المنهج الإسلامي وعلاج المشكلات النفسية، ص: 69.
- 26 سعيد النورسي، اللغات، ص: 563-566.
- 27 المرجع السابق نفسه، ص: 567-568.
- 28 المرجع السابق نفسه، ص: 567-568.
- 29 النورسي، الكلمات، ص: 727.
- 30 النورسي، الكلمات، ص: 510.

المرأة الإصلاحية في فكر الشيخ النورسي

د. سعاد الناصر (أم سلمى)

جامعة عبد المالك السعدي - تطوان

المغرب

مقدمة :

إن ما تعيشه الأمة من نكبات وتصدع وتخلف في مختلف الميادين أسال مدادا كثيرا من أقلام ثلة من المصلحين والمخلصين الذين حاولوا أن يضيؤوا جوانب من الظلمات التي تتخبط فيها بتشخيص أمراضها وتبيان عللها، وإخراجها من واقعها الذي جعل منها أشلاء متناثرة، ومن أفرادها أناسا يعيشون على هامش الحضارات. إخراجها من واقع القصة التي أذرنا به رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله: "توشك أن تتداعى عليكم الأمم كما تتداعى الأكلة إلى قصعتها. قالوا: أو من قلة نحن يا رسول الله؟ قال: بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، يترع الله المهابة منكم ويزرعها في قلوب أعدائكم، ويلقي في قلوبكم الوهن. قالوا: وما الوهن يا رسول الله؟ قال حب الدنيا وكراهية الموت"¹. وقد أراد الله أن يلهم الشيخ النورسي لتجديد دينه من خلال ما سطره بوجدانه وعقله وبصيرته في كليات رسائل النور، بعد أن تيقن أن قضية الأمة هي قضية الإيمان قبل كل شيء. وها هو بنفسه يقدم للعالم أجمع من خلال هذه الكليات العلاج الرباني، بعد أن غمرت أنوار القرآن الكريم في المنفى روحه، يقول متحدثا عن لحظات التدفق الإيمانى الأولى² بعفوية صادقة: "في هذه الغربة المكتنفة بالحزن، ومن خلال هذا الحزن الذي يمازجه الحزن، بدأت أبحث عن نور، وعن قيس أمل، وعن باب رجاء، وسرعان ما جاء "الإيمان بالله" لنجدتي ولشد أزري، ومنحني أنسا عظيما بحيث لو تضاعفت آلامي ووحشتي أضعافا مضاعفة لكان ذلك الأانس

كافيا لإزالتها".³ ومنذ هذه المرحلة بدأت تتوالى مفاهيم استبصارية متجددة عن حقائق الإيمان المتألفة في القرآن الكريم، وذلك من أجل هدف سام هو إعادة بناء شخصية الأمة بوصفها خير أمة أخرجت للناس، لمواجهة مختلف التحديات والأمراض والأزمات، ولانتشال الإنسانية جمعاء من عذاباتها واضطراباتها، من خلال إرشادها إلى معلم قوانين الكون الأول المزروعة في فطرة الإنسان ومحقق التوازن بينها القرآن الكريم. والحرص على تبيان تناغم الفطرة التي فطر الله تعالى عليها الإنسان وتجليتها في نفسه إذا أحسن الإصغاء إلى الحق، يقول في الكلمات: "إنك إذا ألقيت السمع إلى النفس فستسقط إلى أسفل سافلين، وإذا أصغيت إلى الحق والقرآن فسترتقي إلى أعلى عليين وكنتم في أحسن تقويم في هذا الكون" والباحث في رسائل النور يجد نفسه في حديقة غناء، مختلفة الثمار والألوان. كل ثمرة تحتاج إلى بحوث ودراسات متعددة للوقوف عندها وتذوق حلاوتها. وقد ارتأيت الوقوف عند ثمرة من هذه الثمار وهي رؤيته الاستبصارية للمرأة ودورها الإصلاحية في المجتمع الإسلامي، منطلقة من مبحث ضروري كان الدعامة الأساس الذي ارتكزت عليه كل موضوعات الكليات، وهو تصحيح عقيدة التوحيد في النفوس كي تصل إلى حقائق الإيمان النورانية، لنذكر أن بلوغ هذا الهدف هو جوهر دعوته التجديدية، ولنلمس الجهد الجبار الذي بذله بديع الزمان لتبصير الأمة، وعدم إغفاله لأي جانب من الجوانب المساهمة في يقظتها ورقبيتها.

1 - الإيمان لذة الدنيا الحقيقية الموصلة إلى الجنة :

حدد بديع الزمان النورسي رحمه الله أولى المفاهيم الضرورية لتعريف القرآن الكريم بإشراقات نورانية فاضت من قلبه ووجدانه وتدقت بانبهار تعلم الإنسان كيفية التعلق بالربوبية والإنصات المتبصر لشلالات الوحي حين قال: "إن القرآن كلام الله باعتبار أنه رب العالمين، وبعنوان إله العالمين، وباسم رب السماوات والأرضين، ومن جهة الربوبية المطلقة، ومن جهة السلطنة العامة، ومن جانب الرحمة الواسعة، ومن حيثية حشمة عظمة الألوهية، ومن محيط اسمه الأعظم إلى محاط عرشه الأعظم"⁴. وهذا التعريف التدقيقي يشير إلى الغياب المعرفي والحسي لحقيقة "القرآن كلام الله" الذي يعترى الأمة، رجالا ونساء، وكان من نتيجته ضعف الحس الإيماني في النفس البشرية، والجنوح نحو الضياع والباطل، لأنها لم تعد تعي بأن كلام الله تعالى موجه إلى الإنسان

ليشكل روحه، ويزرع في أعماقه مشاعر ربانية مثل الصفاء والصدق والفداء والإخلاص. ولن يكون هناك انبعاث لهذه الأمة إلا بالتشبث بالدين، ف"الدين حياة الحياة وحياتها، وإحياء الدين إحياء هذه الأمة". من هنا كانت رسائل النور تفسيرا جديدا للقرآن، وإيضاحا ساميا للكشف عن الطريق المفضي إلى معرفة الله تعالى ونقش محبته سبحانه في القلوب والعقول. وقد وضع الشيخ النورسي جوابا عن تساؤل افترضه "فإن قلت القرآن ماهو؟" مقربا للوجدان الإنساني الفضاءات الشاسعة، وما لا يُحد من الأنوار الربانية التي ذاق منها فقال: "هو الترجمة الأزلية لهذه الكائنات، والترجمان الأبدى لألسنتها الثاليات للآيات التكوينية، ومفسر كتاب العالم. وكذا هو كشاف لمخفيات كنوز الأسماء المستترة في صحائف السماوات والأرض. وكذا هو مفتاح الحقائق والشؤون المضمرة في سطور الحادثات. وكذا هو لسان الغيب في عالم الشهادة. وكذا هو خزينة المخاطبات الأزلية السبحانية، والإلتفاتات الأبدية الرحمانية. وكذا هو أساس وهندسة وشمس لهذا العالم المعنوي الإسلامي. وكذا هو خريطة للعالم الأخرى. وكذا هو قول شارح، وتفسير واضح، وبرهان قاطع، وترجمان ساطع لذات الله وصفاته وأسمائه وشؤونه". وبلوغ مثل هذه الفضاءات وسيلة ناجعة لتقوية أواصر المحبة والأخوة في بنية المجتمع، ولتنمية العلاقات الإنسانية الإيجابية. ولا شك أن انهيار العلاقات الإنسانية والاجتماعية بضمور الإيمان في النفس وابتعاد الإنسان عن ربه وعدم الإخلاص في العمل له سبحانه من نتيجته ما تتعرض له الأمة من ضربات على مختلف الأصعدة. ومن الخطوات الأساسية كما يرى الشيخ النورسي في نهضة الأمة، ووضعها على الطريق الصحيح للإصلاح والتجديد، بناء الأسرة بناء إسلاميا قائما على الإيمان، الذي يتحول إلى حب يشمل أفراد الأسرة كلها، ثم المجتمع برمته، لأن "الحياة العائلية" كما يقول⁵ هي مركز تجمع المجتمعات، وبيت كل إنسان هو دنياه الصغيرة بل جنته المصغرة. فإن لم يكن الإيمان الصادق حاكما ومهيمننا في سعادة هذا البيت لوجد كل فرد من أفراد تلك العائلة اضطرابا أليما وعذابا شديدا في علاقة بعضهم ببعض حسب درجات رأفته ومحبته لهم. فانعدام المحبة داخل الأسر تؤدي إلى الاضطراب والتعاسة لأنها تفتقد الأخلاق السامية التي تربطهم ببعض نتيجة قلق أرواحهم واضطرابها وعدم رقيهم في مدارج الإيمان. والعلاج الطبيعي المؤدي إلى سعادة الدنيا والفوز بالجنة

كما يراه بديع الزمان، هو إحلال الإيمان بالله في ذلك البيت حتى ينور أرجاءه مباشرة ويستضيء، ذلك أن علاقات القربى والرفقة والمحبة التي تربط أفراد الأسرة الواحدة تقوم على الاحترام المتبادل والمحبة والصداقة والرفقة وسيادة الأخلاق السامية، وتؤدي إلى السعادة الإنسانية الحقة، بصرف النظر عن تقصيرات أحد أفراد الأسرة. "والحياة الأسرية هي قلعة الإنسان الحصينة، ولا سيما المسلم، فهي كجنته المصغرة وديناه الصغيرة"⁶ التي يجد فيها سعادته. وهذه السعادة لا تُقاس ضمن زمن قصير بل تمتد إلى بناء علاقات خالدة في الآخرة والنعيم بالسعادة الأبدية. ولن يصل الإنسان إلى كل هذا إلا بتحكيم القرآن الكريم في الحياة الاجتماعية، لأنه يربي النفس ويزكيها ويصفي القلب وينقيه ويمنح الروح انكشافا ورقيا والعقل استقامة ونورا⁷. وبما أن المرأة نصف المجتمع، وتحمل مسؤولية كبيرة في تربية الإنسان منذ أن يكون طفلا يرضع توجيهاً وتصوراتها، فقد أولاهما الشيخ النورسي أهمية خاصة نابعة من أهمية مكانتها في الإسلام، وأبرز أنها معدن الشفقة ومنبعها. وبخاصة الأم المؤثر الأول في التربية والتعليم يقول: "إن أول أستاذ للإنسان وأكثر ما يؤثر فيه تعليماً إنما هو والدته. وأقسم بالله أن أرسخ درس أخذته، وأنه يتجدد علي، إنما هو تلقينات والدتي لفطرتي وروحي، وأنا في السنة الأولى من عمري التي أصبحت كالبذور، التي تنبت حقائق على مدى عمري كله"⁸. فالأمومة في الشريعة الإسلامية كما بين الشيخ النورسي وظيفة من أخطر الوظائف التي تقوم بها المرأة في الحياة، لأنها تقوم بصياغة الإنسان وبناء شخصيته، ولذلك فإن العالم اليوم في أمس الحاجة إلى إبراز هذه الوظيفة التي تكاد تضيع في مستنقع الماديات. وإيلائها المكانة اللائقة بما كي تقوم بدورها التوجيهي والإصلاحي كما يجب. والحس الأمومي في المرأة يولد معها قبل أن ترزق بالأطفال، يكمن في فطرتها حسب تعبير بديع الزمان "حب الأولاد وملاطفتهم"، وهذا ما دعاه إلى اعتبارها معدن الشفقة ومنبعها، كما أن "فداء الأم بروحها لولدها من الهلاك من دون انتظار الأجر، وتضحيتها بنفسها بإخلاص حقيقي لأولادها، باعتبار وظيفتها الفطرية، تدلان على وجود بطولة سامية رفيعة في النساء، بحيث يستطعن أن ينقذن حياتهم الدنيوية والأخروية بانكشاف هذه البطولة والمجالاتها في أنفسهن"⁹. وهذا الدور الهام للأمومة في المجتمعات الإنسانية جعلته يحذر الأم من انسياقها وراء تربية أبنائها تربية دنيوية لا مجال للإيمان أو للآخرة فيها، لأن

الغياب الديني في التربية تجعل العلاقة بينهما هشّة ومهددة. يقول: "إن الوالدة الحنوننة تضع نصب عينها كل فداء وتضحية، لتمنع عن ولدها المصائب والمهلك، لتجعله يستفيد في الدنيا، فتربي ولدها على هذا الأساس، فتتفق جميع أموالها ليكون ابنها عظيما وسيدا آمرا.. فتراها تأخذ ولدها من المدارس العلمية الدينية وترسله إلى أوروبا، من دون أن تفكر في حياة ولدها الأبدية التي تصبح مهددة بالخطر. فهي إذن تسعى لتنقذه من سجن دنيوي، لا تهم بوقوعه في سجن جهنم الأبدي، فتتصرف تصرفا مخالفا لفطرتها كلية، إذ بدلا من أن تجعل ولدها البريء شفيعا لها يوم القيامة، تجعله مدعيا عليها"¹⁰. إن التركيز على دور الأم في حياة الإنسان ينبع عن وعي ناضج وتشرب واضح لمقاصد القرآن الكريم، وهي دعوة واضحة إلى ضرورة إعداد الأم المريية كي تخرج للمجتمع أفرادا صالحين وفاعلين، والاستفادة من نزعات الحنان والرحمة الكامنة في المرأة عموما لبناء أسر تقيم التوازن بين عمارة الأرض بالنماء والصالح والعمل الصالح وبين التطلع إلى التمتع بأبدية ربانية. "حقا إذا اجتمعت الشفقة والإخلاص في تلك الطائفة المباركة (طائفة النساء) فإنهن سيكونن مدار سعادة عظمى في المحيط الإسلامي"¹¹.

والتأمل للأسس التي قامت عليها رسائل النور يكشف أن الإخلاص والشفقة من أهم هذه الأسس، لأن بديع الزمان أدرك عن وعي وبصيرة أن إيمان المسلم في العصر الحديث ينقصه توهج الإخلاص الصادق وسره. من هنا كان تركيزه على كشق هذا المعدن المتأصل في المرأة من أجل استغلاله في تربية الأجيال. كذلك الأمر بالنسبة للشفقة، فهي عنصر متأصل في المرأة دعا بديع الزمان لاستغلاله في بناء المرأة الإصلاحية التي توجه المجتمع بحنائها وشفقتها وعاطفتها الجياشة إلى التوحد المنسجم مع الفطرة وكل القوانين الكونية، وإلى التراحم والتواد والسكن بالمفهوم القرآني الممتد إلى الحياة الأخروية.

لكن نخشى أن نقول إن لهات المرأة وراء الشهوات العابرة والماديات الطاغية في العالم حد من تدفق عطاءاتها المعنوية، الأمر الأساس الذي جعل العالم يفقد لمستها الإنسانية ويعيش اضطرابات وجبروت وقسوة، وتعبير أكثر دقة يعيش مرحلة سوء الأخلاق. وقد بينت مختلف الدراسات التربوية الحديثة أن الخلق لا يتكون في النفس

فجأة ولا يولد مكتملاً ناضجاً بل يتكون على مكث، وينمو مع التربية الطويلة والتعهد المستمر. وهذه مهمة المرأة بطبيعة دورها الأساس في الحياة، وبتهيئتها لتفجير منابع الشفقة والرحمة والحنان في أعماقها ليرتوي العالم منها، ومن إخلاصها، كي تحد من معاناته. ومن هنا ندعو إلى إعادة بناء المرأة بناء إيماناً كي تستطيع القيام بمهمتها كما ارتضاها الله تعالى لها. وتظل كلمات الشيخ النورسي سارية في أعماقها إذا ألفت إليها السمع بإخلاص، وبخاصة في قوله رحمه الله ونفع به الأمة: "اعلمن يقينا أن اللذة الحقيقية في هذه الدنيا إنما هي في الإيمان، بينما في الضلالة والغي آلاما منغصة. وقد شاهدت بعين اليقين عبر تجارب كثيرة: أن في الإيمان بذرة جنة، وفي الضلالة والسفه بذرة جهنم".

2- الاختيار المتكافئ :

أكد بيدع الزمان ضرورة اختيار شريك الحياة الذي يبلغ بصاحبه السعادة الأبدية، وتحديد الهدف من الزواج نفسه، وعدم جعله مجرد وسيلة لاقتناص لذة عابرة. وقبل كل شيء التشبث بالمفهوم الإسلامي للزواج، لنستمع إليه وكأنه يخاطب المقبلين على الزواج في واقعنا المعاصر يقول: "إن زماننا هذا لا يشبه الأزمنة الغابرة، فقد تمكنت التربية الحديثة الأوروبية في المجتمع، عوضاً عن التربية الإسلامية، طوال نصف قرن من الزمان، إذ بينما الذي يتزوج ليحصن نفسه من الآثام وليجعل زوجته صاحبة الأبدية، ومدار سعادته الدنيوية بدافع من تربية الإسلام. . نراه يجعل تلك الضعيفة المنكوبة بتأثير التربية الأوروبية تحت سطوته وتحكمه الدائم، ويحصر حبه لها في عهد شبابها وحده، وربما يزوجها في عنت ومشقات تفوق كثيراً ما هيأ لها من راحة جزئية. . فتمضي الحياة في عذاب وآلام، ولا سيما إذا لم يكن الزوج كفؤاً بالاصطلاح الشرعي، حيث الحقوق الشرعية لا تُراعى. . وإذا تداخلت المنافسة والغيرة والتقليد فالبلاء يتضاعف"¹². وهذا النص المقتبس يكشف عن مجموعة من المسائل الهامة في قضية المرأة منها :

- الهدف الأساس من الزواج تحصين النفس الأمانة بالسوء من الآثام، وهو هدف شرعي بالأساس.

- جعل الزوجة مدار حياة الزوج مما يبين تشرب الشيخ النورسي بمفهوم السكن القرآني الذي ينتج عنه علاقات المودة والرحمة بين الزوجين.

- رعاية حقوق الزوجة الشرعية، الحقوق التي تعتبر مسؤولة عنها بالدرجة الأولى وضيعتها بجهلها أو استسلامها. ولا شك أن استعادة معرفتها بما تجعلها تؤدي دورا أكثر فاعلية مما هي عليه. كما أن احترام الزوج لهذه الحقوق ورعايته لها وعدم تجاوزها وسيلة ناجعة لتحقيق التفاهم والاحترام المتبادل.

- الفرق بين التربية الإسلامية والتربية الغربية في تكوين شخصية المسلم، وأثرها في العلاقات الاجتماعية والأسرية على وجه الخصوص. يقول الشيخ مخاطبا المتزوجين: "اجعلوا من بيوتكم مدرسة نورية مصغرة، وموضع تلقي العلم والعرفان كي يتربي الأولاد الذين هم ثمار تطبيق هذه السنة على الإيمان، فيكونون لكم شفعا يوم القيامة، وأبناء بررة في هذه الدنيا، وعندها تتقرر هذه السنة الشريفة فيكم حقا"¹³. إن هذه الدعوة تذكركم بأن الطفل هو عماد المستقبل، وأن الإسلام قام على أكتاف الأطفال الذين تربوا في حضن مراحل الدعوة الأولى، وتخرج منها القادة فاتحي العالم، وصانعي أولى بذرات الحضارة اللائقة بالإنسانية.

ويحدد بديع الزمان ثلاثة أسباب تدفع المرأة إلى الزواج الذي قد يسقطها في الشقاء فتحسر الدنيا وتنحرف لخسران الآخرة¹⁴ :

1- الميل إلى المتعة الجنسية التي وضعها الله تعالى في الإنسان لإدامة النسل، وهنا يحذر النورسي المرأة من الزواج لمجرد الانجراف وراء متعة قد تتحمل من أجلها مشقات ومتاعب طيلة حياتها.

2- حاجة المرأة الفطرية إلى المساعدة في أمور الحياة، الأمر الذي يدفعها للرضا بزواج لم ينشأ تنشئة إسلامية فتشقى معه، وتفسد أخلاقها وعبادتها، ولهذا يدعوها إلى السعي لكسب نفقتها بنفسها، عوض الرضوخ لزواج فاسد.

3- ميل المرأة الفطري الحب الأولاد ومداعتهم، إلا أن هذا السبب في رأيه لا يجب أن يدفعها إلى تحمل الحياة الشاقة، إن لم تكن مضطرة إليها اضطرارا قاطعا، أو لم تكن واثقة من قدرتها على تربيتهم تربية إسلامية.

فهذه الأسباب الفطرية والنفسية يجب ألا تدفعها إلى التسرع بالزواج، أو لا تترك لها فرصة الاختيار القائم على أسس الشرع الإسلامي. ولهذا نجد بفضل بقاء المرأة دون زواج، ويعده أفضل لها من زواج غير مناسب أو كفاء لها، لأنها تستطيع أن تقوم بدورها في الحياة تربية وتوجيها وإصلاحا دون الاستناد إلى زوج فاسد. يقول محذرا النساء المؤمنات بصفة عامة: "يجب ألا يبعن أنفسهن رخيصات سافرات كاشفات، عندما لا يجدن الزوج المؤمن الصالح، ذا الأخلاق الحسنة الملائمة لهن تماما، بل عليهن البقاء في حياة العزوبة إن لم يجدن ذلك الزوج الكفاء، كما هو حال بعض طلاب النور الأبطال، حتى يتقدم لطلبها من يلائمها، ممن تربى بتربية الإسلام، وله وجدان حي، ليكون رفيق حياة أبدية يليق بها، وذلك لئلا تفسد سعادتها الأخروية، لأجل لذة دنيوية طارئة، فتغرق في سيئات المدنية". وهي دعوة متقدمة و جريئة نابعة من روح الشرع ومقاصده تُصقل شخصية المرأة، وتُكسبها قوة وصمودا لمواجهة التقاليد الاجتماعية المتعفنة.

3- نعمة الجمال المؤدي إلى الطهر والسعادة :

إن ثقافة الجسد التي تربت عليها المرأة جعلتها تنغمس في رؤية فاسدة، حرقتها لتسليم قيادها وإمرتها للشيطان، وفرضت عليها الانتماء إلى مجموعة الفرق المغيرة على الإسلام، باتباعها طائفة من النساء الكاسيات العاريات، اللائي يكشفن عن سيقائهن، ويجعلنها سلاحا قاسيا جارحا، يتزل بطعناته على أهل الإيمان¹⁵. واعتبر بديع الزمان أن المدنية التي ترفع الحجاب عن المرأة مدنية سفيهة، لأنها أفسحت المجال للتبرج المناقض للفطرة الإنسانية، كما بين مقصد الأمر القرآني للمرأة بالحجاب، فوضح أنه يصونها من المهانة والسقوط، ومن الذلة والأسر المعنوي، ومن الرذيلة والسفالة¹⁶. وقد وعى الشيخ النورسي في ذلك الوقت انطلاقا من الواقع، واستقراء لبعض الأحاديث النبوية، خطورة الفتنة والانحلال والميوعة التي تغرق فيها المجتمعات، إذا شاعت الفاحشة، جراء نزع الحجاب والاهتمام بالجسد وتزيينه لكل طالب، ونتيجة المفهوم الخاطئ للجمال. ذلك أن الجمال في التصور الإسلامي يرتبط بالروح الخالدة قبل أن يرتبط بالمادة الفانية. ولهذا يعده الشيخ النورسي نعمة يجب المحافظة عليها، ويدعو إلى عدم جعله وسيلة لكسب الخطايا والذنوب، لأن كل ذلك سيتحول إلى قبح دميم وجمال منحوس مسموم وقت

شيخوختها، ويجعلها تتجرع الآلام والعذاب، وتبكي نفسها ياساً وندماً، لشدة ما ترى استئصال الآخرين لها وإعراضهم عنها¹⁷. فنعمة الجمال يجب أن تُصان بأداب القرآن الكريم، ومحافظه المرأة على جمالها وطهرها وعفتها تصون المجتمع من الفساد والرذيلة، و تُثاب عليه يجعله خالداً في جنة النعيم، كما هو ثابت في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أم سلمة قالت: ". قلت يا رسول الله أنساء الدنيا أم الحور العين؟ قال: نساء الدنيا أفضل من الحور العين كفضل الظهارة على البطانة. قلت يا رسول الله وبم ذلك؟ قال: بصلاتهن وصيامهن وعبادتهن لله ألبس وجوههن النور وأجسادهن الحرير".¹⁸

4- استبدال الجمعيات المهتدية بالجمعيات المفسدة :

رغم ما حققته المرأة في ميادين متعددة في عالمنا الإسلامي، ودور ما يُسمى بالجمعيات النسائية التحررية في ذلك، إلا أنها بالمقياس القرآني، لم تستطع أن تحقق شيئاً على مستوى إثبات الذات، وتحريرها من العبوديات المختلفة التي سقطت فيها منذ ابتعادها عن معية الله تعالى. فهي لم تستطع سوى أن تتقن العيش في مساحة ضيقة لم تستطع الفكاك من أسرها، وهي مساحة الجسد. وهذا لم يستطع أن يحقق لها الشعور بالأمن والطمأنينة والسلام مع نفسها ومع المحيطين بها. بل ساهمت في شيوع الاضطراب والفتنة. والدعوة إلى التحرر قوله حق أريد بها باطل إذا كانت دعوة لتحرر المرأة من لباسها وطهارتها. صحيح أن المرأة المسلمة انتزعت منها حريتها، كما انتزعت من الرجل، حين تخلت عن أساس وجودها، وابتعدت عن منبع الحرية الحقة التي تغذي نفسها بقيم الانطلاق والتحرر. لكنها تلمست عبوديتها وحاولت استرجاع حريتها أخطأت الطريق، وسارت على خطى نماذج خارجة عن حضارتها، ومتغربة عنها، فغرقت في عبوديات مختلفة. ومن خلال قراءة الشيخ النورسي الواعية للواقع، ورؤيته المتبصرة لمقاصد الشرع، تبين له دور بعض الجمعيات والمنظمات التي لا تبني تصورهما على أسس شرعية سليمة في إضلال المرأة، وإفساد الحياة الأسرية برمتها، فحذر منها، ونبه لخطورتها في زرع دوامة الاضطراب والانحلال الأسري. وقد نلمس نتيجة ما حذر منه النورسي رحمه الله فيما أصبحت مجتمعاتنا الإسلامية تعانيه من انحلال وتفسخ، وبخاصة على المستوى الأسري. من هنا كانت تحذيراته من الأفكار المتعارضة مع الثوابت

الدينية والحقائق الإيمانية تجد صداها بين طلاب رسائل النور، وبين النساء بصفة خاصة، لأنهما خرجت من صلب فهم عميق بالواقع ومختلف الضغوطات المؤثرات التي تجرفه إلى وجهة مخالفة لشرع الله تعالى.

خاتمة :

بعد هذه الإطالة السريعة على بعض كلمات الشيخ النورسي في قضية المرأة، والتي تحتاج منا وقفات متأنية أخرى للإحاطة بمحملها، وإبراز آراؤه وتصوراته تجاه قضايا المعاصرة، نجد أن لديه رؤية متقدمة لمختلف الإشكاليات المطروحة في الساحة الثقافية والفكرية في هذا المجال، وتشخيص لعدد من الأمراض، وتقديم العلاج الحاسم لها بوعي ناضج وبصيرة متوضئة بالإيمان والإخلاص في القول وفي العمل، تجعل المرأة فاعلة في المجتمع الإسلامي وليس مجرد وعاء للنسل أو زينة للمجالس. ولن يتجلى ذلك، كما رأينا إلا بتفعيل القيم الدينية في حياتها، وتعميق الإيمان في أعماقها. ويمكن لها أن تقوم بدورها في إصلاح العالم وتحقيق السعادة والأمان له. وفي الحقيقة، فقد هزني كثيرا وتأثرت تأثرا بالغا وأنا أقف على مدى تقدير بيدع الزمان واحترامه للمرأة، مما لا نجد عند كثير من المفكرين والمتقنين في واقعنا المعاصر، ناهيك عن العامة. وأسجل هنا بكل فخر واعتزاز أن عالما جليلا من علماء الأمة انطلق من القرآن الكريم ليقدم للمرأة معالم حياة إيمانية فاعلة، نابعة من روح الإسلام ومقاصده، تستطيع من خلالها أن تؤدي مهمتها الطبيعية في الحياة، وتساهم في يقظة الأمة ورفيها بتكامل مع الرجل، وتعمل على الوجود في موقعها وجودا حقيقيا فاعلا. وأختم بقوله رحمه الله : "إن النساء مخلوقات مباركة، خلقن ليكن منشأ للأخلاق الفاضلة، إذ تكاد تنعدم فيهن قابلية الفسق والفجور للتمتع بأذواق الدنيا. بمعنى أن النساء نوع من مخلوقات طيبة مباركة، خلقن لأجل قضاء حياة أسرية سعيدة ضمن نطاق التربية الإسلامية"¹⁹.

الهوامش

- 1- رواه أحمد في مسنده . 1 / 278 . وأبو داود في سننه في كتاب الملاحم , حديث 4297 .
- 2- وهي تبدأ من أول المرحلة التي أطلق فيها على نفسه اسم "سعيد الجديد" في منفاه في بارلا سنة 1926 إلى أن توفاه الله إليه سنة 1960 . انظر :بديع الزمان سعيد النورسي ,نظرة عامة عن حياته وأثاره.إحسان قاسم الصالحي .طبعة خاصة بالمغرب .1999 . ص 106 .
- 3- اللمعات , ص 349 .
- 4- اللمعات .ص 346 .
- 5- انظر : الشعاعات ص 228-230 .و الكلمات ص 104-106 .
- 6- اللمعات . ص 310 .
- 7- انظر :الشعاعات ص 174 .
- 8- انظر : ملحق قسطنوني ص 138-139 .
- 9- انظر : ملحق قسطنوني . ص138-139 .
- 10- المرجع نفسه .
- 11- المرجع نفسه .
- 12- ملحق أمير داغ . ص 340 .
- 13- ملحق أمير داغ /2 . ص 403 .
- 14- المرجع نفسه . ص 340-342 .
- 15- انظر اللمعات . ص 305-306 .
- 16- اللمعات . ص 300 .
- 17- انظر : المرجع نفسه .
- 18- رواه الطبراني .
- 19- اللمعات : ص 313 .

العنف

أسبابه وعلاجه من منظور رسائل النور

احمد شعبان
مركز بحوث ودراسات المدينة المنورة
المدينة المنورة

ملخص البحث :

العنف سمة من سمات العصر غير محصور بدين أو بشعب أو بدولة، وله أسباب كثيرة، بينها بديع الزمان في رسائله، ترجع في مجملها عند المسلمين إلى : ضعف الإيمان، والجهل، والأنانية، وعدم معرفة الروابط الإيمانية .

وأما عند غير المسلمين ؛ فترجع إلى الأسس الخمسة التي قامت عليها مدنيتهم، وهي : القوة، والمنفعة، والجدال، والعنصرية، وتشجيع الأهواء والنوازع .

وقد وقف بديع الزمان موقف الرفض لهذا العنف لما له من أضرار جسيمة على الأمم والشعوب ؛ لكنه فرق بين العنف الدائر داخل المجتمع المسلم والعنف المتبادل بين المسلمين وغيرهم، وبناء على هذا التفريق فقد قسمت البحث إلى فصلين؛ تحدثت في الأول عن: أسباب العنف عند المسلمين، والعلاج الذي قدمه بديع الزمان لاستئصاله من بلادهم، وبينت أن العمل الإيجابي البناء في إطار المحافظة على وحدة المجتمع، والتربية الدينية الصحيحة، إضافة إلى الاحترام المتبادل، والرحمة، والابتعاد عن الحرام، والحفاظ على الأمن، ونبد الفوضى والغوغائية؛ كل ذلك كفيل بإيقاف مسلسل العنف في بلاد المسلمين.

وتحدثت في الثاني عن أسباب العنف بين المسلمين وغيرهم، والحلول التي قدمها بديع الزمان في رسائله لإيقافه، مبيناً أن هذه الحلول تتسم بالموضوعية والشمول، وتوفر للعالم الأمن والاستقرار، وتضمن لكل طرف حقوقه وممتلكاته.

العنف أسبابه وعلاجه من منظور رسائل النور

العنف بمعناه الشامل وهو استخدام القوة سمة من سمات العصر، غير محصور بدين أو بشعب أو بدولة، غير أنه بالمسلمين أُلصق نظراً للضغوطات الكبيرة التي يتعرضون لها من الداخل⁽¹⁾ والخارج في غياب مرجعية تدافع عن حقوقهم، وتنتصف لهم ممن ظلمهم، الأمر الذي حدا بكثير منهم إلى حلول فردية غير مدروسة وُصفت بالإرهاب، وصارت منبوذة ومحاربة من قبل جميع الأنظمة العالمية، وتنتج عن ذلك صراع وعنف داخلي وخارجي يحصد كل يوم عشرات الأبرياء من الأطفال والنساء والشيوخ.

وللنظم الغربية يد في إذكاء وتنمية هذه الظاهرة عند المسلمين بطرق مباشرة وغير مباشرة لاستغلالها وسيلة للضغط على الدول الإسلامية، ومن ثم السيطرة على خيراتها كما فعلوا في العراق وأفغانستان.

فما هي نظرة بيدع الزمان إلى هذه الظاهرة؟ وما هي الحلول التي قدمها في رسائله؟

قبل الإجابة على هذين السؤالين وغيرهما من الأسئلة الكثيرة التي تحيك في النفوس يجب أن نعلم أن بيدع الزمان رحمه الله تعالى قضى حياته كلها في جهاد لإعلاء كلمة الحق ولإنقاذ البشرية بأسرها من أحوال الجهل والتخلف والعنصرية، وقد شاهد بأمر عينه المصائب والهزائم التي لحقت بالدولة العثمانية، وعانى في سبيل ذلك آلاماً شديدة، وكان يقول رحمه الله: ((إنني أستطيع أن أتحمل كل آلام الشخصية ولكن آلام الأمة الإسلامية سحقتني، إنني أشعر بأن الطعنات التي وجهت إلى العالم الإسلامي وجهت إلى قلبي أولاً ولهذا تروني مسحوق الفؤاد))⁽²⁾.

ولكنه ومع كل هذه الآلام كان متفائلاً بالنصر ويقول لإخوانه: ((ولكني أرى نوراً سيئسببنا هذه الأيام الحالكة بإذن الله))⁽³⁾.

هذه الثقة العظيمة بالله وبنصره هي التي جعلت بيدع الزمان يتابع مسيرة الجهاد بكل عزيمة واقتدار، ولكن جهاده كان من نوع خاص، ليس فيه أي نوع من أنواع العنف والشدّة، إنه جهاد دعوة ونصح، وإرشاد الناس إلى حقائق القرآن، ومكافحة الفقر والجهل والخلاف الذي هو ألد أعداء إعلاء كلمة الله⁽⁴⁾.

لقد كان بديع الزمان يؤمن بأن العمل الإيجابي البناء هو عمل المرء بمقتضى محبته لمسلكه فحسب دون أن يرد إلى تفكيره أو يتدخل في عمله عداء للآخرين أو التهوين من شأنهم؛ ولذلك نراه يعارض إحدى الحركات التي أثار الأكراد على الدولة ويقول لهم بلسان الناصح المشفق: ((الأكراد مسلمون والأترك إخواننا فلا تجعلوا الأخ يقاتل أحاه فهذا لا يجوز شرعاً، إن السيف لا يشهر إلا بوجه الأعداء الخارجيين، إن السبيل الوحيد أمامنا للخلاص في هذا الزمان هو القيام بإرشاد الناس إلى حقائق القرآن وإلى حقائق الإيمان والقيام بمكافحة الجهل الذي هو أكبر أعدائنا، لذا أرى أن تصرفوا نظركم عن محاولتكم هذه لأنما محكومة بالإخفاق، إذ سيهلك آلاف من الرجال والنساء بسبب حفنة من القتلة المجرمين))⁽⁵⁾.

كان يحمل على كاهله هموم أمته التي مزقتها الاختلاف والفرقة فكان يهتف بأعلى صوته: "أيها العالم الإسلامي إن حياتك في الاتحاد وإن موتك في الفرقة والاختلاف"⁽⁶⁾.

ومن هنا نستطيع أن نجزم بأن هذا الرجل الذي هباً الأدوية الناجعة لجروح الإنسانية لا يمكن أبداً أن يدعو إلى العنف أو يفسر الإسلام على أساس العنف حتى مع الأعداء الخارجيين، كان يؤمن بأن الجهاد الحقيقي معهم يجب أن يكون بالإقناع ويقول: "أما الجهاد الخارجي فنحيله إلى السيوف الأمامية للبراهين القاطعة للشريعة الغراء. لأن الغلبة على المدنيين إنما هي بالإقناع وليس بالإكراه كما هو شأن الجهلاء الذين لا يفقهون شيئاً"⁽⁷⁾.

ولهذا فإننا نرى أن رسائل النور قد تجردت عن التيارات السياسية رغم قدرة بديع الزمان على تحليل الأحداث تحليلاً فكرياً سليماً لبيتعد عن العنف الذي توصل إليه الأحزاب السياسية.

وقد فرق رحمه الله بين العنف الدائر داخل المجتمع المسلم والعنف المتبادل بين المجتمع المسلم وغيره من المجتمعات ويقول: ((الفرق عظيم بين الجهاد الداخلي والخارجي في الوقت الحاضر))⁽⁸⁾.

وعلى هذا الأساس فقد قسمت البحث إلى فصلين اثنين: تكلمت في الأول عن أسباب العنف في المجتمع الإسلامي وعلاجه من منظور رسائل النور. وتكلمت في الثاني عن أسباب العنف بين المجتمع الإسلامي وغيره من المجتمعات وعلاجه من منظور رسائل النور.

الفصل الأول:

العنف في المجتمع المسلم أسبابه وعلاجه من منظور رسائل النور

أولاً: الأسباب:

من المعلوم لدينا جميعاً أن الخلاف هو أبرز العوامل التي يترتب عليها العنف بين المسلمين سواء أكان هذا الخلاف فكرياً أم مذهبياً أم سياسياً أم غيره.

كما أن من المعلوم أيضاً أن الخلاف بكافة أشكاله و أنواعه شيء تفرضه طبيعة الفطرة التي فطر الله الناس عليها كما دلّ على ذلك قوله سبحانه { ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم }⁽⁹⁾.

وبناء عليه فيجب أن يبقى هذا الخلاف في دائرة الفكر والحوار ولا يجوز بحال من الأحوال أن يتخذ أي شكل من أشكال العنف وخاصة بين المسلمين أنفسهم المأمورين بالتراحم والتعاطف والتكاتف، ولهذا نرى بديع الزمان يعارض وبشدة تلك الحركة التي أثارت الأكراد على الدولة ويقول لهم: " نحن الأكراد مسلمون والأترك إخواننا فلا تجعلوا الأخ يقاتل أخاه فهذا لا يجوز شرعاً"⁽¹⁰⁾.

ويعلل بديع الزمان ذلك بأن الاتفاق لا يتحقق بالتخويف والإكراه بل بالرجوع إلى شريعة الرسول ﷺ والنظر إلى المقاصد السامية التي ندين الله بها جميعاً⁽¹¹⁾.

ويرجع بديع الزمان أسباب العنف الدائر بين المسلمين إلى أمور أبرزها: ضعف الإيمان، والجهل، والأنانية، وعدم معرفة الروابط الإيمانية التي تربط أهل الإيمان بعضهم ببعض⁽¹²⁾.

ثانياً: العلاج:

ينبغي قبل الكلام عن العلاج أو الحلول التي قدمتها رسائل النور لظاهرة العنف بنوعيه الداخلي والخارجي أن نعلم أن هذه الحلول لم تكن حلولاً جزئية لواقع عايشه بديع الزمان داخل خريطة جغرافية ضيقة، ولكنها حلول شاملة للعالم بأسره مسلمه وكافره، وهذا ما نلمسه بوضوح في رسائله من خلال عمق النظرة وشمولية الخطاب الشامل الموجه إلى الناس تارة وإلى العالم والبشرية تارة أخرى.

إن أهم الأمور التي ركز عليها بديع الزمان في علاجه لظاهرة العنف هي العمل الإيجابي البناء في إطار وحدة المجتمع والمحافظة على نظامه وأمنه الداخلي، يقول رحمه الله: ((نعم، إن في مسلكتنا قوة. إلا أننا لم نقم باستعمالها إلا في تأمين الأمن الداخلي. لذا قمت طوال حياتي بتحقيق الأمن الداخلي اتباعاً لدستور الآية الكريمة: { ولا تزر وازرة وزر أخرى }⁽¹³⁾ أي لا يجوز معاقبة إنسان بجريرة أخيه أو أحبائه. إن هذه القوة لا يمكن استعمالها إلا ضد الهجمات الخارجية. إن وظيفتنا - وفق دستور الآية الكريمة المذكورة - هي الإعانة على ضمان الأمن الداخلي بكل ما نملك من قوة. لهذا السبب لم تشتعل نار الحروب الداخلية المخلة بنظام الأمن .

مثلاً: إنني لم أدعُ بالسوء حتى على المدعي العام الذي اتخذ علينا القرار الجائر رغم أنني قد أثبت أخطائه البالغة واحداً وثمانين خطأً ؛ لأن المسألة الأساسية في هذا الزمان هو الجهاد المعنوي، وإقامة السد المنيع أمام التخريبات المعنوية، وإعانة الأمن الداخلي بكل ما نملك من قوة))⁽¹⁴⁾ .

ويقول أيضاً: ((أما في الداخل فالأمر ليس هكذا . ففي الداخل ينبغي الوقوف أمام التخريبات المعنوية بشكل إيجابي بناءً، بالإخلاص التام. إن الجهاد في الخارج يختلف عما هو في الداخل، وقد أحسن إليّ المولى سبحانه وتعالى بملايين من الطلاب الحقيقيين. فنحن نقوم بالعمل الإيجابي البناء بكل ما نملك من قوة في سبيل تأمين الأمن الداخلي، فالفرق عظيم بين الجهاد الداخلي والخارجي في الوقت الحاضر))⁽¹⁵⁾ .

والعمل الإيجابي البناء عند بديع الزمان يقوم على خمسة أسس هي :

1- الاحترام المتبادل

2- الشفقة والرحمة

3- الابتعاد عن الحرام

4- الحفاظ على الأمن

5- نبذ الفوضى والغوغائية، والدخول في الطاعة⁽¹⁶⁾ .

تشكل هذه الأسس الخمسة حصناً منيعاً يذود عن المجتمع الفرقة والانقسام، ويحفظه من الفوضى والانهدام .

ويوضح بديع الزمان لأولئك الذين يستخدمون العنف والإكراه في سبيل الحفاظ على المجتمع، والوصول إلى اتفاق، بأن الاتفاق من الله ولا يتحقق بالتخويف والعنف إنما يتحقق بشيئين اثنين هما :

1- الرجوع إلى الله تعالى وإلى شريعة الرسول ρ والنظر إلى ما هو متفق عليه من المقاصد.

2- المساواة التي يضمنها الإسلام للمسلمين جميعاً دون فرق بين كبير وصغير وغني وفقير ورئيس ومرؤوس.

يقول في المكتوب الثاني والعشرين : ((نعم! إن الإيمان بعقيدة واحدة، يستدعي حتماً توحيد قلوب المؤمنين بها على قلب واحد، ووحدة العقيدة هذه، تقتضي وحدة المجتمع. فأنت تستشعر بنوع من الرابطة مع من يعيش معك في طاوور واحد، وبعلاقة صداقة معه إن كنت تعمل معه تحت إمرة قائد واحد، بل تشعر بعلاقة أخوة معه لوجودكما في مدينة واحدة، فما بالك بالإيمان الذي يهب لك من النور والشعور ما يريك به من علاقات الوحدة الكثيرة، وروابط الاتفاق العديدة، ووشائج الأخوة الوفيرة ما تبلغ عدد الأسماء الحسنى. فيرشدك مثلاً إلى : أن خالقكما واحد، مالككما واحد، معبودكما واحد، رازقكما واحد.. وهكذا واحد واحد إلى إن تبلغ الألف. ثم، إن نبيكما واحد، دينكما واحد، قبلتكما واحدة، وهكذا واحد واحد إلى أن تبلغ المائة. ثم، إنكما تعيشان معاً في قرية واحدة، تحت ظل دولة واحدة، في بلاد واحدة.. وهكذا واحد واحد إلى أن تبلغ العشرة))⁽¹⁷⁾.

ويقول أيضاً : ((في جامع العبادة يتساوى الملك والمتسول فلا امتياز، بل المساواة الحقة دستور قائم. لأن الأكرم عند الله هو الأتقى، والأتقى هو المتواضع، فبناءً على هذا يتشرف الشخص بانتسابه إلى هذه الجماعة الخالصة لخدمة الدين والدعوة إلى الآخرة))⁽¹⁸⁾.

وحتى يتسنى لنا تطبيق الأسس الخمسة المتقدمة فلا بد من التربية الدينية الصحيحة، وهي في نظر بديع الزمان تتمثل في تزكية النفس، ويعبر عنها أيضاً بجهاد النفس، أو بالجهاد الأكبر، ويعطينا بديع الزمان - قدس سره - دروساً عظيمة في التزكية فيقول : ((إن كنت تريد أن تعادي أحداً فعاد ما في قلبك من العداوة، واجتهد في إطفاء نارها

واستتصال شأفتها، وحاول أن تعادي من هو أعدى عدوك وأشد ضرراً عليك، تلك هي نفسك التي بين جنبيك، فقاوم هواها، واسع إلى إصلاحها، ولا تعاد المؤمنين لأجلها، وإن كنت تريد العداة أيضاً فعاد الكفار والزنادقة، فهم كثيرون. واعلم أن صفة المحبة محبوبة بذاتها جديرة بالمحبة، كما أن خصلة العداوة تستحق العداة قبل أي شيء آخر.

وإن أردت أن تغلب خصمك فادفع سيئته بالحسنة، فيه تخمد نار الخصومة. أما إذا قابلت إساءته بمثلها فالخصومة تزداد. حتى لو أصبح مغلوباً - ظاهراً - فقلبه يمتلئ غيظاً عليك، فالعداء يدوم والشحناء تستمر، بينما مقابلته بالإحسان تسوقه إلى الندم، وقد يكون صديقاً حميماً لك، إذ إن من شأن المؤمن أن يكون كريماً، فإن أكرمه فقد ملكته وجعلته أخاً لك، حتى لو كان لثيماً - ظاهراً - إلا أنه كريم من حيث الإيمان، وقد قال الشاعر:

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا

نعم، إن الواقع يشهد: أن مخاطبة الفاسد بقولك له: إنك صالح، إنك فاضل، ربما يدفعه إلى الصلاح وكذا مخاطبة الصالح: إنك طالح، إنك فاسد، ربما يسوقه إلى الفساد، لذا استمع بأذن القلب إلى قوله تعالى:

{ وَإِذَا مَرَّوُ بِاللَّغْوِ مَرَّوُ كِرَامًا }⁽¹⁹⁾

{ وَإِنْ تَعَفُّوْا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ }⁽²⁰⁾

وأمثالها من الدساتير القرآنية المقدسة، ففيها التوفيق والنجاح والسعادة والأمان⁽²¹⁾.

ويقول أيضاً: ((إن مشربنا: محبة المحبة، ومخاصمة الخصومة، أي إمداد جنود المحبة بين المسلمين، وتشيت عساكر الخصومة فيما بينهم))⁽²²⁾.

وبهذا يكون بديع الزمان قد أبدع في تشخيص هذا المرض المستشري في الأمة ووضع له العلاج الناجع بإذن الله .

الفصل الثاني

العنف بين المسلمين وغيرهم، أسبابه وعلاجه من منظور رسائل النور

أولاً: الأسباب:

يرجع بيدع الزمان أسباب العنف عند غير المسلمين إلى أسس خمسة قامت عليها مدنيتهم " فنقطة استنادها - كما يقول بيدع الزمان - القوة بدل الحق، وشأن القوة الاعتداء والتجاوز والتعرض، ومن هذا تنشأ الخيانة. هدفها وقصدتها: منفعة حسبيسة بدل الفضيلة، وشأن المنفعة: التراحم والتخاصم، ومن هذا تنشأ الجناية.

دستورها في الحياة: الجدل والخصام بدل التعاون، وشأن الخصام: التنازع والتدافع، ومن هذا تنشأ السفالة.

رابطتها الأساس بين الناس: العنصرية التي تنمو على حساب غيرها، وتتقوى بابتلاع الآخرين وشأن القومية السلبية والعنصرية: التصادم المريع، وهو المشاهد، ومن هذا ينشأ الدمار والهلاك.. وخامستها: هي أن خدمتها الجذابة، تشجع الأهواء والنوازع، وتذليل العقبات أمامهما، وإشباع الشهوات والرغبات، وشأن الأهواء والنوازع دائماً: مسخ الإنسان، وتغيير سيرته، فتتغير بدورها الإنسانية وتمسخ مسخاً معنوياً⁽²³⁾.

ويقول أيضاً: ((إن سياسة المدنية الحاضرة تضحى بالأكثرية في سبيل الأقلية، بل تضحى قلة قليلة من الظلمة بجمهور كبير من العوام في سبيل مقاصدها⁽²⁴⁾)).

أما مدنية القرآن الكريم عند بيدع الزمان فهي إيجابية " لأن نقطة استنادها - كما يقول رحمه الله - الحق بدل القوة، ومن شأن الحق دائماً: العدالة والتوازن. ومن هذا ينشأ السلام ويزول الشقاء، وهدفها: الفضيلة بدل المنفعة، وشأن الفضيلة: المحبة والتقارب، ومن هذا تنشأ السعادة وتزول العداوة، ودستورها في الحياة: التعاون بدل الخصام والقتال، وشأن هذا الدستور: الاتحاد والتساند اللذان تحيا بهما الجماعات، وخدمتها للمجتمع: بالهدى بدل الأهواء والنوازع، وشأن الهدى: الارتقاء بالإنسان ورفاهه إلى ما يليق به مع تنوير الروح ومدّها بما يلزم، رابطتها بين المجموعات البشرية: رابطة الدين والانتساب الوطني وعلاقة الصنف والمهنة وأخوة الإيمان. وشأن هذه الرابطة: أخوة خالصة، وطرده العنصرية والقومية السلبية.

وبهذه المدنية يعم السلام الشامل، إذ هو في موقف الدفاع ضد أي عدوان (خارجي)⁽²⁵⁾.

ويعتبر بديع الزمان أن الإسلام والقرآن بريثان من سياسة العنف التي يتخذها بعض المسلمين جراء مصلحة شخصية أو أنانية مقبولة أو جهل وتعصب ذميمين، وهذه السياسة هي التي جعلت أوروبا تظن أن الشريعة هي التي تمد الاستبداد بالقوة وتعينه. حاش وكلا.. إن الجهل والتعصب المتفشين فينا قد ساعدا أوروبا لتحمل ظناً خاطئاً من أن الشريعة تعين الاستبداد⁽²⁶⁾.

ثانياً: العلاج:

يرى الشيخ بديع الزمان أن علاج الخلاف مع غير المسلمين لا يكون بالعنف إلا في حالة الدفاع ضد العدوان الخارجي فقط، أما فيما عدا ذلك فإن الحرب لها أضرار بالغة على المسلمين، الذين يضطرون إلى الذهاب إلى الحرب تاركين الخدمة القرآنية المقدسة وهي خسارة فادحة للمسلمين.

وقد اتخذ بديع الزمان رحمه الله في جهاده أعداء الإسلام منهجاً فريداً متميزاً يتلخص في تعليمهم حقيقة الإسلام وإقناعهم بأنه دين محبوب وسام.

يقول رحمه الله: ((أما الجهاد الخارجي فنحيله إلى السيوف الأمامية للبراهين القاطعة للشريعة الغراء. لأن الغلبة على المدنيين إنما هي بالإقناع وليس بالإكراه كما هو شأن الجهلاء الذين لا يفقهون شيئاً⁽²⁷⁾)).

ويقول أيضاً: ((إن الإسلام والقرآن الكريم بريثان بلا شك من مثل هذه الحروب المدمرة التي لا تنسجم مع أي قانون كان من قوانين العدالة ولا مع الإنسانية ولا مع أي دستور كان من دساتير الحقيقة وقوانين الحقوق. ولا يتنازلان ولا يتدللان لمعاونة أولئك⁽²⁸⁾)).

وبهذا يكون بديع الزمان رحمه الله وقده سره قد وضع يده على جرح الإنسانية الغائر، ووصف له العلاج الشافي بإذن الله تعالى .

وفي الختام أرجو أن أكون قد وفقت لتقديم لمحات من فكر بديع الزمان وموقفه من العنف الذي تميز بشمولية النظرة وعمق الفكرة وإيجابية المضمون، ولو أراد العالم السلام

لاتخذ من هذا الموقف دستوراً عالمياً ؛ لأنه يوفر الأمن والسلام والاستقرار، ويضمن لكل طرف حقوقه ويصون له ممتلكاته .

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه
أجمعين

الهوامش

- (1) المراد بالدخل أي الدول الإسلامية .
- (2) السيرة الذاتية 137 .
- (3) المرجع السابق نفسه .
- (4) صيقل الإسلام - الخطبة الشامية 527.
- (5) سعيد النورسي لأورخان محمد علي ص 114.
- (6) اللوامع 863.
- (7) صيقل الإسلام/الخطبة الشامية - ص: 527
- (8) سيرة ذاتية - ص: 470.
- (9) سورة هود 118 .
- (10) سعيد النورسي لأورخان محمد علي ص 114.
- (11) المکتوب الثاني والعشرون 341.
- (12) الخطبة الشامية 20.
- (13) الأنعام 164 ، الإسراء 15 ، فاطر 18 .
- (14) سيرة ذاتية - ص: 469.
- (15) سيرة ذاتية - ص: 470.
- (16) الشعاع الرابع عشر ص 406.
- (17) المکتوب الثاني والعشرون 341.
- (18) صيقل الإسلام / الخطبة الشامية 537.
- (19) الفرقان : 72 .
- (20) التغابن : 14 .
- (21) المکتوب الثاني والعشرون 343.
- (22) صيقل الإسلام / الخطبة الشامية 532- السيرة الذاتية 102.
- (23) اللوامع 855.
- (24) اللوامع 862.
- (25) اللوامع 855.
- (26) سيرة ذاتية 83.
- (27) صيقل الإسلام / الخطبة الشامية 535.
- (28) ملحق قسطنوني 203.

البعد الكوني في أخلاقيات "رسائل النور"

ذ. أديب إبراهيم الدباغ
الموصل - العراق

1- معنى الأخلاق:

يمكننا القول دون أن نُبعد:

إنَّ "الأخلاق" تعني في أقرب ما تعنيه، هندسة الجمال في السلوك البشري، والميزان الذي توزن فيه فعّال المرء في مختلف أحواله، وبه تُقوم أفكار الضمير وخواطر النفس بما يعكسانه من خلال وسجايا على كامل شخصية الإنسان. فأئُّ فعل ينبعث من قاعدة سلوكية ثابتة لدى المرء هو فعل أخلاقي، وهو فعل خلاق في الوقت نفسه، لأنه يسهم مع الأخلاقيات الأخرى في إنشاء صرح السلوك الجمالي في العالم الذي هو مطمح نظر الأنبياء والرسل والحكماء والفلاسفة وعموم الأخلاقيين في كل زمان ومكان.

فالموجودات المحيطة بالإنسان من كل جانب هي كيانات "خلقية"، و "خُلُقِيَّة" في آن واحد، "خُلُقِيَّة" لأنها صنيع الإرادة والقدرة الإلهيتين، أي مخلوقاتهما. و "خُلُقِيَّة" لأنها محكومة بهندسة جمالية منضبطة لا "عشوائية" فيها، ولا "فوضوية" تسيبية.

فما بين "الخلق" - بفتح الخاء - و "الخلق" - بضم الخاء واللام - ليس بتمائل في البناء الحرفي فحسب. بل هو تماثل في الدلالات المعنوية كذلك يكاد يبلغ حدَّ التطابق.

فـ (الخلق) الكوني مُنَزَّهٌ عن أي فعل عشوائي وعبثي غير محسوب أو موزون بموازين الهندسة الجمالية الكونية كما رسمتها يد القدرة، وإلاً انهار البناء الكوني برمته وأصبح أثراً بعد عين.

وبالمقابل فالكيان "الخلقي" عند الإنسان معرض لمثل هذا الاختيار عند أي انحراف أو انقلات من موازين الجمالية الوجدانية في التصرف والسلوك، بل إن أية حضارة وأي دين يمكن أن يفقدا أكبر مقوماتهما عندما تحف فيهما ينابيع أخلاقيتهما.

2- أعظم معجزات محمدp:

ومن هنا كانت أعظم معجزات محمد p - بعد القرآن - هو صرحه الخُلقي المتين والمحكم الذي أجبر أعداءه على الوقوف إزاءه مذهولين مستسلمين، فعندما خاطب جمعهم قائلاً: "أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلاً تَخْرُجُ مِنْ سَفْحِ هَذَا الْجَبَلِ أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِي؟!"¹

قالوا: نعم ما كذبتنا قطُّ.

و "نعم" هذه كانت شهادة بينة على إيمان ألسنتهم قبل أن تؤمن أفئدتهم.

لقد أوقع هدوءه الخُلقي النقي الواثق الاضطراب في صفوف منائيه، فلم يعودوا قادرين على الخلوص إلى رأي واحد في شأنه p.

فسلوكه - عليه الصلاة والسلام - مرآة في غاية الصفاء تعكس على الأنام ومضات من خُلُق القرآن كما وصفته زوجته عائشة رضي الله عنها: (فَإِنَّ خُلُقَ نَبِيِّ اللَّهِ p كَانَ الْقُرْآنَ)²، ولأن خلقه القرآن أثنى عليه منزل القرآن جلَّ جلاله: (وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ) (القلم:4).

3- المسلم والأمن الكوني:

والقرآن مرآة الكون - كما يكثر "النورسي" من التوكيد عليه - يرى فيه وجوده بسعته وعمقه ومهول أزمانه، وسحيق مسافاته، وبالمقابل فالقرآن يرى في الكون عظمة الخُلُق، وحكمة الإيجاد، وهندسة الصنعة الإلهية، ودقة الأحكام، وامتدادات العلم والقدرة والإرادة في الأشياء والموجودات.

والمسلم مدعوٌ إلى أن يسير غور الجمال في خُلُق القرآن وفي خُلُق الكون، ففي هذين الغورين يلتقي جوهر فطرته النقية المدركة المشعة لكي يعتمدها في بناء أسس أخلاقياته المعبرة بالتالي عن التلاحم المصيري بين الإنساني والكوني والقرآني.

وهذا التلاحم الثلاثي الأطراف هو الذي يؤكد عليه "النورسي" في رسائله. ويكاد يكون المنطلق الذي تنطلق منه معظم أفكاره، ومنها تنجم "أخلاقيات النور" التي توصلها لتبوء مركز الصدارة في المسؤولية عن أمان العالم وإيمانه. وأيُّ محاولة للتعامل مع "الإنسان" بمعزل عن علاقاته المتشابكة مع الكون ومع خالق الكون ستبقى سطحية لا تلامس إلا الظاهر الشكلي من كيانه، بينما يظلُّ نازعه الإلهي والكوني غائبين في القاع دون أن يُدعى للمساهمة في بناء صرحه الأخلاقي المنشود.

فالمسلم ملتزم إذن بأخلاقية الحفاظ على "الأمن الكوني" العام، فضلاً عن التزامه بأمن كرة الأرض، فيتصرف تصرف المربط على ثغر من ثغوره يمكن أن يؤتى الكون من قبله في كل وقت، فهو يحذر من أن يكون سبباً في تصدع بنيانه أو قيام قيامته، لأنه مؤمن بأن قيامه العالم لا تقوم إلا على شرار الناس كما ورد في الحديث الشريف، ولا تأزف ساعته إلا إذا أدت شمس أخلاقيات الإنسان بالغروب وانحدرت نحو الزوال.

ولأهمية هذه الجمالية الأخلاقية التي نيط بها أمن الأرض والسماء، أكدها الرسول ρ وجعلها غاية رسالته بقوله: (إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ)³ ولتعزيز هذه المهمة وتوكيدها أكرمها تعالى بصفيتين من صفاته الحسنى: (بِالْمُؤْمِنِينَ رُؤُوفٌ رَّحِيمٌ) (التوبة: 128)

فجمال "الخلق" لدى الإنسان يناظر جمال "الخلق" في الكون، ويشاكلة في العمق والسعة، ويضاهيه في الدلالة على الخلق والخالق، وهو توأمه يجيبان معاً، ويموتان معاً، وتقوم قيامتهما معاً.

فالأدمغة الكبيرة التي تريد أن تمارس لعبة التفكير من دون ضوابط أخلاقية، وبالقفز من فوق حاجزي الخير والشر لا ينبغي أن يُمنحوا فرصة الإمساك بزمام العالم، وإلاَّ أفرغوه من معناه الإلهي، وقادوه نحو مأساوية هلاكه على أيديهم (وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا) (سورة الإسراء: 16) ومهما يكن صوت الضمير ضعيفاً وخافتاً عندهم إلا أنه موجود ولا يمكن خنقه إلى الأبد.

والإنسان سجين زمانه ومكانه مدْعُوٌّ في هذا العصر - أكثر من أي عصر آخر - إلى إحداث ثورة أخلاقية تتجاوز سجنه، وترتفع به فوقهما، لتكون تعبيراً عن إرادة الله فيما ينبغي أن يكون عليه من الطهر والقداسة. ولكون الإنسان مخلوقاً معقداً فهو يتطلب الكثير من الانتباه من قبل الأخلاقيين، ومن أوجب واجباتهم إعانته على تجاوز محتته، وجعله أكثر إحساساً بمسؤولياته الأخلاقية إزاء نفسه، وإزاء العالم، وإزاء الله تعالى، وهذه هي المهمة التي كرس لها رسائل النور نفسها في هذا العصر.

إنَّ "الضمير" هو الكابوس الذي يحاول أشرار العالم أن يستيقظوا منه، ويرغبوا بالعيش وكأنهم لا يعرفونه أو يمتنون إليه بأية صلة، فيقيسوا أفعالهم بمقاييس مختلفة عن مقاييس الضمير وقواعده. إن اغتباطهم بانتصاراتهم اغتباط وحشيٍّ ذو أنياب ومخالب تقطر دماً، وهم ينفون عن الكون أية أخلاقيات إلهية تحكمه، فاستطابوا الاستغراق في الجانب الأضعف من النفس الإنسانية، ولا يريدون أن يناضلوا للانتقال إلى الجانب الأقوى والأفضل منها كما يفعل الأخلاقيون دائماً.

4- الضمير والمسؤولية الأخلاقية:

وأولى المسؤوليات الأخلاقية التي عرفها "جنس الإنسان" ممثلاً في أبويه "آدم وزوجه" عليهما السلام، عندما قيل لهما: دونكما أشجار الجنة سيمًا فيها حيث شئتما، وكلا من أيها شئتما رغداً، إلا هذه الشجرة فلا تقرباها.

كان الضمير البشري بكرةً معطلاً، لم يدخل بوتقة التجربة بعد، أو يعرف معنى الندم فكان لا بدّ من تحريكه واستنهاضه من رقاده قبل الهبوط إلى الأرض وابتلائه بخيرها وشرّها، وتقلبه فيما بينهما.

فغدا هذا "الضمير" على الأرض مسرحاً تُمثَّل عليه، تراجيداً الإنسان" وأعقد صراعاته مع نفسه، ومع العالم، ومع الفطرة الإلهية في داخله، وأصبح واحداً من أكثر مشاكل الإنسانية تعقيداً، وأجدرها باهتمام الباحثين من جميع رجال الفكر والدعوة، فصلاح العالم كله مرتبط به، وقيام الحضارات وسقوطها منوط به، وإن الحياة كلّها لا يمكن أن يكون لها معنى من دونه، فهو المحرك الأقوى لطاقت الإنسان الخلاق، ولجعل الحياة شيئاً جديراً بأن يتقبَّله الإنسان ويُقبَّل عليه، وهو النور الأكثر ضياءً والأوضح

إشارة إلى وجود الله تعالى، وهيمنتته على ظاهر الإنسان وباطنه، وعلى هويته وماهيته، وهو القدحة البارقة التي يبصر الإنسان من خلالها الآم أخطائه، وأوجاع خطيئاته، وهو ثورة ضد منطق الشرِّ، ومبررات الخطيئة.

5- حرية الاختيار:

فالخلق الكوني يتطابق مع الخلق الإنساني من حيث الهندسة الجمالية التي تسري في مفاصل كليهما، غير أن حرية الاختيار التي أُتيحت للإنسان من دون الكون، سهلت له فرصة الانفلات من ضوابط هذه الجمالية، والانقلاب عليها، وربما هدمها بالكامل، وبسبب هذه الانفلاتات غير المسؤولة غدا العالم اليوم أكثر إرعاباً من أي وقت مضى، وأكثر ابتعاداً عمّا ورثه الإنسان من جماليات الأديان في السلوك والاعتقاد، لذا فقد بات من أقدس مهمات الطلائع الأخلاقية من جميع الأديان دعوة البشرية إلى المزيد من الصمود تجاه هذا الطوفان اللاأخلاقي الذي يوشك أن يكتم أنفاس العالم.

وما نتحسب له أن تنحسر روح المقاومة أمام جحافل اللاأخلاقية المرعبة وتعلن السقوط والاستسلام، وبذلك نكون قد دفعنا العالم - دون أن نشعر - إلى المزيد من الاقتراب من نهايته.

إن العالم اليوم مرعوب إلى حد الموت، يتنفس الرعب في كل مكان، ويتوقع نوازل إنسانية في كل طرفة عين، وبات الجيل الجديد من الشباب قلقين، لا يعرفون ماذا يفعلون بحياتهم، وكيف يُصرفونَّها، وإلى أي جهة يتوجهون بها، بل حتى وجودهم كإنسانيين صار موضع نظر، وغدا عبئاً ثقيلاً، وعذاباً لا يحتمل. لا يعرفون كيف يتخلصون منه، ويزيحون أثقاله عن كواهلهم، وسبب ذلك يعود إلى ما يعانونه من انخفاض مخيف في الحس الأخلاقي، ومن ضبابية كونية معتمة في مرايا أحاسيسهم، ومن صور شوهاء عن الألوهية والربوبية في مرايا وجدانهم، فكل هذه الأمور جعلتهم يشعرون بالدونية وبالتفاهة، وبكوتهم ليسوا بأكثر من فقاعات طافية فوق مجرى الزمن، لا امتداد لهم في العالم، ولا جذور قوية تشدُّهم إليه، لا كونية لرسالاتهم، ولا إلهية لأهدافهم، ولا جمالية أخلاقية تجمع شتاتهم، وتوحد ذاتهم، وترسم أهدافهم، وهذا هو الداء العضال الذي تشكو منه الحياة الروحية التي يجيها الجيل الحاضر.

6- وحدة الكون والإنسان:

وعلى الإنسان أن يرقى سلوكياً ليرى نفسه في الكون، ويرى الكون في نفسه، ويرى أصداء أعماله سارية في جنبات العالم، محدثةً فيه هزةً طرب، أو هزةً حزن، فما بين الكون والإنسان أخذٌ وعطاء. فعل وانفعال، شريعة إلهية تضبط سلوكيات الإنسان، وشريعة إلهية تضبط سلوكيات الكون⁴

والإنسان ملزمٌ أن يراعي استحقاقات الشريعتين معاً، وأن يزن نفسه بميزانهما، توحد يكاد يكون تاماً، ففي الوقت الذي تنفتح أبواب السماء لاستقبال ما يصعد إليها من خير الإنسان⁵ فهي تفرع وتنغلق دون ما يقترفه من شرور. والسماء والأرض تبتكيان للأقوام الذين يطويهم الموت ويطوي خيرهم معهم، وتنفسان الصعداء لانقضاء آجال أقوام امتلأت الدنيا بشرورهم كما تشير الآية (فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ) (الدخان:29)

إنَّ "المستشفيات والسجون والخمارات والمقابر تسمعنا أنات وآهات وتغرقنا بالدموع، وتملأ الأجواء بأصوات الأسي والأسف من جيل التبه والضياح الذي يزدحم بهم العالم"⁶.

7- الخلق الإنساني في مجمل "رسائل النور":

ويمكننا أن نجمل مفهوم "الخلق الإنساني" عند النورسي - ومن خلال قراءة متأنية لرسائل النور بالآتي:

إنه طاقة جمالية مشعة تدرج ضمن المنظومة الجمالية للوجود.

أو هو نازع روحي يأتي من مكان بعيد من الروح،

أو هو إحساس ملح بضرورة المشاركة في كفاح الإنسانية من أجل إيقاف تدهور العالم وانحلاله وجعله أكثر حكمة وعقلانية،

وهو في أحواله كلها محاولة دؤوب للحفاظ على الصحة الروحية عندما نوشك أن نفقدها،

وهو كذلك رؤية مضيئة لتلمس الطريق إلى الهدف الإلهي من خلق الإنسان والعالم، وهو بالتالي عملية ارتقائية بالإنسان لجعله أكثر رهافةً وأشدَّ شفافيةً، وبسرَّ الوجدانية الجمالية التي تنظم كل شيء في هذا الوجود، فإنَّ نجماً بعيداً في السماء يمكن أن يتألم لزهرة عندما تطأها قدم غشوم فوق أديم الأرض. فالخلال الحميدة التي يتعامل بها المسلم مع مجتمعه لا يمكن أن تكون بمعزل عن الجمالية الكونية، لأنه هو نفسه جزء من هذا الكون.

إنَّ "جمال الخلق" لا كفاء له إلا نفسه، فيكفيه أن يكون لبنة في صرح الجمال الكوني، وكأنيَّ جمال في هذا العالم يبقى مرآة يرى "الجمال القدسي" فيها انعكاساً لصورته - كما يشير "النورسي" - والجمال إنما هو صور ومرايا يتراءى بعضها في مرآة بعض، ومن خلاله يستطيع الإنسان أن يرى مصداق رؤياه الإيمانية في جمالية أخروية وراء هذا العالم.

ومن هذا السرِّ يربأ المخلصون من العبّاد بأنفسهم عن ابتغاء أجر لعبوديتهم خارج جمال العبودية نفسها إقتداءً بالرسول ρ (أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا) عندما سئل عن اجتهاده بالعبادة وقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فأجر العبودية وعلتها - عند هؤلاء العبّاد - هي العبودية نفسها، وليس بخوف من النار أو طمع في الجنة كما ورد ذلك على لسان العابدة رابعة العدوية.

8- خُلُقُ الأَقْوِيَاء:

و "الخلق" الذي يريد "النورسي" ابتعائه من جديد في نفس المسلم ليس بِخُلُقٍ الضعفاء والمنسحقين تحت ضغوط نفسية أو اجتماعية، أو خُلُقٍ يأتيه المرء مكرهاً لأنه لا خيار له سواه، بل هو خلقُ النفس القوية والسوية المفعمة بالشرف، واللائقة بنيل الإيمان، وعظمة الانتساب، فيأتيه المسلم بشموخ تحت أعين الكون المُحدِّقة بلا حَرَجٍ ولا وَجَلٍ، ولا شعور بالذنب، لأنَّ الإيمان إذا استولى على الروح لم يعد هناك ثغرة يمكن أن يتسلَّلَ منها العار إلى نفسه.

و "النورسي" لا يرى شيئاً أفجع للمسلم، وأشدَّ سحقاً له من ركونه إلى الخوف والضعف والعجز في دينه ودينه لأن ذلك ممَّا لا يليق بعِزَّة الإيمان الذي ينتسب إليه، فيقول:

"أيها الخائف الضعيف...."

إنَّ خوفك وضعفك يذهبان سُدىً، لا طائل وراءهما، بل يكونان عليك لا لك، لأنهما يشجعان الآخرين ويثيران شهيتهم لافتراسك"⁸.

وخير للمسلم أن يهلك وهو في عنفوان سجاياه من أن يضعف ويجره ضعفه إلى مستنقع الذل والهوان والانسحاق الشائن، وليكن في الحق صنو الشجعان لا صنو الخوارين، وإنَّ استحضاره لرجولة الإيمان في مواقف التحديات هو المرجو منه دائماً.

و "النورسي" نفسه يضرب مثلاً رائداً على تلك الرجولة وهو في الأسر عند الروس حين يأبى الوقوف ذليلاً أما خال القيصر والقائد العام لجبهة القفقاس حتى كاد يفقد حياته، وكان جوابه عندما سئل لماذا لم تقم له: "إني عالمٌ مسلمٌ أحمل في قلبي الإيمان، فالذي يحمل الإيمان في قلبه أفضل ممَّن لا يحمله. فلو أنني قد قمت له احتراماً لكنت إذن قليل الاحترام لعقيدتي. ولهذا لم أقم له"⁹.

فلا شيء أشدَّ إيلاًماً من منظر مسلم محطَّم الشجاعة، محيِّ الصلْب تحت أنقال آلامه، يهوي من سماء عظمته كالكوكب الوهاج فلا يلبث وهجه حتى ينطفئ مخلفاً في الناظرين الكثير من الأسف والألم.

9- فاعلية "الطاقة الأخلاقية" عند المسلم:

وليس "جمال الخلق" عند المسلم شيئاً سلبياً مُعطَّلاً عن التأثير بالأشياء أو التأثير بها، فكما أن الجمال الكوني لا يمنع الطبيعة من الغضب أحياناً، ولا يمنع السماء من أن تزجر، ولا البحر من أن يهيج، ولا الأرض من أن تنزل، كذلك "جمال الخلق" عند المسلم لا يمنعه من الغضب للحق وفي الحق، ولا يمنعه من أن يخاصم ولكن في حدود العدل، وقد يضطر أحياناً إلى أن يخوض الحروب ولكن لا يقتل طفلاً ولا شيخاً ولا امرأة ولا راهباً ولا ناسكاً، ولا يعضد شجرة ولا يهدم بيتاً.

فما يبدو على الكونيات من حولنا ومن فوقنا وكأنها تتجاوز سلوكياتها الجمالية في أمثال هذه الوقائع، هو - في الحقيقة - من صميم جمالياتها. لأنها تفعل ذلك إمّا تجديداً لما وهنَ من قوتها، أو استعراضاً لجبروتها، أو تنفيساً عما يجيش في صدرها من قدرات وطاقات، أو إنذاراً لصديقتها الإنسان، أو تنبيهاً له. أو سخطاً عليه.

وهذه الأغراض كلها مما يزيد في تعميق اللوحة الكونية كلما شجبت أو نصلت ألوانها، وكلما بهت عقلنا، وشحب إدراكنا لما خفي علينا من جماليات الأبدية، لأننا نكون أقدر على إدراك الجمال الأقدس، وطمأنينية الأبد، عندما نكون أكثر ارتعاباً وأشدّ خوفاً وقلقاً، فتظلّ الطاقة الأخلاقية عند المسلم على أشدّها من الرهافة والتأثر بجماليات الروح وجماليات الكون، وهو ميزان سلوكي لا إفراط فيه ولا تفريط.

وعند "النورسي" إنّ "الخلق الحسن" جمالية سلوكية تعكس إرادة الله في رؤيته للإنسان - مخلوقه ومصنوعه - وهو في تصعيد دائم في سلّم الارتقاء السلوكي الذي يراد منه الكفاح من أجل اعتلائه إلى آخر درجة فيه قبل أن تطهر روحه، ويتقدس عقله ليصبح بعد ذلك جديراً بأن يكون واحداً من المؤمنين على أمن العالم الأخلاقي.

وإذا كانت الأخلاقية الإسلامية اليوم مجهولة - إلى حد ما - عن أنظار العالم، إلاّ إنها جديرة إذا ما أتيح للمسلم أن يمارس قيمه الأخلاقية بحرية ومن غير منازع أن تجذب إليها الأنظار فالعالم اليوم في حاجة إلى أن يجد نموذجاً للشخصية القوية المتينة البناء بحيث لا تستطيع الأهواء أن تخترقه، ولن يحظى بمثل هذه الشخصية إلاّ في كيان المسلم لأن (التخلق بالأخلاق الإلهية، أي التحلي بالسجايا السامية والخصال الحميدة التي يأمر بها الله سبحانه وتعالى)¹⁰ هي الشخصية المطلوبة في هذا العصر، فالتخلق بأخلاق الله - كما يقول النورسي - قمينٌ بأفئدة عظماء الرجال، أصحاب النفوس الأصفى، والصدق الأنقى، وبقدر ما يكون عند الإنسان من هذا الخلق يكون ما لديه من حياة تأتلف فيها الطبيعة والفضيلة، وهو الوجود الحقيقي الذي يستبعد أي نوع من أنواع الشر الذي كله موات وعدم - كما يقول النورسي - أما الخير فهو الحقيقة المطلقة التي ترتقي بالإنسان إلى المطلق الإلهي الذي هو غاية كل من يؤمن بالله واليوم الآخر.

الهوامش

- 1 رواه البخاري في كتاب تفسير القرآن، رقم الحديث: 4589؛ ومسلم في كتاب الإيمان، رقم الحديث: 307؛ وأحمد بن حنبل في مسنده، في مسند بني هاشم، رقم الحديث: 2664.
- 2 رواه مسلم في كتاب صلاة المسافرين، رقم الحديث: 1233؛ والترمذي في كتاب البر والصلة عن رسول الله، رقم الحديث: 1939؛ والنسائي في كتاب قيام الليل وتطوع النهار، رقم الحديث: 1583؛ وأبو داود في كتاب الصلاة، رقم الحديث: 1144؛ وابن ماجه في كتاب الأحكام، رقم الحديث: 2324؛ وأحمد بن حنبل في مسنده، في باقي مسند الأنصار، رقم الحديث: 23134.
- 3 رواه أحمد بن حنبل في باقي مسند المكثرين، رقم الحديث: 8595.
- 4- أنظر الكلمات/ اللوامع/ 871-872
- 5- [إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه] فاطر/10
- 6- الشعاعات/ 255-256/ مع شئ قليل من التصرف.
- 7 رواه البخاري في كتاب الجمعة، رقم الحديث: 1062؛ ومسلم في كتاب صفة القيامة والجنة والنار، رقم الحديث: 5044؛ والترمذي في كتاب الصلاة، رقم الحديث: 377؛ والنسائي في كتاب قيام الليل وتطوع النهار، رقم الحديث: 1626؛ وابن ماجه في كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، رقم الحديث: 1409؛ وأحمد بن حنبل في مسنده، في أول مسند الكوفيين، رقم الحديث: 17532.
- 8- الكلمات/ اللوامع/ 862
- 9- سيرة ذاتية ص 130/ إعداد وترجمة الصالحي.
- 10- الكلمات/ 642

الحوار الحضاري في فكر الأستاذ

بديع الزمان سعيد النورسي

ذ. سمير بودينار

وجدة-المغرب

" بالإقناع يكون الظهور على المدنيين " الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي.

لم تزل العلاقة بين الذات والآخر قضية تشغل بال العلماء والمفكرين والمصلحين على امتداد مساحة التاريخ، واتساع رقعة الجغرافيا، وما فتئت الرؤى والمقولات والأفكار تتكاثر حول هذا الموضوع، وتتراحم على مداخله، مختربة مجالات الأمم والأديان والثقافات ومنظومات القيم والأفكار كافة.

وكان من نتائج ذلك أن أصبحت قضية العلاقة بين الذات في مستوى الجماعة- أي المجتمع والأمة- والآخر في المستوى نفسه موضوعا لعلوم إنسانية واجتماعية عدة، كعلوم المعرفة، وفلسفة التاريخ، وعلم الحضارة والأنثروبولوجيا، والاستشراق والاستغراب، والعلوم الاجتماعية والسياسية وغيرها، كل من زاويته ومجال بحثه، ثم كانت المعالم البارزة للعلاقة بين المجتمعات والثقافات والأمم المختلفة في العصر الحديث، تلك الرؤى التي تمثلت إلى هذا المستوى أو ذاك أفكار بيئتها، وثقافة محيطها، محاولة صياغة أجوبة تسعف العقل في فهم المستجدات الكبرى التي عرفها مجال هذه العلاقة، وتقدم نسقا من القيم والأفكار، والمواقف النفسية والثقافية والاجتماعية، والرؤى السياسية والاستراتيجية، يمكن من تخطي إشكالات هذه العلاقة الخالدة في حضورها وإلحاحها، والتباسها واستشكالها معا.

ولم يكن الفكر الإسلامي خارج تلك الحركية اللافتة التي عرفت أجلى صورها خلال القرنين الماضيين، إذ توالى أفكار النهوض ودعوات الإصلاح، تسعى إلى جبر ما انكسر في علاقة الإنسان المسلم بمصدر التشكل المعرفي عنده، على إصلاح هذه العلاقة، يكون مدخلا لإدراك الذات والآخر في سياق الالتقاء الحق، وصياغة رؤية حية ومتجددة للعلاقة بينهما، تستطيع أن تجعل من الإنسان المسلم - وهو مادة لبناء لصرح الأمة - نافذة لهذا الصرح، تشع منها قيم أمته وثقافتها على غيرها من مجتمعات وأمم بني الإنسان.

ولقد كان الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي رجلا من رجالات هذه المهمة الكبرى بامتياز، ليس لما تجلّى من رحيق أفكاره وتأملاته على هذا المستوى فحسب. بل لأن تفسيره الذي يوصف بأنه تفسير (شهودي) لمعاني القرآن الكريم، ورؤاه النورانية في معاني الإسلام وقيمه وأحكامه، التي ارتضاها أساسا ومادة لبناء صرح الإيمان في نفس الإنسان، ليفيض من إيمانه على ما حوله من عناصر الوجود، قد أمدانا بإطار مرجعي نادر لنمط العلاقة المأمولة بين التجارب الحضارية المختلفة. وذلك أمر تمس إليه الحاجة في مجمل الدراسات التي حاولت وضع تصور للعلاقة بين تلك التجارب، قائم على إدراك ماهية الحضارة وحقيقتها وغايتها أولا، وعناصرها التي تمتد مكملتها جامعة بين تجارب البناء الحضاري المتعددة ثانيا. وليس ذلك غريبا على رجل كانت حياته نفسها تجليا، ومساره محطات تواصل وتقاطع والتقاء وتفاعل بين نماذج ثقافية وحضارية مختلفة، فقد استوعبت فيه العقيدة الإسلامية انتماءات العرق الكردي، والثقافية التركية والحضارة العثمانية، ومثلت هجمة الحضارة الغربية على بلاد الإسلام وما تلاها من تداعيات وأحداث جسام محطة تحول بارزة في حياة الرجل ومساره الفكري بعد أن شهدت سنوات الحرب العالمية الأولى هزيمة الدولة العثمانية أمام قوات الحلفاء، فكانت تلك هي مرحلة ولادة سعيد الجديد، الذي صبر كما قال لتلاميذه على آلامه الشخصية كلها، غير أن مشهد حوافر الخيول الإنجليزية واليونانية والروسية والإيطالية، وهي تطأ أرض تركيا، وتحتل إستانبول عاصمة الخلافة، كان أكبر وقعا على نفسه وأشد إيلا ما لروحه من أي ألم آخر.

فكان مسار حياته كله سلسلة متصلة الحلقات من الحكمة والبيان، يجلي معاني القرآن، ويسبر غوره، ويبين دقائقه، فأعطانا بتفسيره فهما لمعان أساسية تمس الحاجة إليها اليوم أكثر من أي وقت مضى، إن لشدة حاجة أمتنا إلى عناصر الهداية والرشد كافة، أو لجنوح ثقافات العالم إجمالا، إلى مد الجسور وتبادل الرؤى، عليها تقف في وجه إرادة الطغيان والاستبداد، التي أطلت برأسها مع حضارة الغرب الحديث ساعية إلى فرض نموذجها على الناس أجمعين، ومبشرة بنهاية التاريخ عند نقطة علوها في العالمين، ذلك أن الحديث عن الحوار بين حضارات متعددة، ومحاولات إقامة نمط جديد في العلاقات فيما بينها قائم على الاعتراف، وبالتالي التفاوض والتبادل والتعايش، في غياب معرفة ماهية هذه الحضارة عموما وخاصيتها الثقافية خصوصا، يعبر عن عمق أزمة فكرية ملحة، فالإلتجاء إلى الحوار بمختلف أوجهه وتعدد مستوياته لا يمكن أن يتخطى عوائق سوء الفهم، وتباين النظرة إلى الحضارة نفسها، والتمييز الدقيق بين تجربتها التاريخية في بيئة ما، وبين خصائصها العامة وقوانينها الثابتة في التجارب الحضارية المختلفة لمجتمعات وأمم وشعوب العالم.

ومن هنا كانت الحضارة نفسها، محدداتها وغاياتها والنظرة إليها ومختلف التصورات التي تتوزعها، المدخل إلى وعي ثابت بألية اشتغالها، ما يكسب أداة قيمة في تأسيس حوار دائم وثابت بين الحضارات قائم على أسس لا تنقض، ونظرة متطلعة باستمرار نحو المستقبل.

* ماهية الحضارة :

يعتبر مفهوم الحضارة واحدا من أكثر المفاهيم مركزية في الثقافة المعاصرة، ويكفي أن يستعرض المرء جملة ما كتب وما يزال في تعريف الحضارة ودراسة أسسها وغاياتها وما يصاحب ذلك من اختلاف في الرؤى وتباين في النتائج، ليدرك أهمية المبحث من جهة باعتبار الحضارة هدفاً أسمى لحركة التطور في المجتمعات، وصعوبة إعطاء خلاصات دقيقة ونهائية حوله من جهة ثانية، فمنذ انتقال لفظ الحضارة إلى القاموس العربي مترجما عن لفظ "Civilization" في بدايات القرن

العشرين¹ بدأ التباين في تحديد مفهومه، بل إن ذلك ليس خاصا بالدراسات العربية في هذا الباب وحدها، بل هو سمة عامة للبحث في مجال الحضارة، فقد اتسعت مدلولاتها لدى الباحثين المعاصرين، رغم عدم اتفاقهم على إعطاء تعريف موحد لها، لا في اللغة العربية ولكن في اللغات الأوروبية المختلفة².

وإذا تتبعنا مفهوم الحضارة في سياقاته المختلفة أمكننا القول أنه بناء لا يقوم إلا على أسس تمتد بينها علاقة تكامل وتجاوب، وتلك الأسس الكبرى هي المادة والثقافة والأخلاق. ولقد كان للأستاذ النورسي رحمه الله رؤى ثاقبة، وإشارات بليغة تتصل بهذه العناصر كلها، إضافة إلى آرائه وتأملاته ومواقفه الشخصية، التي تفسر ذلك الإطار المرجعي للعلاقة بين مختلف الثقافات، وشتى السياقات الحضارية، على اعتبار أن الحضارة في النهاية إنما هي مفهوم واحد بخصائص متفردة، وإنما يقارب الإنسان ذلك المفهوم من خلال تجاربه بقدر تمثله لتلك الخصائص والسماط، وإنما ينشأ التفاوت بين التجارب المختلفة بتفاوت مستوى ذلك التمثيل.

ولا شك أن الحديث عن حوار بين تلك التجارب الحضارية يحتاج أولاً إلى تحديد معالم مفهوم الحضارة من خلال هذه الأسس الثلاث.

1-المادة أساس الحضارات المشتركة.

بقدر ما كانت المادة بمعنى المقدرات المادية الموجودة في الكون أداة مشتركة لتجارب الإنسان المتعددة في بناء الحضارة، بقدر ما صارت مجالاً لتعدد الرؤى والمواقف حولها، فقد اتسمت الرؤى الإنسانية إلى معطيات المادة ومقدرات الكون، التي استطاع الإنسان استثمارها عبر مسيرته التاريخية بالتباين الواضح، إذ في الوقت الذي اعتبرت هذه المقدرات هبة إلهية عند البعض، مثلت لدى البعض الآخر نتاجاً طبيعياً واقعاً تحت سلطة الإنسان نفسه، وتوزعت النظرة إلى الكون كله، والبيئة الطبيعية للإنسان بوصفها مصدر عناصر المادة اللازمة لتشيد حضارته، بالاختلاف الواضح، ولذلك نجد الأستاذ بديع الزمان النورسي يقف مطولاً عند مصدر المادة (الطبيعية) شارحاً ومبيناً لتتضح في ضوء معنى الطبيعة حدود قدرة الإنسان ودوره في الحياة، يقول: " الطبيعة التي يتعلق بها الطبيعيون إن كان لا بد أنها مالكة لوجود

حقيق خارجي فإن هذا الوجود هو : صنعة صانع ولن يكون صانعا، وهو نقش ولن يكون نقاشا، ومجموعة أحكام ولن يكون حاكما، وشريعة فطرية ولن يكون شارعا، وستار مخلوق للعزة ولن يكون خالقا، وفطرة منفعة ولن يكون فاطرا فاعلا، ومجموعة قوانين ولن يكون قادرا، ومسطرا ولن يكون مصدرا³ فالطبيعة عند النورسي " شريعة فطرية، تجل للإرادة الإلهية في إدارة الأكوان"⁴. لا مجرد موجود تحت سيطرة الإنسان، لأن "الطبيعة هي محصلة وخلاصة مجموع القوانين الاعتبارية الجارية في الكون"⁵ كما يقول الأستاذ النورسي. هذا إلى جانب أن عناصر المادة المبتوثة في الكون لا تستجيب للإنسان إلا في إطار علاقة "التسخير" وفق قانون الحركة والسعي دون غيره من القوانين، بمعنى أن المادة هي في قمة درجات الحيادية في علاقتها بالإنسان - مطلق الإنسان - بقطع الصلة مع طبيعته الثقافية وخصائص مشروعه الحضاري ووجهة استغلاله لمعطيات الكون، بل إن الكون بما فيه إنما وجد ليكون في خدمة الإنسان وهو بصدد تحقيق رسالته في الوجود، وعمارة الأرض" فالإنسان قيمة عالية، بدليل أن السماوات والأرض مسخرة لاستفادته، وكذا إن له أهمية عظيمة بدليل أن الله تعالى لم يخلق الإنسان للخلق، بل خلق الخلق للإنسان، وإن له عند خالقه لموقعا بدليل أن الله تعالى لم يوجد العالم لذاته بل أوجده للبشر، وأوجد البشر لعبادته"⁶.

إن تأمل مسار الإنسان في علاقته بالعنصر المادي لحركة الحضارة، تمدنا بقواعد ثلاث أساسية، يضيئها لنا القرآن الكريم بإشارات هامة للغاية، وهي :

① أن الإنسان مؤهل لتحقيق مهمة الاستخلاف، التي أناطها به الخالق (وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة)(البقرة:29)، (هو الذي جعلكم خلائف في الأرض)(فاطر: 39)،

وهي حقيقية يعبر عنها الأستاذ النورسي بقوله " إن من هيا جميع ما في الأرض لاستفادته، وسخرت له الأنواع، له أهمية عظيمة تشير إلى أنه النتيجة للخلقة"⁷.

② أن الكون موقوف من الإنسان موقف التسخير لأداء هذه المهمة، (ألم تر أن الله سخر لكم ما في الأرض)(الحج: 63)،

③ أن المادة محايدة في علاقتها بالخلفية الثقافية أو الأخلاقية للإنسان، (كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا) (الإسراء:20)،

فبناء حضارة ما إنما هو متعلق باستجابة الإنسان لهذه القوانين، ومضيه ساعيا وفق مقتضياتها، وذلك وجه من أوجه الاستجابة للإرادة الإلهية من خلقه، إذ أن تلك الإرادة عينها هي التي سطرت تلك القوانين، وذلك هو المعنى اللطيف الذي يجليه الأستاذ النورسي بحديثه عن " الطاعة والعصيان " التكوينيين " الذين يوازنان الطاعة والعصيان الشرعيين، فيقول: "إن هناك طاعة وعصيانا تجاه الأوامر الشرعية المعروفة، كذلك هناك طاعة وعصيان تجاه الأوامر التكوينية"⁸، كما أن الانتكاس في سلم التقدم المادي، إنما هو نتيجة لتعطل قانون " الكسب متعلق بالسعي " ومن هنا وجدنا أن الأستاذ النورسي حين يناقش هذه المسألة ويبحث في سبب افتقار المسلمين بعد أن كانوا أغنياء يلاحظ أو أول السبيين في ذلك هو: " الفتور في السعي ومخالفة الأمر الرباني القاضي بـ " أن ليس للإنسان إلا ما سعى " (النجم:38) وإلى انطفاء جذوة شوق الكسب المستفاد من الأمر النبوي " الكاسب حبيب الله "⁹ والخلاصة أن حضارة الإيمان التي دعا إليها النورسي والتي يحتاج إليها العالم اليوم، ليست معفاة في عملية النهوض والتغيير من الخضوع لقوانين الكون والأخذ بها على الدوام، كما يوضح بقوله " إن من يشق طريقا في الحياة الاجتماعية، ويؤسس حركة، لا يستثمر مساعيه، ولن يكون النجاح حليفه في أمور الخير والرفق، ما لم تكن الحركة منسجمة مع القوانين الفطرية التي تحكم الكون¹⁰ وإن بذل المادة للإنسان وفق هذه القوانين -مما يجعلها تحت تصرفه حسب أخذه بهذه القواعد التي لا تتبدل والتي تمثل واسطة علاقة "التسخير" بينه وبينها- ما يدعو بالضرورة إلى التفاوت في مستوى اكتساب مقدرات المادة وتسخيرها حسب الأخذ بتلك القوانين، وهو أحد أجل مظاهر الحكمة، إذ يفضي إلى الحاجة لتبادل المنافع المترتبة عن استثمارها، فالتفاوت في درجة استثمار عناصر الطبيعة يؤدي حتما إلى ضرورة التبادل تبعا لحاجة الجماعة البشرية إلى غيرها من الجماعات، وليس غريبا تبعا لهذا أن يكون التواصل بين المجموعات البشرية بتبادل المنافع المادية وفق أنماط بدائية من العلاقات الاجتماعية والاقتصادية هو أول ما ميز حركة

التواصل والتبادل بين المجتمعات الإنسانية - التي يصدر كل منها عن خلفية مختلفة - منذ أقدم العصور.

وإذا كان العدل هو أمثل مجال لحوار حقيقي ومثمر فإن حيادية المادة وتسخير الكون للكائن الإنساني، بالإضافة إلى تساوي الاستعدادات الفطرية عنده هي أهم ركائز هذا العدل في مجال بناء الحضارات، ذلك أن هذه المبادئ تمنحنا فرصة التأمل فيما كان ولا يزال متاحا للإنسان من آفاق البناء والعطاء على قاعدة تحقيق رسالته في الوجود (الاستخلاف)، "لأن حكمة مجيء الإنسان إلى هذه الدنيا والغاية منه هي معرفة خالق الكون سبحانه والإيمان به والقيام بعبادته"¹¹، كما يقول الأستاذ النورسي في تفسيره للآية الكريمة (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) (الذاريات 56)

2- الثقافة: الموجه الحواري للحضارات:

إن الانطلاق من الأسس الفلسفية لعلاقة الإنسان بالحياة، كما تتجلى في معرفة الإنسان، خصائصه وغايته، ومعرفة الكون جوهره ومعناه، هو الذي يعطي الإنسان رؤية خاصة للعالم من حوله ولرسالته فيه، وهي رؤية تشكل خلاصة طبيعته الثقافية ككائن اجتماعي.

وإذا كانت الثقافة إطارا من السلوك يبدعه الأفراد انطلاقا من مصادر التشكل المعرفي عندهم، ثم تتبناه الجماعات، بحيث يكون هوية تميز جماعة إنسانية ما عن غيرها. فإنها بهذا المفهوم تصنع شخصية الإنسان إذ توجه أهدافه وتحدد أسلوب حياته وتحفظ عليه استمراره واستقراره الاجتماعيين، فالشخصية الإنسانية إذن هي من صنع الثقافة، بل هي نتيجة لها. ومن هنا كانت أهميتها باعتبارها صانعة لشخصية الإنسان، وبالتالي الموجه الأبرز لمساره الحضاري، ونموذجه في البناء والتمدن، وبكلمة فإن الثقافة هي الحضارة الخاصة بأمة من الأمم، تحمل أسلوب هذه الأمة وتتسم بسماحتها، ولذلك احتاجت على الدوام إلى مصدر متعال على الإنسان، ليكون قادرا على تشكيل المعرفة التي يتغذى منها عقله وروحه، أو كما يقول بعض مفكري الإسلام "إن الحضارة تعلم، أما الثقافة فتنور، تحتاج الأولى إلى

تعلم أما الثانية فتحتاج إلى تأمل¹²، ومن هنا كانت الحاجة في عالم المسلمين إلى تنشئة الأجيال الجديدة على ثقافة تستمد من المصدر العلوي الذي يجيى فيها خاصية الرسالية، في خضم العمل والبناء، ولقد كانت تلك رسالة النورسي الذي أكد دوماً على أنه لا بد من نشأة الأجيال وفق النظام الإيماني والأخلاقي للإسلام بأسلوب تربوي مؤثر، إذا أردنا أن نتلافى المساوى ونحث على الحسنات في الثقافة التي تعد حياة الأمة¹³.

والثقافة التي تؤسس ببيان حضارة المسلمين من جديد وتوجههم إلى ذلك منفتحين على تجارب غيرهم آخذين عنه ما ينفعهم، ليس لها أن تسود إلا بهذا النظام الإيماني الذي يجمع للإنسان المسلم علمي الوحي والكون الذي يدل الواحد منهما على الآخر" فالكتابان المسطور والمنشور متكاملان متفاعلان، يستحيل عليك أن تقرأ القرآن، دون أن يلفت نظرك إلى عظمة الكون بمخلوقاته وأركانه المختلفة¹⁴. ومعرفة علمية متينة بمعرفة إيمانية راشدة موجهة، وبهذا كما يقول الأستاذ النورسي " يكون حامل هذا العلم (العلم والمعرفة الإيمانية) فاعلا حيويًا على مستوى عال من القدرة والمكنة والإتقان والتمثل لمنهج الوحي وشريعته وعقيدته"¹⁵ وبذلك تتحد في ثقافة المجتمع المسلم الطاقة المادية بالطاقة العلمية على مثال راشد يبيى ولا يهدم، ويشيد ولا يدمر، لأنها ثقافة توظف العلم لعمارة الأرض وإزهارها لا في محاولة السيطرة على الوجود¹⁶. ولذلك أسس المنهج النورسي لثقافة البناء الذي يسالم الطبيعة ولا يفتر عن السعي إلى اكتشاف قوانينها، لأنها تمدد بالمعاني والمعارف بشكل دائم ومتجدد إذ " إن مهمة العلم في مفهوم المجتمع الإسلامي المتحضر ليست هي قهر الطبيعة أو الانتصار عليها، بل التلطف مع الطبيعة والجد في اكتشاف قوانين الله فيها" كما يقول.

لقد أوجد الله سبحانه وتعالى الإنسان على حال من القابلية لتلقي هذا الكم الهائل من المعرفة المتاحة له ليحسن بها حاله وتهذب مدنيته، فإذا أدرك الإنسان حقيقة هذه القابلية فاستثمرها مدفوعاً بلذة المعرفة أدرك منزلة الفعل أو (الفعالية) بلغة الأستاذ النورسي، وهي لذة تتحقق بإصلاح الكون وعمارته وتنميته فيبتعد الإنسان والمجتمع عن مظاهر العدم المرادفة للألم، وتلك فلسفة كاملة في بناء

ثقافة الإنسان، الفاعل في بيئته، القادر على البذل والعطاء والانماء استجابة للحقائق المتجلية فيه، يقول الأستاذ النورسي " حيث إن صاحب كل قابلية يرقب بلهفة ولذة ما ينكشف عن قابلياته بفعالية ما، وإن تظاهر كل استعداد بفعالية إنما هو ناشئ من لذة مثلما يولد لذة، وإن صاحب كل كمال أيضا يتابع بلهفة ولذة، تظاهر كمالاته بالفعالية... إن كل نوع من أنواع الفعالية - جزئيا كان أو كليا - يورث لذة، بل إن في كل فعالية لذة، إن الفعالية نفسها هي عين اللذة، بل الفعالية تظاهر الوجود الذي هو عين اللذة، وهو انتفاضة بالتباعد عن العدم الذي هو عين الألم¹⁷ .

وإذا كانت الحضارة تبدو من خلال عناصر بنائها نموذجاً محايداً وقابلاً لإعادة الإنتاج - مع مراعاة الخصوصيات والسياقات التاريخية المتميزة - فإن الرؤية التي تحكم أي طرف من الأطراف الكثيرة المساهمة في مسيرة الحضارة الإنسانية، عبر إنتاج نماذجها المختلفة، تمتلك دوراً حاسماً في تحديد مسار هذه الحضارة. فرؤية الإنسان لنتائج إبداعه الحضاري وموقفه من معطيات المدنية التي يحيا في كنفها تمثل تحديداً لوجهة هذه المدنية وما يمكن لها أن تساهم به في تفاعلها مع غيرها، وتمثل الرؤية الغربية للحضارة عموماً و"لحضارتها" الذاتية على وجه الخصوص مدخلاً رئيسياً لمعرفة علاقة البناء الحضاري بالرؤية التي تحكم الإنسان في علاقته بهذا البناء.

لقد مثلت الحضارة الغربية خلال القرون الخمسة الماضية على الأقل محور الحضارات العالمية حتى مضى البعض إلى وصم هذه الفترة الزمنية بأنها "قرون الغرب"، فقد أدى الإنجاز الغربي على صعيد مراكمة التجربة في البناء خلال هذه المرحلة إلى حالة من "مركزية الذات" عنده دفعت كثيراً من منظريه إلى محاولة الرقي بالتجربة الحضارية الغربية إلى مستوى "الحضارة" بصيغة التعريف، أي اعتبارها النموذج الأرقى المستوفي لكافة معايير وشروط الحضارة الإنسانية، وأنها تبعا لذلك سقف التجربة الإنسانية وبالتالي "نهاية التاريخ"¹⁸، غير أن حركة الثقافة في الغرب تشي بوجود أكثر من مستوى في منهج التعامل مع الآخر، وهي حقيقة أساسية ينبغي ألا تغيب عن أي مشروع فكري للبحث عن المشترك، ومد الجسور التي تتأسس عليها الثقافة الحوارية الإيجابية، وما أحوج الفكر الإسلامي

المعاصر الذي يتلمس اليوم طريق الدفاع عن الإسلام في وجه خصومه، وبيان حقائقه وتحليله فضائله للعالم، إلى هذه الرؤية الإيجابية نحو الآخر التي تتأمله وتدرسه حتى إذا ما استوعبته وأدركت تفاصيله تعاملت مع واقعها ومستقبلاته بأنجع الأساليب وأكثرها ملاءمة، فلا تنظر إليه بتعميم يعمي عن الأجزاء والتميزات والتيارات الداخلية فيه، لأن ذلك شأنه أن يدفع إلى حوار من منطلق خاطئ وبوسائل غير ذات فاعلية، لقد كان للأستاذ النورسي رؤية إيجابية متقدمة فعلا على هذا المستوى وهو ينظر إلى أوروبا قبل سبعين عاما مضت فيقول عنها: "إن أوروبا اثنتان إحدهما هي أوروبا النافعة للبشرية... وأوروبا الثانية هي تلك التي تعفنت بظلمات الفلسفة الطبيعية وفسدت بالمادية وحسبت سيئات الحضارة حسنات لها وتوهمت مساوئها فضائل"¹⁹، وبعد هذه المدة وفي الوقت الذي نجد بعد استقراء آراء نخبة من مفكري الغرب أن "نفي الآخر" يكاد يكون أحد ثوابت الفكر الغربي²⁰، وأن العلاقة بين الغرب والآخر هي علاقة انفصال واغتراب، وبذلك كان أمرا طبيعيا أن تتسم بالعداء، إذ أن الهدف النهائي لإنسان الغرب الحديث تحدد في معرفة العالم وفهم قوانينه من أجل السيطرة عليه²¹، نجد أن البعض الآخر يسعى للتصدي لهذه السيطرة في كافة صورها وتحليلاتها، بما فيها تلك التي تتبدى فيما يسمى "الاستبداد العذب"²²، وهو صورة من صور الهيمنة الثقافية التي ترقى إلى مستوى الإكراه على المضي في مسار التجربة الغربية، أو حتى إحدى تجاربها الجزئية، لكنها في الوقت نفسه لا تكاد تتبدى إلا في صور من "الرقمي"، أو السعي نحو إحلال مظاهر أخاذة تخفي حقيقة الاستبداد، مستحضرين ذلك الإنذار الذي أطلقه "ألدوس هكسلي" (Aldous Huxley) محذرا من تبدي مظاهر الطغيان والهيمنة في مظهر مغر أحيانا، حين يقول: «في عصر التكنولوجيا المتطورة، فإن الخطر الأكبر الذي يتهدد الأفكار، الثقافة والروح، يرجح أن يأتي من عدو باسم الوجه، أكثر من خصم يوحى بالرعب والكراهية»²³.

3- الأخلاق: ميزان التفاضل بين الحضارات

لا شك أن الإمام بأهمية العنصر الأخلاقي في بنية الحضارة، يحتاج إلى حديث واف يشمل علاقة الميزة الأخلاقية للإنسان، بمساهمته في بنائها، وأهمية البعد

الأخلاقي في الحفاظ على مكتسباتها، و خطورة تراجع أهمية هذا البعد، وغير ذلك مما يلخصه فيلسوف الحضارة الغربية "شبينغلر" بالقول: « إن الدستور الحضاري لا يتمحور حول العقل، بل حول الوجدان»، إلا أن الحديث عن التجارب التاريخية المختلفة للحضارات ، ومحاولة استخلاص الدروس منها ،ربما كان هو الأوفق في مثل هذا المقام للوصول إلى ذلك الهدف، لأن الزمن محك لا يخطئ في الحكم على مآلات الأفكار والقيم والأخلاق معا، سواء تجلت في حياة الإنسان فكرا وسلوكا، أو في نموذج الحضاري، يقول الأستاذ النورسي: " إن الزمن مفسر كبير فإن أظهر قيده فلا يمكن الاعتراض عليه²⁴ .

وفي هذا العصر فإن الدارسين لمسار الحضارة المعاصرة خاصة في نموذجها المائل في عالم اليوم، لم يعودوا يختلفون على معاناتها من جملة أخطار، يتصدرها الخلل في التوازن الإيكولوجي للكوكب الأرضي، الذي يهدد كامل الوجود البشري ومستقبله على ظهر هذا الكوكب والذي يمثل "احتراق الأرض" مظهرا بارزا وملحا من مظاهره، إلى جانب الاتساع المتزايد في الفجوة بين القلة الغنية التي تملك والأغلبية الساحقة من الفقراء (80% من ثروة العالم يملكها 20% من سكانه بينما تتقاسم الـ 80% الباقية ما لا يتجاوز خمس هذه الثروة) خاصة مع استشراف نمط الثقافة الغربي الذي يهيمن عليه السلوك الاستهلاكي الموصوف بأنه نظام "لا عقلانية العقلانية" والذي يتخذ مما أصبح يسمى ظاهرة الماكدونالدية (Macdonaldization) شعاره الأبرز²⁵ ، وما يمثله هذا الاتساع من خطر هائل على الاستقرار الاجتماعي والسياسي للأغلبية من دول العالم، وبالتالي على قدرة الجماعة البشرية على العيش المشترك، وهو ما بينه الأستاذ النورسي من خلال آثار خضوع النموذج الغربي في التنمية لقوانين السوق المنفلتة من البعد الإنساني، حين كان يحدثنا عن: " الفروق الظالمة والكبيرة في الحياة المعيشة"²⁶ كما أن الاستخدام غير الأخلاقي لمعطيات الوراثة على كافة المستويات النباتية والحيوانية بل وحتى البشرية، أصبح اليوم هما مشتركا لكل من يعنى بالمستقبل الأخلاقي للكائن البشري، هذا بالإضافة إلى الترددي في القيم الاجتماعية والأسرية والانهيار الأخلاقي غير المسبوق.

إن هذا الواقع الذي يعرفه العالم من خلال نموذج الحضاري الراهن يؤكد مجددا حاجة هذا النموذج إلى الإيمان وإلى المعرفة الإيمانية، وهما جوهر الرسالة التي حملها النورسي إلى العالم حينما كان يقول: " فالإنسانية لا تترقى وتسمو بالتقدم التقني والعلمي والصناعي، إذا لم يتبع هذا التقدم تقدما إيمانيا خالصا"²⁷.

ولأنه كان يدرك مبلغ الأثر الذي أحدثه اللقاء الاضطراري بين النموذج الوافد وبين عالم المسلمين، وحجم الخلل الذي أحدثه ذلك اللقاء في بنية الإنسان المسلم وعلى مسار حضارته فإن المشروع الذي عمل له في هذا السبيل كان هو " تحريك الجهد التربوي لإشباع الأرواح بمدنية القرآن في مجتمع تزلزلت مدنيته، وأسمى درجات المدنية من حيث الروح هي بلوغ الإيمان كما يلقنه القرآن، ومن حيث المجتمع هي بلوغ الأخلاق كما يعلمها القرآن"²⁸، فإذا تهذبت النفوس بالإيمان عرف المجتمع معاني الرشد كلها وتسدد مساره الحضاري وسادت فيه موازين الأخلاق.

إن أقوى الحوافز التي يمكنها أن تدفع الإنسان إلى الإتقان والإجادة في كل شيء، وإلى البعد عن كل ما يضر بذاته أو بالمخلوقات، هو ارتباطه بمصدر الهداية الذي يهبه الإخلاص والسعي إلى إرضاء الخالق سبحانه، ومن هنا كان اهتمام الأستاذ النورسي بجانب الأخلاق في بناء الحضارة، تلك الأخلاق التي تستمد من عقيدة الإسلام فتكون أثرا للإيمان بكافة معانيه " فالذي يجعل الإنسان يحرز الإخلاص هو تفكره في أن الدافع إلى العمل هو الأمر الإلهي لا غير، ونتيجته كسب رضاه"²⁹ كما يقول، والحضارة التي يبنها هي حضارة الأخلاق التي تبدو فيها أعمال الإنسان كافة عبادة في محراب الحياة، فلا تنافي فيها بين الدنيا والآخرة، ونتيجة العبادة فيها " وثمرتها وفوائدها أخروية، إلا أنه لا تنافي إذا منحت ثمرات تعود فائدتها إلى الدنيا"³⁰، كما يقول الأستاذ النورسي.

ولقد كان من آثار تراجع تلك الأخلاق في ثقافة المسلم أن اختل بناؤه الحضاري في كل مجال، فتراجعت قدرته على العطاء، بل إن هذا الاتجاه قد أثر على المستوى المادي للإنسان المسلم نفسه، وهنا نجد الأستاذ النورسي يمضي في تحليل

الخلل في البناء القيمي للإنسان المسلم وآثاره على بنیان حضارته، فيرى مثلاً أن: " الذي أحال واقع المسلمين إلى وضع الفقر والإدقاع هو التوجه العام، الذي يجعل الفرد المسلم لا يقبل إلا على الوظيفة الحكومية، فهو إنسان نفار من العمل اليدوي"³¹ إلى غير ذلك من الآراء والاستنتاجات.

*محددات الحوار الحضاري عند الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي

قد لا يكون من المبالغة القول: أنه ليس ثمة كبير إضافة فيما يحاول البعض اليوم -في خضم السعي إلى إقامة أسس للحوار بين الحضارة الإسلامية وغيرها- إبرازه من مظاهر الرقي والعظمة وجوانب التفاعل والتسامح والقدرة على التبادل والتجاوب في الحضارة الإسلامية، خلال مراحل الإزدهار من تاريخها الماضي، فذلك كله أو جله هو محل اتفاق بيننا وبين الجانب الأعظم من الدارسين الغربيين لتاريخ وحضارة المسلمين، خاصة المنصفين منهم وهم الطرف الأساسي والمجال الأهم لحوارنا، إنما الأولى والأوفق هو السعي إلى إبراز قدرة المبادئ والقيم التي أنتجت لنا هذه الجوانب المشرقة في تاريخ الإنسان على إعادة إنتاج النموذج نفسه عبر الزمان والمكان، من خلال المبادئ العامة التي لا تتغير، والواقع أن" من يطالع رسائل النور للإمام بديع الزمان سعيد النورسي يجد أن الحوار بمفاهيمه ومعانيه التي ترقى بالإنسان قد جاءت في مواضيع كثيرة أهمها:

- حوار الإنسان مع نفسه...
- حوار الإنسان مع الإنسان...
- حوار الحضارات، وذلك لأن العناصر الخارجية ضرورة حتمية لا تستغني عنها حضارة مهما سمت وارتقت، ويكاد يكون معروفاً أن (الملاحق في فقه الدعوة)³² للإمام بديع الزمان سعيد النورسي، عبارة عن مجموعة مكاتيب جرت بين النورسي وطلابه الأوائل³³.

غير أن الجانب الأكبر من اهتمام الأستاذ النورسي في مجال الحوار مع الآخر كان هو إبراز قيم الإيمان التي أسست ولا زالت قادرة على تأسيس حضارة الإسلام، والتي نحاول في هذا المقام استدعاء الجوانب المتعلقة بالعلاقة مع الغير منها، ما يقتضي الوقوف عند أصل القيم والقواعد العامة التي تضبط العلاقات في الثقافة الإسلامية.

1- المبادئ العامة للعلاقات في الثقافة الإسلامية

① التكريم الإلهي للإنسان: مطلق الإنسان، بغض النظر عن دينه أو عرقه أو جنسه أو لغته

(ولقد كرّمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً) (الإسراء:70) ويترتب على هذا أن الإنسان مصون وأن نفسه محترمة لمجرد دخوله الدائرة الإنسانية، ففي الحديث عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: "مرت بنا جنازة، فقام النبي وقمنا، فقلنا يا رسول الله إنها جنازة يهودي، فقال: أو ليست نفساً، إذا رأيتم الجنازة فقوموا" (رواه البخاري)، وكان الأستاذ النورسي يرى أن "الإنسان هو الروح المنفوخ في جسد الأرض فمتى خرج البشر خربت الأرض وماتت" 34.

② المساواة بين الناس جميعاً في أصلهم: وارتباطهم برابطة النسب المشترك، فالإنسانية كلها متصلة في نسبها الأعلى، يدل على ذلك الحديث النبوي من خطبة الوداع: « أيها الناس، إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد كلكم لآدم، وآدم من تراب» (رواه مسلم) وعلى هذا كانت المساواة أصلاً بين الناس (لا فضل لعربي على أعجمي ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى) (رواه مسلم)، وما اختلاف الناس في أجناسهم ولغاتهم إلا آية من الآيات الدالة على الخالق سبحانه: (ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم) (الروم:21)، المحققة لغاية التعارف بين الناس، شعوباً وأماً : (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم) (الحجرات:13)، ولإبراز هذه المعاني العظيمة كان الأستاذ النورسي يتحدث عن

الإنسان قبل أن يتبعه بخاصية الإيمان لإدراكه أن الإنسان كما يقول: " بسر تنوير الإيمان لجهاته يخرج من ضيق الزمان الحاضر، والمكان الضيق وإلى ساحة وسعة العالم، ويصير العالم كبيته، والماضي والمستقبل زمانا حاضرا لروحه وقلبه، فكأن الإنسان له عمر معنوي يمتد من أول الدنيا إلى آخرها يستمد ذلك العمر من نور حياة ممتدة من الأزل إلى الأبد" ³⁵ .

3 حرية العقيدة: إذ (لا إكراه في الدين) (البقرة:255) فليس من أحكام الشريعة ولا منهجها في دعوة الناس، إكراههم على الدخول في الإسلام، وكتاب الله يُعلم المؤمن أن يدعو دعوة لا مسؤولية معها عن استجابة المدعو وهدايته(ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء)(البقرة:271) مذكرا إياه بقدرته الله إن شاء على ذلك : (ولو شاء ربكم لآمن من في الأرض كلهم جميعا أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين)(يونس: 99)، وأن اختلاف الناس سنة ماضية من سنن الله في خلقه : (ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم) (هود: 118).

4 حرمة دماء الناس وأموالهم : مسلمين أو غير مسلمين - ما لم يكن هؤلاء أعداء أو محاربين- فلقد رتبت الشريعة الإسلامية على سفك دم غير المسلم من المعاهدين دية، تأكيداً لحرمة النفس الإنسانية إلا بحق: (وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين توبة من الله) (النساء:91)، كما حرم الإسلام العدوان ومجاوزة حدود العدالة : (ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين) (البقرة:189).

5 البر و القسط أصل في معاملة غير المسلم : أما حربُه فحالة مترتبة عن الاعتداء، وليست أصلا في التعامل معه : (فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم) (البقرة: 193)، وقد كان للنورسي موقف حضاري راق من هذه القضية، حين جاءه بعض أفراد القبائل الكردية في شرق الأناضول، معترضا على فكرة المساواة في الحرية مع الروم والأرمن، فأجابهم قائلا: " إن حريتهم ألا

يظلموا ولا يخل براحتهم وهذا أمر شرعي، أما ما زاد على هذا فهو تعد منهم تجاه طيشكم وسوء تصرفكم أو استغلال لجهلكم"36

وفي الآيتين الثامنة والتاسعة من سورة الممتحنة ، قانون للعلاقة بين المسلم وغير المسلم، وذلك في قوله سبحانه — : (لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم، ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون).

كما أن الاستعمال القرآني لعبارة البر (قمة الإحسان)، والقسط (قمة العدل)، فيه إشارة إلى منهج التعامل الإسلامي المطلوب مع غير المسلمين، ممن لم يعتدوا على هذه الأمة، قتالا في دينها، أو إخراجا لأبنائها من ديارهم، وحسب هذه الآية دلالة أن كلمة البر تطلق على ما ينبغي أن تتصف به أسمى أنواع العلاقات الإنسانية، وهي علاقة الأبناء بالآباء (بر الوالدين)، كما سماها القرآن الكريم نفسه (وبرا بوالدي ولم يجعلني جبارا شقيا) (مريم:31)، وفي تفسيره للآية (قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم) (آل عمران الآية 63) يقول الأستاذ النورسي: " إن الأفراد والجماعات مع أنهم قد عجزوا عن معارضة القرآن إلا أن المدينة الحاضرة قد اتخذت طورا مخالفا وأخذت تعارض إعجازه بأساليبها الساحرة"37 ويقول تعقيبا على هذا الكلام، وأحد من علماء الدين المسيحيين، وهو: د. توماس ميشل* " وفي هذه الحالة فإن القرآن ينصح ويوصي بالوصول والإتفاق على " كلمة سواء" مع أهل الكتاب، وهذا معناه وصول المسلمين والنصارى إلى وعي وإدراك متبادل ومشترك بأن للمجتمعات المؤسسة على الإيمان بالله هدف مشترك وهو أن تكون شاهدة على القيم الإلهية وسط الحضارة الحديثة، وذلك بعيدا عن زعم "صدام الحضارات"38

إن التحدي الأساسي الذي يواجه تأسيس قاعدة فهم مشتركة للذات وللغير بين الحضارة الإسلامية وغيرها في هذه المرحلة، هو ذلك المتعلق بالجواب على سؤال لا يزال يطرح باستمرار: هل يملك المسلمون اليوم أن يكونوا نموذجا حضاريا صالحا

للتبادل والتعايش والحوار؟ ذلك أن الخلاف إنما هو على قدرة الأسس التي قامت عليها هذه الحضارة سابقا على حمل البناء الحضاري الجديد في عالم اليوم، وذلك مبدأ يضيء لنا أحد أهم المجالات التي ينبغي توجيه الجهود نحوها، وهو استعادة القيم الإسلامية في مستويات النظر والتفكير والحوار والفعل بدلا من مجرد استعادة تماثلها التاريخية، التي لا يبدوا أنها -حتى لو أمكن الوعي بها على أوسع نطاق بين محاورينا- قادرة على التأسيس للحوار من جديد في هذه اللحظة من تاريخ العلاقة بين عالم المسلمين وغيره.

إن الوعي المبكر بهذه الحقيقة لدى الأستاذ النورسي هو الذي مكنتنا من هذه المادة الفكرية الغنية التي عنيت بقيم اللقاء مع الآخر من منطلق الاعتزاز بتلك القيم، والإيمان المطلق بصلاحياتها، ومحاولة بيانها للناس أجمعين مهما كلفه ذلك وفي مختلف الظروف، بل وفي أحلك أيام المحن التي مر منها ويحسن مثلا لذلك التذكير بحادث وقع للأستاذ مع خال القيصر الروسي القائد العام للجبهة الروسية "نيكولا نيكولافيج" الذي كان يزور معسكر الأسرى الذي اعتقل فيه النورسي إبان الحرب، فقام جميع الأسرى لأداء التحية ما عدا سعيدا النورسي، فلاحظ القائد العام ذلك ورجع ومر ثانية أمامه فلم يقم له كذلك، وفي المرة الثالثة وقف أمامه وجرى الحوار الآتي بينهما بواسطة مترجم القائد:

- القائد: الظاهر أنك لم تعرفني.
- النورسي: بل لقد عرفتك، إنك نيكولا نيكولافيج. خال القيصر والقائد العام في جبهة القفقاس
- إذن فلم تستهين بي؟
- كلا، إنني لم أستهن بأحد، وإنما فعلت ما تأمرني به عقيدتي.
- وما ذا تأمرك عقيدتك؟

إنني عالم مسلم، أحمل في قلبي إيمانا، والذي يحمل في قلبه إيمانا هو أفضل من الذي لا إيمان له. ولو أنني قمت لك لكنت قليل الاحترام لعقيدتي، لذلك فإنني لم أقم.

واعتبر القائد كلام النورسي وصفة عدم الإيمان إهانة له ولجيشه، بل وللقيصر، وأمر بتشكيل محكمة عسكرية للنظر في الأمر، وتشكلت المحكمة، وقدم إليها النورسي بالتهمة التي بدت للقائد الروسي، ويلح الأسرى من الأتراك والألمان والنمساويين عليه بالاعتذار، لكنه رفض بإصرار.

وتصدر المحكمة قرارها بالإعدام ويحضر في يوم التنفيذ ثلة من الجند على رأسهم ضابط روسي لتنفيذ الحكم، فيطلب النورسي مهلة لأداء واجب أخير ثم يقوم فيتوضأ ويصلي ركعتين. وهنا يأتي القائد العام ليقول له بعد فراغه من الصلاة:

- أرجو منك المعذرة، كنت أظنك قد قمت بعملك قاصدا إهانتني ولكنني واثق الآن أنك تنفذ ما تأمرك به عقيدتك وإيمانك. لذا فقد أبطلت قرار المحكمة.

بكلمة، إن خطاب الأمة الإسلامية اليوم هو أحوج ما يكون إلى المضي في اتجاه التأكيد على القيم والمبادئ وثباتها وقدرتها- كما كانت دوما- على إقامة صرح حضارة عظيمة، وذلك هو بداية إدراك الخصوصية الثقافية والحضارية للأمة وامتلاكها لنموذجها البديل الذي به تنظر إلى غيرها وعلى أساسه تحاوره، أما الحديث عن مظاهر التسامح في الحضارة الإسلامية و الذي أصبح اليوم يتخذ شكل دفاع عن النفس ومحاولة لتبرئة الذات من ذنب متوهم، فقد يصير في بعض المناسبات واللقاءات خاصة منها تلك الفكرية والأكاديمية التي تلتقي فيها النخبة من العلماء والدارسين أشبه ببيع الماء في حارة السقائين، أو كالذي يحمل التمر إلى هجر كما يقال، فما أحوج هذا الجهد إلى المضي في اتجاه التأسيس والبناء بذل استفادته في معارك التبرير والدفاع.

2 أخطار مشتركة تهدد مصيرا مشتركا.

ثمة مبدأ أساسي من المبادئ التي تتأسس عليها نظرية الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي فيما يتصل بفلسفة المستقبل، ذلكم هو مبدأ اللقاء حول المشترك،

فلقد كان النورسي يدرك أن حجم الخطر الذي يهدد مسار الإنسان بشكل عام ومتساو لا يصلح للتعامل مع التحديات الهائلة التي يفرضها، إلا اللقاءات مع كل من يعينهم أمر هذه التحديات فيمد الجسور مع الجميع مسلمين وغير مسلمين إذ يقول: "في الوقت الحاضر، يجب الاتفاق ليس فقط مع الإخوة المسلمين، بل حتى مع الروحانيين المتدينين من النصارى، وعدم الالتفات إلى مسائل الاختلاف وعدم الخوض في المنازعات، ذلك لأن الكفر المطلق يشن هجومه"³⁹.

بل إن النورسي وهو بصدد تأسيس قاعدة فكرية أخلاقية مشتركة لمواجهة التحديات التي يعرفها عالم اليوم، قد مضى يفتح حوارا مع الجزء الذي يعتبره غير نافع من أوروبا، أما أوروبا النافعة للبشرية التي قدمت خدمات لحياة الإنسان الاجتماعية بما توصلت إليه من صناعات وعلوم تخدم العلم والإنصاف كما يقول فلا أحاطبها في هذه المحاور 40 فرؤيته المستقبلية الثاقبة كانت دافعا له إلى محاولة إقامة حوار مع أوروبا (بوصفها جزءا من الغرب) الذي يرى أنه تردى في دركات التيه نتيجة لآثار الفلسفة المادية "فساقت البشرية إلى السفاهة وأردتها الضلالة والتعاسة"⁴¹.

وعلى هذه القاعدة يميز النورسي في "رسائل النور" أثناء محاورته بين أوروبا النافعة وأوروبا الفاسدة لا لمجرد التمييز، ولكن لتحقيق غاية الإفادة من عناصر الإيجابية عند الآخر، تماما كما ينبغي له هو أن يفيد في إصلاح جوانب الخلل من بنائه الحضاري من معاني القرآن الكريم التي جاءت هادية للإنسانية جمعاء مسددة مسار حضارتها. "إذا ما كان لها ذلك فسوف تدرك أنها تبقى دون حكمة القرآن، هذه الحكمة التي تقبل الحق نقطة استناد في الحياة الاجتماعية بدلا من القوة، وتجعل رضا الله ونيل الفضائل غاية وهدفا عوض (المنفعة) وتتخذ دستور التعاون أساسا في الحياة بدلا من دستور الصراع، وتلتزم رابطة الدين بدلا من رابط العنصرية أو القومية السياسية"⁴². ضعيفة في وجه الأخطار الوجودية التي تهدد مستقبل الحضارة، بل مستقبل الإنسان - مطلق الإنسان - وهي قاعدة تلقي على كل من يحمل هذه الرسالة تبعه من الأمانة والمسؤولية في حمل هذه القيم قولا وعملا، فكرا وتمثلا إلى الحياة لتعيد صياغة الإنسان فتسد مسارا حضارته.

لقد عاش الأستاذ النورسي تحدياً أشبه بالتحدي الذي يعيشه اليوم العالم المسلم، والمفكر المسلم، والمثقف المسلم، إذ فرض عليه الدفاع عن قيم الرسالة، رسالة هذه الأمة في واحدة من أدق مراحلها وأخطرها، ولنتأمل موقفه عند احتلال مدن تركيا ودخول قوات الحلفاء إستانبول يوم 13 نونبر سنة 1919 وتسريح الجيش العثماني وحسم المعركة العسكرية، فقد أدرك حينئذ أن معركة الأفكار والقيم التي تبقى الأمة حية غير قابلة للتسليم بحقها لعدوها. كانت لا تزال قائمة، بل كانت في أوج ضراوتها، فكان النورسي فارسها حقاً، إذ ما إن دخل القائد الإنكليزي إستانبول حتى كانت رسالة "الخطوات الستة" التي كتبها النورسي مهاجماً الاحتلال مفنناً دعاواها، شاداً من عزائم أهل الوطن، معلياً همهم في الصبر والمصابرة والممانعة والصمود.

كما أن العصر الذي عاشه النورسي ووصفه لنا هو أشبه ما يكون بعصرنا. يقول: "إن أهل هذا العصر الذي اغتر بنفسه وأصم أذنيه عن سماع القرآن أكثر من أي عصر مضى، وأهل الكتاب منهم خاصة أحوج ما يكونون إلى إرشاد القرآن الذي يخاطبهم بـ" يا أهل الكتاب .. يا أهل الكتاب " حتى كأن ذلك الخطاب موجه إلى هذا العصر بالذات، إن لفظ أهل الكتاب يتضمن معنى أهل الثقافة الحديثة أيضاً، فالقرآن يطلق نداءه في أجواء الآفاق وبملاأ الأرض والسبع الطباق بكل شدة وقوة وبكل نضارة وشباب، فيقول: "يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ" (آل عمران: من الآية 63)⁴³.

إن لقاء أهل القرآن وأهل الكتاب أمر قرره القرآن الكريم وحدد عناصره وحدوده في:

- ألا نعبد إلا الله.

- لا نشرك به شيئاً.

- لا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله.

وأي لقاء غاب فيه عنصر من تلك العناصر الثلاثة ملغى، ونتيجته محددة في قوله تعالى: "فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ" آل عمران: من الآية 63).

الهوامش

- 1 سبق لمفهوم " CIVILISATION " أن انتقل إلى العربية مترجما بمصطلح (مدنية) منذ أوائل القرن التاسع عشر، حيث ترجم بهذا المعنى في كتاب " إتحاف الملوك الألباب بسلوك التمدن في أوروبا " على عهد محمد علي، كما استخدم رفاعة الطهطاوي في كتابه "مناهج الألباب المصرية " مفهوم (التمدن) بنفس المعنى، ولعل استعمال مصطلح " مدنية " هو الأوفق في التعبير عن المعنى المترجم في السياق العربي.
- 2- أحمد حمدي محمود (الحضارة) ص: 5 . دار المعارف 1977. وينظر محمد عبد السلام كفاقي (الحضارة العربية) ص: 8 ز دار النهضة العربية بيروت 1970.
- 3 - للمعات: ص 283.
- 4 - الكلمات: اللوامع
- 5 - المثنوي العربي ص: 425.
- 6 - إشارات الإعجاز ص: 425.
- 7 - إشارات الإعجاز ص: 227.
- 8 - المكتوبات: ص: 611.
- 9 - صيقل الإسلام ص: 369.
- 10 - للمعات ص: 257.
- 11 - الشعاعات ص: 135.
- 12 - علي عزت بيغوفيتش "الإسلام بين الشرق والغرب" ص: 98 مؤسسة بافاريا - بيروت 1994.
- 13 - ينظر د. يلماز أوزاقبنار: حضارة القرآن ضمن " نحو فهم عصري للقرآن الكريم " رسائل النور نموذجاً ص: 542 الطبعة الأولى سوزلر للنشر.
- 14 - ينظر للتفصيل في الموضوع : حمود عمليات: منهج المعرفة والاستدلال عند النورسي، وقائع الجلسة الدراسية في عمان 1997 ص: 64. المحرر: إبراهيم العوضي الطبعة الأولى 1997.
- 15 - الكلمات 289.
- 16 - ثبت مقولة شهيرة لباكون توضح هذه الثقافة التي توظف العلم لخدمة السيطرة والتحكم في الموجودات يقول فيها: "لكي تسيطر على الطبيعة يجب عليك أن تدرسها أولاً" To governe nature you must first study it
- 17 - للمعات ص 585.
- 18 - ينظر: فرانسيس فوكوياما " نهاية التاريخ " ترجمة حسين أحمد أمين، مركز الأهرام للترجمة 1993.
- 19 للمعات ص: 176.
- 20 ينظر: د. عبد الوهاب المسيري " إشكالية التحيز " مجموعة من الباحثين، المعهد العالمي للفكر الإسلامي. ط 1 فرجينيا 1995.

- 21 فؤاد السعيد، " التحيزات المعرفية في الرؤية الغربية الحديثة للعالم " ضمن (إشكالية التحيز) مرجع سابق ج 1 ص 153.
- IGNACIO RAMONET (le monde diplomatique)n°554 MAI 2000 22
- ALDOUS HUXLEY. BRAVE NEW WORLD. GEORGE ORWELL 1984 23
- 24 من لطائف الأقدار أن هذه العبارة التي نوردها في معرض البحث عن جوانب الحوار الحضاري في فكر الأستاذ النورسي قد قيلت حوالي سنة 1910 - 1911 في جواب الأستاذ على من اعترض على دعوته لإقامة صداقة بين المسلمين والنصارى مستشهدا بالآية " لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء " المائدة ...
- 25 الماكدونالدية: أسلوب العيش الغربي / الأمريكي تحديدا القائم على النزعة الاستهلاكية التي لا تعرف الحدود، والذي تمثل سلسلة محلات الوجبات السريعة رمزا له، بشكل يجعل من الاستهلاك نفسه محور الحياة وهدفها، من خلال دوامة إنتاج الثروة بهدف الاستهلاك الذي ينتج الثروة من جديد.
- 26 المحاكمات ص: 37-38 إستانبول 1977.
- 27 المکتوبات ص: 289
- 28 د. يلماز أوزاقبنار: حضارة القرآن ضمن " نحو فهم عصري للقرآن الكريم " رسائل النور نموذجا ص: 542 الطبعة الأولى سوزلر للنشر.
- 29 للمعات ص: 137.
- 30 للمعات ص: 199.
- 31 صيقل الإسلام ص: 369.
- 32 الملاحق في فقه الدعوة، كليات رسائل النور ج 7 .
- 33 ينظر: د. أحمد عبد الرحيم السايح، الحوار القرآني على ضوء رسائل النور مرجع سابق ص: 684-685.
- 34 إشارات الإعجاز ص: 235.
- 35 للمعات ص: 474-475 بتصرف.
- 36 المناظرات ص: 20 إستانبول 1977.
- 37 الكلمات. الكلمة الخامسة والعشرون ص: 472.
- * أمين سر السكرتارية اليسوعية للحوار بين الأديان في روما، إيطاليا.
- 38 د. توماس ميشل: الحوار والتعاون بين المسلمين والنصارى في فكر بيدع الزمان سعيد النورسي ضمن " نحو فهم عصري للقرآن الكريم " مرجع سابق ص: 640
- 39 - ملحق أميرداغ ص 202.
- 40 - للمعات ص 176.
- 41 - للمعات ص 176.
- 42 - الكلمات ص 472 - 473.
- 43 - الكلمات ص 471 - 472.

مقام الإخلاص في النظرات القرآنية لسعيد النورسي

ذ.عبد العزيز اميرات
جامعة سيدي محمد بن عبد الله
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
سايس فاس المغرب

توطئة

إذا كان من المعروف عادة عند الذين يكتبون في الرجال وسيرهم وآثارهم الفكرية أنهم يبدعون بالبحث عن النشأة والبيئة الأسرية والاجتماعية ومختلف المراحل التي يقطعها الرجل في حياته، ناهينا عن البحث عن شيوخه وتلامذته ومصادر تكوينه الفكري والمعرفي؛ فإن البعض الآخر - ونحسب أنفسنا منهم - لا يهتم كثيرا بهذا الضرب من الكتابة بقدر ما ينصب اهتمامهم الكبير بالرجل والفكرة أو الأفكار التي آمن بها وجاهد من أجل إشاعتها، في محاولة لقراءة الشخصية والعصر من خلال هذه الفكرة، خاصة إذا كان هذا النوع من الرجال ينتمي إلى عصر الأزمات الحضارية التي لا يقتصر أثرها السليبي على معاش الناس بقدر ما يمتد - بشكل سرطاني - إلى الجوانب الأساسية المكونة لهويتهم وشخصيتهم الحضارية، ومنها على وجه الخصوص الجانب المرتبط بالاعتقاد وأساليب التدين .

وإلى جانب ما سلف لا يهتم هذا القسم من المؤلفين والباحثين بهذا الضرب من المعطيات فقط، بقدر ما يمتد بحثهم إلى أثر هذا النوع من الرجال في عصرهم بل وفي الأجيال اللاحقة، بما يكفي لأن يشكل توجهها مذهبيا يحمل فكرة محددة، وينهج أسلوبا خاصا في التفكير والتعبير والتدبير، يجعله - في نهاية المطاف - مدرسة في الفكر

والمنهج، قائمة بذاتها تحتاج من الدارسين إلى الوقوف على نموذجها، لا لتقويمها أو تقييمها مضمونها وأسلوبها فقط - وإنما للاستفادة من عوامل تكوينها ونجاحها في التأثير في واقع الناس، ومن ثم تجاوز أسباب فشلها في مواقع محددة من هذا الواقع، خاصة إذا تعلق الأمر بالفكرة التي تنتمي - قلبا وقالبا- إلى اتجاهات الإصلاح والتغيير في العالم الإسلامي. وقد لا نجانب الصواب إن أكدنا- في هذا السياق - على أن القيام بتغيير واقع المسلمين، وخاصة منذ تعرض العالم الإسلامي لغلبة الثقافة العلمانية الغربية، فعل ليس بالأمر الهين كما يعتقد البعض؛ ذلك أن الواقع يفرض سطوته على قطاع عريض من الناس بما يكفي لتثبيت دعائم السكون والجمود والثبات في حياتهم بالشكل الذي صوره القرآن الكريم في أكثر من موضع من مثل: "إنا وجدنا آباءنا على أمة، وإنا على آثارهم مقتدون"¹، "قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا، أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون"²، وهو الشكل الاجتماعي الذي جاهد من أجل تغييره الأنبياء والرسل ومن سار على نهجهم من الصالحين والعلماء عبر التاريخ.

وقد لا نختلف مع الكثيرين إن قلنا إن هذه المشكلة تزداد حدة كلما فشلت حركات الإصلاح في العالم الإسلامي في تحقيق مرحلة تنزيل الواقع الجديد، وإقناع الناس- الذين ألفوا العيش بداخل دائرة الواقع الجامد والساكن - بأن الضرورة التاريخية تقتضي تبديل الحال بما يكفي لنقل الشخصية المسلمة من حال الغنائية الحضارية والخبال الثقافي إلى حال الخيرية والشهادة على الناس. ولعل في استحضار مسار الحركات الإصلاحية بالعالم الإسلامي، قديمها وحديثها، والقيام بقراءة متفكحة لتجارب المصلحين، ما يسمح - على الأقل - بتكوين صورة عامة عن صيرورة المنهج في تجارب الإصلاح، وصياغة استراتيجية مستوعبة ومتجددة لفقته المنهج الإصلاحية، حتى نستفيد من تجارب السابقين، مكملين ومجددين بحسب تغير الأحوال وتبدل الظروف.

من هنا يأتي اهتمامنا بالعلامة بديع الزمان سعيد النورسي (رحمه الله)، من جهة فهم الرجل من خلال الفكرة التي كان يحملها، وعاش يدافع عن شرعيتها، ويؤصل لمنهج انتشارها بين طلاب النور، خاصة وقد عاش في زمن مليء بالملكاه والابتلاءات التي أعطت لرسائله وتجربته أهمية كبيرة في دائرة العمل الإصلاحية ذي الوجه التربوي الذي

يرتكز على مبدأ تصفية النفوس وتحديد الرؤية باتجاه ماهية الإنسان من داخل خطاب القرآن الكريم.

1 - النورسي : مكانة الرجل من خلال الفكرة

ينتمي العلامة النورسي رحمه الله إلى الجيل الذي تفتح وعيه الديني والفكري على الأزمة العامة التي اجتازها العالم الإسلامي، سياسيا واقتصاديا وتربويا وفكريا..، الشيء الذي أعطى لفكره التربوي حضورا متميزا وقوة خاصة مكنته من الإسهام في مسار التصحيح الذي عرفه العالم الإسلامي منذ تعرفه، عن قرب، على النموذج الثقافي العلماني الحامل لمشعل تقويض الأسس العامة لكيان الأمة الإسلامية. وقد اشتهر النورسي بضرب متميز من التأليف والكلام عكس في مجموعته الوجه القاتم لعصره الذي كان يتسم بالقلق الحضاري والاضطراب السياسي والتفكك العام الذي بدأ يعرفه النظام السياسي للدولة العثمانية. كما عكس - إلى جانب ذلك - الهم الدعوي الذي كان يحمله ويعاني من أجله الكثير من الحن والتضيق.

وعلى الرغم من ذلك، فقد ظل يؤلف رسائله في إثبات وجود الله وتصحيح مفهوم الدين في أفهام الناس، ويسهم في مقاومة الانحراف الذي نخر أبناء الأمة من جراء سيطرة الفكر المادي وشيوعه. وقد استطاعت هذه الرسائل تحقيق قفزة مهمة في باب التذكير بحقيقة الإسلام وضرورته لحياة الإنسان، والتأكيد على أهمية القرآن الكريم في صفاء النفس ومعرفة الحقائق وتحقيق التوازن الحضاري المطلوب، الشيء الذي يفرض على العاملين في حقل الثقافة الإسلامية المعاصرة ضرورة التعرف عن كتب على هذا النموذج الفكري من جهة، والتعريف به في أوساط الجيل الحالي من أبناء هذه الأمة الذين استهلكت الثقافة المادية والإلحادية حيزا كبيرا من تفكيرهم، بل وشوهت رؤيتهم تجاه هويتهم وحقيقة انتمائهم لعقيدة الإسلام، من جهة أخرى.

لقد شارك الإمام النورسي (رحمه الله) في حلقات سلسلة الإصلاح وتجديد العهد بالله جل جلاله، وذلك من خلال رسائل النور الموجهة - ابتداء - لطلاب النور وخدام القرآن الكريم في كل بقاع العالم الإسلامي، مرشدا ومنبها وواعظا وبانيا بفكر تأسس على فقه خطاب القرآن الكريم وسيرة الرسول ﷺ.

من هنا جاءت هذه المداخلة، إسهاما منا في إلقاء نظرة موجزة على فكر هذا الداعية، وذلك من خلال محور الإخلاص الذي تحدث عنه في رسائله، بل وأفرد له بابا خاصا في جزء اللمعات، لما له من أهمية في صناعة حياة طلاب النور وخادمي القرآن الكريم. وقد اخترنا هذا المحور بالذات من سلسلة ما ألفه من رسائل لما للإخلاص من أثر تربوي في تصويب علاقة الإنسان بالله تعالى وقبول مختلف الأعمال، بل ولما له من أهمية بالغة في حياة العاملين في حقل الدعوة إلى الله جل جلاله، لأنه يحقق الأخوة في الله من جهة، ويسهم في إتباع الحق والدفاع عنه، وينجي من الحسد والرياء ومختلف معيقات العمل الصالح، وهي المحاور التي بين النورسي عليها رسالته التربوية، من جهة أخرى.

كما يعود اختيارنا للحديث عن هذا المحور بالذات - دون غيره- إلى رغبتنا في التنبيه على أهمية الإخلاص في حياة المسلم المعاصر وأثره في صناعة جيل القدوة والقيادة وأمة التمكين، المحاصرة - من كل جهة - بكل أشكال الفتن والأهواء الشيطانية.

فانتشار سلوك الحسد والرياء والبغض والنفاق...، من شأنه التأثير في عمل المسلم، لا من جهة عدم قبول الله تعالى لعمله فقط، ولكن من جهة تدني قيمته وتسببه في انحطاط المسلمين كذلك؛ إذ كلما انتفى الإخلاص عن العمل تعرض صاحبه للإحباط والبطلان المؤدي إلى الانسلاخ عن الدين الصحيح .

فما أحوج المسلمين إلى التخلص بالإخلاص، بمعرفة أهميته وسبل تحقيقه وبواعثه وموانعه، ليصل المرء - في نهاية المطاف - بالتربية والمجاهدة الدائمة للنفس والهوى والشيطان، إلى منزلة السائرين إلى الله جل جلاله، أولئك الذين يقولون ما قاله الرسول P: " إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين، لا شريك له، وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين"³.

2 - أهمية فقه القرآن في أدبيات النورسي

على هذا الأساس تكلم النورسي، كما تكلم غيره من السابقين والمحدثين، عن أهمية الإخلاص في حياة أصحاب الخدمة القرآنية، وذلك ضمن نظراته الدقيقة التي ضمنها سلسلة (رسائل النور)، المؤسسة- ابتداء وانتهاء- على أرضية الفهم العميق إلى القرآن

الكريم الذي يتميز بحكمة ربانية عالية، تلقن الإنسان منهج التربية في حياته الشخصية والاجتماعية، فضلا عن رجحان القرآن الكريم على سائر الكلام وسموه على الأقوال قاطبة⁴؛ وبذلك يعتبره منبع الإصلاح وخطواته على مستوى النفس والمجتمع. فهو منهل السبل الصائبة التي لخصها النورسي في طريق العجز والفقر والشفقة والتفكير.⁵

يستقي النورسي نظراته التربوية لجيل الصالحين وقدوة الدعاة في عالم الغلبة فيه لغير المسلمين، من خطاب القرآن الكريم، الذي عليه مدار الأمور كلها، لأنه كتاب الإنسان، المتضمن للمعرفة الحضورية التي يعيشها المؤمن على وجه الخصوص، قلبا وقالبا، روحا وعقلا، بل ويترجمها إلى مجموعة من المواقف الحياتية، ومن هذا يفهم لماذا لخص النورسي، رحمة الله تعالى عليه، هذه الصلة الوثيقة الموجودة بين الإنسان المؤمن و القرآن بقول جامع: "المعرفة المستقاة من القرآن الكريم تمنح الحضور القلبي الدائم."⁶، كما أنها هي التي "تنفذ أسس الإيمان وأركانه، لا بالاستفادة من الإيمان الراسخ الموجود، وإنما بإثبات الإيمان وتحقيقه وحفظه في القلوب وإنقاذه من الشبهات والأوهام بدلائل كثيرة وبراهين ساطعة، حتى يحكم كل من يعمن النظر فيها بأنها أصبحت ضرورية في هذا العصر كضرورة الخبز والدواء."⁷

يتبين مما سلف أن النورسي كان دائم التركيز على ضرورة الانطلاق من الفهم القرآني للإنسان حتى يصح فهم هذا الأخير للقرآن، فتصح من بعد ذلك صلة الإنسان بالله جل جلاله، خاصة في عصر اشتدت فيه قيم الإلحاد والفوضى والعبثية، فيكون من الضروري إعادة توجيه أنظار الناس - على الدوام - إلى القرآن الكريم الذي لا يقتصر خطابه فقط على تحقيق توحيد الخالق، وإنما يصل - إذا صحت الصلة به وتوطدت - إلى تحقيق الوحدة الثقافية للمسلمين، ولا يتحقق هذا المبتغى إلا إذا قمنا - وكما يقول - بتوجيه حاجات المسلمين الدينية كافة شطر القرآن الكريم مباشرة، لينال الكتاب المبين من الرغبة والتوجه الناشئة من الحاجة إليه أضعاف أضعاف ما هو مشتت الآن من الرغبات نحو الألواف من الكتب، بل لكان القرآن الكريم مهيمنا هيمنة واضحة على النفوس، و لكانت أوامره الجليلة مطبقة منفذة كليا، وما كان يظل كتابا مباركا يتبرك بتلاوته فحسب.⁸

هكذا إذن كان النورسي رحمه الله يراوح الخطو بين القرآن والحياة التي عاصرها بكل أثقالها ومشاكلها وتحدياتها التي دفعته إلى اختيار منهج في التأليف الدعوي مؤسس على ما يمكن أن نسميه بـ"فقه الحضارة"، وذلك من خلال الدعوة إلى تجديد صلة المسلمين بالقرآن بما يكفي لتحقيق نهضة الإنسان نهضة حقيقية تبلغ به درجة السيادة والكمال. وبهذا، فمدار رسائل النور على القرآن، وما يستفاد منها هو في أصله المستفاد من فيض هذا القرآن، ولذلك جاهد وناضل برسائله التي هي خلاصة جهاده في الحياة، من أجل هذا القرآن، فكان جهاده معركة للمرابطة عن القرآن وأسراره وحقائقه في زمن انشغل فيه الناس بالعديد من المعارك الهامشية⁹، عن حماية الأصل الذي هو القرآن، وفي هذا يقول: "ما دامت خدمة الإيمان والقرآن أسمى من أية خدمة في هذا العصر، وأن النوعية تفضل الكمية، وأن التيارات السياسية المتحولة المتغيرة وأحداثها المؤقتة الزائلة لا أهمية لها أمام خدمات الإيمان الثابتة الدائمة، بل لا ترقى لمقارنتها ولا يمكن أن تكون محورا لها، فينبغي الاطمئنان بما منحنا ربنا، سبحانه وتعالى، من مرتبة نورانية مفاضة علينا من نور القرآن المبين".¹⁰

لقد أسس النورسي رسائله الإيمانية على قاعدة صلبة، سلف ذكرها، وهي تصحيح فهم الإنسان لعلاقته بالله جل جلاله، وذلك من خلال فقه القرآن الذي يبين له ماهيته¹¹ وطبيعته وجوده¹²، بل وحرية من خلال عبوديته الخالصة لله عز وجل¹³؛ على اعتبار أن هذا الضرب من فقه الإنسان هو الذي يجعل حياته وأعماله وكل نيته خالصة لله عز وجل، بما يكفي لأن يحقق التحرر من كل معوقات فعل الخير والعدل والإحسان؛ إذ الإنسان الذي ينتسب إلى سلطان الكون برابطة الإيمان، ويكون عبدا له، تنتزه شفقتة الإيمانية عن التجاوز على حرية الآخرين وحقوقهم، مثلما تترفع شهادته الإيمانية وعزته عن التنازل بالتذلل للآخرين والانقياد لسيطرتهم وإكراههم... إن خادما صادقا مخلصا للسلطان لا يتذلل لتحكم راع وسيطرتة، كما لا يتنازل أن يفرض سيطرتة على مسكين ضعيف. فبمقدار قوة الإيمان، إذن، تتألأ الحرية وتسطع. فدونكم خير القرون، العصر السعيد، عصر النبوة والصحابة الكرام".¹⁴

يستفاد مما سلف ذكره أن النورسي - رحمه الله - كان رجل القرآن حتى النخاع، وقد ترك لطلاب النور تراثا مهما إسهاما منه في مسيرة تقويم اعوجاج فهم

الإنسان وإدراكه، وتصويب صلته بالله عز وجل، وذلك من خلال القرآن الكريم الذي قال الله عز وجل واصفا إحدى خصائصه: " إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم، ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا كبيرا"¹⁵

وقد تعلم النورسي من هذا القرآن ما خلصه من فتن الحياة الدنيا وزخرفها، وهو في كل ذلك ككل الذين أسسوا فهمهم لماهية الوجود البشري من خلال آيات القرآن الكريم، فتخلصت حياتهم وأعمالهم بل ونياتهم، من فتن الدنيا واعوجاج الثقافات المادية، وجعلوا حياتهم - برمتها - خالصة لوجه الله تعالى؛ إذ لا يمكن أن يخلص الله إلا من عرف حقيقته وطبيعة صلته به جل جلاله.

3 - مقام الإخلاص عند النورسي

من هنا جاءت اللمعة الحادية والعشرون من كتاب اللمعات للنورسي التي خصصها لقضية الإخلاص، منها - من خلال ما جاء فيها - طلاب النور وخدمة القرآن الكريم إلى أهميته، وخاصة فيما يتعلق بالأعمال الأخروية. يقول في بداية حديثه عن هذه اللمعة: " يا إخوة الآخرة، يا أصحابي في خدمة القرآن، اعلموا - وأنتم تعلمون - أن الإخلاص في الأعمال، ولا سيما الأخروية منها، هو أساس وأعظم قوة، وأرجى شفيح، وأثبت مرتكز، وأقصر طريق للحقيقة، وأبر دعاء معنوي، وأكرم وسيلة للمقاصد، وأسمى خصلة، وأصفى عبودية"¹⁶.

إن من يقرأ هذه اللمعة من اللمعات النورانية للنورسي، سيقف على الدعوة المتواصلة إلى ضرورة بذل الطاقة والجهد للظفر بالإخلاص الذي سيخلص الإنسان، العابد لله وحده، من السقوط في الدوامة اللامتناهية من المطامع الدنيوية الدنيئة والمضرة، والتي لا طائل من ورائها، ولذلك - وكما يقول - "نحن مضطرون إليه، بل مكلفون به تكليفا، وأحوج ما نكون إلى ترسيخ سر الإخلاص في ذواتنا، إذ لو لم نفرز به لضاع منا بعض ما كسبناه من الخدمة المقدسية لحد الآن، ولما دامت واستمرت خدمتنا، ثم نحاسب عليها حسابا عسيرا، حيث نكون ممن يشملهم النهي الإلهي وتهدده الشديد في قوله تعالى: (ولا تشتروا بآياتي ثمنا قليلا)¹⁷ بما أخللنا بالإخلاص فأفسدنا السعادة الأبدية، لأجل مطامع دنيوية دنيئة، مقبلة، مضرة، مكدره، لا طائل من ورائها ولا فائدة، إرضاء لمنافع شخصية جزئية تافهة أمثال الإعجاب بالنفس والرياء، ونكون أيضا من المتجاوزين

حقوق إخواننا في هذه الخدمة، ومن المعتدين على نهج الخدمة القرآنية، ومن الذين أساءوا الأدب فلم يقدرُوا قدسية الحقائق الإيمانية وسموها حق قدرها".¹⁸

هكذا يعالج النورسي المسألة الأساسية في علاقة الإنسان العابد بالله المعبود، وذلك من خلال التركيز على التربية القرآنية للإنسان على الدوام؛ إذ يراقب الإسلام بدقة عالية السلوك الباطني والظاهري للإنسان، وخاصة منها ذلك المتعلق بشطر النيات وما يلابسها من عواطف وانفعالات وميولات، وما يتصل بها من بواعث.

لهذا يذكر النورسي أهل القرآن الكريم بأنه لا وثوق بالنفس الأمانة بالسوء التي يسيطر عليها الشيطان الرحيم، بل والحرص على دفع موانع الإخلاص واجتناب كل ما يعكس صفو الروح الإيمانية للإنسان العابد المتصل بالله تعالى على الدوام حتى لا يجبط عمله .

ولأجل تحقيق هذه الخطوة المهمة في حياة خادِم القرآن، وزع النورسي حديثه إلى ثلاثة محاور متكاملة، تطرق في أولها إلى سبيل الظفر بالإخلاص والحفاظ عليه و دفع موانعه وإزالتها، و تحدث في ثانیها عن أهم أسباب كسب الإخلاص، في حين خصص ثالثها لبيان أهم موانع الإخلاص و أسباب الإخلال به .

أولاً: في أهم شروط الظفر بالإخلاص و الحفاظ عليه

لقد سمى النورسي هذه الشروط بالذساتير التي ينبغي الأخذ بها، وهي أربعة:

الذستور الأول : ابتغاء مرضاة الله في العمل.¹⁹

الذستور الثاني : عدم انتقاد الإخوان العاملين في الخدمة القرآنية، وعدم إثارة نوازع الغبطة بالتفاخر والاستعلاء، إذ طلاب رسائل النور وخدام القرآن أجزاء وأعضاء في شخصية معنوية جديرة بأن يطلق عليها الإنسان الكامل، ونحن جميعاً بمثابة تروس ودواليب معمل ينسج السعادة الأبدية في حياة خالدة. فنحن خدام عاملون في سفينة ربانية تسير بالأمة المحمدية إلى شاطئ السلامة، وهي دار السلام.²⁰

الذستور الثالث : معرفة أن القوة جميعاً هي في الإخلاص لله واتباع الحق، ذلك أن الخدمة في سبيل الإيمان والقرآن هي دليل بذاتها، على أن القوة في الحق والإخلاص ؛ فشيء يسير من الإخلاص في سبيل هذه الخدمة يثبت هذه الدعوة، ويكون دليلاً عليها.

الدستور الرابع : الافتخار بالإخوان والفناء فيهم بما يكفي لأن ينسى كل أخ حساسياته النفسانية، ويعيش فكرا مع مزايا إخوانه وفضائلهم، حيث أن أساس المسلك والمنهج هو الأخوة في الله. يقول: " وما دام مسلكنا هو الخليلية، فمشرنا إذا الخلة، والخلة تقتضي صديقا صدوقا، ورفيقا مضحيا، وأخا شهما غيورا. وأس الأساس لهذه الخلة هو الإخلاص التام ... فالذين دخلوا ميدان خدمة القرآن الكريم المقدسة بوساطة رسائل النور لا يهونون بإذن الله في مثل تلك الهاوية، بل سيمدون النور والإخلاص والإيمان قوة".²¹

ثانيا : في أهم أسباب كسب الإخلاص والمحافظة عليه

إذا كان ما سبق أهم الشروط التي ينبغي لخدام القرآن الكريم الأخذ بها ؛ فإن النورسي وضع - إلى جانب ذلك - أهم سبب - في نظره - لكسب الإخلاص، وأعظم وسيلة مؤثرة للمحافظة عليه، والمقصود بذلك رابطة الموت؛ إذ طول الأمل يثلم الإخلاص ويفسده ويسوق الناس إلى حب الدنيا والرياء؛ في حين تنفر رابطة الموت من الرياء، وتجعل المرابط معه يحرز الإخلاص ؛ وذلك بتخليصه من دسائس النفس الأمارة بالسوء، عن طريق تذكر الموت وملاحظة الفناء الدنيوي. وقد استطاع الكثير من العابدين، ومنهم الصوفية، إزالة توهم البقاء وحلم الأبدية الذي يولد طول الأمل، وذلك عن طريق الاستحضار الدائم لقوله تعالى: "كل نفس ذائقة الموت".²²

غير أن النورسي يبين أن المسلك الذي يسلكه طلاب النور يختلف عن مسلك الصوفية، فلا يرى هؤلاء الطلاب أنفسهم "مضطرين مثلهم إلى مباشرة تلك الرابطة بالافتراض والخيال، فضلا عن أن هذا الأسلوب لا يلائم منهج الحقيقة. إذ التفكير بالعقبى ليس هو بجلب المستقبل إلى الحاضر خيالا، بل الذهاب فكرا من الحاضر إلى المستقبل، ومشاهدة المستقبل من خلال الحاضر الواقع كما هو في الحقيقة؛ فلا حاجة إلى الخيال، ولا يلزم الافتراض؛ إذ الإنسان يمكنه مشاهدة جنازته وهي ثمرة محمولة على شجرة عمره القصير، وإذا ما حول نظره قليلا لا يرى موته وحده، بل يرى أيضا موت عصره، حتى إذا جال بنظره أكثر يرى موت الدنيا ودمارها، وعندها يفتح أمامه الطريق إلى الإخلاص التام".²³

والسبب الثاني في إحراز الإخلاص - عند النورسي - يكمن في ضرورة أن يكسب المرء حضوراً وسكينة بالإيمان التحقيقي، وباللمعات الواردة عن التفكير الإيماني في مخلوقات؛ إذ بهذا الضرب من الأمل يستطيع المرء الوصول إلى معرفة الله تعالى، فتكون النتيجة النهائية لهذه المعرفة حصول الطمأنينة والسكينة في القلب؛ وهو بهذا النوع من الحضور والسكينة ينجو من الرياء، فيظفر بالإخلاص.²⁴

ثالثاً : في أهم موانع حصول الإخلاص

وفي السياق ذاته، ولتأطير حديثه عن قضية الإخلاص وأهميته في حياة المرء العابد، وبعد أن تحدث عن أهم الشروط وأسباب الاحتراز والكسب؛ ينتقل النورسي بطلاب النور إلى نقطة نحسبها مهمة جداً في هذا المقام، ويتعلق الأمر بالكلام عن أهم موانع الوصول إلى الدرجة المطلوبة من الإخلاص؛ وقد لخصها النورسي في ثلاثة موانع، حدد أولها في الحسد الناشئ من المنافع المادية، والذي لا يقتصر على إفساد الإخلاص فقط، بقدر ما يعمل على تشويه نتائج العمل، ويفوت حتى تلك المنافع المادية أيضاً؛ ذلك أن الرغبة في تحصيل هذه المنافع وترقيتها بدافع من أثره النفس الأمارة بالسوء، بل وحرصها على كسب المنافع ذاتها، تثير في المرء عرق الحسد، وتحرك نوازعه تجاه أخيه وصاحبه في الخدمة القرآنية والإيمانية، فتكون النتيجة فساد الإخلاص وفقدان قدسية الدعوة إلى الله تعالى.

وأما ثاني هذه الموانع، فإعطاء ما يداعب أنانية النفس الأمارة بالسوء وما تستشرفه من منزلة ومكانة تتوجه إليها الأنظار، وحب إقبال الناس وطلب توجههم بدافع من حب الشهرة وذياح الصيت الناشئ من التطلع إلى الجاه وحبه.²⁵

وأما ثالث الموانع فجعله النورسي في الخوف والطمع.

خاتمة

هكذا تحدث النورسي رحمه الله عن قضية الإخلاص، وهكذا حاول بيان أهميته وفوائده وأسباب تحصيله وكسبه وتنميته، بل وبين أهم الموانع التي تعيق حصوله؛ وهو بكل هذا الحديث يوجه أنظار طلاب النور وخدام القرآن الكريم وأصحاب الدعوة إلى الله تعالى عامة، إلى أهمية هذا المسلك التربوي الإيماني الذي يدفع بالسائر فيه لا إلى تصويب علاقته بخالقه فقط، وإنما لتحقيق الحياة الآدمية الحقيقية التي يعيش فيها الإنسان

داخل دائرة التكريم المسيح بواجب التكليف، بما يجعله قادرا على فهم وإدراك مقاصد عمارة الأرض واستعمارها بما يحقق- في نهاية المطاف - أسمى مقصد من أجله خلق الإنسان، ألا وهو عبادة الله تعالى " وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون".²⁶

لقد أسهم النورسي -رحمه الله- بنظراته وكلماته في حلقات تغيير فكر الإنسان من خلال فقه القرآن الكريم في علاقته بفقه واقع الإنسان، الذي يظل محتاجا ومفتقرا على الدوام - مهما بلغ من العلم والتقدم المادي- إلى القرآن ليرشده ويذكره ويعلمه ويقوم سلوكه كلما اعوج وزاغ عن الطريق القويم : (أفمن يمشي مكبا على وجهه أهدى أمن يمشي سويا على صراط مستقيم)²⁷.

فما أحوج أبناء هذه الأمة إلى التعرف على النورسي وأمثاله، أولئك الذين عاشوا بالقرآن من أجل القرآن، يفكرون- بكل جدية - في سبل إصلاح حال الأمة وعودتها إلى ما كانت عليه من حال التمكين والخيرية والشهادة على الناس. كما أننا بحاجة ماسة إلى المزيد من التعرف والتعريف بهؤلاء الرجال داخل ثقافتنا العربية الإسلامية، إذ كثيرا ما نبخس هؤلاء حقهم في حديثنا وكتاباتنا وبحوثنا، خاصة وقد استطاعت الثقافة الاستعمارية غزو عقول العديد من أبناء هذه الأمة بما يكفي لتفريغ الذاكرة الجماعية، وتحقيق القطيعة مع تاريخ الأمة، وبنشئ - من تم- خبالا ثقافيا خطيرا يسهم في توسيع مساحة القابلية للاستعمار الثقافي في حياتنا اليومية؛ الشيء الذي يجعل من نظراته القرآنية- التي ضمنها رسائله النورانية- واحدة من أهم تجارب التربية الدعوية في العالم الإسلامي الحديث؛ تلك التي نجحت في عزل الفساد عن وعي الكثيرين، وتركت بصماتها واضحة في العمق التاريخي لهذه الأمة التي قامت أول مرة بالقرآن .

إننا -بمذه الكلمات- لا نزركي على الله أحدا، ولكننا نعترف بأن النورسي -رحمه الله- وأمثاله من السابقين واللاحقين، يشكلون جميعا بوصلة هذه الأمة، بحيث تشكل كلماتهم ونظراتهم وتجاربهم ومواقفهم محطات مهمة لا بد من الوقوف عندها مليا لاستخلاص العبر من سير الرجال الذين تربوا بداخل المدرسة القرآنية، ففقهوا أن صلاح الأمة بعد فسادها، وقوتها بعد استضعافها، رهين بالأخذ بمنهاج القرآن، وأن البعث والإحياء لا يكونا إلا بتوفر الرجال الذين يرثون منهاج النبوة الصحيح، الذين يفقهون قوله تعالى: " هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين".²⁸

الهوامش

- 1 - سورة الزخرف/22
- 2 - سورة البقرة/169.
- 3 - سورة الأنعام / 164-165.
- 4 - ينظر بتفصيل الكلمة الثانية عشرة التي خصصها النورسي لقوله تعالى: (ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا) - الكلمات ص: 141
- 5 - ينظر بتفصيل : المكتوبات ص: 594-595
- 6 - المكتوبات ص : 425.
- 7 - الملاحق ص: 105
- 8 - صيفل الإسلام - ص: 349.
- 9 - من مثل : الدفاع عن اللغة العربية والمحاكم الشرعية والعلوم الشرعية....
- 10 - الملاحق ص: 135.
- 11 - ينظر بخصوص هذه النقطة : اللمعات ص: 21-22
- 12 - ينظر كذلك : الكلمات ص: 64 و 138 / إشارات الإعجاز ص : 231 وما بعدها.
- 13 - ينظر الكلمات ص : 31-37 و 63.
- 14 - صيفل الإسلام ص : 395.
- 15 - سورة الإسراء الآية 9.
- 16 - اللمعات - ص : 241.
- 17 - سورة البقرة الآية 40
- 18 - اللمعات ص: 241-242.
- 19 - اللمعات ص : 242.
- 20 - نفسه ص : 243.
- 21 - نفسه ص : 246.
- 22 - سورة آل عمران الآية 185
- 23 اللمعات - ص : 246-247.
- 24 - اللمعات ص : 247.
- 25 - ينظر بتفصيل المرجع نفسه ص 247 وما بعدها. ويراجع للمزيد من التفصيل بخصوص هذا القسم من الموانع ما أشار إليه من دسائس أعداء الإسلام وأثرها في إحباط الإخلاص وكيفية التغلب عليها - المكتوبات - ص.ص : 533-557.
- 26 - سورة الذاريات - الآية 56 .
- 27 - سورة الملك - الآية 22 .
- 28 - سورة الجمعة الآية 2.

تأثير الأخلاق والعلم والدين في الفرد والمجتمع

مصطفى مصطفى دسوقي كسبه
كبير باحثين ورئيس قسم الاستشارات
مركز صالح كامل للاقتصاد الإسلامي
جامعة الأزهر

تمهيد:

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد الخلق والمرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن اتبعه بإحسان إلى يوم الدين ... وبعد

فقد لاحظ الإمام النورسي — رحمه الله — وهو الذي عاصر أخطر فترة انتقالية من حياة المسلمين، وهي القرن الثالث عشر الهجري، وبداية القرن الرابع عشر الهجري، الموافقين القرنين التاسع عشر والقرن العشرين الميلاديين، أن المجتمع الإسلامي برمته ينحدر في مظاهر حياته انحداراً سريعاً، واكتشف أن غزواً منظماً فكرياً يشن على العقيدة الإسلامية وشريعتها المنبثقة من أصولها وقيمها الثابتة.

ففي الفترة التي عاشها الإمام النورسي — رحمه الله (1873-1960م) وخاصة تلك الفترة التي استطاعت فيها أوروبا أن تمزق الخلافة العثمانية، وأن تبدد وحدة المسلمين، وأن تلقي بظلال من الشك حول الكثير من مبادئ الإسلام، ولأن أوروبا تعرف خطورة الإسلام على أهدافها المتمثلة في العدوان والقهر والنهب، فإنها لم تدخر وسيلة في القضاء على الإسلام، وإبعاد القرآن الكريم عن حياة المسلمين وتشكيكهم في دينهم الحنيف، ومن أمثلة ذلك ما قاله السياسي الإنجليزي «جلادستون» أمام البرلمان الإنجليزي: «ما دام هذا القرآن بيد المسلمين فلن نستطيع أن نحكمهم، لذلك لا مناص لنا من أن نزيله من الوجود أو نقطع صلة المسلمين به».

فضلاً عن أن الابتعاد عن طراز الحياة الذي دعت إليه الأديان السماوية والمتسمة بالتعاون والتساند والاقتصاد، أدى إلى أن الناس بدعوا يطمحون للحصول على الثروة ورفاه يزيد عن الجهد والخدمات التي يقدمونها، لذا فقد تم التوجه إلى الحيلة والحرام، ومن هنا فسدت الأخلاق. وهذا هو الذي أدى إلى انتشار سياسة استغلال الإنسان (أي انتشار السياسة الاستعمارية)، واستغلت الموارد والثروات المتحصلة عن هذا الطريق في سياسة استهلاكية مفرطة تتسم بالإسراف، ولم يؤد هذا إلى إزالة المحبة والاحترام بين الأمم والشعوب فحسب بل أدت إلى الاختلال بتوازن توزيع الدخل والثروة.

هذا، بالإضافة إلى أن اختلال التوازن الاجتماعي الناشئ من مفهوم الإسراف في الاستهلاك أدى إلى مشاكل عديدة وإلى اختلال التركيب البيئي، وإلى مشاكل صحية للإنسان. وهذه النتيجة أثر من آثار الإنسان الغربي الذي تربي على الثقافة الفلسفية، فلم يعد يعرف حدوداً لرغباته ولشهواته، ونتيجة حتمية للمفهوم الذي يقول صاحب القوة هو الذي يجب أن يحكم ويسود.

وأخيراً، إدعاء الغرب بأن الإسلام لا يتفق مع العلم، وبذلك يضربون الإسلام والمسلمين الضربة القاتلة بعد أن نجحوا في تمزيق المسلمين وتفكيك وحدتهم. وما زالوا يسعون بكل قوتهم في تفكيك وحدة المسلمين، فضلاً عن زرع إسرائيل في قلب العالم الإسلامي وتفكيك باكستان إلى دولتين، وغزو أفغانستان والعراق، وتشجيع الأقليات على الاستقلال. وحرمان المسلمين من دراسة العلوم الحديثة. والسيطرة على ثرواتهم ومواردهم وخصوصاً البترول بكل الوسائل.

ومن المفيد قبلولوج في بحثنا: «تأثير الأخلاق والعلم والدين في الفرد والمجتمع» في ضوء رسائل النور أن نتعرف على أهم ملامح شخصية مؤلفها الإمام بيدع الزمان سعيد النورسي — رحمه الله — من خلال ما كتبه مترجم رسائل النور إلى العربية الأستاذ «إحسان قاسم الصالحي» الذي يحدثنا بقوله⁽¹⁾: «وبيدع الزمان سعيد النورسي رجل قد أفاض الله على قلبه من نور القرآن ما جعله يدخل عالم الإيمان والغيبيات بثبات وإقدام، في عصر طغت فيه قوى المادية، فأسدلت غشاوة على الأبصار والبصائر، فلم تعد ترى العقبى، وبدت الغيبيات شاحبة باهتة خافتة تنتظر بجلولها بريق الإيمان، فما فتئ

النورسي يجول ويصول في هذه الساحة متزوداً بنور الهداية الربانية، وما حباه الله من قدرات فائقة في استيعاب ما وصل إليه عصره وما وصلت إلى عصره من علوم، وما تفتحت أمامه من آفاق الحاجة الإنسانية في عصره، حتى وجدناه في رسائله — رسائل النور— وفي تربيته لطلابه مثلاً للمجدد المقتدي بالرسول الكريم ρ ، والمقتضى خطوات الهداية في نور القرآن المبين».

ولعل العناية الإلهية شاءت أن تغرس في النورسي بصيرة نفاذه، وقدرة عجيبة في دمج العلوم العقلية الحديثة والعلوم النقلية الشرعية، فكأنه ينهل من جذور المعرفة لا من فروعها، إذ يقدم حلولاً وإرشادات في أعقد الأمور الحياتية والإيمانية والغيبية في بلاغة رائعة وأسلوب رشيق، تأنس به العقول وتطمئن به القلوب، فتجد فيه ضالتها، ومنفذ خلاصها من دون أن يكدر شيئاً من صفو الإفهام أو يعرقلها في الفروع دون الأصول".

وخطوة بحث: «تأثير الأخلاق والعلم والدين في الفرد والمجتمع» من خلال رسائل النور، على النحو التالي:

- تمهيد...
- المبحث الأول: سمات وخصائص كل من الحضارة الغربية والإسلامية.
- المبحث الثاني: مناهج المعرفة عند الإمام النورسي.
- المبحث الثالث: التكامل بين العلم والدين والأخلاق في تكوين الإنسان الصالح.
- المبحث الرابع: منهج ومرتكزات إصلاح الفرد والمجتمع.
- النتائج

المبحث الأول

1- سمات وخصائص كل من الحضارة الغربية والحضارة الإسلامية

لقد كان للظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي عاشها الإمام النورسي - رحمه الله- تأثيراً كبيراً على مسار حياته الفكرية. فما لاحظته من تفكك وضعف

المسلمين، والصراعات القائمة بينهم على أساس قومي ولغوي، فضلاً عن تخلفهم العلمي والاقتصادي والاجتماعي، في الوقت الذي أخذ فيه الغرب بالعلم كطريق للرقى والتقدم المادي، وإهداره لطراز وأنماط الحياة المستمدة من الأديان جعله يعقد مقارنة بين كل من الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية ومبادئ وأسس كل منهما.

لذا، سنطرح الأسئلة التالية، ونحاول الإجابة عليها في ضوء رسائل النور.

ما هي المبادئ والأسس التي تقوم عليها الحضارة الغربية والآثار المترتبة عليها؟ وما هي المبادئ والأسس التي تقوم عليها الحضارة الإسلامية والآثار المترتبة عليها؟ ولماذا يحذر الإمام النورسي المسلمين أن يقلدوا الغرب ويطالبهم بالتمسك بدينهم؟

1/1 ما هي الأسس والمبادئ التي تقوم عليها الحضارة الغربية والآثار المترتبة

عليها؟

بين الإمام النورسي — رحمه الله — المبادئ والأسس التي تقوم عليها كل من الحضارة الغربية والحضارة الإسلامية، فعن الحضارة الغربية يقول أنها تقوم على خمسة مبادئ وهي:

أولها، أن هذه الحضارة تؤمن بالقوة ولا تؤمن بالحق. والقوة بدون الحق تؤدي إلى الاعتداء والتجاوز على الأمم الأخرى، والخيانة للموازين العادلة والمعاهدات الصادقة والتصرفات المستقيمة، **وثانيها**، إيمانها بالمنفعة الخسيسة التي تستوجب الرذائل في الأخلاق والقضاء على الفضيلة، لأن الأخلاق في الحضارة الغربية نسبية تابعة لفلسفة المنفعة التي شأنها التزاحم والتخاصم الذي ينتهي إلى الجنانية بحق الأفراد والجماعات. **ثالثها**، دستورها في الحياة التصادم بدل التعاون لأنها قائمة على الصراع الحيواني في المدافعة والمنافسة. **رابعها**، لم تؤمن بغير رابطة القومية التي تنمو على حساب غيرها وتبتلع الآخرين. وهذا يؤدي إلى العنصرية التي تؤدي بدورها إلى التصادم، فينشأ منه الدمار والهلاك. **خامسها**، أنها تحتوي على مغريات رهيبه جذابة، كتشجيع الأهواء والنزاعات وإشباع الشهوات والرغبات. وشأن الأهواء والنوازع دائماً مسخ الإنسان وتغيير فطرته وحياته. ولذلك فهي بدورها تمنح إنسانية الإنسان وتحولها إلى مجرد الحيوانية⁽²⁾.

وما تنبأ به الإمام النورسي — رحمه الله — يؤكد المفكر الإنجليزي "جون جري" في كتابه: "الفجر الكاذب! أوهام الرأسمالية العالمية" حيث يقول: «إن الأعوام الأربعين التي أعقبت نهاية الحرب العالمية الثانية قد استغرقتها نزاع عالمي بين أيديولوجيات التنوير: الليبرالية والماركسية السوفيتية. وتنبع كلتا العقيدتين من رحم الحضارة الغربية .. ولم يكن النزاع بين الشيوعية الماركسية والليبرالية الديمقراطية صداماً بين الغرب والآخرين، بل كان شجاراً عائلياً بين أيديولوجيتين غريبتين. ولم يكن انهيار الاتحاد السوفيتي انتصاراً أحرزه الغرب على أحد أعدائه، وإنما كان دماراً للنظام الأكثر طموحاً بين أنظمة هذا القرن ذات التوجه الغربي»⁽³⁾.

ويؤكد الاقتصادي الروسي ف. يرلوف على الشك في استمرارية المجتمع الغربي في نموجه التنموي الذي يقوم على الاستهلاك بقوله: «إن عملية الاستهلاك تعتبر جوهر الأزمة الأخلاقية التي استولت على الغرب، والتي تميز المجتمعات الغربية المباح فيها كل شيء، والمباح فيها امتلاك كل شيء، لقد واجهت الغرب على طول قامته مشكلات تقييد النفس على أساس مقاييس أخلاقية دقيقة، والآن يمكن وضع استمرارية حياة المجتمع الغربي في دائرة الشك»⁽⁴⁾.

وتقرير التنمية البشرية الصادر عن برنامج الأمم المتحدة الإنمائي في عامي 1998م، 1999م يوضح لنا الفروق الضخمة في توزيع الدخل والثروات بين أبناء المعمورة حيث يقول التقرير: "يوضح تحليل الاتجاهات الطويلة الأجل لتوزيع الدخل العالمي أن الفجوة بين أغنى بلد وأفقر بلد على مستوى العالم كانت 3 إلى 1 في عام 1820م، و 11 إلى 1 في عام 1913م، و 35 إلى 1 عام 1935م، و 44 إلى 1 في أوائل السبعينات، و 72 إلى 1 في أوائل التسعينات"⁽⁵⁾.

وبحلول أواخر التسعينات أصبحت الأرصدة المالية لثلاثة أئرى أشخاص في العالم أكثر من مجمل الناتج القومي الإجمالي للدول النامية، كما أصبحت أرصدة 200 ثري أكثر من دخل 41% من سكان العالم⁽⁶⁾. وتحولت هذه الفروقات الأولية واللاحقة إلى عدم مساواة ضخمة في أنماط الاستهلاك ومستوياته. على سبيل المثال، يستهلك (20%) خمس سكان العالم الذين يعيشون في البلدان الأعلى دخلاً: 87% من سيارات العالم،

و84% من الورق، و74% من الهاتف، و65% من الكهرباء، و58% من الطاقة، و46% من اللحوم. وفي كل هذه المجالات يقل نصيب الخمس الأسفل في البلدان الأدين دخلاً عن 10%، هذا، وازدياد عدم المساواة القصور في الاستهلاك الأساسي يعكس التوزيع غير المتساوي للنمو الاقتصادي عالمياً ووظيفياً⁽⁷⁾.

ومن جانب آخر يشير الاقتصادي الفرنسي «موريس آليه» الحائز على جائزة نوبل إلى المظالم الكبرى التي تشكو منها المجتمعات الغربية وبقية العالم الناشئة عن الربا بقوله: «إن عدم الاستقرار الاقتصادي، ونقص الإنتاج، والظلم، ونقص التشغيل، وما يرافقه ذلك من ضنك وبؤس، هي المصائب الكبرى لاقتصاديات الأسواق... وكل هذه الانتقادات ذات صلة بالمؤسسات النقدية والمالية في الاقتصادات الغربية»⁽⁸⁾.

ويضيف «موريس آليه»: «إن تقلبات القيمة الحقيقية للنقود تجعل من المستحيل أي عمل فعال وعادل لاقتصاد الأسواق، ومن ثم يوجه الشك والانهام إلى الأساس الخلقسي لهذا الاقتصاد... والحقيقة أن المظالم الكبرى التي تشكو منها مجتمعاتنا الغربية إنما تأتي إلى حد كبير من تشوهات توزيع الدخول الناشئة من تغيرات القيمة الحقيقية للنقود»⁽⁹⁾.

ومن العالم العربي يشير الدكتور «جلال أمين» الاقتصادي العربي الشهير إلى خطورة تبني نماذج التنمية الغربية بقوله: «هل من أجل أن تحقق دول العالم النامي (دول الجنوب) لنفسها مستوى لائقاً من الغذاء والكساء والمسكن، ومن أجل أن تكتسب معرفة كافية بالعالم، هل يتعين على هذه الدول حقاً أن تذهب إلى الحد الذي ذهبت إليه الدول الصناعية في تنمية المدن وتلويثها، وفي تنمية البيروقراطية ووسائل الحرب والتنكر لله، ومعاداة الطبيعة، وتمزيق العائلة، بل في اكتساب ما لا طائل تحته من معلومات»⁽¹⁰⁾.

ويضيف الدكتور «جلال أمين» قائلاً: «إذا كان اطلاع المسلمين إبان ازدهار الحضارة الإسلامية على الفلسفة مثلاً لم يؤثر على سلامة عقيدتهم وقوتها، بل زادها قوة، فالسبب ليس هو مجرد أنهم احسنوا الاختيار بين ما ينقلون وما لا ينقلون، بل هو الموقف النفسي الصلب الذي واجهوا به قيم الحضارات الغربية عنهم. إلا أنه لا خلاص لمسلمين إلا بأن يتسلحوا بالعقيدة الصحيحة، التي نفهم منها أن استعادة المسلم لثقته بنفسه،

والقيمة الاجتماعية الكبرى لتمسك المسلم ببعيدته، هي أثن شيء لديه، ومن ثم كان شكه في قيمتها هو التخادل النفسي التام»⁽¹¹⁾.

2/1 ما هي المبادئ والأسس التي تقوم عليها الحضارة الإسلامية وآثارها؟

أما الحضارة الإسلامية فتقوم على أسس ومبادئ يحددها الإمام النورسي — رحمه الله — بقوله: «**فنقطة استنادها:** الحق بدل القوة، ومن شأن الحق دائماً: العدالة والتوازن. ومن هنا ينشأ السلام ويزول الشقاء. وهدفها الفضيلة بدل المنفعة، وشأن الفضيلة المحبة والتقارب، ومن هذا تنشأ السعادة وتزول العداوة. و**دستورها في الحياة:** التعاون بدل الخصام والقتال، وشأن هذا الدستور: الاتحاد والتساند اللذان تحيا بهما الجماعات. و**خدمتها للمجتمع:** بالهدى بدل الأهواء والنوازع وشأن الهدى: الارتقاء بالإنسان ورفاهه إلى ما يليق به من تنوير الروح ومدّها بما يلزم. **رابطتها بين المجموعات البشرية:** رابطة الدين والانتساب الوطني وعلاقة الصنف والمهنة وأخوة الإيمان. وشأن هذه الرابطة: أخوة خالصة، وطرد العنصرية والقومية السلبية»⁽¹²⁾.

أي إن الحضارة الغربية، تستند إلى القوة وشأنها العدوان، وهدفها المنفعة وشأنها التزاحم، ودستور حياتها الحرب وشأنه الصراع، ورابطتها التي اتخذتها أساساً هي فكرة القومية وشأنها العنصرية، ومنهجها تسهيل الشهوات وشأنها تحقير الإنسان.

بينما الحضارة الإسلامية، تستند إلى الحق بدلاً من القوة وشأنها العدالة والتوازن، وهدفها الفضيلة بدلاً من المنفعة وشأنها المحبة والتقارب، ودستور حياتها التعاون بدلاً من الحرب وشأنه الاتحاد والتآزر، ورابطتها هي الدين والوطن بدلاً من العنصرية وشأنها الأخوة الصادقة، ومنهجها الهداية بدلاً من إطلاق الشهوات وشأنها رقي الإنسان. والجدول رقم (1) يشتمل على مقارنة بين مبادئ ونتائج الحضارة الغربية القائمة على الفلسفة، والحضارة الإسلامية القائمة على القرآن.

حكمة القرآن		الغرب العلماني		المواضيع ⁽¹³⁾
النتيجة	المبدأ	النتيجة	المبدأ	
الاتفاق	الحق	الاعتداء	القوة	قاعدة وأساس الحياة
التساند	الفضيلة ورضا الله	المنافسة والصراع	المنفعة	غاية الحياة
الأخوة	الدين والوطن والمهنة	إبتلاخ الآخرين	العنصرية أي القومية	العصر الجامع
سعادة الدنيا والآخرة	خدمة المجتمع	ازدياد الحاجات	إشباع أهواء النفس	مبدأ الحياة
النتيجة: سعادة الدنيا والآخرة لجميع الناس		النتيجة: رفاه 20% من مجموع البشرية وشقاء 80% منها		

الجدول رقم (1)

يشتمل على مقارنة بين مبادئ ونتائج الحضارة الغربية القائمة على الفلسفة،

والحضارة الإسلامية القائمة على القرآن

3/1 لماذا حذر الإمام النورسي المسلمين من تقليد الغرب وطالهم بالتمسك

بدينهم؟

يحذر الإمام النورسي — رحمه الله — المسلمين أن يكونوا كتلك الأقوام التي ضحوا بكل مقدساتهم في سبيل الغرب، وذلك للأسباب الآتية:

أولاً: إن دينهم هو دين التوحيد الحق الذي يتساوى في ظله الناس جميعاً، انبعث منه نظام حضاري متكامل، يستند إلى الإيمان والعلم والعقل، ومعالجة حياة الفقر والتأخر الاجتماعي.

ثانياً: إن الإسلام لم يكن يوماً من الأيام أداة بيد الظالمين تسحق شعوبهم، كما حصل في تاريخ أوروبا.

ثالثاً: من الخطأ قياس الإسلام على النصرانية، وأهل الغرب لم يتقدموا إلا عندما تركوا التعصب الديني، بينما المسلمون لم يتأخروا إلا عندما تركوا التمسك بحقائق الإسلام.

رابعاً: من الخطأ الاعتقاد أن ساسة الغرب قد تركوا التعصب الديني تجاه المسلمين، حتى يفكر الساسة المسلمون في تقليدهم في ذلك.

خامساً: إن الفلسفة والدين لا بد أن يكونوا في خدمة الدين الحق، الإسلام، حتى تكون الحياة متوازنة.

سادساً: إن وضع اللغة والوطن والعنصر بمواجهة الإسلام خطر عظيم على الأمة، لأنه بمزق وحدتها، بينما إذا اتحدت تلك العناصر معه انتهت إلى صنع أمة قوية.

سابعاً: إن الإسلام عبر تاريخه هو الذي صاغ القيم العليا للأمة، وبه استطاعوا أن يحافظوا قروناً من الزمان أمام الطامعين الاستعماريين.

«فهل نستصغر هذه القوة الظهيرة القوية المعنوية والدائمة لهذه الدولة، وهل يمكن إنكارها؟»

«ترى أية قوة أخرى يمكن أن تحل محلها. فهذا ميدان التحدي، فليظهروا تلك القوة، لذا ينبغي ألا نجعل تلك القوة، الظهيرة العظمى، تعرض عنا، لأجل التمسك بقومية سلبية وحتمية مستغنية عن الدين»⁽¹⁴⁾.

المبحث الثاني

2- مناهج المعرفة عند الإمام النورسي

لم يكتب الإمام النورسي بالمقارنة بين مبادئ وأسس كل من الحضارة الغربية والحضارة الإسلامية والآثار المترتبة على كل منهما. بل نراه يتوغل أكثر من ذلك في الأعماق بدراسة مناهج المعرفة الإنسانية عامة سواء كان مصدرها الوحي والنبوة، والفلسفة، وأكثر من ذلك درس مناهج علماء الكلام والصوفية ومدى ملاءمتها لعصر العلم الحديث. ونراه يخلص إلى منهج معرفي جديد.

لذا، فإن هذا المبحث يحاول الإجابة على الأسئلة التالية:

ما هي مناهج المعرفة الإنسانية عند الإمام النورسي؟ هل اختار الإمام النورسي مناهج علماء الكلام والصوفية؟ أم أنه اختار منهجاً جديداً، ولماذا؟ لماذا اختار الإمام النورسي منهج القرآن؟ هل الدين عند الإمام النورسي سبب لكل من الكمالات المعنوية والمادية؟ وكيف؟

1/2 ما هي مناهج المعرفة الإنسانية عند الإمام النورسي؟

يقسم الإمام النورسي — رحمه الله — تاريخ الإنسانية إلى تيارين: أحدهما تيار النبوة، والآخر تيار الفلسفة والعلوم، ويربط كلا التيارين بذات الإنسان ويصور نتائج كلا التيارين.

فالنبوة — التي تمثل الوحي الإلهي — تخاطب قلب الإنسان، أما الفلسفة فتخاطب عقله، والهدف هو اتفاق الاثنين، أي قيام الفلسفة باتباع الدين واتباع النبوة وخدمتهما، وكلما تم هذا ذاق الإنسان طعم السعادة وعاشت في انسجام وتناغم. وعندما يفترق أحدهما عن الآخر ينسحب الخير والنور إلى جانب النبوة، ويتراكم الشر والضلالة — كما حدث في الغرب⁽¹⁵⁾ — في جانب الفلسفة⁽¹⁶⁾.

وعلى مستوى الإنسان الفرد، أي «الأنا» فإن هذا هو نفس موقف الشخص الفرد الذي ينكر الوحي ويثق بعقليته. فلكونه يعد نفسه مالكا لنفسه. وهذا هو أساس الفلسفة المادية، فبدء من المجرات الهائلة وانتهاءً بأصغر الذرات، فإن جميع الأسباب بدلا من إضافتها بشكل مباشر إلى خالقها، يتوهم بأنها هي صاحبة القدرة، إذ يفترض بأن للأسباب تأثيراً حقيقياً، ولها قدرة الخلق من العدم، ومثل هذا الشخص يضيف إلى مفاهيم زائفة مثل الطبيعة أو قوانين الطبيعة قدرة الخلق، ويفسر كل ما يراه في الدنيا تفسيراً قائماً على الصراع وعلى النزاع⁽¹⁷⁾.

وتعكس رؤيته هذه في نظريته إلى المبادئ التي يطبقها في الحياة الاجتماعية. وإن زعم وادعاء مثل هذه القدرة والتملك سيؤدي إلى ظهور الأصنام والطغاة. وأن كل الآلام تولد من هذه الضلالة، وجميع أنواع السعادة تنشأ من الإيمان المرتبط بسلسلة النبوة⁽¹⁸⁾.

أما الشخص الذي يقبل الأسس التي تقدمها سلسلة النبوة والدين، فإنه يعرف أنه شخص مخلوق وهو لا يمثل نفسه بل يمثل معنى غيره أي أنه يقبل بأنه ليس إلا عبداً لله. مثل هذا الشخص سيتعلم من الكتب السماوية الماهية الحقيقية لنفسه ولجميع الموجودات في الكون، ويتعلم واجباته الحقيقية.

كما يضيف نفسه إلى صانعه ومالكة الحقيقي فإنه يفعل الشيء نفسه بالنسبة لجميع الموجودات والكون بأجمعه، فقد تحول وجهه عن الوجه الظاهري للأسباب إلى المعنى الحقيقي الكامن وراءه، وسيرى الموجودات ضمن نظام للتعاون المتبادل، ضمن تسليم كامل، وتقوم القوانين السماوية الموازية لهذه النظرة بتنظيم حياته الاجتماعية⁽¹⁹⁾.

2/2 هل اختار الإمام النورسي مناهج علماء الكلام والصوفية؟ أم أنه اختار منهجاً جديداً، ولماذا؟

يقول الإمام النورسي — رحمه الله —: «إن معرفة الله المستتبطة بدلائل علم الكلام ليست هي المعرفة ولا تورث الاطمئنان القلبي، في حين أن تلك المعرفة متى كانت على نهج القرآن المعجز تصبح معرفة تامة وتسكب الاطمئنان الكامل في القلب.

وأما المعرفة الصوفية فناقصة مبتورة أيضاً بالنسبة إلى نفسها أمام المعرفة القرآنية، ذلك لأن أصحاب وحدة الوجود — كابن عربي — يقولون: (لا موجود إلا هو) لأجل

الحصول على الحضور القلبي الدائم أمام الله سبحانه وتعالى حتى وصل به الأمر إلى إنكار الكائنات. أما أصحاب وحدة الشهود فيقولون: (لا مشهود إلا هو)، ثم يطبقون سستار النسيان المطلق على الكائنات.

بينما المعرفة المستقاة من القرآن الكريم تمنح الحضور القلبي الدائم فضلاً عن أنها لا تقضي على الكائنات بالعدم، ولا تسجنها سجن النسيان المطلق بل تنقذها من الإهمال والعبثية وتستخدمها في سبيل الله سبحانه جاعله من كل شئ مرآة تعكس المعرفة الإلهية وتفتح في كل شئ نافذة إلى المعرفة الإلهية»⁽²⁰⁾.

ويضيف الإمام النورسي — رحمه الله — قائلاً: «إن الإيمان لا يحصل بالعلم وحده، إذ أن هناك لطائف كثيرة للإنسان لها حظها من الإيمان فكما أن الأكل إذا ما دخل المعدة ينقسم ويتوزع إلى مختلف العروق حسب كل عضو من الأعضاء، كذلك المسائل الإيمانية الآتية عن طريق العلم إذا ما دخلت معدة العقل والفهم، فإن كل لطيفة من لطائف الجسم: كالروح والقلب والسر والنفس وأمثالها، تأخذ منها وتمتصها حسب درجتها. فإن فقدت لطيفة من اللطائف غذائها المناسب فالمعرفة إذن ناقصة مبتورة، وتظل تلك اللطيفة محرومة منها»⁽²¹⁾.

3/2 لماذا اختار الإمام النورسي منهج القرآن؟

اختار الإمام النورسي منهج القرآن لما يلي:

أولاً: إن القرآن ترجمة أزلية لكتاب الكائنات المنبثق عن الصفة التكوينية لله. أي أن الله تعالى الذي كتب كتاب الكون بيد القدرة ترجم هذا الكتاب بالقرآن (الناشئ عن صفة الكلام) الذي هو الكلام الأزلي له. إن سمو الإسلام وعلوه يعود إلى أن قواعد كتاب الكون متطابق مع قواعد القرآن. ولهذا السبب كان الإسلام دين الفطرة ورسائل النور هي إيضاح لهذه الترجمة الأزلية وتفسير لها⁽²²⁾.

ثانياً: إن الهدف الرئيس للقرآن هو الإجابة على الأسئلة المعنوية الموجهة إلى الكائنات: (أيها الكون: من أين وبأمر من جئت؟ من سلطانك وأمرك؟ من دليلك وخطيبك؟ ما وظيفتك؟ وما مصيرك؟)

ثالثاً: لقد أحاب القرآن على هذه الأسئلة بالجواب التالي: هناك أربعة مقاصد لي، وهو إيراد برهان الله تعالى خالق الكائنات حول التوحيد والنبوة والحشر الجسدي والعبادة والعدالة. وهذه الأهداف الأربعة منتشرة في كل أجزاء القرآن.

أي أن الهدف الأصلي للقرآن هو بيان هذه الحقائق الأربعة. وأن تناول القرآن للكون هو من أجل بيان هذه المقاصد الأربعة الرئيسية. إن سور كتاب الكون وآياته وحروفه هي هذه الكائنات المخلوقة، وهي دلائل وبراهين لكل صاحب عقل على المقاصد الأربعة المذكورة.

ومن هنا تظهر الحقيقة التالية: كما أن موضوع القرآن هو الكون فإن الكون أيضاً موضوع للعلم. فالقرآن والعلوم كلاً منهما يقومان بإيضاح أبواب وفصول وسور وآيات كتاب الكون هذا، لذا فلا يمكن مطلقاً أن تكون هناك حكمة أو علم مخالف ومضاد للقرآن. ذلك لأن القرآن هو ترجمة لكتاب الكون من قبل مؤلفه، أما العلوم فهي الإيضاحات المقدمة للكتاب نفسه من قبل بعض المبتدئين من الذين لم يفهموا هذا الكتاب الفهم الكافي، وعلوم الفيزياء والكيمياء والرياضيات هي العلوم التي توضح أحكام كتاب الكون⁽²³⁾.

4/2 هل الدين لكل من الكمالات المعنوية والمادية؟

لا يفرق الإمام النورسي — رحمه الله — بين العلم والدين ويرى أن العلم والدين متحدان، ويرى أن الإسلام أب للعلم وأستاذ له، وتعارض العلم والدين ليس في الإسلام. ويشير إلى أن العلم قد ورث من أبينا آدم عليه السلام، وأن آدم قد فضل على الملائكة بسبب العلم لأن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ (البقرة: من الآية 31)

وإن الدين كما أنه سبب للكمالات المعنوية، فكذلك هو سبب للكمالات المادية أيضاً، ألا يرى أن الرسل الكرام على نبينا وعليهم السلام صاروا قدوة للبشر في الكمالات المادية أيضاً ويقول الإمام النورسي — رحمه الله — حول هذا الموضوع: «لقد أهدت يد النبوة الكمالات المادية أيضاً كالكمالات المعنوية إلى بني البشر»⁽²⁴⁾.

ويوضح الإمام النورسي — رحمه الله — بأن معجزات الأنبياء عليهم السلام كل منها يشير إلى حقيقة علمية ظهرت أو ستظهر فيقول في الكلمة العشرين من "كتاب الكلمات" في هذا الموضوع: «بأن معجزة النبي عيسى ؑ قد تحطت هدف الطب النهائي. ويفيد في ذلك بقوله: «إن قوله عز وجل ﴿وَأُبرِئُ الأَكْمَهَ والأَبْرَصَ وَأُحْيِي المَوْتَى بِإِذْنِ اللّهِ﴾ (آل عمران: من الآية 49) يشير إلى أنه يمكن علاج كل مرض مزمن.

وأن معجزة النبي موسى ؑ وضربه بالعصا على الأرض تشير إلى المنافع المدفونة تحت الأرض.

وأن معجزة النبي داود ؑ وتلينه الحديد تشير إلى الصناعات الحديدية والفولاذية المعاصرة. كما أن معجزته في تسبيح الجبال معه تشير إلى أنه يمكن للبشرية أن تستفيد من الجماد كالجبال والصخور.

ومعجزة النبي سليمان ؑ وطلبه عرش بلقيس تشير إلى إمكان نقل الأصوات والمناظر كالراديو والتلفزيون وحتى نقل الأجسام أيضاً والذي لم يتحقق حتى الآن.

ومعجزة النبي إبراهيم ؑ وجعل النار برداً وسلاماً عليه وعدم إحراقها له تشير إلى أنه يمكن للبشر أن يجدوا بعض الموانع من إحراق النار.

ومعجزة النبي داود وسليمان — عليهما السلام — يفهمهما منطلق الطير تشير إلى أنه يمكن للإنسان أن يستخدم بعض الحيوانات في الخدمات المهمة بعد فهم لغتها كإرسال العصافير لمطاردة آفة الجراد، لو فهمت لغتها، لأمكن تسخيرها في هذه الخدمة العظيمة النافعة.

كل هذه المعجزات تشير جميعها إلى أن القرآن هو أستاذ الحضارات ومنبع التقدم والرفي. كما أنه يعطي الإنسان السعادة المادية بترغيبه في التقدم والفن والعلم⁽²⁵⁾.

معجزة سيدنا محمد ﷺ: كنز علمي عظيم⁽²⁶⁾: إنه خاتم ديوان النبوة، وسيد المرسلين، الذي تعد جميع معجزات الرسل، معجزة واحدة، لتصديق دعوى رسالته، وهو

فخر العالمين، وهو الآية الواضحة المفصلة، لجميع مراتب الأسماء الحسنى كلها، التي علمها الله سبحانه آدم U تعليماً مجملاً.

ذلكم الرسول الحبيب محمد P الذي رفع إصبعه عالياً بجلال الله فشق القمر، وحفض الإصبع المبارك نفسه بجمال الله، ففجر ماء كالكوثر... وأمثال ذلك كثير من المعجزات الباهرات، التي تزيد على الألف. هذا الرسول الكريم، أظهر القرآن الكريم، الذي هو المعجزة الكبرى، التي تتحدى الإنس والجن: ﴿قُلْ لئن اجتمعت الأنسُ والجنُّ على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً﴾ (الإسراء: 88). وهكذا فإذا كانت كل معجزة من معجزات الأنبياء، تشير إلى خارقة من خوارق الصناعات البشرية. وكانت معجزة سيدنا آدم تشير إلى فهرس خوارق العلوم والفنون والكمالات.. فإن المعجزة الكبرى للرسول الأعظم P هي القرآن الكريم ذو البيان المعجزة: لأن حقيقة تعليم الأسماء، تتجلى فيه بوضوح تام، وبتفصيل أتم، ويبين الأهداف الصائبة للعلوم الحقة وللننون الحقيقية، ويظهر بوضوح كمالات الدنيا والآخرة وسعادتھما، فيسوق البشر إليها ويوجهه نحوها، مثيراً فيه رغبة شديدة فيها، حتى أنه يبين بأسلوب التشويق أنت: "يا أيها الإنسان! المقصد الأسمى من خلق هذا الكون، هو قيامك أنت بعبودية كلية، تجاه مظاهر الربوبية، وأن الغاية القصوى من خلقك أنت، هي بلوغ تلك العبودية بالعلوم والكمالات" فيعبر بتعابير متنوعة رائعة معجزة مشيراً بها إلى:

أن البشرية في أواخر أيامها على الأرض ستنسب إلى العلوم، وتنصب إلى الفنون، وستستمد كل قواها من العلوم والفنون، فيتسلم العلم زمام الحكم والقوة.

أبعد هذا كله.. أفلا يحق للمسلمين أن يكونوا أولى بالاعتراف من معين العلم، وتسلم زمام الحكم والقوة، بدلاً من التخلف والمهانة التي يعيشون فيها.

إنه عار علينا عظيم أن نكون اتباع هذا الرسول الأمين، وأنزل علينا هذا القرآن العظيم، ونعبد الحكيم العليم، ثم نعيش هذا التخلف العلمي المهين. رغم أن قرآنا زاخر بالإشارة إلى خوارق التقدم العلمي والصناعي على يد الأنبياء، وهناك أوامر مطلقة لاتباع الأنبياء — عليهم السلام. والافتداء بهم لأن هذا من أساسيات العقيدة.

إن المنهج المعرفي الذي اختاره الإمام النورسي لمواجهة طغيان الجاهلية في عصره كان يرفده قرائن ثلاثة متلازمة⁽²⁷⁾:

أولها، القرآن المقروء بأصول عقائده، وأسرار شرائعه، وقيم الخلافة التي تشكل مذهبته الشاملة في الوجود في إطار ضوابط التفسير الصحيح. وثانيها، القرآن المنظور الذي التمس فيه الحقائق وراء آياته التي تجلت فيها أسماء الله تعالى الحسنى. وثالثها، القرآن الناطق المطبق الذي هو رسول الله ﷺ الذي يقود إلى الله في الدنيا والآخرة مراكب الأنبياء والمرسلين والعارفين والشهداء والصالحين من عالمي الإنس والجن أجمعين.

المبحث الثالث

3- التكامل بين الدين والعلم والأخلاق في تكوين الإنسان الصالح

لقد أختار الإمام النورسي منهجاً معرفياً يقوم على ثلاثة روافد، وهي القرآن المسطور، والقرآن المنظور، والقرآن المطبق. واستند عليها في حركة التجديد للارتقاء بالإنسان المسلم وأكد على العلاقة القوية بين الدين والعلم والأخلاق، وشخص الأمراض الخلقية التي تعاني منها الأمة الإسلامية ووضع لها الدواء منطلقاً من القرآن الكريم.

وهذا المبحث محاولة للإجابة على الأسئلة التالية:

ما هي الأسس التي تستند عليها حركة التجديد عند الإمام النورسي للارتقاء بالإنسان المسلم؟ وما هو مفهوم الاستخلاف ومرتكزاته عند الإمام النورسي؟ وهل هناك علاقة بين العلم والإيمان؟ وما هي الأمراض الخلقية التي شخصها الإمام النورسي وأدت إلى تخلف الأمة الإسلامية؟ وما هو الدواء الذي وصفه الإمام النورسي لعلاج الأمراض الإسلامية الخلقية؟

1/3 ما هي الأسس التي تستند عليها حركة التجديد عند الإمام النورسي للارتقاء بالإنسان المسلم؟

كانت حركة التجديد لدى الإمام النورسي تستند إلى الأسس التالية:

أولها: من الضروري تقوية أسس الإيمان؛ لأن أفكار المسلم وحياته العملية وعالمه بأجمعه مبني على هذه الأسس؛ فإن لم تكن الأسس قوية فإن القيام بتصليح السقف أو الجدران وتزينها لن تنقذ البناية⁽²⁸⁾.

لقد كان الإمام النورسي — رحمه الله — يقول: «إن أهم خطر يتعرض له المسلمون اليوم هو فساد قلوبهم بالضلال الوارد إليهم من العلوم والفلسفة، واهتزاز وتقويض إيمانهم»⁽²⁹⁾.

ثانيها: كان يرى ضرورة إصلاح المدرسة الدينية؛ إذ لم تعد الطرق القديمة لعلم الكلام قادرة على إرساء أسس الإيمان في هذا العصر الحديث، لأن هذه المدارس الدينية قد أهملت العلوم الطبيعية لقد تعلم الإمام النورسي من القرآن، أن لله كتابين:

- كتاب الكون الذي تتجلى فيه صفة الإرادة،

- والقرآن الذي تجلت فيه صفة كلامه.

والقرآن يطلق اسم «الآية» على كل وحدة من وحدات هذين الكتابين. لذا، لا يمكن وجود تناقض بين هذين العلمين، أي العلم الكوني وبين العلم القرآني، فالحقيقة واحدة⁽³⁰⁾، ويقول الإمام النورسي — رحمه الله⁽³¹⁾ — «العلوم الدينية هي ضياء الوجدان، والعلوم المدنية هي نور العقل، ومن امتزاجها تتجلى الحقيقة، والطالب يطير بهذين الجناحين، فإن افترقا تولد الغضب عند الأول، والشبهة والتردد والحيلة عند الثاني».

ثالثها: لقد أكد الإمام النورسي مفهوم وحدة العلم والدين وبين أن القرآن الكريم هو المصدر الأساسي للعلم والمعرفة، وأن العلوم الاجتماعية والإنسانية والطبيعة تنبثق من مشكاة القرآن الكريم، وترتكز على وجه التحديد على أسماء الله الحسنى — لقد تأثر الإمام النورسي بهذه النظرة بالإمام الغزالي — رحمه الله — لكنه طور نظرتة هذه بمحاولته الجادة لإنشاء جامعة الزهراء التي أراد لها أن تكون معملاً ومختبراً لأسلمة العلوم وتأصيلها وفق المنظور القرآني للكون والحياة والإنسان. وفي دعوته إلى فرض رقابة قرآنية أو شرعية على العلوم الوافدة من الغرب عمل حكيم من النورسي⁽³²⁾.

رابعها: تأكيد الإمام النورسي — رحمه الله — بصورة جلية على موقع ودور صاحب الرسالة في بيان معنى ومقاصد الإطلاع على الكتاب الكوني وكتاب الوحي وتجسيدها في الواقع، فيقول: «حيث أن أكمل إمام وأمثلة قدوة في هذا الأمر هو محمد ρ»⁽³³⁾.

إن تحديد الدلالات العميقة والصحيحة للعلم وإدراك مغزاه: التوحيدي، والتسخيري، والسنني، والسلوكي لا يكون إلا بالقراءة المنهجية لكتاب الكون، وكتاب الوحي، وكتاب البيان والأسوة والقدوة الذي تجسد كاملاً في حياة الرسول ρ وشخصيته البشرية والنبوية.

2/3 ما هو مفهوم الاستخلاف ومرتكزاته عند الإمام النورسي؟

ينظر الإمام النورسي — رحمه الله — إلى مفهوم الاستخلاف نظرة شمولية تتضمن جملة مرتكزات منها:

أولها: المرتكز التوحيدي للاستخلاف: وذلك بربط الإنسان الخليفة بخالقه وجعله متصلاً بالله سبحانه وتعالى. **ثانيها:** المرتكز الكوني للاستخلاف: وذلك بربط حركة الإنسان الخليفة بالكون ودعوته إلى التأمل والسير في الأرض واستعمارها وتسخيرها لتحقيق الأمانة. **ثالثها:** المرتكز الأخروي للاستخلاف: وذلك بربط حركة الإنسان الخليفة بالجزاء الأخروي المضمون في حالة استقامته على الطريقة وحمله الأمانة على وجهها الصحيح. وهذا المرتكز هو الذي يقدم الدعم النفسي والمعنوي للإنسان عندما يضمن له ثمرة جهاده نتيجة عمله للصالحات⁽³⁴⁾.

يقول الإمام النورسي — رحمه الله —: «فالذي يعرف ماهية (أنا) على هذا الوجه، ويدعن له، ثم يعمل وفق ذلك وبمقتضاه يدخل ضمن بشارة قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ (الشمس: 9) . ويكون قد أدى الأمانة حقها فيدرك بمنظار (أنا) حقيقة الكائنات والوظائف التي تؤديها. وعندما ترد المعلومات من الآفاق الخارجية إلى النفس تجد (أنا) ما يصدقها فتستقر تلك المعلومات علوماً نورانية وحكمة صائبة في النفس، ولا تنقلب إلى ظلمات العبثية. وحينما يؤدي (الأنا) وظيفته على هذه الصورة، ويترك ربوبيته الموهومة ومالكنتيه المفترضة — التي هي وحدة قياس ليس إلا — ويفوض الملك لله وحده قائلاً: له الملك، وله الحمد وله الحكم وإليه ترجعون، فيلبس لباس عبوديته الحققة،

ويرتقي إلى مقام أحسن تقويم. ولكن إذ نسي (أنا) حكمة خلقه، ونظر إلى نفسه بالمعنى الأسمى، تاركاً وظيفته الفطرية معتقداً بنفسه أنه المالك، فقد خان الأمانة ودخل ضمن النذير الإلهي: ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ (الشمس:10) «⁽³⁵⁾».

ويتعمق الإمام النورسي — رحمه الله — أكثر في تحديد دور (أنا الاستخلافية) في تحقيق الربط بين العلم والتحضر وتحقيق الحيوية التجديدية عن طريق تسخير الكون واكتشاف الحكمة والعلم في قوله: «إن (أنا) مفتاح، يفتح الكنوز المخفية للأسماء الإلهية الحسنى، كما يفتح مغاليق الكون. فهو بجد ذاته طلسم عجيب ومعمي غريب. ولكن بمعرفة ماهية (أنا) ينحل الطلسم العجيب وينكشف المعمي الغريب (أنا) وينفتح بدوره لغز الكون، وكنوز عالم الوجود... اعلم! أن مفتاح العالم بيد الإنسان، وفي نفسه، فالكائنات مع أنها مفتحة الأبواب «ظاهرات» إلا أنها مغلقة «حقيقة» فالحق سبحانه وتعالى أودع من جهة الأمانة في الإنسان مفتاحاً يفتح كل أبواب العالم، وطلسماً يفتح به الكنوز المخفية لخلق الكون، والمفتاح هو ما فيك من (أنا)⁽³⁶⁾».

ففي العمق الإنساني تكمن حقائق وقيم وإمكانات التجدد والتحول والتغير. ففيه مخزونات الوعي والارتقاء والإعمار. ولكن هذا الإنسان العظيم لا يصبح صاحب (أنا) استخلافية تجديدية حضارية) إذا لم يحقق شروط هذه الأنا ويمتلك مفتاح تسخيرها الصحيح. ويأتي على رأس هذه الشروط الإيمان بالله وتحقيق العبودية الخالصة له.

يقول الإمام النورسي — رحمه الله — عن الإيمان: «كما أن الإيمان نور وهو قوة أيضاً. فالإنسان الذي يظفر بالإيمان الحقيقي يستطيع أن يتحدى الكائنات ويتخلص من ضيق الحوادث مستنداً إلى قوة إيمانه... إن الإيمان يجعل الإنسان إنساناً حقاً، بل يجعله سلطاناً، لذا كانت وظيفته الأساسية:

الإيمان بالله تعالى والدعاء إليه... يتضح من هذا أن وظيفة الإنسان إنما هي التكامل «بالتعلم» أي الترقى عن طريق كسب العلم والمعرفة والعبودية بالدعاء... وهذا يعني أن وظيفته الأساسية هي التحليق والارتقاء بجناحي "العجز والفقير" إلى مقام العبودية السامية. إذن فلقد جيء بهذا الإنسان إلى هذا العالم لأجل أن يتكامل بالمعرفة والدعاء...

فأساس كل العلوم الحقيقية ومعدنها ونورها وروحها هو معرفة الله تعالى، كما أن أس هذا الأساس هو الإيمان بالله جل وعلا»⁽³⁷⁾.

3/3 ما هي الأمراض الخلقية التي شخصها الإمام النورسي وأدت إلى تخلف الأمة الإسلامية؟

يجل الإمام النورسي — رحمه الله — ماضي وواقع الأمة الإسلامية، ويبين أسباب تأخر الأمة الإسلامية، ويقدم علاجاً لهذا الداء، ويوضح في الخطبة الشامية عام 1910م سبب تأخر المسلمين فيقول: «لقد تعلمت من واقع الحياة ومن ممارسة الحياة الاجتماعية، ومن الواقع الذي تعيشه البشرية في يومنا هذا: أن هناك ستة أمراض قاتلة جعلتنا نقف على أعتاب القرون الوسطى في مسالكها المظلمة. في الوقت الذي طار فيه الأجنب — وخاصة الأوروبيين — بخطى سريعة نحو المستقبل وهم يتسابقون في ميادين الرقي والتقدم العلمي، وهذه الأمراض هي:

أولاً: اليأس أو «القنوط». ثانياً: موت الصدق في حياتنا الاجتماعية والسياسية «الكذب». ثالثاً: حب «العداوة». رابعاً: تجاهل الروابط الروحية التي ترتبط المؤمنين بعضهم ببعض «التفرقة». خامساً: ذبوع «الاستبداد». سادساً: حصر الهمة في «المنفعة الشخصية» دون الالتفات إلى «المنفعة العام»⁽³⁸⁾.

4/3 ما هو الدواء الذي وصفه الإمام النورسي لعلاج أمراض الأمة الإسلامية الخلقية؟

يضع الإمام النورسي — رحمه الله — الدواء لعلاج أمراض الأمة الإسلامية الخلقية بقوله: «ولكي تعالج هذه الأمراض الفتاكة لابد من استشارة القرآن الحكيم. الذي هو بمثابة كلية طب في حياتنا الاجتماعية فنأخذ من صيدلية تلك الكلية ست كلمات إذ أنني لا أعرف أسلوب للمعالجة سواها»⁽³⁹⁾.

الكلمة الأولى «الأمل»: وأعني بالأمل الثقة في الرحمة الإلهية والاعتماد عليها إلى أقصى حد، وأنه من دواعي سروري أن أزف إليكم البشرى يا معشر المسلمين بأنه قد بدأت تباشير سعادة المسلمين الدنيوية تلوح في الأفق وخاصة سعادة العثمانيين وسعادة

العرب. إنني أعلن بكل الثقة والإيمان كي تسمعي الدنيا كلها رغم أنف اليأس أن المستقبل للإسلام وحده وأنه لن يكون هناك حكم سوى حكم القرآن ومبادئه⁽⁴⁰⁾.

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾ (الزمر: من الآية 53)

فاليأس داء قاتل وهو داء عضال بالنسبة للأمم والشعوب فهو شبيه بداء السرطان⁽⁴¹⁾. فيجب دفعه لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ (يوسف: من الآية 87)

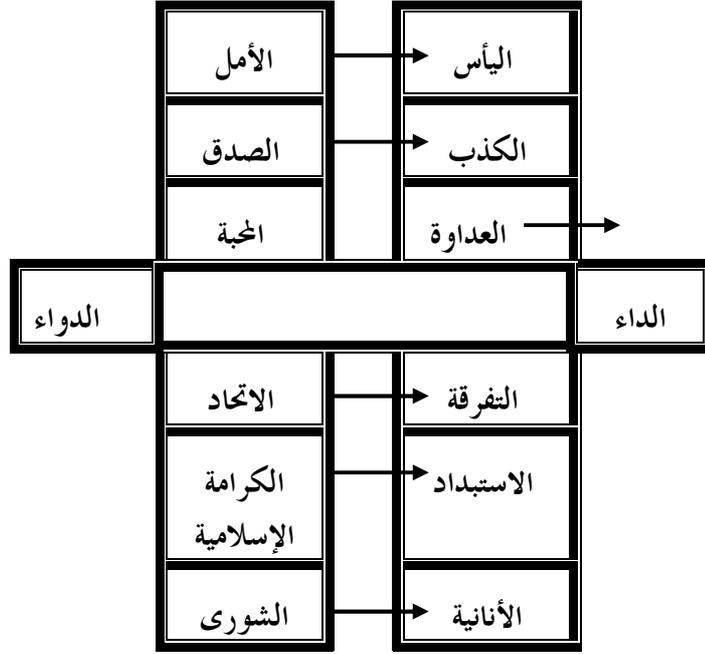
الكلمة الثانية «الصدق»: الصدق هو أساس الإسلام وواسطة العقد في سجاياه الرفيعة⁽⁴²⁾. ولقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ (التوبة: 119)

الكلمة الثالثة «المحبة»: الود والمحبة من خصال الإسلام وروابطه الأساسية أما من درج على إضمار العدا لغيره فهو أشبه بطفل متقلب الأطوار⁽⁴³⁾. ولقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ (الحجرات: من الآية 10)

الكلمة الرابعة «الاتحاد»: يرى الإمام النورسي — رحمه الله — بأن النزاعات والاشتباكات العرقية والألسنية عاملان أساسيان في تشتيت شمل الأمة الإسلامية، لا على النطاق العالمي فحسب، بل وحتى على المستوى الوطني. وإن اتحاد الأمة على أساس الإسلام هو الدواء الذي يصفه النورسي لداء التفرقة، ويقول الإمام النورسي: «لقد آن أوان الاتحاد الإسلامي وهو على وشك أن يتحقق، وعليه ينبغي أن تصرفوا النظر عن تقصيراتكم الشخصية، ولتجاوز كل عن الآخر»⁽⁴⁴⁾.

الكلمة الخامسة «الحرية»: يقول النورسي — رحمه الله — : «إن الدرس الذي تعلمته من الحرية التي أقرها الشرع: أن سيئة الرجل منا الواحدة في هذا الزمان لا تظلم سيئة واحدة وإنما تتضاعف أحياناً حتى تصبح مائة ولعل السر والحكمة في ذلك هو أن الحرية الشرعية قد أثبتت سيادة أمتنا كما أن حجر الأساس في بناء أمتنا وقوامها الروحي هو الإسلام فقط⁽⁴⁵⁾. ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَن شَاءَ فَلْيُكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ (الكهف: من الآية 29)

الكلمة السادسة «الشورى»: إن مفتاح سعادة المجتمع الإسلامي والمسلمين بوجه عام هو الشورى ولقد أمرنا القرآن الكريم بالأخذ بمبدأ الشورى في جميع أمورنا⁽⁴⁶⁾. حيث يقول تعالى: ﴿وَأْمُرْهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ (الشورى: من الآية 38) والشكل رقم (1) يوضح تشخيص الإمام النورسي لأمراض الأمة الإسلامية الخلقية، والدواء الذي وضعه لعلاجها.



الشكل رقم (1)

شخص الإمام النورسي ستة أمراض خطيرة يجب معالجتها إذا كان المسلمون يريدون القيام بدور إيجابي نحو التقدم الإنساني في المستقبل

المبحث الرابع

4- منهج ومرتكزات إصلاح الفرد والمجتمع

لم يكتف الإمام النورسي بتشخيص سبب تخلف المسلمين وما أصابهم من أمراض خلقية، ووضع دواء لها. بل أكثر من ذلك كان قدوة ومثالاً، وطبق أفكاره بين تلاميذه، الذين ينتشرون الآن في كل من تركيا، وفي العديد من أقطار العالم الإسلامي. وتغيير وإصلاح المجتمعات بالجهاد المعنوي الذي يقوم على تنوير الأفكار وإصلاح القلوب ورفضه تغيير المجتمعات بالحركات الثورية المسلحة. وفي هذا المبحث سنحاول الإجابة على الأسئلة التالية:

ما هو منهج الإمام النورسي — رحمه الله — في إصلاح الأفراد؟ ما هي المرتكزات التي يؤمن بها الإمام النورسي في تغيير المجتمعات؟ ولماذا يرفض النورسي تغيير المجتمعات عن طريق الحركات الثورية؟

1/4 ما هو منهج الإمام النورسي في إصلاح الفرد؟

يستهدف الإمام النورسي — رحمه الله — من البداية إصلاح الفرد، ويعتقد أن التخريب قد بدأ بالقلب ولهذا يلزم إصلاح القلب، ويخبرنا أن الحركات الإصلاحية التي لا تستند إلى إصلاح القلب صعب جداً الحصول منها على نتيجة. ولهذا بدأ النورسي — رحمه الله — بإصلاح نفسه أولاً، ويقول: «من لا يصلح نفسه لا يمكنه إصلاح الغير»، علينا أن نرشد أنفسنا ثم نرشد غيرنا، ولهذا ينادي الإمام النورسي بالتمسك بالأخلاق الإسلامية قائلاً: «لو تمسكنا بالأخلاق الإسلامية وأظهرنا بأفعالنا هذه الكمالات لدخل أتباع سائر الأديان الإسلام أفواجاً»⁽⁴⁷⁾.

لقد عمق الإمام النورسي — رحمه الله — مفردات أخلاقية عديدة كالصدق والأمل والصبر والشجاعة والتضحية وجعلها وقوداً لازدهار الإنسان الأخلاقي، كما رسم خطوطاً كثيرة لوصول الإنسان إلى رضا ربه كخط الشكر، والتذلل، والتوكل، والحب والإخلاص وحل الإشكالية المؤذية بين ميل الإنسان إلى الانتماء لذاته أو للمجتمع، وأقام طلابه على معادلة مريجة متوازية بينهما، وقد قوى اللحمة الاجتماعية، بدعوته لطلابيه للتسامح، والحب، والتعاون، وعدم الإسراف والتورط في المطالب الكمالية التي يختلقها الرأسماليون، كما وضع أسساً موضوعية جادة للحوار، ورسم قواعد لمنع الاختلاف أو تجاوزه أو تخفيفه.

وباختصار فقد سعى إلى بناء مجتمع يقوم على الحق بدلاً من القوة، وعلى ابتغاء رضا الله بدلاً من التزاحم على طلب المنافع، ويقوم ببناءه على البر والتقوى لا على الصراع والجدل وتشد لبناته الأخوة الدينية الجامعة ولا تشتته العنصريات وتهدب رغبات الإنسان فيه ولا تطلقها بعشوائية⁽⁴⁸⁾.

2/4 ما هي المرتكزات التي يؤمن بها الإمام النورسي في تغير المجتمعات؟

ينظر الإمام النورسي إلى الكون في رسائله جميعاً على أنه موضوع تجليات أسماء الله الحسنى، فكل ظاهرة تحدث فيه، إنما هي تعبير واقعي عن معانيها السامية وفي هذا يسير على طريق مفكري الإسلام كالغزالي والرازي الذين بينوا معاني تلك الأسماء وارتباطها الوثيق بما يحدث في الوجود كله.

وبناء على ذلك فإن كل تغير يحدث في الكون، لا بد أن يخضع للسنن الكونية التي تتجلى فيها تلك الأسماء السامية. لا سيما اسم «الحكم» إذ في ضوء معناه وأسراره نستطيع أن نفسر الأحداث (من خلال العلية الدقيقة، والغائية المطردة، في انتظام الكون). ومن هنا فإنه يؤمن بـ«النظام» ويرفض «الفوضى» ويعتقد بـ«التدرج» ولا يقترب من «الطفرة».

فالنظام والتدرج هو أساس الوجود كله، وأي خروج عليه يعني إدخال الفساد عليه. وهو خروج واضح على تعاليم القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة. فالقرآن هو الكون المقروء، والسنة هي الكون المطبق في الحياة العملية.

وفي ضوء ذلك فإن الإمام النورسي يدعو إلى تغير اجتماعي منظم يتمسك بقانون التطور الفطري التدريجي، ويجب أن يبدأ من القاعدة ويصعد إلى القمة، لا العكس، لأن العكس سيؤدي إلى زعزعة الحياة الاجتماعية ويحصل منه شر مستطير وتخريب كبير⁽⁴⁹⁾.

ومن أقوال الإمام النورسي — رحمه الله — في ذلك: «إن من يشق طريقاً في الحياة الاجتماعية ويؤسس حركة، لا يستثمر مساعيه ولن يكون النجاح حليفه، ما لم تكن الحركة منسجمة مع القوانين الفطرية التي تحكم الكون، بل تكون جميع أعماله لأجل التخريب والشر»⁽⁵⁰⁾.

وفصل الإمام النورسي — رحمه الله — وجهة نظره بقوله: «لقد وضع الله سبحانه وتعالى في وجود الأشياء تدرجاً وترتيباً أشبه ما يكون بدرجات السلم، وذلك بمقتضى اسمه (الحكيم) فالذي لا يتأني في حركاته، إما أنه يطفر الدرجات فيسقط أو ينزلها ناقصة فلا يرقى إلى المقصود».

ولهذا فالحرص سبب الحرمان، والصبر يحل المشاكل، حتى غدا مضرب الأمثال «الحريص خائب خاسر» ، «الصبر مفتاح الفرج» بمعنى: أن عنايته سبحانه وتعالى مع الصابرين⁽⁵¹⁾.

ويشرح وجهة نظره بمثال: «ومثلما هو مجال لجسم الإنسان تجديد جميع ذراته دفعة واحدة، وإنشاء ذرات جديدة بدلاً منها كذلك يتعذر على الدولة — إن لم يكن محالاً — تغيير جميع موظفيها دفعة واحدة، وإقامة موظفين جدد بدلاً عنهم»⁽⁵²⁾.

ويرى الإمام النورسي أن الميل للترقي ينمو ويتزعرع مستمداً من تلاحق الأفكار الذي ينسبط بتكامل المبادئ واستكمال الوسائل، وفي هذا يقول: «في العالم ميل للاستكمال، وبه يتبع العالم قانون التكامل، ولأن الإنسان من ثمرات العالم وأجزائه، ففيه كذلك ميل الترقى المستمد من الميل والنزوع إلى الاستكمال. وميل الترقى هذا ينمو ويتزعرع مستمداً من تلاحق الأفكار الذي ينسبط بتكامل المبادئ واستكمال الوسائل»⁽⁵³⁾.

إذن فلا بد أن يكون قانون التغيير في حياته هو التغيير التدريجي حتى لا يختل توازن الحياة فيؤدي إلى نتائج عكسية. ولا شك أنه انتهى إلى هذا الرأي بعد أن استقرأ جميع الثورات الاجتماعية في العالم في القرن التاسع عشر وفي القرن العشرين⁽⁵⁴⁾.

3/4 لماذا يرفض الإمام النورسي تغيير المجتمعات عن طريق الحركات الثورية؟

يرى الإمام النورسي — رحمه الله — أن الحركات الثورية تضر بالإسلام والمسلمين من نواح شتى لأن الإسلام مؤسس على القلوب. والحركات الثورية تؤسس نظاماً ظاهرياً ولا تصل إلى القلب. ويقول: «إن الغلبة على المتمدنين هي بالإقناع وليس بالإجبار كما هو شأن المتوحشين»⁽⁵⁵⁾.

ويوصي الإمام النورسي المصلحين بتبنيهم منهج الإقناع والإثبات دائماً فإن الإسلام لا يقبل النفور والعداوة والمهجوم ولا يحتاج إليها لأنه نور وانتشاره نوراني أيضاً.

ويعارض النورسي القائلين بأن الحركات الإصلاحية لا تتحقق إلا بالقوة المادية. ويرى أن الحركة المعنوية وإرشاد أفراد المجتمع وتنويرهم هو من أهم الحركات لأن الحركات الثورية — على الأكثر — تضر بالأبرياء من النساء والأطفال وغيرهم⁽⁵⁶⁾.

ولإيمان الإمام النورسي — رحمه الله — بالتغير في إطار انتشار الوعي الاجتماعي والدعوة السلمية، فإنه لا يبيح الجهاد المسلح الداخلي الموجه إلى حكام المسلمين، لأن ذلك لا يخدم من وجهة نظره إلا العدو الخارجي المتربص بالمجتمع الإسلامي من حيث هو كل.

فهو يقول: «إن الجهاد المسلح لا يمشد كلياً إلا ضد العدو الخارجي، فالصراع المسلح داخل البلاد الإسلامية هو ما يصبو إليه العدو الخارجي، إذ أن سفك دماء المسلمين فيما بينهم، أمر يهملهم».

ويضيف الإمام النورسي: «إن الجهاد في أي مجتمع مسلم إنما هو جهاد معنوي يوصل إليه عن طريق تنوير الأفكار وإصلاح القلوب والأرواح. يكون جهاداً إيجابياً بناءً لصد التخريبات المعنوية، ويتصرف فيه وفق سر «الإخلاص» فهناك بون شاسع بين الجهاد في الخارج والجهاد في الداخل. فنحن نبذل قصارى جهودنا للحفاظ على استقرار البلاد وأمنها وفق العمل الإيجابي للبناء... في هذا الوقت، الفرق عظيم جداً بين الجهاد الداخلي والخارجي»⁽⁵⁷⁾.

النتائج

- النبوة - التي تمثل الوحي الإلهي - تخاطب قلب الإنسان، أما الفلسفة فتخاطب عقله. وقيام الفلسفة باتباع الدين واتباع النبوة وخدمتهما يحقق سعادة البشرية والعيش في سلام وتناغم، وعندما يفترق أحدهما عن الآخر ينسحب الخير والنور إلى جانب النبوة، ويتراكم الشر والضلالة - كما حدث في الغرب - في جانب الفلسفة. وإن أهم خطر يتعرض له المسلمون اليوم هو فساد قلوبهم بالضلال الوارد إليهم من العلوم والفلسفة، واهتزاز وتقويض إيمانهم.

والقرآن الكريم هو المصدر الأساسي للعلم والمعرفة، وأن العلوم الاجتماعية تنبثق من مشكاة القرآن الكريم، وترتكز على وجه التحديد على أسماء الله الحسنى. فالقرآن الكريم يطلق اسم الآية على كل وحدة من وحدات هذين الكتابين: كتاب الكون الذي تتجلى فيه صفة الإرادة، وكتاب القرآن الذي تجلت فيه صفة كلامه الأزلي. هذا فضلاً عن القرآن الناطق المطبق الذي هو رسول الله ﷺ القدوة والأسوة الحسنة.

- الإنسان هو خليفة الله في الأرض، والإنسان الخليفة مرتبط بخالقه الواحد الذي لا شريك له. فضلاً عن ارتباطه بهذا الكون والعمل على عمارة الأرض وتسخيرها لتحقيق الأمانة. بالإضافة إلى أن حركة الإنسان مرتبطة بالجزء الأخرى المضمون في حالة تركية النفس.

- وارتقاء المسلمون في عصر العلم مرهون بالأخلاق الإسلامية التي تتمثل في الأمل في الرحمة الإلهية بدلاً من اليأس، والصدق بدلاً من الكذب، والمحبة بدلاً من العداوة، والاتحاد بدلاً من الفرقة، واحترام الكرامة الإنسانية بدلاً من الاستبداد، والشورى الجماعية بدلاً من الأنانية الفردية.

- وكل من يدعو إلى الإصلاح عليه بإصلاح نفسه أولاً قبل إصلاح الغير، والإصلاح يبدأ بإصلاح القلب وكل حركة إصلاحية لا تستند إلى القلب يصعب جداً الحصول منها على نتيجة.

- والإصلاح والتغير الاجتماعي يجب أن يتم بقانون التطور الفطري التدريجي، ويجب أن يبدأ من القاعدة ويصعد إلى القمة، لا العكس، لأن العكس، سيؤدي إلى زعزعة الحياة الاجتماعية، فالنظام والتدرج هو أساس الوجود كله. والإقناع والإثبات يكونان منهج المصلحين دائماً، فالإسلام لا يقبل النفور والعداوة والمهجوم؛ لأنه نور وانتشاره نوراني أيضاً.

- وتمسك المسلمون بإسلامهم هو طوق النجاة بعدما شهدنا ما حدث من انهيار الاتحاد السوفيتي وانهيار مشروع الماركسية الشيوعية، والظلم والطغيان والاستكبار العالمي من قبل القطب العالمي المنفرد بإدارة شئون العالم. فتهميش غالبية سكان المعمورة من أجل أن يعيش خمس سكان العالم في نمط معيشي يتسم بالإسراف والتبذير باسم الكفاءة

الاقتصادية على حساب العدالة الاجتماعية، لا يقره الإسلام الذي يدعو إلى التكافل والتراحم. وانتشار الانتحار والإباحية والترويج لها بكل الوسائل يدعوننا لإصلاح قلوبنا والحفاظ على الأسرة التي شرعها الله لنا.

- والتعلم واكتساب المهارات والمعارف هو الطريق الموصل للرقى والتقدم في عصر العلم، وذلك مقرونًا بأخلاقيات العلم الواردة في القرآن الكريم من أجل سعادة البشرية وتحقيق السلام وليس من أجل الصراع والمنافسة.

والله ولي التوفيق

- (1) إحسان قاسم الصالحى، "كلمة مركز بحوث رسائل النور، في افتتاح الحلقة الدراسية حول: بيدع الزمان النورسي: فكره ودعوته"، والتي نظمها المعهد العالمي للفكر الإسلامي (مكتب الأردن)، مركز بحوث رسائل النور (تركيا)، المحرر: إبراهيم على العوضي، الطبعة الأولى، عمان، 1418هـ / 1997م، ص 17.
- (2) بيدع الزمان سعيد النورسي، الكلمات، كليات رسائل النور، ترجمة: إحسان قاسم الصالحى، الطبعة الثانية، القاهرة: دار سوزلر للنشر، 1412هـ - 1992م، ص 855.
- (3) جون جريبي، الفجر الكاذب: أوهام الرأسمالية العالمية، ترجمة: أحمد فؤاد بليغ، الطبعة الأولى: القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ومكتبة الشروق الدولية، 2000م، ص 141-142.
- (4) ف. يرلوف، "نهاية التاريخ أم البحث عن طريق جديد"، والمنشور في مجلة "آسيا وإفريقيا اليوم"، العددان (1، 2)، لشهري يناير وفبراير، 1997م، ترجمة: د. أشرف الصباغ، مجلة الثقافة العالمية، العدد 85، نوفمبر 1997م، ص 17.
- (5) تقرير التنمية البشرية، برنامج الأمم المتحدة للتنمية، عام 1999م.
- (6) تقرير التنمية البشرية، برنامج الأمم المتحدة للتنمية، عام 1998م.
- (7) تقرير التنمية البشرية، برنامج الأمم المتحدة للتنمية، عام 1998.
- (8) موريس آليه، الشروط النقدية لاقتصاد الأسواق من دروس الأمس إلى صلاحيات الغد، سلسلة محاضرات العلماء البارزين رقم (1)، جده: المعهد الإسلامي للبحوث والتدريب، 1413هـ / 1993م، ص 13.
- (9) نفس المرجع، ص 14.
- (10) د. جلال أمين، تنمية أم تبعية اقتصادية وثقافية، القاهرة: مطبوعات القاهرة، 1983م، ص 41-42.
- (11) نفس المرجع، ص 124-125.
- (12) الكلمات، ص 855-856.
- (13) د. سعاد بيلديم، «مكانة بيدع الزمان النورسي في الفكر والحركة الإسلامية»، حلقة دراسية: «بيدع الزمان النورسي: فكره ودعوته»، المعهد العالمي للفكر الإسلامي (مكتب الأردن)، مركز بحوث رسائل النور (تركيا)، عمان: جمادى الثاني 1418هـ - أكتوبر 1998م، ص 39.
- (14) بيدع الزمان سعيد النورسي، المكتوبات، كليات رسائل النور، ترجمة وتحقيق: إحسان قاسم الصالحى، الطبعة الثانية، القاهرة: دار سوزلر للنشر، 1413هـ - 1992م، ص 416-420، وانظر أيضاً: د. محسن عبد الحميد، النورسي متكلم العصر الحديث، القاهرة: سوزلر للنشر، 1995، ص 199-200.

- (15) النورسي يتكلم عن أوربايين (أوربا اثنتان):
الأولى: هي أوربا التي قدمت العدل والحقيقة (المستمدة من المسيحية الحقيقية) والأمور المفيدة للإنسانية.
الثانية: هي أوربا المتبعة لفلسفة الطبيعة والتي رجحت جانب الشر على جانب الخير فيها. وأوربا الثانية هي المسيطرة حالياً على أوربا الأولى.
- (16) شكران واحدة (ماري ويلد، اسمها قبل إسلامها)، «مؤلفات بديع الزمان كأنموذج لتقديم الإسلام للغرب»، بحث مقدم لمؤتمر: بديع الزمان النورسي في مؤتمر عالمي حول تجديد الفكر الإسلامي، استانبول، 27-29/2/1992، ص222.
- (17) شكران واحدة، مرجع سابق، ص 223.
- (18) نفس المرجع السابق، ص 224
- (19) نفس المرجع السابق، ص 244
- (20) المبحث الرابع من المكتوب السادس والعشرين — المكتوبات، ص 425.
- (21) المكتوبات، ص 426.
- (22) د. أحمد آق كوندوز، رسائل النور مدرسة إيمانية جديدة، بديع الزمان، سعيد النورسي في مؤتمر عالمي حول تجديد الفكر الإسلامي، استانبول (27-29/2/1992)، ص 191.
- (23) نفس المرجع، ص 191.
- (24) الكلمات، ص 237.
- (25) الكلمات، ص20.
- (26) المقام الثاني من الكلمة العشرين، ص291-293 من الكلمات. وانظر أيضاً: خديجة النبراوي: دور كليات رسائل النور في يقظة الأمة، الطبعة الأولى، القاهرة: سوزلر للنشر، 1418هـ/ 1998م، ص120-121.
- (27) د./ محسن عبد الحميد، النورسي متكلم العصر الحديث، ص 91-92.
- (28) د. سعاد بيلديرم: "مكانة بديع الزمان النورسي في الفكر والحركة الإسلامية"، حلقة دراسية: "بديع الزمان النورسي: فكره ودعوته"، المعهد العالمي للفكر الإسلامي (مكتب الأردن)، مركز بحوث رسائل النور (تركيا)، عمان: جمادى الثاني 1418 هـ/ أكتوبر 1998م، ص 34.
- (29) بديع الزمان النورسي، اللغات، ص 158.
- (30) بديع الزمان النورسي، المناظرات، ص 75-76، وانظر أيضاً: د. سعاد بيلديرم، مرجع سابق، ص 35.
- (31) بديع الزمان النورسي، المناظرات، ص 27.
- (32) بديع الزمان النورسي، المحاكمات، ص 17، وانظر أيضاً د. سعاد بيلديرم، مرجع سابق، ص 36-37.
- (33) اللمعة الحادية عشرة، اللغات، كليات رسائل النور (3)، الطبعة الثانية، القاهرة: شركة سوزلر للنشر، 1413هـ / 1993م، ص93.
- (34) د. عبد العزيز برغوث، «موقع نظرية العلم في عملية الاستخلاف والتحضر عند الإمام النورسي»، المؤتمر العالمي الرابع لبديع الزمان سعيد النورسي؛ «نحو فهم عصرى للقرآن الكريم رسائل النور نموذجا»، استانبول 20-22/9/1998م، الطبعة الأولى، القاهرة: سوزلر للنشر، 2000م، ص37-38.
- (35) الكلمة الثلاثون — الكلمات — كليات رسائل النور، ص 637-638.
- (36) الكلمة الثلاثون — الكلمات — كليات رسائل النور، ص 635.
- (37) راجع: الكلمة الثالثة والعشرون — الكلمات — كليات رسائل النور، ص352-355.
- (38) بديع الزمان سعيد النورسي، الخطبة الشامية، بيروت، 1974م، ص30-31.

- (39) الخطبة الشامية، ص31.
- (40) الخطبة الشامية، ص 32.
- (41) بيدع الزمان سعيد النورسي، الخطبة الشامية، ص 55.
- (42) الخطبة الشامية، ص 57.
- (43) الخطبة الشامية، ص 67.
- (44) صيقل الإسلام، 512، وأنظر أيضاً: د. توماس ميشيل، الخطبة الشامية لسعيد النورسي، وصفة طيبة وروحية لأمراض العصر، النظرة القرآنية للإنسان من خلال رسائل النور، المؤتمر العالمي الخامس لبيدع الزمان سعيد النورسي، الطبعة الأولى، استنبول: شركة نسل للطبع والنشر والتوزيع، 1423هـ/ 2002م، ص 409-410.
- (45) الخطبة الشامية، ص 65-66.
- (46) الخطبة الشامية، ص 72-73.
- (47) د. سمير رجب، الفكر الأدبي والديني عند الداعية الإسلامي «بيدع الزمان سعيد النورسي»، الطبعة الثانية، القاهرة: شركة سوزلر للنشر، 1995م - 1416هـ، ص193، وراجع: الخطبة الشامية، ص35.
- (48) محمد رشدي عبيد، ملامح تربوية في رسائل النور، بيدع الزمان سعيد النورسي في مؤتمر عالمي حول تجديد الفكر الإسلامي، استانبول، 27-29/29-1992م، ص87-88.
- (49) د. محسن عبد الحميد، النورسي متكلم العصر الحديث، القاهرة: سوزلر للنشر، 1995م، ص242.
- (50) اللغات، ص160.
- (51) المكتوبات، ص362.
- (52) صيقل الإسلام، المحاكمات، ص 27.
- (53) د. محسن عبد الحميد، مرجع سابق، ص 244.
- (54) الخطبة الشامية، ص 78.
- (55) د. سمير رجب، مرجع سابق، ص 194.
- (56) د. سمير رجب، مرجع سابق، ص 194.
- (57) د./ محسن عبد الحميد، مرجع سابق، ص 244.

العالم الإسلامي والغرب حوار متبادل

ذة. سمية عبد الحليم عويس
القاهرة

" هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، وكفى بالله شهيدا"

سورة الفتح: 28

"بسم الله رأس كل خير وبدء كل أمر ذي بال، فنحن أيضاً نستهلُّ بها إن هذه الكلمة الطيبة المباركة كما أنها شعار الإسلام، فهي ذكر جميع الموجودات بالسنة أحوالها.

فأعطي يا نفس باسم الله ،

وخذني باسم الله ،

وابدأي باسم الله ،

واعملي باسم الله ،"

والسلام

بديع الزمان سعيد النورسى

رحمه الله .

مقدمة

الحمد لله حمد الشاكرين، والصلاة والسلام على المصطفى الهادي الأمين

وبعد ،

فإنه من دواعي فخري واعتزازي أن أنطلق باحثة في فكري عالمنا الموسوعي الفذ "بيدع الزمان" رجل الأقدار الذي فتح الله قلبه لأنواره وجعل النور ينساب من قلبه وقلمه هدى ذكرى لكل المؤمنين ودعوة صادقة لكل من لم ينشرح صدره للنور بعد.

وقد اخترت هذا الموضوع بعينه لما رأيت من تفاهة الكفر ومعسكره أمام الإيمان ومعسكره، وسقوط المادة أمام الروح، وهزيمة الغرب أمام القيم والمبادئ الإسلامية، ألا إن حزب الله هم المفلحون .

لقد تدافع الكثيرون للدخول في هذا الدين في عصرنا الحاضر بعد أن عجزت معابدهم عن أن تمدهم بالسعادة والحق المنشود .

فرغم تفوقهم الحضاري القائم على أساس من المادة المجردة لم يوفقوا إلى اليوم في إنجاز مجتمعات آمنة سعيدة، لأنهم ورثوا عن حضارة المسلمين الوسائل ولم يرثوا الأهداف " إن الحضارة هي الإنسان قبل كل شيء، والإنسان في المجتمعات الأوروبية إنسان شقي مستعبد" (1)

وكما قال الإمام النورسي في رسائله النورانية: " إن أوروبا وأمريكا حبالى بالإسلام وستلدان يوماً ما دولة إسلامية كما حبلت الدولة العثمانية بأوروبا وولدت دولة أوروبية" (2)

وينقسم البحث إلى خمسة مباحث :

الأولى : مبادئ الإسلام البناءة من وحي رسائل النور .

الثاني : شقاء الغرب بانحرافه عن أنوار القرآن الكريم .

الثالث : مقارنة دساتير الغرب بدستور القرآن الكريم :

الرابع : كيف يكون المسلم سفيرا ناجحا يعبر عن دينه بحق ؟

الخامس : كيف نصل للحوار المثالي مع الغرب ؟

وأختم بخاتمة تشتمل على النتائج التي تمخض عنها البحث، وبعض التوصيات التي ينبغي أن توضع في الاعتبار - كما يرى عالمنا النورسي - حتى ننجح في حوارنا مع الغرب كدعاة نورانيين للإسلام وأسأل الله الهداية والعون والرشاد .

الباحثة

المبحث الأول : مبادئ الإسلام البناء من وحي رسائل النور

الإسلام باعتباره ديناً من أعظم أديان ثلاثة نادت بوحدة الخالق انتشرت انتشاراً عظيماً تخطى المكان الذي نشأ فيه منذ ألف وأربعمائة سنة حيث اعتنقته جماهير غفيرة متباينة جنسياً وثقافياً، وهذا في الماضي، أما في الحاضر فقد دخل إلى رحابه أناس من أصل أوروبي وأمريكي لا يمكن بأي حال تغافل أعدادهم .

وإلى هذا يشير الإمام النورسي فيقول :

"إن مستر كارلايل أحد مشاهير الفلاسفة وعلماء النصرانية يقول : لقد جاء الإسلام على تلك الملل الكاذبة والنحل الباطلة فابتلعها لأنه حقيقة خارجة من قلب الطبيعة " ثم يستطرد فيقول :

"إن الذي سيقود البشرية إلى السعادتين الدنيوية والأخروية ليس إلا الإسلام، وإن الإسلام مستعد للرقى المادي والمعنوي، لأن في قلب الشخصية المعنوية للعالم الإسلامي قد اجتمعت وامتزجت خمس قوى لا تقهر " :

القوة الأولى :

الحقيقة الإسلامية : التي هي أستاذ جميع الكمالات والمثل الجاعلة من ثلاثمائة وخمسين مليون مسلم كنفسٍ واحدة والمجهزة بالمدينة والعلوم الصحيحة

القوة الثانية :

الحاجة الملحة : التي هي الأستاذ الحقيقي للمدينة والصناعات والمجهزة بالوسائل والمبادئ الكاملة، وكذلك الفقر الذي قصم ظهرنا. فالحاجة والفقر قوتان لا تسكتان ولا تقهران .

القوة الثالثة :

الحرية الشرعية : التي ترشد البشرية إلى سبل التسابق والمنافسة الحققة نحو المعالي والمقاصد الأمية، والتي تعنى التحلي بأسمى ما يليق بالإنسانية من درجات الكمال والتشوق والتطلع إليها.

القوة الرابعة :

الشهامة الإيمانية : المجهزة بالشفقة والرحمة والرأفة بمعنى : عدم مداهنة المستبددين وعدم التحكم بالمساكين وهذا أساس من أسس الحرية الشرعية .

القوة الخامسة :

العزة الإسلامية : التي تعلن إعلاء كلمة الله، وفي زماننا هذا يتوقف إعلاء كلمة الله على التقدم المادي والدخول في مضمار المدنية الحقيقية.

إن قصدنا من المدنية هو محاسنها وجوانبها النافعة للبشرية، وليس ذنوبها وسيناتها، كما ظن الحمقى من أن تلك السيئات محاسن فقلدوها وخربوا الديار فقدموا الدين رشوة للحصول على الدنيا فما حصلوا عليها ولا حصلوا على شيء.⁽³⁾

وفي خضم رسائل النور نجد بجلاء مبادئ الإسلام التي تنبع من الحقائق السابقة ويكمن فيها سر عظمة هذا الدين، ومن أهمها :

(1) الوحدة الإسلامية :

نحن معاشر المسلمين - منذ الأزل - داخلون في الجمعية المحمدية، فالتوحيد هو الجهة التي تمثل الوحدة والاتحاد فيما بيننا، فكل مؤمن مكلف بإعلاء كلمة الله . نحن فدائيو المحبة لا مكان بيننا للخصومة، ومسلكتنا هو التخلف بالإخلاص المحمدية وإحياء السنة النبوية، ومرشدنا في الحياة الشريعة الغراء وسيفنا البراهين القاطعة.⁽⁴⁾

لا للقومية التحزبية :

إذا كانت كلمة القومية بمعناها التحزبي البغيض قد ظهرت فإن إمامنا النورسي يعالج آفاتنا بقوله " تلك هي القومية السلبية كما فعل الأمويون حين خلطوا شيئاً منها في

سياساتهم فأسخطوا العالم الإسلامي فضلاً عما ابتلوا به من بلايا كثيرة من جراء الفتن الداخلية .

وفي عصرنا الحاضر في بداية عصر الحرية (أي إعلان الدستور) تشكلت جمعيات مختلفة - كالروم والأرمن مثلاً - فكان منهم من أصبح لقمة سائغة للأجانب ومنهم من تردى وضل ضلالاً بعيداً .

إن القومية الإيجابية نابعة من حاجة داخلية للحياة الاجتماعية فهي سبب التعاون والتسناد وتحقق قوة نافعة للمجتمع وتكون وسيلة لإسناد أكثر للأخوة الإسلامية⁽⁵⁾

2- حماية الحقوق الاجتماعية بما يعضد التكافل و المساواة والترابط :

يشرح الإمام النورسي في مکتوباته كيف أن الإسلام أرسى قوانين العدالة الاجتماعية . "إنما المؤمنون أخوة فأصلحوا بين أخويكم " الحجرات 10 ، "وقضى ربك ألا تعبد و إلا إياه وبالوالدين إحسانا " الإسراء 43،

فلئن كان هناك هذا القدر من الروابط التي تستدعي الوحدة والتوحيد والوفاء والاتفاق والمحبة والأخوة، ولها من القوة المعنوية ما يربط أجزاء الكون الهائلة، فما أظلم من يعرض عنها جميعاً ويفضل عليها أسباباً واهية أو هن من بيت العنكبوت ... تلك التي تولد الشقاق والنفاق والحقد والعداء .. فإن لم يكن قلبك ميتاً ولم تنطفئ بعد جذوة عقلك فستدرك هذا جيداً .

الأنا أداة للبناء :

كما جعل الإسلام من الأنا أداة للبناء لا للهدم : فعندما تعلم أنك على حق في سلوكك وأفكارك يجوز لك أن تقول : إن مسلكي حق أو هو أفضل، ولكن إن كنت تريد أن نفاذ أحدا فعاد نفسك وما في قلبك من العداوة مجتهداً في إطفاء نارها إن أعدى أعدائك نفسك التي بين جنبيك فقاوم هواها واسع إلى إصلاحها ولإنقاذ المؤمنين لأجلها⁽⁶⁾

3- العلم رفيق الإيمان :

إلى كل من جانب الحياة الروحية وانغمس في الحياة المادية فاكتوى بشرورها يقول إمامنا النورسي :

أقسم بالقرآن العظيم ذي الأسلوب الحكيم أنه ما ألقى النصارى وأمثالهم في وديان الضلالة نافخا فيهم الهوى الأعزل العقل وطرده البرهان وتقليد الرهبان .. وما جعل الإسلام ينجلي دوماً وتتكشف حقائقه تنبسط بنسبة انبساط أفكار البشر إلا تأسسه على الحقيقة وتقلده البرهان ومشاورته العقل واعتلاؤه عرش الحقيقة ومطابقتها دساتير الحكمة المتسلسلة من الأزل إلى الأبد ومحاكاته لها ألا يشاهد كيف يحيل القرآن الكريم في فواتح أكثر الآيات وخواتمها للبشر إلى مراجعة الوجدان واستشارة العقل بقوله تعالى "أفلا ينظرون"، "أفلا يتدبرون"، "فانظروا"، "فاعتبروا يا أولى الأبصار" (7)

3- ترسيخ الفكر السياسي :

أجاب الإمام النورسي أحد السائلين عن علاقة السياسة بالدين وضرورتها لأمة الإسلام فقال: " لا سعادة لأمة الإسلام إلا بتحقيق حقائق الإسلام وإفلا، إذ تغلب عندئذ الأخلاق الفاسدة والصفات الذميمة ويبقى الأمر معلقاً بيد الكذابين والمرائين".

القانون الأساسي للسياسة البشرية :

هو الذي يضحى بالأفراد من أجل سلامة الأمة وتقدمي بالأشخاص حفاظاً على الجماعة ويرخص كل شيء في سبيل حماية الوطن .

إن الحريين العالميتين قد نشبتا من سوء استعمال هذا القانون البشري فأبادت نهائياً ما توصلت إليه البشرية من رقى منذ ألف سنة . لذا فهو قانون جائر .

القانون الأساس للقرآن العظيم:

هو العوض عن قانون البشر الغادر، النازل من رب العرش العظيم: "ولا تزر وازرة وزر أخرى " الأنعام 164، "من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً " المائدة: 32

5 - تحقيق التوازن :

التوازن أساس الكون كله ... سواءً في العلاقات الاجتماعية أم الدولية أم في الإنفاق أم في مراعاة حقوق النفس وواجباتها

" وكذلك جعلناكم أمة وسطا " البقرة 143 فالاقتصاد شكر معنوي وتوقير للرحمة الإلهية الكامنة في النعم والإحسان ... " وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم " الحجر :21

أما في الكون والمخلوقات فنجد التوازن أساس استمرار الموجودات وكمال نظام الكون : فلو كانت الأسباب الساعية إلى اختلال التوازن سائبة أو مفوضة إلى المصادفة العشوائية أو القوة العمياء أو الطبيعة المظلمة البلهاء، لكانت بويضات سمكة واحدة التي تزيد على الألوف تخل بتلك الموازنة

فاعلم أيها الإنسان أن الاقتصاد والطهر والعدالة سنن إلهية جارية في الكون ودرساتير إلهية شاملة تدور رحى الموجودات عليها ... فلا يغفل منها شيء إلا أنت أيها الشقي، فأنت بمخالفتك الموجودات كلها في سيرها وفق هذه السنن الشاملة تلقى النفرة منها والغضب عليك وأنت تستحقها⁽⁸⁾

"ظهر الفساد في البر والبحر كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون " الروم :41

المبحث الثاني: شقاء الغرب بانحرافه عن أنوار القرآن الكريم

أوروبا الثانية هالكة لا محالة:

يخاطب إمامنا سعيد النورسي أوروبا مبيناً عيوبها المهلكة والتي ستؤدي حتماً إلى فنائها دنيوياً وهلاكها في الآخرة ... مقسماً أوروبا إلى قسمين:

الأولى : نافعة للبشرية بما استفاضت من النصرانية الحققة وأدت خدمات لحياة الإنسان الاجتماعية بما توصلت إليه من صناعات وعلوم تخدم العدل والإنصاف.

والثانية : وهي المعنية بالخطاب المحتاجة إلى النصح والتوبيخ _ أوروبا الحديثة صاحبة المدنية الزائفة والفلسفة المضلة السقيمة، التي حملت في باطنها روحاً خبيثة تنشر الكفر وتبث الجحود ... فأفسدت البشرية بتعاليمها الطائشة وأذاقتها عذاب الجحيم في نعيم حنة كاذبة .. زعمت أن كل كائن حي مالك لنفسه، يعمل لذاته وحسب، رغم أنها ترى قانون التعاون جارياً فيما بين المخلوقات امتثالاً لأمر الخالق الحكيم فظنت أن ذلك

كله جдалاً وصراعاً ونسيت أن الله هو رب كل شئ وخالقه ومالكة فأسندت آثاره البديعة إلى الأسباب والطبيعة الموهومة !! وقسمت ملك ذلك الخالق الكريم على الطواغيت التي تُعبد دون الله " وما دعاء الكافرين إلا في ضلال " الرعد: 40، فغاية ما يصبوا إليه تلميذ ذلك الشرك الجحود وذروة همته: تطمين رغبات النفس وإشباع هواها، إذ لا يجب إلا نفسه ويضحى بكل شئ في سبيلها.

- أما تلميذ القرآن:

فهو عبد لكنه لا يتنزل لعباده أعظم مخلوق لأنه عبد عزيز لا يرضى إلا بالجنة ثمناً لعبوديته لربه الخالق الحكيم العظيم، تلميذ فقير لكنه مستغن عن كل شئ بما ادخره له مالكة الكريم من ثواب جزيل ونعيم دائم وخلود مقيم.

هذا هو الفرق بين تلميذ أوروبا وفلسفتها السقيمة، وبين تلميذ القرآن الكريم، فرق يتضح في أثره الفلسفة الخبيثة.. وإيثار الفلسفة القرآنية الحكيمة، وفي دنو الفلسفة الخبيثة وفنائها وسمو الفلسفة القرآنية الحكيمة وخلودها .

غاية المؤمن السامية أن يكون مظهرًا لتجليات أسماء مالكة (الله) ومعكسًا لشؤونه الحكيمة .. مستسلم راضٍ لقضاء الله وقدره..

أما الجاحد الأوربي ومن سار على منواله فهو ضال بطواغيت الأجانب وعلومهم المادية الطبيعية، ويا خسارته!!

إن الإنسان يكسب حيوانية شديدة كلما توغل في النوازع الحيوانية، والذي يفعل ذلك ما هو إلا نوع خبيث من أنواع الحيوانات التي خلقها الفاطر الحكيم سبحانه لعمارة الدنيا وجعلهم واحداً قياسياً لمعرفة درجات النعمة التي أسبغها على عبادة المؤمنين وسوف يسلمهم إلى جهنم وبئس المصير.⁽⁹⁾

إن ما أنجزته المدنية الحاضرة من حوارق في ساحة العلم نعم ربانية تستدعي شكراً خالصاً من الإنسان على ما أنعم عليه، وتقتضي منه كذلك استخداماً ملائماً لها لفائدة البشرية ومنفعتهم .. بيد أننا نرى الآن خلاف ذلك، إذ تقود تلك الحوارق قسماً من الناس - الذين لهم أهمية بالغة في الحياة - وتوردهم موارد الكسل والسفاهة، إذا إنها تذكي نار الأهواء النفسانية وتثير كوامن النزعات الشهوانية، فتقعد الإنسان عن الكد

والسعي وتثنيه عن الشوق إلى العمل وتسوقه بعدم القناعة وعدم الاقتصاد إلى السفاهة والإسراف والظلم وارتكاب المحرمات.

البعد عن التعاليم الدينية سبب الأخطا

إن المدنية الغربية الحاضرة لا تلقي بالأى إلى الأديان السماوية، لذا أوقعت البشرية في فقر مدقع وولدت الإنسان العاطل أمراضاً وأسقاماً وعللاً لأنها أصبحت وسيلة إلى انتشار مئات الأوبئة والأمراض في أرجاء المعمورة... وتفشى الإلحاد، وتوغل في تلك المدنية الخبيثة فتجرع العالم دمار الدنيا وهو بانتظار جهنم في الآخرة.

ماذا فعل القرآن إزاء ذلك ؟

وإزاء كل تلك المصائب يداوى القرآن تلك الجروح بصحوة تلاميذه الذين يربون على أربعمائة مليون تلميذ، وبها يضمه من قوانين مقدسة سماوية، مثلما عالج علاجاً شافياً أدواء البشرية قبل ألف و ثلاثمائة سنة فإنه مستعد لتضميد تلك الجراحات الفائرة بقوانينه الأساسية السامية، فضلاً عن أنه الكفيل بتحقيق سعادة دنيوية وأخروية للبشرية. إن كفة حسنات الحضارة النابعة من القرآن ستتغلب حتماً على سيئات المدنية الحاضرة حيث سيجعلها تسير في ركب القوانين السماوية بدلاً مما يحدث الآن من دفع أحكام الدين رشوة في سبيل المدنية

كل ذلك يُفهم من إشارات القرآن المعجز في بيانه ومن رموزاته .

عاقبة الكفر ومصائبه لا تُعد

إن في الكفر مصائب عظيمة وفوات نعم جسيمة وتولد آلام شديدة وزوال لذائد عالية مُصْرحة في جملتها بأن الكفر أخصب الأشياء وأضرها

" ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم"

البقرة: 7

نجد عاقبة الكفر .. بسقوط الإيمان من أيديهم والذي هو نبع جميع السعادات وبلفظ

" ختم الله على قلوبهم".

نجد أن الله ختم على القلب والوجدان الذي حياته وفرحه وسرور وكمالاته تتجلى الحقائق الإيمانية بنور الإيمان، بعدما كفروا صار القلب كالبناء الموحش غير المعمور المشحون بالمضرات والحشرات فأقفل وأمهّر على بابه ليَجْتَنِبَ وتُرك مفوضاً للعقارب والأفاعي .

فاتتهم نعمة عظيمة سمعية بسبب الكفر - إذا السمع من شأنه - إذا استقر خلف صماخه نور الإيمان واستند إليه الإحتساس ببناء كل العالم وفهم أذكارها، وسمع صياح الكائنات وتفهم تسييحاتها فكان الكائنات موسيقية عظيمة له تهيج في قلبه حزناً علوياً وعشقاً روحانياً فيجزن بتذكر الأحباب والأنيس فيكون الحزن لذة... أما حين يظلم السمع بالكفر يصير أصماً من تلك الأصوات اللذيذة ولا يسمع من الكائنات إلا نياحات المأتم ونعيات الموت ويغشى البصر بالكفر، إذ البصر من شأنه إذا استضاء نوره واتصل بنور الإيمان الساكن خلف شبكيته ممدداً ومحركاً له كانت كل الكائنات كجنة مزينة بالزهر والخور.....

وإذا أظلم ذلك البصر - والعياذ بالله - بالكفر طمس وصارت الدنيا في نظره سجناً وتسترت عنه الحقائق وتوحشت عليه الكائنات وتلقى إلى قلبه آلاما تحيط بوجدانه من الرأس إلى القدم .

"ولهم عذاب عظيم" في جهنم حيث ثمرة شجرة زقوم الكفر في العالم الأخروي من عذاب النار ومن نكال الغضب الإلهي .⁽¹⁰⁾

فلما كان في الكفر هذا الألم الشديد وهذا الخوف الداهم، ولما كان موت الكافر عدم وفراق أبدى فكيف لا ينفطر قلبه ولا ينسحق تحت ضغط هذا الألم؟ بل كيف يسمح له كفره أن يتمتع بالحياة ويتذوقها؟

إنه يخادع نفسه بمغالطة شيطانية عجيبة ويعيش مع الظن بتلذذ ظاهري شأنه (شأن النعمة) حينما يرى الموت يحاول أن ينقذ نفسه بالتمسك والتشبث بالإيمان بالآخرة..... ولكن هل يستوي في الآخرة: من عاش على الإيمان بمن عاش على الكفر في الدنيا؟!!

وحينها تواجهه مشقة التكاليف الدينية يتراجع ويتشبث باحتمالات كفرة المشكوك ليتخلص من تلك التكاليف ... فهو يظن أنه يتمتع أكثر من المؤمن في الدنيا لأنه يفلت من عناء التكاليف الدينية باحتمالات كفره، ولا يدخل تحت قساوة آلام العدم باحتماله الإيماني

.. وتلك مغالطة شيطانية تافهة بلا فائدة⁽¹¹⁾

المبحث الثالث : مقارنة دساتير الغرب بدستور القرآن الكريم

من مبادئ الغرب الراسخة في جذورهم الأخلاقية : أن تحيا أيها الأوربي بالأثرة، تعاون مشروط بظروف العمل والمناخ الذي يحيط بك، وتجاهل لسنة الضيافة، هكذا أودعت المسيحية المحرفة خميرة التوسع الأخلاقي في ضمير كل أوربي، والذي استخدم فيما بعد ذريعة للحروب الصليبية وللمشاريع الاستعمارية.

فلما جاءت الحروب الصليبية وجدنا الحضارة الأوربية تخرج من حدودها لتجنى حصداً طيباً من الحضارة الإسلامية، ودفعتها هذه الاتجاهات أيضاً إلى اكتشاف أمريكا .. وهنا نشهد انفصلاً كبيراً بين أوربا التي صارت صاحبة الكلمة العليا وبين بقية الإنسانية⁽¹³⁾ هكذا بدأت الحضارة الأوربية .. حضارة زائفة لأنها مادية بحتة ... فما هو الفرق بين دساتير الغرب الهدامة وبين دستور القرآن الكريم .. ذلك الدستور الذي يبني الدنيا ويسعد أصحابه في الآخرة؟!!

القرآن : ما هو ؟

هو الترجمة الأزلية لهذه الكائنات، والترجمان الأزلي لألستها التاليات للآيات التكوينية، وهو لسان الغيب في عالم الشهادة .. وهو أساس وهندسة وشمس لهذا العالم المعنوي الإسلامي .. وكذا هو خريطة للعالم الآخرون وهو القول الشارح والتفسير الواضح والبرهان القاطع والترجمان الساطع لذات الله وصفاته وأسمائه وشؤونه .. وكذا هو مربّ للعالم الإنساني وهو الحكمة الحقيقية لنوع البشر وهو المرشد المهدي إلى ما خلُق البشر له.

فكما أنه كتاب شريعة كذلك هو كتاب حكمة وكما أنه كتاب دعاء وعبودية كذلك هو كتاب أمر ودعوة وكما أنه كتاب ذكر كذلك هو كتاب فكر.

فكيف يهتدي أولئك الجاحدون دون الرجوع لأنوار القرآن؟ أم كيف يستبصر الحائرُونَ وقد عصبوا عيونهم عن رؤية أنوار القرآن؟

" فأغشيناهم فهم لا يبصرون " يس: 9

إن القرآن المنظم الأعظم لقوى البدن المسكون بالروح، وهي ثلاث قوى :

الأولى : القوة الشهوية البهيمية الجاذبة للمنافع.

الثانية : القوة الغضبية السبعية الدافعة للمضرات والمخربات.

الثالثة : القوة العقلية الملكية المميزة بين النفع والضّر⁽¹³⁾.

ومن حكمة الله الحكيم أنه لم يحدد تلك القوى بالفطرة كما حددها في الحيوانات وإنما حددها بالشرعية لأنها تنهى عن الإفراط والتفريط وتأمّر بالتوسط "فاستقم كما أمرت" هود : 112

والاستقامة هي العدول عن الهوى إلى القرآن، فطريقتهم مسلوكة محدودة الأطراف، من سلكها لا يخرج عنها.

والديانة والشريعة الإسلامية المؤسسة على برهان العقلي المفصلة في الكتاب والسنة تضمنت العقد الحياتية في جميع العلوم الأساسية .

في تهذيب الروح، علم رياضة القلب، علم تربية الوجدان، فن الحقوق وفن المعاملات، وفن الآداب الاجتماعية، وغيره ...

وحقيقة هذه الشريعة خارجة عن نطاق وطاقة البشر لأنها .. من عند الله " قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً" الإسراء: 88

والفضل ما شهدت به الأعداء: يقول الفيلسوف الأمريكي كارلايل :

[أيمكن تكمّل العالم المدني دائرة الإسلامية؟ نعم! بل المحققون لأن مستفيدون بجهة من تلك الدائرة .. لما طلعت حقائق القرآن الكريم صارت كالنار الجوّالة وابتلعت سائر الأديان، فحقّ له، إذا لا يحصل شيء من سفسطيات النصرى وخرافات اليهود]

فصدّق ذلك الفيلسوف مآل: "فأتوا بسورة من مثله، فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار" (14).

الجهاد بنور القرآن :

الجهاد الإسلامي قائم بنور القرآن، وهو جهاد طلاب رسائل النور، الذين يعملون من أجل بقاء وسعادة أبدية، أما أهل الضلالة فيكافحون في سبيل حياة دنيوية مؤقتة، نحن نجاهد الموت بنور القرآن، أما هم فيجاهدون ويناضلون لحياة منتهية مؤقتة، ولذلك فهي تعادل أصغر مسألة من مسائلنا لأنها متوجهة إلى البقاء والخلود .

لقد أظهرت رسائل النور الحقيقية : إن الموت ليس إلا ستاراً ووسائل لبلوغ أهل الإيمان السعادة الأبدية .

فاعلموا يا أهل الإيمان : أن ضلال الآخرين لا يضر هدايتكم فلا تشغلوا بها وتأملوا في دستور حياتكم (القرآن الكريم) حتى لا تنتهوا في ظلمات الضلال .

شبابية القرآن وفتوته:

يظل القرآن محافظاً على شبابيته وفتوته (لا يخلق مع كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه) حتى كأنه ينزل في كل عصر نصراً فتياً.

لأنه خطاب أزلي يخاطب جميع طبقات البشر في جميع العصور وفي كل الأماكن إن آثار البشر وقوانينه تشيب وتهرم، تتغير وتتبدل، إلا أن أحكام القرآن وقوانينه لها من الثبات والرسوخ تظهر متانتها أكثر كلما مرت العصور.

حتى أهل الكتاب الذين أصمّوا آذانهم عن سماع حكمة القرآن مغترين بأنفسهم يخاطبهم القرآن : [يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم]

آل عمران: 64 بآياته المعجزة الباهرة " قل لئن اجتمعت الإنس والجن ... "

وثبت إعجاز القرآن وظهوره على المدينة الحاضرة بيقين لا يقبل الشك قطعاً. وفيما

يلي مقارنة بين الدستور القرآني الثابت و دساتير الغرب المتبدلة المتهاكمة:

1- تؤمن المدينة الحاضرة بالقوة وتستهدف المنفعة في كل شيء وتتخذ الصراع دستوراً للحياة .

2- تلتزم بالعنصرية والقومية السلبية رابطةً للجماعات. وهذه الدساتير التي تستند إليها تمنح السعادة الظاهرية لكنها تلقى في النهاية بالبشر إلى الشقاء والتعاسة والقلق .
أما حكمة القرآن فهي تقبل الحق نقطة استناد في الحياة الاجتماعية بدلاً من القوة ،وتجعل رضا الله ونيل الفضائل هو الغاية والهدف.

بدلاً من المنفعة وتتخذ دستور التعاون أساساً في الحياة بدلاً من دستور الصراع وتلتزم رابطة الدين والصنف والوطن لربط فئات الجماعات بدلا من العنصرية والقومية السلبية، وتجعل غايتها : الحد من تجاوز النفس الأمانة ودفع الروح إلى معالي الأمور وتطمين مشاعرها السامية لسوق الإنسان نحو الكمال والمثل العليا لجعل الإنسان إنساناً حقاً.

وهكذا غلبت المدنية الحاضرة امام القرآن الحكيم مع ما أخذت من محاسن من الأديان السابقة ولا سيما من القرآن الكريم⁽¹⁵⁾

(أنوار القرآن أمام ظلمات الباطل)

- إن فلسفة البشر المتصدية للقرآن قد سقطت أمام حكمة القرآن السامية.
- إن فلسفة البشر تنظر للعالم على أنها ثابتة أما القرآن فينظر للعالم على أنها عابرة خداعة متقلبة... وهكذا اختلفت النظرتان للعالم والموجودات.

- فالفلسفة السقيمة كثفت الدنيا وزادتها تحمداً وعمقت الغفلة في الإنسان وضاعفت من لوثاتها وشوائبها حتى أنسته الصانع الجليل والآخرة البهيجة.

- أما القرآن الكريم فقد جعل الدنيا كالعن المنفوش وجعلها - مع ذلك - شفافة صافية أزال عنها الشوائب لتنظر إلى بياناتها الرائعة " أو لم ينظروا إلى ملكوت السموات والأرض " الأعراف : 185.

ويذيب تلك الدنيا الجامدة بنظر الغفلة عن الله تعالى بعباراته النورانية اللامعة " وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو " الزمر : 68

القرآن يرينا آيات الله الجليلة في الكون " خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور " الأنعام : 1

ويرينا كرم الرب الرحيم " والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره " الأعراف : 54 ويرينا عظمة الخالق وإحاطة علمه " وسع كرسيه السماوات والأرض " البقرة : 255 ويرينا قربه من عبده " ونحن أقرب إليه من حبل الوريد " ق : 16 (2)

وهكذا يعجز الكفر وأصحابه وأتباعهم من الضالين أمام إعجاز آيات القرآن وحكمته وبيانه.

المبحث الرابع : كيف يكون المسلم سفيراً ناجحاً يعبر عن دينه بحق؟!

في خضم هذا التخريب العظيم الذي يحيط بالعالم تسعى رسائل النور لإصلاح العالم بأسره، لكنها لا تعمر تحريبات جزئية ولا تعمر بيتاً صغيراً مهتماً بل تعمر أيضاً تحريبات عامة كلية وترمم قلعة عظيمة - صخورها كالجبال - تحتضن الإسلام وتحيط به .

لأنها تسعى مداواة القلب العام وضمان الأفكار العامة المكلمة بالوسائل المفسدة التي هيئت لها وركمت منذ ألف سنة مستندة إلى إعجاز القرآن والإيمان .

وتعلم تلامذتها أصول الفلاح في طريق نشر هذا الدين وتثبيت دعائمه في الآفاق لهداية المنحرفين من الغربيين وتثبيت المؤمنين وإبطال محبة المعاندين من الكفرة والمنافقين " كذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء وما يعلم جنود ربك إلا هو " المدثر : 31.

ويعد بلوغ أكثر الرسائل إلى أيادي الناس وتحديدها لأعنى المتكبرين وإظهار أخطاء من هم أعلى مناصب الدولة .. أثراً كبيراً يدل على عظمة تلك الرسائل وعظمة قضيتها في أعين الجميع حتى أعدائها .

أسس النجاح التي يعتمد عليها السفير النوراني :

سفير رسائل النور إلى العالم يعتمد على أسس هامة تمكنه من التعبير عن دينة بحق، ومن أهم هذه الأسس ما يلي :

- الاعتماد على الحقيقة القرآنية :

ينبغي أن يعتمد سفير القرآن بادئ ذي بدء على الحقيقة القرآنية التي يؤمن بها ويجيا من أجلها، حيث تبقى تلك الحقيقة أول مقصد وأسبقه في هذا الزمان وتبقى سائر

الأمر في الدرجة الثانية والثالثة والرابعة، وخدمة تلك الحقيقة هي أجلُّ وظيفة وهي موضع الاهتمام والاهتمام المقصودة بالذات .

إن بعض العلماء الذين هم خارج دائرة رسائل النور بل بعض الأولياء جعلوا الحقائق الإيمانية في الدرجة الثانية والثالثة والرابعة بسبب ارتباطهم بالحياة السياسية والاجتماعية الفاسدة والتي تعد أثراً من آثار ضلال المدينة الحاضرة وسفاهتها، وتجاه هذا الخطر أسقط بيدع الزمان من عينه تلك التيارات السياسية الحاضرة ونصح تلاميذ النور بذلك حيث قال لهم: " إن طلاب رسائل النور الخواص وهم منهمكون بمهمة نشر الحقائق الإيمانية الثمينة ينبغي لهم ألا يورثوا الفتور في وظيفتهم المقدسة.

بمشاهدة لعب الشطرنج للظالمين ولا يعكروا صفو أذهانهم بالنظر إلى لعبهم فالأذواق المعنوية والأنوار الإيمانية التي هي ضمن دائرتنا كافيتان ووافيتان لنا". (16)

إن القرآن هو الحقيقة التي ينبغي إتباعها بشهادة الأعداء قبل الأولياء ... يقول إيرفنج: " كانت التوراة ففي يوم م هي مرشد الإنسان وأساس سلوكه . حتى إذا ظهر المسيح عليه السلام اتبع المسيحيون تعاليم الإنجيل، ثم حلَّ القرآن مكانهما ؛ فقد كان القرآن أكثر شمولاً وتفصيلاً من الكتابين السابقين كما صحح القرآن ما قد أدخل على هذين الكتابين من تغيير وتبديل، حوى القرآن كل شيء وحوى جميع القوانين ؛ إذ أنه خاتم الكتب السماوية ". (17)

العقل والقلب معاً في رسائل النور:

أصبحت رسائل النور في هذا العصر كضرورة الخبز والدواء، بالاستفادة من الإيمان الراسخ وبإثبات الإيمان وتحقيقه وحفظه في القلوب وإنقاذه من الشبهات والأوهام بالدلائل والبراهين الساطعة .. إنها تقول لكل تلميذ من تلامذتها : كن من شئت . وأبصر وأفتح عينيك فحسب وشاهد الحقيقة وأنقذ إيمانك الذي هو مفتاح السعادة الأبدية .

إن رسائل النور تتحرك بخطى اتحاد العقل والقلب معاً وامتزاجهما، وتعاون الروح واللطائف الأخرى، فتحلق إلى أوج العلا وتصل إلى مراقٍ لا يصل إليها نظر الفلسفة

المهاجمة فضلاً عن أقدامها وخطواتها فتبين أنوار الحقائق الإيمانية وتوصلها إلى عيوها المطموسة. (18)

السعي لإنقاذ الأمن والنظام:

على تلاميذ الرسائل وسفرائها أن يكون هدفهم الأول خدمة الإيمان وحقائمه وتأسيس الأمن والاحترام والرحمة وإنقاذ النظام والأمن والحياة الاجتماعية من الفوضى والإرهاب، إن خدمتهم تسعى لإرساء ركائز تلك الوظيفة الحقيقية وتقويتها وتأييدها .

لهذا ينبغي عليهم السعي للتخفيف من مصيبة الجوع - مثلاً - يجعلها وسيلة الالتجاء إلى الله والندم على الذنوب والتسليم لأمر الله، والحيلولة دون فتح السبيل أمام التسول والسرقه والفوضى بحجة الضرورة، والسعي لدفع الزكاة إلى أولئك الفقراء الجائعين الذين لا يرأف بحالهم قسم من الأغنياء وبعض أهل المراتب، فيستفيد المبتلون من الاسترشاد برسائل النور والافتداء بتلامذتها، حيث يتعلمون أن تحم المصيبة من طغيان نفوسهم وتحول بينهم وبين نزواتها وأذواقها الدنيئة فيدخلوا حظيرة الطاعة والخيرات وينسحبوا - لحد ما - من الذنوب والفحش، كما يستفيد الأغنياء من رؤية تلك المصيبة (الجوع) في الفقراء، فيتعظوا ويحمدوا الله رازقهم ويشكروه بمساعدة الفقراء بعد ما أطغوا نفوسهم بالأطعمة اللذيذة فأفقدوها وعيها وساقوها إلى الطغيان والهوى الدنيء.

أما أهل العبادة والصلاح فينظرون إلى هذا البلاء النازل بهم كرياضة شرعية في هذا الوقت الذي أصبح أغلب الناس جوعاً واختلط المال الحرام بالحلال اختلاطاً شديداً حتى استحال تمييزاً أحده عن الآخر وأصبح بمثابة الأموال المشبوهة فيقع بمقدار الضرورة من الإعاشة العامة - التي يشترك فيها الجميع ضمناً - ليكون حالاً، فيقابل القدر الإلهي بالرضا بدلاً من الشكوى. (19)

التمسك بتعاليم رسائل النور :

إن رسائل النور في هذا الوقت بالذات : عروة وثقى وسلسلة قوية لا تنقطع وهي جبل الله فمن استمسك به فقد نجا ... وهي برهان باهر للقرآن الكريم وتفسير قيم له، وهي لمعة براءة من لمعات إعجازه المعنوي وترجمة معنوية نابعة من فيوضاته .. وليست رسائل النور كالمؤلفات الأخرى التي تستسقى معلومتها من مصادر متعددة من العلوم

والفنون فلا مصدر لها سوى القرآن .. ولن يدفع اعتراضات الملحدن التي تنهياً منذ ألف سنة للنيل من القرآن بعد أن قلَّ عدد المدافعين عنه إلا تعلم الحقائق الإيمانية التي توضحها وتبرزها رسائل النور بأسلوب يفهمه كل الناس في أقصر وقت .

إن أهل الضلالة المغيرين على أهل الإيمان أصبحوا روحاً خبيثة تسرى في الأمة وتفسد وجدان الناس في العالم الإسلامي وتحرق المشاعر التي تديم الحياة الإيمانية المتوارثة أباً عن جد .

وسبب الاهتمام الذي نالته رسائل النور نابع من أهمية الزمان نفسه ومن شدة الهدم الذي أحدثه هذا العصر في الشريعة المحمدية والشعائر الأحمدية ..

ومن فتنة آخر الزمان الحالية التي استعادت منها الأمة الإسلامية منذ القدم .. ومن زاوية إنقاذ إيمان المؤمنين من صولة تلك الفتن .

فلأجل تلك الأسباب كلها حازت رسائل النور أهمية عظيمة حتى أشار إليها القرآن الكريم إشارة قوية وبشّر بها الإمام على رضى الله عنه بثلاث كرامات وأخبر عنها الشيخ الكيلاني أخباراً ذا كرامة، وحضّ مؤلفها.

وبهذا أصبح كل طالب نور وفيّ صادق يحمل في قلبه الإيمان وذلك لخدماته الإيمانية ف القرية أو القصبة أو المدينة التي فيها⁽²⁰⁾.

لا تجعل من الدين وسيلة لمكاسب دنيوية :

لأن الإخلاص هو أساس مسلك تلميذ النور، اجتنب التيارات والاهتمامات السياسية الجارية ؛ لأن من يحمل أفكاراً موالية إلى جهة معينة يحاول أن يجعل كل شيء أداة طبيعية لمسلكه، بل يجعل حتى دينة وأعماله الأخروية وسائل لذلك المسلك الدنيوي ... بينها الحقائق الإيمانية والخدمة النورية المقدسة تأتي أن تكون وسيلة لأي شيء كان في الكون ول يمكن أن تكون لها غاية إلا رضا الله سبحانه ومن الصعوبة الحفاظ على سر الإخلاص في خضم الصراعات المتنافرة للتيارات الحالية، ومن العسير الحيلولة دون جعل الدين وسيلة لمكاسب دنيوية، لذا، فأفضل علاج لهذا هو الاستناد إلى العناية الإلهية وتفويض الأمر إلى توفيق رب العالمين بدلاً من الاستناد إلى قوة التيارات الحالية .

كما أن الشفقة على الخلق، أي عدم ظلمهم وإضرارهم لتحقيق أهدافنا هو السبب الآخر للبعد عن تلك التيارات التي لا ينجو الأبرياء من وسائل أصحابها الظالمة، فوضع العرف الجاري عند هؤلاء يقتضي التضحية بقرية كاملة في سبيل الحصول على مجرم واحد وهذا مخالف لقولة تعالى: " ولا تزر وازرة وزر أخرى " فاطر : 18 فهو يقحم مئة من الأبرياء في بلايا وأضرار بسبب بضع مجرمين.

" إن أهل الضلالة يكافحون في سبيل حياة دنيوية مؤقتة، أما نحن فنجاهد الموت بنور القرآن إننا متوجهون إلى البقاء والخلود "(21)

النساء في طريق النور

دستور الاشتراك في الأعمال الأخروية هو الدستور الأساس الذي يجب أن ينتهجه سفير رسائل النور .. فالنساء شقائق الرجال كما أنهن معدن الشفقة التي هي أساس رسائل النور، فالسيدات في رسائل النور يعملن عملاً جاداً وبشوق وفعالية أكثر من الرجال، فأظهرن أنهن حقاً أخوات مباركات، وهذا فأل حسن في أن رسائل النور ستسطع وتنور وتفتح قلوب أولئك السيدات معادن الشفقة . (22)

المبحث الخامس : كيف نصل للحوار المثالي مع الغرب؟

دعوة الإسلام هي دعوة الخير والنور لكل الكائنات .. لكل البشرية ؛ ولهذا نزل القرآن هداية ورحمة لكل البشر فمن أبي أن يهتدي فهو الذي ينأى عن منبع النور " قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأن مسلمون " آل عمران 64

ومبادئ الإسلام فيها مفاتيح السعادة لكل البشرية لأنها من أنوار رب خالق حكيم عليم.. ورسول الإسلام محمد صلى الله عليه وسلم رسول خاتم الأنبياء ورحمة لكل العالمين .. " وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين "

كلنا نؤمن بإله واحد:

نؤمن جميعاً مسلمين ونصارى بإله واحد، جميع الموجودات ملك له، ذلك الإله الرحيم الذي يربى خلقه بالرحمة والشفقة، فكل اسم وكل فعل وكل أثر، برهان وحدانية

وختم توحيد وخاتم أحدية بحيث يدل على أن الكلمات التي هي موجودات المسطورة في مصاحف الكون وفي سطور العصور إنما هي كتابة قلم نقاشه ومصوره جلا وعلا. (23)

ونؤمن جميعاً بنفس الأنبياء، نؤمن بهم جميعاً بلا تفریق، فمن لم يؤمن منكم يا أهل الكتاب بنبينا فليعلم أن ربنا الواحد الأحد يقول عنه " هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله " الفتح: 28 وهو صاحب أسمى أخلاق وأفضل استعداد استبان أعداؤه الصدق في وجهة وعرفوا سيماءه في كتبهم السماوية وجميع أحواله صلى الله عليه وسلم وليل على صدقه وشاهد على بنوته أرسله الله مرشداً للناس كافة ليحقق لهم سعادة الدنيا والآخرة وليبين لهم خوارق الصنعة الربانية وتصرف القدرة الإلهية وقد أیده الله بالمعجزات الخارقة الخارجة عن طور البشر وقد آمن به أجناس مختلفة من الناس بمعجزة منه صلى الله عليه وسلم أو بكلام منه أو بالنظر إلى طلعتة البهية وآمن به أئوف العلماء المدققين والمفكرين المحققين بما نقل إليهم من صدق أخباره وجميل آثاره نقلاً صحيحاً متواتراً.

ومنهم من شهد بصدق بنوته و إن لم يؤمن به فقد بشرت لمقدمة الكتب السماوية والسابقة للقرآن ... كهر قل ملك الروم إذ يقول: " إن عيسى عليه السلام قد بشر محمد صلى الله عليه وسلم " وقال عنه رؤساء اليهود: " نعم .. إن أوصافه موجودة في كتبنا ومذكورة فيها " بل إن كثيراً منهم آمن واتبع النبي الأمي والنور الذي أنزل معه ومنهم:

عبد الله بن سلام و وهب به منبه وأبو ياسر وابن ياسين وكعب الأحبار وبحيراء الراهب ونسطور الحبشه والنجاشي ملكها وأساقفة بجران ... كلهم يقولون: آمنا لما رأينا أوصافه صلى الله عليه وسلم في كتبنا⁽²⁴⁾

الإسلام دين لكل العالمين:

• الإسلام دين جعله الله خاتماً لكل الرسالات والأديان وجعل كتابة القرآن الكريم رسالة خالدة باقية للعالمين، للإنس والجن، لكل العصور، يثبت النبو الأحمدية والوحدانية الإلهية يقيم الحجج ويسوق البراهين ويبرز الأدلة، ترجمة أزلية لهذه الكائنات

ومفسر لكتاب العالم وضيء الإنسانية الكبرى وحكمة حقيقية لنوع البشر ومرشد مهدي لما خلق البشر له، كتاب واحد يجمع كتباً كثيرة في مقابلة جميع حاجاته الإنسانية المعنوية. (25)

ديننا دين الرحمة والشفقة ورسولنا رحمة العالمين :

ديننا دين الرحمة والعطف والشفقة " ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميد " فصلت : 34 فالعداء مرفوض في الإسلام الذي يمثل روح الإنسانية الكبرى والعداء كذلك ظلم شنيع يفسد حياة البشر الشخصية والاجتماعية والمعنوية بل هو سم زعاف لحياة البشرية قاطبة ... ورسولنا الكريم لى الله عليه وسلم رحمة للعالمين يقول لمن هم على دين النصرانية في كتابة : " هذا كتاب محمد بن عبد الله بشيرا وتديرا وأمين الخلق أجمعين وديعة الله في خلقة، كى لا تكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيماً، كتب لمن هم على دينة عهد لأولئك القوم الذين هم على دين النصرانية من مشارق الأرض إلى مغاربها، وبعيدهم وقريبهم، عربهم وعجميهم، معلومهم ومجهولهم إنني أذب بنفسي والموالى وأنصاري وشعبي هم و أموالهم و أثوابهم إذا إنهم من رعييتي وأهل ذمتي وأدفع كل ما يكدرهم من تلك الأثقال التي نعطيها لأهل العهد فلا يعطون إلا ما طابت نفوسهم من الأشياء خراجاً " ويقول صلى الله عليه وسلم : " من ظلم معاهداً أو انتقضه حقاً أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفسي منه فأنا حجيجه يوم القيامة " رواه ابو داوود والبيهقى .

• دين الأخلاق الفاضلة :

ديننا دين سام رفيع يدعو لكل ما هو عظيم، ورسائل النور - باعتبارها موضحة للأنوار القرآن والإسلام يؤكد أن الإخلاص الإسلامية هي أساس الفلاح والسعادة في الدارين... حيث أن هناك خمس أسس ضرورية لإنقاذ هذه الأمة في حياتها الاجتماعية والسياسية ونجاتها من الفوضى والإرهاب ومن المخاطر العظيمة :

الأولى : الرحمة، والثاني : الاحترام، الثالث : الأمن والثقة، الرابع : اجتناب المحرمات والتميز بين الحرام والحلال، الخامس : الطاعة وترك التسبب

إذا : فمن يتعرض لرسائل النور إنما يعادى الوطن والأمة والنظام ويقودهم إلى سبيل
الفوضى والإرهاب . (26)

• دين الإنسانية جمعاء :

أصبح الإنسان في حكم الله خليفة الأرض ونتيجة الكون وسلطان الأحياء، لذا
فإن أجل خميرة لتنوع النوع البشرى وأهم نابض محرك له هو : التسابق لإحراز الفضيلة
المتسمة بالإيمان الحقيقي فلا يمكن رفع الفضيلة إلا بتبديل الماهية البشرية وإخماد العقل
وقتل القلب وإفناء الروح .

نعم ! إن الفضيلة المتسمة بالإيمان - بعيداً عن الإكراه والتسلط - هي القدرة على
إسعاد البشرية .

فلولا الدين الإسلامي الذي يرسى في النفس الوجدانية - ومنها تنبثق كل المقاصد
السامية - لما استقام الإنسان، فتلك الوجدانية هي البلسم الشافي في تطمين الرغبات في
الإنسان ولولاها لتلاشت أكثر الكالات الموجودة الثابتة وانعدمت .

لذلك نرى القرآن الكريم يذكر التوحيد والوجدانية بكل حرارة وشوق ويكررها
بكل حلاوة وذوق، ونرى الأنبياء عليهم السلام والأصفياء والأولياء الصالحين يجدون
بغيتهم وذوقهم السامي بل منتهى سعادتهم في أفضل ما قالوه : " لا اله إلا الله "

• الإيمان بالحساب واليوم والآخر ضرورة :

يثبت القرآن في آيات كثيرة حدوث الحشر والبعث والجزاء واليوم الآخر بما فيه، " يا
أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شئ عظيم " الحج : 1

"إذا السماء انشقت " الانشقاق : 1

"إذا زلزلت الأرض زلزالها " الزلزلة : 1

كما أن الصحف السماوية والكتب المقدسة جميعها صدقت بآلاف من الدلائل
دعوى القرآن في حقيقة الحشر.

فما دام الله موجودا واحدا أزليا له السلطان المطلق، وما دام الإحسان والإنعام
واللطف والكرم والعناية والرحمة منه مشاهد لا تنقطع، وما دام القدرة واضحة جليا

أمام أعيننا، وما دامت هذه الأرض ذات أهمية عظيمة من حيث احتوائها على كثرة المخلوقات حتى صارت قلب الكون وذكُرت دائماً صنواً السماوات "

وما دام إن ابن آدم يحكم في شتى جهات هذه الأرض ويتصرف ويسخر له الأحياء ويجعل أكثر المصنوعات تحوم حوله وفق تصرفه وهواه لأنه خليفة الأرض يعرض الصناعات البديعة للخالق سبحانه.... فقد أجل عذاب عصيانه وكفره وسمح له بالعيش في الدنيا ليقوم بهذه المهمة بنجاح... إن كل الكون بما فيه يدعو للبعث ويريده حتى تتحقق كمالات الواحد الأحد وتُصان من السقوط وتسود عدالته المطلقة وتنجو من الظلم وتنزه حكمته العامة وتبرأ من العيب والسفاهة وتأخذ رحمته الواسعة مداها وتتقذ من التعذيب المشين وتتقدس كل صفة من صفاته سبحانه وتتجلى منزهة جليلة . إذا : فما دام الله موجوداً فإن الآخرة لا ريب فيها.⁽²⁷⁾

• العدل غاية الإنسانية :

الفناء والزوال والموت لا تنافي الرحمة العامة والحسن المحيط والخير الشامل بل هي من مقتضيات هذه الأمور... فكما أن كل أنواع البر والحسن والنعم أتية مباشرة من خزينة رحمة ذلك الجميل المطلق والرحيم المطلق... فهو الفاعل المختار وكل شئ وثيق الصلة بمشيئته تعالى وقوانينه العامة تابعة دائماً لإرادته واختياره، وهو الرب الرحيم الذي يسمع نداء الذين يعانون فيمدهم بمدده..⁽²⁸⁾

فالعدل هو الذي يقيم موازين الكون بعيداً عن أي مؤثرات فهو الغالب فوق كل شيء المنزه عن كل ما لا يليق بجلا له، أما الميول فيحكمها الهوى والقوة والطبائع والأحاسيس وترجع المنفعة الخاصة والرغبات الإنسانية اللاهوائية... هو المهيم حيث الحق والبرهان والعدل ولهذا فإن من مصلحة الإنسانية أن ترجع للحقيقة الإسلامية التي هي تجلّي العدالة الأزلية في العالم⁽²⁹⁾

التوازن بين المادة والروح :

الحياة خلاصة مترشحة من هذا الكون، والشعور والحس مترشحات من الحياة فهما خلاصتها، والعقل مترشح من الشعور والحس، فهو خلاصة الشعور، والروح هي الجوهر الخالص الصافي للحياة فهي ذاتها الثابتة المستقلة، كذلك الحياة المحمدية — المادية والمعنوية

— مترشحة من الحياة من روح الكون فهي خلاصة زبدتها ومترشحة من حس الكون وشعوره وعقله فهي أصفى خلاصته، فإذا ما النور المحمدي الكون (وبالتالي إذا ابتعد الإنسان عن النور المحمدي) فإنه يجن ويفقد صوابه ويفقد التوازن الضروري بين المادة والروح⁽³⁰⁾.

لهذا ضل السوفسطائيون حين عافوا الفضل وسقطوا إلى درك الحيوانات وذلك حين أنكروا حتى وجودهم، كما ضل أهل الأسباب وقالوا: "لا يستحدث شيء القدم" فأنكروا وجود الخالق العظيم وتولوا أن الخلق كله حدث في أطوار من المصادفات.

أما أهل الحقيقة فهو متوازنون..... آمنوا بالخالق المبدع والتقدير المطلق الذي يبدع كل شيء من العدم ويبي ويصنع ويتقن قسما من الموجودات من عناصر الكون نفسه إظهاراً لكمال حكمته وتبيناً لتجليات أسمائه الحسنى⁽³¹⁾. ودقائق صنع الخالق، فديننا دين العلم والعقل والعمل البناء والتفكير الهادف.

وحذا السعي للعلم سبيل لتجلى تجليات اسم "الحكيم" في قلب الإنسان ومشاعره، إن هناك نظاماً بديعاً صارماً هو الذي يهيمن على كل شيء في الكون ويرعاه ويراقبه مراقبة دقيقة، وهذا الانتظام بأنواعه البديعة التي لا تعد رد شاف على أولئك السوفسطائيين وأولئك الطبيعيين.

الخاتمة :

سرت في خضم رسائل النور مسافة زادتني إيمانا بأنوارها وكمالها المنبتقة من روح الإسلام وشفافيته وكماله، ولعلني وفيت بالهدف من هذا البحث "العالم الإسلامي والغرب والحاجة إلى الحوار والفهم المتبادل" وهو تقريب المسافة بين العالم الإسلامي والغرب من خلال المباحث الخمسة :

- 1- مبادئ الإسلام البناء من وحي رسائل النور .
- 2- شقاء الغرب بانحرافه عن أنوار القرآن الكريم .
- 3- مقارنة دساتير الغرب بدستور القرآن الكريم .
- 4- كيف يكون المسلم سفيرا ناجحا يعبر عن دينه بحق؟
- 5- كيف نصل للحوار المثالي مع الغرب ؟

وقد اعتمدت على آراء بديع الزمان ونظراته الخاصة لهذا الموضوع، تلك النظرة المتعمقة المبصرة بعيدة الرؤية حتى عد علمنا - بحق - سابقا لعصره شاهدا عليه .

وقد خرجت من هذه الصفحات ببعض النتائج منها :

1- الإسلام سيقود البشرية حتماً إلى الرقى المادي والمعنوي بعيداً عن ضلالة الغرب الحلية.

2- عاقبة الكفر وخيمة وليس التقدم المادي بقادر على تخليص أصحابه من آفات الكفر وعواقبه الدنيوية والأخروية.

3- تجهيز المسلم بأنوار الرسائل ضرورة من الضرورات التي تؤهل لنشر دعوة الإسلام.

4- الحوار السلمي الهادف بيننا وبين الغرب بداية التواصل السلمي المنشود فنحن جميعاً نهدف لسعادته الدارين، والإسلام هو الحل الحتمي الوحيد.

وكما أوصى ببعض التوصيات :

1- الحوار الهادف البناء هو الحل لكثير من مشكلاتنا مع الغرب وليس العنف ولا الدماء فلنجعل الحوار المتواصل أساساً لعلاقتنا من أجل إحياء حماسة السلام من جديد .

2- العلم بأصول وأسس الدعوة الصحيحة للإسلام وهو سر النجاح في هذه الدعوة، "أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن "

3- علينا بالتكافل والترابط والتلازم والمحبة في الله فبالاتفاف والتعاون نصل إلى أهدافنا أما الشقاق فهو الوسيلة لتوسيع الخلافات وتمكن الشيطان.

4- التمسك بالعقيدة السليمة وبالتوحيد الصحيح أول خطوة في طريق بناء إنسان سوي يصلح للخلافة وهذا هو المقوم الأول من مقومات بناء المجتمع الذي أسسه النبي صلى الله عليه وسلم.

5- الآداب الأخلاقية والسلوكية والشورى بين أفراد المجتمع الإسلامي في صورة مشرفة للعالم الإسلامي ((والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم))

الشورى:38

6- معرفة الأصول الإسلامية التي يُعاملُ بها "أهل الكتاب واجب على كل مسلم حتى يكون دعوة مباشرة لدينه فقد جعل ديننا التسامح وحسن الخلق أساس التعامل معهم وصور ذلك في التاريخ الإسلامي كثيرة يؤيد بعضها بعضا.

7- العلم سلاح العصر وأعمال العقل يؤدي إلى زيادة الإيمان ويفتح آفاق النصر والبناء.

وأخيرا نقول لكل كتابي في الغرب المعاصر:

حوارنا معكم قائم على هدي من قول الحق وعلا:

(ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم، وقولوا آمنا بالذي أنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون) العنكبوت:46
وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

الهوامش

- (1) مقولة للمفكر الاجتماعي ألان توران في كتابة "تقد الحداثة" دار فايار سنة 1989 م
- (2) الخطبة الشامية من صيقل الإسلام ص 499 ترجمة إحسان قاسم الصالحي ، دار سوزلر للنشر ط الثانية / مصر
- (3) السابق : ص 498 وما بعدها.
- (4) صيقل الإسلام : 532
- (5) المكتوبات: 413: بيدع الزمان سعيد النورس دار سوزلر ط الثانية مصر وما بعدها
- (6) المكتوبات من كليات رسائل النور: سعيد النورس: 342، 343، سوزلر للنشر ط الثانية مصر.
- (7) صيقل الإسلام : 52 وما بعدها
- (8) للمعات من كليات رسائل النور : 523 - 525 سعيد النورسي ، سوزلر للنشر ط الثانية مصر.
- (9) للمعات: 176 - 185 يتصرف
- (10) إشارات الإعجاز : سعيد النورسي 77، 87 دار سوزلر ط الثانية مصر
- (11) حقائق الإيمان : 53 ترجمة إحسان قاسم الصالحي : دار سوزلر
- (12) وجهة العالم الإسلامي : مالك بن بنى : م3 - دار الفكر
- (13) إشارات الإعجاز : 32
- (14) إشارات الإعجاز : 172 ، 173
- (15) الكلمات: 471 وما بعدها
- (2) الكلمات : 509 وما بعدها

- (16) الملاحق : 150،149
- (17) حياة محمد : 72 من إشارات الإعجاز : 250
- (18) الملاحق : 105
- (19) الملاحق : 160 -162 بتصرف.
- (20) الملاحق : 224 - 220 بتصرف.
- (21) الملاحق : 243 -247 بتصرف.
- (22) الملاحق : 139،138
- (23) المكتوبات: 430
- (24) المكتوبات: 221
- (25) السابق: 267 بتصرف
- (26) الملاحق : 213 ملحق قسطنونى.
- (27) الشعاعات: الشعاع التاسع: 234 وما بعدها بتصرف.
- (28) الشعاعات: 38
- (29) صيقل الإسلام : 50، 51 بتصرف
- (30) اللمعات : 567، 568
- (31) اللمعات: 296، 297 بتصرف